مركز البحوث الإسلامية
إستانبول

إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم

تفسير أبي السعود

شيخ الإسلام أبو السعود بن محمد العمادي
(ت. ٩٨٢هـ/١٥٧٤م)

ينشر لأول مرة عن نسخة المؤلف مع منهواته (تعليقاته) بخط يده

تحقيق

أ. م. محمد طه بويالق — أحمد أيتب

أ. م. ضياء الدين القالش — محمد عماد النابلسي

إشراف ومراجعة

أ. م. محمد طه بويالق

المجلد السادس

نشريات وقف الديانة التركي

بسم الله الرحمن الرحيم

إرشاد العقل السليم
إلى مزايا الكتاب الكريم

مشروع العصور المتأخرة من الحضارة الإسلامية

تمّ إدراج "مشروع العصور المتأخرة من الحضارة الإسلامية" كمشروع إطاري يضم في طياته عدة مشاريع فرعية في جدول الأعمال من قِبَل مركز البحوث الإسلامية (إسام/İSAM) بهدف إخضاع التراكم الفكري فيما بين القرنين الهجريين السابع والثالث عشر (١٣-١٩م) -الذي يمكن أن يطلق عليه اسم "العصور المتأخرة من الحضارة الإسلامية"- لدراسة علمية كما يليق به، واستخراجِ ما حملته هذه الفترة من أبعاد علمية وفكرية لما يقارب سبعة قرون. وفي تصور كتابة التاريخ المعاصرة قد سُعي إلى كتابة تاريخ الحضارة الإسلامية على أساس فرضية أن تطور الحضارة الإسلامية بصفة عامة والفكر الإسلامي وعلومه بصفة خاصة قد تعرض للانقطاع بعد الغزو المغولي. فإن وجهة النظر هذه التي تشكلت في الغرب في القرن التاسع عشر، وانتشرت بين المسلمين أثناء فترة الاستعمار هي التي جعلت أحكامنا المتعلقة بالتاريخ الإسلامي ناقصة، مما حال بيننا وبين أن نتناول تاريخ الإسلام بفكره وفنونه ومؤسساته وشخصياته الرائدة وأدبه وأحداثه في وحدة متماسكة.

ولا تسلّط الدراسات في هذا المجال الضوء على فترة من فترات التاريخ الإسلامي فحسب؛ بل ستجلي أيضا حقبة مهمة من حقب التاريخ البشري. وإن هذا المشروع سيكون وسيلة لبعثِ المسائل العلمية المناقشة في العصور المتأخرة من الحضارة الإسلامية من جديد، وإلحاقِها بقضايا العالم العلمي والفكري، وبالتالي سيستفاد إلى أقصى حد من التراث العريق في بناء عهد جديد واستدراك المسائل الراهنة وتحليلها وانتقادها ومناقشتها.

وفي إطار الأعمال العلمية المتعلقة بهذه الفترة سيفسح هذا المشروع المجال لعقد دراسات عن العلوم الإسلامية والفكر الإسلامي وتاريخ العلوم الإسلامية التجريبية، وكذلك العلوم البشرية وميادين الفنون في الحضارة الإسلامية إلى جانب الدراسات المقارنة بين الإسلام وسائر الحضارات الأخرى. وستركّز المشاريع المرتقبة على أراضي الدولة العثمانية وجنوب الصحراء الكبرى، وكذلك على شبه القارة الهندية منذ سلطنة دلهي، بالإضافة إلى آسيا الوسطى وإيران بعد الغزو المغولي. هذا، ويتوقع إصدار منشورات في إطار المشروع مثل الفهرسة والتأليف والتحقيق والترجمة.

المنهج الفكري عند ابن تيمية ونقده للمتكلمين (بالتركية)، مَحمَد سعيد أوزَروارلي، ٢٠٠٨؛ ٢٠١٧.
دراسة فتح الباري وعمدة القاري من جهة تحليل المتن(بالتركية)، ياووز كُوكْطاش، ٢٠٠٩؛ ٢٠٢٠.
الوزارة في العهد المملوكي (بالتركية)، فاتح يحيى آياز، ٢٠٠٩؛ ٢٠١٧.
التاريخ الإداري والاقتصادي للعثمانيين (بالتركية)، خليل إينالجيق، ٢٠١١؛ ٢٠١٨.
مدرسة فخر الدين الرازي في أصول الفقه (بالتركية)، طونجاي باش أوغلو، ٢٠١١؛ ٢٠١٤.
عبد القادر الجيلاني والقادرية، (بالتركية)، عدالت چاقر، ٢٠١٢؛ ٢٠٢١.
فخر الدين الرازي في عهد التحول للفكر الإسلامي (بالتركية)، عثمان دمير - عمر تورك أر (تحرير)، ٢٠١٣.
الكفاية في الهداية، نور الدين الصابوني، تحقيق: محمد آروتشي، ٢٠١٣؛ (نشر مشترك إسام/رئاسة الشؤون الدينية) ٢٠١٩.
المنتقى من عصمة الأنبياء، نور الدين الصابوني، تحقيق: محمد بولوط، ٢٠١٣؛ (نشر مشترك إسام/رئاسة الشؤون الدينية) ٢٠١٩.
الطرق الصوفية في تركيا: تاريخ وثقافة (بالتركية)، سميح جيحان (تحرير)، ٢٠١٥.
مرشد الشيوخ الثلاثة: الخلوتية وفرع الرمضانية وكوستندلي علي علاء الدين أفندي (بالتركية)، سميح جيحان، ٢٠١٥
تراث الحواشي في التفسير وحاشية شيخ زاده على أنوار التنزيل (بالتركية)، شكري معدن، ٢٠١٥
فهرس الوقفيات لسجلات محاكم إستانبول الشرعية (بالتركية)، إعداد: ب. آيدين، إ. يورداقول، آ. ايشيق، إ. قورت، أ. ييلديز، ٢٠١٥.
كتاب القواعد الكلّيّة في جملة من الفنون العلميّة، محمد الإصفهاني، تحقيق: منصور كوشينكاغ - بلال تاشقين، ٢٠١٧.
عضد الدين الإيجي في التراث العلمي والفكري الإسلامي (بالتركية)، أشرف آلطاش (تحرير)، ٢٠١٧.
القاضي البيضاوي في التراث العلمي والفكري الإسلامي (بالتركية)، مستقيم آريجي (تحرير)، ٢٠١٧.
العلاقة بين النحو وأصول الفقه (بالتركية)، عثمان كومان، ٢٠١٧.
سلامة الإنسان في محافظة اللسان، ميرزا زاده محمد سالم، تحقيق: مراد صولا، ٢٠١٨.
معاني الأسماء الإلهيّة، التلمساني، تحقيق: أورخان موسى خان‌أوو، ٢٠١٨.
شرح الفاتحة وبعضِ سورة البقرة، التلمساني، تحقيق: أورخان موسى خان‌أوو، ٢٠١٨.
دليل تحقيق النصوص لمركز البحوث الإسلامية (إسام) (بالتركية)، إعداد: أوقان قدير يلماز، ٢٠١٨.
شيخ بدر الدين: فقيه عثماني (بالتركية)، مصطفى بولند داداش، ٢٠١٨.
رسالة في أدب المفتي، محمد فقهي العيني، تحقيق: عثمان شاهين، ٢٠١٨.
كتاب تقريب الغريب، قاسم بن قطلوبغا، تحقيق: عثمان كسكين‌أر، ٢٠١٨.
كشف الأسرار وهتك الأستار، يوسف بن هلال الصفدي، تحقيق: بهاء الدين دارما، ١-٥، ٢٠١٩.
تراث الكشاف: أثر الكشاف للزمخشري في تراث التفسير (بالتركية) مَحمَد طه بُويالِق، ٢٠١٩.
التسهيل شرح لطائف الإشارات، الشيخ بدر الدين، تحقيق: مصطفى بُولَنْدْ دَادَاشْ، ١-٣، ٢٠١٩.
جامع الأصول، ركن الدين السمرقندي، تحقيق: عصمت غريب الله شِمْشَك، ١-٢، ٢٠٢٠.
تسديد القواعد في شرح تجريد العقائد - حاشية التجريد - منهوات الجرجاني والحواشي الأخرى، محمود الإصفهاني - الجرجاني، تحقيق: أ. آلطاش، م. علي قُوجَا، ص. كونْ آيْدِن، م. يتيم، ١-٣، ٢٠٢٠؛ ١-٢، ٢٠٢١.
لبّ الأصول، ابن نجيم، تحقيق: محمد فال السيد الشنقيطي، ٢٠٢٠.
التسديد في شرح التمهيد، السغناقي، تحقيق: علي طارق زياد يلماز، ١-٢، ٢٠٢٠.
نظام الحقوق العثماني: أساس الدولة العلية، مَحمَد عاكف آيدن (بالتركية)، ٢٠٢٠.
نظرية الجسم في الفلسفة الإسلامية: تراث حكمة العين، مَحمَد سامي باغا (بالتركية)، ٢٠٢٠.
تراث الشروح والحواشي في كتابة السير: مُغْلَطاي بن قليج نموذجًا، كُولْلُو ييلديز (بالتركية)، ٢٠٢٠.
علي القوشجي مفسّرًا، مَحمَد جِيجَك (بالتركية)، ٢٠٢١.
حاشية علي القوشجي على شرح الكشاف للتفتازاني، علي القوشجي علاء الدين علي بن محمد السمرقندي، تحقيق: مَحمَد جِيجَك، ٢٠٢١.
شرح عقود رسم المفتي، ابن عابدين محمد أمين بن عمر بن عبد العزيز الحسيني الدمشقي، تحقيق: شَنُول صَيْلان، ٢٠٢١.
إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، شيخ الإسلام أبو السعود بن محمد العمادي، تحقيق: محمد طه بويالق، أحمد أيتب، ضياء الدين القالش، محمد عماد النابلسي، ١-٩، ٢٠٢١.

مركز البحوث الإسلامية
إستانبول
سِلْسِلَةُ عيُونِ التُّرَاثِ الإسْلَامِيِّ

إرْشَادُ العَقْلِ السَّلِيمِ إلى مَزَايَا الكِتَابِ الكَرِيمِ

تَفْسِيرُ أبي السُّعُودِ

شَيخُ الإسْلَامِ أبو السُّعُودِ بن محمد العِمَادِي
(ت. ٩٨٢هـ / ١٥٧٤م)

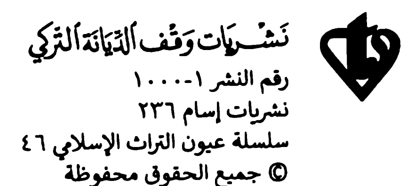
يُنْشَرُ لأوَّلِ مَرَّةٍ عَنْ نُسْخَةِ المُؤَلِّفِ مَعَ مَنْهُوَاتِهِ (تَعْلِيقَاتِهِ) بِخَطِّ يَدِهِ

تحقيق
أ. م. مُحَمَّد طه بُويَالِق — أحمد أيتب
أ. م. ضِيَاءُ الدِّين القَالِش — مُحَمَّد عِمَاد النَّابلسي

إشراف ومراجعة
أ. م. مُحَمَّد طه بُويَالِق

المجلد السادس

نَشْرِيَات وَقْف الدِّيَانَة التُّرْكِي



رقم النشر ١-١٠٠٠
نشريات إسام ٢٣٦
سلسلة عيون التراث الإسلامي ٤٦

إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم
شيخ الإسلام أبو السعود بن محمد العمادي

المجلد السادس

تحقيق محمد طه بُوتَالِقْ - أحمد أَيْنَبْ [المقدمة - البقرة ٩٨؛ النساء - التوبة]
ضياء الدين القَالِش [البقرة ٩٩ - آل عمران ٣٢؛ يونس - هود؛ الحجر - طه؛ الذاريات - الناس]
محمد عماد النابلسي [آل عمران ٣٣-٢٠٠؛ يوسف - إبراهيم؛ الأنبياء - ق]

تم إعداد كتاب إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم
بإشراف اللجنة العلمية للتحقيق
بـ مركز البحوث الإسلامية (İSAM) التابع لوقف الديانة التركي.
İcadiye - Bağlarbaşı Cad. 38 Üsküdar/İstanbul
الهاتف: 50 08 474 216 90+ www.isam.org.tr yayin@isam.org.tr

إدارة النشر محمد سُعَادْ مَرْتْ أوغلو
إشراف الطبع أَرْدَالْ جَساز
تحرير قسم التحقيق أوقَانْ قَدير يِلْمازْ
التدقيق النهائي لقسم الدراسة (التركي) مصطفى دَمِيرْآيْ
تنقيح الأسلوب والصياغة لقسم الدراسة (التركي) مَتِين قَرَه بَاشْ أوغلو
الترجمة (العربي) مروة داغستاني بازْسِيكْ
التصحيح (العربي) سعيد قاياجي، منذر شيخ حسن، محمد شاهين
(التركي) عيسى قايا أَلْبْ، عبد القادر شَنَلْ، عنايت بَبَكْ
التصميم علي حيدر أُولُوصُويْ، إبراهيم درويش مؤذن (تطبيق)،
حسن حسين جَانْ (غلاف)، رمزي حاج مصطفى (خط الغلاف)
سكرتير النشر منذر شيخ حسن، سماء دُوغانْ

تم إعداد هذا الكتاب
من قبل مركز البحوث الإسلامية (إسام / İSAM)
في إطار مشروع العصور المتأخرة من الحضارة الإسلامية.
منسق المشروع طُونْجَايْ بَاشْ أوغلو

تم طبع هذا الكتاب بقرار مجلس إدارة إسام
بتاريخ ٠١/٠٦/٢٠٢٠ ورقم ٠٥/٢٠٢٠.

الطبعة الأولى: أنقرة، يوليو ٢٠٢١م / ١٤٤٢هـ
ISBN 978-625-7581-31-8 (مجموعة)
978-625-7581-37-0 (المجلد السادس)

الطباعة والنشر والتوزيع


TDV Yayın Matbaacılık ve Tic. İşl.
Ostim OSB Mahallesi, 1256 Cadde, No: 11 Yeni Mahalle / Ankara
الهاتف: 9131 354 312 90+ الفاكس: 9132 354 312 90+ bilgi@tdv.com.tr

شيخ الإسلام أبو السعود بن محمد العمادي
إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم / شيخ الإسلام أبو السعود بن محمد العمادي؛ التحقيق: محمد طه بُوتَالِقْ، أحمد أَيْنَبْ، ضياء الدين القَالِش، محمد عماد النابلسي. - أنقرة: وقف الديانة التركي، ٢٠٢١. المجلد السادس، ٦٤٠ صفحة؛ ٢٤ سم. - (نشريات وقف الديانة التركي؛ ١-١٠٠٠. نشريات إسام؛ ٢٣٦. سلسلة عيون التراث الإسلامي؛ ٤٦)
يحتوي على الفهارس والمصادر
ISBN 978-625-7581-31-8 (مجموعة) 978-625-7581-37-0 (المجلد السادس)

فهرس المحتويات

[٧٢و]

/ سورة الأنبياء[1]

مكيّة، وهي مائة واثنتا عشرةَ آيةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ①﴾

﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ مناسبة هذه الفاتحة الكريمة لِما قبلها مِن الخاتمة الشريفة غنيّة عن البيان. قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: «المراد بـ﴿ٱلنَّاسِ﴾: المشركون»،[2] وهو الذي يُفصح عنه ما بعده. والمراد باقتراب حسابهم اقترابُه في ضمن اقتراب الساعة. وإسناد الاقتراب إليه لا إلى الساعة مع استتباعها له ولِسائر ما فيها مِن الأحوال والأهوال الفظيعة لانسياق الكلام إلى بيان غفلتهم عنه وإعراضهم عمّا يذكّرهم ذلك.

و"اللام" متعلّقة بالفعل، وتقديمها على الفاعل للمسارعة إلى إدخال الروعة، فإنّ نسبة الاقتراب إليهم مِن أوّل الأمر ممّا يسوءهم، ويورثهم رهبةً وانزعاجًا مِن المقترِب، كما أنّ تقديم الجارّ والمجرور على المفعول الصريح في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة، ٢٩/٢] لتعجيل المسرّة، لِما أنّ بيان كون الخلق لأجل المخاطَبين ممّا يسرّهم ويزيدهم رغبة فيما خُلق لهم وشوقًا إليه.

وجعلُها تأكيدًا لِلإضافة -على أنّ الأصل المتعارَف فيما بين الأوساط "اقترَب حساب الناس"، ثمّ "اقترَب للناس الحساب"، ثمّ "اقترَب للناس حسابهم"-[3] مع أنّه تعسّف تامّ بمَعزِل ممّا يقتضيه المقام، وإنّما الذي يستدعيه حُسن النظام ما قدّمناه. والمعنى: دنا منهم حساب أعمالهم السيّئة الموجِبة للعقاب.

---

١ ط س + عليهم السلام.

٢ الكشّاف للزمخشري، ١٠١/٣؛ اللباب لابن عادل، ٤٤٢/١٣.

٣ قاله الزمخشري في الكشّاف، ١٠٠/٣؛ والبيضاوي في أنوار التنزيل، ٤٥/٤. وردّه أبو حيّان في البحر المحيط، ٤٠٦/٧.

وفي إسناد الاقتراب المبنيّ على التوجّه نحوَهم إلى الحساب مع إمكان العكس بأن يُعتبر التوجّه والإقبال مِن جهتهم نحوَه مِن تفخيم شأنه وتهويل أمره ما لا يخفى، لِما فيه مِن تصويره بصورة شيء مُقبِل عليهم، لا يزال يطلبهم ويصيبهم لا محالةَ، ومعنى اقترابه لهم تقاربه ودنوّه منهم بعد بُعده عنهم، فإنّه في كلّ ساعة مِن ساعات الزمان أقرب إليهم منه في الساعة السابقة.

[٧٢ظ] هذا، وأمّا الاعتذار بأنّ قربه بالإضافة إلى ما مضى مِن الزمان / أو بالنسبة إلى الله عزّ وجلّ أو باعتبار أنّ كلّ آتٍ قريب فلا تعلّق له بما نحن فيه مِن الاقتراب المستفاد مِن صيغة الماضي، ولا حاجة إليه في تحقيق أصل معناه، نعم قد يُفهَم منه عُرفًا كونه قريبًا في نفسه أيضًا، فيصار حينئذ إلى التوجيه بالوجه الأوّلِ دون الأخيرين. أمّا الثاني فلا سبيل إلى اعتباره ههنا؛ لأنّ قربه بالنسبة إليه تعالى ممّا لا يتصوّر فيه التجدّد والتفاوت حتمًا، وإنّما اعتباره في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ [الشورى، ١٧/٤٢] ونظائره ممّا لا دلالةَ فيه على الحدوث. وأمّا الثالث فلا دلالةَ فيه على القرب حقيقةً ولو بالنسبة إلى شيء آخرَ.

﴿وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ﴾ أي: في غفلةٍ تامّة منه ساهون عنه بالمرّة، لا أنّهم غيرُ مبالين به مع اعترافهم بإتيانه؛ بل منكرون له كافرون به مع اقتضاء عقولهم أنّ الأعمال لا بدّ لها مِن الجزاء.

﴿مُّعْرِضُونَ﴾ أي: عن الآيات والنُذُر المنبّهة لهم عن سِنة الغفلة. وهما خبران للضمير. وحيث كانت الغفلة أمرًا جِبلّيًا لهم جُعل الخبر الأوّل ظرفًا منبئًا عن الاستقرار بخلاف الإعراض. والجملة حال مِن ﴿النَّاسِ﴾، وقد جُوّز كون الظرف حالًا مِن المستكنّ في ﴿مُّعْرِضُونَ﴾.

﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ۝﴾

﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ﴾ مِن طائفةٍ نازلة مِن القرآن تُذكّرهم ذلك أكمل تذكير، وتُنبّههم عن الغفلة أتمّ تنبيه، كأنّها نفس الذِّكر. و﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِّن رَّبِّهِم﴾

لابتداء الغاية مجازًا متعلّقةٌ بـ﴿يَأْتِيهِم﴾، أو بمحذوف هو صفة لـ﴿ذِكْرٍ﴾. وأيًّا ما كان ففيه دلالة على فضله وشرفه، وكمالِ شناعة ما فعلوا به. والتعرّض لعنوان الربوبيّة لتشديد التشنيع.

﴿مُحْدَثٍ﴾ بالجرّ صفة لـ﴿ذِكْرٍ﴾. وقُرئ بالرفع[1] حملًا على محلّه، أي: مُحدَثٍ تنزيله بحسب اقتضاء الحكمة. وقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ﴾ استثناء مفرَّغ محلّه النصب على أنّه حال مِن مفعول ﴿يَأْتِيهِم﴾ بإضمار "قد" أو بدونه على الخلاف المشهور.

[٧٣و] / وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ حال مِن فاعل ﴿ٱسْتَمَعُوهُ﴾. وقوله تعالى: ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ إمّا حال أخرى منه، أو مِن واو ﴿يَلْعَبُونَ﴾، والمعنى: ما يأتيهم ذكر مِن ربّهم محدَث في حال مِن الأحوال إلّا حالَ استماعهم إيّاه لاعبين مستهزئين به لاهين عنه، أو لاعبين به حالَ كون قلوبهم لاهيةً عنه؛ لتناهي غفلتهم، وفرطِ إعراضهم عن النظر في الأمور، والتفكّرِ في العواقب. وقُرئ: "لَاهِيَةٌ" بالرفع[2] على أنّه خبر بعد خبر.

﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى﴾ كلام مستأنَف مَسوق لبيان جناية خاصّة إثر حكاية جناياتهم المعتادة. و﴿ٱلنَّجْوَى﴾ اسم مِن التناجي، ومعنى إسرارها مع أنّها لا تكون إلّا سرًّا أنّهم بالَغوا في إخفائها، أو أسرّوا نفس التناجي بحيث لم يَشعر أحد بأنّهم متناجُون.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ بدل مِن وَاوِ ﴿أَسَرُّواْ﴾، منبئ عن كونهم موصوفين بالظلم الفاحش فيما أسرّوا به، أو هو مبتدأ، خبره: ﴿أَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى﴾، قُدّم عليه اهتمامًا به، والمعنى: هم أسرّوا النجوى، فوُضع الموصول موضع الضمير تسجيلًا على فعلهم بكَونه ظلمًا، أو منصوب على الذمّ.

وقوله تعالى: ﴿هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾... إلخ في حيّز النصب على أنّه مفعول[3] لِقولٍ مُضمَر هو جواب عن سؤال نشأ عمّا قبله، كأنّه قيل: ماذا قالوا

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣١٦.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة كذلك عن ابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣١٦.

[3] س: مقول.

في نجواهم؟ فقيل: قالوا: هل هذا... إلخ، أو بدل مِن ﴿أَسَرُّواْ﴾، أو معطوف عليه، أو على أنّه بدل مِن ﴿ٱلنَّجۡوَى﴾،[١] أي: أسرّوا هذا الحديث. و﴿هَلۡ﴾ بمعنى النفي.

و"الهمزة" في قوله تعالى: ﴿أَفَتَأۡتُونَ ٱلسِّحۡرَ﴾ للإنكار، و"الفاء" للعطف على مقدّر يقتضيه المقام. وقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ﴾ حال مِن فاعل ﴿تَأۡتُونَ﴾ مقرّرة للإنكار، ومؤكِّدة للاستبعاد. والمعنى: ما هذا إلّا بشر مثلكم، أي: مِن جنسكم، وما أتى به سحر، أتعلمون ذلك فتأتونه وتحضرونه على وجه الإذعان والقبول وأنتم تعاينون أنّه سحر؟

قالوه بناء على ما ارتكز في اعتقادهم الزائغ أنّ الرسول لا يكون إلّا ملَكًا، وأنّ كلّ ما يظهر على يد البشر مِن / الخوارق مِن قَبيل السحر، وزلّ عنهم أنّ [٧٣ظ] إرسال البشر إلى عامّة البشر هو الذي يقتضيه الحكمة التشريعيّة، قاتلهم الله أنّى يؤفكون. وإنّما أسرّوا ذلك لأنّه كان على طريق توثيق العهد، وترتيبِ مبادي الشرّ والفساد، وتمهيدِ مقدّمات المكر والكيد في هدم أمر النبوّة وإطفاءِ نور الدين، والله متمّ نوره ولو كره المشركون.

﴿قَالَ رَبِّي يَعۡلَمُ ٱلۡقَوۡلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٤﴾

﴿قَالَ رَبِّي يَعۡلَمُ ٱلۡقَوۡلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ حكاية مِن جهته تعالى لِما قاله عليه السلام بعد ما أوحى إليه أحوالهم وأقوالَهم بيانًا لِظهور أمرهم، وانكشاف سرّهم. وإيثار القول المنتظِم للسرّ والجهر على السرّ لإثبات علمه تعالى بالسرّ على النهج البرهاني، مع ما فيه مِن الإيذان بأنّ علمه تعالى بالسرّ والجهر على وتيرة واحدة لا تفاوت بينهما بالجلاء والخفاء قطعًا كما في علوم الخلق. وقُرئ: "قُل رَبِّي"... إلخ.[٢]

---

[١] وفي هامش م: فإن جُعلت عبارة عن القول الذي جرى عنهم بطريق التناجي فهو بدل "الكلّ"، وإن جُعلت عبارة عن فعل التناجي فهو بدل اشتمال «منه».

[٢] قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر وشعبة. النشر لابن الجزري، ٣٢٣/٢.

وقوله تعالى: ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ متعلّق بمحذوف وقع حالًا مِن القول، أي: كائنًا في السماء والأرض.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي: المبالغ في العِلم بالمسموعات والمعلومات التي مِن جملتها ما أسرّوه مِن النجوى، فيجازيهم بأقوالهم وأفعالهم، اعتراض تذييلي مقرِّر لمضمون ما قبله، متضمّن للوعيد.

﴿بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ۝٥﴾

﴿بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾ إضراب مِن جهته تعالى، وانتقال مِن حكاية قولهم السابق إلى حكاية قول آخر مضطربٍ في مَطَارِب[١] البطلان، أي: لم يقتصروا على أن يقولوا في حقّه عليه السلام: هل هذا إلّا بشرٌ؟ وفي حقّ ما ظهر على يده مِن القرآن الكريم: إنّه سحرٌ؛ بل قالوا: تخاليط الأحلام.

ثمّ أضربوا عنه فقالوا: ﴿بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ مِن تِلقاء نفسه، مِن غير أن يكون له أصل أو شبهة أصلٍ. ثمّ قالوا: ﴿بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ وما أتى به شعر يخيِّل إلى السامع معاني لا حقيقة لها، وهكذا شأن المبطِل المحجوج؛ متحيّر لا يزال يتردّد بين باطل وأبطلَ، ويتذبذب بين فاسد وأفسدَ.

فالإضراب الأوّل كما ترى مِن جهته تعالى، والثاني والثالث مِن قِبَلهم. / وقد قيل:[٢] الكلّ مِن قِبَلهم حيث أضربوا عن قولهم: "هو سحر" إلى أنّه "تَخاليط أحلام"، ثمّ إلى أنّه "كلامٌ مفترًى"، ثمّ إلى أنّه "قول شاعرٍ". ولا ريبَ في أنّه كان ينبغي حينئذ أن يقال: "قالوا: بل أضغاث أحلامٍ". والاعتذار بأنّ ﴿بَلْ قَالُوٓا۟﴾ مقول لِـ"قالوا" المُضمَر قبل قوله تعالى: ﴿هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ﴾... إلخ،[٣] كأنّه قيل: "وأسرّوا النجوى قالوا: هل هذا" إلى قوله: "بل أضغاث أحلام"، وإنّما صُرِّح بـ﴿قَالُوٓا۟﴾ بعد ﴿بَلْ﴾ لبُعد العهد؛ ممّا يجب تنزيه ساحة التنزيل عن أمثاله. [٧٤و]

---

١ وفي هامش م: مسالك. | المَطارب: طرق متفرّقة، واحدها مَطرَبة ومَطرَب. الصحاح للجوهري، «طرب».

٢ قاله الزمخشري في الكشّاف، ٣/١٠٣؛ والبيضاوي في أنوار التنزيل، ٤/٤٦.

٣ الأنبياء، ٢١/٣.

﴿فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ﴾ جواب شرط محذوف يُفصح عنه السياق، كأنّه قيل: وإن لم يكن كما قلنا -بل كان رسولًا مِن الله تعالى- فليأتنا بآية ﴿كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ أي: مثل الآية التي أُرسل بها الأوّلون -كاليد والعصا ونظائرِهما- حتّى نؤمن به. فـ﴿مَا﴾ موصولةٌ، ومحلُّ "الكاف" الجرُّ على أنّها صفةٌ لـ﴿ءَايَةٍ﴾، ويجوز أن تكون مصدريّة، فـ"الكاف" منصوبة على أنّها مصدر تشبيهي، أي: نعت لمصدر محذوف، أي: فليأتنا بآية إتيانًا كائنًا مثلَ إرسال الأوّلين بها. وصحّة التشبيه مِن حيث إنّ الإتيان بالآية مِن فروع الإرسال بها، أي: مثل إتيانٍ مترتّب على الإرسال.

ويجوز أن يُحمل النظم الكريم على أنّه أُريدَ كلّ واحد مِن الإتيان والإرسال في كلّ واحد مِن طرفَي التشبيه، لكنّه تُرِك في جانب المشبَّه ذكر الإرسال، وفي جانب المشبَّه به ذكر الإتيان؛ اكتفاءً بما ذُكر في كلّ موطنٍ عمّا تُرك في الموطن الآخر، حسبما مرّ في آخر سورة يونس عليه السلام.

﴿مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ۝٦﴾

﴿مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ﴾ كلام مستأنَف مسوق لتكذيبهم فيما يُنبئ عنه خاتمة مقالهم[١] مِن الوعد الضِّمني بالإيمان كما أشير إليه، وبيانِ أنّهم في اقتراح تلك الآيات كالباحث عن حتفه بِظِلْفِه،[٢] وأنّ في ترك الإجابة إليه إبقاءً عليهم، كيف لا ولو أُعْطُوا ما اقترحوا مع عدم إيمانهم قطعًا لوجب استئصالهم؟ لجريان سنّة الله عزّ وجلّ في الأمم السالفة على أنّ المقترِحين إذا أُعطوا ما اقترحوه ثمّ لم يؤمنوا نزل بهم عذاب الاستئصال لا محالةَ، وقد سبقت كلمة الحقّ منه تعالى أنّ هذه الأمّة لا يعذَّبون بعذاب الاستئصال.

---

[١] وفي هامش م: وما فيه مِن معنى المضيّ إنّما هو بالنسبة إلى زمان نزول الآية، لا إلى زمان عدم الإيمان، ضرورةَ تقدّمه على الإهلاك، وقد مرّ نظيره في قوله تعالى: ﴿كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ الآيةَ [المائدة، ٧٩/٥]. «منه».

[٢] الظِّلف -بالكسر- للبقرة والشاة والظبي وشبهها: بمنزلة القدَم لنا. **القاموس المحيط** للفيروزابادي، «ظلف».

فقوله: ﴿مِن قَرۡيَةٍ﴾ -أي: مِن أهل قرية- في محلّ الرفع على الفاعليّة، و﴿مِن﴾ مزيدة لتأكيد العموم، وقوله تعالى: ﴿أَهۡلَكۡنَٰهَآ﴾ -أي: بإهلاك أهلها لعدم إيمانهم بعد مجيء ما اقترحوه[1] مِن الآيات- صفةٌ لـ﴿قَرۡيَةٍ﴾.

و"الهمزة" في قوله تعالى: / ﴿أَفَهُمۡ يُؤۡمِنُونَ﴾ لإنكار الوقوع، و"الفاء" للعطف، [٧٤ظ] إمّا على مقدّر دخلته "الهمزة"، فأفادت إنكار وقوع إيمانهم، ونَفْيَه عقيب عدم إيمان الأوّلين.[2] فالمعنى: إنّه لم يؤمن أمّة مِن الأمم المهلَكة عند إعطاء ما اقترحوه مِن الآيات، أَهُم لم يؤمنوا، فهؤلاءِ يؤمنون لو أُجيبوا إلى ما سألوا، وأُعطُوا ما اقترحوا مع كونهم أعتى منهم وأطغى؟[3]

وَإمّا على ﴿مَآ ءَامَنَتۡ﴾ على أنّ "الفاء" متقدّمةٌ على "الهمزة" في الاعتبار، مفيدة لِترتيب إنكار وقوع إيمانهم على عدم إيمان الأوّلين،[4] وإنّما قُدّمت عليها "الهمزة" لاقتضائها الصدارة كما هو رأي الجمهور.[5]

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ۝٧﴾

وقوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا﴾ جواب لقولهم: ﴿هَلۡ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ﴾... إلخ،[6] متضمّن لردّ ما دسّوا تحت قولهم: ﴿كَمَآ أُرۡسِلَ ٱلۡأَوَّلُونَ﴾[7] مِن التعريض بعدم كونه صلّى الله عليه وسلّم مثل أولئك الرسل صلوات الله تعالى عليهم أجمعين، ولذلك قدِّم عليه جوابُ قولهم: ﴿فَلۡيَأۡتِنَا بِـَٔايَةٖ﴾،[8] ولأنّهم قالوا ذلك بطريق التعجيز فلا بدّ مِن المسارعة إلى ردّه وإبطاله، كما مرّ في تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَا يَأۡتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾ [هود، ٣٣/١١]،

---

[1] ط س: اقترحوها.

[2] م س - فأفادت إنكار وقوع إيمانهم، ونَفْيَه عقيب عدم إيمان الأوّلين ["صح" في الهامش].

[3] وفي هامش م: وحاصله إنكار ترتّب إيمان هؤلاء على عدم إيمان أولئك. «منه».

[4] وفي هامش م: وحاصله ترتيب إنكار إيمان هؤلاء على عدم إيمان أولئك. «منه».

[5] وفي هامش م: لو كان مكان الهمزة "هَلْ" لكان النظم: ما آمنت قبلهم مِن قرية أهلكناها، فهل هم يؤمنون؟ «منه».

[6] الأنبياء، ٣/٢١.

[7] الأنبياء، ٥/٢١.

[8] الأنبياء، ٥/٢١.

وقوله تعالى: ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ﴾ [الحجر، ٨/١٥]، ولأنّ في هذا الجواب نوعَ بسطٍ يُخلّ تقديمه بتجاوب أطراف النظم الكريم.

والحقّ أنّ ما اتّخذوه سببًا للتكذيب موجِب للتصديق في الحقيقة؛ لأنّ مقتضى الحكمة أن يُرسَل إلى البشر البشر، وإلى الملَك الملَك، حسبما ينطق به قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء، ٩٥/١٧]، فإنّ عامّة البشر بمَعزِل مِن استحقاق المفاوضة الملكيّة؛ لتوقّفها على التناسب بين المفيض والمستفيض. فبعثُ الملَكِ إليهم مزاحم للحكمة التي عليها يدور فلك التكوين والتشريع. وإنّما الذي يقتضيه الحكمة أن يُبعَث الملَك منهم إلى الخواصّ المختصّين بالنفوس الزكيّة المؤيّدين بالقوّة القدسيّة المتعلّقين بكلا العالَمين الروحاني والجسماني؛ ليتَلَقَّوا مِن جانب، ويُلقُوا إلى جانب.

وقوله تعالى: ﴿نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ استئناف مبيّن لكيفيّة الإرسال. وصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية المستمرّة. وحذف المفعول لعدم القصد إلى خصوصه. والمعنى: وما أرسلنا إلى الأمم قبل إرسالك إلى أمّتك إلّا رجالًا مخصوصين مِن / أفراد الجنس مستأهِلين للاصطفاء والإرسال، نوحي إليهم بواسطة الملَك [٧٥و] ما نوحِي مِن الشرائع والأحكام وغيرهما مِن القَصص والأخبار كما نوحي إليك مِن غير فرق بينهما في حقيقةِ الوحي وحقّيّةِ مدلوله، حسبما يحكيه قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء، ١٦٣/٤-١٦٤]، كما لا فرق بينك وبينهم في البشريّة، فما لهم لا يفهمون أنّك لستَ بِدعًا مِن الرسل، وأنّ ما أوحي إليك ليس مخالفًا لِما أوحي إليهم فيقولون ما يقولون؟

وقُرئ: "يُوحَى إِلَيْهِمْ" بالياء[١] على صيغة المبنيّ للمفعول جريًا على سَنن الكبرياء، وإيذانًا بتعيّن الفاعل.

وقوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ تلوين للخطاب، وتوجيه له إلى الكفرة لتبكيتهم واستنزالهم عن رتبة الاستبعاد والنكير إثرَ تحقيق الحقّ

---

[١] قرأ بها جميع القرّاء العشر غير حفص في روايته عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٢٩٦/٢.

على طريقة الخطاب لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم؛ لأنّه الحقيق بالخطاب في أمثال تلك الحقائق الأنيقة، وأمّا الوقوف عليها بالاستخبار مِن الغير فهو مِن وظائف العوام.

و"الفاء" لترتيب ما بعدها على ما قبلها، وجواب الشرط محذوف ثقةً بدلالة المذكور عليه، أي: إن كنتم لا تعلمون ما ذُكِر فاسألوا أيّها الجهلة أهلَ الكتاب الواقفين على أحوال الرسل السالفة عليهم الصلوات[1] لتزول شبهتكم. أُمِروا بذلك لأنّ إخبار الجمّ الغفير توجب[2] العلم، لا سيّما وهم كانوا يشايعون المشركين في عداوته صلّى الله عليه وسلّم، ويشاورونهم في أمره عليه السلام، ففيه مِن الدلالة على كمال وضوح الأمر وقوّة شأن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ما لا يخفى.

﴿وَمَا جَعَلۡنَٰهُمۡ جَسَدٗا لَّا يَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ ٨﴾

﴿وَمَا جَعَلۡنَٰهُمۡ جَسَدٗا﴾ بيان لكون الرسل عليهم السلام أسوةً لسائر أفراد الجنسِ في أحكام الطبيعة البشريّة إثر بيان كونهم أسوةً لهم في نفس البشريّة. و"الجسد" جسم الإنسان والجنّ والملائكة، ونصبه إمّا على أنّه مفعول ثان للجعل، لكن لا بمعنى جعله جسدًا بعد أن لم يكن كذلك / كما هو المشهور [٧٥ظ] مِن معنى التصيير؛ بل بمعنى جعله كذلك ابتداءً على طريقة قولهم: "سبحان مَن صغّر البعوضَ وكبّر الفيل"، كما مرّ في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبۡصِرَةٗ﴾ [الإسراء، ١٢/١٧]، وإمّا حال مِن الضمير، والجعلُ إبداعي، وإفراده لإرادة الجنس المنتظِم للكثير أيضًا. وقيل: بتقدير المضاف، أي: ذوي جسد.

وقوله تعالى: ﴿لَّا يَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ﴾ صفة له، أي: وما جعلناهم جسدًا مستغنيًا عن الأكل والشرب؛ بل محتاجًا إلى ذلك لتحصيل بدل ما يتحلّل منه. ﴿وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ﴾ لأنّ مآل التحلّل هو الفناء لا محالةَ. وفي إيثار ﴿مَا كَانُواْ﴾ على "ما جعلناهم" تنبيه على أنّ عدم الخلود مقتضى جبلّتهم التي أشيرَ إليها بقوله تعالى:

---

١ س: عليهم السلام.

٢ س: يوجب.

﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ﴾... إلخ، لا بالجعل المستأنَف. والمراد بالخلود إمّا المكث المديد كما هو شأن الملائكة، أو الأبديّة وهم معتقدون أنّهم لا يموتون.

والمعنى: جعلناهم أجسادًا متغذّيةً صائرةً إلى الموت بالآخرة على حسب آجالهم، لا ملائكةً، ولا أجسادًا مستغنية عن الأغذية مصونةً عن التحلّل كالملائكة، فلم يكن لها خلود كخلودهم، فالجملة مقرِّرة لِما قبلها مِن كون الرسل السالفة عليهم السلام بشرًا لا ملَكًا، مع ما في ذلك مِن الردّ على قولهم: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ﴾ [الفرقان، ٢٥/٧].

﴿ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ۝٩﴾

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ﴾ عطفٌ على ما يُفهم مِن حكاية وحيه تعالى إليهم على الاستمرار التجدّدي، كأنّه قيل: أوحينا إليهم ما أوحينا، ثمّ صدّقناهم في الوعد الذي وعدناهم في تضاعيف الوحي بإهلاك أعدائهم. ﴿فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ﴾ مِن المؤمنين وغيرهم ممّن يستدعي الحكمة إبقاءَه، كمَن سيؤمن هو أو بعضُ فروعه بالآخرة، وهو السرّ في حماية العرب مِن عذاب الاستئصال. ﴿وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ أي: المجاوزين للحدود في الكفر والمعاصي.

﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝١٠﴾

﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ﴾ كلام مستأنَف مسوق لتحقيق حقّيّة القرآن العظيم الذي / ذكر في صدر السورة الكريمة إعراضُ الناس عمّا يأتيهم مِن آياته، [٧٦و] واستهزاؤُهم به، وتسميتُهم تارة سحرًا، وتارةً أضغاثَ أحلام، وأخرى مفترًى وشعرًا، وبيانِ علوّ رتبته إثر تحقيق رسالته صلّى الله عليه وسلّم ببيان أنّه كسائر الرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام.

قد صُدِّر بالتوكيد القَسمي إظهارًا لِمزيد الاعتناء بمضمونه، وإيذانًا بكون المخاطَبين في أقصى مراتب النكير، أي: واللهِ لقد أنزلنا إليكم يا معشر قريش ﴿كِتَٰبًا﴾ عظيمَ الشأن نيِّر البرهان. وقوله تعالى: ﴿فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ صفة لـ﴿كِتَٰبًا﴾

مؤكِّدةٌ لِما أفاده التنكير التفخيمي مِن كونه جليلَ المقدار بأنّه جميل الآثار مستجلِب لهم منافعَ جليلة، أي: فيه شرفكم وصِيتكم، كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَ﴾ [الزخرف، ٤٤/٤٣]. وقيل: ما تحتاجون إليه في أمور دينكم ودنياكم. وقيل: فيه ما تطلبون به حسن الذكر مِن مكارم الأخلاق.

وقيل: فيه موعظتكم، وهو الأنسب لسباق النظم الكريم وسياقه، فإنّ قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ إنكار توبيخي فيه بعث لهم على التدبّر في أمر الكتاب، والتأمّل فيما في تضاعيفه مِن فنون المواعظ والزواجر التي مِن جملتها القوارع السابقة واللاحقة. و"الفاء" للعطف على مقدّر ينسحب عليه الكلام، أي: ألَا تتفكّرون فلا تعقلون أنّ الأمرَ كذلك؟ أو لا تعقلون شيئًا مِن الأشياء التي مِن جملتها ما ذُكر؟

﴿وَكَمۡ قَصَمۡنَا مِن قَرۡيَةٖ كَانَتۡ ظَالِمَةٗ وَأَنشَأۡنَا بَعۡدَهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ ۝١١ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأۡسَنَآ إِذَا هُم مِّنۡهَا يَرۡكُضُونَ ۝١٢﴾

وقوله تعالى: ﴿وَكَمۡ قَصَمۡنَا مِن قَرۡيَةٍ﴾ نوع تفصيل لإجمال قوله تعالى: ﴿وَأَهۡلَكۡنَا ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾،[1] وبيانٍ لكيفيّة إهلاكهم وسببِه، وتنبيهٍ على كثرتهم. و﴿كَمۡ﴾ خبريّة مفيدة للتكثير، محلّها النصب على أنّها مفعول لـ﴿قَصَمۡنَا﴾، و﴿مِن قَرۡيَةٍ﴾ تمييز، وفي لفظ "القَصْم" -الذي هو عبارة عن الكسر بإبانة[2] أجزاء المكسور وإزالةِ تأليفها بالكلّيّة- مِن الدلالة على قوّة الغضب وشدّة السخط ما لا يخفى.

وقوله تعالى: ﴿كَانَتۡ ظَالِمَةٗ﴾ في محلّ الجرّ على أنّها صفة لـ﴿قَرۡيَةٍ﴾ بتقدير مضاف ينبئ عنه الضمير الآتي، أي: وكثيرًا / قصمنا مِن أهل قرية كانوا ظالمين [٧٦ظ] بآيات الله تعالى، كافرين بها كدأبكم، ﴿وَأَنشَأۡنَا بَعۡدَهَا﴾ أي: بعد إهلاكها ﴿قَوۡمًا ءَاخَرِينَ﴾ أي: ليسوا منهم نسبًا ولا دينًا، ففيه تنبيه على استئصال الأوّلين، وقطع دابرهم بالكلّيّة، وهو السرّ في تقديم حكاية إنشاءِ هؤلاء على حكاية مبادي إهلاك أولئك بقوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأۡسَنَا﴾ أي: أدركوا عذابنا الشديد إدراكًا تامًّا،

---

١ الأنبياء، ٩/٢١.

٢ س: بإنانة.

كأنّه إدراك المشاهَد المحسوس، ﴿إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ يهربون مسرعين راكضين دوابَّهم، أو مشبَّهين بهم في فرط الإسراع.

﴿لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ⑬﴾

﴿لَا تَرْكُضُوا۟﴾ أي: قيل لهم بلسان الحال، أو بلسان المقال مِن الملَك، أو ممّن ثمّة مِن المؤمنين، بطريق الاستهزاء والتوبيخ: لا تركُضوا ﴿وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ﴾ مِن النعم والتلذّذ. و"الإتراف": إبطار النعمة. ﴿وَمَسَٰكِنِكُمْ﴾ التي كنتم تفتخرون بها ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ﴾ تُقصَدون للسؤال والتشاور والتدبير في المهمّات والنوازل، أو تُتفقَّدُون إذا رُئيَتْ مساكنكم خاليةً، وتُسألُون: أين أصحابُها؟ أو يسألكم الوافدون نوالَكم على أنّهم كانوا أسخياء ينفقون أموالهم رياءً، أو بخلاءَ فقيل لهم ذلك تهكّمًا إلى تهكّم.

﴿قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ⑭﴾

﴿قَالُوا۟﴾ لمّا يئسوا مِن الخلاص بالهرب، وأيقنوا بنزول العذاب: ﴿يَٰوَيْلَنَا﴾ أي: هلاكنا ﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ أي: مستوجِبين للعذاب، وهذا اعتراف منهم بالظلم وباستتباعه للعذاب، وندمٌ عليه حين لم ينفعهم ذلك.

﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ⑮﴾

﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ﴾ أي: فما زالوا يردّدون تلك الكلمة. وتسميتها "دعوى" -أي: دعوةً- لأنّ المُوَلْوِل كأنّه يدعو الويل قائلًا: يا ويلُ تعالَ، فهذا أوانُك. ﴿حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا﴾ أي: مثل الحصيد؛ وهو المحصود مِن الزرع والنبت، ولذلك لم يُجمع.

[٧٧و] ﴿خَٰمِدِينَ﴾ أي: ميّتين، مِن "خَمَدت النارُ" إذا طَفِئَت، / وهو مع ﴿حَصِيدًا﴾ في حيّز المفعول الثاني للجعل، كقولك: "جعلته حُلوًا حامِضًا". والمعنى: جعلناهم جامعين لمماثلة الحصيد والخُمود،[١] أو حال مِن الضمير المنصوب

---

١ وفي هامش م: عطفٌ على "مماثلة". «منه».

في ﴿جَعَلْنَٰهُمْ﴾، أو مِن المستكنّ في ﴿حَصِيدًا﴾، أو صفة لـ﴿حَصِيدًا﴾ لتعدّده معنى؛ لأنّه في حكم "جعلناهم أمثالَ حصيد".

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾﴾

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ﴾ إشارة إجماليّة إلى أنّ تكوين العالَم وإبداعَ بني آدمَ مؤسَّس على قواعد الحِكَم البالغة المستتبِعة للغايات الجليلة، وتنبيهٌ على أنّ ما حُكي مِن العذاب الهائل والعقاب النازل بأهل القرى مِن مقتَضيات تلك الحِكَم ومتفرّعاتها حسب اقتضاء أعمالهم إيّاه، وأنّ للمخاطبين المقتدين بآثارهم ذَنوبًا مثل ذَنوبهم،[١] أي: ما خلقناهما ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ مِن المخلوقات التي لا تُحصى أجناسها وأفرادها، ولا تُحصَر أنواعها وآحادها على هذا النمط البديع والأسلوب المَنيع، خالية عن الحِكَم والمصالح.

وإنّما عُبّر عن ذلك باللعب واللهو حيث قيل: ﴿لَٰعِبِينَ﴾ لبيان كمالِ تنزّهه تعالى عن الخلق الخالي عن الحِكمة بتصويره بصورةِ ما لا يرتاب أحد في استحالة صدوره عنه سبحانه؛ بل إنّما خلقناهما وما بينهما ليكون مبدأً لوجود الإنسان، وسببًا لمعاشه، ودليلًا يقوده إلى تحصيل معرفتنا التي هي الغاية القصوى بواسطة طاعتنا وعبادتنا، كما ينطق به قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود، ١١/٧]، وقولُه تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات، ٥١/٥٦].

﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا﴾ استئناف مقرِّر لِما قبله مِن انتفاء اللعب واللهو، أي: لو أردنا أن نتّخذ ما يُتَلهّى به ويُلعَب ﴿لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ﴾ أي: مِن جهة قدرتنا، / أو مِن عندنا ممّا يليق بشأننا مِن المجرّدات، لا مِن الأجسام [٧٧ظ]

---

[١] الذَّنوب: الدلو المَلأى ماءً. الصحاح للجوهري، «ذنب». والمراد هنا: نصيبًا وافرًا مِن العذاب مثلَ أنصباءِ نُظَرائهم. كما في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ﴾ [الذاريات، ٥١/٥٩]. انظر: تفسير الذاريات، ٥١/٥٩.

المرفوعة والأجرام الموضوعة، كدَيدَن الجبابرة في رفع العروش وتحسينها، وتسويةِ الفروش وتزيينها، لكن يستحيل إرادتنا له لمنافاته الحِكمةَ، فيستحيل اتّخاذُنا له قطعًا.

وقوله تعالى: ﴿إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ جوابه محذوف ثقةً بدلالة ما قبله عليه، أي: إن كنّا فاعلين لاتّخذناه. وقيل: ﴿إن﴾ نافية، أي: ما كنّا فاعلين، أي: لاتّخاذ اللهو؛ لعدم إرادتنا إيّاه، فيكون بيانًا لانتفاء التالي لانتفاء المقدَّم، أو لإرادة اتّخاذه، فيكون بيانًا لانتفاء المقدَّم المستلزِم لانتفاء التالي. وقيل: "اللهو" الولد بلغة اليمن.[١] وقيل: الزوجة، والمراد الردّ على النصارى،[٢] ولا يخفى بُعده.

﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾

﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ﴾ إضراب عن اتّخاذ اللهو؛ بل عن إرادته، كأنّه قيل: لكنّا لا نريده؛ بل شأننا أن نغلّب الحقَّ الذي مِن جملته الجدُّ على الباطل الذي مِن قَبيله اللهو. وتخصيصُ شأنه هذا مِن بين سائر شئونه تعالى بالذكر للتخلّص إلى ما سيأتي مِن الوعيد. ﴿فَيَدْمَغُهُۥ﴾ أي: يمحقه بالكلّيّة كما فعلنا بأهل القرى المَحكيّة.

وقد استعير لإيراد الحقّ على الباطل "القذفُ" الذي هو الرمي الشديد بالجِرم الصُّلْبِ كالصخرة، ولمحقِه للباطل "الدمغُ" الذي هو كسر الشيء الرِّخو الأجوف -وهو الدماغ- بحيث يشقّ غشاءَه المؤدّي إلى زهوق الروح تصويرًا له بذلك. وقُرئ: "فَيَدْمَغَهُ" بالنصب،[٣] وهو ضعيف. وقُرئ: "فَيَدْمُغُهُ" بضمّ الميم.[٤]

﴿فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ أي: ذاهب بالكلّيّة، وفي ﴿إِذَا﴾ الفجائيّة والجملة الاسميّة مِن الدلالة على كمال المسارعة في الذهاب والبطلانِ ما لا يخفى، فكأنّه زاهق مِن الأصل.

---

١ **الكشّاف** للزمخشري، ١٠٧/٣؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٧/٤.

٢ **الكشّاف** للزمخشري، ١٠٧/٣؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٧/٤.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى بن عمر. انظر: **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٤١٦/٧.

٤ قراءة شاذّة، ذكرها المفسّرون ولم أجد مَن ذكر قارئها. انظر: **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٤١٦/٧.

﴿وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ / وعيد لقريش بأنّ لهم أيضًا مثلَ ما لأولئك مِن العذاب والعقاب. و﴿مِن﴾ تعليليّة متعلّقة بـ"الاستقرار" الذي تعلّق به الخبر، أو بمحذوف هو حال مِن ﴿ٱلْوَيْلُ﴾، أو مِن ضميره في الخبر. و﴿مَا﴾ إمّا مصدريّة، أو موصولة، أو موصوفة، أي: واستقرّ لكم الويل والهلاك مِن أجل وصفكم له سبحانه بما لا يليق بشأنه الجليل، أو بالذي تصفونه، أو بشيء تصفونه به مِن الولد، أو كائنًا ممّا تصفونه تعالى به. [٧٨و]

﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾

﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ استئناف مقرِّر لِما قبله مِن خلقه تعالى لجميع مخلوقاته على حكمة بالغة ونظام كامل، وأنّه تعالى يُحِقّ الحقّ ويُزْهِق الباطل، أي: له تعالى خاصّةً جميع المخلوقات خلقًا، ومُلكًا، وتدبيرًا، وتصرّفًا، وإحياءً، وإماتةً، وتعذيبًا، وإثابةً، مِن غير أن يكون لأحد في ذلك دخل ما استقلالًا أو استتباعًا.

﴿وَمَنْ عِندَهُۥ﴾ وهم الملائكة عليهم السلام، عُبّر عنهم بذلك إثر ما عُبّر عنهم بـ﴿مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ تنزيلًا لهم -لكرامتهم عليه عزّ وعلا وزُلفاهم عنده- منزلةَ المقرّبين عند الملوك بطريق التمثيل، وهو مبتدأ خبره: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ أي: لا يتعظّمون عنها، ولا يَعدّون أنفسهم كبيرًا.

﴿وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ ولا يكِلّون ولا يَعْيَون. وصيغة الاستفعال المنبئةُ عن المبالغة في الحسور للتنبيه على أنّ عباداتهم بثِقلها ودوامها حقيقةٌ بأن يُستحسَر منها، ومع ذلك لا يَستحسِرون، لا لإفادة نفي المبالغة في الحسور مع ثبوت أصله في الجملة، كما أنّ نفي الظلّاميّة في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [ق، ٢٩/٥٠]؛ / لإفادة كثرة الظلم المفروضِ تعلّقُه بالعبيد، لا لإفادة نفي المبالغة في الظلم مع ثبوت أصل الظلم في الجملة. [٧٨ظ]

وقيل: ﴿مَنْ عِندَهُۥ﴾ معطوف على ﴿مَن﴾ الأولى، وإفرادهم بالذكر مع دخولهم في ﴿مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ للتعظيم، كما في قوله تعالى: ﴿وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ [البقرة، ٩٨/٢]. فقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ حينئذ حال مِن الثانية.

﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ۝٢٠﴾

﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ أي: ينزّهونه في جميع الأوقات، ويعظّمونه ويمجّدونه دائمًا. وهو استئناف وقع جوابًا عمّا نشأ ممّا قبله، كأنّه قيل: ماذا يصنعون في عبادتهم؟ أو كيف يعبدون؟ فقيل: يسبّحون... إلخ، أو حال مِن فاعل ﴿يَسْتَحْسِرُونَ﴾،[1] وكذا قوله تعالى: ﴿لَا يَفْتُرُونَ﴾ أي: لا يتخلّل تسبيحَهم فترة أصلًا بفراغ أو بشغل آخرَ.

﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ۝٢١﴾

﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً﴾ حكاية لِجناية أخرى مِن جناياتهم بطريق الإضراب والانتقال مِن فنّ إلى فنّ آخر مِن التوبيخ إثر تحقيق الحقّ ببيان أنّه تعالى خلق جميع المخلوقات على منهاج الحِكمة، وأنّهم قاطبة تحت ملكوته تعالى وقهره، وأنّ عباده مذعِنون لطاعته، ومثابرون على عبادته، منزّهون له عن كلّ ما لا يليق بشأنه مِن الأمور التي مِن جملتها الأنداد. ومعنى "الهمزة" في ﴿أَم﴾ المنقطعةِ إنكارُ الوقوع، لا إنكار الواقع.

وقوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ متعلّق بـ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ﴾، أو بمحذوف هو صفة لـ﴿ءَالِهَةً﴾. وأيًّا ما كان فالمراد هو التحقير، لا التخصيص، وقوله تعالى: ﴿هُمْ يُنشِرُونَ﴾ أي: يبعثون الموتى، صفة لـ﴿ءَالِهَةً﴾، وهو الذي يدور عليه الإنكار والتجهيل والتشنيع، لا نفسُ الاتّخاذ، فإنّه واقع لا محالةَ، أي: بل أَاتّخذوا[2] آلهة مِن الأرض هم خاصّةً مع خقارتهم وجماديّتهم يَنشُرون الموتى، كَلّا، فإنّ ما اتّخذوها[3] / بمَعزِل مِن ذلك، وهم وإن لم يقولوا بذلك صريحًا لكنّهم حيث ادّعَوا لها الإلهيّة فكأنّهم ادّعَوا لها الإنشارَ ضرورةَ أنّه مِن الخصائص الإلهيّة حتمًا. [٧٩و]

ومعنى التخصيص في تقديم الضمير ما أشير إليه مِن التنبيه على كمال مباينة حالهم للإنشار، الموجبةِ لمزيد الإنكار، كما في قوله تعالى: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾

---

[1] في الآية السابقة.
[2] كذا في الأصول الخطّيّة، والصواب إسقاط الألف الثانية خطًّا ولفظًا.
[3] ط س + آلهة.

[إبراهيم، ١٠/١٤]، وقوله تعالى: ﴿أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ[1] كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ [التوبة، ٦٥/٩]، فإنّ تقديم الجارّ والمجرور للتنبيه على كمال مباينة أمره تعالى لِأن يُشكّ فيه ويُستَهزأ به. ويجوز أن يُجعل ذلك[2] مِن مستَتبِعات ادّعائهم الباطل، فإنّ الألوهيّة مقتضية للاستقلال بالإبداء والإعادة، فحيث ادَّعَوا للأصنام الإلهيّة فكأنّهم ادّعَوا لها الاستقلال بالإنشار، كما أنّهم جُعِلوا بذلك مدّعين لأصل الإنشار.

﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾﴾

﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ إبطال لتعدّد الإله بإقامة البرهان على انتفائه؛ بل على استحالته. وإيراد الجمع لوروده إثر إنكار اتخاذ الآلهة، لا لأنّ للجمعيّة مدخلًا في الاستدلال، وكذا فَرض كونها فيهما.

و﴿إِلَّا﴾ بمعنى "غير" على أنّها صفة لـ﴿ءَالِهَةٌ﴾، ولا مساغَ للاستثناء؛ لاستحالة شمول ما قبلها لِما بعدها، وإفضائه إلى فساد المعنى؛ لدلالته حينئذ على أنّ الفساد لكونها فيهما بدونه تعالى، ولا للرفع على البدل؛ لأنّه متفرّع على الاستثناء، ومشروط بأن يكون في كلام غيرِ موجَب، أي: لو كان في السماوات والأرض آلهة غير الله كما هو اعتقادهم الباطل ﴿لَفَسَدَتَا﴾ أي: لبطلتا بما فيهما جميعًا، وحيث انتفى التالي عُلم انتفاءُ المقدَّم قطعًا.

بيان الملازمة أنّ الإلهيّة مستلزِمة للقدرة على الاستبداد بالتصرّف فيهما على الإطلاق تغييرًا وتبديلًا وإيجادًا وإعدامًا وإحياءً وإماتةً، فبقاؤهما / على ما هما عليه إمّا بتأثير كلّ منها، وهو مُحال؛ لاستحالة وقوع المعلول المعيّن بعلل متعدّدة، وإمّا بتأثير واحد منها، فالبواقي بمَعزِل مِن الإلهيّة قطعًا. [٧٩ظ]

واعلم أنّ جَعْلَ التالي فسادهما بعد وجودهما لِما أنّه اعتُبر في المقدّم تعدّد الآلهة فيهما، وإلّا فالبرهان يقضي باستحالة التعدّد على الإطلاق، فإنّه لو تعدّد الإله فإنْ توافق الكلّ في المراد تطاردت عليهِ القُدَر، وإن تخالفت تعاوقت، فلا يوجد موجود أصلًا، وحيث انتفى التالي تعيّن انتفاء المقدَّم.

---

[1] م س - ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾.

[2] وفي هامش م: أي: التخصيص.

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها مِن ثبوت الوحدانيّة بالبرهان، أي: فسبّحوه سبحانَه اللائقَ به، ونزّهوه عمّا لا يليق به مِن الأمور التي مِن جملتها أن يكون له شريك في الألوهيّة. وإيراد الجلالة في موقع الإضمار للإشعار بعلّة الحكم، فإنّ الألوهيّة مناط لجميع صفات كماله التي مِن جملتها تنزّهه تعالى عمّا لا يليق به، ولتربية المهابة، وإدخال الروعة.

وقوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱلْعَرْشِ﴾ صفة للاسم الجليل، مؤكِّدة لتنزّهه عزّ وجلّ ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ متعلّق بالتسبيح، أي: فسبّحوه عمّا يصفونه مِن أن يكون مِن دونه آلهة.

﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾

﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ استئناف ببيان أنّه تعالى لقوّة عظمته وعزّةِ سلطانه القاهرِ بحيث ليس لأحد مِن مخلوقاته أن يناقشه ويسألَه عمّا يفعل مِن أفعال إثرَ بيان أن ليس له شريك في الإلهيّة. ﴿وَهُمْ﴾ أي: العباد ﴿يُسْـَٔلُونَ﴾ عمّا يفعلون نقيرًا وقطميرًا؛ لأنّهم مَملوكون له تعالى، مستعبَدون، ففيه وعيد للكفَرة.

﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ ۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾

[٨٠و] ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ إضراب / وانتقال مِن إظهار بطلان كون ما اتّخذوه آلهةً آلهةً حقيقةً بإظهار خلوّها عن خصائص الإلهيّة التي مِن جملتها الإنشار، وإقامةِ البرهان القاطع على استحالة تعدّد الإله على الإطلاق وتفرّده سبحانه بالألوهيّة إلى إظهار بطلان اتّخاذهم تلك الآلهة مع عَرائها عن تلك الخصائص بالمرّة شركاءَ لله عزّ سلطانه، وتبكيتِهم بإلجائهم إلى إقامة البرهان على دعواهم الباطلة، وتحقيقِ أنّ جميع الكتب السماويّة ناطقة بحقّيّة التوحيد وبطلان الإشراك.

و"الهمزة" لإنكار الاتّخاذ المذكور واستقباحه واستعظامه. و﴿مِن﴾ متعلّقة بـ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ﴾. والمعنى: بل أاتّخذوا[1] متجاوزين إيّاه تعالى مع ظهور شئونه الجليلة الموجبة لتفرّده بالألوهيّة آلهةً مع ظهور خلوّهم عن خواصّ الألوهيّة بالكلّيّة؟

﴿قُلْ﴾ لهم بطريق التبكيت وإلقام الحجَر: ﴿هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ على ما تدّعونه مِن جهة العقل أو النقل، فإنّه لا صحّة لقولٍ لا دليل عليه في الأمور الدينيّة، لا سيّما في مثل هذا الشأن الخطير. وما في إضافة "البرهان" إلى ضميرهم مِن الإشعار بأنّ لهم برهانًا ضَربٌ مِن التهكّم بهم.

وقوله تعالى: ﴿هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى﴾ إنارة لبرهانه، وإشارة إلى أنّه ممّا نطقت به الكتب الإلهيّة قاطبةً، وشهِدت به ألسنة الرسل المتقدّمة كافّةً، وزيادةُ تهييج لهم على إقامة البرهان لإظهار كمال عجزهم، أي: هذا الوحي الوارد في شأن التوحيد المتضمّن للبرهان القاطع العقلي ذكرُ أمّتي -أي: عِظتهم- وذكرُ الأمم السالفة قد أقمتُه، فأقيموا أنتم أيضًا برهانكم.

وقيل: المعنى: هذا كتاب أُنزل على أمّتي، وهذا كتاب أُنزل على أمم الأنبياء عليهم السلام مِن الكتب الثلاثة والصحف، فراجعوها وانظروا هل في واحد منها غير الأمر بالتوحيد / والنهيِ عن الإشراك؟ ففيه تبكيت لهم متضمّن لإثبات نقيض مدّعاهم. [٨٠ظ]

وقُرئ بالتنوين والإعمال،[2] كقوله تعالى: ﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ۝ يَتِيمًا﴾ [البلد، ٩٠/١٤-١٥]، وبه وبـ"مِن" الجارّة،[3] على أنّ ﴿مَع﴾ اسم هو ظرف، كـ"قَبلُ" و"بعدُ".

وقوله تعالى: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ﴾ إضراب مِن جهته تعالى غير داخل في الكلام الملقّن، وانتقالٌ مِن الأمر بتبكيتهم بمطالبة البرهان إلى بيان أنّه لا ينجع فيهم المحاجّة بإظهار حقيقة الحقّ وبطلان الباطل، فإنّ أكثرهم

---

[1] كذا في الأصول الخطّيّة، والصواب إسقاط الألف الثانية خطًّا ولفظًا.

[2] أي: "هَذَا ذِكْرٌ مَن مُعِي وَذِكْرٌ مَن قَبْلِي". قراءة شاذّة، مرويّة عن الضحّاك وابن يَعمر. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣١٦.

[3] أي: "هَذَا ذِكْرٌ مِن مُعِي وَذِكْرٌ مِن قَبْلِي". قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن يَعمر وطلحة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣١٦.

لا يفهمون الحقّ، ولا يُميّزون بينه وبين الباطل.

﴿فَهُم﴾ لأجل ذلك ﴿مُعْرِضُونَ﴾ أي: مستمرّون على الإعراض عن التوحيد واتّباعِ الرسول، لا يرعَوون عمّا هم عليه مِن الغيّ والضلال وإن كُرِّرت عليهم البيّنات والحجج، أو مُعرِضون عمّا ألقي عليهم مِن البراهين العقليّة والنقليّة. وقُرئ: "الحَقُّ" بالرفع[1] على أنّه خبر مبتدأ محذوف وُسّط بين السبب والمسبَّب تأكيدًا للسببيّة.

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ استئناف مقرِّر لِما أُجمل فيما قبله مِن كون التوحيد ممّا نطقت به الكتب الإلهيّة، وأجمعت عليه الرسل عليهم السلام. وقُرئ: "يُوحَى"[2] على صيغة الغائب مبنيًّا للمفعول. وأيًّا ما كان فصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية استحضارًا لِصورة الوحي.

﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ٢٦ لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ ٢٧﴾

﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا﴾ حكاية لجناية فريق مِن المشركين، جيء بها لإظهار بطلانها وبيانِ تنزّهه تعالى عن ذلك إثر بيان تنزّهه سبحانه عن الشركاء على الإطلاق. وهم حيّ مِن خُزاعة، يقولون: الملائكة بنات الله تعالى.[3] ونقل الواحدي أنّ قريشًا وبعض أجناس العرب جُهَينةَ وبني سلمة وخُزاعة وبني مُلَيح يقولون ذلك.[4]

[٨١و] والتعرّض لعنوان الرحمانيّة المنبئة عن كون جميع ما سواه تعالى / مربوبًا له تعالى نعمةً أو منعَمًا عليه لإبراز كمال شناعة مقالتهم الباطلة.

﴿سُبۡحَٰنَهُۥ﴾ أي: تنزّه بالذات تنزّهَه اللائقَ به، على أنّ "السُّبحان" مصدر مِن "سبَحَ"، أي: بَعُد، أو أُسَبِّحه تسبيحَه، على أنّه علَم للتسبيح، وهو مَقول على ألسنة العباد، أو سبِّحوه تسبيحَه.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وابن مُحيصن. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣١٦.

٢ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر وشعبة. **النشر** لابن الجزري، ٢/٢٩٦.

٣ **الكشف والبيان** للثعلبي، ٦/٢٧٣؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٣/١١٢.

٤ **التفسير البسيط** للواحدي، ١٩/١١٨.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ﴾ إضراب وإبطال لِما قالوه، كأنّه قيل: ليست الملائكة كما قالوا؛ بل هم عباد له تعالى ﴿مُكْرَمُونَ﴾ مقرّبون عنده. وقُرئ: "مُكَرَّمُونَ" بالتشديد،[1] وفيه تنبيه على منشأ غلَط القوم.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ﴾ صفة أخرى لـ﴿عِبَادٌ﴾ منبئةٌ عن كمال طاعتهم وانقيادهم لأمره تعالى، أي: لا يقولون شيئًا حتّى يقولَه تعالى أو يأمرَهم به، وأصله "لا يَسبق قولُهم قولَه تعالى"، فأُسنِد السبقُ إليه منسوبًا إليه تعالى تنزيلًا لسَبق قولهم قولَه تعالى منزلةَ سبقهم إيّاه تعالى لمزيد تنزيههم عن ذلك، وللتنبيه على غاية استهجان السبق المعرَّضِ به للذين يقولون ما لا يقوله الله تعالى. وجُعِل القولُ محلًّا للسبق وأداةً له، ثمّ أُنيب "اللام" عن الإضافة للاختصار والتجافي عن التكرار.

وقُرئ: "لَا يَسْبُقُونَهُ" بضمّ الباء،[2] مِن "سبَقْته أسبُقُه"، وفيه مزيد استهجان للسبق، وإشعارٌ بأنّ مَن سبَق قولُه قولَه تعالى فقد تصدّى لمغالبته تعالى في السبق، فسبَقه فغلبه والعياذ بالله تعالى، وزيادةُ تنزيه لهم عمّا نُفي عنهم ببيان أنّ ذلك عندهم بمنزلة الغلبة بعد المغالبة، فأنّى يُتوهّم صدوره عنهم.

﴿وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾ بيان لتبعيّتهم له تعالى في الأعمال إثر بيان تبعيّتهم له تعالى في الأقوال، / فإنّ نفي سَبقهم له تعالى بالقول عبارة عن تبعيّتهم له تعالى فيه، كأنّه قيل: هم بأمره يقولون، وبأمره يعملون، لا بغير أمره أصلًا، فالقصر المستفاد مِن تقديم الجارّ معتبر بالنسبة إلى غير أمره، لا إلى أمر غيره. [٨١ظ]

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ۝٢٨﴾

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ استئناف وقع تعليلًا لِما قبله، وتمهيدًا لِما بعده، فإنّهم لعلمهم بإحاطته تعالى بما قدّموا وأخّروا مِن الأقوال والأعمال، لا يزالون يراقبون أحوالَهم، فلا يُقدمون على قول أو عمل بغير أمره تعالى.

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن عكرمة. انظر: **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٤٢٢/٧.

[2] قراءة شاذّة، ذكرها المفسّرون ولم أجد مَن ذكر قارئها. انظر: **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٤٢٢/٧.

﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ أن يُشفعَ له مهابةً منه تعالى. ﴿وَهُم﴾ مع ذلك ﴿مِّنْ خَشْيَتِهِۦ﴾ عزّ وجلّ ﴿مُشْفِقُونَ﴾ مرتَعدون. وأصل الخشية الخوف مع التعظيم، ولذلك خُصّ بها العلماء،[١] و"الإشفاق": الخوفُ مع الاعتناء، فعند تعديته بـ"مِن" يكون معنى الخوف فيه أظهر، وعند تعديته بـ"على" ينعكس الأمر.

﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾

﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ﴾ أي: مِن الملائكة، إذ الكلامَ فيهم وفي كونهم بمَعزِل ممّا قالوا في حقّهم: ﴿إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ﴾ متجاوزًا إيّاه تعالى، ﴿فَذَٰلِكَ﴾ الذي فُرِض قولُه فرضَ محال ﴿نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾ كسائر المجرمين، ولا يغني عنهم ما ذُكر مِن صفاتهم السنيّة وأفعالهم المرضيّة. وفيه مِن الدلالة على قوّة ملكوته تعالى وعزّةِ جبروته واستحالةِ كون الملائكة بحيث يُتوهّم في حقّهم ما تَوهّمه أولئك الكفرة ما لا يخفى.

﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ مصدر تشبيهي مؤكِّد لِمضمون ما قبله، أي: مثلَ ذلك الجزاء الفظيع نجزي الذين يضعون الأشياء في غير مواضعها، ويَتَعدَّوْنَ أطوارَهم. والقصر المستفاد مِن التقديم معتبر بالنسبة إلى النقصان دون الزيادة، أي: لا جزاءَ أنقصَ منه.

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾﴾

[٨٢و] / ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ تجهيل لهم بتقصيرهم في التدبّر في الآيات التكوينيّة الدالّة على استقلاله تعالى بالألوهيّة، وكونِ جميع ما سواه مقهورًا تحت ملكوته. و"الهمزة" للإنكار، و"الواو" للعطف على مقدّر. وقُرئ بغير واو.[٢] والرؤية قلبيّة، أي: ألَم يتفكّروا ولم يعلموا ﴿أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا﴾ أي: جَماعَتا السماوات والأرَضِين، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾ [فاطر، ٤١/٣٥].

---

[١] في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر، ٢٨/٣٥].

[٢] قرأ بها ابن كثير. النشر لابن الجزري، ٣٢٣/٢.

﴿رَتْقًا﴾ الرَّتْق: الضمّ والالتِحام. والمعنى إمّا على حذف المضاف، أو هو بمعنى المفعول، أي: كانتا ذواتَي رَتْق، أو مَرتوقتَين. وقُرئ: "رَتَقًا"،[1] أي: شيئًا رَتَقًا، أي: مَرتوقًا.

﴿فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾ قال ابن عبّاس رضي الله عنهما في رواية عكرمة والحسن البصري وقتادة وسعيد بن جبير: «كانتا شيئًا واحدًا ملتزمين،[2] ففَصل الله تعالى بينهما، ورفع السماء إلى حيث هي، وأقرّ الأرض».[3]

وقال كعب: «خلق الله تعالى السماوات والأرض مُلتصِقتَين، ثمّ خلق رِيحًا فتوسّطَتْها ففَتَقتْها».[4]

وعن الحسن: «خلق الله تعالى الأرض في موضع بيت المقدس كهيئة الفِهر[5] عليها دخان مُلتزِق بها، ثمّ أصعَد الدخانَ وخلق منه السماوات، وأمسك الفِهرَ في موضعها وبسطَ منها الأرض»، وذلك قوله تعالى: ﴿كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾.[6]

وقال مجاهد والسدّي: «كانت السماوات مُرتَتَقة طبقة واحدة، ففتَقها فجعلها سبع سماوات، وكذلك الأرض كانت مُرتَتَقة طبقة واحدة، ففتَقها فجعلها سبع أرَضين».[7]

وقال ابن عبّاس رضي الله عنهما في رواية عطاء، وعليه أكثر المفسّرين: «إنّ السماوات كانت رَتْقًا مستوية صلبة لا تمطر، والأرض رتقًا لا تُنبت، ففتَق السماءَ بالمطر، والأرضَ بالنبات».[8]

فيكون المراد بـ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ السماءَ الدنيا، والجمع باعتبار الآفاق، أو السماواتِ / جميعًا على أنّ لها مدخلًا في الأمطار. وعِلمُ الكفرة الرَّتْقَ والفَتْقَ [٨٢ظ]

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسَن والثقفي وأبي حياة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣١٧.

٢ في جامع البيان للطبري، ٢٥٥/١٦؛ والكشف والبيان للثعلبي، ٢٧٤/٦: "ملتزقتين".

٣ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٧٤/٦؛ اللباب لابن عادل، ٤٨٥/١٣.

٤ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٧٤/٦؛ اللباب لابن عادل، ٤٨٥/١٣.

٥ الفِهر: الحجر مِلءَ الكفِّ. الصحاح للجوهري، «فهر».

٦ الكشّاف للزمخشري، ١٢٤/١ (البقرة، ٢٩/٢).

٧ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٧٤/٦؛ اللباب لابن عادل، ٤٨٥/١٣.

٨ اللباب لابن عادل، ٤٨٦/١٣. وهو في الكشف والبيان للثعلبي، ٢٧٤/٦ عن عكرمة وعطيّة وابن زيد.

بهذا المعنى ممّا لا سُترة به، وأمّا بالمعاني الأُوَل فهم وإن لم يعلموهما لكنّهم متمكِّنون مِن عِلمهما، إمّا بطريق النظر والتفكّر، فإنّ الفَتْق عارض مُفتقِر إلى مؤثِّر قديم، وإمّا بالاستفسار مِن العلماء ومطالعة الكتب.

﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ أي: خلقنا مِن الماء كلَّ حيوان، كقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ﴾ [النور، ٤٥/٢٤]، وذلك لأنّه مِن أعظم موادّه، أو لفرط احتياجه إليه وانتفاعه به، أو صيّرنا كلّ شيء حيّ مِن الماء، أي: بسبب منه لا بدّ له مِن ذلك. وتقديم المفعول الثاني للاهتمام به، لا لمجرّد أنّ المفعولَين في الأصل مبتدأ وخبر، وحقُّ الخبر عند كونه ظرفًا أن يتقدّم على المبتدأ، فإنّ ذلك مصحِّح مَحض لا مرجِّح.

وقُرئ: "حَيًّا"[1] على أنّه صفةُ ﴿كُلَّ﴾، أو مفعول ثانٍ، والظرفُ -كما في الوجه الأوّل- قُدّم على المفعول للاهتمام به، والتشويق إلى المؤخَّر.

﴿أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ إنكار لعدم إيمانهم بالله تعالى وحدَه مع ظهور ما يوجبه حتمًا مِن الآيات الآفاقيّة والأنفسيّة الدالّة على تفرّده عزّ وجلّ[2] بالألوهيّة، وعلى كون ما سواه مِن مخلوقاته مقهورةً تحت ملكوته وقدرته، و"الفاء" للعطف على مقدَّر يستدعيه الإنكار السابق، أي: أيعلمون ذلك فلا يؤمنون؟

﴿وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾﴾

﴿وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ﴾ أي: جبالًا ثوابت، جمع "راسية"، مِن "رَسا الشيءُ" إذا ثَبت ورَسَخ. ووصفُ جمع المذكّر بجمع المؤنّث في غير العقلاء ممّا لا ريب في صحّته، كقوله تعالى: ﴿أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾ [البقرة، ١٩٧/٢]، و﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾ [البقرة، ١٨٤/٢].

﴿أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾ أي: كراهةَ أن تتحرّك وتضطرب بهم، أو لِئلّا تميدَ بهم، بحذف "اللام" و"لا" لِعدم الإلباس. ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا﴾ أي: في الأرض، وتكريرُ الفعل لاختلاف

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣١٧.

[2] س: عزّ وعلا.

المَجعولين، ولِتوفية مقام الامتنان حقَّه، أو في الرواسي؛ لأنّها المحتاجة إلى الطرُق.

/ ﴿فِجَاجًا﴾ مسالك واسعة. وإنّما قُدّم على قوله تعالى: ﴿سُبُلًا﴾ -وهو وصف له- ليصير حالًا، فيفيد أنّه تعالى حين خلَقها خلَقها كذلك، أو لِيُبدل منها ﴿سُبُلًا﴾، فيدلّ ضمنًا على أنّه تعالى خلقها ووسّعها للسابِلة، مع ما فيه مِن التوكيد. ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ أي: إلى مصالحهم ومهمّاتهم. [٨٣و]

﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾﴾

﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ مِن الوقوع بقدرتنا القاهرة، أو مِن الفساد والانحلال إلى الوقت المعلوم بمشيئتنا، أو مِن استراق السمع بالشُّهُب. ﴿وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا﴾ الدالّة على وحدانيّته تعالى وعلمه وحكمته وقدرته وإرادته التي بعضُها محسوس وبعضُها معلوم بالبحث عنه في علمَيِ الطبيعة والهيئة ﴿مُعْرِضُونَ﴾ لا يتدبّرون فيها، فيبقَون على ما هم عليه مِن الكفر والضلال.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ اللَّذَين هما آيتاهما، بيان لبعض تلك الآيات التي هم عنها معرضون بطريق الالتفات الموجِب لتأكيد الاعتناء بفَحوى الكلام،[١] أي: هو الذي خلقهنّ وحده.

﴿كُلٌّ﴾ أي: كلّ واحدٍ منهما، على أنّ التنوين عوض عن المضاف إليه. ﴿فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ أي: يَجرُون في سطح الفلك كالسَّبْح في الماء. والمراد بـ"الفَلَك" الجنس، كقولك: "كساهم الخليفة حُلّة". والجملة حال مِن ﴿ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾، وجاز انفرادهما بها لعدم اللَّبس،[٢] والضمير لهما، والجمع باعتبار المطالع. وجعلُ الضمير واوَ العقلاء لأنّ السباحة حالهم.

---

[١] وفي هامش م: فإنّ تغيير الكلام المَسوق لمعنًى مِن المعاني وصَرفَه عن سَننه المَسلوك يُنبئ عن اهتمام بشأنٍ جديد مِن المتكلِّم، ويستجلب مزيدَ رغبة فيه مِن المخاطَب، كما مرّ في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [البقرة، ٢/٣]. «منه».

[٢] وفي هامش م: إذ لا احتمال لكونها حالًا مِن ﴿ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾. «منه».

﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِين مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾﴾

﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ﴾ أي: في الدنيا لكونه مخالِفًا للحكمة التكوينيّة والتشريعيّة. ﴿أَفَإِين مِّتَّ﴾ بمقتضى حكمتنا ﴿فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾ نزلت حين قالوا: "نتربّص به ريبَ المنون".[1] و"الفاءُ" لتعليق الشرطيّة بما قبلها، و"الهمزة" لإنكار مضمونها بعد تقرّر القاعدة الكلّيّة النافية لذلك بالمرّة. والمراد بإنكار خلودهم ونَفيِه إنكارُ ما هو مدارٌ له وجودًا وعدمًا مِن شماتتهم بموته عليه السلام، فإنّ الشماتة بما يعتريه أيضًا ممّا لا ينبغي أن يصدُر عن العاقل، كأنّه قيل: أفإن مِتَّ فهم الخالدون حتّى يشمَتوا بموتك.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾

[٨٣ظ] / وقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ أي: ذائقةُ مرارةِ مفارقتِها جَسدَها، برهان على ما أُنكِرَ مِن خلودهم.

﴿وَنَبْلُوكُم﴾ الخطاب إمّا للناس كافّة بطريق التلوين، أو للكفرة بطريق الالتفات، أي: نعاملكم معاملةَ مَن يبلوكم ﴿بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ﴾ بالبلايا والنِّعَم، هل تصبرون وتشكرون أو لا؟ ﴿فِتْنَةً﴾ مصدر مؤكِّد لـ﴿نَبْلُوكُم﴾ مِن غير لفظه.

﴿وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ لا إلى غيرنا، لا استقلالًا ولا اشتراكًا، فنجازيكم حسبما يظهر منكم مِن الأعمال، فهو على الأوّل وعد ووعيد، وعلى الثاني وعيد محض. وفيه إيماء إلى أنّ المقصود مِن هذه الحياة الدنيا الابتلاء والتعريض للثواب والعقاب. وقُرئ: "يُرْجَعُونَ"[2] بالياء على الالتفات.

﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾

---

[1] قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ [الطور، ٥٢/٣٠].

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن الواقدي عن قتادة والثعلبي عن ابن ذكوان. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣١٧.

﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ أي: المشركون ﴿إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾[1] أي: ما يتّخذونك إلّا مهزوءًا به على معنى قصر معاملتهم معه عليه السلام على اتّخاذهم إيّاه هزوًا، لا على معنى قصر اتّخاذهم على كونه هزوًا كما هو المتبادَر، كأنّه قيل: ما يفعلون بك إلّا اتّخاذَك هزوًا، وقد مرّ تحقيقه في قوله تعالى: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ [الأنعام، ٥٠/٦].

﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾ على إرادة القول، أي: ويقولون، أو قائلين ذلك، أي: يَذكُرهم بسوء، كما في قوله تعالى: ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ﴾... إلخ [الأنبياء، ٦٠/٢١].

وقوله تعالى: ﴿وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ في حيّز النصب على الحاليّة مِن ضمير القول المقدّر، والمعنى: إنّهم يَعيبون عليه عليه السلام أن يذكر آلهتَهم التي لا تضرّ ولا تنفع بالسوء، والحال أنّهم بذِكرِ الرحمن المنعِم عليهم بما يليق به مِن التوحيد أو بإرشاد الخلق بإرسال الرسل وإنزال الكتب أو بالقرآن كافرون، فهم أحِقّاء بالعيب والإنكار. فالضمير الأوّل مبتدأ خبره ﴿كَٰفِرُونَ﴾، و﴿بِذِكْرِ﴾ متعلّق بالخبر، والتقدير: وهم كافرون بذِكر الرحمن. والضمير الثاني تأكيد لفظي للأوّل، فوقع الفصل بين العامل ومعموله بالمؤكِّد، وبين المؤكَّد والمؤكِّد بالمعمول.

﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ ۚ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾﴾

﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ جُعل لفَرط استعجاله وقِلّة صبره كأنّه مخلوق منه / تنزيلًا لِما طُبع عليه مِن الأخلاق منزلةَ ما طُبع منه مِن الأركان إيذانًا بغاية لزومه له وعدمِ انفكاكه عنه. ومِن عجلته مبادرتُه إلى الكفر واستعجالُه بالوعد. [٨٤و]

رُوي أنّها نزلت في النضر بن الحارث حين استعجل العذاب بقوله: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ﴾ الآية [الأنفال، ٣٢/٨].[2] وعن ابن عبّاس

---

[1] م: هُزُؤًا. | وقرأ بالهمز جميع القرّاء العشر غير حفص. وقرأ حمزة وخلف بإسكان الزاي. انظر: النشر لابن الجزري، ٢١٥/٢.

[2] عن ابن عبّاس رضي الله عنه في رواية عطاء. التفسير الوسيط للواحدي، ٢٣٧/٣؛ الكشّاف للزمخشري، ١١٧/٣.

رضي الله تعالى[1] عنهما: «أنّ المراد بـ﴿ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ آدم عليه السلام، وأنّه حين بلغ الروحُ صدرَه ولم يتبالغ فيه أراد أن يقوم».[2] ورُوي أنّه لمّا دخل الروحُ في عينيه نظر إلى ثمار الجنّة، ولمّا دخل جوفَه اشتهى الطعام.[3]

وقيل: خلقه الله تعالى في آخر النهار يوم الجمعة قبل غروب الشمس، فأسرع في خَلْقه قبل غَيبتها.[4] فالمعنى: خُلق الإنسان خَلقًا ناشئًا مِن عجَل، فذكره لبيان أنّه مِن دواعي عجلته في الأمور.

والأظهر أنّ المراد به الجنس وإن كان خلقه عليه السلام ساريًا إلى أولاده.

وقيل: "العَجَل" الطين بلغة حِمْير،[5] ولا تقريب له ههنا.

وقوله تعالى: ﴿سَأُوْرِيكُمۡ ءَايَٰتِي﴾ تلوين للخطاب وصرف له عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إلى المستعجِلين بطريق التهديد والوعيد، أي: سأُريكم نقماتي في الآخرة كعذاب النار وغيره، ﴿فَلَا تَسۡتَعۡجِلُونِ﴾ بالإتيان بها. والنهي عمّا جُبلت عليه نفوسهم ليُقْعِدُوها عن مرادها.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝٣٨﴾

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ﴾ أي: وقت مجيء الساعة التي كانوا يوعدون، وإنّما كانوا يقولونه استعجالًا لمجيئه بطريق الاستهزاء والإنكار كما يرشد إليه الجواب، لا طلبًا لتعيين وقته بطريق الإلزام كما في سورة المُلك.[6]

[٨٤ظ] ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ أي: في وعدكم بأنّه يأتينا. / والخطاب للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم والمؤمنين الذين يتلون الآيات الكريمةَ المنبئة عن مجيء الساعة.

---

١ س – تعالى.

٢ الكشّاف للزمخشري، ١١٧/٣. وهو في جامع البيان للطبري، ٢٧١/١٦، عن سعيد بن جبير. وفي التفسير الوسيط للواحدي، ٢٣٧/٣، عن عكرمة.

٣ عن السدّي في جامع البيان للطبري، ٢٧١/١٦؛ والكشف والبيان للثعلبي، ٢٧٥/٦.

٤ جامع البيان للطبري، ٢٧١/١٦؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٧٥/٦.

٥ عن أبي عبيدة في الكشف والبيان للثعلبي، ٢٧٦/٦؛ واللباب لابن عادل، ٥٠١/١٣. | بنو حِمْيَر -بكسر الحاء وسكون الميم- قبيلة مِن بني سبأ مِن القحطانيّة، وهم بنو حِمْير بن سبأ. ومِن حِمْيَر كانت ملوك اليمن مِن التابعة إلّا مَن تخلّل في خِلال مُلكهم في قليل مِن الزمن. نهاية الأرب للقلقشندي، ٢٣٧/١.

٦ الملك، ٢٥/٦٧.

وجواب الشرط محذوف ثقةً بدلالة ما قبله عليه حسبما حذف في مثل قوله تعالى: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [هود، ٣٢/١١]، فإنّ قولهم: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ استبطاء منهم للموعود، وطلبٌ لإتيانه بطريق العجلة، فإنّ ذلك في قوّة الأمر بالإتيان عجلةً، كأنّه قيل: فليأتنا بسرعة إن كنتم صادقين.

﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾﴾

﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ استئناف مَسوق لبيان شدّة هول ما يستعجلونه، وفظاعةِ ما فيه مِن العذاب، وأنّهم إنّما يستعجلونه لجهلهم بشأنه. وإيثار صيغة المضارع في الشرط وإن كان المعنى المضيّ لإفادة استمرار عدم العلم، فإنّ المضارع المنفيّ الواقعَ موقع الماضي ليس بنصّ في إفادة انتفاء استمرار الفعل؛ بل يفيد استمرار انتفائه أيضًا بحسب المقام، كما في قولك: "لو تُحسنُ إليّ لَشَكرتك"، فإنّ المعنى أنّ انتفاء الشكر لاستمرار انتفاءِ الإحسان، لا لانتفاءِ استمرار الإحسان. ووضع الموصول موضع الضمير للتنبيه بما في حيّز الصلة على علّة استعجالهم.

وقوله تعالى: ﴿حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ﴾ مفعولُ ﴿يَعْلَمُ﴾، وهو عبارة عن الوقت الموعود الذي كانوا يستعجلونه. وإضافته إلى الجملة الجارية مَجرى الصفة التي حقّها أن تكون معلومة الانتساب إلى الموصوف عند المخاطب أيضًا مع إنكار الكفرة بذلك؛ للإيذان بأنّه مِن الظهور بحيث لا حاجة له إلى الإخبار به، وإنّما حقّه الانتظام في سِلك المسلَّمات المفروغِ عنها.

وجواب / ﴿لَوْ﴾ محذوف، أي: لو لم يستمرّ عدمُ علمهم بالوقت الذي يستعجلونه بقولهم: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ مِن الحين الذي يحيط بهم النار فيه مِن كلّ جانب -وتخصيصُ الوجوه والظهور بالذكر بمعنى القدّام والخلف لكونهما أشهر الجوانب، واستلزامِ الإحاطة بهما للإحاطة بالكلّ بحيث لا يقدرون على دفعها [٥٨و]

بأنفسهم مِن جانب مِن جوانبهم- ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ مِن جهة الغير في دفعها... إلخ لَمَا[1] فعلوا ما فعلوا مِن الاستعجال.

ويجوز أن يكون ﴿يَعْلَمُ﴾ متروكَ المفعول مُنزَّلًا منزلة اللازم، أي: لو كان لهم علم لَمَا فعلوه. وقوله تعالى: ﴿حِينَ﴾... إلخ استئناف مقرِّر لجهلهم، ومبيّن لاستمراره إلى ذلك الوقت، كأنّه قيل: حين يرون ما يرون يعلمون حقيقة الحال.

﴿بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ۝٤٠﴾

﴿بَلْ تَأْتِيهِم﴾ عطفٌ على ﴿لَا يَكُفُّونَ﴾،[2] أي: لا يكفّونها؛ بل تأتيهم -أي: العِدَة أو النار أو الساعة- ﴿بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ﴾ أي: تغلبهم أو تحيّرهم، وقُرئ الفعلان بالتذكير[3] على أنّ الضمير للوعد أو الحين، وكذا "الهاء" في قوله تعالى: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا﴾ بتأويل ﴿ٱلْوَعْدُ﴾[4] بالنار أو العِدَةِ، و"الحينِ" بالساعة، ويجوز عوده إلى ﴿ٱلنَّارَ﴾،[5] وقيل: إلى "البَغتة"، أي: لا يستطيعون ردّها عنهم بالكلّيّة. ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ أي: يُمهَلون ليستريحوا طرفة عَين. وفيه تذكير لإمهالهم في الدنيا.

﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٤١﴾

﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ تسلية لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم عن استهزائهم به عليه السلام في ضِمن الاستعجال، وعِدَةٌ ضِمنيّة بأنّه يصيبهم مثلُ ما أصاب المستهزئين بالرسل السالفة عليهم الصلاة والسلام. وتصديرها بالقسَم لزيادة تحقيق مضمونها. وتنوين "الرسل" للتفخيم والتكثير. و﴿مِن﴾ متعلّقة بمحذوف هو صفة له، أي: وبالله لقد استُهزئ / برسلٍ أولي شأن خطير، [٨٥ظ] وذوي عدد كثير، كائنين مِن زمان قبل زمانك، على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مُقامه.

---

[1] وفي هامش م: إشارة إلى أنّ الجواب مقدّر بعد قوله تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾. «منه».

[2] في الآية السابقة.

[3] أي: "بَلْ يَأْتِيهِم بَغْتَة فَيَبْهَتُهُمْ". قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه والأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣١٧.

[4] الأنبياء، ٣٨/٢١.

[5] في الآية السابقة.

﴿فَحَاقَ﴾ أي: أحاط عَقيب ذلك، أو نزَل، أو حَلَّ، أو نحو ذلك، فإنّ معناه يدور على الشمول واللزوم، ولا يكاد يستعمل إلّا في الشرّ، والحَيق: ما يشتمل على الإنسان مِن مكروهِ فِعلِه.[1] وقوله تعالى: ﴿بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم﴾ أي: مِن أولئك الرسل عليهم السلام. متعلّق بـ﴿حَاقَ﴾، وتقديمُه على فاعله -الذي هو قوله تعالى: ﴿مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾- للمسارعة إلى بيان لحوق الشرّ بهم.

و﴿مَا﴾ إمّا موصولة مفيدة للتهويل، والضميرُ المجرور عائد إليها، والجارُّ متعلّق بالفعل، وتقديمُه عليه لرعاية الفواصل، أي: فأحاط بهم الذي كانوا يستهزءون به حيث أُهلكوا لِأجله. وإمّا مصدريّة، فالضمير المجرور راجع حينئذ إلى جنس الرسول المدلول عليه بالجمع كما قالوا، ولعلّ إيثارَه على الجمع للتنبيه على أنّه يَحيق بهم جزاءُ استهزائهم بكلّ واحد واحد منهم عليهم السلام، لا جزاءُ استهزائهم بكلّهم مِن حيث هو كلّ فقط، أي: فنزل بهم جزاء استهزائهم، على وضع السبب موضع المسبَّب إيذانًا بكمال الملابسة بينهما، أو عينُ استهزائهم إن أريد بذلك العذاب الأخروي بناءً على تجسّم الأعمال، فإنّ الأعمال الظاهرة في هذه النشأة بصُورٍ عرضيّة تُبرَز في النشأة الآخرة بصُورٍ جوهريّة مناسبة لها في الحسن والقبح، وعلى ذلك بُني الوَزن، وقد مرّ تفصيله في سورة الأعراف،[2] وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ الآية إلى آخرها [يونس، ١٠/٢٣].

﴿قُلۡ مَن يَكۡلَؤُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحۡمَٰنِۚ بَلۡ هُمۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِم مُّعۡرِضُونَ ۝٤٢﴾

﴿قُلۡ﴾ خطاب لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم إثرَ تسليته بما ذُكر مِن مصير أمرهم إلى الهلاك، وأَمرٌ له عليه السلام بأن يقول لأولئك المستهزئين بطريق التقريع والتبكيت: ﴿مَن يَكۡلَؤُكُم﴾ أي: يحفظكم ﴿بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ أي: مِن بأسه الذي تستحقّون نزوله ليلًا أو نهارًا؟ وتقديم الليل لِما أنّ الدواهي أكثر فيه وقوعًا وأشدّ وَقعًا. وفي التعرّض لعنوان الرحمانيّة إيذانٌ بأنّ كالِئهم ليس إلّا رحمتَه العامّة.

---

[1] معاني القرآن للزجّاج، ٢/٢٣١.

[2] الأعراف، ٧/٨.

وبعد ما أُمر عليه السلام بما ذُكر مِن السؤال على الوجه المذكور حسبما يقتضيه حالهم لأنّهم بحيث لولا أنّ الله تعالى يحفظهم في المَلَوَين[1] لحلَّ بهم فنون الآفات، فَهُم أحِقّاء بِأن يُكَلَّفُوا الاعتراف بذلك فيُوَبَّخوا على ما هم عليه مِن الإشراك، أُضرِبَ عن ذلك بقوله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ﴾ بِبَيان أنّ لهم حالًا أخرى مقتضيةً لصَرف / الخطاب عنهم، هي أنّهم لا يُخطِرُون ذكره تعالى ببالهم فضلًا أن يخافوا بأسَه ويعدّوا ما كانوا عليه مِن الأمْن والدَّعَة حفظًا وكِلاءةً حتّى يُسألوا عن الكالئ، على طريقة[2] قول مَن قال: [٨٦و]

عُوجوا فَحَيُّوا لِنُعْمٍ[3] دِمْنَةَ الدارِ ماذا تُحَيُّون مِن نُؤْيٍ وأحجارِ[4]

وفي تعليق الإعراض بذكره تعالى وإيرادِ اسم الربّ المضافِ إلى ضميرهم المنبئ عن كونهم تحت ملكوته وتدبيره وتربيته تعالى مِن الدلالة على كونهم في الغاية القاصية مِن الضلالة والغيّ ما لا يخفى.

﴿أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَاۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾﴾

وكلمةُ ﴿أَمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا﴾ منقطعة، وما فيها مِن معنى "بل" للإضراب والانتقال عمّا قبله -مِن بيان أنّ جهلَهم بحفظه تعالى إيّاهم لعدم خوفهم الناشئ عن إعراضهم عن ذكر ربّهم بالكلّيّة- إلى توبيخهم باعتمادهم على آلهتهم وإسنادهم الحفظَ إليها. و"الهمزةِ"[5] لإنكار أن تكون لهم آلهة تقدِر على ذلك. والمعنى: بل أَلَهم آلهةٌ تمنعهم مِن العذاب تتجاوز مَنْعَنا أو حفظنا، أو مِن عذاب كائنٍ مِن عندنا، فهم معوّلون عليها واثِقون بِحفظها؟

وفي توجيه الإنكار والنفي إلى وجود الآلهة الموصوفة بما ذُكر مِن المنع -لا إلى نفس الصفة بأن يقال: أم تمنعهم آلهتهم... إلخ- مِن الدلالة على سقوطها عن مرتبة الوجود فضلًا عن رتبة المنع ما لا يخفى.

---

[1] وفي هامش م: أي: الليل والنهار. | انظر: الصحاح للجوهري، «ملا».

[2] وفي هامش م: متعلّق بقوله: "أُضرِب عن ذلك"، لا بقوله: "يُسألوا". «منه».

[3] م ط س - لِنُعمى ["صح" في هامش م]. | فلعلّه صحّحها بعد نسخ ط س.

[4] للنابغة الذبياني في ديوانه، ص ٢٠٢، بلفظ: "لنُعْمٍ".

[5] أي: وما فيها مِن معنى الهمزةِ...

وقوله عزّ وعلا: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾ استئناف مقرِّر لِما قبله مِن الإنكار، وموضّح لبطلان اعتقادهم، أي: هم لا يستطيعون أن ينصروا أنفسهم، ولا يُصحَبون بالنصر مِن جهتنا، فكيف يُتوهَّم أن يَنصروا غيرهم؟

﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ﴾ إضراب عمّا توهّموا / ببيان أنّ الداعي إلى حفظهم تمتيعُنا إيّاهم بما قُدّر لهم مِن [٨٦ظ] الأعمار، أو عن الدلالة على بطلانه ببيان ما أوهمهم ذلك، وهو أنّه تعالى متّعهم بالحياة الدنيا وأمهلهم حتّى طالت أعمارهم، فحسبوا أن لا يزالوا كذلك، وأنّه بسبب ما هم عليه، ولذلك عُقّب بما يدلّ على أنّه طمع فارغ وأمل كاذب حيث قيل: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ﴾ أي: ألا ينظرون فلا يرون ﴿أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ﴾ أي: أرضَ الكفرة ﴿نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ فكيف يتوهّمون أنّهم ناجون مِن بأسنا؟ وهو تمثيل وتصوير لِما يخرّبه الله عزّ وجلّ مِن ديارهم على أيدي المسلمين، ويضيفها إلى دار الإسلام.

﴿أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم والمؤمنين. و"الفاء" لإنكار ترتيب الغالبيّة على ما ذكر مِن نقص أرض الكفرة بتسليط المسلمين عليها، كأنّه قيل: أَبَعْدَ ظهور ما ذُكِر ورؤيتهم له يُتوهّم غلَبتُهم؟ كما مرّ في قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [هود، ١١/١٧]، وقولِه تعالى: ﴿قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ [الرعد، ١٣/١٦]. وفي التعريف تعريض بأنّ المسلمين هم المتعيَّنون للغلَبة المعروفون بها.

﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾﴾

﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم﴾ بعد ما بُيّن مِن جهته تعالى غايةُ هول ما يستعجله المستعجلون، ونهايةُ سوء حالهم عند إتيانه، ونُعِي عليهم جهلُهم بذلك وإعراضُهم عن ذكر ربّهم الذي يكلؤهم مِن طوارق الليل والنهار وغيرُ ذلك

مِن مساوي أحوالهم، أُمِر عليه السلام بأن يقول لهم: ﴿إِنَّمَآ أُنذِرُكُم﴾ ما تستعجلونه مِن الساعة ﴿بِٱلْوَحْيِ﴾ الصادقِ الناطق بإتيانها وفظاعة ما فيها مِن الأهوال، أي: إنّما شأني أن أنذركم بالإخبار بذلك، لا بالإتيان بها، فإنّه مزاحم للحكمة التكوينيّة والتشريعيّة، إذ الإيمان برهاني لا عِياني.

[٨٧و] وقوله تعالى: / ﴿وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ﴾ إمّا مِن تتمّة الكلام الملقَّن تذييل له بطريق الاعتراض، قد أُمِر عليه السلام بأن يقوله لهم توبيخًا وتقريعًا وتسجيلًا عليهم بكمال الجهل والعناد. و"اللام" للجنس المنتظِم للمخاطَبين انتظامًا أوّليًا، أو للعهد، فوُضع المُظهَر مَوضع المُضمَر للتسجيل عليهم بالتصامّ. وتقييد نفي السماع بقوله تعالى: ﴿إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ مع أنّ الصمّ لا يسمعون الكلام إنذارًا كان أو تبشيرًا لبيان كمال شدّة الصمَم، كما أنّ إيثار الدعاء الذي هو عبارة عن الصوت والنداء على الكلام لذلك، فإنّ الإنذار عادةً يكون بأصوات عالية مكرّرة مقارِنة لهيئاتٍ دالّة عليه، فإذا لم يسمعوها يكون صمَمهم في غايةٍ لا غايةَ وراءها.

وإمّا مِن جهته تعالى[١] على طريقة قولِه تعالى: ﴿بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ﴾،[٢] ويؤيّده القراءة على خطاب النبيّ صلّى الله عليه وسلّم مِن "الإسماع" بنصب ﴿ٱلصُّمُّ﴾ و﴿ٱلدُّعَآءَ﴾،[٣] كأنّه قيل: قل لهم ذلك وأنت بمَعزِل مِن إسماعهم. وقُرئ بالياء أيضًا[٤] على أنّ الفاعل هو عليه السلام. وقُرئ على البناء للمفعول،[٥] أي: لا يقدر أحد على إسماع الصمّ.

﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ﴾ بيان لسرعة تأثّرهم مِن مجيء

---

[١] السياق: إمّا مِن تتمّة الكلام... وإمّا مِن جهته تعالى...

[٢] الأنبياء، ٤٢/٢١. | وفي هامش م: وما ذُكر في تفسيره مِن البيت. «منه».

[٣] أي: "وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ". قرأ بها ابن عامر. النشر لابن الجزري، ٣٢٣/٢.

[٤] أي: "وَلَا يُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ". قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وأبي عمرو وكرداب وأحمد بن جبير عن اليزيدي. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣١٧.

[٥] أي: "وَلَا يُسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءُ". قراءة شاذّة، ذكرها المفسّرون ولم أجد مَن ذكر قارئها. انظر: الكشّاف للزمخشري، ١١٩/٣؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٤٣٤/٧.

نفس العذاب إثرَ بيان عدم تأثّرهم بمجيء[1] خبره على نهج التوكيد القَسمي، أي: وبالله لئن أصابهم أدنى إصابة أدنى شيءٍ مِن عذابه تعالى كما ينبئ عنه المسّ والنفحة بجوهرها وبنائها، فإنّ أصل "النفح" هبوب رائحة الشيء.

﴿لَيَقُولُنَّ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ لَيَدْعُنّ على أنفسهم بالويل والهلاك، ويعترِفُنّ عليها بالظلم.

﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلۡفُرۡقَانَ وَضِيَآءٗ وَذِكۡرٗا لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ﴾ بيان لِما سيقع عند إتيان ما أُنذِروه، أي: نقيم الموازين العادلة التي توزَن بها صحائف الأعمال. / وقيل: وضعُ [٨٧ظ] الموازين تمثيل لإرصاد الحساب السويّ والجزاء على حسب الأعمال، وقد مرّ تفصيل ما فيه مِن الكلام في سورة الأعراف.[2] وإفراد ﴿ٱلۡقِسۡطَ﴾ لأنّه مصدر وُصف به مبالغة.

﴿لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ التي كانوا يستعجلونها، أي: لِجزائه، أو لأجل أهله، أو فيه كما في قولك: "جِئتُ لِخمسٍ خَلَون مِن الشهر".

﴿فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ﴾ مِن النفوس ﴿شَيۡـٔٗا﴾ حقًّا مِن حقوقها، أو شيئًا ما مِن الظلم؛ بل يوفّى كلّ ذي حقّ حقّه، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشرّ. و"الفاء" لترتيب انتفاء الظلم على وضع الموازين.

﴿وَإِن كَانَ﴾ أي: العملُ المدلولُ عليه بوضع الموازين ﴿مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ﴾ أي: مقدارَ حبّة كائنة مِن خردل، أي: وإن كان في غاية القِلّة والحقارة، فإنّ حبّة الخردل مَثَل في الصِغَر. وقُرئ: "مِثْقَالُ حَبَّةٍ" بالرفع[3] على أنّ ﴿كَانَ﴾ تامّة.

﴿أَتَيۡنَا بِهَا﴾ أي: أحضرنا ذلك العمل المعبَّر عنه بمثقال حبّة الخردل للوزن.

---

١ ط س: مِن مجيء.

٢ الأعراف، ٨/٧.

٣ قرأ بها نافع وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٣٢٤/٢.

والتأنيث لإضافته إلى الحبّة. وقُرئ: "آتَيْنَا بِهَا"،[١] أي: جازينا بها، مِن "الإيتاء" بمعنى المجازاة والمكافأة؛ لأنّهم أتَوه بالأعمال وأتاهم بالجزاء. وقُرئ: "أَثَبْنَا"[٢] مِن الثواب. وقُرئ: "جِئْنَا بِهَا".[٣]

﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ إذ لا مزيدَ على علمنا وعدلنا.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا[٤] لِّلْمُتَّقِينَ﴾ نوعُ تفصيلٍ لِما أُجمِل في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ﴾،[٥] وإشارة إلى كيفيّة إنجائهم وإهلاك أعدائهم. وتصديره بالتوكيد القَسمي لإظهار كمال الاعتناء بمضمونه.

والمراد بـ﴿ٱلْفُرْقَانَ﴾ هو التوراة، وكذا بـ"الضياء" و"الذكرى"، أي: وبالله لقد آتيناهما وحيًا ساطعًا وكتابًا جامعًا بين كونه فارقًا بين الحقّ والباطل وضياءً يُستَضاءُ به في ظلمات الجهلِ والغِواية، / وذكرى يتّعظ به الناس. وتخصيصُ [٨٨و] المتّقين بالذكر لأنّهم المستضيئون بأنواره المغتنمون لمغانم آثاره،[٦] أو ذكرى ما يحتاجون إليه مِن الشرائع والأحكام.

وقيل: ﴿ٱلْفُرْقَانَ﴾ النصر. وقيل: فَلْق البحر. والأوّل هو اللائق بمساق النظم الكريم، فإنّه لتحقيق أمر القرآن المشارك لسائر الكتب الإلهيّة لا سيّما التوراة فيما ذكر مِن الصفات، ولأنّ فَلْق البحر هو الذي اقترح الكفرة مثلَه بقولهم: ﴿فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾.[٧] وقُرئ: "ضِيَاءً"[٨] بغير واوٍ على أنّه حال مِن ﴿ٱلْفُرْقَانَ﴾.

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس رضي الله عنهما ومجاهد وابن جبير ومحمّد بن جعفر وابن شريح. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣١٨.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن حُميد بن قيس. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣١٨.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه. انظر: **الكشّاف** للزمخشري، ١٢٠/٣؛ **والبحر المحيط** لأبي حيّان، ٤٣٦/٧.

[٤] م ط س: وذكرى. | قال أبو عمرو الداني: «وكتبوا ﴿وَضِيَآءً وَذِكْرًا﴾ بالألف، كلّ ما كان منوّنًا فهو مثل ذلك، نحو قوله: ﴿أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ [البقرة، ٢٠٠/٢] و﴿مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا﴾ [طه، ٩٩/٢٠] و﴿إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾ [الطلاق، ١٠/٦٥]، ورُسم جميعه في كلّ المصاحف بالألف على نيّة الوقف، ولا يجوز غير ذلك». **المقنع** لأبي عمرو، ص ٩١.

[٥] الأنبياء، ٧/٢١-٩.

[٦] وفي هامش م: اغتنم عنده غنيمةً.

[٧] الأنبياء، ٥/٢١.

[٨] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس رضي الله عنهما وعكرمة والضحّاك. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣١٨.

﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم﴾ أي: عذابَهُ، مجرور المحلّ على أنّه صفة مادحة للمتّقين، أو بدل، أو بيان، أو منصوب، أو مرفوع على المدح. ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ حال مِن المفعول، أي: يخشَون عذابه تعالى وهو غائب عنهم غير مشاهَد لهم، ففيه تعريض بالكفرة حيث لا يتأثّرون بالإنذار ما لم يشاهدوا ما أُنذِروه. وقيل: مِن الفاعل.

﴿وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ أي: خائفون منها بطريق الاعتناء. وتقديم الجارّ لمراعاة الفواصل، وتخصيصُ إشفاقهم منها بالذكر بعد وصفهم بالخشية على الإطلاق للإيذان بكونها معظم المَخوفات، وللتنصيص على اتّصافهم بضدّ ما اتّصف به المستعجلون. وإيثار الجملة الاسميّة للدلالة على ثبات الإشفاق ودوامه.

﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾﴾

﴿وَهَٰذَا﴾ أي: القرآن الكريم، أشيرَ إليه بهذا إيذانًا بغاية وضوح أمره ﴿ذِكْرٌ﴾ يتذكّر به مَن تذكّر. وُصِف بالوصف الأخير للتوراة لمناسبة المقام وموافقته لِما مرّ في صدر السورة الكريمة.[١] ﴿مُّبَارَكٌ﴾ كثير الخير، غزير النفع، يُتَبَرَّكُ به. ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ إمّا صفة ثانية لِـ﴿ذِكْرٌ﴾ / أو خبر آخر. [٨٨ظ]

﴿أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ إنكار لإنكارهم بعد ظهور كون إنزاله كإيتاء التوراة، كأنّه قيل: أبَعدَ أن علِمتم أنّ شأنه كشأن التوراة في الإيتاء والإيحاء أنتم منكرون لكونه منزَّلًا مِن عندنا؟ فإنّ ذلك بعد ملاحظة حال التوراة ممّا لا مساغَ له أصلًا.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ﴾ أي: الرشدَ اللائق به وبأمثاله مِن الرسل الكبار، وهو الاهتداء الكامل المستند إلى الهداية الخاصّة الحاصلة بالوحي، والاقتدارُ

---

[١] وهو قوله تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ﴾ [الأنبياء، ٢١/٢].

على إصلاح الأمّة باستعمال النواميس الإلهيّة. وقُرئ: "رَشَدَهُ"،[1] وهما لغة، كالحُزْن والحَزَن. ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: مِن قبل إيتاءِ موسى وهارون التوراة. وتقديم ذكر إيتائها لِما بينه وبين إنزال القرآن مِن الشبَه التامّ. وقيل: مِن قَبل استنبائه، أو قبل بلوغه،[2] ويأباه المقام.

﴿وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾ أي: بأنّه أهل لِما آتيناه. وفيه مِن الدليل على أنّه تعالى عالم بالجزئيّات، مختار في أفعاله ما لا يخفى.

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ۝٥٢ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ۝٥٣ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٥٤﴾

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ﴾ ظرف لـ﴿ءَاتَيْنَا﴾[3] على أنّه وقت متّسع وقع فيه الإيتاء وما ترتّب عليه مِن أفعاله وأقواله. وقيل: مفعول لمُضمَر مستأنَف وقع تعليلًا لِما قبله، أي: اذكر وقتَ قوله لهم: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ لتقِف على كمال رشده وغايةِ فضله. والتِّمثال: اسم لشيء مصنوع مشبَّهًا بخلقٍ مِن خلائق الله تعالى.

وهذا تجاهل منه عليه السلام حيث سألهم عن أصنامهم بـ﴿مَا﴾ التي يطلب بها بيان الحقيقة أو شرحُ الاسم، كأنّه لا يعرف أنّها ماذا مع إحاطته بأنّ حقيقتها حجَر أو شجَر اتّخذوها معبودًا. وعَبّر عن عبادتهم لها بمطلق العكوف الذي هو عبارة عن اللزوم والاستمرار على الشيء لغرض مِن الأغراض قصدًا إلى تحقيرها وإذلالها، وتوبيخًا لهم / على إجلالها. و"اللام" في ﴿لَهَا﴾ للاختصاص [٨٩و] دون التعدية، وإلّا لَجيء بكلمة "على". والمعنى: أنتم فاعلون العكوف لها.

وقد جُوّز تضمين العكوف معنى العبادة كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ﴾ أجابوا بذلك لِما أنّ مآل سؤاله عليه السلام الاستفسار عن سبب عبادتهم لها كما ينبئ عنه وصفُه عليه السلام إيّاهم بالعكوف لها،

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى البصرة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣١٨.

[2] قاله البيضاوي في أنوار التنزيل، ٥٣/٤.

[3] في الآية السابقة.

كأنّه عليه السلام قال: ما هي؟ هل تستحقّ ما تصنعون مِن العكوف عليها؟ فلمّا لم يكن لهم ملجأ يُعتدّ به التجئوا إلى التقليد فأبطله عليه السلام على طريقة التوكيد القَسمي حيث ﴿قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ﴾ الذين سنّوا لكم هذه السنّة الباطلة ﴿فِى ضَلَٰلٍ﴾ عجيبٍ لا يقادَر قدرُه ﴿مُّبِينٍ﴾ أي: ظاهرٍ بيّنٍ بحيث لا يخفى على أحد مِن العقلاء كونُه كذلك.

ومعنى ﴿كُنتُمْ﴾ مطلق استقرارهم على الضلال، لا استقرارُهم الماضي الحاصل قبل زمان الخطاب المتناولُ لهم ولآبائهم، أي: والله لقد كنتم مستقرّين على ضلال عظيم ظاهر لعدم استناده إلى دليلٍ ما، والتقليد إنّما يجوز فيما يحتمل الحقّيّة في الجملة.

﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ۝٥٥﴾

﴿قَالُوٓاْ﴾ لمّا سمعوا مقالته عليه السلام استبعادًا لكون ما هم عليه ضلالًا وتعجّبًا مِن تضليله عليه السلام إيّاهم بطريق التوكيد القَسمي، وتردّدًا في كون ذلك منه عليه السلام على وجه الجدّ: ﴿أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بالجِدّ ﴿أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ﴾ فتقول ما تقول على وجه المداعبة والمزاح. وفي إيراد الشقّ الأخير بالجملة الاسميّة الدالّة على الثبات إيذان برجحانه عندهم.

﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۝٥٦﴾

﴿قَالَ﴾ عليه السلام إضرابًا عمّا بنَوا عليه مقالتهم مِن اعتقاد كونها أربابًا لهم كما يُفصح عنه قولهم: ﴿نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ﴾ [الشعراء، ٢٦/٧١]، كأنّه قيل: ليس الأمر كذلك ﴿بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ﴾ وقيل: هو إضراب عن كونه لاعبًا بإقامة البرهان على ما ادّعاه. وضمير ﴿هُنَّ﴾ لـ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

وصفه تعالى بإيجادهنّ إثْرَ وَصْفِه تعالى بربوبيّته تعالى لهنّ تحقيقًا للحقّ وتنبيهًا على أنّ ما لا يكون كذلك بمَعزِل مِن الربوبيّة، أي: أنشأهنّ بما فيهنّ

[٨٩ظ] مِن المخلوقات التي مِن جملتها أنتم / وآباؤكم وما تعبدونه مِن غير مثال يحتذيه، ولا قانون ينتحيه. ورجعُ الضمير إلى ﴿ٱلتَّمَاثِيلُ﴾[1] أدخَل في تضليلهم، وأظهرُ في إلزام الحجّة عليهم، لِما فيه مِن التصريح المُغني عن التأمّل في كون ما يعبدونه مِن جملة المخلوقات.

﴿وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم﴾ الذي ذكرته مِن كون ربّكم ربَّ السماوات والأرض فقط دون ما عداه كائنًا ما كان ﴿مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ أي: العالِمين به على سبيل الحقيقة المُبرهِنين عليه، فإنّ الشاهد على الشيء مَن تَحقّقه وحقّقه، وشهادتُه على ذلك إدلاؤه بالحجّة عليه وإثباته بها، كأنّه قال: وأنا أبيّن ذلك وأبرهِن عليه.

﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ۝٥٧﴾

﴿وَتَٱللَّهِ﴾ وقُرئ بالباء،[2] وهو الأصل، والتاء بدل مِن الواو التي هي بدل مِن الأصل، وفيها تعجّب، ﴿لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم﴾ أي: لأجتهدنّ في كسرها. وفيه إيذان بصعوبة الانتهاز وتوقّفه على استعمال الحيَل، وإنّما قاله عليه السلام سرًّا. وقيل: سمعه رجل واحد.

﴿بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ﴾ مِن عبادتها إلى عيدكم. وقُرئ: "تَوَلَّوا"[3] مِن "التولّي" بحذف إحدى التاءَين، ويعضُدها قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾ [الصافات، ٣٧/٩٠].

﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ۝٥٨﴾

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ﴾ فصيحة، أي: فوَلَّوْا فجعلهم ﴿جُذَٰذًا﴾ أي: قِطاعًا، "فُعال" بمعنى مفعول، مِن "الجَذّ" الذي هو القطع، كالحُطام مِن "الحَطْم" الذي هو الكَسر. وقُرئ بالكسر[4] وهي لغة، أو جمع "جَذيذ"، كخِفاف وخَفيف.

---

[1] الأنبياء، ٢١/٥٢.
[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن معاذ بن جبل رضي الله عنه وأحمد بن حنبل. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣١٨.
[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى بن عمر. البحر المحيط لأبي حيّان. ٧/٤٤٥.
[4] قرأ بها الكسائي. النشر لابن الجزري، ٢/٣٢٤.

وقُرِئ بالفتح.[١] و"جُذُذًا"[٢] جمع "جَذيذ"، و"جُذَذًا"[٣] جمع "جُذّة".[٤]

رُوِي أنّ آزَر خرج به في يوم عيدٍ لهم، فبدءوا ببيت الأصنام فدخلوه، فسجدوا لَها ووضعوا بينها طعامًا خرجوا به معهم، وقالوا: إلى أن نرجِعَ برّكت الآلهة على طعامنا، فذهبوا وبقي إبراهيم عليه السلام، فنظر إلى الأصنام، وكانت سبعين صنمًا مصطفًّا، وثَمّ صنم عظيم مستقبل الباب، وكان مِن ذهَب، وفي عينيه جوهرتان تضيئان بالليل، فكسر الكلَّ بفأس كان في يده، ولم يُبقِ إلّا الكبير، وعلّق الفأس / في عنقه.[٥] [٩٠و]

وذلك قوله تعالى: ﴿إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ﴾ أي: للأصنام ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ﴾ أي: إلى إبراهيم عليه السلام ﴿يَرْجِعُونَ﴾ فيحاجّهم بما سيأتي فيحجّهم ويبكّتهم. وقيل: يَرجعون إلى الكبير فيسألونه عن الكاسر؛ لأنّ مِن شأن المعبود أن يُرجَع إليه في المُلمّات. وقيل: يَرجعون إلى الله تعالى وتوحيده عند تحقّقهم عجز آلهتهم عن دفع ما يصيبهم وعن الإضرار بمَن كسَرهم.

﴿قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥٩﴾

﴿قَالُواْ﴾ أي: حين رجعوا مِن عيدهم ورأَوا ما رأَوا: ﴿مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ﴾ على طريقة الإنكار والتوبيخ والتشنيع. وإنّما عبّروا عنها بما ذُكر ولم يشيروا إليها بـ"هؤلاءِ" وهي بين أيديهم مبالغةً في التشنيع. وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ استئناف مقرِّر لِما قبله.

وقيل: ﴿مَن﴾ موصولة، وهذه الجملة في حيّز الرفع على أنّها خبر لها، والمعنى: الذي فعل هذا الكَسْر والحَطْم بآلهتنا إنّه معدود مِن جملة الظلَمة،

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس رضي الله عنهما وأبي نهيك وأبي السَّمّال. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣١٨.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن يحيى بن وثاب. **البحر المحيط** لأبي حيّان. ٤٤٥/٧.

[٣] قراءة شاذّة، ذكرها المفسّرون ولم أجد مَن ذكر قارئها. انظر: **الكشّاف** للزمخشري، ١٢٣/٣؛ **والبحر المحيط** لأبي حيّان. ٤٤٥/٧.

[٤] ما عليه جُذّةٌ، أي: شيء مِن الثياب. **الصحاح** للجوهري، «جذذ».

[٥] **الكشّاف** للزمخشري، ١٢٣/٣؛ **اللباب** لابن عادل، ٥٢٧/١٣.

إمّا لجرأته على إهانتها وهي حقيقة بالإعظام، أو لإفراطه في الكَسْر والحَطْم، وتماديه في الاستهانة بها، أو بتعريض نفسه للهلَكة.

﴿قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ۝٦٠﴾

﴿قَالُواْ﴾ أي: بعض منهم مجيبين للسائلين: ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ﴾ أي: يَعيبهم، فلعلّه فعل ذلك بها. فقوله تعالى: ﴿يَذْكُرُهُمْ﴾ إمّا مفعول ثان لـ﴿سَمِعَ﴾ لتعلّقه بالعين، أو صفة لـ﴿فَتًى﴾ مُصحِّحة لتعلّقه به. هذا إذا كان القائلون سمعوه عليه السلام بالذات يَذكرهم، وإن كانوا قد سمعوا مِن الناس أنّه عليه السلام يَذكرهم بسوء فلا حاجة إلى المصحِّح. ﴿يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾ صفة أخرى لـ﴿فَتًى﴾، أي: يطلق عليه هذا الاسم.

﴿قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ۝٦١﴾

﴿قَالُواْ﴾ أي: السائلون: ﴿فَأْتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ﴾ أي: بمرأى منهم بحيث يكون نُصب أعينهم في مكان مرتفع لا يكاد يخفى على أحد، ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ أي: يحضرون عقوبتنا له. وقيل: / لعلّهم يشهدون بفعله أو بقوله ذلك، فالضمير [٩٠ظ] حينئذ ليس لـ﴿ٱلنَّاسِ﴾؛ بل لبعضٍ منهم مبهَمٍ أو معهود.

﴿قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۝٦٢﴾

﴿قَالُوٓاْ﴾ استئناف مبنيّ على سؤال نشأ مِن حكاية قولهم، كأنّه قيل: فماذا فعلوا به بعد ذلك؟ هل أتَوا به أو لا؟ فقيل: قالوا: ﴿ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ اقتصارًا على حكاية مخاطبتهم إيّاه عليه السلام للتنبيه على أنّ إتيانهم به ومسارعتَهم إلى ذلك أمر محقَّق غنيّ عن البيان.

﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ۝٦٣ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٦٤﴾

﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ مشيرًا إلى الذي لم يكسره. سلَك عليه السلام مسلكًا تعريضيًا يؤدّيه إلى مقصده الذي هو إلزامهم الحجّةَ على ألطف وجه

وأحسنِه بحملهم على التأمّل في شأن آلهتهم، مع ما فيه مِن التوقّي مِن الكذب، حيث أبرز الكبير قولًا في معرض المباشر للفعل بإسناده إليه، كما أبرزه في ذلك المعرض فعلًا بجعل الفأس في عنقه، وقد قصد إسناده إليه بطريق التسبيب حيث كانت تلك الأصنام غاظَتْهُ[1] عليه السلام حين أبصرها مصطفّة مرتّبةً للعبادة مِن دون الله سبحانه، وكان غيظ كبيرها أكبر وأشدّ حسب زيادة تعظيمهم له، فأسند الفعل إليه باعتبار أنّه الحامل عليه.

وقيل: هو حكاية لِما يقود إلى تجويزه مذهبُهم، كأنّه قال لهم: «ما تنكرون[2] أن يفعله كبيرهم؟ فإنّ مِن حقّ مَن يُعبَدُ ويُدعَى إلهًا أن يقدر على ما هو أشدّ مِن ذلك». ويُحكى أنّه عليه السلام قال: «فعله كبيرهم هذا، غَضِبَ أن تُعْبَدَ معه هذه الصغار وهو أكبر منها»، فيكون تمثيلًا أراد به عليه السلام تنبيههم على غضب الله تعالى عليهم لإشراكهم بعبادته الأصنامَ.

وأمّا ما قيل[3] مِن أنّه عليه السلام لم يقصد نسبة الفعل الصادر عنه إلى الصنم؛ بل إنّما قصد تقريره لنفسه وإثباته لها على أسلوب تعريضي يبلغ فيه غرضه مِن إلزامهم الحجّةَ وتبكيتِهم، ومثّل لذلك بما لو قال / لك أمّي فيما [٩١و] كتبته بخطّ رشيق وأنت شهير بحُسن الخطّ: أَأَنتَ كتبتَ هذا؟ فقلتَ له: بل أنت كتبتَه، كان قصدُك تقريرَ الكتابة لنفسك مع الاستهزاء بالسائل، لا نفيَها عنك وإثباتها له؛ فبمَعزِل مِن التحقيق؛ لأنّ خلاصة المعنى في المثال المذكور مجرّد تقرير الكتابة لنفسك وادّعاء ظهور الأمر مع الاستهزاء بالسائل وتجهيلهِ في السؤال؛ لابتنائه على أنّ صدورها عن غيرك محتمل عنده مع استحالته عندك.

ولا ريب في أنّ مراده عليه السلام مِن إسناد الكسر إلى الصنم ليس مجرّدَ تقريره لنفسه ولا تجهيلَهم في سؤالهم؛ لابتنائه على احتمال صدوره عن الغير عندهم؛ بل إنّما مراده عليه السلام توجيهُهم نحو التأمّل في أحوال أصنامهم كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ﴾ أي: إن كانوا ممّن يمكن أن ينطقوا.

---

[1] س: عاظته.

[2] س: ما ينكرون.

[3] قاله الزمخشري في الكشّاف، ١٢٤/٣.

وإنّما لم يقل عليه السلام: إن كانوا يسمعون، أو يعقلون، مع أنّ السؤال موقوف على السمع والعقل أيضًا، لِما أنّ نتيجة السؤال هو الجواب وأنّ عدم نطقهم أظهر، وتبكيتهم بذلك أدخل.

وقد حصل ذلك أوّلًا حسبما نطق به قوله تعالى: ﴿فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ أي: راجَعوا عقولَهم، وتذكّروا أنّ ما لا يقدر على دفع المضَرّة عن نفسه ولا على[1] الإضرار بمَن كسره بوجه مِن الوجوه يستحيل أن يقدر على دفع مضرّة عن غيره أو جلب منفعة له، فكيف يستحقّ أن يكون معبودًا؟ ﴿فَقَالُوٓاْ﴾ أي: قال بعضهم لبعضٍ فيما بينهم: ﴿إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي: بهذا السؤال؛ لأنّه كان على طريقة التوبيخ المستتبع للمؤاخذة، أو بعبادة الأصنام، لا مَن ظلّمتموه بقولكم: ﴿إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾،[2] أو أنتم الظالمون بعبادتها لا مَن كسرها.

﴿ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ٦٥﴾

﴿ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ﴾ أي: انقلبوا إلى المجادلة بعدما استقاموا بالمراجعة، شُبِّه عودهم إلى الباطل بصيرورة أسفل الشيء أعلاه. وقُرئ: "نُكِّسُوا" / بالتشديد،[3] و"نَكَسُوا"[4] على البناء للفاعل، أي: نكّسوا أنفسهم. [٩١ظ]

﴿لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾ على إرادة القول، أي: قائلين: والله لقد علمتَ أن ليس مِن شأنهم النطق، فكيف تأمرنا بسؤالهم؟ على أنّ المراد استمرار نفي النطق، لا نفيُ استمراره كما يوهمه صيغة المضارع.

﴿قَالَ أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ ٦٦﴾

﴿قَالَ﴾ مبكّتًا لهم: ﴿أَفَتَعۡبُدُونَ﴾ أي: أتعلمون ذلك فتعبدون ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: متجاوزين عبادته تعالى ﴿مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا﴾ مِن النفع ﴿وَلَا يَضُرُّكُمۡ﴾، فإنّ العلم بحاله المنافيةِ للألوهيّة ممّا يوجب الاجتناب عن عبادته قطعًا.

---

[1] س: عن.

[2] الأنبياء، ٥٩/٢١.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة بن مصرف وابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣١٩.

[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي جعفر رضوان. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣١٩.

﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝٦٧﴾

﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ تضجّر منه عليه السلام مِن إصرارهم على الباطل البيّن. وإظهار الاسم الجليل في موضع الإضمار لمزيد استقباح ما فعلوا. و﴿أُفٍّ﴾ صوتُ المتضجّر، ومعناه: قُبحًا ونَتْنًا. و"اللام" لبيان المتأفَّف له. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي: ألا تتفكّرون فلا تعقلون قُبح صنيعكم.

﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ۝٦٨ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۝٦٩﴾

﴿قَالُواْ﴾ أي: قال بعضهم لبعضٍ لمّا عجزوا عن المُحاجّة، وضاقت عليهم الحِيَل، وعَيَّت بهم العلل، وهكذا ديدن المبطِل المحجوج إذا قُرِعت شبهتُه بالحجّة القاطعة وافتُضِح لا يبقى له مَفزع إلّا المناصبة: ﴿حَرِّقُوهُ﴾ فإنّه أشدّ العقوبات ﴿وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ﴾ بالانتقام لها ﴿إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ أي: للنصر، أو لشيء يُعتدّ به. قيل: القائل نمرود بن كنعان بن السنحاريب بن نمرود بن كوس بن حام بن نوح.[1] وقيل: رجل مِن أكراد فارس اسمه هيّون. وقيل: هدير خسِفت به الأرض.

رُوي أنّهم لمّا أجمعوا على إحراقه عليه السلام بنَوا له حظيرة بكوثى؛[2] قرية مِن قرى الأنباط، وذلك قوله تعالى: ﴿قَالُواْ ٱبْنُواْ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِي ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات، ٣٧/٩٧]، فجمعوا له صِلاب الحطب مِن أصناف الخشب مدّة أربعين يومًا، فأوقدوا نارًا عظيمة لا يكاد يحوم حولها أحد، / حتّى إن كانت الطير [٩٢و] لتَمرّ بها وهي في أقصى الجوّ فتحترق مِن شِدّة وَهجها، ولم يكد أحد يحوم حولها، فلم يعلموا كيف يُلقونه عليه السلام فيها، فأتى إبليس وعلّمهم عمل المنجنيق فعملوه.

---

[1] في مطبوع الكشف والبيان للثعلبي، ٢/٢٣٩ (البقرة، ٢/٢٥٨): نمرود بن كنعان بن سخاريب بن كوش بن سام بن نوح.

[2] كُوثى: مدينة بالعراق إلى جانب بابل، وبها مشهد إبراهيم الخليل عليه السلام، وفتحها سعد بن أبي وقّاص في سنة عشر. انظر: معجم البلدان للحموي، ٤/٤٨٧؛ والروض المعطار للحميري، ص ٥٠٣.

وقيل: صنعه لهم رجل مِن الأكراد، فخسف الله تعالى به الأرض، فهو يتجَلجَل فيها إلى يوم القيامة، ثمّ عمدوا إلى إبراهيم عليه السلام فوضعوه فيه مغلولًا فرموا به فيها، فقال له جبريل عليهما السلام: «هل لك حاجة؟» قال: «أمّا إليك فلا»، قال: «فاسأل ربّك»، قال: «حسبي مِن سؤالي علمُه بحالي»، فجعل الله تعالى ببركة قوله الحظيرةَ روضةً.[١]

وذلك قوله تعالى: ﴿قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ أي: كوني ذات برد وسلام، أي: ابرُدي بردًا غيرَ ضارّ. وفيه مبالغات: جعلُ النار المسخّرة لقدرته تعالى مأمورةً مطاوِعة، وإقامةُ "كوني ذات بردٍ" مُقامَ "ابرُدي"، ثمّ حذفُ المضاف وإقامةُ المضاف إليه مُقامه. وقيل: نصب ﴿سَلَـٰمًا﴾ بفعله، أي: وسلّمنا سلامًا عليه.

رُوي أنّ الملائكة أخذوا بضَبعَي[٢] إبراهيم وأقعدوه على الأرض، فإذا عينُ ماءٍ عذب ووَرد أحمر ونرجِس.[٣] ولم تحرق النارُ منه إلّا وَثاقه.[٤]

ورُوي أنّه عليه السلام مكث فيها أربعين يومًا أو خمسين، وقال: «ما كنت أطيبَ عيشًا منّي إذ كنت فيها».[٥]

قال ابن يَسار: «وبعث الله تعالى مَلَك الظلّ، فقعد إلى جنبه يؤنسه، فنظر نمرود مِن صرحه فأشرف عليه، فرآه جالسًا في روضة مُونَقة ومعه جليس على أحسن ما يكون مِن الهيئة والنارُ محيطة به، فناداه: "يا إبراهيم، هل تستطيع أن تخرج منها؟" قال: "نعم"، قال: "فقُم فاخرج"، فقام يمشي فخرج منها، فاستقبله نمرود وعظّمه، وقال: "مَن الرجل الذي رأيته معك؟" قال: "ذلك ملَك الظلّ، أرسله ربّي ليؤنسني"، فقال: "إنّي مقرّب إلى إلهك قُربانًا لِما رأيت مِن قدرته / وعزّته فيما صنع بك"، فقال عليه السلام: "لا يقبل الله منك [٩٢ظ]

---

[١] الكشف والبيان للثعلبي، ٢٨١/٦؛ الكشّاف للزمخشري، ١٢٦/٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٥٥/٤.

[٢] الضَبعُ: العَضُد. الصحاح للجوهري، «ضبع».

[٣] قاله السدّي. الكشف والبيان للثعلبي، ٢٨٢/٦؛ اللباب لابن عادل، ٥٣٩/١٣.

[٤] قاله كعب. جامع البيان للطبري، ٣٠٧/١٦؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٨٢/٦.

[٥] تفسير ابن أبي حاتم، ٢٤٥٦/٨؛ اللباب لابن عادل، ٥٣٩/١٣.

ما دمت على دينك هذا"، قال: "لا أستطيع تركَ مُلكي، ولكن سوف أذبح له أربعة آلاف بقرة"، فذبحها وكفّ عن إبراهيم عليه السلام».[١] وكان إذا ذاك ابن ستّ عشرة سنةً.[٢]

وهذا كما ترى مِن أبدع المعجزات، فإنّ انقلاب النار هواءً طيّبًا وإن لم يكن بِدْعًا مِن قدرة الله عزّ وجلّ لكنّ[٣] وقوع ذلك على هذه الهيئة ممّا يخرق العادات. وقيل: كانت النار على حالها لكنّه تعالى دفع عنه عليه السلام أذاها كما تراه في السمَندر،[٤] كما يُشعر به ظاهر قوله تعالى: ﴿عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾.

﴿وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ ٧٠﴾

﴿وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا﴾ مكرًا عظيمًا في الإضرار به ﴿فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ﴾ أي: أخسرَ مِن كلّ خاسر، حيث عاد سعيهم في إطفاء نور الحقّ برهانًا قاطعًا على أنّه عليه السلام على الحقّ وهم على الباطل، وموجِبًا لارتفاع درجته واستحقاقهم لأشدّ العذاب.

﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا لِلۡعَٰلَمِينَ ٧١ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ نَافِلَةٗۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا صَٰلِحِينَ ٧٢﴾

﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا لِلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي: مِن العراق إلى الشام وبركاته العامّة، إنّ أكثر الأنبياء بُعِثوا فيه فانتشرت في العالمين شرائعهم التي هي مبادي الكمالات والخيرات الدينيّة والدنيويّة. وقيل: كثرة النعم والخِصب الغالب. رُوي أنّه عليه السلام نزل بِفلَسطين، ولوطٌ عليه السلام بالمؤتفكة، وبينهما مسيرة يوم وليلة.

---

[١] الكشف والبيان للثعلبي، ٢٨٢/٦؛ اللباب لابن عادل، ٥٣٩/١٣.

[٢] جامع البيان للطبري، ٣٠٨/١٦؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٨٢/٦.

[٣] س: ولكنّ.

[٤] السمَندل -باللام- طائر مشهور، وهو بـ"اللام" عند الأزهري، وبـ"الراء" عند غيره. وظاهر كلام القاموس أنّهما متغايران، فإنّه قال: «السمَندر والسمَيدر: دابّة»، وقال في "اللام": «السمَندل: طائر بالهند لا يحترق بالنار». حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، ٤٤/٦.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ أي: عطيّةً، فهي حال منهما، أو ولدَ ولدٍ، أو زيادة على ما سأل، وهو إسحاق فتختصّ بيعقوب، ولا لَبس فيه للقرينة الظاهرة. ﴿وَكُلًّا﴾ أي: كلَّ واحد مِن هؤلاء الأربعة، لا بعضَهم دونَ بعضٍ ﴿جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ﴾ بأن وفّقناهم للصلاح في الدين والدنيا فصاروا كاملين.

﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾

﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً﴾ يُقتدَى بهم في أمور الدين إجابةً لدعائه عليه السلام بقوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ [البقرة، ١٢٤/٢].

﴿يَهْدُونَ﴾ أي: الأمّة إلى الحقّ ﴿بِأَمْرِنَا﴾ لهم بذلك، وإرسالنا إيّاهم حتّى صاروا مكمَّلين، ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ ليحثّوهم عليه / فيَتمّ كمالُهم [٩٣و] بانضمام العمل إلى العلم. وأصلُه "أن تُفعَل الخيراتُ" ثمّ "فِعْلًا الخيراتُ"،[١] وكذا قوله تعالى: ﴿وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ وهو مِن عطف الخاصّ على العامّ دلالةً على فضله وإنافته، وحُذفت تاء الإقامة المعوّضة مِن إحدى الألفَين لقيام المضاف إليه مَقامه. ﴿وَكَانُوا۟ لَنَا﴾ خاصّةً دون غيرنا ﴿عَٰبِدِينَ﴾ لا يخطر ببالهم غيرُ عبادتنا.

﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾﴾

﴿وَلُوطًا﴾ قيل: هو منصوب بمُضمَر يفسّره قوله تعالى: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ﴾ أي: وآتينا لوطًا. وقيل: بـ"اذكر". ﴿حُكْمًا﴾ أي: حِكمةً، أو نبوّة، أو فصلًا بين الخصوم بالحقّ، ﴿وَعِلْمًا﴾ بما ينبغي علمه للأنبياء عليهم السلام. ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ أي: اللواطة، وُصفت بصفة أهلها وأُسندت إليها

---

[١] قال الشهاب الخفاجي: «و"الخيراتُ" في قوله: "فِعْلًا الخيراتُ" مرفوعة على القيام مَقام فاعله، وكونُ المصدر يكون مبنيًا للمفعول رافعًا لنائبه مختلف فيه، فأجاز ذلك الأخفش». حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، ٢٦٣/٦.

على حذف المضاف وإقامتِها مُقامه، كما يؤذِن به قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ﴾ فإنّه كالتعليل له.

﴿وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾﴾

﴿وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَا﴾ أي: في أهل رحمتنا، أو في جنّتنا. ﴿إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ الذين سبقت لهم منّا الحسنى.

﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾﴾

﴿وَنُوحًا﴾ أي: اذكر نوحًا، أي: خبره. وقوله تعالى: ﴿إِذْ نَادَىٰ﴾ أي: دعا الله تعالى على قومه بالهلاك، ظرف للمضاف المقدّر، أي: اذكر نبَأه الواقعَ وَقتَ دعائه ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: مِن قبلِ هؤلاء المذكورين، ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾ أي: دعاءَه الذي مِن جملته قوله: ﴿أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾ [القمر، ١٠/٥٤].

﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ وهو الطوفان، وقيل: أذيّة قومه. وأصل "الكَرْب" الغمّ الشديد.

﴿وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾﴾

﴿وَنَصَرْنَٰهُ﴾ نصرًا مستتبِعًا للانتقام والانتصار، ولذلك قيل: ﴿مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ وحملُه على "فَانْتَصَر"[١] يأباه ما ذُكر مِن دعائه عليه السلام،[٢] فإنّ ظاهره يوجب إسناد الانتصار إليه تعالى مع ما فيه مِن تهويل الأمر.

وقوله تعالى: / ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ﴾ تعليل لِما قبله، وتمهيد لِما بعده مِن قوله تعالى: ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ فإنّ الإصرار على تكذيب الحقّ والانهماك في الشرّ والفساد ممّا يوجب الإهلاك قطعًا. [٩٣ظ]

﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾﴾

---

١ انظر: الكشّاف للزمخشري، ١١٢٨/٣؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٥٧/٤.

٢ وفي هامش م: وهو قوله: ﴿أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾ [القمر، ١٠/٥٤]. «منه».

﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ﴾ إمّا عطفٌ على ﴿نُوحًا﴾[1] معمول لعامله، وإمّا لمُضمَر معطوف على ذلك العامل بتقدير المضاف، وقوله تعالى: ﴿إِذۡ يَحۡكُمَانِ﴾ ظرف للمضاف المقدّر، وصيغة المضارع حكاية للحال الماضية لاستحضار صورتها، أي: اذكر خبرَهما وقت حكمهما ﴿فِي ٱلۡحَرۡثِ﴾ أي: في حقّ الزرع، أو الكَرْم المُتدلّي عناقيدُه كما قيل، أو بدل اشتمال منهما.

وقوله تعالى: ﴿إِذۡ نَفَشَتۡ﴾ أي: تفرّقت وانتشرت ﴿فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ﴾ ليلًا بلا راعٍ فرَعَته وأفسدَتْه، ظرف للحكم. ﴿وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ﴾ أي: لحكم الحاكمَين والمتحاكِمين إليهما، فإنّ الإضافة لمجرّد الاختصاص المنتظِم لاختصاص القيام واختصاص الوقوع. وقُرئ: "لِحُكْمِهِمَا".[2] ﴿شَٰهِدِينَ﴾ حاضرين عِلمًا. والجملة اعتراض مقرِّر للحكم، ومفيد لمزيد الاعتناءِ بشأنه.

﴿فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ وَٱلطَّيۡرَۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ۝٧٩﴾

﴿فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَ﴾ عطفٌ على ﴿يَحۡكُمَانِ﴾،[3] فإنّه في حكم الماضي. وقُرئ: "فَأَفْهَمْنَاهَا".[4] والضمير للحكومة، أو الفتيا.

رُوي أنّه دخل على داود عليه السلام رجلان، فقال أحدهما: «إنّ غنَم هذا دخلت في حَرثي ليلًا فأفسدَتْه»، فقضى له بالغنم، فخرجا فمرّا على سليمان عليه السلام فأخبراه بذلك، فقال: «غير هذا أرفق بالفريقين»، فسمعه داود فدعاه، فقال له: «بحقّ النبوّة والأبوّة إلّا أخبرتني بالذي أرفق بالفريقين»، فقال: «أرى أن تدفع الغنم إلى صاحب الأرض لينتفع بدَرّها ونَسلها وصوفها، والحرْثَ إلى أرباب الغنم ليقوموا عليه حتّى يعودَ إلى ما كان، ثمّ يَترادّا»، فقال: «القضاء ما قضيتَ»، وأمضى الحكم بذلك.[5]

---

[1] الأنبياء، ٧٦/٢١.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه وابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣١٩.

[3] في الآية السابقة.

[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن عكرمة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣١٩.

[5] اللباب لابن عادل، ٥٥٢/١٣. ونحوه في الكشف والبيان للثعلبي، ٢٨٥/٦؛ والتفسير الوسيط للواحدي، ٢٤٦/٣.

والذي عندي أنّ حكمهما عليهما السلام كان بالاجتهاد، فإنّ قول سليمان عليه السلام: «غير هذا / أرفق بالفريقين»، ثمّ قولَه: «أرى أن تدفع»... إلخ [٩٤و] صريح في أنّه ليس بطريق الوحي، وإلّا لَبَتّ القول بذلك، ولَما ناشده[١] داودُ عليهما السلام لإظهار ما عنده؛ بل وجب عليه أن يظهره بَدءًا وحرُم عليه كَتمه، ومِن ضرورته أن يكون القضاء السابق أيضًا كذلك ضرورةَ استحالة نقضِ حكم النصّ بالاجتهاد؛ بل أقول -والله تعالى أعلم-: إنّ رأي سليمان عليه السلام استحسان، كما ينبئ عنه قوله: «أرفق بالفريقين»، ورأيَ داود عليه السلام قياس، كما أنّ العبد إذا جنى على النفس يدفعه المولى عند أبي حنيفة[٢] إلى المجنيّ عليه، أو يفديه ويبيعه في ذلك،[٣] أو يفديه عند الشافعي.[٤] وقد رُوي أنّه لم يكن بين قيمة الحَرث وقيمة الغنم تفاوت.

وأمّا سليمان عليه السلام فقد استحسن حيث جعل الانتفاع بالغنم بإزاء ما فات مِن الانتفاع بالحَرث مِن غير أن يزول مِلك المالك مِن الغنم، وأوجب على صاحب الغنم أن يعمل في الحَرث إلى أن يزول الضرر الذي أتاه مِن قِبَله، كما قال أصحاب الشافعي فيمن غصب عبدًا فأبَق منه: أنّه يضمن القيمة فينتفع بها المغصوب منه بإزاء ما فوّته الغاصب مِن المنافع، فإذا ظهر الآبِق ترادّا.[٥]

وفي قوله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾ دليل على رجحان قوله. ورجوع داود عليه السلام إليه مع أنّ الحكم المبنيّ على الاجتهاد لا يُنقَض باجتهاد آخر وإن كان أقوى منه لِما أنّ ذلك مِن خصائص شريعتنا، على أنّه ورد في الأخبار أنّ داود عليه السلام لم يكن بَتّ الحكم في ذلك حتّى سمع مِن سليمان ما سمع.

وأمّا حكم المسألة في شريعتنا فعند أبي حنيفة رحمه الله لا ضمان إن لم يكن معها سائق أو قائد،[٦] وعند الشافعي يجب الضمان ليلًا لا نهارًا.[٧]

---

[١] وفي هامش م: وقد ناشَدَهُ مناشَدة ونشادًا؛ حلّفه. «قاموس». «منه». | القاموس المحيط للفيروزابادي، «نشد».
[٢] س: أبيحنيفه.
[٣] انظر: ردّ المحتار لابن عابدين، ٦/٦١٣.
[٤] انظر: مغني المحتاج للخطيب الشربيني، ٥/٣٦٤.
[٥] انظر: نهاية المطلب للجويني، ٧/٢٨٦.
[٦] انظر: الهداية للمرغيناني، ٤/٤٨٣.
[٧] انظر: الحاوي الكبير للماوردي، ١٣/٤٦٦.

وقوله تعالى: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ لدفع ما عسى يوهمه تخصيص سليمان عليه السلام بالتفهيم مِن عدم كون حكم داود عليه السلام حكمًا شرعيًا، أي: وكلَّ واحد منهما آتينا حكمًا وعلمًا كثيرًا، لا سليمان وحده. / وهذا [٩٤ظ] إنّما يدلّ على أنّ خطأ المجتهد لا يقدَح في كونه مجتهدًا. وقيل: بل على أنّ كلّ مجتهد مصيب، وهو مخالف لقوله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾، ولولا النقل لاحتمل توافقهما، على أنّ قوله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾ لإظهار ما تفضّل عليه في صغره، فإنّه عليه السلام كان حينئذ ابن إحدى عشرة سنةً.

﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ﴾ شروع في بيان ما يختصّ بكلّ منهما مِن كراماته تعالى إثرَ بيان كرامته العامّة لهما. ﴿يُسَبِّحْنَ﴾ أي: يقدّسن الله عزّ وجلّ معه بصوت يتمثّل له، أو يخلق الله تعالى فيها الكلام. وقيل: يَسِرن معه، مِن السِّباحة. وهو حال مِن ﴿ٱلْجِبَالَ﴾، أو استئناف مبيّن لكيفيّة التسخير. و﴿مَعَ﴾ متعلّقة بالتسخير، وقيل: بالتسبيح،[1] وهو بعيد.

﴿وَٱلطَّيْرَ﴾ عطفٌ على ﴿ٱلْجِبَالَ﴾، أو مفعول معه. وقُرئ بالرفع[2] على الابتداء، والخبرُ محذوف، أي: والطير مسخَّرات. وقيل: على العطف على الضمير في ﴿يُسَبِّحْنَ﴾،[3] وفيه ضعف لعدم التأكيد والفصل.

﴿وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ أي: مِن شأننا أن نفعل أمثالَه، فليس ذلك ببِدْعٍ منّا وإن كان بديعًا عندكم.

﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾

﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ﴾ أي: عملَ الدرع، وهو في الأصل: اللباس، قال قائلهم:

الْبَسْ لكلّ حالةٍ لَبوسَها   إمّا نعيمَها وإمّا بُوسَها[4]

---

[1] انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤/٥٧.

[2] قراءة شاذّة، جوّزها الزجّاج، وقال: "ولا أعلم أحدًا قرأ بها". انظر: معاني القرآن إعرابه للزجّاج، ٣/٤٠٠؛ وشواذّ القراءات للكرماني، ص ٣١٩.

[3] انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤/٥٧.

[4] لبَيْهَس الفَزاري. انظر: لسان العرب لابن منظور، «لبس».

وقيل: كانت صفائح فحلّقها وسرَدها.[١]

﴿لَكُمْ﴾ متعلّق بـ﴿عَلَّمْنَا﴾، أو بمحذوف هو صفة ﴿لَبُوسٍ﴾. ﴿لِتُحْصِنَكُم﴾ أي: اللَّبوسُ، بتأويل "الدِّرع". وقُرئ بالتذكير[٢] على أنّ الضمير لداود عليه السلام، أو لـ﴿لَبُوسٍ﴾. وقُرئ بنون العظمة.[٣] وهو بدل اشتمال مِن ﴿لَكُمْ﴾ بإعادة الجارّ مبيّنٌ لكيفيّة الاختصاص والمنفعة المستفادة مِن "لام" ﴿لَكُمْ﴾. ﴿مِنْ بَأْسِكُمْ﴾ قيل: مِن حرب عدوّكم. وقيل: مِن وَقْع السلاح فيكم. ﴿فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾ أمرٌ وارد على صورة الاستفهام للمبالغة أو التقريع.

﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾﴾

﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ﴾ أي: وسخّرنا له الريح، وإيراد "اللام" ههنا دون الأوّل للدلالة على ما بين التسخيرين مِن التفاوت، فإنّ تسخير ما سُخّر له عليه السلام مِن الريح وغيرها كان بطريق الانقياد الكلّي له، والامتثالِ بأمره ونهيه، والمقهوريّةِ[٤] تحت ملكوته، وأمّا تسخير / الجبال والطير لداود عليه السلام [٩٥و] فلم يكن بهذه المثابة؛ بل بطريق التبعيّة له عليه السلام والاقتداء به في عبادة الله عزّ وعلا.

﴿عَاصِفَةً﴾ حال مِن ﴿ٱلرِّيحَ﴾، والعامل فيها الفعل المقدّر، أي: وسخّرنا له الريح حال كونها شديدة الهبوب مِن حيث إنّها كانت تَبعُد بكرسيّه في مدّة يسيرة مِن الزمان كما قال تعالى: ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ [سبأ، ١٢/٣٤]، وكانت رُخاءً في نفسها طيّبة. وقيل: كانت رُخاءً تارةً وعاصفةً أخرى حسب إرادته عليه السلام.

---

١ "فحَلّقَها" -بالتشديد- أي: جعلها حِلَقًا. "وسَرَدَها" أدخَل الحِلَق بعضَها في بعض. حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، ٢٦٦/٦.

٢ قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي وخلف ورَوح عن يعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٢٤/٢.

٣ قرأ بها شعبة عن عاصم ورُويس عن يعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٢٤/٢.

٤ وفي هامش م: مصدر مِن المبنيّ للمفعول. «منه».

وقُرئ: "الرِّيحُ" بالرفع[1] على الابتداء، والخبرُ هو الظرف المقدّم، و﴿عَاصِفَةً﴾ حينئذ حال مِن ضمير المبتدأ في الخبر، والعاملُ ما فيه مِن معنى الاستقرار. وقُرئ: "الرِّيَاحُ" نصبًا[2] ورفعًا.[3]

﴿تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ﴾ بمشيئته، حال ثانية، أو بدل مِن الأولى، أو حال مِن ضميرها. ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ وهي الشام، رواحًا بعد ما سار به منه بُكرةً. قال الكلبيّ: «كان سليمان عليه السلام وقومه يركبون عليها مِن إصْطَخْر[4] إلى الشام، وإلى حيث شاء، ثمّ يعود إلى منزله».[5] ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ﴾ فنُجريه حسبما يقتضيه الحكمة.

﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾﴾

﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ أي: وسخّرنا له مِن الشياطين ﴿مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ﴾ في البحار، ويستخرجون له مِن نفائسها. وقيل: ﴿مَن﴾ رفع على الابتداء، وخبرُه ما قبله، والأوّل هو الأظهر.

﴿وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي: غيرَ ما ذكر مِن بناء المُدُنِ والقصور، واختراعِ الصنائع الغريبة؛ لقوله تعالى: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ﴾ الآية [سبأ، ١٣/٣٤]. وهؤلاء إمّا الفِرقة الأولى أو غيرها، لعموم كلمة ﴿مَن﴾، كأنّه قيل: ومَن يعملون. وجمعُ الضمير الراجع إليها باعتبار معناها بعد ما رَشَح جانبه بقوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾. رُوي أنّ المسخَّر له عليه السلام كفّارهم لا مؤمنوهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾.

[٩٥ظ] وقوله تعالى: ﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ﴾ أي: / مِن أن يَزيغوا عن أمره، أو يُفسدوا على ما هو مقتضى جِبِلّتهم. قيل: وكّل بهم جمعًا مِن الملائكة وجمعًا

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعرج. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣١٩.

[2] قرأ بها أبو جعفر المدني. النشر لابن الجزري، ٢٢٣/٢.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي رجاء. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣١٩.

[4] إصْطَخْر: بلدة بفارس مِن أعيان حصون فارس ومدنها وكُوَرها، قيل: كان أوّل مَن أنشأها إصْطَخْر بن طهمورث ملِك الفرس. انظر: معجم البلدان للحموي، ٢١١/١.

[5] البحر المحيط لأبي حيّان، ٤٥٨/٧؛ اللباب لابن عادل، ٥٦٢/١٣.

مِن مؤمني الجنّ. وقال الزجّاج: «كان يحفظهم مِن أن يُفسدوا ما عملوا»،[١] وكان دأبهم أن يُفسدوا بالليل ما عملوه بالنهار.

﴿وَأَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝٨٣ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ ۝٨٤﴾

﴿وَأَيُّوبَ﴾ الكلام فيه كما مرّ في قوله تعالى: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ﴾،[٢] أي: واذكر خبر أيّوب ﴿إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي﴾ أي: بأنّي ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾ وقُرئ بالكسر[٣] على إضمار القول، أو تضمين النداء معناه. و﴿ٱلضُّرُّ﴾ شائع في كلّ ضَرر، وبالضمّ خاصّ بما في النفس مِن مرض وهُزال ونحوهما.

﴿وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ وصفه تعالى بغاية الرحمة بعد ما ذكَر نفسَه بما يوجبها، واكتفى به عن عرض المطلب لطفًا في السؤال.

وكان عليه السلام روميًّا مِن ولد عِيص بن إسحاق استنبأه الله تعالى، وكثُر أهله وماله فابتلاه الله تعالى بهلاك أولاده بهَدم بيت عليهم، وذهابِ أمواله، والمرضِ في بدنه ثماني عشرة سنةً، أو ثلاث عشرة سنةً، أو سبعًا وسبعةَ أشهر وسبعةَ أيّام وسبعَ ساعات.

رُوي أنّ امرأته ماخير بنت ميشا بن يوسف عليه السلام -أو رحمة بنت أفرائيم بن يوسف- قالت له يومًا: «لو دعوتَ الله تعالى»، فقال: «كم كانت مدّة الرخاء؟» فقالت: «ثمانين سنةً»، فقال: «أستحيي مِن الله تعالى أن أدعوه وما بلغَتْ مدّةُ بلائي مدّةَ رخائي».[٤]

ورُوي أنّ إبليس أتاها على هيئةٍ عظيمة، فقال: أنا إله الأرض فعلتُ بزوجك ما فعلتُ لأنّه تركني وعبدَ إله السماء، فلو سجد لي سجدة لَرددتُ عليه وعليكِ جميع ما أخذت منكما. وفي رواية: لو سَجَدتِ لي سجدة لرجعتُ المال والولد، وعافيتُ زوجك.

---

١ معاني القرآن للزجّاج، ٤٠١/٣.
٢ الأنبياء، ٧٨/٢١.
٣ أي: "إِنِّي". قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى الكوفة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣١٩.
٤ الكشّاف للزمخشري، ١٣١/٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٥٨/٤.

فرجَعتْ إلى أيّوب، وكان مُلْقًى في الكُناسة لا يقرب منه أحد، فأخبرته بالقصّة، / فقال عليه السلام: «كأنّكِ افتتنتِ بقول اللعين، لَئن عافاني الله عزّ وجلّ لأضربنّك مائة سوط، وحرامٌ عليّ أن أذوق بعد هذا شيئًا مِن طعامك وشرابك»، فطردها، فبقي طريحًا في الكُناسة، لا يحوم حوله أحد مِن الناس، فعند ذلك خرّ ساجدًا، فقال: «ربّ إنّي مسّني الضرّ، وأنت أرحم الراحمين». [٩٦و]

فقيل له: «ارفع رأسك، فقد استجيب لك، اركض برجلك»، فركض فنبعت مِن تحته عين ماء، فاغتسل منها، فلم يبقَ في ظاهر بدنه دابّةٌ إلّا سقطت، ولا جراحة إلّا برئت، ثمّ ركض مرّة أخرى، فنبعت عين أخرى، فشرب منها، فلم يبْق في جوفه داء إلّا خرج وعاد صحيحًا، ورجع إليه شبابه وجماله، ثمّ كُسِي حلّة. وذلك قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ﴾.

فلمّا قام جعل يلتفت فلا يرى شيئًا ممّا كان له مِن الأهل والمالِ إلّا وقد ضاعفه الله تعالى، وذلك قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾. وقيل: كان ذلك بأن وُلد له ضِعفُ ما كان.

ثمّ إنّ امرأته قالت في نفسها: «هَب أنّه طردني، أفأتركه حتّى يموت جوعًا، وتأكله السباع، لأرجعنّ إليه»، فلمّا رجعت ما رأت تلك الكُناسة ولا تلك الحال، وقد تغيّرت الأمور، فجعلت تطوف حيث كانت الكُناسة وتبكي، وهابت صاحبَ الحلّة أن تأتيه وتسأل عنه، فأرسل إليها أيّوب ودعاها، فقال: «ما تريدين يا أمة الله؟» فبكت، وقالت: «أريد ذلك المبتلى الذي كان ملقًى على الكُناسة»، قال لها: «ما كان منك؟» فبكت، وقالت: «بَعلي»، قال: «أتعرفينه إذا رأيته؟» قالت: «وهل يخفى عليّ؟» فتبسّم فقال: «أنا ذلك»، فعرفَتْهُ بضحكه، فاعتنقته.[١]

﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾ أي: آتيناه ما ذُكر لرحمتنا أيّوب، وتذكِرة لغيره مِن العابدين؛ ليصبروا كما صبر فيثابوا كما أُثيب، أو لرحمتنا العابدين الذين مِن جملتهم أيّوب، وذكرِنا إيّاهم بالإحسان، وعدمِ نسياننا لهم.

---

١ انظر: جامع البيان للطبري، ١٦/٣٥٤؛ والكشف والبيان للثعلبي، ٦/٢٩٦.

﴿وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِدۡرِيسَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝٨٥﴾

﴿وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِدۡرِيسَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِ﴾ / أي: واذكرهم، و"ذو الكِفل" إلياس. وقيل: [٩٦ظ] يوشع بن نون. وقيل: زكريّا. سمّي به لأنّه كان ذا حظّ مِن الله تعالى، أو تكفّل منه، أو ضِعف عمل أنبياء زمانه وثوابِهم، فإنّ "الكِفل" يجيء بمعنى النصيب والكفالة والضِّعف.

﴿كُلّٞ﴾ أي: كلّ واحد مِن هؤلاء ﴿مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ أي: على مشاقّ التكاليف وشدائد النُّوَب. والجملة استئناف وقع جوابًا عن سؤال نشأ مِن الأمر بذكرهم.

﴿وَأَدۡخَلۡنَٰهُمۡ فِي رَحۡمَتِنَآۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٨٦﴾

﴿وَأَدۡخَلۡنَٰهُمۡ فِي رَحۡمَتِنَا﴾ أي: في النبوّة، أو في نعمة الآخرة، ﴿إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي: الكاملين في الصلاح الكامل الذي لا يحوم حوله شائبة الفساد، وهم الأنبياء، فإنّ صلاحهم معصوم مِن كَدَر الفساد.

﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٨٧﴾

﴿وَذَا ٱلنُّونِ﴾ أي: واذكر صاحب الحوت، وهو يونس عليه السلام، ﴿إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا﴾ أي: مراغِمًا لقومه لمّا بَرِم[١] مِن طول دعوته إيّاهم وشدّة شكيمتهم وتمادي إصرارِهم مهاجرًا عنهم قبل أن يؤمر. وقيل: وعدهم بالعذاب فلم يأتهم لميعادهم بتوبتهم، ولم يعرف الحال، فظنّ أنّه كذَبهم، فغضب مِن ذلك. وهو مِن بناء المغالبة للمبالغة. أو لأنّه أغضبهم بالمهاجَرة لخوفهم لحوق العذاب عندها. وقُرئ: "مُغْضَبًا".[٢]

﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ﴾ أي: لن نضيّق عليه، أو لن نقضي عليه بالعقوبة، مِن "القَدَر"، ويؤيّده أنّه قُرئ مشدّدًا.[٣] أو لن نُعمِل فيه قدرتَنا. وقيل: هو تمثيل لحاله

---

١ بَرِمَ به -بالكسر- إذا سئمه. **الصحاح** للجوهري، «برم».

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي شرف. انظر: **الكشّاف** للزمخشري، ١٣١/٣؛ و**البحر المحيط** لأبي حيّان، ٤٦١/٧.

٣ أي: "نُقَدِّرَ". قراءة شاذّة، مرويّة عن الزهري. انظر: **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٤٦١/٧.

بحال مَن يظنّ أن لن نقدر عليه، أي: نعامل معاملة مَن يظنّ أن لن نقدر عليه في مراغمته قومَه مِن غير انتظار لأمرنا، كما في قوله تعالى: ﴿يَحۡسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخۡلَدَهُۥ﴾ [الهمزة، ٣/١٠٤]، أي: نعامل معاملة مَن يحسب ذلك. وقيل: خَطْرة شيطانيّة سبقت إلى وهمه فسمّيت "ظنًّا" للمبالغة. وقُرئ بالياء مخفّفًا[1] ومثقّلًا[2] مبنيًّا للفاعل ومبنيًّا للمفعول.

[٩٧و] / ﴿فَنَادَىٰ﴾ "الفاء" فصيحة، أي: فكان ما كان مِن المساهمة والتقام الحوت، فنادى ﴿فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ أي: في الظلمة الشديدة المتكاثفة، أو في ظلمات بطن الحوتِ والبحر والليل. وقيل: ابتلعَ حوتَه حوتٌ أكبرُ منه، فحصل في ظلمتَي بطنَي الحوتَين وظلمتَي البحر والليل.

﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾ أي: بأنّه لا إله إلّا أنت، على أنّ ﴿أَن﴾ مخفّفة مِن "أنّ"، وضمير الشأن محذوف، أو أي: لا إله إلّا أنت، على أنّها مفسِّرة.

﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾ أنزِّهك تنزيهًا لائقًا بك مِن أن يُعجزك شيء، أو أن يكون ابتلائي بهذا بغير سبب مِن جهتي. ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لأنفسهم بتعريضها للهلَكة حيث بادرتُ إلى المهاجَرة.

﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٨٨﴾

﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ﴾ أي: دعاءَه الذي دعاه في ضمن الاعتراف بالذنب على ألطف وجه وأحسنه. عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «ما مِن مكروب يدعو بهذا الدعاء إلّا استُجيب له».[3]

﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّ﴾ بأن قذفه الحوت إلى الساحل بعد أربع ساعات كان فيها في بطنه. وقيل: بعد ثلاثة أيّام. وقيل: ﴿ٱلۡغَمِّ﴾ غمّ الالتِقام. وقيل: الخطيئة.

---

١ أي: "يَقْدَرَ". قرأ بها يعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٢٤/٢.

٢ أي: "يُقَدَّرَ". قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه واليماني. انظر: البحر المحيط لأبي حيّان، ٤٦١/٧.

٣ الكشّاف للزمخشري، ١٣٢/٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٥٩/٤. وأخرجه الترمذي في السنن، ٥٢٩/٥ (٣٥٠٥)، عن سعد، بلفظ: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «دعوة ذي النون إذ دعا وهو في بطن الحوت: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، فإنّه لم يدعُ بها رجل مسلم في شيء قطّ إلّا استجاب الله له».

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل ذلك الإنجاء الكامل ﴿نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ مِن غموم دَعَوُا الله تعالى فيها بالإخلاص، لا إنجاءً أدنى منه. وفي الإمام: "نجي"،[1] فلذلك أخفى الجماعة النون الثانية، فإنّها تُخفى مع حروف الفم.

وقُرئ بتشديد الجيم[2] على أنّ أصله "نُنَجِّي" فحذفت الثانية كما حذفت التاء في ﴿تَظَٰهَرُونَ﴾ [البقرة، ٨٥/٢]، وهي وإن كانت فاءً فحذفُها أوقَع مِن حذف حرف المضارَعة التي / لِمعنًى، ولا يقدح اختلاف حركتَي النونَين، فإنّ الداعي إلى الحذف اجتماع المثلَين مع تعذّر الإدغام، وامتناعُ الحذف في ﴿تَتَجَافَىٰ﴾ [السجدة، ١٦/٣٢] لِخوف اللَّبس. وقيل: هو ماض مجهول، أُسندَ إلى ضمير المصدر وسُكّنَ آخره تخفيفًا، ورُدّ بأنّه لا يُسنَد إلى المصدر والمفعولُ مذكور، والماضي لا يسكّن آخره.[3] [٩٧ظ]

﴿وَزَكَرِيَّآ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ۝٨٩﴾

﴿وَزَكَرِيَّآ﴾ أي: واذكر خبره ﴿إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ﴾ وقال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا﴾ أي: وحيدًا بلا ولد يرثني، ﴿وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ﴾ فحسبي أنت إن لم ترزقني وارثًا.

﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ۝٩٠﴾

﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ﴾ أي: دعاءَه ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ﴾ وقد مرّ بيان كيفيّة الاستجابة والهبة في سورة مريم. ﴿وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓ﴾ أي: أصلحناها للولادة بعد عُقرها، أو أصلحناها للمعاشرة بتحسين خُلُقها وكانت حَرِدَةً.[4]

---

[1] قال أبو عبيد: «رأيت في الذي يقال له: الإمام؛ مصحف عثمان رضي الله عنه: ﴿فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُ﴾ في يوسف [١١٠/١٢]، و﴿نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ في الأنبياء بنونٍ واحدة»، قال: «ثمّ اجتمعت عليها المصاحف في الأمصار كلِّها، فلا نعلمها اختلفت». المقنع لأبي عمرو الداني، ص ٩٥.

[2] أي: "نُجِّي". قرأ بها ابن عامر وشعبة عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٣٢٤/٢.

[3] أنوار التنزيل للبيضاوي، ٥٩/٤.

[4] رجلٌ حَرِد: مُعتزِل مُتنَحّ. القاموس المحيط للفيروزابادي، «حرد».

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ تعليل لِما فُصِّل مِن فنون إحسانه تعالى المتعلّقة بالأنبياء المذكورين، أي: كانوا يبادرون في وجوه الخيرات مع ثباتهم واستقرارهم في أصل الخير، وهو السرّ في إيثار كلمة ﴿فِي﴾ على كلمة "إلى" المشعرةِ بخلاف المقصود؛ مِن كونهم خارجين عن أصل الخيرات متوجّهين إليها، كما في قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ﴾ [آل عمران، ١٣٣/٣].

﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ ذَوي رَغَب ورَهَب، أو راغبين في الثواب، راجين للإجابة، أو في الطاعة، وخائفين العقابَ أو المعصية، أو للرغَب والرهَب. ﴿وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ أي: مُخبِتين مُتضرِّعين أو دائمي الوَجَل. والمعنى أنّهم [٩٨و] / نالوا مِن الله تعالى ما نالوا بسبب اتّصافهم بهذه الخِصال الحميدة.

﴿وَٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ٩١﴾

﴿وَٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ أي: اذكر خبر التي أحصنَتْه على الإطلاق مِن الحلال والحرام. والتعبير عنها بالموصول لتفخيم شأنها وتنزيهها عمّا زعموه في حقّها آثِرَ ذي أَثِير. ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا﴾ أي: أحيينا عيسى في جوفها ﴿مِن رُّوحِنَا﴾ مِن الروح الذي هو مِن أمرنا. وقيل: فعلنا النفخ فيها مِن جهة روحنا جبريل عليه السلام.

﴿وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ﴾ أي: قصّتهما، أو حالهما ﴿ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ فإنّ مَن تأمّل حالَهما تحقّق كمال قدرته عزّ وجلّ. فالمراد بالآية ما حصل بهما مِن الآية التامّة مع تكاثر آيات كلّ واحد منهما. وقيل: أريدَ بالآية الجنس الشامل لِمَا لِكلّ واحد منهما مِن الآيات المستقلّة. وقيل: المعنى: وجعلناها آية وابنَها آية، فحُذفت الأولى لدلالة الثانية عليها.

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ٩٢﴾

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ﴾ أي: ملّة التوحيد والإسلام، أشيرَ إليها بهذه تنبيهًا على كمال ظهور أمرها في الصحّة والسداد. ﴿أُمَّتُكُمْ﴾ أي: ملّتكم التي يجب أن تحافظوا على حدودها وتراعوا حقوقها ولا تُخِلُّوا بشيء منها، والخطابُ للناس قاطبةً.

﴿أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ نصب على الحاليّة مِن ﴿أُمَّتُكُمْ﴾، أي: غيرَ مُختلِفة فيما بين الأنبياء عليهم السلام، إذ لا مشاركة لغيرها في صحّة الاتّباع، ولا احتمال لتبدّلها وتغيّرها كفروع الشرائع المتبدِّلة حسب تبدّل الأمم والأعصار. وقُرئ: "أُمَّتَكُمْ" بالنصب على البدليّة مِن اسم ﴿إِنَّ﴾، "أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ" بالرفع[1] على الخبريّة، وقُرئتا بالرفع[2] على أنّهما خبران.

﴿وَأَنَاْ رَبُّكُمْ﴾ لا إله لكم غيري ﴿فَٱعْبُدُونِ﴾ / خاصّةً لا غير. [٩٨ظ]

﴿وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ٩٣﴾

وقوله تعالى: ﴿وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾ التفات إلى الغيبة؛ لِيُنعى عليهم ما أفسدوه مِن التفرّق في الدين، وجعلِ أمره قِطَعًا موزّعة، ويُنهَى قبائحُ أفعالهم إلى الآخرين، كأنّه قيل: ألا ترون إلى عظيمِ ما ارتكب هؤلاء في دين الله الذي أجمعت عليه كافّة الأنبياء؟ ﴿كُلٌّ﴾ أي: كلُّ واحدة مِن الفِرق المتقطّعة، أو كلُّ واحد مِن آحاد كلّ واحدة مِن تلك الفِرَق ﴿إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ﴾ بالبعث لا إلى غيرنا، فنجازيهم حينئذ بحسب أعمالهم. وإيراد اسم الفاعل للدلالة على الثبات والتحقّق.

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ٩٤﴾

وقوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾... إلخ تفصيل للجزاء، أي: فمَن يعمل بعض الصالحات، أو بعضًا مِن الصالحات ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ بالله ورسله ﴿فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ﴾ أي: لا حرمانَ لثواب عمله ذلك. عُبّر عن ذلك بالكفران الذي هو ستر النعمة وجحودها لبيان كمال نزاهته تعالى عنه بتصويره بصورة ما يستحيل صدوره عنه تعالى مِن القبائح، وإبرازِ الإثابة في معرض الأمور الواجبة عليه تعالى، ونُفِي نَفيَ الجنس للمبالغة في التنزيه، وعُبّر عن العمل بالسعي لإظهار الاعتداد به.

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي إسحاق. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٢١.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن والأشهَب العقيلي وأبي حيوة وابن أبي عبلة والجُعفي وهارون عن أبي عمرو والزعفراني. انظر: البحر المحيط لأبي حيّان، ٧/٤٦٤؛ وشواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٢١.

﴿وَإِنَّا لَهُۥ﴾ أي: لسعيه ﴿كَٰتِبُونَ﴾ أي: مُثبِتون في صحائف أعمالهم، لا نغادر مِن ذلك شيئًا.

﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ٩٥﴾

﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ﴾ أي: ممتنع على أهلها غير متصوَّرٍ منهم. وقُرئ: "حِرْمٌ"،[١] وهي لغة كـ"الحِلّ" و"الحلال". ﴿أَهْلَكْنَٰهَآ﴾ قدّرنا هلاكها، أو حكمنا به لغاية طغيانهم وعُتوّهم.

وقوله تعالى: ﴿أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ في حيّز الرفع على أنّه مبتدأ خبرُه ﴿حَرَٰمٌ﴾، أو فاعل له سادٌّ مَسدَّ خبره. والجملة لتقرير مضمون ما قبلها مِن قوله تعالى: ﴿كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ﴾، وما في ﴿أَنَّ﴾ مِن معنى التحقيق معتبَر في النفي المستفاد مِن ﴿حَرَٰمٌ﴾، لا في المنفيّ، أي: ممتنع البتّة عدمُ رجوعِهم / إلينا للجزاء، لا أنّ عدم [٩٩و] رجوعهم المحقَّقِ ممتنع.

وتخصيص امتناع عدم رجوعهم بالذكر مع شمول الامتناع لعدم رجوع الكلّ حسبما نطَق به قوله تعالى: ﴿كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ﴾ لأنّهم المنكِرون للبعث والرجوع دون غيرهم. وقيل: ممتنع رجوعهم إلى التوبة، على أنّ ﴿لَا﴾ صلة.

وقُرئ: "إِنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ" بالكسر،[٢] على أنّه استئناف تعليلي لِما قبله، فـ﴿حَرَٰمٌ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي: حرام عليها ذلك، وهو ما ذُكر في الآية السابقة مِن العمل الصالح المشفوعِ بالإيمان والسعي المشكور، ثمّ عُلّل بقوله تعالى: "إِنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ" عمّا هم عليه مِن الكفر، فكيف لا يمتنع ذلك؟ ويجوز حملُ المفتوحة أيضًا على هذا المعنى بحذف "اللام" عنها، أي: لأنّهم لا يرجعون.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ٩٦﴾

و﴿حَتَّىٰٓ﴾ في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾... إلخ هي التي

---

[١] قرأ بها حمزة والكسائي وشعبة عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٢/٣٢٤.

[٢] قراءة شاذّة، ذكرها المفسّرون ولم أجد مَن ذكر قارئها. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٣/١٣٤؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٧/٤٦٤.

يُحكَى بعدها الكلام، وهي على الأوّل[1] غاية لِما يدلّ عليه ما قبلها، كأنّه قيل: يستمرّون على ما هم عليه مِن الهلاك، حتّى إذا قامت القيامة يرجعون إلينا ويقولون: يا ويلنا... إلخ. وعلى الثاني[2] غايةٌ للحُرمة، أي: يستمرّ امتناع رجوعهم إلى التوبة حتّى إذا قامت القيامة يرجعون إليها حين لا ينفعهم التوبة. وعلى الثالث[3] غاية لعدم الرجوع عن الكفر، أي: لا يرجعون عنه حتّى إذا قامت القيامة يرجعون عنه حين لا ينفعهم الرجوع.

ويأجوج ومأجوج قبيلتان مِن الإنس. قالوا: "الناس عشرة أجزاء، تسعةٌ منها يأجوج ومأجوج".[4] والمراد بفتحها فتحُ سدّها على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مُقامه. وقُرئ: "فُتِّحَتْ" بالتشديد.[5]

﴿وَهُم﴾ أي: يأجوج ومأجوج، وقيل: الناس ﴿مِن كُلِّ حَدَبٍ﴾ أي: نَشَزٍ[6] مِن الأرض، وقُرئ: "جَدَثٍ"،[7] وهو القبر ﴿يَنسِلُونَ﴾ / أي: يُسرعون، وأصله مقاربةُ الخَطْو مع الإسراع. وقُرئ بضمّ السين.[8] [٩٩ظ]

﴿وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾﴾

﴿وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ﴾ عطفٌ على ﴿فُتِحَتْ﴾،[9] والمراد به ما بعد النفخة الثانية مِن البعث والحساب والجزاء، لا النفخة الأولى، ﴿فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ جواب الشرط، و﴿إِذَا﴾ للمفاجأة تسدُّ مَسدّ "الفاء" الجزائيّة،

---

١ وهو أنّ قوله: ﴿أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ في حيّز الرفع على أنّه مبتدأ خبرُه ﴿حَرَٰمٌ﴾.

٢ وهو أنّ قوله: ﴿أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ فاعل لـ﴿حَرَٰمٌ﴾ سادٌّ مَسدَّ خبره.

٣ وهو أنّ قوله: ﴿أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ تعليل لِما قبله، على القراءتين.

٤ جامع البيان للطبري، ١٦/٤٠١؛ الكشّاف للزمخشري، ٣/١٣٥.

٥ قرأ بها ابن عامر وأبو جعفر ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٢٥٨.

٦ النَّشْزُ والنَّشَزُ: المكان المرتفع. الصحاح للجوهري، «نشز».

٧ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود وابن عبّاس رضي الله عنهم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٢١.

٨ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي إسحاق وأبي السّمّال. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٢١.

٩ في الآية السابقة.

كما في قوله تعالى: ﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ [الروم، ٣٦/٣٠]، فإذا دخلتها "الفاء" تظاهرت على وصل الجزاء بالشرط، والضمير للقصّة، أو مُبهم يفسّره ما بعده.

﴿يَٰوَيْلَنَا﴾ على تقدير قولٍ وقع حالًا مِن الموصول، أي: يقولون: يا ويلنا تعالَ فهذا أوان حضورك. وقيل: هو الجواب للشرط.[١] ﴿قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ﴾ تامّةٍ ﴿مِنْ هَٰذَا﴾ الذي دَهِمَنا مِن البعث والرجوع إليه تعالى للجزاء ولم نعلم أنّه حقّ؛ ﴿بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ إضراب عمّا قبله مِن وصف أنفسهم بالغفلة، أي: لم نكن غافلين منه حيثُ نُبِّهْنا عليه بالآيات والنُّذُر؛ بل كنّا ظالمين بتلك الآيات والنُّذُر مكذِّبين بها، أو ظالمين لأنفسنا بتعريضها للعذاب الخالد بالتكذيب.

﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ۝٩٨﴾

وقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ خطاب لكفّار مكّة، وتصريحٌ بمآل أمرهم مع كونه معلومًا ممّا سبق على وجه الإجمالِ مبالغةً في الإنذار وإزاحةِ الأعذار، و"ما يَعبدون" عبارة عن أصنامهم؛ لأنّها التي يعبدونها كما يفصح عنه كلمة ﴿مَا﴾.

وقد رُوي أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم حين تلا الآية وقال له ابنُ الزِّبَعْرَى:[٢] «خصمتُك وربِّ الكعبة، أليست اليهودُ عبدوا عُزيرًا، والنصارى المسيحَ، وبنو مُلَيح الملائكةَ؟» ردّ عليه بقوله عليه السلام: «ما أجهلك بلغة قومك، أما فهمتَ أنَّ "ما" / لِما لا يَعقل؟».[٣] [١٠٠و]

---

[١] وفي هامش م: وهذا يؤيّد الوجه الأوّل مِن الوجوه الثلاثة. «منه».

[٢] هو عبد الله بن الزِّبعرى بن قيس بن عدي بن سعد بن سهم بن عمرو بن هصيص القرشي السهمي (ت. نحو ١٥هـ/٦٣٦م)، الشاعر. كان في الجاهليّة مِن أشدّ الناس على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وعلى أصحابه بلسانه ونفسه، وكان يناضل عن قريش ويهاجي المسلمين، وكان مِن أشعَر قريش، ثمّ أسلم عبد الله بعد الفتح، وحسُن إسلامه. **أسد الغابة** لابن الأثير، ٢٣٩/٣؛ **الأعلام** للزركلي، ٨٧/٤.

[٣] قال الحافظ ابن حجر: «وقع في كلام كثير مِن فضلاء العجم ما نصّه: نُقل أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال لابن الزِّبَعْرَى: "ما أجهلك بلغة قومك، إن 'مَا' لِما لا يعقل". انتهى. وهذا لا أصل له مِن طريق ثابتة ولا واهية، وكأنّ المُوقع في ذلك قول ابن الحاجب: "وأجيب بأن 'ما' لِما لا يعقل، فظنّوا أنّه مِن جواب النبيّ صلّى الله عليه وسلّم"». **موافقة الخبر** لابن حجر، ١٧٥/٢.

ولا يعارضه ما رُوي أنّه عليه السلام ردّه بقوله: «بل هم عبدوا الشياطين التي أَمَرَتْهم بذلك»،[١] ولا ما رُوي أنّ ابن الزِّبَعْرَى قال: «هذا شيء لآلهتنا خاصّةً، أو لكلّ مَن عُبِد مِن دون الله؟»[٢] فقال عليه السلام: «بل لكلّ مَن عُبِد مِن دون الله تعالى»،[٣] إذ ليس شيء منهما نصًّا في عموم كلمة ﴿مَا﴾، كما أنّ الأوّل[٤] نصّ في خصوصها، وشمولُ حكم النصّ لا يقتضي شمولَه بطريق العبارة؛ بل يكفي في ذلك شمولُه لهم[٥] بطريق دلالة النصّ بجامع الشركة في المعبوديّة مِن دون الله تعالى، فلعلّه عليه السلام بعد ما بيّن مدلولَ النظم الكريم بما ذُكر، وعدمَ دخول المذكورين[٦] في حكمه بطريق العبارة؛ بيّنَ عدمَ دخولهم فيه بطريق الدلالة أيضًا تأكيدًا للردّ والإلزام، وتكريرًا للتبكيت والإفحام، لكن لا باعتبار كونهم معبودين لهم كما هو زعمهم، فإنّ إخراجَ بعضِ المعبودين عن حكمٍ[٧] منبئ عن الغضب على العبَدة والمعبودين ممّا يوهمُ الرخصةَ في عبادته في الجملة؛ بل بتحقيق الحقّ وبيانِ أنّهم ليسوا مِن المعبوديّة في شيء حتّى يتوهّم دخولهم في الحكم المذكور دلالةً بموجب شركَتهم للأصنام في المعبوديّة مِن دون الله تعالى، وإنّما معبودهم الشياطين التي أَمَرَتْهم بعبادتهم، كما نطق به قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ﴾ الآيةَ [سبأ، ٤١/٣٤]، فهم الداخلون في الحكم المذكور لإشراكهم الأصنام في المعبوديّة مِن دونه تعالى دون المذكورين عليهم السلام، وهذا هو الوجه في التوفيق بين الأخبار المذكورة، وأمّا تعميم كلمةِ ﴿مَا﴾ للعقلاء أيضًا وجعلُ ما سيأتي مِن قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾... إلخ،[٨] / بيانًا للتجوّز [١٠٠ظ] أو التخصيص[٩] فممّا لا يساعده السباق والسياق كما يشهد به الذوق السليم.

---

١ الكشّاف للزمخشري، ١٣٦/٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٦١/٤.

٢ س + تعالى.

٣ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٦١/٤. وأخرجه الواحدي في أسباب النزول، ص ٣٠٥.

٤ وفي هامش م: هو قوله عليه السلام: «ما أجهلك»... إلى آخره. «منه».

٥ وفي هامش م: أي: للشياطين. «منه».

٦ وفي هامش م: مِن الأنبياء والملائكة. «منه».

٧ وفي هامش م: هو الحكم بكونهم حَصَب جهنّم. «منه».

٨ الأنبياء، ١٠١/٢١.

٩ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٦١/٤.

و"الحصَب" ما يُرمَى به ويُهيَّج به النار، مِن "حصَبه" إذا رماه بالحَصباء. وقُرئ بسكون الصاد[١] وصفًا له بالمصدر للمبالغة.

﴿أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ استئناف، أو بدل مِن ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾، و"اللامُ" معوَّضة مِن "على" للدلالة على الاختصاص، وأنّ ورودهم لأجلها، والخطاب لهم ولِما يَعبدون تغليبًا.

﴿لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾﴾

﴿لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي: أصنامُهم ﴿ءَالِهَةً﴾ كما يزعمون ﴿مَّا وَرَدُوهَا﴾ وحيث تبيّن ورودهم إيّاها تعيّن امتناع كونها آلهة بالضرورة. وهذا كما ترى صريح في أنّ المراد بـ"ما يعبدون" هي الأصنام؛ لأنّ المراد إثباتُ نقيض ما يدّعونه، وهم إنّما يدّعون إلهيّة الأصنام، لا إلهيّة الشياطين حتّى يحتجّ بورودها النار على عدم آلهيّتها.

وأمّا ما وقع في الحديث الشريف فقد وقع بطريق التكملة بانجرار الكلام إليه عند بيان ما سيق له النظم الكريم بطريق العبارة، حيث سأل ابنُ الزِّبَعْرَى عن حال سائر المعبودين، وكان الاقتصار على الجواب الأوّل ممّا يوهم الرخصة في عبادتهم في الجملة؛ لأنّهم المعبودون عندهم، فأجيب[٢] ببيان أنّ المعبودين هم الشياطين، وأنّهم داخلون في حكم النصّ، لكن بطريق الدلالة، لا بطريق العبارة؛ لئلّا يلزم التدافع بين الخبرَين.

﴿وَكُلٌّ﴾ أي: مِن العبَدة والمعبودين ﴿فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ لا خلاصَ لهم عنها.

﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ﴾ أي: أنينٌ وتنفّسٌ شديد، وهو مع كونه مِن أفعال العبَدة أضيفَ إلى الكلِّ للتغليب، ويجوز أن يكون الضمير للعبَدة؛ لعدم الإلباس،

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن السميفع. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٢٢.

[٢] ط س: أجيب.

وكذا في قوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ أي: لا يسمع بعضهم زفيرَ بعض لشدّة الهول وفظاعة العذاب. / وقيل: لا يسمعون ما يَسرّهم مِن الكلام. [١٠١و]

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ شروع في بيان حال المؤمنين إثرَ شرح حال الكفرة حسبما جرَت به سنّة التنزيل مِن شفع الوعد بالوعيد، وإيرادِ الترغيب مع الترهيب، أي: سبقت لهم منّا في التقدير الخصلةُ الحُسنى التي هي أحسن الخصال وهي السعادة، وقيل: التوفيقُ للطاعة، أو سبقت لهم كلمتنا بالبشرى بالثواب على الطاعة، وهو الأظهر الأدخَل في الحمل عليها، لِما أنّ الأوّلَين مع خفائهما ليسا مِن مقدورات المكلّفين، فالجملة مع ما بعدها تفصيل لِما أُجملَ في قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ﴾،[1] كما أنّ ما قبلها مِن قوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ﴾... إلخ[2] تفصيل لِما أُجملَ في قوله تعالى: ﴿وَحَرَٰمٌ﴾... إلخ.[3]

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى الموصول باعتبار اتّصافه بما في حيّز الصلة. وما فيه مِن معنى البُعد للإيذان بعلوّ درجتهم، وبُعدِ منزلتهم في الشرف والفضل، أي: أولئك المنعوتون بما ذُكر مِن النعت الجميل ﴿عَنْهَا﴾ أي: عن جهنّم ﴿مُبْعَدُونَ﴾ لأنّهم في الجنّة، وشتّان بينها وبين النار.

وما رُوي أنّ عليًا رضي الله تعالى[4] عنه خَطب يومًا فقرأ هذه الآية ثمّ قال: «أنا منهم، وأبو بكر، وعمر، وعثمان، وطلحة، والزبير، وسعد، وسعيد، وعبد الرحمن بن عوف، وأبو عبيدة بن الجرّاح» رضوان الله تعالى[5] عليهم أجمعين، ثمّ أقيمت الصلاة فقام يجرّ رداءه ويقول: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾[6] ليس بنصّ في كون الموصول عبارة عن طائفة مخصوصة.

---

[1] الأنبياء، ٩٤/٢١.
[2] الأنبياء، ٩٨/٢١.
[3] الأنبياء، ٩٥/٢١.
[4] س – تعالى.
[5] س – تعالى.
[6] الكشف والبيان للثعلبي، ٣١١/٦؛ الكشّاف للزمخشري، ١٣٧/٣.

و"الحسيس" صوت يُحَسّ به، أي: لا يسمعون صوتها سمعًا ضعيفًا كما هو المعهود عند كون المصوّتِ بعيدًا وإن كان صوته في غاية الشدّة، لا / أنّهم [١٠١ظ] لا يسمعون صوتها الخفيّ في نفسه فقط. والجملة بدل مِن ﴿مُبْعَدُونَ﴾، أو حال مِن ضميره مَسوقة للمبالغة في إبعادهم[١] عنها.

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾ بيان لفوزهم بالمَطالب إثر بيان خلاصهم عن المَهالك والمَعاطب، أي: دائمون في غاية التنعّم. وتقديم الظرف للقصر والاهتمامِ به.

﴿لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾ بيان لنجاتهم مِن الأفزاع بالكلّيّة بعد بيان نجاتِهم مِن النار؛ لأنّهم إذا لم يحزنهم أكبر الأفزاع لا يحزنهم ما عداه بالضرورة. عن الحسن رضي الله عنه: «أنّه الانصراف إلى النار».[٢] وعن الضحّاك: «حين يُطبَق على النار».[٣] وقيل: حين يُذبح الموت في صورة كَبشٍ أَملَح.[٤] وقيل: النفخة الأخيرة؛[٥] لقوله تعالى: ﴿فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ﴾ [النمل، ٨٧/٢٧]، وليس بذاك، فإنّ الآمِن مِن ذلك الفزَع مَن استثناه الله تعالى بقوله: ﴿إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ﴾ [النمل، ٨٧/٢٧]، لا جميعُ المؤمنين الموصوفين بالأعمال الصالحة، على أنّ الأكثرين على أنّ ذلك في النفخة الأولى دون الأخيرة كما سيأتي في سورة النمل.[٦]

﴿وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ أي: تستقبلهم مهنّئين لهم ﴿هَٰذَا يَوْمُكُمُ﴾ على إرادة القول، أي: قائلين: هذا اليوم يومُكم ﴿الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ في الدنيا، وتُبَشّرون

---

١ ط س: إنقاذهم.

٢ جامع البيان للطبري، ٤٢٢/١٦؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٣١١/٦.

٣ الكشّاف للزمخشري، ١٣٧/٣. ونحوه عن سعيد بن جبير في جامع البيان للطبري، ٤٢١/١٦.

٤ الكشف والبيان للثعلبي، ٣١١/٦؛ الكشّاف للزمخشري، ١٣٧/٣. وحديث ذبح الموت في صورة كَبشٍ أَملَح، أخرجه البخاري في صحيحه، ٩٣/٦ (٤٧٣٠)؛ ومسلم في صحيحه، ٢١٨٨/٤ (٢٨٤٩).

٥ جامع البيان للطبري، ٤٢٢/١٦، عن ابن عبّاس رضي الله عنهما.

٦ النمل، ٨٨/٢٧.

بما فيه مِن فنون المَثوبات على الإيمان والطاعات. وهذا كما ترى صريح في أنّ المراد بـ"الذين سبقت لهم الحُسنى"[١] كافّةُ المؤمنين الموصوفين بالإيمان والأعمال الصالحة، لا مَن ذُكر مِن المسيح وعُزير والملائكة عليهم السلام خاصّةً كما قيل.[٢]

﴿يَوْمَ نَطْوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥۚ وَعْدًا عَلَيْنَآۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ١٠٤﴾

﴿يَوْمَ نَطْوِي ٱلسَّمَآءَ﴾ بنون العظمة منصوب بـ"اذكر". وقيل: ظرف لقوله تعالى: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ﴾.[٣] وقيل: لـ﴿تَتَلَقَّىٰهُمْ﴾.[٤] وقيل: حال مقدّرة مِن الضمير المحذوف في ﴿تُوعَدُونَ﴾.[٥] و"الطيّ" ضدّ النشر، وقيل: المَحو. وقُرئ: "يَطْوِي" بالياء،[٦] والتاء والبناء للمفعول.[٧]

﴿كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ﴾ وهي الصحيفة، أي: طيًّا كطيّ الطومار.[٨] وقُرئ: "السَّجْلِ"،[٩] كلفظ "الدَّلْو"، وبالكسر،[١٠] و"السُّجُلّ"[١١] على وزن / "العُتُلّ"،[١٢] وهما لغتان. [١٠٢و]

و"اللام" في قوله تعالى: ﴿لِلْكُتُبِ﴾ متعلّقة بمحذوف هو حال مِن ﴿ٱلسِّجِلِّ﴾، أو صفة له على رأي مَن يُجوّز حذف الموصول مع بعض صلته، أي: كطيّ السجلّ كائنًا للكُتُب، أو الكائنِ للكُتُب، فإنّ "الكُتُب" عبارة عن الصحائف وما كُتب فيها، فسِجِلُّها بعض أجزائها، وبه يتعلّق الطيّ حقيقةً.

---

١ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء، ١٠١/٢١].

٢ جامع البيان للطبري، ٤١٧/١٦؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٢٥٣/٣.

٣ في الآية السابقة.

٤ ط س: بـ﴿تَتَلَقَّىٰهُمُ﴾. | في الآية السابقة.

٥ في الآية السابقة.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن مجاهد وشيبة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٢٢.

٧ قرأ بها أبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٣٢٤/٢.

٨ الطُّومارُ: الصحيفة. انظر: لسان العرب لابن منظور، «طمر».

٩ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي السَّمّال وأبي البرهسم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٢٢.

١٠ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وأبي عمرو. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٢٣.

١١ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي زُرعة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٢٢.

١٢ العتل: الغليظ الجافي. الصحاح للجوهري، «عتل».

وقُرئ: "لِلْكِتَابِ"،[١] وهو إمّا مصدر و"اللام" للتعليل، أي: كما يُطوى الطومار للكتابة، أو اسم كـ"الإمام"، فـ"اللام" كما ذُكر أوّلًا.

وقيل: ﴿ٱلسِّجِلِّ﴾ اسم مَلَك يَطوي كتب أعمال بني آدم إذا رُفعت إليه.[٢] وقيل: هو كاتبٌ لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم.[٣]

﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ أي: نعيد ما خلقناه مبتدأً إعادةً مثلَ بَدْئنا إيّاه في كونها إيجادًا بعد العدَم، أو جمعًا مِن الأجزاء المتبدِّدة، والمقصودُ بيان صحّة الإعادة بالقياس على المَبدأ؛ لِشمول الإمكان الذاتي المصحِّح للمقدوريّة، وتناولِ القدرة لهما على السواء.

و﴿مَا﴾ كافّة أو مصدريّة، و﴿أَوَّلَ﴾ مفعول لـ﴿بَدَأْنَا﴾، أو لفعل يفسّره ﴿نُعِيدُهُ﴾، أو موصولة، و"الكاف" متعلّقة بمحذوف يفسّره ﴿نُعِيدُهُ﴾، أي: نعيد مثلَ الذي بدأناه، و﴿أَوَّلَ خَلْقٍ﴾ ظرف لـ﴿بَدَأْنَا﴾، أو حال مِن ضمير الموصول المحذوف.

﴿وَعْدًا﴾ مصدر مؤكِّد لفعله، ومقرّر لِـ﴿نُعِيدُهُ﴾، أو منتصِب به؛ لأنّه عِدَة بالإعادة ﴿عَلَيْنَا﴾ أي: علينا إنجازه، ﴿إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ لِما ذُكر لا محالةَ.

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ١٠٥﴾

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ﴾ هو كتاب داود عليه السلام. وقيل: هو اسم لجنس ما أُنزل على الأنبياء عليهم السلام. ﴿مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ﴾ أي: التوراة. وقيل: اللوح المحفوظ. أي: وبالله لقد كتبنا في كتاب داود بعد ما كتبنا في التوراة، أو كتبنا في جميع الكتب المنزّلة بعد ما كتبنا وأثبتنا في اللوح المحفوظ ﴿أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ أي: عامّة المؤمنين بعد إجلاء الكفّار، وهذا وعد منه تعالى بإظهار الدين وإعزاز أهله، وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: أنّ المراد أرض الجنّة،[٤]

---

[١] قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر وشعبة. النشر لابن الجزري، ٣٢٥/٢.

[٢] انظر: جامع البيان للطبري، ٤٢٣/١٦؛ والكشف والبيان للثعلبي، ٣١١/٦؛ والتفسير الوسيط للواحدي، ٢٥٣/٣.

[٣] جامع البيان للطبري، ٤٢٤/١٦. وأخرجه أبو داود في السنن، ٥٦٠/٤ (٢٩٣٥)، عن ابن عبّاس رضي الله عنهما.

[٤] جامع البيان للطبري، ٤٣٤/١٦؛ الكشّاف للزمخشري، ١٣٨/٣.

/ كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾ [الزمر، ٣٩/٧٤]. وقيل: الأرض المقدّسة يرثها أمّةُ محمّد صلّى الله عليه وسلّم. [١٠٢ظ]

﴿إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾﴾

﴿إِنَّ فِى هَٰذَا﴾ أي: فيما ذُكر في السورة الكريمة مِن الأخبار والمواعظ البالغة، والوعد والوعيد، والبراهين القاطعة الدالّة على التوحيد وصحّة النبوّة ﴿لَبَلَٰغًا﴾ أي: كفايةً، أو سببَ بلوغ إلى البُغية ﴿لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ﴾ أي: لقوم همّهم العبادة دون العادة.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ﴾ بما ذُكر وبأمثاله مِن الشرائع والأحكام وغير ذلك مِن الأمور التي هي مناط لسعادة الدارين ﴿إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ هو في حيّز النصب على أنّه استثناء مِن أعمّ العلل، أو مِن أعمّ الأحوال، أي: ما أرسلناك بما ذُكر لعلّة مِن العلل إلّا لرحمتنا الواسعة للعالمين قاطبة، أو ما أرسلناك في حال مِن الأحوال إلّا حال كونك رحمة لهم، فإنّ ما بُعثتَ به سبب لسعادة الدارين، ومنشأ لانتظام مصالحهم في النشأتين، ومَن لم يغتنم مغانِمَ آثاره فإنّما فرّط في نفسه وحَرَمَهُ حقّه، لا أنّه تعالى حَرَمه ممّا يُسعده. وقيل: كونه رحمة في حقّ الكفّار أمْنُهم مِن الخَسف والمَسخ والاستئصال حسبما ينطق به قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال، ٨/٣٣].

﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾﴾

﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ أي: ما يوحى إليّ إلّا أنّه لا إلهَ لكم إلّا إله واحد؛ لأنّه المقصود الأصلي مِن البعثة، وأمّا ما عداه فمِن الأحكام المتفرّعة عليه، فـ﴿إِنَّمَا﴾ الأولى لِقَصر الحكم على الشيء، كقولك: إنّما يقوم زيد، أي: ما يقوم إلّا زيد، والثانية لِقَصر الشيء على الحكم، كقولك: إنّما زيد قائم، أي: ليس له إلّا صفة القيام.

[١٠٣و] ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ أي: مخلصونَ / العبادةَ لله تعالى، مخصَّصون لها به تعالى. و"الفاء" للدلالة على أنّ ما قبلها موجِب لِما بعدها. قالوا: فيه دلالة على أنّ صفَة الوحدانيّة تصحّ أن يكون طريقها السمعَ.

﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ ءَاذَنتُكُمۡ عَلَىٰ سَوَآءٖۖ وَإِنۡ أَدۡرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٞ مَّا تُوعَدُونَ ١٠٩﴾

﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾ عن الإسلام، ولم يلتفتوا إلى ما يوجبه مِن الوحي ﴿فَقُلۡ﴾ لهم ﴿ءَاذَنتُكُمۡ﴾ أي: أعلَمتكم ما أُمِرت به، أو حربي لكم ﴿عَلَىٰ سَوَآءٖ﴾ كائنين على سواء في الإعلام به، لم أَطوِهِ عن أحد منكم، أو مستَوِين به أنا وأنتم في العلم بما أعلمتكم به، أو في المعاداة، أو إيذانًا على سواء. وقيل: أعلمتكم أنّي على سواء، أي: عدلٍ واستقامةِ رأيٍ بالبرهان النيّر.

﴿وَإِنۡ أَدۡرِيٓ﴾ أي: ما أدري ﴿أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٞ مَّا تُوعَدُونَ﴾ مِن غلبة المسلمين وظهور الدين، أو الحشر مع كونه آتيًا لا محالةَ.

﴿إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡتُمُونَ ١١٠﴾

﴿إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾ أي: ما تُجاهرون به مِن الطعن في الإسلام وتكذيب الآيات التي مِن جملتها ما نطق بمجيء الموعود، ﴿وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡتُمُونَ﴾ مِن الإِحَنِ والأحقاد للمسلمين، فيجازيكم عليه نقيرًا وقطميرًا.

﴿وَإِنۡ أَدۡرِي لَعَلَّهُۥ فِتۡنَةٞ لَّكُمۡ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ١١١﴾

﴿وَإِنۡ أَدۡرِي لَعَلَّهُۥ فِتۡنَةٞ لَّكُمۡ﴾ أي: ما أدري لعلّ تأخيرَ جزائكم استدراجٌ لكم وزيادةٌ في افتِتانكم، أو امتحانٌ لكم لينظر كيف تعملون. ﴿وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ﴾ أي: وتمتيع لكم إلى أجل مقدَّر يقتضيه مشيئته المبنيّة على الحِكَم البالغة؛ ليكون ذلك حجّة عليكم.

﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ١١٢﴾

﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّ﴾ حكايةٌ لدعائه صلّى الله عليه وسلّم. وقُرئ:

"قُلْ رَبِّ"[1] على صيغة الأمر، / أي: اقضِ بيننا وبين أهل مكّة بالعدل المقتضي [١٠٣ظ] لتعجيل العذاب والتشديد عليهم، وقد استُجيب دعاؤه عليه السلام حيث عُذِّبوا ببدرٍ أيَّ تعذيب. وقُرئ: "رَبُّ احْكُمْ" بضمّ الباء،[2] و"رَبِّي أَحْكَمُ"[3] على صيغةِ التفضيل، و"رَبِّي أَحْكَمَ"[4] مِن "الإحكام".

﴿وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ مبتدأ وخبر، أي: كثير الرحمة على عباده. وقوله تعالى: ﴿ٱلْمُسْتَعَانُ﴾ أي: المطلوب منه المعونةُ، خبر آخر للمبتدأ. وإضافة الربّ فيما سبق إلى ضميره عليه السلام خاصّةً لِما أنّ الدعاء مِن الوظائف الخاصّة به عليه السلام، كما أنّ إضافته ههنا إلى ضمير الجمع المنتظِم للمؤمنين أيضًا، لِما أنّ الاستعانة مِن الوظائف العامّة لهم.

﴿عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ مِن الحال، فإنّهم كانوا يقولون: إنّ الشوكة تكون لهم، وإنّ راية الإسلام تَخفِق ثمّ تركُد، وإنّ المتوعَّد به لو كان حقًّا لنزل بهم، إلى غير ذلك ممّا لا خيرَ فيه، فاستجاب الله عزّ وجلّ دعوةَ رسوله صلّى الله عليه وسلّم فخيّب آمالهم، وغيّر أحوالهم، ونصر أولياءَه عليهم، فأصابهم يومَ بدر ما أصابهم. والجملة اعتراض تذييلي مقرِّر لمضمون ما قبلَه. وقُرئ: "يَصِفُونَ" بالياء التحتانيّة.[5]

وعن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ ﴿ٱقْتَرَبَ﴾ حاسبه الله تعالى حسابًا يسيرًا، وصافحه وسلّم عليه كلُّ نبيّ ذُكر اسمه في القرآن».[6]

---

[1] قرأ بها جميع القرّاء العشر غير حفص عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٣٢٥/٢.

[2] قرأ بها أبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٣٢٥/٢.

[3] س: أَحْكَمَ. | قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس رضي الله عنهما وعكرمة والجحدري وابن مُحيصن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٢٣.

[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عَبّاس رضي الله عنهما وعكرمة وابن يَعمر. انظر: اللباب لابن عادل، ٦٢٨/١٣.

[5] قرأ بها ابن ذكوان عن ابن عامر. النشر لابن الجزري، ٣٢٥/٢.

[6] الكشف والبيان للثعلبي، ٢٦٨/٦؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٢٢٩/٣. وهو جزء مِن الحديث المروي عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١. | وفي هامش م: إلى هنا انتهى التسويد في أواخر رجب الفرد سنة تسع وستّين وتسعمائة حامدًا لله تعالى، ومصلّيًا ومسلّمًا على سيّدنا محمّد، وعلى سائر الأنبياء والمرسلين والملائكة أجمعين.

سورة الحجّ

مكّيّة غير ستّ آيات وهي ﴿هَٰذَانِ خَصۡمَانِ﴾ [الحج، ١٩/٢٢]
إلى ﴿صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ [الحج، ٢٤/٢٢]، وهي ثمان وسبعون آيةً.[١]

/ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ [١٠٤و]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ۝١﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ﴾ خطاب يعمّ حكمُه المكلّفين عند النزول ومَن سينتظم في سِلْكهم بعدُ مِن الموجودين القاصرين عن رتبة التكليف والحادثين بعد ذلك إلى يوم القيامة، وإن كان خطاب المشافهة مختصًّا بالفريق الأوّل على الوجه الذي مرّ تقريره في مطلع سورة النساء.

ولفظ ﴿ٱلنَّاسُ﴾ ينتظِم الذكورَ والإناثَ حقيقةً، وأمّا صيغة جمع المذكّر فواردة على نهج التغليب؛ لعدم تناولها للإناث حقيقةً إلّا عند الحنابلة.[٢]

والمأمور به مطلَق التقوى الذي هو التجنّب عن كلّ ما يؤثّم مِن فعلٍ وتركٍ، ويندرج فيه الإيمان بالله واليوم الآخر حسبما ورد به الشرع اندراجًا أوّليًّا.

والتعرّض لعنوان الربوبيّة المنبئة عن المالكيّة والتربية مع الإضافة إلى ضمير المخاطَبين لتأييد الأمر وتأكيد إيجاب الامتثال به ترهيبًا وترغيبًا. أي: احذروا عقوبةَ مالِكِ أموركم ومربّيكم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ﴾ تعليل لموجَب الأمر بذكر بعض عقوباته الهائلة، فإنّ ملاحظة عِظَمها وهَولها وفظاعةِ ما هي مِن مباديه

---

[١] م - سورة الحجّ مكّيّة غير ستّ آيات وهي ﴿هَٰذَانِ خَصۡمَانِ﴾ [الحج، ١٩/٢٢] إلى ﴿صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ [الحج، ٢٤/٢٢]، وهي ثمان وسبعون آيةً.

[٢] انظر: **الإحكام للآمدي**، ٢٦٥/٢.

ومقدّماته مِن الأحوال والأهوال التي لا ملجأَ منها سوى التدرّع بلباس التقوى ممّا يوجب مزيد الاعتناء بملابسته وملازمته لا محالةَ.

و"الزلزلة" التحريك الشديد والإزعاج العنيف بطريق التكرير بحيث يزيل الأشياء مِن مَقارّها، ويخرجها عن مراكزها. وإضافتها إلى ﴿ٱلسَّاعَةِ﴾ إمّا إضافةُ المصدر إلى فاعله على المجاز الحكمي، كأنّها هي التي تزلزل الأشياء، أو إضافتُه إلى الظرف، إمّا بإجرائه / مُجرى المفعول به [١٠٤ظ] اتّساعًا، أو بتقدير "في"، كما في قوله تعالى: ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [سبأ، ٣٣/٣٤]، وهي الزلزلة المذكورة في قوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ [الزلزلة، ١/٩٩].

عن الحسن: «أنّها تكون[١] يوم القيامة».[٢] وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «﴿زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ﴾: قيامها».[٣] وعن علقمة والشعبيّ: «أنّها قبل طلوع الشمس مِن مَغربها»،[٤] فإضافتها إلى ﴿ٱلسَّاعَةِ﴾ حينئذ لكونها مِن أشراطها.

وفي التعبير عنها بـ"الشيء" إيذان بأنّ العقول قاصرة عن إدراك كُنهها، والعبارة ضيّقة لا تحيط بها إلّا على وجه الإبهام.

﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢﴾

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا﴾ منتصِب بما بعده، قُدّم عليه اهتمامًا به. والضمير لـ"الزلزلة"،[٥] أي: وقتَ رؤيتكم إيّاها، ومشاهدتِكم لهَول مَطلعها ﴿تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ﴾ أي: مباشِرةٍ للإرضاع ﴿عَمَّآ أَرْضَعَتْ﴾ أي: تغفل وتذهب مع دهشةٍ عمّا هي بصدَد إرضاعه مِن طفلها الذي أَلْقَمَتْه ثديَها. والتعبير عنه بـ﴿مَا﴾ دون "مَن" لتأكيد الذهول، وكونِه بحيث لا يخطُر ببالها أنّه ماذا، لا أنّها تعرف شيئيّته،

---

١ س: يكون.
٢ التفسير الوسيط للواحدي، ٢٥٧/٣؛ الكشّاف للزمخشري، ١٤١/٣.
٣ التفسير الوسيط للواحدي، ٢٥٧/٣؛ اللباب لابن عادل، ٤/١٤.
٤ التفسير الوسيط للواحدي، ٢٥٧/٣؛ الكشّاف للزمخشري، ١٤١/٣؛ اللباب لابن عادل، ٤/١٤.
٥ في الآية السابقة.

لكن لا تدري مَن هو بخصوصه. وقيل: ﴿مَا﴾ مصدريّة، أي: تَذهل عن إرضاعها. والأوّل أدلّ على شدّة الهَول وكمال الانزعاج.

وقرئ: "تُذْهِلُ" مِن "الإذهال" مبنيًّا للمفعول[1] ومبنيًّا للفاعل[2] مع نصب ﴿كُلُّ﴾، أي: تُذهِلها الزلزلة.

﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾ أي: تُلقي جنينها لغير تمام، كما أنّ المرضعة تَذهل عن ولدها لغير فِطام. وهذا ظاهر على قول علقمة والشعبي، وأمّا على ما رُوي عن ابنِ عبّاس رضي الله تعالى[3] عنهما فقد قيل: إنّه تمثيل لتهويل الأمر، وفيه أنّ الأمر حينئذ أشدّ مِن ذلك، وأعظَم وأهوَل ممّا وُصف / وأطَمّ. [١٠٥و]

وقيل: إنّ ذلك تكون عند النفخة الثانية، فإنّهم يقومون على ما صَعِقوا في النفخة الأولى، فتقوم المرضعة على إرضاعها، والحامل على حَملها. ولا ريب في أنّ قيام الناس عن قبورهم بعد النفخة الثانية لا قبلَها حتّى يُتصوَّر ما ذُكر.

﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ﴾ بفتح التاء والراء على خطاب كلِّ أحد مِن المخاطَبين برؤية الزلزلة. والاختلاف بالجمعيّة والإفراد لِما أنّ المرئيّ في الأوّل هي الزلزلة التي يشاهدها الجميع، وفي الثاني حَالُ مَن عدا المخاطَبَ منهم، فلا بدّ مِن إفراد المخاطَب على وجه يعمّ كلَّ واحد منهم، لكن مِن غير اعتبار اتّصافه بتلك الحالة، فإنّ المراد بيان تأثير الزلزلة في المرئيّ -لا في الرائي- باختلال مشاعره؛ لأنّ مداره حيثيّة رؤيته للزلزلة، لا لغيرها، كأنّه قيل: ويصير الناس سُكارى... إلخ، وإنّما أوثِرَ عليه ما في التنزيل للإيذان بكمال ظهور تلك الحالة فيهم، وبلوغِها مِن الجلاء إلى حدّ لا يكاد يخفى على أحد، أي: يراهم كلّ أحد ﴿سُكَٰرَىٰ﴾ أي: كأنّهم سُكارى ﴿وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ﴾ حقيقةً ﴿وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ فيُرهِقهم هولُه، ويُطيِّر عقولَهم، ويسلُب تمييزَهم، فهو الذي جعلهم كما وُصِفوا.

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٢٤.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة واليماني. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٢٤.

[3] س - تعالى.

وقُرئ: "تُرَى" بضمّ التاء وفتح الراء مسندًا إلى المخاطَب، مِن "أُريتُك قائمًا"، أو "رُؤِيتُك[1] قائمًا"، و﴿ٱلنَّاسَ﴾ منصوب،[2] أي: تظنّهم سكارى. وقُرئ برفع ﴿ٱلنَّاسَ﴾[3] على إسناد الفعل المجهول إليه، والتأنيث[4] على تأويل الجماعة. وقُرئ: "تُرِي" بضمّ التاء وكسر الراء،[5] أي: تُرِي الزلزلةُ الخلقَ جميعَ الناس سُكارى. / وقُرئ: "سَكْرَى"، و"بِسَكْرَى"،[6] كـ"عَطْشَى" و"جَوْعَى" إجراءً للسُّكْر مُجرى العِلل. [١٠٥ظ]

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ۝٣﴾

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ كلام مبتدَأ جيء به إثرَ بيان عِظَم شأن الساعة المنبئة عن البعث بيانًا لحال بعض المنكرين لها. ومحلّ الجارّ الرفع على الابتداء، إمّا بحَمله على المعنى، أو بتقدير ما يتعلّق به كما مرّ مرارًا، أي: وبعضُ الناس، أو وبعضٌ كائنٌ مِن الناس ﴿مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ﴾ أي: في شأنه تعالى، ويقول فيه ما لا خيرَ فيه مِن الأباطيل.

وقوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ حال مِن ضمير ﴿يُجَٰدِلُ﴾، موضحةٌ لِمَا يُشعر بها المجادلة مِن الجهل، أي: ملابسًا بغير علم. رُوي أنّها نزلت في النضر بن الحارث وكان جَدِلًا يقول: «الملائكة بنات الله، والقرآن أساطير الأوّلين، ولا بعثَ بعد الموت».[7] وهي عامّة له ولأضرابه مِن العُتاة المتمرّدين.

﴿وَيَتَّبِعُ﴾ أي: فيما يتعاطاه مِن المجادَلة، أو في كلّ ما يأتي وما يَذَر مِن الأمور الباطلة التي مِن جملتها ذلك. ﴿كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ﴾ عاتٍ متمرِّد متجرّد

---

[1] وفي هامش م: قال الأزهري: «رُؤِيتُ، مقلوب، والأصلُ أُرِيتُ، فأخِّرت الهمزة فقيل: رُؤِيتُ، وهو بمعنى الظنّ».' «منه». | **تهذيب اللغة** للأزهري، «رأى».

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي هريرة ويزيد بن قطيب. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٢٤.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن حميد. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٢٤.

[4] أي: في ﴿وَتَرَى﴾.

[5] قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ. **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٤٨٢/٧.

[6] قرأ بها حمزة والكسائي وخلَف. **النشر** لابن الجزري، ٣٢٥/٢.

[7] **الكشف والبيان** للثعلبي، ٧/٧؛ **الكشّاف** للزمخشري، ١٤٣/٣.

للفساد. وأصله العُرْيُ المُنبئ عن التمحّض له، كالتشمّر، ولعلّه مأخوذ مِن تَجرُّد المصارعين عند المصارعة. قال الزجّاج: «المَرِيد والمارِد: المرتفع الأملَس».[١] والمراد إمّا رؤساء الكفرة الذين يدعون مَن دونهم إلى الكفر، وإمّا إبليس وجنوده.

﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝٤﴾

وقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ﴾ أي: على الشيطان، صفة أخرى له. وقوله تعالى: ﴿أَنَّهُۥ﴾ فاعل ﴿كُتِبَ﴾، والضمير للشأن، أي: رُقِم به لظهور ذلك مِن حاله أنّ الشأن ﴿مَن تَوَلَّاهُ﴾ أي: اتّخذه وليًا وتبعه ﴿فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ﴾ بالفتح على أنّه خبر مبتدأ محذوف، أو مبتدأ خبره محذوف، والجملة جواب الشرط إن جُعلت ﴿مَن﴾ شرطيّةً، وخبرٌ لها إن جُعلت موصولةً متضمّنةً لمعنى الشرط، أي: مَن تولّاه فشأنه أنّه يضلُّه مِن طريق الجنّة،[٢] أو طريق الحقّ، أو فحقٌّ أنّه يُضلُّه قطعًا.

وقيل: ﴿فَأَنَّهُ﴾ معطوف على ﴿أَنَّهُ﴾،[٣] / وفيه مِن التعسّف ما لا يخفى. وقيل [١٠٦و] وقيل ممّا لا يخلو عن التمحّل والتأويل.

وقُرئ: "فَإِنَّهُ" بالكسر[٤] علىَ أنّه خبر لـ﴿مَن﴾، أو جواب لها. وقُرئ بالكسر فيهما[٥] على حكاية المكتوب كما هو، مثل ما في قولك: "كتبت: إنّ الله يأمر بالعدل والإحسان"، أو على إضمار القول، أو تضمين الكَتْب معناه على رأي مَن يراه.[٦]

﴿وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ بحمله على مباشرة ما يؤدّي إليه مِن السيّئات.

---

١ مفاتيح الغيب للرازي، ٢٠٢/٢٣؛ اللباب لابن عادل، ١٣/١٤.

٢ وفي هامش م: وهذا الأنسب لِما بعده مِن قوله تعالى: ﴿وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾. «منه».

٣ قاله الزمخشري في الكشّاف، ١٤٣/٣.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي البرهسم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٢٥.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسين وهارون عن أبي عمرو. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٢٥.

٦ وفي هامش م: كان البصريّين لا يجوّزون الكسر إلّا بعد القول الصريح. «منه».

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ۝٥﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ إثرَ ما حُكِي أحوال المجادلين بغير علم وأشيرَ إلى ما يئول إليه أمرهم أقيمت الحجّة الدالّة على تحقّق ما جادلوا فيه مِن البعث ﴿إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ﴾ مِن إمكانه، وكونِه مقدورًا له تعالى، أو مِن وقوعه. وقُرئ: "مِنَ البَعَثِ" بالتحريك،[١] كـ"الجَلَب" في "الجَلْب". والتعبير عن اعتقادهم في حقّه بـ"الرَّيب" مع التنكير المنبئ عن القِلّة مع أنّهم جازمون باستحالته، وإيرادُ كلمة الشكّ مع تقرّر حالهم في ذلك، وإيثارُ ما عليه النظم الكريم على أن يقال: "إن ارتَبتم في البَعث"؛ قد مرّ تحقيقه في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا﴾ [البقرة، ٢/٢٣].

﴿فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم﴾ أي: فانظروا إلى مَبدأ خلقكم ليَزول رَيبكم، فإنّا خلقناكم، أي: خلقنا كلّ فرد منكم ﴿مِّن تُرَابٖ﴾ في ضمن خلق آدم منه خَلقًا إجماليًا، فإنّ خلق كلّ فرد مِن أفراد البشر له حظّ مِن خَلقه عليه السلام، إذ لم تكن فطرته الشريفة مقصورة على نفسه؛ بل كانت أنموذَجًا مُنطويًا على فطرة سائر أفراد الجنس انطواءً إجماليًا مستتبِعًا لجريانِ آثارها على الكلّ، فكان خَلقه عليه السلام مِن التراب خَلقًا للكلّ منه، كما مرَّ تحقيقه مرارًا.

[١٠٦ظ] ﴿ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ﴾ أي: ثمّ / خلقناكم خلقًا تفصيليًا مِن نطفة، أي: منيّ، مِن "النَّطْف" الذي هو الصَّبّ، ﴿ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ﴾ أي: قطعةٍ مِن الدم جامدةٍ متكوّنةٍ مِن المنيّ.

﴿ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ﴾ أي: قطعةٍ مِن اللحم متكوّنة مِن العلَقة، وهي في الأصل مقدارُ ما يُمضَغ، ﴿مُّخَلَّقَةٖ﴾ بالجرّ، صفةُ ﴿مُّضۡغَةٖ﴾،[٢] أي: مستبينةِ الخَلق مصوّرةٍ،

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٢٥.

[٢] س: لمضغة.

﴿وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ﴾ أي: لم يستبِنْ خَلقها وصورتُها بعدُ. والمراد تفصيل حال المضغة وكونِها أوّلًا قطعةً لم يظهر فيها شيء مِن الأعضاء، ثمّ ظهرت بعد ذلك شيئًا فشيئًا. وكان مقتضى الترتيب السابق المبنيّ على التدرّج مِن المبادي البعيدة إلى القريبة أن يُقدَّمَ "غيرُ المُخلّقة" على "المُخلّقة"، وإنّما أُخِرت عنها لأنّها عدمُ المَلَكة.[1] هذا وقد فُسِّرتا بالمسوّاة وغير المسوّاة، وبالتامّة والساقطة، وليس بذاك.[2]

وفي جعل كلّ واحدة مِن هذه المراتب مبدأً لِخَلْقِهم لا لِخَلقِ ما بعدها مِن المراتب كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ مُضۡغَةٗ﴾ الآيةَ [المؤمنون، ١٤/٢٣] مزيدُ دلالة على عظيم قدرته تعالى، وكسرٌ لِسَوْرَةِ[3] استبعادِهم.

﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ﴾ متعلّق بـ﴿خَلَقۡنَا﴾. وترك المفعول لتفخيمه كمًّا وكيفًا، أي: خلقناكم على هذا النمط البديع لنبيّن لكم بذلك ما لا تحصره العبارة مِن الحقائق والدقائق التي مِن جملتها سرّ البعث، فإنّ مَن تأمّل فيما ذُكر مِن الخَلق التدريجي تأمّلًا حقيقيًّا جزَم جزْمًا ضروريًّا بأنّ مَن قدَر على خلق البشر أوّلًا مِن ترابٍ لم يشمَّ رائحة الحياة قَطّ، وإنشائِه على وجه مصحّحٍ لتوليد مثله مرّة بعد أخرى بتصريفه في أطوار الخِلقة، وتحويلِه مِن حال إلى حالٍ مع ما بين تلك الأطوار والأحوال مِن المخالفة والتباين؛ فهو قادر على إعادته؛ بل هو أهون في القياس نظرًا إلى الفاعل والقابل.

/ وقُرِئ: "لِيُبَيِّنَ"[4] بطريق الالتفات. [١٠٧و]

وقوله تعالى: ﴿وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ﴾ استئناف مسوق لبيان حالهم بعد تمام خَلقهم. وعدم نظم هذا وما عُطف عليه في سِلك الخَلق المعلَّل بالتبيين مع كونهما مِن متمّماته ومِن مبادي التبيين أيضًا لِمَا أنّ دلالة الأوّل على كمال قدرته تعالى على جميعِ المقدورات التي مِن جملتها البعث المبحوث عنه أجلى وأظهر، أي: ونحنُ نُقرّ في الأرحام بعد ذلك ما نشاء أن نقرَّه فيها.

---

[1] وفي هامش م: والأعدام مسبوقة بمَلَكاتها. «منه».

[2] وفي هامش م: فإنّ التعرّض للسِّقط وناقص الخلق بصدَد تفصيل دلائل البعث وشواهده ممّا لا وجه له قطعًا. «منه».

[3] سَورة الخَمر وغيرها: حِدّتها، وسَورة السلطان: سَطوته وغضبه. **القاموس المحيط** للفيروزابادي، «سور».

[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٢٥.

﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هو وقت الوضع، وأدناه ستّة أشهر، وأقصاه سنتان، وقيل: أربع سنين. وفيه إشارة إلى أنّ بعض ما في الأرحام لا يشاء الله تعالى إقرارَه فيها بعد تكامُلِ خلقه فتُسقطه. والتعرّض للإزلاق لا يُناسب المقام؛ لأنّ الكلام فيما جرى عليه أطوار الخلقِ، وهذا صريح في أنّ المراد بـ"غير المخلّقة" ليس مَن وُلد ناقصًا أو مَعيبًا،[١] وأنّ ما فصِّل إلى هنا هي الأطوار المتواردة على المولود قبل الولادة.

وقُرِئ: "يُقِرُّ" بالياء،[٢] و"نَقُرُّ"[٣] و"يَقُرَّ" بضمّ القاف،[٤] مِن "قَرَرت الماء" إذا صبَبتَه.

﴿ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ﴾ أي: مِن بطون أمّهاتكم بعد إقراركم فيها عند تمام الأجل المسمّى ﴿طِفۡلٗا﴾ أي: حال كونكم أطفالًا. والإفراد باعتبار كلّ واحد منهم، أو بإرادة الجنس المنتظِم للواحد والمتعدِّد. وقُرئ: "يُخرِجُكُمْ" بالياء.[٥] وقولُه تعالى: ﴿ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡ﴾ علّة لـ﴿نُخۡرِجُكُمۡ﴾، معطوفة على علّة أُخرى له مناسبةٍ لها، كأنّه قيل: ثمّ نخرجكم لتَكبُروا شيئًا فشيئًا، ثمّ لتَبلغوا كمالَكم في القوّة والعقل والتمييز. وقيل: التقدير: ثمّ نمهلكم لتبلغوا... إلخ. وما قيل: إنّه معطوف على ﴿نُبَيِّنَ﴾[٦] مخلّ بجزالة النظم الكريم.

[١٠٧ظ] هذا، وقد / قُرِئ ما قبله مِن الفعلين بالنصب[٧] حكايةً وغيبةً. فهو حينئذ عطف على ﴿نُبَيِّنَ﴾ مثلَهما. والمعنى: خلقناكم على التدريج المذكور لغايتين

---

[١] انظر: الكشّاف للزمخشري، ٣/١٤٤؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٤/٦٥.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٢٥.

[٣] كذا ضبطها أبو حيّان بفتح النون وضمّ القاف والراء. وهي قراءة شاذّة، مرويّة عن يعقوب. انظر: البحر المحيط لأبي حيّان، ٧/٤٨٥.

[٤] لم أجد مَن ذكَر ضمّ القاف مع الياء. والذي ذكره القرّاء والمفسّرون: "وَيَقِرُّ" بفتح الياء والراء وكسر القاف. وهي قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي زيد النحوي. انظر: البحر المحيط لأبي حيّان، ٧/٤٨٥.

[٥] بالياء مع الرفع قراءة شاذّة مرويّة عن عمر بن شبّة. وبالياء مع النصب قراءة شاذّة كذلك مرويّة عن أبي حاتم. انظر: الكامل للهذلي، ص ٦٠٣؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٧/٤٨٥.

[٦] قاله البيضاوي في أنوار التنزيل، ٤/٦٥.

[٧] أي: "وَنُقِرَّ" و"نُخرِجَكُم". قراءة شاذّة، مرويّة عن المفضّل عن عاصم ويعقوب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٢٥.

مترتّبتين عليه؛ إحداهما أن نبيّن شئونَنا، والثانية أنِ نُقرّكم في الأرحام، ثمّ نخرجَكم صغارًا، ثمّ لتَبلغوا أشدَّكم.

وتقديم التبيين على ما بعده مع أنّ حصوله بالفعل بعد الكلّ للإيذان بأنّه غاية الغايات ومقصود بالذات. وإعادة "اللام" ههنا مع تجريد الأوّلين عنها للإشعار بأصالته في الغرضيّة بالنسبة إليهما، إذ عليه يدور التكليف المؤدّي إلى السعادة والشقاوة.

وإيثارُ البلوغ مُسنَدًا إلى المخاطبين على التبليغ مُسنَدًا إليه تعالى كالأفعال السابقة لأنّه المناسب لبيان حال اتّصافهم بالكمال واستقلالهم بمبدئيّة الآثارِ والأفعال.

و"الأشدّ" مِن ألفاظ الجموع التي لم يُستعمل لها واحد، كـ"الأسِدّة"[1] و"القَتُودِ"،[2] وكأنّها حيث كانت شدّة في غير شيء بُنِيت على لفظ الجمع.

﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ﴾ أي: بعد بلوغ الأشدّ أو قبلَه. وقُرئ: "يَتَوَفَّى"[3] مبنيًّا للفاعل، أي: يَتوفّاه الله تعالى.[4]

﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾ وهو الهرَم والخرَف. وقُرئ بسكون الميم.[5] وإيراد الردّ والتوَفّي على صيغة المبنيّ للمفعول للجري على سَنن الكبرياء لتعيّن الفاعل.

﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ﴾ أي: علمٍ كثير ﴿شَيْـًٔا﴾ أي: شيئًا مِن الأشياء، أو شيئًا مِن العلم مبالغةً في انتقاص علمه وانتكاس حاله، أي: ليعود إلى ما كان عليه في أوان الطفوليّة مِن ضَعف البنية وسخافة العقل وقلّة الفهم، فينسى ما علمه، وينكر ما عرَفه، ويعجَز عمّا قدر عليه. وفيه مِن التنبيه على صحّة البعث ما لا يخفى.

---

[1] وفي هامش م: أسِدّة: عُيوب. | الصحاح للجوهري، «سدد».

[2] وفي هامش م: قتود: خشب الرَّحْل. | الصحاح للجوهري، «قتد».

[3] قراءة شاذّة، ذكرها المفسّرون ولم أجد مَن ذَكر قارئها. انظر: البحر المحيط لأبي حيّان، ٤٨٦/٧.

[4] وقال أبو حيّان: «أي: يَستوفي أجلَه». انظر: البحر المحيط لأبي حيّان، ٤٨٦/٧.

[5] قراءة شاذّة، مرويّة عن نافع. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٢٥.

﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً﴾ حجّة أخرى على صحّة البعث. والخطاب لكلّ أحد ممّن يتأتّى منه الرؤية. وصيغة المضارع للدلالة على التجدّد والاستمرار. وهي بصَريّة. و﴿هَامِدَةً﴾ حال مِن ﴿ٱلْأَرْضَ﴾، أي: ميّتةً يابسة، مِن "هَمَدَت النارُ" إذا صارت رمادًا.

[١٠٨و] ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ﴾ أي: المطر / ﴿ٱهْتَزَّتْ﴾ تحرّكت بالنبات ﴿وَرَبَتْ﴾ انتفخت وازدادت، وقُرئ: "رَبَأَتْ"،[١] أي: ارتفعت. ﴿وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ﴾ أي: صِنف ﴿بَهِيجٍ﴾ حَسَن رائق يَسرّ ناظره.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٦﴾

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ كلام مستأنَف، جيء به إثرَ تحقيق حقّيّة البعث وإقامة البرهان عليه مِن العالَمين الإنسانيّ والنباتيّ؛ لبيان أنّ ذلك مِن آثار ألوهيّته تعالى، وأحكام شئونه الذاتيّة والوصفيّة والفعليّة، وأنّ ما ينكرون وجودَه -بل إمكانَه- مِن إتيان الساعة والبعث مِن أسباب[٢] تلك الآثار العجيبة التي يشاهدونها في الأنفُس والآفاق، ومبادي صدورها عنه تعالى.

وفيه مِن الإيذان بقوّة الدليل وأصالة المدلول في التحقّق وإظهار بطلان إنكاره ما لا يخفى، فإنّ إنكار تحقّق السبب مع الجزم بتحقّق المسبَّب ممّا يقضي ببطلانه بديهةُ العقول. والمراد بـ﴿ٱلْحَقُّ﴾ هو الثابت الذي يحقّ ثبوته لا محالةَ لكونه لذاته، لا الثابتُ مطلقًا.

و﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذُكر مِن خَلق الإنسان على أطوارٍ مختلفة، وتصريفِه في أحوال متباينة، وإحياءِ الأرض بعد موتها، وما فيه مِن معنى البُعد للإيذان ببُعد منزلته في الكمال، وهو مبتدأٌ خبرُه الجارّ والمجرور، أي: ذلك الصنع البديع حاصل بسبب أنّه تعالى هو الحقّ وحدَه في ذاته وصفاته وأفعاله المحقِّقُ لِما سواه مِن الأشياء.

---

١ قرأ بها أبو جعفر المدني. النشر لابن الجزري، ٣٢٥/٢.

٢ وفي هامش م: خبر "أنّ".

﴿وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ أي: شأنه وعادته إحياؤها. وحاصله أنّه تعالى قادر على إحيائها بَدءًا وإعادةً، وإلّا لَما أحيَى النطفة والأرض الميّتة مِرارًا بعد مِرارٍ. وما يفيده صيغة المضارع مِن التجدّد إنّما هو باعتبار تعلّق القدرة ومتعلّقها، لا باعتبار نفسها.

﴿وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ أي: مبالِغ في القدرة، وإلّا لَما أَوجد هذه الموجودات الفائتةَ للحَصر / التي مِن جملتها ما ذُكر. وأمّا الاستدلال على ذلك بأنّ قدرته تعالى لذاته الذي نسبته إلى الكلّ سواء فلمّا دلّت المشاهدة على قدرته على إحياء بعض الأموات لزِم اقتدارُه على إحياء كلّها[1] فمنشؤه الغُفول عمّا سيق له النظم الكريم مِن بيان كون الآثار الخاصّة المذكورة مِن فروع القدرة العامّة التامّة ومسبَّباتها. وتخصيص إحياء الموتى بالذكر مع كونه مِن جملة الأشياء المقدور عليها للتصريح بما فيه النزاع، والدفعِ في نُحور المنكرين. وتقديمُه لإبراز الاعتناء به. [١٠٨ظ]

﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ ۝٧﴾

﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ﴾ أي: فيما سيأتي. وإيثار صيغة الفاعل على الفعل للدلالة على تحقّق إتيانها وتقرّرِه البتّة؛ لاقتضاء الحكمة إيّاه لا محالةَ. وتعليله بأنّ التغيّر مِن مقدّمات الانصرام وطلائعِه[2] مبنيّ على ما ذكر مِن الغفول.

وقوله تعالى: ﴿لَا رَيۡبَ فِيهَا﴾ إمّا خبر ثانٍ لـ﴿أَنَّ﴾، أو حال مِن ضمير ﴿ٱلسَّاعَةَ﴾ في الخبر. ومعنى نفي الريب عنها أنّها في ظهور أمرها وضوح دلائلها التكوينيّة والتنزيليّة بحيث ليس فيها مظِنّة أن يُرتابَ في إتيانها حسبما مرّ في مطلع سورة البقرة. والجملة عطف على المجرور بالباء كما قبلها مِن الجملتين، داخلةٌ مثلَهما في حيّز السببيّة، وكذا قوله عزّ وجلّ: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾ لكن لا مِن حيث إنّ إتيان الساعة وبعثَ الموتى مؤثّران فيما ذُكر مِن أفاعيله تعالى تأثيرَ القدرة فيها؛ بل مِن حيث إنّ كلًّا منهما سبب داعٍ له عزّ وعلا

---

[1] أنوار التنزيل للبيضاوي، ٦٥/٤.

[2] أنوار التنزيل للبيضاوي، ٦٦/٤.

بموجَب رأفته بالعباد المبنيّة على الحِكم البالغة إلى ما ذُكر مِن خَلقهم ومِن إحياء الأرض الميتة على نمط بديعٍ صالح للاستشهاد به على مكانهما؛ ليتأمّلوا في ذلك، ويستدلُّوا به على وقوعهما لا محالةَ، / ويصدّقوا بما ينطق بهما مِن [١٠٩و] الوحي المبين، وينالوا به السعادة الأبديّة، ولولا ذلك لَما فعل تعالى ما فعل؛ بل لَما خلق العالم رأسًا. وهذا كما ترى مِن أحكام حقّيّته تعالى في أفعاله، وابتنائِها على الحِكم الباهرة، كما أنّ ما قبله مِن أحكام حقّيّته تعالى في صفاته وكونِها في غاية الكمال.

وقد جُعل إتيان الساعة وبعثُ مَن في القبور لكونهما مِن روادِف الحكمة كنايةً عن كونه تعالى حكيمًا، كأنّه قيل ذلك بسبب أنّه تعالى قادر على إحياء الموتى وعلى كلّ مقدور، وأنّه حكيم لا يُخلف ميعاده، وقد وعد الساعة والبعث، فلا بدّ أن يَفي بما وَعد، وأنت خبير بأنّ مَآله الاستدلال بحكمته تعالى على إتيان الساعة والبعث، وليس الكلام في ذلك؛ بل إنّما هو في سببيّتهما لِما مرّ مِن خَلق الإنسان وإحياء الأرض، فتأمّل وكن على الحقّ المبين.

وقيل: قوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ﴾ ليس معطوفًا على المجرور بـ"الباء"، ولا داخلًا في حيّز السببيّة؛ بل هو خبر، والمبتدأ محذوف لفهم المعنى، والتقدير: والأمرُ أنّ الساعة آتيةٌ. و﴿أَنَّ﴾ الثانية معطوفة على الأولى. وقيل: المعنى: ذلك لتعلموا بأنّ الله هو الحقّ... الآيتين.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ۝٨﴾

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ﴾ هو أبو جهل بن هشام حسبما رُوي عن ابن عبّاس رضي الله تعالى[١] عنهما.[٢] وقيل: هو مَن يتصدّى لإضلال الناس وإغوائهم كائنًا مَن كان، كما أنّ الأوّل مَن يقلّدهم على أنّ "الشيطان" عبارة عن المضلّ المُغوي على الإطلاق.

---

[١] س - تعالى.

[٢] الكشّاف للزمخشري، ٣/١٤٦؛ المحرّر الوجيز لابن عطيّة، ٤/١٠٧.

﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ متعلّق بمحذوف وقع حالًا مِن ضمير ﴿يُجَٰدِلُ﴾، أي: كائنًا بغير علم، والمراد بـ"العِلم" العِلمُ الضروري، كما أنّ المراد بـ"الهدى" / في قوله تعالى: ﴿وَلَا هُدًى﴾ هو الاستدلال والنظر الصحيح الهادي إلى المعرفة. ﴿وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ وحيٍ مُظهرٍ للحقّ، أي: يجادل في شأنه تعالى مِن غير تمسّك بمقدّمة ضروريّة، ولا بحجّة نظريّة، ولا ببرهان سمعي، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الحج، ٧١/٢٢]. [١٠٩ظ]

وأمّا ما قيل مِن أنّ المراد به المجادل الأوّل، والتكريرُ للتأكيد والتمهيدِ لِما بعده مِن بيان أنّه لا سندَ له مِن استدلالٍ أو وحي[١] فلا يساعده النظم الكريم، كيف لا وإنّ وصفه باتّباع كلِّ شيطان موصوفٍ بما ذُكر يغني عن وصفه بالعَراء عن الدليل العقلي والسمعي.

﴿ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٩﴾﴾

﴿ثَانِىَ عِطْفِهِۦ﴾ حال أخرى مِن فاعل ﴿يُجَٰدِلُ﴾،[٢] أي: عاطفًا لجانبه وطاويًا كَشْحَه[٣] معرِضًا متكبّرًا، فإنّ ثَنْيَ العِطفِ كنايةٌ عن التكبّر. وقُرئ بفتح العين،[٤] أي: مانعًا لتَعطّفه.

﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ متعلّق بـ﴿يُجَٰدِلُ﴾،[٥] فإنّ غرضه الإضلال عنه، وإن لم يعترف بأنّه إضلال. والمراد به إمّا الإخراج مِن الهدى إلى الضلال، فالمفعول مَن يجادله مِن المؤمنين أو الناسُ جميعًا بتغليب المؤمنين على غيرهم، وإمّا التثبيت على الضلال أو الزيادةُ عليه مجازًا، فالمفعول هم الكفرةُ خاصّةً.

---

١ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٦٦/٤.
٢ في الآية السابقة.
٣ الكَشْحُ: ما بين الخاصرة إلى الضِلَعِ الخَلْف. و"طوى فلان عَنّي كَشْحَهُ" إذا قَطَعَك. و"طويتُ كَشحي على الأمر" إذا أضمَرْتَه وسَتَرْتَه. الصحاح للجوهري، «كشح».
٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٢٥.
٥ في الآية السابقة.

وقُرئ بفتح الياء.[١] وجعلُ ضلاله غايةً لجدالِه مِن حيث إنّ المراد به الضلال المبين الذي لا هدايةَ له بعده مع تمكّنه منها قبل ذلك.

﴿لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٌ﴾ جملة مستأنَفة مَسوقة لبيان نتيجة ما سلكه مِن الطريقة، أي: يَثبت له في الدنيا بسبب ما فعله خزيٌ، وهو ما أصابه يوم بدر مِن القتل والصَّغار. / ﴿وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾ أي: النارِ المحرِقة. [١١٠و]

﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ١٠﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ما ذكر مِن العذابِ الدنيوي والأخروي. وما فيه مِن معنى البعد للإيذان بكونه في الغاية القاصية مِن الهول والفظاعة. وهو مبتدأ خبره قوله تعالى: ﴿بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ﴾ أي: بسبب ما اقترفتَه مِن الكفر والمعاصي. وإسناده إلى "يديه" لِما أنّ الاكتساب عادةً يكون بالأيدي. والالتفات لتأكيد الوعيد وتشديد التهديد.

ومحلّ ﴿أَنَّ﴾ في قوله عزّ وعلا: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ الرفع على أنّه خبر مبتدأ محذوف، أي: والأمر أنّه تعالى ليس بمعذِّب لعبيده بغير ذنب مِن قِبَلهم. والتعبير عن ذلك بنفي الظلم مع أنّ تعذيبهم بغير ذنب ليس بظلم قطعًا على ما تقرّر مِن قاعدة أهل السنّة فضلًا عن كونه ظلمًا بالغًا قد مرّ تحقيقه في سورة آل عمران.[٢] والجملة اعتراض تذييلي مقرِّر لمضمون ما قبلها. وأمّا ما قيل مِن أنّ محلّ ﴿أَنَّ﴾ هو الجرّ بالعطف على ﴿مَا قَدَّمَتۡ﴾[٣] فقد عرفتَ حاله في سورة الأنفال.[٤]

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ١١﴾

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖ﴾ شروع في بيان حال المذَبذَبين إثرَ بيان حال المجاهرين، أي: ومنهم مَن يعبده تعالى على طرَف مِن الدين لا ثباتَ له فيه، كالذي ينحرف إلى طرَف الجيش، فإن أحسّ بظفَر قَرّ، وإلّا فَرّ.

---

[١] قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو ورويس عن يعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٢٩٩.
[٢] آل عمران، ٣/١٨٢.
[٣] انظر: اللباب لابن عادل، ١٤/٢٨.
[٤] الأنفال، ٨/٥١.

﴿فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ﴾ أي: دنيوي مِن الصحّة والسَّعة ﴿ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ﴾ أي: ثبَت على ما كان عليه ظاهرًا، لا أنّه اطمأنّ به اطمئنان المؤمنين الذين لا يلويهم عنه صارف ولا يثنيهم عاطف. ﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ﴾ أي: شيءٌ / يُفتَنُ به مِن مكروهٍ يَعتريه في نفسه أو أهله أو ماله ﴿ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾. [١١٠ظ]

رُوي أنّها نزلت في أعاريبَ قدموا المدينةَ، وكان أحدهم إذا صحّ بدنه، ونُتِجت فرسه مُهرًا سَرِيًّا، وولدت امرأته ولدًا سويًّا، وكثُر مالُه وماشيته، قال: «ما أصبتُ منذ دخلت في ديني هذا إلّا خيرًا»، واطمأنّ، وإن كان الأمر بخلافه قال: «ما أصبتُ إلّا شرًّا وانقلب».[1] وعن أبي سعيد رضي الله عنه: أنّ يهوديًّا أسلمَ، فأصابته مصائب، فتشاءَم بالإسلام، فأتى النبيَّ صلّى الله عليه وسلّم فقال: «أقِلْني»، قال عليه السلام: «إنّ الإسلام لا يُقال»، فنزلت.[2] وقيل: نزلت في "المؤلّفة قلوبُهم".[3]

﴿خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ فَقَدَهما وضيّعهما بذهاب عصمته وحُبوط عمله بالارتداد. وقُرِئ: "خَاسِرَ" بالنصب[4] على الحال، وبالرفع[5] على الفاعليّة ووضعِ الظاهر موضعَ الضمير تنصيصًا على خُسرانه، أو على أنّه خبر مبتدأ محذوف.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ما ذكر مِن الخُسران. وما فيه مِن معنى البعد للإيذان بكونه في غاية ما يكون. ﴿هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ الواضح كونه خُسرانًا، إذ لا خُسران مثله.

﴿يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ١٢﴾

﴿يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ استئناف مبيّن لعِظم الخُسران، أي: يعبد متجاوزًا عبادةَ الله تعالى ﴿مَا لَا يَضُرُّهُۥ﴾ إذا لم يعبده ﴿وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ﴾ إن عَبَده، أي: جمادًا ليس مِن شأنه الضرّ والنفع، كما يلوّح به تكرير كلمة ﴿مَا﴾. ﴿ذَٰلِكَ﴾ الدعاء

---

[1] **الكشّاف** للزمخشري، ١٤٦/٣؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٦٦/٤.

[2] **الكشّاف** للزمخشري، ١٤٦/٣؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٦٦/٤. وقال السيوطي: «أخرجه ابن مَردويه». **الدرّ المنثور** للسيوطي، ١٤/٦.

[3] عن الضحّاك في **اللباب** لابن عادل، ٣٠/١٤. وانظر: **جامع البيان** للطبري، ٤٧٤/١٦.

[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن حُميد بن قيس ومجاهد وابن محيصن وزيد عن يعقوب. انظر: **المحتسب** لابن جنّي، ٧٥/٢؛ **والنشر** لابن الجزري، ٣٢٦/٢.

[5] ط س: والرفع. | قراءة شاذّة، ذكرها المفسّرون ولم أجد مَن ذكر قارئها. انظر: **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٤٨٩/٧.

﴿هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ﴾ عن الحقّ والهدى، مستعار مِن ضلال مَن أَبعدَ في التِّيه ضالًّا عن الطريق.

﴿يَدۡعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦۚ لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَلَبِئۡسَ ٱلۡعَشِيرُ ١٣﴾

﴿يَدۡعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦ﴾ استئناف مَسوق لبيان مآل دعائه المذكور، وتقريرِ كونه ضلالًا بعيدًا، مع إزاحة ما عسى يُتوهَّم مِن نفي الضرر عن معبوده / بطريق المباشرة نفيُه عنه بطريق التسبيب أيضًا، فـ"الدعاء" بمعنى القول، و"اللام" داخلة على الجملة الواقعة مَقولًا له، و﴿مَن﴾ مبتدأ، و﴿ضَرُّهُۥ﴾ مبتدأ ثان، خبره ﴿أَقۡرَبُ﴾، والجملة صلة للمبتدأ الأوّل. وقوله تعالى: ﴿لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَلَبِئۡسَ ٱلۡعَشِيرُ﴾ جواب لقسم مقدّر هو وجوابه خبر للمبتدأ الأوّل. وإيثار ﴿مَن﴾ على "ما" مع كون معبوده جمادًا وإيرادُ صيغة التفضيل مع خلوّه عن النفع بالمرّة للمبالغة في تقبيح حاله، والإمعانِ في ذمّه. [١١١و]

أي: يقول ذلك الكافر يوم القيامة بدعاء وصراخ حين يرى تضرّره بمعبوده ودخولَه النار بسببه، ولا يرى منه أثر النفع أصلًا: لَمَن ضرُّه أقربُ مِن نفعه واللهِ لبئس الناصر هو، ولبئس الصاحب هو، فكيف بما هو ضرر محضٌ عارٍ عن النفع بالكلّيّة؟

ويجوز أن يكون ﴿يَدۡعُواْ﴾ الثاني إعادةً للأوّل، لا تأكيدًا له فقط؛ بل وتمهيدًا لِمَا بَعده مِن بيان سُوءِ حال معبوده إثرَ بيان سوء حال عبادته بقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ﴾،[١] كأنّه قيل مِن جهته تعالى بعدَ ذكر عبادته لِما لا يضرّه ولا ينفعه: يدعو ذلك، ثمّ قيل: لَمَن ضرّه أقرب مِن نفعه واللهِ لبئس المولى ولبئس العشير، فكلمةُ ﴿مَن﴾ وصيغة التفضيل للتهكّم به.

وقيل: "اللام" زائدة، و﴿مَن﴾ مفعول ﴿يَدۡعُواْ﴾، ويؤيّده القراءة بغير "لام"،[٢] أي: يعبد مَن ضرّه أقرب مِن نفعه، وإيرادُ كلمة ﴿مَن﴾ وصيغة التفضيل تهكّم به أيضًا، والجملة القسميّة مستأنَفة.

---

١ في الآية السابقة.

٢ أي: "يَدْعُو مَنْ". قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنهما. انظر: الكشّاف للزمخشري، ١٤٧/٣؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٤٩١/٧.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ١٤﴾

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ﴾ استئناف جيء به لبيان كمال حسنِ حالِ المؤمنين العابدين له تعالى وأنّ الله عزّ وجلّ يتفضّل عليهم بما لا غاية وراءه مِن أجلّ المنافع وأعظم الخيرات إثرَ بيان غاية سوءِ حالِ الكفرة ومآلهم مِن فريقَي المجاهرين والمذَبذَبين، وأنّ معبودهم لا يُجديهم شيئًا مِن النفع؛ بل يضرّهم مضرّة عظيمة، وأنّهم يعترفون بسوء ولايته وعشرته، ويذمّونه مَذمّةً تامّةً.

وقوله تعالى: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ صفة لـ﴿جَنَّٰتٖ﴾، فإن أريدَ بها الأشجار / المتكاثفة الساترة لِما تحتَها فجريانُ الأنهار مِن تحتها ظاهر، وإن أريدَ بها الأرض فلا بدّ مِن تقدير مضاف، أي: مِن تحت أشجارها، وإن جُعلت عبارة عن مجموع الأرض والأشجار فاعتبار التحتيّة بالنظر إلى الجزء الظاهر المصحّح لإطلاق اسم الجنّة على الكلّ كما مرّ تفصيله في أوائل سورة البقرة.[1] [١١١ظ]

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ تعليل لِما قبله، وتقرير له بطريق التحقيق، أي: يفعل البتّة كلَّ ما يريده مِن الأفعال المتقنة اللائقة المبنيّة على الحِكَم الرائقة التي مِن جملتها إثابة مَن آمَن به وصدّق رسوله صلّى الله عليه وسلّم، وعقابُ مَن أشرك به وكذّب برسوله عليه السلام. ولمّا كان هذا مِن آثار نصرته تعالى له عليه السلام عُقِّب بقوله عزّ وعلا:

﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لۡيَقۡطَعۡ فَلۡيَنظُرۡ هَلۡ يُذۡهِبَنَّ كَيۡدُهُۥ مَا يَغِيظُ ١٥﴾

﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ تحقيقًا لها وتقريرًا لِثبوتها على أبلغ وجه وآكَده. وفيه إيجاز بارع واختصار رائع، والمعنى: أنّه تعالى ناصر لرسوله في الدنيا والآخرة لا محالةَ مِن غير صارف يلويه، ولا عاطِف يثنيه،

---

[1] البقرة، ٢/٢٥.

فمَن كان يُغيظه ذلك مِن أعاديه وحسّاده، ويظنّ أن لن يفعله تعالى بسبب مدافعته ببعض الأمور، ومباشرة ما يردّه مِن المكائد؛ فلْيبالغ في استفراغ المجهود، ولْيُجاوز في الجِدّ كلَّ حدٍّ معهود، فقُصارى أمره وعاقبةُ مَكره أن يختنق حَنَقًا[١] ممّا يرى مِن ضلال مساعيه، وعدمِ إنتاج مقدّماته ومباديه.

﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ فليمدُد حبلًا إلى سقف بيته ﴿ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ أي: ليَختنق، مِن "قَطَع" إذا اختنق؛ لأنّه يقطع نفَسَه بحبس مجاريه. وقيل: لِيَقطع الحبلَ بعد الاختناق، على أنّ المراد به فرض القطع وتقديره، كما أنّ المراد بالنظر في قوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ﴾ تقدير النظر وتصويره، أي: فليصوِّر في نفسه / النظرَ؛ هل يُذهِبنّ كيدُه ذلك الذي هو أقصى ما انتهتْ إليه قدرتُه في باب المُضادّة والمُضارّة ما يغيظه مِن النصرة؟ كلَّا، ويجوز أن يُراد: فلينظر الآن أنّه إن فعل ذلك هل يذهب ما يغيظه؟ [١١٢و]

وقيل: المعنى: فلْيَمدد حبلًا إلى السماء المُظِلّة، ولْيَصعد عليه، ثمّ لْيَقطع الوحي. وقيل: لِيَقطع المسافةَ حتّى يبلغ عَنانها، فيجتهد في دفع نصره.[٢] ويأباه أنّ مساق النظم الكريم بيانُ أنّ الأمور المفروضة على تقدير وقوعها وتحقّقها بمَعزِل مِن إذهاب ما يَغيظ، ومِن البيّن أن لا معنى لفَرض وقوع الأمور المُمتنعة وترتيب الأمر بالنظر عليه لا سيّما قطع الوحي. فإنّ فَرضَ وقوعه مُخِلّ بالمَرام قطعًا.

وقيل: كان قوم مِن المسلمين لشدّة غيظهم وحَنَقِهم[٣] على المشركين يستبطئون ما وعد الله رسولَه صلّى الله عليه وسلّم مِن النصر، وآخرون مِن المشركين يريدون اتّباعه عليه السلام، ويخشَون أن لا يَثبت أمره، فنزلت.[٤]

وقد فُسّر "النصر" بالرزق، فالمعنى: إنّ الأرزاق بيد الله تعالى لا تُنال إلّا بمشيئته، فلا بدّ للعبد مِن الرضا بقِسمته، فمَن ظنّ أنّ الله تعالى غيرُ رازقه

---

١ ط س: خنقًا. | والحَنَق: الغيظ. **الصحاح** للجوهري، «حنق».

٢ قاله البيضاوي في **أنوار التنزيل**، ٦٧/٤.

٣ ط س: وخنقهم. | والحَنَق: الغيظ. **الصحاح** للجوهري، «حنق».

٤ **التفسير البسيط** للواحدي، ٣١٠/١٥؛ **الكشّاف** للزمخشري، ١٤٨/٣.

ولم يصبر ولم يستسلم فليبلغ غاية الجزَع وهو الاختناق، فإنّ ذلك لا يقلب القِسمة، ولا يردّه مرزوقًا.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل ذلك الإنزال البديع المنطوي على الحِكم البالغة ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ أي: القرآنَ الكريم كلَّه. وقوله تعالى: ﴿ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ أي: واضحاتِ الدلالة على معانيها الرائقة، حال مِن الضمير المنصوب، مبيّنةٌ لِما أشيرَ إليه بذلك.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى﴾ به ابتداءً، أو يُثبِّت على الهدى، أو يزيد فيه ﴿مَن يُرِيدُ﴾ هدايتَه أو تثبيتَه أو زيادتَه فيها. ومحلّ الجملة إمّا الجرّ على حذف الجارّ المتعلّق بمحذوف مؤخَّر، أي: ولأنّ الله يهدي مَن يريد أنزله كذلك، أو الرفعُ على أنّه خبر لمبتدأ محذوف، أي: / والأمر أنّ الله يهدي مَن يريد هدايته. [١١٢ظ]

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: بما ذُكر مِن الآيات البيّنات بهداية الله تعالى، أو بكلّ ما يجب أن يؤمَن به، فيدخلُ فيه ما ذُكر دخولًا أوّليًا. ﴿وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ﴾ قيل: هم قوم يعبدون النار. وقيل: الشمسَ والقمرَ. وقيل: هم قوم مِن النصارى اعتزلوا عنهم ولبسوا المُسوح. وقيل: أخذوا مِن دين النصارى شيئًا ومِن دين اليهود شيئًا، وهم القائلون بأنّ للعالَم أصلين نورًا وظلمة. ﴿وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟﴾ هم عبدة الأصنام.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ في حيّز الرفع على أنّه خبر لـ﴿إِنَّ﴾ السابقة، وتصديرُ طرَفي الجملة بحرف التحقيق لزيادة التقرير والتأكيد، أي: يقضي بين المؤمنين وبين الفِرَق الخمس المتّفقة على ملّة الكفر بإظهار المُحقّ مِن المُبطِل، وتوفيةِ كلٍّ منهما حقَّه مِن الجزاء بإثابة الأوّل وعقاب الثاني بحسب استحقاق أفراد كلّ منهما.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ تعليل لِما قبله مِن "الفصل"، أي: عالمٌ بكلّ شيء مِن الأشياء، ومراقب لأحواله، ومِن قضيّته الإحاطةُ بتفاصيل ما صدر عن كلّ فرد مِن أفراد الفِرَق المذكورة، وإجراءُ جزائه اللائق به عليه.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾... إلخ بيان لِما يوجب الفصل المذكور مِن أعمال الفِرَق المذكورة مع الإشارة إلى كيفيّته وكونِه بطريق التعذيب والإثابة والإكرام والإهانة إثرَ بيان ما يوجبه مِن كونه تعالى شهيدًا على جميع الأشياء التي مِن جملتها أحوالهم وأفعالهم.

والمراد بـ"الرؤية" العلم، عُبّر عنه بها إشعارًا بظهور المعلوم. والخطاب لكلّ أحد ممّن يتأتّى منه الرؤية بناءً على أنّه مِن الجلاء بحيث لا يخفى على أحدٍ.

[١١٣و] / والمراد بـ"السجود" هو الانقياد التامّ لتدبيره تعالى بطريق الاستعارة المبنيّة على تشبيهه بأكمل أفعال المكلّف في باب الطاعة إيذانًا بكونه في أقصى مراتب التسخّر والتذلّل، لا سجودُ الطاعة الخاصّة بالعقلاء، سواء جُعلت كلمة ﴿مَن﴾ عامّة لغيرهم أيضًا، وهو الأنسب بالمقام لإفادته شمولَ الحُكم لكلّ ما فيهما بطريق القرار فيهما أو بطريق الجزئيّة منهما، فيكون قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ﴾ إفرادًا لها بالذكر لشُهرتها واستبعاد ذلك منها عادةً، أو جُعلت خاصّةً بالعقلاء لعدم شمول سجود الطاعة لكلّهم حسبما يُنبئ عنه قوله تعالى: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ فإنّه مرتفع بفعل مضمر يدلّ عليه المذكور، أي: ويسجد له كثير مِن الناس سجودَ طاعةٍ وعبادةٍ، ومِن قضيّته انتفاء ذلك عن بعضهم.

وقيل: هو مرفوع على الابتداء، حُذف خبره ثقةً بدلالة خبر قَسيمه عليه، نحو: حقّ له الثواب. والأوّل هو الأَولى لِما فيه مِن الترغيب في السجود والطاعة.

وقد جُوّز أن يكون ﴿مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ خبرًا له، أي: مِن الناس الذين هم الناس على الحقيقة، وهم الصالحون والمتّقون، وأن يكون قوله تعالى: ﴿وَكَثِيرٌ﴾ معطوفًا على ﴿كَثِيرٌ﴾ الأوّل للإيذان بغاية الكثرة، ثمّ يُخبَر عنهم باستحقاق العذاب، كأنّه قيل: وكثير وكثير مِن الناس ﴿حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ أي: بكفره واستعصائه. وقُرئ: "حُقَّ" بالضمّ،[1] و"حَقًّا"،[2] أي: حقّ عليه العذاب حقًّا.

﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ﴾ بأن كتب عليه الشقاوةَ حسبما عَلِمه مِن صرف اختياره إلى الشرّ ﴿فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ يكرمه بالسعادة. وقُرئ بفتح الراء[3] على أنّه مصدر ميميّ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ مِن الأشياء التي مِن جملتها الإكرام والإهانة.

﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾﴾

﴿هَٰذَانِ﴾ تعيين لطرَفي الخِصام، وإزاحةٌ لِما عسى يتبادر إلى الوهم مِن كونه بين كلّ واحدة مِن الفِرَق الستّ وبين البواقي، وتحريرٌ لمحلّه، أي: فريق المؤمنين، / وفريقُ الكفرة المنقسمُ إلى الفِرَق الخمس.[4] [١١٣ظ]

﴿خَصْمَانِ﴾ أي: فريقان مختصمان، وإنّما قيل: ﴿ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾ حملًا على المعنى، أي: اختصموا في شأنه عزّ وجلّ. وقيل: في دينه. وقيل: في ذاته وصفاته. والكلّ مِن شئونه تعالى، فإنّ اعتقاد كلّ مِن الفريقين بحقّيّة ما هو عليه، وبطلانِ ما عليه صاحبُه، وبناءَ أقواله وأفعاله عليه، خصومةٌ للفريق الآخر، وإن لم يجرِ بينهما التحاور والخِصام.

وقيل: تخاصمت اليهود والمؤمنون، فقالت اليهود: «نحن أحقّ بالله، وأقدَم منكم كتابًا، ونبيّنا قبل نبيّكم»، وقال المؤمنون: «نحن أحقّ بالله منكم،

---

[1] قراءة شاذّة، ذكرها المفسّرون ولم أجد مَن ذكَر قارئها. انظر: **الكشّاف** للزمخشري، ١٤٩/٣؛ و**البحر المحيط** لأبي حيّان، ٤٩٥/٧.

[2] قراءة شاذّة، ذكرها المفسّرون ولم أجد مَن ذكَر قارئها. انظر: **الكشّاف** للزمخشري، ١٤٩/٣؛ و**البحر المحيط** لأبي حيّان، ٤٩٥/٧.

[3] أي: "مُكرَم". قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٢٦.

[4] وفي هامش م: هم اليهود والصابئون والنصارى والمجوس والمشركون. «منه».

آمنّا بمحمّد عليه السلام[١] وبنبيّكم وبما أنزل الله مِن كتاب، وأنتم تعرفون كتابنا ونبيّنا ثم كفرتم به حسدًا»، فنزلت.[٢]

﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ تفصيل لِمَا أُجمِل في قوله تعالى: ﴿يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾.[٣] ﴿قُطِّعَتۡ لَهُمۡ﴾ أي: قدّرت على مقادير جُثثهم. وقُرئ بالتخفيف.[٤] ﴿ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ﴾ أي: نيران هائلة تحيط بهم إحاطةَ الثياب بلابسِها، ﴿يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ﴾ أي: الماءُ الحارّ الذي انتهت حرارته. قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: «لو قطَرت قطرة منه على جبال الدنيا لَأذابتها».[٥] والجملة مستأنفة، أو خبر ثانٍ للموصول، أو حال مِن ضمير ﴿لَهُمۡ﴾.

﴿يُصۡهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمۡ وَٱلۡجُلُودُ ٢٠﴾

﴿يُصۡهَرُ بِهِۦ﴾ أي: يُذاب ﴿مَا فِي بُطُونِهِمۡ﴾ مِن الأمعاء والأحشاء. وقُرئ: "يُصَهَّرُ" بالتشديد.[٦] ﴿وَٱلۡجُلُودُ﴾ عطفٌ على ﴿مَا﴾، وتأخيرُه عنه إمّا لمراعاة الفواصل، أو للإشعار بغاية شدّة الحرارة بإيهام أنّ تأثيرها في الباطن أقدم مِن تأثيرها في الظاهر، مع أنّ ملابستها على العكس. والجملة حال مِن ﴿ٱلۡحَمِيمُ﴾.[٧]

﴿وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنۡ حَدِيدٖ ٢١﴾

[١١٤و] / ﴿وَلَهُم﴾ للكفرة، أي: لتعذيبهم وأجلِهم ﴿مَقَٰمِعُ مِنۡ حَدِيدٖ﴾ جمع "مِقْمَعة"، وهي آلة القَمع.[٨]

﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ٢٢﴾

﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا﴾ أي: أشرفوا على الخروج مِن النار ودنَوا منه،

---

١ س – عليه السلام.

٢ جامع البيان للطبري، ٤٩١/١٦؛ الكشف والبيان للثعلبي، ١٣/٧.

٣ الحج، ١٧/٢٢.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن الزعفراني عن أبي عمرو. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٢٧.

٥ الكشّاف للزمخشري، ١٥٠/٣؛ اللباب لابن عادل، ٤٩/١٤.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسَن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٢٧.

٧ في الآية السابقة.

٨ المِقْمَعَة: واحدة المَقامِع مِن حديدٍ كالمِحجن، يُضرَب بها على رأس الفيل. وقد قَمَعْتُه إذا ضرَبته بها. الصحاح للجوهري، «قمع».

حسبما يُروى أنّها تَضربهم بلَهيبها فترفعهم، حتّى إذا كانوا في أعلاها ضُرِبوا بالمَقامع، فَهوَوا فيها سبعين خريفًا.[١] ﴿مِنۡ غَمٍّ﴾ أي: مِن غمّ شديد مِن غُمومها، وهو بدل اشتمال مِن "الهاء" بإعادة الجارّ، والرابط محذوف كما أشيرَ إليه، أو مفعول له للخروج.

﴿أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ أي: في قَعرها، بأن رُدّوا مِن أعاليها إلى أسافلِها مِن غير أن يخرجوا منها، ﴿وَذُوقُواْ﴾ على تقدير قول معطوف على ﴿أُعِيدُواْ﴾، أي: وقيل لهم: ذوقوا ﴿عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾ أي: الغليظِ مِن النار المنتشرِ العظيمِ الإهلاكِ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ٢٣﴾

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ بيان لِحُسن حال المؤمنين إثرَ بيان سوء حال الكفرة، وقد غُيّر الأسلوب فيه بإسناد الإدخال إلى الله عزّ وجلّ. وتصدير الجملة بحرف التحقيق إيذانًا بكمال مباينة حالهم لحال الكفرة، وإظهارًا لمزيد العناية بأمر المؤمنين، ودلالةً على تحقّق مضمون الكلام.

﴿يُحَلَّوۡنَ فِيهَا﴾ على البناء للمفعول بالتشديد مِن "التَّحلية". وقُرئ بالتخفيف،[٢] مِن "الإحْلاء" بمعنى الإلباس. أي: يُحلّيهم الملائكة بأمره تعالى. وقُرئ: "يَحْلَوْنَ"،[٣] مِن "حَلِيَت المَرأةُ" إذا لبِسَت حُليَّها.

و﴿مِنۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنۡ أَسَاوِرَ﴾ إمّا للتبعيضِ، أي: بعضُ أساور، وهي جمع "أَسْوِرة" جمعِ "سِوار"، أو للبيان لِما أنّ ذكر التحلية ممّا ينبئ عن الحَلْيِ المبهَم. وقيل: زائدة. وقيل: نعت لمفعول محذوف / لِـ﴿يُحَلَّوۡنَ﴾، فإنّه بمعنى "يُلْبَسُون". ﴿مِن ذَهَبٖ﴾ بيان لـ"الأساور". [١١٤ظ]

---

١ عن الحسن في التفسير الوسيط للواحدي، ٢٦٤/٣؛ والكشّاف للزمخشري، ١٥٠/٣.

٢ أي: "يُحْلَوْنَ". قراءة شاذّة، ذكرها المفسّرون ولم أجد مَن ذكَر قارئها. انظر: البحر المحيط لأبي حيّان، ٤٩٦/٧.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس رضي الله عنه. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٢٧.

﴿وَلُؤْلُؤًا﴾ عطفٌ على محلّ ﴿مِنْ أَسَاوِرَ﴾، أو على المفعول المحذوف، أو منصوب بفعل مُضمَر يدلّ عليه ﴿يُحَلَّوْنَ﴾، أي: يؤتَون. وقُرئ بالجرّ[١] عطفًا على ﴿أَسَاوِرَ﴾. وقُرئ: "لُؤْلُوًا" بقلب الهمزة الثانية واوًا،[٢] و"لُولِيًا"[٣] بقَلبها ياءً بعد قلبهما واوًا، و"لِيلِيًا" بقلبهما ياءً.[٤]

﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ غُيّر الأسلوب حيث لم يُقَل: ويُلبَسون فيها حريرًا، لكن لا للدلالة على أنّ الحرير ثيابهم المعتادة، أو لمجرّد المحافظة على هيئة الفواصل؛ بل للإيذان بأنّ ثبوت اللباس لهم أمر محقّق غنيّ عن البيان، إذ لا يمكن عراؤهم عنه، وإنّما المحتاج إلى البيان أنّ لباسهم ماذا، بخلاف الأساور واللؤلؤ، فإنّها ليست مِن اللوازم الضروريّة، فجُعل بيان تحليتهم بها مقصودًا بالذات، ولعلّ هذا هو الباعث إلى تقديم بيان التحلية على بيان حال اللباس.

﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ٢٤﴾

﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ وهو قولهم: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ﴾[٥] الآيةَ [الزمر، ٧٤/٣٩]. ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾ أي: المحمودِ نفسُه، أو عاقبتُه، وهي الجنّة، ووجه تأخير هذه الهداية عن ذكر الهداية إلى القول المذكور المتأخِّرِ عن دخول الجنّة المتأخِّرِ عن الهداية إلى طريقها لرعاية[٦] الفواصل. وقيل: المراد بـ﴿ٱلْحَمِيدِ﴾ الحقُّ المستحِقُّ لذاته لغاية الحمد،

---

[١] قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وحمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٣٢٦/٢.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن المعلى بن منصور عن شعبة. انظر: البحر المحيط لأبي حيّان، ٤٩٧/٧. والرواية الصحيحة عن شعبة إبدال الهمزة الأولى دون الثانية. انظر: النشر لابن الجزري، ٣٩٤/١. وقرأ هشام في أحد الوجهين عنه عند الوقف عليها بإبدال الهمزة الثانية واوًا ساكنة دون ألف بعدها. وقرأ حمزة عند الوقف كذلك بإبدال كلٍّ مِن الهمزتين واوًا ساكنة. انظر: النشر لابن الجزري، ٤٣٠/١.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن الفيّاض انظر: البحر المحيط لأبي حيّان، ٤٩٧/٧.

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس رضي الله عنه. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٢٧.

[٥] ط س: وأورثنا الجنّة. ["صح" في هامش م]. | لعلّ المؤلف صحّحها بعد نسخ ط س.

[٦] ط س: رعاية.

وهو الله عزّ وجلّ، وصراطُه الإسلام. ووجه التأخير حينئذ أنّ ذكر "الحمد" يستدعي ذكر "المَحمود".

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ليس المراد به حالًا ولا استقبالًا، وإنّما هو استمرارُ الصدّ، ولذلك حَسُن عطفه على الماضي، كما في قوله تعالى: / ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد، ١٣/٢٨]. وقيل: هو حال [١١٥و] مِن فاعل ﴿كَفَرُواْ﴾، أي: وهم يصدّون، وخبر ﴿إِنَّ﴾ محذوف لدلالة آخِر الآية الكريمة عليه، فإنّ مَن ألْحَد في الحَرَم حيث عُوقب بالعذاب الأليم فلَأَن يعاقَب مَن جمع إليه الكفرَ والصدّ عن سبيل الله بأشدَّ مِن ذلك[١] أحقُّ وأولى.

﴿وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ عطف على ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾. قيل: المراد به مكّة، بدليل وصفه بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ﴾ أي: كائنًا مَن كان، مِن غير فرق بين مكّي وآفاقي.

﴿سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ﴾ أي: المقيم والطارئ، و﴿سَوَآءً﴾ أي: مستويًا، مفعول ثانٍ لـ﴿جَعَلْنَٰهُ﴾، و﴿ٱلْعَٰكِفُ﴾ مرتفع به، و"اللام" متعلّق به ظرف له. وفائدة وصف المسجد الحرام بذلك زيادةُ تشنيعِ الصادّين عنه. وقُرئ: "سَوَاءٌ" بالرفع[٢] على أنّه خبر مقدّم. و﴿ٱلْعَٰكِفُ﴾ مبتدأ، والجملة مفعول ثانٍ للجَعل. وقُرئ: "الْعَاكِفِ" بالجرّ[٣] على أنّه بدل مِن ﴿النَّاسِ﴾.

﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ﴾ ممّا تُرك مفعوله ليتناول كلّ متناوَل، كأنّه قيل: ومَن يُرد فيه مرادًا ما ﴿بِإِلْحَادٍ﴾ بعُدولٍ عن القصد ﴿بِظُلْمٍ﴾ بغير حقّ، وهما حالان مترادِفان، والثاني بدل مِن الأوّل بإعادة الجارّ، أو صلة له، أي: ملحِدًا بسبب الظلم، كالإشراك واقتراف الآثام ﴿نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ جواب لـ﴿مَن﴾.

---

١ وفي هامش م: أي: جوابِ أشدّ مِن ذلك. «منه».

٢ قرأ بها جميع القرّاء العشر غير حفص عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٢/٣٢٦.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٢٧.

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾﴾

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا﴾ يقال: "بوّأه مَنزِلًا"، أي: أنزله فيه. ولمّا لزمه جعلُ الثاني مَباءةً للأوّل قيل: ﴿لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ وعليه مبنى قول ابن عبّاس رضي الله عنهما: «جعلناه»،[1] أي: اذكر وقت جعلِنا مكانَ البيت مَباءةً له عليه السلام، أي: مرجعًا يرجع إليه للعمارة والعبادة. وتوجيه الأمر بالذكر إلى الوقت مع أنّ المقصود / تذكير ما وقع فيه مِن الحوادث قد مرّ بيانه غير مرّة. [١١٥ظ]

وقيل: "اللام" زائدة، و﴿مَكَانَ﴾ ظرف كما في أصل الاستعمال، أي: أنزلناه فيه.

قيل: رُفع البيت إلى السماء أيّام الطوفان، وكان مِن ياقوتة حمراء، فأعلمَ الله تعالى إبراهيم عليه السلام مكانَه بريح أرسلها يقال لها: "الخَجُوج"،[2] كنَسَت ما حوله، فبناه على أُسّه القديم.[3]

رُوي أنّ الكعبة الكريمة بُنيت خمسَ مرّات؛ **إحداها**: بناء الملائكة، وكانت مِن ياقوتة حمراء، ثمّ رُفعت أيّامَ الطوفان. **والثانية**: بناء إبراهيم عليه السلام. **والثالثة**: بناء قريش في الجاهليّة، وقد حضر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم هذا البناء. **والرابعة**: بناء ابن الزبير رضي الله عنه. **والخامسة**: بناء الحجّاج. وقد أوردنا ما في هذا الشأن مِن الأقاويل في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ﴾ [البقرة، ١٢٧/٢].

و﴿أَن﴾ في قوله تعالى: ﴿أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا﴾ مفسِّرة لـ﴿بَوَّأْنَا﴾ مِن حيث إنّه متضمّن لمعنى "تعبّدنا"؛ لأنّ التبوِئة للعبادة، أو مصدريّة موصولة بالنهي، وقد مرّ تحقيقه في أوائل سورة هود.[4] أي: فعلنا ذلك لئلّا تشرك بي في العبادة شيئًا.

---

[1] **الكشف والبيان** للثعلبي، ١٧/٧؛ **معالم التنزيل** للبغوي، ٣٧٨/٥.

[2] قال الأصمعي: الخَجوج مِن الرياح: الشديدة المَرّ. **الصحاح** للجوهري، «خجج».

[3] **الكشّاف** للزمخشري، ١٥٢/٣؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٦٩/٤.

[4] هود، ٢/١١.

﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ أي: وتُطهّر بيتي مِن الأوثان والأقذار لِمَن يطوف به ويصلّي فيه. ولعلّ التعبيرَ عن الصلاة بأركانها للدلالة على أنّ كلّ واحد منها مستقلّ باقتضاء ذلك، فكيف وقد اجتَمعت. وقُرئ: "يُشْرِكْ" بالياء.[١]

﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾﴾

﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ﴾ أي: نَادِ فيهم. وقُرئ: "آذِنْ".[٢] ﴿بِٱلْحَجِّ﴾ بدعوة الحجّ، والأمرِ به. رُوي أنّه عليه السلام صَعِد أبا قبيس، فقال: «يا أيّها الناس حُجّوا بَيت ربّكم»، / فأسمعه الله تعالى مَنْ في أصلاب الرجال وأرحام النساء فيما بين المشرق والمغرب مِمّن سبَق في علمه تعالى أن يحجّ.[٣] وقيل: الخطاب لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم، أُمر بذلك في حجّة الوداع،[٤] ويأباه كون السورة مكّيّة. [١١٦و]

﴿يَأْتُوكَ﴾ جواب للأمر ﴿رِجَالًا﴾ أي: مشاةً، جمع "راجل"، كـ"قيام" جمع "قائم". وقُرئ بضمّ الراء وتخفيف الجيم[٥] وتشديده،[٦] و"رُجَالَى"[٧] كـ"عُجَالَى".

﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾ عطفٌ على ﴿رِجَالًا﴾، أي: ورُكبانًا على كلّ بعير مَهزول أتعبه بُعد الشُّقّة فهزله أو زاد هُزاله. ﴿يَأْتِينَ﴾ صفة لـ﴿ضَامِرٍ﴾ محمولة على المعنى. وقُرئ: "يَأْتُونَ"[٨] على أنّه صفة للرجال والركبان، أو استئناف، فيكون الضمير لـ﴿ٱلنَّاسِ﴾. ﴿مِن كُلِّ فَجٍّ﴾ طريق واسع ﴿عَمِيقٍ﴾ بعيد. وقُرئ: "مَعِيقٍ"،[٩] يقال: "بئر بعيدةُ العُمْق"، و"بعيدةُ المُعْق" بمعنًى، كـ"الجَذْب" و"الجَبْذ".

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن عكرمة. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٢٧.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وابن محيصن. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٢٧.

[٣] **الكشّاف** للزمخشري، ١٥٢/٣؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٧٠/٤.

[٤] **الكشّاف** للزمخشري، ١٥٢/٣؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٧٠/٤.

[٥] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس رضي الله عنهما ومجاهد عكرمة والحسَن وابن أبي إسحاق. انظر: **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٥٠١/٧؛ و**شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٢٨.

[٦] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس رضي الله عنهما وعكرمة والحسن وأبي مجلز ومجاهد وجعفر بن محمد. انظر: **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٥٠١/٧.

[٧] قراءة شاذّة، مرويّة عن عكرمة. انظر: **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٥٠١/٧.

[٨] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود وابن عبّاس رضي الله عنهم وجعفر بن محمد. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٢٨.

[٩] قراءة شاذّة، ذكرها الكرماني وقال: "لغة تميم". انظر: **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٢٧.

﴿لِيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ٢٨﴾

﴿لِيَشْهَدُواْ﴾ متعلّق بـ﴿يَأْتُوكَ﴾،[١] لا بـ﴿أَذِّن﴾،[٢] أي: ليَحضروا ﴿مَنَٰفِعَ﴾ عظيمةَ الخَطر، كثيرةَ العدد، أو نوعًا مِن المنافع الدينيّة والدنيويّة المختصّة بهذه العبادة. و"اللام" في قوله تعالى: ﴿لَهُمْ﴾ متعلّق بمحذوف هو صفة لـ﴿مَنَٰفِعَ﴾، أي: منافع كائنة لهم.

﴿وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ﴾ عند إعداد الهدايا والضحايا وذبحها. وفي جعله غاية للإتيان إيذان بأنّه الغاية القُصوى دون غيره. وقيل: هو كناية عن الذبح؛ لأنّه لا ينفكّ عنه. ﴿فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ﴾ هي أيّام النحر، كما يُنبئ عنه قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ فإنّ المراد بـ"الذِّكر" ما وقع عند الذبح. وقيل: هي عِشر ذي الحجّة. وقد عُلّق الفعل بالمرزوق وبُيّن / بالبهيمة تحريضًا على التقرّب وتنبيهًا على الذِّكر. [١١٦ظ]

﴿فَكُلُواْ مِنْهَا﴾ التفات إلى الخطاب، و"الفاء" فصيحة عاطفة لمَدخولها على مقدَّر قد حُذف للإشعار بأنّه أمر محقّق غير محتاج إلى التصريح به، كما في قوله تعالى: ﴿فَٱنفَجَرَتْ﴾ [البقرة، ٢/٦٠]، أي: فاذكروا اسم الله تعالى على ضحاياكم فكلوا مِن لحومها. والأمر للإباحة وإزاحة ما كانت عليه أهل الجاهليّة مِن التحرّج فيه، أو للندب إلى مواساة الفقراء ومساواتهم. ﴿وَأَطْعِمُواْ ٱلْبَآئِسَ﴾ أي: الذي أصابه بؤس وشِدّة ﴿ٱلْفَقِيرَ﴾ المحتاجَ، وهذا الأمر للوجوب. وقد قيل به في الأوّل أيضًا.

﴿ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُواْ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ٢٩﴾

﴿ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ﴾ أي: ليؤدّوا إزالة وسخِهم، أو ليُحكموها بقصّ الشارب والأظفار ونتف الإبط والاستحداد عند الإحلال. ﴿وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ﴾ ما ينذرون مِن البِرّ في حجّهم. وقيل: مواجب الحجّ. وقُرئ بفتح الواو وتشديد "الفاء".[٣]

---

[١] في الآية السابقة.

[٢] في الآية السابقة.

[٣] قرأ بها شعبة عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٢/٣٢٦.

﴿وَلۡيَطَّوَّفُواْ﴾ طوافَ الركن الذي به يتمّ التحلّل، فإنّه قرينة قضاء التَّفَث، وقيل: طواف الوداع.[١] ﴿بِٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ﴾ أي: القديم، فإنّه أوّل بيت وُضع للناس، أو المعتَق مِن تَسلّط الجبابرة، فكأيٍّ مِن جبّار سار إليه ليهدمه فقصَمه الله عزّ وجلّ. وأمّا الحجّاج الثقفي فإنّما قصد إخراج ابنِ الزبير رضي الله عنهما منه، لا التسلّط عليه.

﴿ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمۡ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦۗ وَأُحِلَّتۡ لَكُمُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ ٣٠﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الأمر ذلك، وهذا وأمثاله يطلق للفصل بين الكلامين أو بين وجهَي كلام واحد ﴿وَمَن يُعَظِّمۡ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: أحكامَه وسائرَ ما لا يحلّ هَتْكه بالعلم بوجوب مراعاتها والعمل بموجَبه. وقيل: الحَرَمَ وما يتعلّق بالحجّ / مِن [١١٧و] التكاليف. وقيل: الكعبةَ والمسجدَ الحرام والبلدَ الحرام والشهرَ الحرام. ﴿فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥ﴾ أي: فالتعظيم خير له ثوابًا ﴿عِندَ رَبِّهِۦ﴾ أي: في الآخرة. والتعرّض لعنوان الربوبيّة مع الإضافة إلى ضمير ﴿مَن﴾ لتشريفه والإشعارِ بعلّة الحكم.

﴿وَأُحِلَّتۡ لَكُمُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ﴾ وهي الأزواج الثمانية[٢] على الإطلاق، فقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾ أي: إلّا ما يُتلى عليكم آية تحريمه. استثناء متّصل منها على أنّ ﴿مَا﴾ عبارة عمّا حُرّم منها لعارض، كالميتة وما أُهلّ به لغير الله تعالى.

والجملة اعتراض جيء به تقريرًا لِما قبله مِن الأمر بالأكل والإطعام، ودفعًا لِما عسى يُتوهّم أنّ الإحرام يحرّمه[٣] كما يحرّم الصيد. وعدم الاكتفاء ببيان عدم كونها[٤] مِن ذلك القبيل -بحمل الأنعام على ما ذُكر مِن الضحايا والهدايا المعهودة خاصّةً؛ لئلّا يحتاج إلى الاستثناء المذكور، إذ ليس فيها ما حُرّم لعارض قطعًا- لمراعاة حُسن التخلّص إلى ما بعده مِن قوله تعالى:

---

١ وفي هامش م: ويُفسَّر تغيير الصيغة في الأوامر الثلاثة لتعميم الحكم للفقراء أيضًا ضرورةَ اختصاص الأمرين السابقين بالأغنياء. «منه».

٢ المذكورة في قوله تعالى: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۖ مِّنَ ٱلضَّأۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡمَعۡزِ ٱثۡنَيۡنِ﴾... الآيتين [الأنعام، ٦/١٤٣-١٤٤].

٣ وفي هامش م: أي: الأكل. «منه».

٤ ط س: كونه. | وفي هامش م: أي: الأنعام. «منه».

﴿فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ﴾، فإنّه مترتّب على ما يفيده قوله تعالى: ﴿وَمَن يُعَظِّمۡ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ مِن وجوب مراعاتها والاجتناب عن هَتكها.

ولمّا كان بيان حلّ الأنعام مِن دواعي التعاطي -لا مِن مبادي الاجتناب- عُقّب[1] بما يجب[2] الاجتناب عنه مِن الحُرُمات، ثمّ أُمر بالاجتناب عمّا هو أقصى الحُرُمات، كأنّه قيل: ومَن يعظّم حُرُمات الله فهو خير له، والأنعامُ ليست مِن الحُرُمات، فإنّها محلّلة لكم إلّا ما يُتلى عليكم آيةُ تحريمه، فإنّه ممّا يجب الاجتناب عنه، فاجتنبوا ما هو معظم الأمور التي يجب الاجتناب عنها.

[١١٧ظ] وقوله تعالى: ﴿وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ﴾ تعميم بعد تخصيص، فإنّ / عبادة الأوثان رأس الزور، وكأنّه لمّا حثّ على تعظيم الحُرُمات أتبَع ذلك ردًّا لِما كانت الكفرة عليه مِن تحريم البَحائر والسوائب ونحوهما، والافتراءِ على الله تعالى بأنّه حَكم بذلك.

وقيل: شهادةَ الزور، لِما رُوي أنّه عليه السلام قال: «عدَلَت شهادةُ الزور الإشراكَ بالله تعالى» ثلاثًا، وتلا هذه الآية.[3] و﴿ٱلزُّورِ﴾ مِن "الزَّوْر"، وهو الانحراف، كـ"الإفْك" المأخوذ مِن "الأَفْك" الذي هو القَلب والصَّرف، فإنّ الكذِب منحرف مَصروف عن الواقع. وقيل: هو قول أهل الجاهليّة في تلبيتهم: "لبّيك لا شريك لك إلّا شريكٌ هو لك تَملِكُه وما مَلك".[4]

﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ ٣١﴾

﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ﴾ مائلين عن كلّ دين زائغ إلى الدين الحقّ، مخلصين لله تعالى ﴿غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦ﴾ أي: شيئًا مِن الأشياء، فيدخل في ذلك الأوثانُ دخولًا أوّليًا. وهما حالان مِن "واو" ﴿فَٱجۡتَنِبُواْ﴾.[5]

---

١ وفي هامش م: أي: بيان حِلّ الأنعام.

٢ ط س: يوجب. | يظهر أثر الكشط في نسخة المؤلّف، فلعلّه صحّحها بعد نسخ ط س.

٣ سنن أبي داود، ٤٥١/٥ (٣٥٩٩)؛ سنن الترمذي، ٥٤٧/٤ (٢٢٩٩).

٤ الكشف والبيان للثعلبي، ٢١/٧؛ الكشّاف للزمخشري، ١٥٥/٣.

٥ في الآية السابقة.

﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾ جملة مبتدأة مؤكِّدة لِما قبلها مِن الاجتناب مِن الإشراك. وإظهار الاسم الجليل لإظهار كمال قُبح الإشراك، ﴿فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ لأنّه سقط مِن أَوج الإيمان إلى حَضيض الكفرِ، ﴿فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ﴾ فإنّ الأهواء المُردية توزّع أفكاره. وقُرئ: "فَتَخَطَّفُهُ" بفتح الخاء وتشديد الطاء.[١] وبكسر الخاء والطاء،[٢] وبكسر التاء مع كسرهما،[٣] وأصلُهما "تَخْتَطِفُهُ".

﴿أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ﴾ أي: تُسقِطه وتَقذفه ﴿فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ بعيد، فإنّ الشيطان قد طوّح به في الضلالة. و﴿أَوْ﴾ للتخيير كما في ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ﴾ [البقرة، ١٩/٢]، أو للتنويع. ويجوز أن يكون مِن باب التشبيه المركّب، / فيكون المعنى: ومَن [١١٨و] يشرك بالله فقد هلَكت نفسُه هلاكًا شبيهًا بهلاك أحد الهالكين.

﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ۝٣٢﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الأمر ذلك، أو امتثِلوا ذلك. ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ أي: الهدايا، فإنّها مِن معالم الحجّ وشعائره تعالى، كما ينبئ عنه: ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ﴾،[٤] وهو الأوفق لِما بعده. و"تعظيمُها" اعتقادُ أنّ التقرّب بها مِن أجلّ القُربات، وأن يختارها حِسانًا سِمانًا غالية الأثمان.

رُوي أنّه صلّى الله عليه وسلّم أهدَى مائةَ بدَنة، فيها جَمَل لأبي جهل في أنفه بُرَة مِن ذهب،[٥] وأنّ عمر رضي الله عنه أهدى نَجيبةً طُلِبت منه بثلاثمائة دينار.[٦]

---

[١] قرأ بها نافع وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٣٢٦/٢.

[٢] أي: "فَتِخِطِّفُهُ". قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٢٨.

[٣] أي: "فَتِخِطِّفُهُ". قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وأبي رجاء والأعمش. البحر المحيط لأبي حيّان، ٥٠٥/٧.

[٤] الحج، ٣٦/٢٢.

[٥] **الكشّاف** للزمخشري، ١٥٦/٣؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٧١/٤. وأخرجه أبو داود في السنن، ١٦٨/٣ (١٧٤٩). وفيه زاد بعض رواته: "يغيظ بذلك المشركين". والبُرَة: حلْقة تُجعل في لحم الأنف. **النهاية** لابن الأثير، «بره».

[٦] **الكشّاف** للزمخشري، ١٥٦/٣؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٧١/٤. وأخرجه ابن خزيمة في **صحيحه**، ١٣٦٨/٢ (٢٩١١). والنجيب: الفاضل مِن كلّ حيوان. **النهاية** لابن الأثير، «نجب». وأخرجه أبو داود في السنن، ١٧٣/٣ (١٧٥٦)، بلفظ: "أهدى عمَر بن الخطّاب بُختيًا". والبختي: الذكَر مِن الجمال البخت، وهي جمال طِوال الأعناق. **النهاية** لابن الأثير، «بخت».

﴿فَإِنَّهَا﴾ أي: فإنّ تعظيمها ﴿مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ أي: مِن أفعال ذوي تقوى القلوب، فحُذفت هذه المضافات، والعائد إلى «مَن»، أو فإنّ تعظيمها ناشِئٌ مِن تقوى القلوب. وتخصيصها بالإضافة لأنّها مراكز التقوى التي إذا ثبتَت فيها وتمكّنت ظهَر أثرها في سائر الأعضاء.

﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾﴾

﴿لَكُمْ فِيهَا﴾ أي: في الهدايا ﴿مَنَٰفِعُ﴾ هي دَرّها ونَسْلها وصوفها وظَهْرها ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هو وقت نَحرها والتصدّقِ بلحمها والأكلِ منه، ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ﴾ أي: وجوبُ نَحرها، أو وقتُ نَحرها منتهيةً ﴿إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ أي: إلى ما يليه مِن الحَرَم. و«ثُمَّ» للتراخي الزماني أو الرتبي، أي: لكم فيها منافع دنيويّة إلى وقت نَحرها، ثمّ منافع دينيّة، أعظمها في النّفع مَحِلّها، أي: وجوبُ نَحرها، أو وقتُ وجوب نَحرها إلى البيت العتيق، أي: منتهيةً إليه.

هذا، وقد قيل: المراد بـ"الشعائر" مناسكُ الحجّ ومَعالمه، والمعنى: لكم فيها منافع بالأجر والثواب في قضاء المناسك وإقامة شعائر الحجّ إلى أجل مسمّى، هو انقضاء أيّام الحجّ، ثمّ مَحِلّها -أي: مَحِلّ الناس مِن إحرامهم- / إلى البيت العتيق، أي: مُنتهٍ إليه، بأن يطوفوا به طوافَ الزيارة يوم النحر بعد قضاء المناسك، فإضافة "المَحِلّ" إليها لأدنى ملابسة. [١١٨ظ]

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾﴾

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ أي: لكلّ أهل دين ﴿جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾ أي: مُتعبَّدًا، أو قُربانًا[١] يتقرّبون به إلى الله عزّ وجلّ. وقُرِئ بكسر السين،[٢] أي: مَوضعَ نُسُك. وتقديم الجارّ والمجرور على الفعل للتخصيص، أي: لكلّ أمّة مِن الأمم جعلنا مَنسَكًا، لا لبعضٍ منهم دون بعض ﴿لِّيَذْكُرُوا ٱسْمَ ٱللَّهِ﴾ خاصّةً دون غيره، ويجعلوا نَسيكتَهم

---

[١] ط س: وقربانًا.

[٢] قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٣٢٦/٢.

لوجهه الكريم. عُلِّل الجعلُ به تنبيهًا على أنّ المقصود الأصلي مِن المناسك تذكّر المعبود. ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۗ﴾ عند ذبحها. وفيه تنبيه على أنّ القُربان يجب أن يكون مِن الأنعام.

والخطاب في قوله تعالى: ﴿فَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ للكلّ تغليبًا. و"الفاء" لترتيب ما بعدها على ما قبلها، فإنّ جعله تعالى لكلّ أمّة مِن الأمم مَنْسكًا ممّا يدلّ على وحدانيّته تعالى. وإنّما قيل: ﴿إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ ولم يُقَل: "واحد" لِمَا أنّ المراد بيان أنّه تعالى واحد في ذاته، كما أنّه واحد في إلهيّته للكلّ.

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَلَهُۥٓ أَسۡلِمُواْۗ﴾ لترتيب ما بعدها مِن الأمر بالإسلام على وحدانيّته تعالى. وتقديم الجارّ والمجرور على الأمر للقصر، أي: فإذا كان إلهكم إلهًا واحدًا فأخلِصوا له التقرّب -أو الذكر- واجعلوه لوجهه خاصّة، ولا تشوبوه بالشرك.

﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ﴾ تجريد للخطاب إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، أي: المتواضعين أو المخلِصين، فإنّ الإخْبات مِن الوظائف الخاصّة بهم.

﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمۡ وَٱلۡمُقِيمِي ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣٥﴾

﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾ منه تعالى لإشراق أشعّة جلاله عليها، ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمۡ﴾ مِن مشاقّ التكاليف ومُؤنات النوائب، ﴿وَٱلۡمُقِيمِي ٱلصَّلَوٰةِ﴾ في أوقاتها. / وقُرئ بنصب ﴿ٱلصَّلَوٰةِ﴾[1] على تقدير "النون". وقُرئ: "وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ"[2] على الأصل. ﴿وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾ في وجوه الخيرات. [١١٩و]

﴿وَٱلۡبُدۡنَ جَعَلۡنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمۡ فِيهَا خَيۡرٞۖ فَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا صَوَآفَّۖ فَإِذَا وَجَبَتۡ جُنُوبُهَا فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡقَانِعَ وَٱلۡمُعۡتَرَّۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرۡنَٰهَا لَكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٣٦﴾

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٢٨.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود والأعمش. انظر: الكشّاف للزمخشري، ١١٥٧/٣، والبحر المحيط لأبي حيّان، ٥٠٨/٧.

﴿وَٱلْبُدْنَ﴾ بضمّ الباء وسكون الدّال. وقُرئ بضمّهما.[١] وهما جَمعا "بَدَنة"، وقيل: الأصل ضمّ الدال، كـ"خُشُب" و"خَشَبة"، والتسكينُ تخفيف منه. وقُرئ بتشديد النون[٢] على لفظ الوقف.[٣] وإنّما سمّيت بها الإبل لِعِظَم بدَنها، مأخوذة مِن "بَدُن بَدانةً"، وحيث شاركها البقرة[٤] في الإجزاء عن سبعة بقوله صلّى الله عليه وسلّم: «البدَنة عن سبعة، والبقرة[٥] عن سبعة»[٦] جُعلا في الشريعة جنسًا واحدًا. وانتصابه لِمُضمَر يفسّره: ﴿جَعَلْنَٰهَا لَكُم﴾. وقُرئ بالرفع[٧] على أنّه مبتدأ، والجملة خبره.

وقوله تعالى: ﴿مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ﴾ أي: مِن أعلام دينه التي شرعها الله تعالى. مفعول ثان للجَعل. و﴿لَكُم﴾ ظرف لغو متعلّق به. وقوله تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ أي: منافع دينيّة ودنيويّة. جملة مستأنَفة مقرِّرة لِما قبلها.

﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا﴾ بأن تقولوا عند ذبحها: «الله أكبر، لا إله إلّا الله، والله أكبر، اللّهمّ منك وإليك».[٨]

﴿صَوَآفَّ﴾ أي: قائماتٍ قد صفَفنَ أيديَهنّ وأرجلهنّ. وقُرئ: "صَوَافِنَ"[٩] مِن "صَفَنَ الفرسُ" إذا قام على ثلاث وعلى طرف سَنبك[١٠] الرابعة؛ لأنّ البدَنة

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي جعفر ونافع. شواذّ **القراءات** للكرماني، ص ٣٢٩.

٢ أي: "وَالبُدُنّ". قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي إسحاق. انظر: **الكشّاف** للزمخشري، ١٥٨/٣؛ **والبحر المحيط** لأبي حيّان، ٥٠٩/٧.

٣ قال أبو حيّان: «احتمل أن يكون اسمًا مفردًا بُني على فعل كـ"عُتُلّ"، واحتمل أن يكون التشديد مِن التضعيف الجائز في الوقف، وأُجرِي الوصل مُجرى الوقف». **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٥٠٩/٧.

٤ ط س: البقر. | وكتبت التاء المربوطة في نسخة المؤلّف بخط صغير، فلعلّه صحّحها بعد نسخ ط س.

٥ ط س: البقر. | وكتبت التاء المربوطة في نسخة المؤلّف بخط صغير، فلعلّه صحّحها بعد نسخ ط س.

٦ **الكشّاف** للزمخشري، ١٥٨/٣؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٧٢/٤. وأخرجه مسلم في **صحيحه**، ٩٥٥/٢ (١٣١٨)، موقوفًا على جابر بن عبد الله، قال: «نَحرنا مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عام الحديبية البدَنة عن سبعة، والبقرة عن سبعة».

٧ قراءة شاذّة، ذكرها المفسّرون ولم أجد مَن ذكَر قارئها. انظر: **الكشّاف** للزمخشري، ١٥٨/٣؛ **والبحر المحيط** لأبي حيّان، ٥٠٩/٧.

٨ **الكشّاف** للزمخشري، ١٥٨/٣؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٧٢/٤. وأخرجه الحاكم في **المستدرك**، ٢٦٠/٤ (٧٥٧١)، عن ابن عبّاس رضي الله عنهما.

٩ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود وابن عبّاس رضي الله عنهم والأعمش. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٢٩.

١٠ السُّنبك: طرف مقدَّم الحافر، والجمع السَّنابك. **الصحاح** للجوهري، «سبك».

تَعقِل إحدى يَديها فيَقوم على ثلاث. وقُرئ: "صَوَافِنًا"[١] بإبدال التنوين مِن حرف الإطلاق عند الوقف. وقُرئ: "صَوَافِيَ"،[٢] أي: خوالِص لوجه الله عزّ وجلّ. و"صَوَافِ"[٣] على لغة مَن يسكّن الياء على الإطلاق، كما في قوله:

لعلّي أرى باقٍ على الحَدَثانِ[٤]

﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ سقَطت على الأرض، وهي كناية عن الموت ﴿فَكُلُواْ / مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْقَانِعَ﴾ أي: الراضي بما عنده وبما يُعطي مِن غير مسألة، ويؤيّده أنّه قُرئ: "الْقَنِعَ".[٥] أو السائلَ، مِن "قَنِع إليه قُنوعًا" إذا خَضَع له في السؤال، ﴿وَٱلْمُعْتَرَّ﴾ أي: المتعرِّض للسؤال. وقُرئ: "الْمُعْتَرِي"،[٦] يقال: "عَرَّه" و"عَراه"، و"اعترّه" و"اعتَراه". [١١٩ظ]

﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلك التسخير البديع المفهوم مِن قوله تعالى: ﴿صَوَآفَّ﴾ ﴿سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ﴾ مع كمال عِظَمها، ونهاية قوّتها، فلا تستعصي[٧] عليكم حتّى تأخذونها منقادةً فتعقلونها وتحبسونها صافّة قوائمَها ثمّ تطعنون في لَبّاتها.[٨] ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ لِتشكروا إنعامنا عليكم بالتقرّب والإخلاص.

﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾﴾

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن عمرو بن عبيد. وهي كذلك "صَوَافِنًا" بالنون في الكشّاف للزمخشري، ١٥٨/٣. وضبطها أبو حيّان في البحر المحيط، ٥٠٩/٧؛ والسمين الحلبي في الدرّ المصون، ٢٧٧/٢؛ وابن عادل في اللباب، ٩١/٤؛ والشهاب في حاشيته على تفسير البيضاوي، ٢٩٧/٦: "صَوَافِيًا" بالياء.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي موسى الأشعري والحسن وزيد بن أسلم والأعرج. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٢٩.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن أصحاب ابن مسعود رضي الله عنه. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٢٩.

٤ وفي هامش م: صدره:

خُذا حدِّثاني عن فُلٍ وفُلانٍ

وهو لأبي العبّاس التطيلي في الحماسة المغربيّة للجراوي، ٨٨٧/٢.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي رجاء. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٢٩.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٢٩.

٧ ط س: يستعصي. | يظهر أثر الكشط في نسخة المؤلّف، فلعلّه صحّحها بعد نسخ ط س.

٨ اللّبّة: المَنْحَر، وهو موضع القِلادة مِن الصدر مِن كلِّ شيء، والجمع اللّبّات. الصحاح للجوهري، «لبب».

﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ﴾ أي: لن يبلغ مرضاته، ولن يقع موقع القَبول ﴿لُحُومُهَا﴾ المتصدَّقُ بها ﴿وَلَا دِمَآؤُهَا﴾ المُهراقة بالنحر مِن حيث إنّها لحوم ودماء. ﴿وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ ولكن يصيب تقوى قلوبكم التي يدعوكم إلى الامتثال بأمره تعالى وتعظيمه والتقرّب إليه والإخلاص له.

وقيل: كان أهل الجاهليّة يلطّخون الكعبة بدماء قرابينهم، فهَمّ به المسلمون، فنزلت.[1]

﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ﴾ تكرير للتذكير والتعليل بقوله تعالى: ﴿لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي: لِتَعرفوا عظمته باقتداره على ما لا يقدِر عليه غيره، فتوحّدوه بالكبرياء. وقيل: هو التكبير عند الإحلال أو الذبح. ﴿عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾ أي: أرشدَكم إلى طريق تسخيرها وكيفيّة التقرّب بها. و﴿مَا﴾ مصدريّة، أو موصولة، أي: على هدايته إيّاكم، أو على ما هداكم إليه. و﴿عَلَىٰ﴾ متعلّقة بـ﴿تُكَبِّرُوا۟﴾ لتضمّنه / معنى الشكر. ١٢٠و

﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي: المخلصين في كلّ ما يَأتون وما يَذرون في أمور دينهم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾﴾

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ كلام مستأنَف مَسوق لتوطين قلوب المؤمنين ببيان أنّ الله تعالى ناصرهم على أعدائهم بحيث لا يقدرون على صدّهم عن الحجّ؛ ليتفرّغوا إلى أداء مناسكه. وتصديره بكلمة التحقيق لإبراز الاعتناء التامّ بمضمونه.

وصيغة المفاعلة إمّا للمبالغة أو للدلالة على تكرّر الدفع، فإنّها قد تُجَرَّدُ عن وقوع الفعل المتكرّر مِن الجانبين، فيبقى تكرّره كما في الممارسة، أي: يبالغ في دفع غائلة المشركين وضررهم الذي مِن جملته الصدّ عن سبيل الله مبالغةَ مَن يغالب فيه، أو يدفعها عنهم مرّة بعد أخرى حسبما تجدّد منهم القصد إلى الإضرار بالمسلمين، كما في قوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ﴾ [المائدة، ٥/٦٤]. وقرئ: "يَدْفَعُ"،[2] والمفعول محذوف.

---

[1] الكشف والبيان للثعلبي، ٧/٢٤؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤/٧٢.

[2] قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٣٢٦.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ﴾ تعليل لِمَا في ضِمن الوعد الكريم مِن الوعيد للمشركين، وإيذان بأنّ دفعهم بطريق القهر والخِزي. ونفي المحبّة كناية عن البغض، أي: إنّ الله يبغض كلّ خوّان في أماناته تعالى، وهي أوامره ونواهيه، أو في جميعِ الأمانات التي هي معظمها كُفور لنعمته. وصيغة المبالغة فيهما لبيان أنّهم كذلك، لا لتقييد البغض بغاية الخيانة والكفر، أو للمبالغة في نفي المحبّة على اعتبار النفي أوّلًا،[1] وإيرادِ معنى المبالغة ثانيًا.[2]

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ٣٩﴾

﴿أُذِنَ﴾ أي: رُخِص. وقُرئ على البناء للفاعل،[3] أي: أَذِن الله تعالى ﴿لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ﴾ أي: يقاتلهم المشركون. والمأذون فيه محذوف / لدلالة المذكور عليه، [١٢٠ظ] فإنّ مقاتلة المشركين إيّاهم دالّة على مقاتلتهم إيّاهم دلالةً نيّرةً. وقُرئ على صيغة المبنيّ للفاعل،[4] أي: يريدون أن يقاتلوا المشركين فيما سيأتي ويحرصون عليه. فدلالته على المحذوف أظهر.

﴿بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْ﴾ أي: بسبب أنّهم ظُلِموا، وهم أصحاب النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ورضي عنهم، كان المشركون يؤذونهم، وكانوا يأتونه عليه السلام بين مَضروب ومَشجوج، ويتظلّمون إليه، فيقول عليه السلام لهم: «اصبروا فإنّي لم أُومَر بالقتال»، حتّى هاجروا، فأنزلت.[5] وهي أوّل آية نزلت في القتال بعد ما نُهي عنه في نيّف وسبعين آيةً.

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ﴾ وعدٌ لهم بالنصر، وتأكيدٌ لِمَا مرّ مِن العِدَة الكريمة بالدفع، وتصريحٌ بأنّ المراد به ليس مجرّدَ تخليصهم عن أيدي المشركين؛

---

١ وفي هامش م: فإنّ اعتبار المبالغة فيما عُلِّل به نفي المحبّة مِن أصل الخيانة والكفر مستلزم لاعتبار المبالغة في معلولهما قطعًا. «منه».

٢ وفي هامش م: كما هو شأن الكلّيّة، فإنّها معتبرة بعد النفي لا قبل، وإلّا لأفاد نفي الشمول، لا شمول النفي الذي هو المقصود. «منه».

٣ قرأ بها ابن كثير وابن عامر وحمزة والكسائي وخَلَف بخُلْف عن إدريس. النشر لابن الجزري، ٣٢٦/٢.

٤ أي: "يُقاتِلُونَ". قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وحمزة والكسائي وخلف وشعبة عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٣٢٦/٢.

٥ التفسير الوسيط للواحدي، ٢٧٣/٣؛ الكشّاف للزمخشري، ١٦٠/٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٧٣/٤.

بل تغليبهم وإظهارُهم عليهم. والإخبار بقدرته تعالى على نصرهم وارد على سَنن الكبرياء. وتأكيده بكلمة التحقيق و"اللام" لمزيد تحقيق مضمونه، وزيادةِ تَوطين نفوس المؤمنين.

﴿ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠﴾

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم﴾ في حيّز الجرّ على أنّه صفة للموصول الأوّل، أو بيان له، أو بدل منه، أو في محلّ النصب على المدح، أو في محلّ الرفع بإضمار مبتدأ، والجملة مرفوعة على المدح. والمراد بـ﴿دِيَٰرِهِم﴾ مكّة المعظّمة. ﴿بِغَيۡرِ حَقٍّ﴾ متعلّق بـ﴿أُخۡرِجُواْ﴾، أي: أُخرِجوا بغير ما يوجب إخراجهم.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ بدل مِن ﴿حَقٍّ﴾، أي: بغير موجِب سوى التوحيد الذي ينبغي أن يكون موجِبًا للإقرار والتمكين دون الإخراج والتسيير، لكن لا على الظاهر؛ بل على طريقة قول النابغة:

[١٢١و] ولا عيبَ فيهم غيرَ أنّ سيوفَهم / بهنّ فُلول مِن قِراع الكتائبِ[١]

وقيل: الاستثناء منقطع.

﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ﴾ بتسليط المؤمنين على الكافرين في كلّ عصر وزمان. وقُرئ: "دِفَاعُ".[٢] ﴿لَّهُدِّمَتۡ﴾ لخُرِّبت باستيلاء المشركين على أهل المِلَل. وقُرئ: "هُدِمَتْ" بالتخفيف.[٣] ﴿صَوَٰمِعُ﴾ للرهابِنة ﴿وَبِيَعٞ﴾ للنصارى ﴿وَصَلَوَٰتٞ﴾ أي: وكنائس لليهود، سمّيت بها لأنّها تصلّى فيها. وقيل: أصلها "صَلُوتَا" بالعبريّة، فعرّبت. ﴿وَمَسَٰجِدُ﴾ للمسلمين ﴿يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗا﴾ أي: ذِكرًا كثيرًا، أو وقتًا كثيرًا، صفة مادحة للمساجد، خُصّت بها دلالةً على فضلها

---

١ ديوان النابغة الذبياني، ص ٤٤.

٢ قرأ بها نافع وأبو جعفر ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٢٣٠.

٣ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير. النشر لابن الجزري، ٢/٣٢٧.

وفضل أهلها. وقيل: صفة للأربع،[1] وليس كذلك، فإنّ بيان ذكر الله عزّ وجلّ في الصوامع والبِيَع والكنائس بعد انتساخ شرعيّتها ممّا لا يَقتضيه المقام، ولا يرتضيه الأفهام.[2]

﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ أي: وبالله لينصرنّ الله مَن يَنصر أولياءه، أو مَن يَنصر دينه، ولقد أنجز الله عزّ سلطانه وعدَه، حيث سلّط المهاجرين والأنصار على صناديد العرب وأكاسرة العجم وقياصرة الروم، وأورثهم أرضَهم وديارَهم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ﴾ على كلّ ما يريده مِن مراداته التي مِن جملتها نصرهم. ﴿عَزِيزٌ﴾ لا يمانعه شيء ولا يدافعه.

﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ٤١﴾

﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ وصفٌ مِن الله عزّ وجلّ للذين أُخرجوا مِن ديارهم بما سيكون منهم مِن حُسن السيرة عند تمكينه تعالى إيّاهم في الأرض، وإعطائِه إيّاهم زِمام الأحكام، مُنبئ عن عِدَة كريمة على أبلغ وجه وألطفه.

وعن عثمانَ رضي الله تعالى[3] عنه: «هذا واللهِ ثناء قبل بلاء».[4] يريد أنّه تعالى أثنى عليهم قبل أن يُحدِثوا مِن الخير ما أحدَثوا. قالوا: وفيه دليل على صحّة أمر الخلفاء الراشدين؛ / لأنّه تعالى لم يُعطِ التمكين ونفاذ الأمر مع السيرة العادلة غيرَهم مِن المهاجرين، لا حظَّ في ذلك للأنصار والطلَقاء. وعن الحسن رضي الله عنه: «هم أمّة محمّد صلّى الله عليه وسلّم».[5] وقيل: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ بدل مِن قوله: ﴿مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾. [١٢١ظ]

---

[1] قاله البيضاوي في أنوار التنزيل، ٤/‏/٧٣.

[2] قال الشهاب الخفاجي: «كون الذِّكر بعد نسخ الشريعة ممّا لا يقتضيه المقام ليس بشيء؛ لأنّ النسخ لا ينافي بقاءَها ببركة ذِكر الله فيها، مع أنّ معنى الآية عامّ لِمَا قبل النسخ، وبه صرّح المفسّرون». حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، ٣٠٠/٦.

[3] س – تعالى.

[4] الكشّاف للزمخشري، ١٦٠/٣؛ البحر المحيط لأبي حيان، ٥١٨/٧.

[5] الكشف والبيان للثعلبي، ٢٦/٧؛ الكشّاف للزمخشري، ١٦١/٣.

﴿وَلِلَّهِ﴾ خاصّةً ﴿عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ فإنّ مرجعها إلى حُكمه وتقديره فقط. وفيه تأكيد للوعد بإظهار أوليائه، وإعلاءِ كلمته.

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ ۖ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾﴾

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ تسلية لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم متضمّنة للوعد الكريم بإهلاك مَن يعاديه مِن الكفرة، وتعيينٌ لكيفيّة نصره تعالى له الموعود بقوله تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ﴾،[1] وبيان لرجوع عاقبة الأمور إليه تعالى.

وصيغة المضارع في الشرط مع تحقّق التكذيب لِمَا أنّ المقصود تسليته عليه السلام عمّا يترتّب على التكذيب مِن الحُزن المتوقَّع،[2] أي: وإن تَحزن على تكذيبهم إيّاك فاعلَم أنّك لستَ بأَوحَديّ في ذلك، فقد كذّبَتْ قبل تكذيب قومك إيّاك قومُ نوح، ﴿وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ﴾ أي: رسلَهم ممّن ذُكر ومَن لم يُذكر، وإنّما حُذف لكمال ظهور المراد، أو لأنّ المراد نفس الفعل، أي: فعلَت التكذيبَ قومُ نوح... إلى آخره.

﴿وَكُذِّبَ مُوسَىٰ﴾ غُيّر النظم الكريم بذكر المفعول وبناءِ الفعل له، لا لأنّ قومه بنو إسرائيل، وهم لم يكذّبوه، وإنّما كذّبه القِبط، لِمَا أنّ ذلك إنّما يقتضي عدمَ ذكرهم بعنوان كونهم قومَ موسى، لا بعنوان آخر، على أنّ بني إسرائيل أيضًا قد كذّبوه مرّة بعد أخرى، حسبما ينطق به قوله تعالى: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة، ٢/٥٥]، ونحو ذلك مِن الآيات الكريمة؛ بل للإيذان بأنّ تكذيبهم له كان في غاية الشناعة؛ لكون آياته في كمال الوضوح.

وقوله: ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: أمهلتهم حتّى انصَرمت حِبال آجالهم. / و"الفاء" لترتيب إمهال كلّ فريق مِن فِرَق المكذّبين على تكذيب ذلك الفريق، [١٢٢و]

---

[1] الحج، ٢٢/٤٠.

[2] وفي هامش م: ويجوز أن يكون المراد استمرارهم على التكذيب. «منه».

لا لترتيب إمهال الكلّ على تكذيب الكلّ. ووضع الظاهر مَوضع الضمير العائد إلى المكذّبين لذمّهم بالكفر، والتصريحِ بمكذّبي موسى عليه السلام حيث لم يُذكَروا فيما قبلُ صريحًا.

﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ أي: أخذت كلّ فريق مِن فِرَق المكذّبين بعد انقضاء مدّة إملائه وإمهاله. ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي: إنكاري عليهم بالإهلاك، أي: فكان ذلك في غاية ما يكون مِن الهَول والفظاعة.

﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَـٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ﴾ منصوب بمُضمَر يفسّره قوله تعالى: ﴿أَهْلَكْنَـٰهَا﴾ أي: فأهلكنا كثيرًا مِن القرى بإهلاك أهلها. والجملة بدل مِن قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾،[1] أو مرفوع على الابتداء، و﴿أَهْلَكْنَا﴾ خبره، أي: فكثيرٌ مِن القرى أهلكناها. وقُرئ: "أَهْلَكْتُهَا"[2] على وَفق قوله تعالى: ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَـٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾.[3] ﴿وَهِىَ ظَالِمَةٌ﴾ جملة حاليّة مِن مَفعول ﴿أَهْلَكْنَا﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَهِىَ خَاوِيَةٌ﴾ عطفٌ على ﴿أَهْلَكْنَـٰهَا﴾، لا على ﴿وَهِىَ ظَالِمَةٌ﴾؛ لأنّها حال، والإهلاك ليس في حال خَوائِها. فعلى الأوّل لا محلّ له مِن الإعراب كالمعطوف عليه، وعلى الثاني في محلّ الرفع لِعَطفه على الخبر.

و"الخَواء" إمّا بمعنى السقوط، مِن "خَوَى النجمُ" إذا سقَط، فالمعنى: **فهي** ساقطة حيطانها ﴿عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ أي: سُقوفِها، بأن يُعطّل بنيانها، فخرّت سقوفها، ثمّ تهدّمت حيطانها، فسقطت فوق السقوف. وإسناد السقوط على العروش إليها لتنزيل الحيطان منزلة كلّ البنيان؛ لكونها عمدة فيه.

وإمّا بمعنى الخلوّ، مِن "خَوَى المنزلُ" إذا خَلا مِن أهله، فالمعنى: **فهي** خالية مع بقاء عروشها وسلامتِها، فيكون ﴿عَلَىٰ﴾ بمعنى "مع".

---

[1] في الآية السابقة.

[2] قرأ بها أبو عمرو ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٢٧/٢.

[3] في الآية السابقة.

ويجوز أن يكون ﴿عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ خبرًا بعد خبر، أي: فهي خالية وهي على عروشها، أي: قائمة مشرفة على عروشها، على معنى أنّ السقوف سقَطت إلى الأرض، وبقيت الحيطان قائمةً، فهي مشرفة / على السقوف الساقطة. وإسنادُ الإشراف إلى الكلّ مع كونه حالَ الحيطان لِمَا مرّ آنفًا. [١٢٢ظ]

﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ﴾ عطف على ﴿قَرْيَةٍ﴾، أي: وكم بئرٍ عامرة في البوادي تُركت لا يُسقى منها لهلاك أهلها. وقُرئ بالتخفيف[١] مِن "أَعْطَلَه" بمعنى "عَطَّلَه".

﴿وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ مرفوعِ البنيانِ، أو مُجَصَّصٍ، أخليناه عن ساكنيه، وهذا يؤيّد كونَ معنى ﴿خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾: خالية مع بقاء عروشها.

وقيل: المراد بـ"البئر" بئرٌ بسفح جبل بحضرموت، وبـ"القَصر" قصرٌ مشرف على قُلّته،[٢] كانا لقوم حنظلة بن صفوان مِن بقايا قوم صالح، فلمّا قتلوه أهلكهم الله تعالى وعطّلهما.[٣]

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ حَثّ لهم على أن يسافروا ليَرَوا مَصارع المُهلَكين فيعتبروا، وهم وإن كانوا قد سافروا فيها ولكنّهم حيث لم يسافروا للاعتبار جُعلوا غيرَ مسافرين، فَحُثُّوا على ذلك. و"الفاء" لعطف ما بعدها على مقدّر يقتضيه المقام، أي: أغَفِلوا فلم يسيروا فيها؟

﴿فَتَكُونَ لَهُمْ﴾ بسبب ما شاهدوه مِن موادّ الاعتبار، ومظانِّ الاستبصار ﴿قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ ما يجب أن يُعقل مِن التوحيد ﴿أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ ما يجب أن يُسمع مِن الوحي، أو مِن أخبار الأمم المهلَكة ممّن يحاورهم مِن[٤] الناس، فإنّهم أعرف منهم بحالهم.

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن الجحدري. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٣٠.

[٢] القُلّة: أعلى الجبل. **الصحاح** للجوهري، «قلل».

[٣] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٧٤/٤.

[٤] م + مِن.

﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ الضمير للقصّة، أو مبهم يفسّره ﴿ٱلْأَبْصَٰرُ﴾. وفي ﴿تَعْمَى﴾ ضمير راجع إليه، وقد أقيمَ الظاهر مُقامه، ﴿وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ أي: ليس الخلل في مشاعرهم، وإنّما هو في عقولهم باتّباع الهوى والانهماك في الغفلة. وذكرُ ﴿ٱلصُّدُورِ﴾ للتأكيد ونفيِ توهّم التجوّز / وفضلِ [١٢٣و] التنبيه على أنّ العمى الحقيقي ليس المتعارفَ الذي يختصّ بالبصر.

قيل: لمّا نزل قوله تعالى: ﴿وَمَن[١] كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ﴾ [الإسراء، ٧٢/١٧]، قال ابن أمّ مكتوم: يا رسول الله، أنا في الدنيا أعمى، أفأكون في الآخرة أعمى؟ فنزلت.[٢]

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾﴾

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ كانوا منكرين لمجيء العذاب المتوعَّد به أشدّ الإنكار، وإنّما كانوا يستعجلون به استهزاءً برسول الله صلّى الله عليه وسلّم وتعجيزًا له على زعمهم، فَحُكِي عنهم ذلك بطريق التخطئة والاستنكار. فقوله تعالى: ﴿وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ إمّا جملة حاليّة جيء بها لبيان بطلان إنكارهم لمجيئه في ضمن استعجالهم به، وإظهارِ خطئهم فيه، كأنّه قيل: كيف ينكرون مجيء العذاب الموعود، والحال أنّه تعالى لا يخلف وعدَه أبدًا؟ وقد سبق الوعد، فلا بدّ مِن مجيئه حتمًا، أو اعتراضيّة مبنيّة لِما ذُكر.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ جملة مستأنفة إن كانت الأولى حاليّة، ومعطوفة عليها إن كانت اعتراضيّة، سيقت لبيان خطئهم في الاستعجال المذكور ببيان كمال سَعة ساحة حِلمه تعالى ووَقاره، وإظهارِ غاية ضيق عَطَنهم[٣] المستتبع لكون المدّة القصيرة عنده تعالى مُدَدًا طِوالًا عندهم،

---

[١] م س: مَن.

[٢] الكشف والبيان للثعلبي، ٢٧/٧؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٧٤/٤.

[٣] قولهم: "فلانٌ ضَيِّق العَطَن" معناه: قليل العطاء، ضيق النفس. فكني بالعَطَن عن ذلك. والأصل في "العَطَن": الموضع الذي تَبْرُكُ فيه الإبل إلى الماء إذا شربت. الزاهر للأنباري، ٣٩٣/٢.

حسبما ينطق به قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۞ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾ [المعارج، ٧٠/٦-٧]، ولذلك يرون مجيئه بعيدًا، ويتّخذونه ذريعة إلى إنكاره، ويجترئون على الاستعجال به، ولا يدرون أنّ معيار تقدير الأمور كلِّها وقوعًا وأخبارًا ما عنده تعالى مِن المقدار. وقراءة: "يَعُدُّونَ"[1] على صيغة الغيبة -أي: يعدّه المستعجلون- أوفقُ لهذا المعنى، وقد جُعل الخطاب في القراءة المشهورة لهم أيضًا بطريق الالتفات، لكنّ الظاهر أنّه للرسول صلّى الله عليه وسلّم ومَن معه مِن المؤمنين.

وقيل: المراد بوعده تعالى ما جُعل لهلاك كلّ أمّة مِن موعد معيّن وأجل مسمّى، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ [العنكبوت، ٢٩/٥٣]، فيكون الجملة الأُولى حاليّةً كانت أو اعتراضيّةً مبيّنةً لبطلان الاستعجال به ببيان استحالة مجيئه قبل وقته الموعود، والجملةُ الأخيرة بيانًا لبطلانه ببيان ابتنائه على استطالة ما هو قصير عنده تعالى / على الوجه الذي مرّ بيانه، فلا يكون في النظم الكريم حينئذ تعرّض لإنكارهم الذي دسّوه تحت الاستعجال؛ بل يكون الجواب مبنيًا على ظاهر مقالهم، ويُكتَفَى في ردّ إنكارهم ببيان عاقبة مَن قبلهم مِن أمثالهم. [١٢٣ظ]

هذا، وحَملُ المستعجَلِ به على عذاب الآخرة وجعلُ "اليوم" عبارةً عن يوم العذاب المستطال لشدّته أو عن أيّام الآخرة الطويلة حقيقةً أو المستطالة لشدّة عذابها[2] ممّا لا يساعده سباق النظم الجليل ولا سياقه، فإنّ كلًّا منهما ناطق بأنّ المراد هو العذاب الدنيوي، وأنّ الزمان الممتدّ هو الذي مرّ عليهم قبل حلوله بطريق الإملاء والإمهال، لا الزمان المقارن له، ألا يُرى إلى قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ﴾... إلخ؟ فإنّه كما سلف مِن قوله تعالى: ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾،[3] صريح في أنّ المراد هو الأخذ العاجل الشديد بعد الإملاء المديد، أي: وكم مِن أهل قرية، فحُذف المضاف، وأُقيمَ المضاف إليه مُقامه في الإعراب ورجعِ الضمائر والأحكام مبالغةً في التعميم والتهويل.

---

[1] قرأ بها ابن كثير وحمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٣٢٧.

[2] انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤/٧٤.

[3] الحج، ٢٢/٤٤.

﴿أَمْلَيْتُ لَهَا﴾ كما أمليت لهؤلاء حتّى أنكَروا مجيء ما وُعِدوا مِن العذاب، واستعجلوا به استهزاءً برسلهم كما فعل هؤلاء. ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ جملة حاليّة مفيدة لكمال حِلمه تعالى، ومشعرةٌ بطريق التعريض بظلم المستعجلين، أي: أمليت لها والحال أنّها ظالمة مستوجبة لتعجيل العقوبة كدأب هؤلاء، ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهَا﴾ بالعذاب والنَّكال بعد طول الإملاء والإمهال.

وقوله تعالى: ﴿وَإِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ اعتراض تذييلي مقرِّر لِما قبله، ومصرّحٌ بما أفاده ذلك بطريق التعريض مِن أنّ مآل أمر المستعجلين أيضًا ما ذُكر مِن الأخذ الوبيل، أي: إلى حُكمي مرجعُ الكلّ جميعًا، لا إلى أحد غيري، لا استقلالًا ولا شركةً، فأفعل بهم ما أفعل ممّا يليق بأعمالهم.

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٤٩﴾

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أنذركم إنذارًا بيّنًا بما أوحي مِن أنباء الأمم المهلَكة مِن غير أن يكون لي دخل في إتيان ما تُوعَدونه مِن العذاب حتّى تستعجلوني به. والاقتصار على الإنذار مع بيان حال الفريقين بعده لِما أشيرَ إليه مِن أنّ مساق الحديث للمشركين وعقابهم، وإنّما ذُكر المؤمنون وثوابهم زيادةً في غيظهم.

﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٥٠﴾

﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ لِمَا ندَر منهم مِن الذنوب ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ / هي الجنّة. و"الكريم" مِن كلّ نوع ما يجمع فضائله ويَحوز كمالاته. [١٢٤و]

﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ۝٥١﴾

﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ﴾ أي: سابقين أو مسابقين في زعمهم وتقديرهم، طامعين أنّ كيدهم للإسلام يتمّ لهم. وأصله مِن "عاجَزه فأعجَزه وعجّزه"[١]

---

[١] ط س: وعجّزه فأعجزه. | يظهر أثر الكشط في نسخة المؤلّف، فلعلّه صحّحها بعد نسخ ط س.

إذا سابقه فسبَقه؛ لأنّ كلًّا مِن المتسابقِين يريد إعجاز الآخر عن اللّحاق به. وقُرئ: "مُعَجِّزِينَ"،[١] أي: مثبّطين الناس عن الإيمان على أنّه حال مقدّرة.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بما ذُكر مِن السعي والمعاجَزة ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾ أي: ملازِموا النار الموقدة. وقيل: هو اسم دَرَكة مِن دَرَكاتها.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ۝٥٢﴾

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ﴾ "الرسول" مَن بعثه الله تعالى بشريعة جديدة يدعو الناس إليها، و"النبيّ" يعمّه ومَن بَعَثَه لتقرير شريعة سابقة، كأنبياء بني إسرائيل الذين كانوا بين موسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام، ولذلك شبّه عليه السلام علماء أمّته بهم. فالنبيّ أعمّ مِن الرسول، ويدلّ عليه أنّه عليه السلام سُئل عن الأنبياء، فقال: «مائةُ ألف وأربعة وعشرون ألفًا» قيل: فكم الرسل منهم؟ فقال: «ثلاثمائة وثلاثةَ عشرَ جمّاء غفيرًا».[٢]

وقيل: "الرسول" مَن جمع إلى المعجزة كتابًا منزّلًا عليه، و"النبيّ" غير الرسول مَن لا كتابَ له. وقيل: "الرسول" مَن يأتيه الملَك بالوحي، و"النبيّ" يقال له ولمَن يوحَى إليه في المنام.

[١٢٤ظ] ﴿إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ﴾ أي: هيّأ في نفسه ما يهواه ﴿أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾ / في تَشهّيه ما يوجب اشتغاله بالدنيا، كما قال عليه السلام: «وإنّه لَيُغان على قلبي فأستغفر الله في اليوم سبعين مرّة».[٣]

﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ فيُبطله ويذهب به بعِصمته عن الركون إليه وإرشاده إلى ما يُزيحه، ﴿ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي: يُثبت آياته الداعية

---

[١] قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٣٢٧/٢.

[٢] الكشّاف للزمخشري، ١٦٤/٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٧٥/٤. وأخرجه الإمام أحمد في المسند، ٦١٩/٣٦ (٢٢٢٨٨)؛ والحاكم في المستدرك، ٦٥٢/٢ (٤١٦٦).

[٣] وأخرجه مسلم في صحيحه، ٢٠٧٥/٤ (٢٧٠٢)، بلفظ: «إنّه لَيُغان على قلبي، وإنّي لأستغفر الله في اليوم مائة مرة».

إلى الاستغراق في شئون الحقّ. وصيغة المضارع في الفعلين للدلالة على الاستمرار التجدّدي. وإظهار الجلالة في موقع الإضمار لزيادة التقرير والإيذان بأنّ الألوهيّة مِن موجبات أحكام آياته الباهرة.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ مبالغ في العلم بكلّ ما مِن شأنه أن يُعلَم، ومِن جملته ما صدر عن العباد مِن قول وفعل، عمدًا أو خطأً. ﴿حَكِيمٌ﴾ في كلّ ما يفعل. والإظهار ههنا أيضًا لِما ذُكر، مع ما فيه مِن تأكيد استقلال الاعتراض التذييلي.

قيل: حدّث نفسه بزوال المسكنة، فنزلت.[1] وقيل: تمنّى لحِرصه على إيمان قومه أن ينزل عليه ما يقرّبهم إليه، واستمرّ به ذلك حتّى كان في ناديهم، فنزلت عليه سورة النجم، فأخذ يقرؤها، فلمّا بلغ: ﴿وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ﴾ [النجم، ٢٠/٥٣] وسوس إليه الشيطان حتّى سبَق لسانه سهوًا إلى أن قال: «تلك الغرانيق العُلى، وإنّ شفاعتهنّ لَتُرتَجى»، ففرح به المشركون حتّى شايَعوه بالسجود لمّا سجَد في آخرها، بحيث لم يبقَ في المسجد مؤمن ولا مشرك إلّا سجَد، ثمّ نبّهه جبريل عليهما السلام، فاغتمّ به، فعزّاه الله عزّ وجلّ بهذه الآية.[2] وهو مردود عند المحقّقين، ولَئِن صحّ فابتلاءٌ يتميّز به الثابت على الإيمان عن المتزلزِل فيه.

وقيل: ﴿تَمَنَّىٰٓ﴾ بمعنى "قرأ"، كقوله:

تمنّى كتابَ الله أوّل ليلةٍ تمنّيَ داودَ الزبورَ على رِسلِ[3]

و﴿أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾ قراءته، و"إلقاءُ الشيطان فيها" أن يتكلّم بذلك رافعًا صوته بحيث ظنّ السامعون أنّه مِن قراءة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم. / وقد رُدّ بأنّه أيضًا يُخلّ بالوثوق بالقرآن، ولا يندفع بقوله تعالى: ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ﴾؛ لأنّه أيضًا يحتمله. وفي الآية دلالة على جواز السهو مِن الأنبياء عليهم السلام وتَطرّقِ الوسوسة. [١٢٥و]

---

١ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٧٥/٤.

٢ جامع البيان للطبري، ٦٠٤/١٦؛ المعجم الكبير للطبراني، ٣٤/٩ (٨٣١٦).

٣ بغير نسبة في لسان العرب لابن منظور، «مني»، وقال: «أي: تلا كتاب الله مترسّلًا فيه كما تلا داود الزبورَ مترسّلًا فيه».

﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ۝٥٣﴾

﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ علَّة لِما يُنبئ عنه ما ذُكر مِن إلقاء الشيطان مِن تمكينه تعالى إيّاه مِن ذلك في حقّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم خاصّةً كما يُعرب عنه سياق النظم الكريم، لِمَا أنّ تمكينه تعالى إيّاه مِن الإلقاء في حقّ سائر الأنبياء عليهم السلام لا يمكن تعليله بما سيأتي، وفيه دلالة على أنّ ما يلقيه أمر ظاهر يعرفه المُحِقّ والمُبطِل.

﴿فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي: شكّ ونفاق، كما في قوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ الآيةَ [البقرة، ٢/١٠]. ﴿وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: المشركين.

﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: الفريقَين المذكورَين، فوُضع الظاهر موضع ضميرهم تسجيلًا عليهم بالظلم مع ما وُصِفوا به مِن المرض والقساوة. ﴿لَفِي شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ أي: عداوةٍ شديدةٍ، ومخالفةٍ تامّةٍ. ووصفُ الشقاق بالبعد مع أنّ الموصوفَ به حقيقةً هو مَعروضه للمبالغة. والجملة اعتراض تذييلي مقرِّر لمضمون ما قبله.

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٤﴾

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ﴾ أي: القرآن ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ أي: هو الحقّ النازل مِن عنده تعالى. وقيل: ليعلموا أنّ تمكين الشيطان مِن الإلقاء هو الحقّ المتضمّن للحكمة البالغة والغاية الجميلة؛[1] لأنّه ممّا جرت به عادته في جنس الإنس مِن لَدن آدم عليه السلام، فحينئذ لا حاجة إلى تخصيص التمكين فيما سبق بالإلقاء في حقّه عليه السلام، لكن يأباه قوله تعالى: ﴿فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ﴾ أي: بالقرآن، أي: يثبتوا على الإيمان به، أو يزدادوا إيمانًا بردّ ما يلقي الشيطان، ﴿فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ﴾ بالانقياد والخشية والإذعان لِمَا فيه مِن الأوامر والنواهي. ورجعُ الضميرين[2] -لا سيّما الثاني- إلى تمكين الشيطان مِن الإلقاء ممّا لا وجه له.

---

[1] انظر: الكشّاف للزمخشري، ٣/١٦٦.

[2] وفي هامش م: ضمير ﴿أَنَّهُ﴾ وضمير ﴿بِهِ﴾. «منه».

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ أي: في الأمور الدينيّة خصوصًا في المداحض والمشكلات التي مِن جملتها ما ذكر. ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ هو النظر الصحيح الموصل إلى الحقّ الصريح. والجملة اعتراض مقرِّر لِما قبله.

﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ٥٥﴾

﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي مِرْيَةٍ﴾ أي: في شكّ وجدال ﴿مِّنْهُ﴾ أي: مِن **القرآن**. وقيل: مِن الرسول صلّى الله عليه وسلّم. / والأوّل هو الأظهر بشهادة ما [١٢٥ظ] سبق مِن قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ﴾،[١] وقوله تعالى: ﴿أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُواْ بِهِۦ﴾،[٢] وما لحِق مِن قوله تعالى: ﴿وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾.[٣]

وأمّا تجويز كون الضمير لِـ"ما ألقى الشيطان في أمنيّته" فممّا لا مساغ له؛ لأنّ ذلك ليس مِن هَناتهم التي تستمرّ إلى الأمد المذكور؛ بل إنّما هي مِريتهم في شأن **القرآن**. ولا يُجدي حمل ﴿مِن﴾ على السببيّة دون الابتدائيّة، لِما أنّ مِريتهم المستمرّة كما أنّها ليست مبتدَأة مِن ذلك ليست ناشئةً منه ضرورةَ أنّها مستمرّة منهم مِن لدن نزول **القرآن الكريم**.

﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾ أي: القيامةُ نفسها كما يُؤذن به قوله تعالى: ﴿بَغْتَةً﴾ أي: فجأةً، فإنّها الموصوفة بالإتيان كذلك، لا أشراطها، وقيل: الموت، ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ أي: يومٍ لا يومَ بعده، كأنّ كلّ يوم يلِد ما بعده مِن الأيّام، فما لا يومَ بعده يكون عقيمًا، والمراد به الساعة أيضًا، كأنّه قيل: أو يأتيَهم عذابها، فوُضع ذلك موضع ضميرها لمزيد التهويل. ولا سبيلَ إلى حمل ﴿ٱلسَّاعَةُ﴾ على أشراطها لِما عرفته.

وأمّا ما قيل مِن أنّ المراد يوم حربٍ يقتلون فيه كيوم بدر، سمّي به لأنّ أولاد النساء يقتلون فيه، فيَصرن كأنّهنّ عُقم لم يلِدنَ، أو لأنّ المقاتلين أبناء الحرب،

---

١ الحج، ٥٢/٢٢.
٢ الحج، ٥٤/٢٢.
٣ الحج، ٥٧/٢٢.

فإذا قُتِلوا صارت عقيمًا، أي: ثَكلى فوُصفَ اليوم بوصفها اتّساعًا، أو لأنّه لا خير لهم فيه، ومنه: ﴿ٱلرِّيحَ ٱلۡعَقِيمَ﴾ [الذاريات، ٤١/٥١] لِما لم يُنشئ مطرًا، ولم يلقّح شجرًا، أو لأنّه لا مثلَ له لقتال الملائكة عليهم السلام فيه؛[1] فممّا[2] لا يساعده سياق النظم الكريم أصلًا، كيف لا وإنّ تخصيص المُلك والتصرّف الكلّي فيه بالله عزّ وجلّ ثمّ بيانَ ما يقع فيه مِن حُكمه تعالى بين الفريقين بالثواب والعذاب الأخرويّين يقضي بأنّ المراد به يوم القيامة قضاءً بيّنًا لا ريب فيه.

﴿ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ٥٦﴾

﴿ٱلۡمُلۡكُ﴾ أي: السلطان القاهر، والاستيلاء التامّ، والتصرّف على الإطلاق ﴿يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ﴾ وحدَه بلا شريك أصلًا بحيث لا يكون فيه لأحدٍ تصرّف مِن التصرّفات في أمر مِن الأمور، لا حقيقةً ولا مجازًا، ولا صورةً ولا معنًى، كما في الدنيا، فإنّ للبعض فيها تصرّفًا صوريًا في الجملة.

وليس التنوين نائبًا عمّا يدلّ عليه الغاية مِن زوال مِريتهم كما قيل،[3] ولا عمّا يستلزمه ذلك مِن إيمانهم كما قيل،[4] لِما أنّ القيد المعتبَر مع اليوم حيث وُسّط بين طرفَي الجملة يجب أن يكون مدارًا لحُكمها، أعني: كون المُلك لله عزّ وجلّ وما يتفرّع عليه مِن / الإثابة والتعذيب، ولا ريب في أنّ إيمانهم أو زوالَ مِريتهم ليس ممّا له تعلّقٌ ما بما ذكر فضلًا عن المداريّة له، فلا سبيل إلى اعتبار شيء منهما مع اليوم قطعًا، وإنّما الذي يدور عليه ما ذكر إتيانُ الساعة التي هي منتهى تصرّفات الخلق ومبدأ ظهور أحكام المَلِكِ الحقِّ جلّ جلاله، فإذن هو نائب عن نفس الجملة الواقعة غايةً لمِريتهم، فالمعنى: المُلك يومَ إذ تأتيهم الساعةَ أو عذابُها لله تعالى. [١٢٦و]

وقوله تعالى: ﴿يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ﴾ جملة مستأنَفة وقعت جوابًا عن سؤال نشأ مِن الإخبار بكونِ المُلك يومئذ لله تعالى،[5] كأنّه قيل: فماذا يَصنع بهم حينئذٍ؟ فقيل: يَحكم بين فريقي المؤمنين به والمُمارين فيه بالمُجازاة.

---

[1] انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ٧٦/٤.

[2] السياق: وأمّا ما قيل... فممّا...

[3] انظر: الكشّاف للزمخشري، ١٦٦/٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٧٦/٤.

[4] انظر: الكشّاف للزمخشري، ١٦٦/٣.

[5] س – تعالى.

وقوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾... إلخ تفسيرٌ للحكم المذكور وتفصيل له، أي: فالذين آمنوا بالقرآن الكريم ولم يُماروا فيه ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ امتثالًا بما أُمِروا في تضاعيفه ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ أي: مستقِرّون فيها.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ٥٧﴾

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي: أصرّوا على ذلك واستمرّوا ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى الموصول باعتبار اتّصافه بما في حيّز الصلة مِن الكفر والتكذيب. وما فيه مِن معنى البعد للإيذان ببُعد منزلتهم في الشرّ والفساد، أي: أولئك الموصوفون بما ذُكر مِن الكفر والتكذيب. وهو مبتدأ.

وقوله تعالى: ﴿لَهُمۡ عَذَابٞ﴾ جملة اسميّة مِن مبتدأ وخبر مقدَّم عليه وقعت خبرًا لـ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾، أو ﴿لَهُمۡ﴾ خبر لـ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾، و﴿عَذَابٞ﴾ مرتفع على الفاعليّة بالاستقرار في الجارّ والمجرور لاعتماده على المبتدأ. و﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ مع خبره على الوجهين خبر للموصول، وتصديرُه بـ"الفاء" للدلالة على أنّ تعذيب الكفّار بسبب أعمالهم السيّئة، كما أنّ تجريد خبر الموصول الأوّل عنها للإيذان بأنّ إثابة المؤمنين بطريق التفضّل، لا لإيجاب الأعمال الصالحة إيّاها.

وقوله تعالى: ﴿مُّهِينٞ﴾ صفة لـ﴿عَذَابٞ﴾ مؤكِّدة لِما أفاده التنوين مِن الفخامة. وفيه مِن المبالغة مِن وجوه شتّى ما لا يخفى.

﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوۡ مَاتُواْ لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ٥٨﴾

﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: في الجهاد حسبما يلوّح به قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوۡ مَاتُواْ﴾ أي: في تضاعيف المهاجَرة. ومحلّ الموصول الرفع على الابتداء، وقوله تعالى: ﴿لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ﴾ جواب لقسَمٍ محذوف، والجملة خبره. ومَن منع وقوع الجملة القسميّة وجوابها / خبرًا للمبتدأ يُضمِر قولًا هو الخبر، والجملة محكيّة به. [١٢٦ظ]

وقوله تعالى: ﴿رِزۡقًا حَسَنٗا﴾ إمّا مفعول ثان على أنّه مِن باب "الرِّعْي" و"الذِّبح"، أي: مرزوقًا حسنًا، أو مصدر مؤكِّد، والمراد به ما لا ينقطع أبدًا مِن نعيم الجنّة،

وإنّما سَوّى بينهما في الوعد لاستوائهما في القصد. وأصل العمل على أنّ مراتب الحسن متفاوتة، فيجوز تفاوت حال المرزوقين حسب تفاوت الأرزاق الحسنة.

ورُوي أنّ بعض أصحاب النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قالوا: «يا نبيّ الله، هؤلاء الذين قُتلوا في سبيل الله قد علمنا ما أعطاهم الله تعالى مِن الخير، ونحن نجاهد معك كما جاهدوا، فما لنا إن مِتنا معك؟»، فنزلت.[١]

وقيل: نزلت في طوائفَ خرجوا مِن مكّة إلى المدينة للهجرة، فتبعهم المشركون فقاتلوهم.[٢]

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ فإنّه يرزق بغير حساب، مع أنّ ما يرزقه لا يَقدر عليه أحد غيرُه. والجملة اعتراض تذييلي مقرِّر لِما قبله.

﴿لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ﴾ بدل مِن قوله تعالى: ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ﴾،[٣] أو استئناف مقرِّر لمضمونه. و﴿مُدْخَلًا﴾ إمّا اسم مكان أريدَ به الجنّة، فهو مفعول ثانٍ للإدخال، أو مصدر ميميّ أُكِّد به فعله.

قال ابن عبّاس رضي الله تعالى[٤] عنهما: «إنّما قيل: ﴿يَرْضَوْنَهُۥ﴾ لِمَا أنّهم يرون فيها ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر، فيَرضونه».[٥]

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ﴾ بأحوالهم وأحوال مُعاديهم، ﴿حَلِيمٌ﴾ لا يعاجلهم بالعقوبة.

﴿ذَٰلِكَ ۖ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي: الأمر ذلك. والجملة لتقرير ما قبله، والتنبيهِ على أنّ ما بعده كلام مستأنَف.

---

١ الكشّاف للزمخشري، ٣/١٦٦؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤/٧٦.

٢ البحر المحيط لأبي حيّان، ٧/٥٢٩؛ اللباب لابن عادل، ١٤/١٣١.

٣ في الآية السابقة.

٤ س - تعالى.

٥ اللباب لابن عادل، ١٤/١٣٢.

﴿وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ﴾ أي: لم يَزد في الاقتصاص، وإنّما سمّي الابتداء بالعقاب الذي هو جزاء الجناية للمشاكلة، أو لكونه سببًا له، ﴿ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ﴾ / بالمعاودة إلى العقوبة، ﴿لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ﴾ على مَن بغَى عليه لا محالةَ. [١٢٧و]

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ أي: مبالِغ في العفو والغفران، فيعفو عن المنتصِر ويغفر له ما صدر عنه مِن ترجيح الانتقام على العفوِ والصبرِ المندوب إليهما بقوله تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ[1] ذَٰلِكَ﴾ أي: ما ذكر مِن الصبر والمغفرة ﴿لَمِنْ[2] عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [الشورى، ٤٢/٤٣]، فتدبّر،[3] فإنّ فيه حثًّا بليغًا على العفو والمغفرة، فإنّه تعالى مع كمال قدرته لمّا كان يعفو ويغفر فغيرُه أولى بذلك، وتنبيهًا على أنّه تعالى قادر على العقوبة، إذ لا يوصف بالعفو إلّا القادرُ على ضدّه.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى النصر. وما فيه مِن معنى البعد للإيذان بعلوّ رتبته. ومحلُّه الرفع على الابتداء، خبره قوله تعالى: ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ أي: بسبب أنّه تعالى مِن شأنه وسنّته تغليبُ بعض مخلوقاته على بعض، والمداولةُ بين الأشياء المتضادّة، وعُبّر عن ذلك بإدخال أحد المَلَوين في الآخر بأن يزيد فيه ما ينقص عن الآخر، أو بتحصيل أحدهما في مكان الآخر؛ لكونه أظهر الموادّ وأوضحها، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ بكلّ المسموعات التي مِن جملتها قول المعاقَب ﴿بَصِيرٌ﴾ بجميع المبصَرات، ومِن جملتها أفعالُه.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الاتّصاف بما ذُكر مِن كمال القدرة والعلم. وما فيه مِن معنى البعد لِما مرّ آنفًا. وهو مبتدأ خبره قوله تعالى: ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ الواجب لذاته، الثابت في نفسه وصفاته وأفعاله وحدَه، فإنّ وجوب وجوده ووحدته

---

١ م ط س: فإنّ.
٢ م ط س: مِن.
٣ ط س – فتدبّر.

يقتضيان كونه مبدأً لكلّ ما يوجد مِن الموجودات عالمًا بكلّ المعلومات أو الثابتَ إلهيتَه، فلا يصلح لها إلّا مَن كان عالمًا قادرًا.

﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ إلهًا. وقُرئ على البناء للمفعول،[1] على أنّ الواو لِـ﴿مَا﴾، فإنّه عبارة عن الآلهة. وقُرئ بالتاء[2] على خطاب المشركين. ﴿هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ أي: المعدوم في حدّ ذاته، أو الباطل ألوهيتُه، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ﴾ على جميع الأشياء ﴿ٱلْكَبِيرُ﴾ مِن أن يكون له شريك، لا شيءَ أعلى منه شأنًا، وأكبرَ سلطانًا.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾﴾

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ استفهام تقريرٍ كما يفصح عنه الرفع في قوله تعالى: ﴿فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ بالعطف على ﴿أَنزَلَ﴾. وإيثار صيغة الاستقبال للإشعار بتجدّد أثر الإنزال واستمراره، أو لاستحضار صورة الاخضرار.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ﴾ يصِل لطفه أو علمه إلى كلّ ما جَلّ ودَقّ، ﴿خَبِيرٌ﴾ بما يليق مِن التدابير الحسنة ظاهرًا وباطنًا.

﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾﴾

﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ خلقًا ومُلكًا وتصرّفًا، ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾ عن كلّ شيء ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ المستوجِب للحمد بصفاته وأفعاله.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾﴾

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: جعل ما فيها مِن الأشياء مذلَّلة لكم، مُعدَّة لمَنافعكم، تتصرّفون فيها كيف شئتم، فلا أصلبَ مِن الحجَر، ولا أشدَّ مِن الحديد، ولا أهيبَ مِن النار، وهي مسخَّرة لكم. وتقديم الجارّ والمجرور

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن اليماني. انظر: الكشّاف للزمخشري، ١٦٨/٣.

[2] قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وابن عامر وخلَف وشعبة. النشر لابن الجزري، ٣٢٧/٢.

على المفعول الصريح لِما مرّ مرارًا مِن الاهتمام بالمقدّم لتعجيل المسرّة، والتشويقِ إلى المؤخّر.

﴿وَٱلْفُلْكَ﴾ عطفٌ على ﴿مَا﴾، أو على اسم ﴿أَنَّ﴾. وقُرئ بالرفع على الابتداء.[١] ﴿تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾ حال مِن ﴿ٱلْفُلْكَ﴾ / على الأوّل، وخبر على الأخيرين. [١٢٧ظ] ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: مِن أن تقع، أو كراهةَ أن تقع، بأن خلقها على هيئة متداعية إلى الاستمساك، ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ أي: بمشيئته، وذلك يوم القيامة، وفيه ردّ لاستمساكها بذاتها، فإنّها مساوية في الجسميّة لسائر الأجسام القابلة للمَيل الهابط، فتقبله كقَبول غيرها.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ حيث هيّأ لهم أسباب معاشهم، وفتح عليهم أبواب المنافع، وأوضح لهم مناهج الاستدلال بالآيات التكوينيّة والتنزيليّة.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ۝٦٦﴾

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ﴾ بعد أن كنتم جمادًا عناصرَ ونُطفًا، حسبما فُصِّل في مطلع السورة الكريمة، ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ عند مجيء آجالكم، ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ عند البعث. ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ﴾ أي: جَحود للنعم مع ظهورها، وهذا وصف للجنس بوصف بعض أفراده.

﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ۖ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ ۚ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ۝٦٧﴾

﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ﴾ كلام مستأنَف جيء به لزجر معاصريه عليه السلام مِن أهل الأديان السماويّة عن منازعته عليه السلام ببيان حال ما تمسّكوا به مِن الشرائع، وإظهارِ خطَئهم في النظر، أي: لكلّ أمّة معيَّنةٍ مِن الأمم الخالية والباقية ﴿جَعَلْنَا﴾ أي: وضعنا وعيّنّا ﴿مَنسَكًا﴾ أي: شريعة خاصّةً، لا لأمّة أخرى منهم، على معنى:

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن السلمي والأعرج وطلحة وأبو حيوة والزعفراني. البحر المحيط لأبي حيّان، ٧/٥٠٣.

عيّنّا كلّ شريعة لأمّة معيّنة مِن الأمم بحيث لا تتخطّا أمّةٌ منهم شريعتها المعيَّنة لها إلى شريعة أخرى، لا استقلالًا ولا اشتراكًا.

وقوله تعالى: ﴿هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ صفة لـ﴿مَنسَكًا﴾ مؤكِّدة للقصر المستفاد مِن تقديم الجارّ والمجرور على الفعل. والضمير لكلّ أمّة باعتبار خصوصها، أي: تلك الأمّة المعيّنة ناسكوه والعاملون به، لا أمّةٌ أخرى، فالأمّة التي كانت مِن مبعث موسى إلى مبعث عيسى عليهما السلام مَنسكُهم **التوراة** هم ناسكوها والعاملون بها، لا غيرهم، والتي كانت مِن مبعث عيسى إلى مبعث النبيّ عليهم[1] السلام مَنسكُهم **الإنجيل** هم ناسكوه والعاملون به، لا غيرُهم، وأمّا الأمّة الموجودة عند بعث النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ومَن بعدهم مِن الموجودين إلى يوم القيامة فهم أمّة واحدة مَنسكُهم الفرقان، ليس إلّا كما مرّ في تفسير قوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة، ٥/٤٨].

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ لترتيب النهي أو موجَبِه[2] على ما قبلها، فإنّ تعيينه تعالى لكلّ أمّة مِن الأمم التي مِن جملتهم هذه الأمّة شريعةً مستقلّةً بحيث لا يتخطّا أمّةً منهم شريعتُها المعيَّنة لها موجِبٌ لطاعة هؤلاء لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وعدمِ منازعتهم إيّاه في أمر الدين زعمًا منهم أنّ شريعتَهم ما عُيِّن لآبائهم الأوّلين مِن **التوراة والإنجيل**، فإنّهما شريعتان لمَن مضى مِن الأمم قبل انتساخهما، وهؤلاء أمّة مستقلّة مَنسكُهم **القرآن المجيد** فحسب.

والنهي إمّا على حقيقته، أو كناية عن نهيه صلّى الله عليه وسلّم[3] عن الالتفات إلى نزاعهم المبنيّ على زعمهم المذكور، وأمّا جعله عبارة عن نهيه عليه السلام عن منازعتهم[4] فلا يساعده المقام. وقُرئ: "فَلَا يَنْزَعَنَّكَ"[5] على تهييجِه عليه السلام، والمبالغةِ في تثبيته. وأيًّا ما كان فمحلّ النزاع ما ذكرناه،

---

[1] س: عليهما.
[2] م ط س - أو موجَبه. ["صح" في هامش م].
[3] س: عليه السلام.
[4] انظر: معاني القرآن للزجّاج، ٣/٤٣٧.
[5] قراءة شاذّة، مرويّة عن لاحق بن حُميد. المحتسب لابن جنّي، ٢/٨٥.

وتخصيصُه بأمر النسائك، وجعلُه عبارة عن قول الخزاعيّين وغيرهم للمسلمين: «ما لكم تأكلون ما قتلتم، ولا تأكلون ما قتله الله تعالى»؛[١] ممّا لا سبيل إليه أصلًا، كيف لا وإنّه يستدعي أن يكون أكل الميتة وسائر ما يدينونه مِن الأباطيل مِن جملة المناسك التي جعلها الله تعالى لبعض الأمم، ولا يرتابُ في بطلانه عاقل.

﴿وَٱدۡعُ﴾ أي: وَادْعُهُم، أو وادْعُ الناس كافّة، على أنّهم داخلون فيهم دخولًا أوّليًا / ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ إلى توحيده وعبادته حسبما بُيّن لهم في مَنسكهم وشريعتهم، [١٢٨و] ﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدٗى مُّسۡتَقِيمٖ﴾ أي: طريق موصل إلى الحقّ سويّ. والمراد به إمّا الدين والشريعة، أو أدلّتها.

﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ٦٨﴾

﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ﴾ بعد ظهور الحقّ بما ذُكر مِن التحقيق ولزوم الحجّة عليهم ﴿فَقُلِ﴾ لهم على سبيل الوعيد: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ مِن الأباطيل التي مِن جملتها المجادلة.

﴿ٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ٦٩﴾

﴿ٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ﴾ يفصل بين المؤمنين منكم والكافرين ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ بالثواب والعقاب، كما فصل في الدنيا بالحُجج والآيات ﴿فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ﴾ مِن أمر الدين.

﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ٧٠﴾

﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ﴾ استئناف مقرّر لمضمون ما قبله، والاستفهام للتقرير، أي: قد علمتَ ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ فلا يخفى عليه شيء مِن الأشياء التي مِن جملتها ما يقوله الكفرة وما يعملونه.

---

[١] **الكشّاف** للزمخشري، ١٦٩/٣؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٧٨/٤.

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ أي: ما في السماء والأرض ﴿فِي كِتَٰبٍ﴾ هو اللوح، قد كُتِب فيه قبل حدوثه، فلا يهمّنك أمرهم مع علمنا به وحفظنا له. ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ أي: ما ذُكر مِن العلم والإحاطة به وإثباته في اللوح، أو الحكمَ بينهم[1] ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ فإنّ علمه وقدرته مقتضى ذاته، فلا يخفى عليه شيء، ولا يعسر عليه مقدور.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾﴾

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ حكاية لبعض أباطيل المشركين، وأحوالِهم الدالّة على كمال سخافة عقولهم وركاكة آرائهم، هي بناءُ أمر دينهم على غير مبنًى مِن دليل سمعي أو عقلي، وإعراضُهم عمّا أُلقي عليهم مِن سلطانٍ بيّن هو أساس الدين وقاعدته أشدَّ إعراض، أي: يعبدون متجاوزين عبادةَ الله ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ﴾ أي: بجواز عبادته ﴿سُلْطَٰنًا﴾ أي: حجّة، ﴿وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ﴾ أي: بجواز عبادته ﴿عِلْمٌ﴾ مِن ضرورة العقل أو استدلاله.

﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: الذين ارتكبوا مثل هذا الظلم العظيم الذي يقضي ببطلانه وكونِه ظلمًا بديهةُ العقول ﴿مِن نَّصِيرٍ﴾ يساعدهم بنصرة مذهبهم وتقريرِ رأيهم أو بدفع العذاب الذي يعتريهم بسببِ ظلمهم.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾﴾

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا﴾ عطفٌ على ﴿يَعْبُدُونَ﴾،[2] وما بينهما اعتراض. وصيغة المضارع للدلالة على الاستمرار التجدّدي. ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾ أي: حال كونها واضحات الدلالة على العقائد الحقّة والأحكام الصادقة، أو على بطلان ما هم عليه مِن عبادة الأصنام، أو على كونها مِن عند الله عزّ وجلّ.

---

[1] ط س: بينكم.

[2] في الآية السابقة.

﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمُنكَرَ﴾ أي: الإنكارَ، كـ"المُكرَم" بمعنى "الإكرام"، أو الفظيعَ مِن التجهّم والبُسور، أو الشرَّ الذي يقصدونه بظهور مَخائله مِن الأوضاع والهيئات، وهو الأنسب بقوله تعالى: ﴿يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ أي: يَثِبون ويبطشون بهم مِن فَرْط الغيظ والغضب لأباطيلَ أخذوها تقليدًا، وهل جهالةٌ أعظمُ وأطمُّ مِن أن يعبدوا ما لا يُوهِم صحّةَ عبادته شيء ما أصلًا؛ بل يقضي ببطلانها العقل والنقل، ويُظهِروا لِمَن يهديهم إلى الحقّ البيّن بالسلطان المبين مثلَ هذا المنكرِ الشنيع؟ كلّا، ولهذا وُضع ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ موضع الضمير.

﴿قُلْ﴾ ردًّا عليهم وإقناطًا عمّا يقصدونه مِن الإضرار بالمسلمين: ﴿أَفَأُنَبِّئُكُم﴾ أي: أأُخاطبكم فأخبركم ﴿بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ﴾ الذي فيكم مِن غيظكم على التالين وسَطوتِكم بهم، أو ممّا تبغونهم مِن الغوائل، أو ممّا أصابكم مِن الضجَر بسبب ما تلَوه عليكم؟

/ ﴿ٱلنَّارُ﴾ أي: هو النار، على أنّه جواب لسؤال مقدَّر، كأنّه قيل: ما هو؟ [١٢٨ظ] وقيل: هو مبتدأ خبره قوله تعالى: ﴿وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾. وقُرئ: "النَّارَ"[١] بالنصب على الاختصاص، وبالجرّ[٢] بدلًا مِن ﴿شَرٍّ﴾، فيكون الجملة الفعليّة استئنافًا كالوجه الأوّل، أو حالًا مِن ﴿ٱلنَّارُ﴾ بإضمار "قد". ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: النار.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ۝٧٣﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ﴾ أي: بُيِّن لكم حالٌ مستغرَبة، أو قصّةٌ بديعة رائعة حقيقةٌ بأن تُسمّى مَثلًا، وتُسيَّرَ في الأمصار والأعصار، أو جُعل لله مَثلٌ، أي: مِثلٌ في استحقاق العبادة، وأُريدَ بذلك ما حُكي عنهم مِن عبادتهم للأصنام.

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن الضحّاك وابن أبي عبلة. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٣٢.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن إبراهيم بن نوح عن قتيبة. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٣٢.

﴿فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓ﴾ أي: للمَثَل نفسه استماعَ تدبّر وتفكّر، أو فاستمعوا لِأجله ما أقول، فقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾... إلخ بيان للمَثَل وتفسير له على الأوّل، وتعليلٌ لبطلان جعلهم الأصنام مِثلًا لله سبحانه في استحقاق العبادة على الثاني. وقُرئ بياء الغيبة مبنيًّا للفاعل[١] ومبنيًّا للمفعول،[٢] والراجع إلى الموصول على الأوّلَين محذوف.

﴿لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابًا﴾ أي: لن يقدِروا على خلقه أبدًا مع صِغره وحَقارته، فإنّ ﴿لَن﴾ بما فيها مِن تأكيد النفي دالّةٌ على مُنافاة ما بين المنفيّ والمنفيّ عنه. ﴿وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥ﴾ أي: لِخَلقه، وجواب ﴿لَو﴾ محذوف لدلالة ما قبله عليه، والجملة معطوفة على شرطيّةٍ أخرى محذوفةٍ ثقةً بدلالة هذه عليها، أي: لو لم يجتمعوا عليه لن يخلقوه، ولو اجتمعوا له لن يخلقوه، كما مرّ تحقيقه مِرارًا، وهما في موضع الحال، كأنّه قيل: لن يخلقوا ذبابًا على كلّ حال.

﴿وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا﴾ بيان لعجزهم عن الامتناع عمّا يفعل بهم الذباب بعد بيان عجزهم عن خَلقه، أي: إن يأخذ الذباب منهم شيئًا ﴿لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُ﴾ مع غاية ضعفه، ولقد جُهّلوا غايةَ التجهيلِ في إشراكهم بالله القادر على جميع المقدورات المتفرّد بإيجاد كافّة الموجودات تماثيلَ هي أعجز الأشياء، وبيّن ذلك بأنّها لا تقدر على أقلّ الأحياء وأَذَلِّها ولو اتّفقوا عليه؛ بل لا يقوى على مقاومة هذا الأقلّ الأذلّ ويَعجِز عن ذَبّه عن نفسها واستنقاذِ ما يختطفه منها.

قيل: كانوا يطيّبونها بالطيب والعسل، ويغلقون عليها الأبواب، فيدخل الذباب مِن الكُوى[٣] فيأكله.

﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ﴾ أي: عابد الصنم ومعبوده، أو الذبابُ الطالب لِما يسلبه عن الصنم مِن الطيب والصنمُ المطلوبُ منه ذلك، أو الصنمُ والذباب،

---

١ قرأ بها يعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٣٢٧.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن اليماني وموسى الأسواري. البحر المحيط لأبي حيّان، ٧/٥٣٧.

٣ الكُوى مفرد الكُوّة، وهي نَقب البيت. الصحاح للجوهري، «كوى».

كأنّه يطلبه ليستنقذ منه ما يسلبه، ولو حقّقتَ وجدتَ الصنمَ أعجزَ مِن الذباب بدرجات، وعابِدَه أجهلَ مِن كلّ جاهل، وأضلَّ مِن كلّ ضالّ.

﴿مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ۝٧٤﴾

﴿مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ أي: ما عرفوه حقّ معرفته حيث أشركوا به وسمَّوا باسمه ما هو أبعد الأشياء عنه مناسبةً. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ﴾ على خلق الممكنات بأسرها، / وإفناء الموجودات عن آخرها. ﴿عَزِيزٌ﴾ غالب على جميع الأشياء، [١٢٩و] وقد عُرفتْ حالُ آلهتهم المقهورةِ لِأَذلّها العجزةِ عن أقلّها. والجملة تعليل لِما قبلها مِن نفي معرفتهم له تعالى.

﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝٧٥﴾

﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ يتوسّطون بينه تعالى وبين الأنبياء عليهم السلام بالوحي، ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ وهم المختصّون بالنفوس الزكيّة، المؤيَّدون بالقوّة القدسيّة، المتعلِّقون بكِلا العالَمين الروحاني والجسماني، يتلقَّون مِن جانبٍ ويُلقُون إلى جانبٍ، ولا يَعوقهم التعلّق بمصالح الخلق عن التبتّل إلى جناب الحقّ، فيدعونهم إليه تعالى بما أنزل عليهم ويعلّمونهم شرائعه وأحكامه، كأنّه تعالى لمّا قرّر وحدانيّته في الألوهيّة، ونَفَى أن يشاركه فيها شيء مِن الأشياء بيّن أنّ له عبادًا مصطفَين للرسالة، يُتوسَّل بإجابتهم والاقتداء بهم إلى عبادته عزّ وجلّ، وهو أعلى الدرجات وأقصى الغايات لمَن عداه مِن الموجودات تقريرًا للنبوّة وتزييفًا لقولهم: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَـٰٓئِكَةً﴾ [المؤمنون، ٢٤/٢٣]، وقولِهم: "إنّما نعبدهم ليقرّبونا إلى الله زُلفى"،[1] وقولِهم: "الملائكة بنات الله"،[2] وغيرِ ذلك مِن الأباطيل.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ عليم بجميع المسموعات والمبصرات، فلا يخفى عليه شيء مِن الأقوال والأفعال.

---

١ قال تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر، ٣/٣٩].

٢ قال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَـٰتِ سُبْحَـٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾ [النحل، ٥٧/١٦].

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ۝٧٦﴾

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ لا إلى أحدٍ غيره، لا اشتراكًا ولا استقلالًا.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ۝٧٧﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ﴾ أي: في صلواتكم، أمرهم بهما لِما أنّهم ما كانوا يفعلونهما أوّلَ الإسلام، أو صلّوا، عُبّر عن الصلاة بهما لأنّهما أعظم أركانها، أو اخضعوا لله تعالى، وخرّوا له سجّدًا.

﴿وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ﴾ بسائر ما تعبّدكم به، ﴿وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ﴾ وتحرّوا ما هو خير وأصلح في كلّ ما تأتون وما تذرون، كنوافل الطاعات، وصلة الأرحام، ومكارم الأخلاق. ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي: افعلوا هذه كلّها وأنتم راجون بها الفلاح غير متيقّنين له واثقين بأعمالكم.

والآية آية سجدة عند الشافعي رحمه الله[1] لظاهر ما فيها مِن الأمر بالسجود، ولقوله عليه السلام: «فُضّلت سورة الحجّ بسجدتين، مَن لم يسجدهما فلا يقرأها».[2]

﴿وَجَٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ۝٧٨﴾

﴿وَجَٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ﴾ أي: لله تعالى ولأجله أعداءَ دينه الظاهرةَ كأهل الزيغ، والباطنةَ كالهوى والنفس. وعنه عليه السلام أنّه رجع عن غزوة تبوك فقال:

---

[1] انظر: المجموع للنووي، ٥٩/٤.

[2] المعجم الكبير للطبراني، ٣٠٧/١٧ (٨٤٦)؛ المستدرك للحاكم، ٣٤٣/١ (٨٠٥).

«رجعنا مِن الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر».[١] ﴿حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ أي: جهادًا فيه حقًّا خالصًا لوجهه، فعُكِس وأضيفَ "الحقّ" إلى "الجهاد" مبالغةً، كقولك: "هو حقُّ عالِمٍ"، وأضيف "الجهاد" إلى الضمير اتّساعًا، أو لأنّه مختصّ به تعالى مِن حيث إنّه مفعول لوجهه ومِن أجله.

﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾ أي: هو اختاركم لدينه ونصرته، / لا غيره. وفيه تنبيه على ما يقتضي الجهادُ ويدعو إليه. ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ أي: ضِيقٍ بتكليف ما يشقّ عليكم إقامته إشارةً إلى أنّه لا مانعَ لهم عنه، ولا عذرَ لهم في تركه، أو إلى الرخصة في إغفال بعض ما أمرهم به حيث يشقّ عليهم؛ لقوله عليه السلام: «إذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم».[٢] [١٢٩ظ]

وقيل: ذلك بأن جعل لهم مِن كلّ ذنب مخرجًا، بأن رخّص لهم في المضائق، وفتح عليهم باب التوبة، وسوّغ لهم الكفّارات في حقوقه، والأروشَ[٣] والدياتِ في حقوق العباد.

﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ نصب على المصدر بفعل دلّ عليه مضمون ما قبله بحذف المضاف، أي: وسّع عليكم دينكم توسعةَ ملّةِ أبيكم، أو على الإغراء، أو على الاختصاص، وإنّما جعله أباهم لأنّه أبو رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وهو كالأب لأمّته مِن حيث إنّه سبب لحياتهم الأبديّة ووجودِهم على الوجه المعتدّ به في الآخرة، أو لأنّ أكثر العرب كانوا مِن ذُرّيته عليه السلام، فغُلِّبوا على غيرهم.

﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ في الكتب المتقدّمة ﴿وَفِى هَٰذَا﴾ أي: في القرآن. والضمير لله تعالى، ويؤيّده أنّه قُرئ: "اللهُ سَمَّاكُمْ"،[٤] أو لإبراهيم،

---

[١] أخرجه البيهقي في الزهد، ص ١٦٥ (٣٧٣)، عن جابر رضي الله عنه قال: قَدم على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قوم غزاة، فقال صلّى الله عليه وسلّم «قدمتم خير مَقدم، مِن الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر». قالوا: وما الجهاد الأكبر؟ قال: «مجاهدة العبد هواه». قال البيهقي: «هذا إسناد ضعيف». وانظر: تخريج أحاديث الكشّاف للزيلعي، ٣٩٥/٢.

[٢] صحيح البخاري، ٩٤/٩ (٧٢٨٨)؛ صحيح مسلم، ٩٧٥/٢ (١٣٣٧).

[٣] الأروش: جمع الأرْش، وهو دية الجراحات. الصحاح للجوهري، «أرش».

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه. انظر: الكشّاف للزمخشري، ١٧٣/٣؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٥٤٠/٧.

وتسميتهم بالمسلمين في القرآن وإن لم تكن منه عليه السلام كانت بسبب تسميته مِن قبلُ في قوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ [البقرة، ١٢٨/٢]. وقيل: ﴿فِي هَٰذَا﴾ تقديره: في هذا بيانُ تسميته إيّاكم مسلمين.

﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ﴾ يوم القيامة، متعلّق بـ﴿سَمَّىٰكُمُ﴾. ﴿شَهِيدًا عَلَيْكُمْ﴾ بأنّه بلّغكم، فيدلّ على قبول شهادته لنفسه اعتمادًا على عصمته، أو بطاعة مَن أطاع، وعصيانِ مَن عصى.

﴿وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ بتبليغ الرسل إليهم. ﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي: فتقرّبوا إلى الله تعالى بأنواع الطاعات. وتخصيصهما بالذكر لإنافتهما وفضلهما.

﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ﴾ أي: ثِقوا به في مجامع أموركم، ولا تطلبوا الإعانة والنصرة إلّا منه. ﴿هُوَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ ناصركم ومتولّي أموركم، ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ إذ لا مِثل له في الولاية والنصرة؛ بل لا وليَّ ولا نصيرَ في الحقيقة سواه عزّ وجلّ.

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة الحجّ أعطيَ مِن الأجر كحِجّة حَجّها وعمرة اعتمرها بعدد مَن حجّ واعتمر فيما مضى وما بقي».[1]

---

[1] الكشف والبيان للثعلبي، ٥/٧؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٢٥٧/٣. وهو جزء مِن الحديث المرويّ عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

[١٣٠و]

/ سورة المؤمنين

مكّيّة، وهي مائة وتسع عشرة آية، وثماني عشرة آية[١] عند الكوفيّين.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ① ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ②﴾

﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ "الفلاح": الفوز بالمرام، والنجاةُ عن المكروه. وقيل: البقاء في الخير. و"الإفلاح": الدخول في ذلك، كـ"الإبشار" الذي[٢] هو الدخول في البِشارة. وقد يجيء متعدّيًا بمعنى "الإدخال فيه"، وعليه قراءة مَن قرأ على البناء للمفعول.[٣]

وكلمة ﴿قَدْ﴾ ههنا لإفادة ثبوت ما كان متوقَّعَ الثبوت مِن قبلُ، لا متوقَّعَ الإخبار به ضرورةَ أنّ المتوقَّع مِن حال المؤمنين ثبوتُ الفلاح لهم، لا الإخبار بذلك، فالمعنى: قد فازوا بكلّ خير، ونجَوا مِن كلّ ضَير، حسبما كان ذلك متوقَّعًا مِن حالهم، فإنّ إيمانهم وما تفرّع عليه مِن أعمالهم الصالحة مِن دواعي الفلاح بموجَب الوعد الكريم، خلا أنّه إن أريدَ بالإفلاح حقيقةُ الدخول في الفلاح الذي لا يتحقّق إلّا في الآخرة فالإخبارُ به على صيغة الماضي للدلالة على تحقّقه لا محالةَ بتنزيله منزلةَ الثابت، وإن أريدَ كونهم بحالٍ تستتبعه البتّة فصيغة الماضي في محلّها.

وقُرئ: "أَفْلَحُوا"[٤] على الإبهام والتفسير، أو على "أكَلوني البَراغيثُ". وقُرئ: "أَفْلَحُ" بضمّةٍ اكتُفِي بها عن الواو،[٥] كما في قولِ مَن قال:

---

[١] ط - آية؛ س - وثماني عشرة آية.

[٢] س - الذي.

[٣] أي: "أُفْلِحَ". قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة بن مصرّف. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٣٢.

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة بن مصرّف. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٣٢.

[٥] هي عين القراءة السابقة، والواو محذوفة في اللفظ للضرورة، قال أبو حيّان: «وفي كتاب

ولــو أنّ الأطِــبّــا[1] كــانُ حَــولِــي[2]

والمراد بـ"المؤمنين" إمّا المصدِّقون بما عُلم ضرورةً أنّه مِن دين نبيّنا صلّى الله عليه وسلّم مِن التوحيد والنبوّة والبعث والجزاء ونظائرها، فقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ﴾ وما عُطف عليه صفاتٌ مخصِّصة لهم، وإمّا الآتون بفروعه أيضًا، كما يُنبئ عنه إضافةُ الصلاة إليهم، فهي صفات موضّحة أو مادحة لهم حسب اعتبار ما ذكر في حيّز الصلة مِن المعاني مع الإيمان إجمالًا أو تفصيلًا، كما مرّ في أوائل سورة البقرة.

[١٣٠ظ] و"الخشوع": الخوف والتذلّل، أي: خائفون مِن الله عزّ وجلّ، / متذلّلون له، ملزِمون أبصارَهم مساجدَهم. رُوي أنّه عليه السلام كان إذا صلّى رفع بصره إلى السماء، فلمّا نزلت رمى ببصره نحو مسجده.[3] وأنّه رأى مصلّيًا يعبث بلحيته فقال: «لو خَشع قلب هذا لَخَشعت جوارحه».[4]

﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ ۝٣﴾

﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ﴾ أي: عمّا لا يَعنيهم مِن الأقوال والأفعال ﴿مُعۡرِضُونَ﴾ أي: في عامّة أوقاتهم، كما يُنبئ عنه الاسم الدالّ على الاستمرار، فيدخل في ذلك إعراضُهم عنه حالَ اشتغالهم بالصلاة دخولًا أوّليًا، ومدارُ إعراضِهم عنه ما فيه مِن الحالة الداعية إلى الإعراض عنه، لا مجرّدُ الاشتغال بالجِدّ في أمور الدين

---

[1] س: الأطبّاء.

[2] الكشّاف للزمخشري، ١٧٤/٣. قال أبو حيّان بعد نقله عن الزمخشري استشهادَه بهذا البيت: «وليس بجيّد؛ لأنّ الواو في "أَفْلَحُ" حذفت لالتقاء الساكنين، وهنا حذفت للضرورة، فليست مثلَها». البحر المحيط لأبي حيّان، ٥٤٦/٧. | ابن خالوَيه مكتوبًا بواو بعد الحاء، وفي اللوامح: "وحذفت واو الجمع بعد الحاء لالتقائهما في الدرج، وكانت الكتابة عليها محمولة على الوصل، نحو: ﴿وَيَمۡحُ ٱللَّهُ ٱلۡبَٰطِلَ﴾ [الشورى، ٢٤/٤٢]"». البحر المحيط لأبي حيّان، ٥٤٦/٧.

وتمام البيت:

وكــان مــع الأطــبّــاء الــشــفــاءُ

وهو بغير نسبة في الجمل في النحو للخليل، ص ٢٣٢؛ والحيوان للجاحظ، ١٦٠/٥.

[3] الكشّاف للزمخشري، ١٧٥/٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٨٢/٤. وأخرجه الحاكم في المستدرك، ٤٢٦/٢ (٣٤٨٣)، بلفظ: «فطأطأ رأسه».

[4] نوادر الأصول للحكيم الترمذي، ١٧٢/٢. وأخرجه ابن أبي شيبة في المصنّف، ٨٦/٢ (٦٧٨٧)، موقوفًا على سعيد بن المسيّب.

كما قيل،[١] فإنّ ذلك ربّما يوهم أن لا يكون في اللغوِ نفسِه ما يزجرهم عن تعاطيه، وهو أبلغُ مِن أن يقال: "لا يلهون" مِن وجوه؛ جعلِ الجملة اسميَّةً، وبناءِ الحكم على الضمير، والتعبيرِ عنه بالاسم، وتقديمِ الصلة عليه، وإقامةِ الإعراض مُقام الترك؛ ليدلّ على تباعدهم عنه رأسًا مباشرةً وتسبّبًا، وميلًا وحضورًا، فإنّ أصله: أن يكون في عُرضٍ غير غُرضه.

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤﴾

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ﴾ وصفُهم بذلك بعد وصفهم بالخشوع في الصلاة للدلالة على أنّهم بلغوا الغاية القاصية مِن القيام بالطاعات البدنيّة والماليّة، والتجنّبِ عن المحرّمات وسائرِ ما يوجب المروءةُ اجتنابَه. وتوسيط حديث الإعراض بينهما لكمال ملابسته بالخشوع في الصلاة.

و"الزكاة" مصدر؛ لأنّه الأمر الصادر عن الفاعل، لا المحلّ الذي هو موقعه. ومعنى الفعل قد مرّ تحقيقه في تفسير قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ﴾ [البقرة، ٢/٢٤]، ويجوز أن يراد بها العين على تقدير المضاف.

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦﴾

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ﴾ ممسكون لها، فالاستثناء في قوله تعالى: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ﴾ مِن نفي الإرسال الذي يُنبئ عنه الحِفظ، أي: لا يرسلونها على أحد / إلّا على أزواجهم. وفيه إيذان بأنّ قوّتهم الشهويّة داعية لهم إلى ما لا يخفى، وأنّهم حافظون لها مِن استيفاء مقتضاها، وبذلك يتحقّق كمال العفّة. [١٣١و]

ويجوز أن يكون ﴿عَلَىٰٓ﴾ بمعنى "مِن"، وإليه ذهب الفرّاء،[٢] كما في قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱكْتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [المطففين، ٨٣/٢]، أي: حافظون لها مِن كلّ أحد إلّا مِن أزواجهم. وقيل: هي متعلّقة بمحذوف وقَع حالًا مِن ضمير ﴿حَٰفِظُونَ﴾،

---

[١] قاله الزمخشري في الكشّاف، ٣/١٧٥.

[٢] انظر: معاني القرآن للفرّاء، ٢/٢٣١.

أي: حافظون لها في جميع الأحوال إلّا حالَ كونهم والِين أو قوّامين على أزواجهم. وقيل: بمحذوف يدلّ عليه ﴿غَيْرُ مَلُومِينَ﴾، كأنّه قيل: يلامون على كلّ مباشَر إلّا على ما أُطلق لهم، فإنّهم غير ملومين.

وحملُ الحفظِ على القَصر عليهنّ ليكون المعنى: حافظون فُروجهم على الأزواج لا يتعدّاهنّ، ثمّ يقال: غير حافظين إلّا عليهنّ، تأكيدًا على تأكيد؛[1] تكلّفٌ[2] على تكلّف.

﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ أي: سراريّهم، عُبّر عنهنّ بـ﴿مَا﴾ إجراءً لهنّ لمملوكيّتهنّ مُجرى غيرِ العقلاء، أو لأنوثتهنّ المُنبئة عن القصور.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ تعليل لِمَا يفيده الاستثناء مِن عدم حفظ فروجهم منهنّ، أي: فإنّهم غير مَلومين على عدم حفظها منهنّ.

﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧﴾

﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ﴾ الذي ذُكر مِن الحدّ المتّسع، وهو أربع مِن الحرائر، وما شاء مِن الإماء، ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ الكاملون في العدوان، المتناهون فيه. وليس فيه ما يدلّ حتمًا على تحريم المتعة، حسبما نقل عن القاسم بن محمّد،[3] فإنّه قال: «إنّها ليست زوجةً له، فوجب ألّا تحلّ له، أمّا أنّها ليست زوجةً له فلأنّهما لا يتوارثان بالإجماع،[4] ولو كانت زوجةً له لَحَصل التوارث لقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ﴾ [النساء، ١٢/٤]، فوجب أن لا تحِلّ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ﴾»؛[5] لأنّ لهم أن يقولوا: إنّها زوجة له في الجملة. وأمّا أنّ كلّ زوجة ترِث فهم لا يسلّمونها، وأمّا ما قيل مِن أنّه إن أريدَ لو كانت زوجةً

---

١ انظر: حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، ٣١٩/٦.

٢ خبر "حَملُ".

٣ هو القاسم بن محمّد بن أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه، القرشي، التيمي، البكري، المدني، أبو محمّد (ت. ١٠٧هـ/٧٢٥م)، الإمام، القدوة، الحافظ، الحجّة، عالم وقته بالمدينة مع سالم وعكرمة، ولد في خلافة عليّ رضي الله عنه، ورُبّي في حِجر عمّته أمّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وتفقّه منها، وأكثرَ عنها. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، ٥٣/٥؛ والأعلام للزركلي، ١٨١/٥.

٤ م ط س - بالإجماع ["صح" في هامش م س].

٥ في الآية السابقة. | تفسير الرازي، ٧١/٢٣.

حالَ الحياة لم يُفد، وإن أريدَ بعد الموت فالملازمة ممنوعة، فليس له معنى محصّل. نعم لو عُكِس لكان له وجه.

﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ۝٨﴾

/ ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ﴾ لِما يُؤتمَنون عليه ويُعاهَدون مِن جهة الحقِّ أو الخلقِ ﴿رَٰعُونَ﴾ أي: قائمون عليها حافظون لها على وجه الإصلاحِ. وقُرئ: "لِأَمَانَتِهِمْ".[1] [١٣١ظ]

﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ۝٩﴾

﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ﴾ المفروضة عليهم ﴿يُحَافِظُونَ﴾ يواظبون عليها، ويؤدّونها في أوقاتها. ولفظ الفعل فيه لِما في الصلاة مِن التجدّد والتكرّر، وهو السرّ في جمعها. وليس فيه تكرير، لِما أنّ الخشوع في الصلاة غيرُ المحافظة عليها. وفصلُهما للإيذان بأنّ كلًّا منهما فضيلة مستقلّة على حيالها، ولو قُرِنا في الذِّكر لربّما توهّم أنّ مجموع الخشوع والمحافظة فضيلة واحدة.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ۝١٠﴾

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى المؤمنين باعتبار اتّصافهم بما ذُكر مِن الصفات. وإيثارها على الإضمار للإشعار بامتيازهم بها عن غيرهم ونزولهم منزلةَ المشار إليهم حِسًّا. وما فيه مِن معنى البعد للإيذان بعلوّ طبقتهم وبُعد درجتهم في الفضل والشرَف، أي: أولئك المَنعوتون بالنعوت الجليلة المذكورة ﴿هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ﴾ أي: الأحِقّاء بأن يُسمَّوا وُرَّاثًا، دون مَن عداهم ممّن وَرِث رغائب الأموال والذخائر وكرائمَها.

﴿ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡفِرۡدَوۡسَ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝١١﴾

﴿ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡفِرۡدَوۡسَ﴾ بيان لِما يَرثونه، وتقييدٌ للوِراثة بعد إطلاقها، وتفسيرٌ لها بعد إبهامها، تفخيمًا لشأنها، ورفعًا لمحلِّها. وهي استعارة لاستحقاقهم "الفردوس" بأعمالهم حسبما يقتضيه الوعد الكريم للمبالغة فيه.

---

[1] قرأ بها ابن كثير. النشر لابن الجزري، ٢/٣٢٨.

وقيل: إنّهم يرثون مِن الكفّار منازلَهم فيها حيث فوّتوها على أنفسهم؛ لأنّه تعالى خلق لكلّ إنسان منزلًا في الجنّة ومنزلًا في النّار.

﴿هُمْ فِيهَا﴾ أي: في الفردوس. والتأنيث لأنّه اسم للجنّة، أو لطبقتها العليا، وهو البستان الجامع لأصناف الثمر. رُوي أنّه تعالى بنى جنّة الفردوس لَبِنةً مِن ذهب، ولَبِنةً مِن فضّة، وجعل خِلالها المِسكَ الأذفَر. وفي رواية: ولَبِنةً مِن مِسك مُذرًّى، / وغرس فيها مِن جيّد الفاكهة وجيّد الريحان.[١] [١٣٢و]

﴿خَٰلِدُونَ﴾ لا يخرجون منها أبدًا. والجملة إمّا مستأنفة مقرِّرة لِما قبلها، وإمّا حال مقدّرة مِن فاعل ﴿يَرِثُونَ﴾، أو مفعوله، إذ فيها ذِكر كلّ منهما. ومعنى الكلام: لا يموتون ولا يخرجون منها.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝١٢﴾

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ شروع في بيان مَبدأ خلق الإنسان وتقلّبِه في أطوار الخِلقة وأدوارِ الفطرة بيانًا إجماليًا إثرَ بيان حال بعض أفراده السعداء. و"اللام" جواب قسم، و"الواو" ابتدائيّة. وقيل: عاطفة على ما قَبلها. والمراد بـ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ الجنس، أي: وبالله لقد خلقنا جنس الإنسان في ضمن خلق آدم عليه السلام خَلقًا إجماليًا حسبما تحقّقتَه في سورة الحجّ وغيرها.[٢] وأمّا كونه مخلوقًا مِن سلالات جُعلت نُطَفًا بعد أدوار وأطوار[٣] فبعيدٌ.

﴿مِن سُلَٰلَةٍ﴾ "السُّلالة": ما سُلَّ مِن الشيء واستُخرجَ منه. فإنّ "فُعَالة" اسم لِما يحصل مِن الفعل، فتارة تكون مقصودًا منه، كـ"الخُلاصة"، وأخرى غير مقصود منه، كـ"القُلامة" و"الكُناسةِ"، و"السُّلالةُ" مِن قَبيل الأوّل، فإنّها مقصودة بالسَّلّ.

---

[١] الكشّاف للزمخشري، ١٧٨/٣. وفي سنن الترمذي، ٦٧٢/٤ (٢٥٢٦)، عن أبي هريرة، قال: قلت: «الجنّة ما بناؤها؟» قال: «لَبِنة مِن فضّة ولَبِنة مِن ذهب، ومِلاطها المِسك الأذفَر، وحَصباؤها اللؤلؤ والياقوت، وتربتها الزعفران»...

[٢] وفي هامش م: مِن سورة طه وسورة مريم وغيرهما. «منه». | مريم، ٩/١٩؛ طه، ٥٥/٢٠؛ الحجّ، ٥/٢٢.

[٣] أنوار التنزيل للبيضاوي، ٨٣/٤.

و﴿مِن﴾ ابتدائيّة متعلّقة بالخَلق. وما في قوله تعالى: ﴿مِن طِينٍ﴾ بيانيّة متعلّقة بمحذوف وقعَ صفة لـ﴿سُلَٰلَةٍ﴾، أي: خلقناه مِن سُلالة كائنة مِن طين. ويجوز أن تتعلّق بـ﴿سُلَٰلَةٍ﴾ على أنّها بمعنى "مسلولة"، فهي ابتدائيّة كالأولى.

وقيل: المراد بـ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ آدم عليه السلام، فإنّه الذي خُلق مِن صفوةٍ سُلَّت مِن الطين. وقد وقفتَ على التحقيق.

﴿ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ١٣﴾

﴿ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ﴾ أي: الجنس باعتبار أفراده المغايِرة لآدم عليه السلام، أو جعلنا نسله، على حذف المضاف إن أريدَ بـ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾[1] آدم عليه السلام ﴿نُطۡفَةً﴾ بأن خلقناه منها. أو ثمّ جعلنا السّلالة نطفة، والتذكيرُ بتأويل الجوهر، أو المَسلول، أو الماء.

﴿فِي قَرَارٍ﴾ أي: مستَقَرّ، وهو الرحِم، عُبّر عنها بالقرار الذي هو مصدر مبالغةً. وقوله تعالى: ﴿مَّكِينٍ﴾ وصفٌ لها بصفة ما استقرّ فيها، مثل: / "طريق سائر"، أو بمكانتها في نفسها، فإنّها مُكِّنت بحيث هي وأُحرِزت. [١٣٢ظ]

﴿ثُمَّ خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ مُضۡغَةً فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمًا ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ١٤﴾

﴿ثُمَّ خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةً﴾ أي: دمًا جامدًا بأن أحَلْنا النطفةَ البيضاء علقةً حمراء. ﴿فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ مُضۡغَةً﴾ أي: قطعةَ لحم لا استبانةَ ولا تَمايزَ فيها، ﴿فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ﴾ أي: غالبَها ومعظمَها أو كلَّها ﴿عِظَٰمًا﴾ بأن صلّبناها وجعلناها عَمودًا للبدن على هيئاتٍ وأوضاع مخصوصة تقتضيها الحكمة، ﴿فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ﴾ المعهودةَ ﴿لَحۡمًا﴾ مِن بقيّة المضغة، أو ممّا أنبتنا عليها بقدرتنا ممّا يصل إليها، أي: كسونا كلّ عظم مِن تلك العظام ما يليق به مِن اللحم على مقدار لائقٍ به وهيئة مناسبة له. واختلاف العواطف للتنبيه على تفاوت الاستحالات،

---

[1] في الآية السابقة.

وجمع العظام لاختلافها. وقُرئ على التوحيد فيهما[١] اكتفاءً بالجنس، وبتوحيد الأوّل فقط،[٢] وبتوحيد الثاني فحسب.[٣]

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ هي صورة البدن، أو الروح، أو القوى بنفخه فيه، أو المجموع. و﴿ثُمَّ﴾ لكمال التفاوت بين الخَلقَين. واحتجّ به أبو حنيفة رحمه الله على أنّ مَن غَصَب بَيضةً فأفرَخت عنده لزِمه ضمان البَيضة، لا الفَرخ؛ لأنّه خَلق آخر.[٤]

﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ﴾ فتعالى شأنه في علمه الشامل وقدرته الباهرة. والالتفات إلى الاسم الجليل لتربية المهابة، وإدخال الروعة، والإشعارِ بأنّ ما ذكر مِن الأفاعيل العجيبة مِن أحكام الألوهيّة، وللإيذان بأنّ حَقَّ كلِّ مَن سَمِع ما فُصِّل مِن آثار قدرته عزّ وعلا أو لاحظه أن يسارع إلى التكلّم به إجلالًا وإعظامًا لشئونه تعالى.

﴿أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ بدَل مِن الجلالة. وقيل: نعت له بناءً على أنّ الإضافة ليست لفظيّة.[٥] وقيل: خبر مبتدأٍ محذوف، أي: هو أحسن الخالقين خَلقًا، أي: المقدِّرين تقديرًا، حُذف المميَّز لدلالة ﴿ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ عليه، كما حُذف المأذون فيه / في قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ﴾ [الحج، ٣٩/٢٢] لدلالة الصلة عليه، أي: أحسن الخالقين خَلقًا، فالحُسن للخلق. [١٣٣و]

قيل: نظيره قوله عليه السلام: «إنّ الله جميل يحبّ الجمال»،[٦] أي: جميلٌ فعلُه، فحُذف المضاف، وأقيمَ المضاف إليه مُقامه، فانقلب مرفوعًا، فاستكنّ.

رُوي أنّ عبد الله بن أبي سَرْح كان يكتب لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم الوحيَ، فلمّا انتهى عليه السلام إلى قوله: ﴿خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ سارع عبد الله إلى النطق به قبل إملائه عليه السلام، فقال عليه السلام: «اكتب، هكذا نزلت»،

---

[١] أي: "عَظْمًا فَكَسَوْنَا الْعَظْمَ". قرأ بها ابن عامر وأبو بكر شعبة. النشر لابن الجزري، ٣٢٨/٢.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن السلمي وقتادة والأعرج والأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٣٢.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن مجاهد. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٣٢.

[٤] انظر: البحر الرائق لابن نجيم، ٢٤٥/٧.

[٥] ط س: محضة. | يظهر أثر الكشط والتصحيح في نسخة المؤلّف، فلعلّه صحّحها بعد نسخ ط س.

[٦] صحيح مسلم، ٩٣/١ (٩١)؛ سنن الترمذي، ٣٦١/٤ (١٩٩٩).

فشكّ عبد الله، فقال: «إن كان محمّد يوحَى إليه فأنا كذلك»، فلحِق بمكّة كافرًا، ثـمّ أسلَم يومَ الفتح. وقيل: مات على كفره.[١]

ورَوى سعيد بن جبير عن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنّه قال: لمّا نزلت هذه الآية قال عمر رضي الله عنه: «فتبارك الله أحسن الخالقين»، فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «هكذا نزل يا عمر».[٢]

وكان رضي الله عنه يفتخر بذلك ويقول: «وافقتُ ربّي في أربع؛ الصلاةِ خلفَ المقام، وضَربِ الحجاب على النسوة، وقَولي لهنّ: "أو ليُبْدله الله خيرًا منكنّ" فنزل قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ﴾ الآيةَ [التحريم، ٥/٦٦]، والرابعُ: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾».[٣]

انظر كيف وقعت هذه الواقعة سببًا لسعادة عمر رضي الله عنه وشقاوة ابن أبي سَرح حسبما قال تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا﴾ [البقرة، ٢٦/٢]. لا يُقال: فقد تكلّم البشر ابتداءً بمِثل نظم القرآن، وذلك قادح في إعجازه؛ لِمَا أنّ الخارج عن قدرة البشر ما كان مقدار أقصر السور، على أنّ إعجاز هذه الآية الكريمة مَنوط بما قبلها، كما يُعرب عنه "الفاء"، فإنّها اعتراض تذييلي مقرّر لمضمون ما قبله.

﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾﴾.

﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ أي: بعد ما ذكر مِن الأمور العجيبة، حسبما يُنبئ عنه ما في اسم الإشارة مِن معنى البعد المشعِر بعلوّ رتبة المشار إليه وبُعد منزلته في الفضل والكمال، وكونِه بذلك ممتازًا منزّلًا منزلةَ الأمور الحسّيّة.

/ ﴿لَمَيِّتُونَ﴾ لَصائرون إلى الموت لا محالةَ، كما يؤذن به صيغة النعت الدالّة على الثبوت، دون الحدوث الذي يفيده صيغة الفاعل. وقد قُرئ: "لَمَائِتُونَ".[٤] [١٣٣ظ]

---

١ الكشف والبيان للثعلبي، ٤٣/٧؛ الكشّاف للزمخشري، ١٧٩/٣.

٢ الكشف والبيان للثعلبي، ٤٣/٧؛ الكشّاف للزمخشري، ١٧٩/٣. وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير، ٤٣٨/١١ (١٢٢٤٤)، في حديث طويل.

٣ تفسير يحيى بن سلّام، ٣٩٥/١؛ مسند أبي داود الطيالسي، ٤٦/١ (٤١).

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٣٣.

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تُبْعَثُونَ ۝١٦﴾

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ أي: عند النفخة الثانية ﴿تُبْعَثُونَ﴾ مِن قبوركم للحساب والمُجازاة بالثواب والعقاب.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَـٰفِلِينَ ۝١٧ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّـٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَـٰدِرُونَ ۝١٨﴾

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ﴾ بيان لخلق ما يَحتاج إليه بقاؤهم إثر بيان خلقهم، أي: خلقنا في جهة العلوّ مِن غير اعتبار فوقيّتها لهم؛ لأنّ تلك النسبة إنّما تعرّض لها بعد خلقهم.

﴿سَبْعَ طَرَآئِقَ﴾ هي السماوات السبع، سمّيت بها لأنّها طُورق بعضها فوق بعض مطارقةَ النعل،[١] فإنّ كلّ ما فوقَه مثلُه فهو طريقه، أو لأنّها طرائق الملائكة، أو الكواكب فيها مسيرها.

﴿وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ﴾ عن ذلك المخلوق الذي هي السماوات، أو عن جميع المخلوقات التي هي مِن جملتها، أو عن الناس ﴿غَـٰفِلِينَ﴾ مهمِلين أمرها؛ بل نحفظها عن الزوال والاختلال، وندبّر أمرها حتّى تبلغ منتهى ما قُدّر لها مِن الكمال حسبما اقتضته الحكمة وتعلّقت به المشيئة، ويصل إلى ما في الأرض منافعها، كما يُنبئ عنه قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ هو المطر، أو الأنهار النازلة مِن الجنّة. قيل: هي خمسة أنهار؛ سِيحون نهر الهند، وجيحون نهر بَلْخ، ودِجلة والفرات نهرا العراق، والنيل نهر مِصر، أنزلها الله تعالى مِن عينٍ واحدة مِن عيون الجنّة، فاستودعها الجبالَ، وأجراها في الأرض، وجعل فيها منافع للناس في فنون معايشهم.[٢]

و﴿مِن﴾ ابتدائيّة متعلّقة بـ﴿أَنزَلْنَا﴾، وتقديمُها على المفعول الصريح لِما مرّ مرارًا مِن الاعتناء بالمقدَّم، والتشويق إلى المؤخَّر. والعدول عن الإضمار لأنّ الإنزال لا يُعتبر فيه عنوان كونها طرائقَ؛ بل مجرّدُ كونها جهةَ العلوّ.

---

[١] طارَق النعلَ، إذا صيّرها طاقًا فوق طاق، وركّب بعضها فوق بعض. **النهاية** لابن الأثير، «طرق».

[٢] **التفسير الوسيط** للواحدي، ٢٨٧/٣؛ **الكشّاف** للزمخشري، ١٧٩/٣.

﴿بِقَدَرٍ﴾ بتقديرٍ لائقٍ لاستجلاب منافعهم ودفع مضارّهم، / أو بمقدار [١٣٤و] ما علمنا مِن حاجاتهم ومصالحهم، ﴿فَأَسْكَنَّـٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: جعلناه ثابتًا قارًّا فيها.

﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ﴾ أي: إزالته بالإفساد، أو التصعيد، أو التغوير بحيث يتعذّر استنباطه ﴿لَقَـٰدِرُونَ﴾ كما كنّا قادرين على إنزاله. وفي تنكير ﴿ذَهَابٍۭ﴾ إيماء إلى كثرة طُرقه، ومبالغةٌ في الإيعاد[١] به، ولذلك جُعل أبلغَ مِن قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ﴾ [الملك، ٦٧/٣٠].

﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّـٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَـٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ١٩﴾

﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ﴾ أي: بذلك الماء ﴿جَنَّـٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَـٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا﴾ في الجنّات ﴿فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ﴾ تتفكّهون بها، ﴿وَمِنْهَا﴾ مِن الجنّات ﴿تَأْكُلُونَ﴾ تغذّيًا، أو تُرزقون وتحصّلون معايشكم، مِن قولهم: "فلان يأكل مِن حِرفته". ويجوز أن يعود الضميران للنخيل والأعناب، أي: لكم في ثمراتها أنواع مِن الفواكه، الرُّطَب والعِنب، والتمر والزبيب، والعصير والدبس، وغير ذلك، وطعامٌ تأكلونه.

﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْـَٔاكِلِينَ ٢٠﴾

﴿وَشَجَرَةً﴾ بالنصب عطفٌ على ﴿جَنَّـٰتٍ﴾.[٢] وقُرئ بالرفع على أنّه مبتدأ خبره محذوف دلّ عليه ما قبله، أي: وممّا أُنشِئَ لكم به شجرة، وتخصيصُها بالذكر مِن بين سائر الأشجار لاستقلالها بمنافعَ معروفة، قيل: هي أوّلُ شجرة نبتَتْ بعد الطوفان.

وقوله تعالى: ﴿تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ﴾ وهو جبل موسى عليه السلام بين مصر وأيلة، وقيل: بفلسطين، ويقال له: "طور سينين". فإمّا أن يكون "الطور" اسم الجبل، و﴿سَيْنَآءَ﴾ اسم البقعة أضيفَ إليها، أو المركّب منهما علَم له،

---

[١] ط س: الإبعاد.

[٢] في الآية السابقة.

كـ"امرئ القيس". ومنعُ صرفه[١] على قراءة مَن كسر السين[٢] للتعريف[٣] والعجمة، أو التأنيثِ على تأويل البُقعة، لا للألف؛ لأنّه "فِيعال" -كـ"دِيماس"- مِن "السَّناء" بالمدّ، وهو الرفعة، أو بالقصر، وهو النور، أو ملحق بـ"فِعْلَال" -كَـ"عِلْبَاء"-[٤] مِن "السِّين"، / إذ لا فِعلاءَ بألف التأنيث، بخلاف "سَيناء"، فإنّه "فَيعال" كـ"كَيسان"، [١٣٤ظ] أو "فَعلاء" كـ"صَحراء"، إذ لا "فَعْلَال" في كلامهم. وقُرئ بالكسر والقصر.

والجملة صفة لـ﴿شَجَرَةً﴾، وتخصيصها بالخروج منه مع خروجها مِن سائر البقاع أيضًا لتعظيمها، ولأنّه المنشأ الأصلي لها.

وقوله تعالى: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهۡنِ﴾ صفة أخرى لـ﴿شَجَرَةً﴾، و"الباء" متعلّقة بمحذوف وقع حالًا منها، أي: تنبت ملتبسة به. ويجوز كونها صلة معدِّية، أي: تُنْبِتُه بمعنى تتضمّنه وتحصّله، فإنّ النبات حقيقةً صفةٌ للشجرة لا للدهن. وقُرئ: "تُنْبِتُ"[٥] مِن الإفعال، وهو إمّا مِن "الإنبات" بمعنى "النبات"، كما في قول زهير:

رأيتُ ذوي الحاجاتِ حولَ بيوتهم قَطينًا لهم حتّى إذا أنبتَ البقلُ[٦]

أو على تقدير: تُنبتُ زيتونَها ملتبسًا بالدهن. وقُرئ على البناء للمفعول،[٧] وهو كالأوّل، و"تُثْمِرُ بِالدُّهْنِ"،[٨] و"تَخْرُجُ بِالدُّهْنِ"،[٩] و"تَنْبُتُ بِالدِّهَانِ".[١٠]

---

١ س + للتعريف.

٢ ط - على قراءة مَن كسر السين. | قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٣٢٨/٢.

٣ س - للتعريف.

٤ ط س: كعليا.

٥ قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو ورويس. النشر لابن الجزري، ٣٢٨/٢.

٦ القطين: الساكن النازل في الدار. يقول: يلزمونهم فيسكنون عندهم. وقوله: "أنبتَ البقلُ" أي: أخصب الناس. شرح شعر زهير لثعلب، ص ٩٣.

٧ أي: "تُنْبَتُ". قراءة شاذّة، مرويّة عن الزهري والحسن والأعرج. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٣٣.

٨ قراءة شاذّة، مرويّة عن أُبيّ رضي الله عنه. انظر: الكشّاف للزمخشري، ١٨١/٣؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٥٥٥/٧.

٩ قراءة شاذّة، ذكرها المفسّرون ولم أجد مَن ذكَر قارئها، ورُوي عن ابن مسعود رضي الله عنه: "تُخْرِجُ الدُّهْنَ". انظر: الكشّاف للزمخشري، ١٨١/٣؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٥٥٥/٧. قال أبو حيّان: «وما رَووا مِن قراءة عبد الله "تُخْرِجُ الدُّهْنَ" وقراءة أُبيّ "تُثْمِرُ بِالدُّهْنِ" محمول على التفسير لمخالفته سَواد المصحف المجمع عليه».

١٠ قراءة شاذّة، مرويّة عن سليمان بن عبد الملك والأشهب. البحر المحيط لأبي حيّان، ٥٥٥/٧.

﴿وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ﴾ معطوف على ﴿ٱلدُّهْنِ﴾ جارٍ على إعرابه عطفَ أحدِ وصفَي الشيء على الآخر، أي: تَنبُت بالشيء الجامع بين كونه دُهنًا يُدهَن به ويُسرَج منه، وكونِه إدامًا يُصبغ فيه الخبز، أي: يُغمَس للِائتدام. وقُرئ: "وَصِبَاغٍ"، كـ"دِبَاغٍ" في دَبْغ.

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾﴾

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً﴾ بيان للنعم الفائضة عليهم مِن جهة الحيوان إثرَ بيان النعم الواصلة إليهم مِن جهة الماء والنبات، وقد بُيّن أنّها مع كونها في نفسها نعمة ينتفعون بها على وجوه شتّى عبرةٌ لا بدّ مِن أن يعتبروا بها، ويستدلّوا بأحوالها على عظيم قدرة الله عزّ وجلّ، وسابغ رحمته، ويشكروه، ولا يكفروه، وخُصّ هذا بالحيوان لِما أنّ محلّ العبرة فيه أظهر ممّا في النبات.

وقوله تعالى: ﴿نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا﴾ / تفصيل لِما فيها مِن مواقع العِبرة. [١٣٥و] وما في بطونها عبارة إمّا عن الألبان، فـ﴿مِن﴾ تبعيضيّة، والمراد بـ"البطون" الجَوف، أو عن العَلَف الذي يتكوّن منه اللبن، فـ﴿مِن﴾ ابتدائيّة، و"البطون" على حقيقتها. وقُرئ بفتح النون،[١] وبالتاء،[٢] أي: تَسقِيكم الأنعام.

﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ﴾ غير ما ذُكر مِن أصوافها وأشعارها، ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ فتنتفعون بأعيانها كما تنتفعون بما يحصل منها.

﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾

﴿وَعَلَيْهَا﴾ أي: على الأنعام، فإنّ الحَمل عليها لا يقتضي الحَمل على جميع أنواعها؛ بل يتحقّق بالحَمل على البعض، كالإبل ونحوها. وقيل: المراد هي الإبل خاصّةً؛ لأنّها هي المحمول عليها عندهم، والمناسبُ لـ﴿ٱلْفُلْكِ﴾،

---

[١] قرأ بها نافع وابن عامر ويعقوب وأبو بكر شعبة. النشر لابن الجزري، ٢/٣٠٤.

[٢] قرأ بها أبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٣٠٤.

فإنّها سفائن البَرّ، قال ذو الرمّة:[١]

سفينةُ بَرٍّ تحتَ خَدّي زِمامُها[٢]

فالضمير فيهِ كما في قوله تعالى: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ﴾[٣] [البقرة، ٢/٢٢٨].

﴿وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ أي: في البرّ والبحر. وفي الجمع بينها وبين ﴿ٱلْفُلْكِ﴾ في إيقاع الحَمل عليها مبالغة في تحمّلها للحَمل، وهو الداعي إلى تأخير ذكر هذه المنفعة مع كونها مِن المنافع الحاصلة منها مِن[٤] ذكر مَنفعة الأكل المتعلّقة بعينها.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾﴾

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ شروع في بيان إهمال الأمم السابقة، وتركِهم النظرَ والاعتبارَ فيما عُدِّد مِن النِّعم الفائتة للحصر، وعدمِ تذكّرهم بتذكير رسلهم، وما حاق بهم لذلك مِن فنون العذاب؛ تحذيرًا للمخاطَبين. وتقديمُ قصّةِ نوح عليه السلام على سائر القِصص ممّا لا يخفى وجهه، وفي إيرادها إثْرَ قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾[٥] مِن حُسن الموقع ما لا يوصف.

و"الواو" ابتدائيّة، و"اللام" جواب قسم محذوف. وتصدير القصّة به لإظهار كمال الاعتناء بمضمونها، أي: وبالله / لقد أرسلنا نوحًا... إلخ. ونسَبه الكريم [١٣٥ظ] وكيفيّةُ بَعثه وكمّيّةُ لَبثه فيما بينهم قد مرّ تفصيله في سورة الأعراف[٦] وسورة هود.[٧]

---

[١] هو غيلان بن عقبة بن بهيس، ذو الرُمّة (ت. ١١٧هـ/٧٣٥م)، مِن فحول الشعراء، مُضريّ النسب. والرُمّة: هي الحبل. شبَّبَ بمَيّة بنت مقاتل المنقريّة، وبالخرقاء. وله مدائح في الأمير بلال بن أبي بردة. قال أبو عمرو بن العلاء: «افتُتح الشعراء بامرئ القيس، وخُتموا بذي الرُمّة». وقيل: إن الوليد قال للفرزدق: «أتعلم أحدًا أشعرَ منك؟» قال: «غلام مِن بني عديّ، يركب أعجاز الإبل» يريد: ذا الرُمّة. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، ٥/٢٦٧؛ والأعلام للزركلي، ٥/١٢٤.

[٢] صدره:

طُروقًا وجِلبُ الرَّحلِ مشدودةٌ به

ديوان ذي الرمّة، ٢/١٠٠٤. وفيه: "وجِلْبُ الرّحل": خشبة بغير أداة.

[٣] وفي هامش م: مِن حيث إنّ كلًّا منها أخصّ مِن المرجع فـ﴿ٱلْمُطَلَّقَٰتُ﴾ تعمّ المطلّقة الرجعيّة والمَبتوتة، وكذا ﴿ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ تعمّ الإبل وغيرها. «منه».

[٤] س: عن.

[٥] في الآية السابقة.

[٦] الأعراف، ٧/٥٩.

[٧] هود، ١١/٢٥.

﴿فَقَالَ﴾ متعطّفًا عليهم ومستميلًا لهم إلى الحقّ: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: اعبدوه وحده كما يُفصح عنه قوله تعالى في سورة هود: ﴿أَن لَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [هود، ٢٦/١١]. وتركُ التقييد به للإيذان بأنّها هي العبادة فقط، وأمّا العبادة بالإشراك فليس مِن العبادة في شيء رأسًا.

وقوله تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ استئناف مَسوق لتعليل العبادة المأمور بها، أو تعليلِ الأمر بها. و﴿غَيۡرُهُۥٓ﴾ بالرفع صفة لـ﴿إِلَٰهٍ﴾ باعتبار محلِّه الذي هو الرفعُ على أنّه فاعل، أو مبتدأ خبره ﴿لَكُم﴾، أو محذوف و﴿لَكُم﴾ للتخصيص والتبيين، أي: ما لكم في الوجود أو في العالَم إلهٌ غيرُه تعالى. وقُرئ بالجرّ[1] باعتبار لفظه.

﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي: أفلا تَقُون أنفسَكم عذابَهُ الذي يستوجبه ما أنتم عليه مِن ترك عبادته تعالى، كما يفصح عنه قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف، ٥٩/٧]، وقولُه تعالى: ﴿عَذَابَ يَوۡمٍ أَلِيمٍ﴾ [هود، ٢٦/١١]. وقيل: أفلا تخافون أن ترفضوا عبادةَ الله الذي هو ربّكم... إلخ، وليس بذاك. وقيل: أفلا تخافون أن يزيل عنكم نعَمه... إلخ، وفيه ما فيه. و"الهمزة" لإنكار الواقع واستقباحه. و"الفاء" للعطف على مقدَّر يقتضيه المقام، أي: أتعرفون ذلك -أي: مضمون قوله تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾- فلا تتّقون عذابه بسبب إشراككم به في العبادة ما لا يستحقّ الوجودَ لولا إيجاد الله تعالى إيّاه، فضلًا عن استحقاق العبادة؟ فالمنكَرُ عدمُ الاتّقاء مع تحقّق ما يوجبه، أو أَلَا تُلاحظون ذلك فلا تتّقونه؟ فالمنكَر كِلا الأمرين، فالمبالغة حينئذ في الكمّيّة، وفي الأوّل في الكيفيّة.

﴿فَقَالَ ٱلۡمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيۡكُمۡ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ مَّا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ ٢٤ إِنۡ هُوَ إِلَّا رَجُلُۢ بِهِۦ جِنَّةٞ فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٖ ٢٥﴾

﴿فَقَالَ ٱلۡمَلَؤُاْ﴾ أي: الأشراف ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ﴾ وُصِف الملأ بما ذُكر مع اشتراك الكلّ فيه للإيذان بكمال عَراقتهم في الكفر، وشدّةِ شَكيمتهم فيه،

[1] قرأ بها أبو جعفر والكسائي. النشر لابن الجزري، ٢٧٠/٢.

أي: قالوا لعوامّهم: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثۡلُكُمۡ﴾ أي: في الجنس والوصف مِن غير فَرق / بينكم وبينه، وصفوه عليه السلام بذلك مبالغةً في وضع رتبته العالية وحطِّها عن منصب النبوّة. [١٣٦و]

﴿يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيۡكُمۡ﴾ أي: يريد أن يطلب الفضل عليكم ويتقدّمكم بادّعاء الرسالة مع كونه مثلَكم، وصفوه بذلك إغضابًا للمخاطَبين عليه عليه الصلاة والسلام[1] وإغراءً لَهم على معاداته عليه السلام.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ بيان لعدم رسالة البشر على الإطلاق على زعمهم الفاسد بعد تحقيق بشريّته عليه السلام، أي: لو شاء الله تعالى إرسال الرسول لأرسل رسلًا مِن الملائكة. وإنّما قيل: ﴿لَأَنزَلَ﴾ لأنّ إرسال الملائكة لا يكون إلّا بطريق الإنزال، فمفعول المشيئة مطلقُ الإرسال المفهومُ مِن الجواب، لا نفسُ مضمونه، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ﴾ [النحل، ٩/١٦] ونظائره.

﴿مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا﴾ أي: بمثل هذا الكلام الذي هو الأمر بعبادة الله تعالى خاصّةً وتركِ عبادة ما سواه. وقيل: بمثل نوح عليه السلام في دعوى[2] النبوّة. ﴿فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ أي: الماضِين قبل بعثته عليه السلام، قالوه إمّا لكونهم وآبائهم في فترة متطاولة، وإمّا لفَرط غلوّهم في التَكَذُّبِ والعناد، وانهماكهم في الغيّ والفساد. وأيًّا ما كان فقولُهم هذا ينبغي أن يكون هو الصادر عنهم في مبادي دعوته عليه السلام، كما ينبئ عنه "الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلۡمَلَؤُاْ﴾... إلخ.

وقيل: معناه: ما سمعنا به عليه السلام أنّه نبيّ. فالمراد بآبائهم الأوّلين الذين مضَوا قبلهم في زمن نوح عليه السلام. وقولهم المذكور هو الذي صدر عنهم في أواخر أمره عليه السلام، وهو المناسب لِما بعده مِن حكاية دعائه عليه السلام، وقولِهم: ﴿إِنۡ هُوَ﴾ أي: ما هو ﴿إِلَّا رَجُلُۢ بِهِۦ جِنَّةٞ﴾ أي: جنون، أو جِنّ يخبلونه، ولذلك يقول ما يقول، ﴿فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ﴾ أي: احتملوه واصبروا عليه وانتظروا ﴿حَتَّىٰ حِينٖ﴾ لعلّه يُفيق ممّا فيه؛ محمولٌ حينئذ على ترامي أحوالهم في المكابرة والعناد، وإضرابِهم عمّا وصفوه عليه السلام به مِن البشريّة وإرادةِ التفضّل إلى وصفه عليه السلام

---

[1] س: عليه السلام.

[2] س: ذعوى.

بما ترى، وهم يعرفون أنّه عليه السلام أرجح الناس عقلًا وأرزَنُهم قولًا. وعلى الأوّل على تناقض مقالاتهم الفاسدة، قاتلهم الله أنّى يؤفكون.

﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ۝٢٦﴾

﴿قَالَ﴾ استئناف مبنيّ على سؤال نشأ مِن حكاية كلام الكفرة، كأنّه قيل: فماذا قال عليه السلام بعدما سمع منهم هذه الأباطيل؟ فقيل: قال لمّا رآهم قد أصرّوا على الكفر والتكذيب، وتمادَوا في الغواية والضلال حتّى يَئِس مِن إيمانهم بالكلّيّة، وقد أُوحِي إليه: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود، ٣٦/١١]: / ﴿رَبِّ ٱنصُرْنِي﴾ بإهلاكهم بالمرّة، فإنّه حكاية إجماليّة لقوله عليه السلام: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾... إلخ [نوح، ٢٦/٧١]. [١٣٦ظ]

﴿بِمَا كَذَّبُونِ﴾ أي: بسبب تكذيبهم إيّاي، أو بدلَ تكذيبهم.

﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا تُخَـٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ۝٢٧ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۝٢٨﴾

﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ﴾ عند ذلك ﴿أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ﴾ ﴿أَن﴾ مفسِّرة لِما في الوحي مِن معنى القول. ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ ملتبسًا بحفظنا وكلاءتنا، كأنّ معه عليه السلام منه عزّ وعلا حُفّاظًا وحرّاسًا يكلئونه بأعينهم مِن التعدّي، أو مِن الزيغ في الصنعة. ﴿وَوَحْيِنَا﴾ وأمرِنا وتعليمِنا لكيفيّة صنعها.

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ لترتيب مضمون ما بعدها على تمام صنع الفُلك. والمراد بـ"الأمر" العذابُ كما في قوله تعالى: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [هود، ٤٣/١١]، لا الأمرُ بالركوب كما قيل،[١] وبمجيئه كمالُ اقترابه أو ابتداءُ ظهوره. أي: إذا جاء إثرَ تمام الفُلك عذابُنا.

---

[١] قاله البيضاوي في أنوار التنزيل، ٨٦/٤.

وقوله تعالى: ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ عطف بيان لمجيء الأمر. رُوي أنّه قيل له عليه السلام: «إذا فار الماء مِن التنّور اركب أنت ومَن معك»، وكان تنّورَ آدمَ عليه السلام، فصار إلى نوح عليه السلام، فلمّا نبع منه الماءُ أخبرَته امرأته فركبوا.[١] واختُلِف في مكانه، فقيل: كان في مسجد الكوفةِ، أي: في موضعه عن يمين الداخل مِن باب كِندةَ اليومَ. وقيل: كان في عين وردة مِن الشام. وقد مرّ تفصيله في تفسير سورة هود عليه السلام.[٢]

﴿فَٱسْلُكْ فِيهَا﴾ أي: أَدْخِل فيها، يقال: "سَلَكَ فيه"، أي: دَخَل فيه، و"سَلَكَه فيه"، أي: أَدخَله[٣] فيه، ومنه قوله تعالى: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴾ [المدثر، ٤٢/٧٤].

﴿مِن كُلٍّ﴾ أي: مِن كلّ أمّة ﴿زَوْجَيْنِ﴾ أي: فَردين مزدَوجين، كما يُعرِب عنه قوله تعالى: ﴿ٱثْنَيْنِ﴾ فإنّه نصّ في الفردين دون الجمعَين أو الفريقَين. وقُرئ بالإضافة[٤] على / أنّ المفعول ﴿ٱثْنَيْنِ﴾، أي: مِن كلِّ أُمّتَيْ زوجين، وهما أمّة الذكر وأمّة الأنثى، كالجِمال والنُّوق والحُصُن والرِّماك. وهذا صريح في أنّ الأمر كان قبل صنعة الفُلك، وفي سورة هود: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ﴾ [هود، ٤٠/١١]، فالوجه أن يُحمل إمّا على أنّه حكايةٌ لأمرٍ آخر تنجيزيّ ورَد عند فوران التنّور الذي نِيط به الأمر التعليقي اعتناءً بشأن المأمور به، أو على أنّ ذلك هو الأمر السابق بعينه، لكن لمّا كان الأمر التعليقي قبل تحقّق المعلّق به في حقّ إيجاب المأمور به بمنزلة العدم جُعِل كأنّه إنّما حدث عند تحقّقه، فحُكِي على صورة التنجيز، وقد مرّ في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ [البقرة، ٣٤/٢].

[١٣٧و]

﴿وَأَهْلَكَ﴾ منصوب بفعل معطوف على ﴿فَٱسْلُكْ﴾، لا بالعطف على ﴿زَوْجَيْنِ﴾ أو ﴿ٱثْنَيْنِ﴾ على القراءتين؛ لأدائه إلى اختلال المعنى، أي: واسلك أهلَك، والمراد به امرأته وبنوه. وتأخير الأمر بإدخالهم عمّا ذُكر مِن إدخال الأزواج فيها لكونه عريقًا فيما أُمِر به مِن الإدخال، فإنّه محتاج إلى مُزاولة الأعمال منه عليه السلام؛

---

[١] الكشّاف للزمخشري، ١٨٣/٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٨٦/٤. وانظر: جامع البيان للطبري، ٤٠٤/١٢ (هود، ٤٠/١١).

[٢] هود، ٤٠/١١.

[٣] س: أدخلته.

[٤] قرأ بها جميع القرّاء العشر غير حفص عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٢٨٨/٢.

بل إلى معاونةٍ مِن أهله وأتباعه. وأمّا هم فإنّما يدخلونها باختيارهم بعد ذلك، ولأنّ في المؤخَّر ضرب تفصيل بذِكر الاستثناء وغيره، فتقديمه يؤدّي إلى الإخلال بتجاوب أطراف النظم الكريم.

﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾ أي: القولُ بإهلاك الكفرة، وإنّما جيء بـ"على" لكون السابق ضارًّا، كما جيء باللام في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ [الأنبياء، ١٠١/٢١] لكونه نافعًا.

﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟﴾ بالدعاء لإنجائهم ﴿إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ تعليلِ للنهي، أو لِما يُنبئ عنه مِن عدم قبول الدعاء، أي: إنّهم مَقضيّ عليهم بالإغراق لا محالةَ لظلمهم بالإشراك وسائر المعاصي. ومَن هذا شأنه لا يُشفع له / ولا يُشفَّع فيه، كيف لا، وقد أُمر بالحمد على النجاة منهم بهلاكهم بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ﴾ أي: مِن أهلك وأشياعك ﴿عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ على طريقة قوله تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام، ٤٥/٦]. [١٣٧ظ]

﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾

﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى﴾ في السفينة أو منها ﴿مُنزَلًا مُّبَارَكًا﴾ أي: إنزالًا، أو موضعَ إنزالٍ يستتبع خيرًا كثيرًا. وقُرئ: "مَنزِلًا"،[١] أي: موضعَ نزولٍ. ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ أمر عليه السلام بأن يُشفع دعاءه ما يطابقه مِن ثنائه عزّ وجلّ توسّلًا به إلى الإجابة. وإفرادُه عليه السلام بالأمر مع شركة الكلّ في الاستواء والنجاة لإظهار فضله عليه السلام والإشعار بأنّ في دعائه وثنائه مندوحة عمّا عداه.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾﴾

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ الذي ذُكر ممّا فُعِل به عليه السلام وبقومه ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ جليلةً يستدِلّ بها أولو[٢] الأبصار، ويعتبر بها ذَوُو الاعتبار. ﴿وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ ﴿إِن﴾ مخفّفة

---

[١] قرأ بها أبو بكر شعبة. النشر لابن الجزري، ٣٢٨/٢. [٢] م: أولوا.

مِن "إنّ"، و"اللام" فارقة بينها وبين النافية. وضمير الشأن محذوف، أي: وإنّ الشأن كنّا مصيبين قومَ نوح ببلاء عظيم وعقاب شديد، أو مختبرين بهذه الآيات عبادَنا لننظر مَن يعتبر ويتذكّر، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَد تَّرَكۡنَٰهَآ ءَايَةٗ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾ [القمر، ١٥/٥٤].

﴿ثُمَّ أَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قَرۡنًا ءَاخَرِينَ ٣١﴾

﴿ثُمَّ أَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ أي: مِن بعد إهلاكهم ﴿قَرۡنًا ءَاخَرِينَ﴾ هم عاد حسبما رُوي عن ابن عبّاس رضي الله تعالى[1] عنهما،[2] وعليه أكثر المفسّرين، وهو الأوفق لِما هو المعهود في سائر السور الكريمة مِن إيراد قصّتهم إثرَ قصّة قوم نوح. وقيل: هم ثمود.

﴿فَأَرۡسَلۡنَا فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ٣٢﴾

﴿فَأَرۡسَلۡنَا فِيهِمۡ﴾ جُعِلوا موضعًا للإرسال كما في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ أَرۡسَلۡنَٰكَ فِيٓ أُمَّةٖ﴾ [الرعد، ٣٠/١٣] ونحوِه، لا غايةً له كما في مثل قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا/ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ﴾ [الأعراف، ٥٩/٧]؛ للإيذانِ مِن أوّل الأمر بأنّ مَن أُرسل إليهم لم يأتهم مِن غير مكانهم؛ بل إنّما نشأ فيما بين أظهرهم، كما يُنبئ عنه قوله تعالى: ﴿رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ﴾، أي: مِن جملتهم نسبًا، فإنّهما عليهما السلام كانا منهم. [١٣٨و]

و﴿أَنِ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ مفسِّرة لـ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾ لتضمّنه معنى القول، أي: قلنا لهم على لسان الرسول: اعبدوا الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ تعليل للعبادة المأمور بها، أو لِلأمرِ بها، أو لوجوب الامتثال به. ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي: عذابَه الذي يستدعيه ما أنتم عليه مِن الشرك والمعاصي. والكلام في العطف كالذي مرّ في قصّة نوح عليه السلام.

﴿وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَتۡرَفۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يَأۡكُلُ مِمَّا تَأۡكُلُونَ مِنۡهُ وَيَشۡرَبُ مِمَّا تَشۡرَبُونَ ٣٣﴾

---

[1] س - تعالى.

[2] المؤمنون، ٢٣/٢٣.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ﴾ حكاية لقولهم الباطل إثرَ حكاية القول الحقّ الذي ينطق به حكايةُ إرسال الرسول بطريق العطف، على أنّ المراد حكايةُ مطلق تكذيبهم له عليه السلام إجمالًا، لا حكايةُ ما جرى بينه عليه السلام وبينهم مِن المحاورة والمقاولة تفصيلًا حتّى يُحكى بطريق الاستئناف المبنيّ على السؤال، كما يُنبئ عنه ما سيأتي مِن حكاية سائر الأمم، أي: وقال الأشراف مِن قومه: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ في محلّ الرفع على أنه صفة لـ﴿ٱلْمَلَأُ﴾، وُصِفوا بذلك ذمًّا لهم، وتنبيهًا على غلوّهم في الكفر. وتأخيره مِن ﴿قَوْمِهِ﴾ لعطف قوله تعالى: ﴿وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ وما عُطف عليه على الصلة الأولى، أي: كذّبوا بلقاء ما فيها مِن الحساب والثواب والعقاب، أو بمَعادهم إلى الحياة الثانية بالبعث.

﴿وَأَتْرَفْنَٰهُمْ﴾ ونعّمناهم ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بكثرة الأموال والأولاد، أي: قالوا لأعقابهم مُضِلّين لهم: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ أي: في الصفات والأحوال. وإيثارُ ﴿مِّثْلُكُمْ﴾ على "مِثلنا" للمبالغة في تهوين أمره عليه السلام وتوهينه.

﴿يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ تقرير للمماثلة. و﴿مَا﴾ خبريّة. / والعائد إلى الثاني منصوب محذوف، أو مجرور قد حُذف مع الجارّ لدلالة ما قبله عليه. [١٣٨ظ]

﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾

﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ﴾ أي: فيما ذُكر مِن الأحوال والصفات، أي: إن امتثلتم بأوامره ﴿إِنَّكُمْ إِذًا﴾ أي: على تقدير الاتّباع ﴿لَّخَٰسِرُونَ﴾ عقولَكم، ومغبونون في آرائكم، حيث أذللتم أنفسكم. انظر كيف جعلوا اتّباعَ الرسول الحقّ الذي يوصلهم إلى سعادة الدارين خُسرانًا دون عبادة الأصنام التي لا خسرانَ وراءها، قاتلهم الله أنّى يُؤفكون.

و﴿إِذًا﴾ واقع بين اسم ﴿إِنَّ﴾ وخبرها لتأكيد مضمون الشرط. والجملة جواب لقسَم محذوف قبل ﴿إن﴾ الشرطيّة المصدّرة باللام الموطّئة. أي: وبالله لئن أطعتم بشرًا مثلكم إنّكم إذًا لخاسرون.

﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ۝٣٥﴾

﴿أَيَعِدُكُمْ﴾ استئناف مسوق لتقرير ما قبله مِن زجرهم عن اتّباعه عليه السلام بإنكار وقوع ما يدعوهم إلى الإيمان به واستبعاده. ﴿أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ﴾ بكسر الميم، مِن "مات يَمات". وقُرئ بضمّها،[1] مِن "مات يَموت". ﴿وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا﴾ نخِرةً مجرّدةً عن اللحوم والأعصاب، أي: كان بعض أجزائكم مِن اللحم ونظائره ترابًا، وبعضُها عظامًا. وتقديم التراب لعَراقته في الاستبعاد، وانقلابِه مِن الأجزاء البادية. أو كان متقدِّموكم ترابًا صِرفًا، ومتأخِّروكم عظامًا.

وقوله تعالى: ﴿أَنَّكُم﴾ تأكيد للأوّل لطول الفصل بينه وبين خبره الذي هو قوله تعالى: ﴿مُّخْرَجُونَ﴾ أي: مِن القبور أحياءً كما كنتم. وقيل: ﴿أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ﴾ مبتدأ، و﴿إِذَا مِتُّمْ﴾ خبره، على معنى إخراجُكم إذا مِتّم، ثمّ أُخبر بالجملة عن ﴿أَنَّكُم﴾. وقيل: رُفع ﴿أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ﴾ بفعل هو جزاء الشرط، كأنّه قيل: إذا متّم وقع إخراجكم، ثمّ أُوقِعت الجملة الشرطيّة خبرًا عن ﴿أَنَّكُم﴾. والذي يقتضيه جزالة النظم الكريم هو الأوّل. وقُرئ: "أَيَعِدُكُمْ إِذَا مِتُّمْ"... إلخ.

﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ۝٣٦﴾

[١٣٩و] / ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ﴾ تكرير لتأكيد البعد، أي: بَعُد الوقوعُ أو الصحّة ﴿لِمَا تُوعَدُونَ﴾. وقيل: "اللام" لبيان المستبعَد ما هو، كما في ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ [يوسف، ٢٣/١٢]، كأنّهم لمّا صوّتوا بكلمة الاستبعاد قيل: لماذا هذا الاستبعاد؟ فقيل: لِمَا توعدون. وقيل: ﴿هَيْهَاتَ﴾ بمعنى البعد، وهو مبتدأ خبره ﴿لِمَا تُوعَدُونَ﴾. وقُرئ بالفتح منوّنًا[2] للتنكير، وبالضمّ منوّنًا[3] على أنّه جمع "هَيهة"، وغيرَ منوّن[4]

---

[1] قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر وأبو جعفر وشعبة. النشر لابن الجزري، ٢٤٣/٢.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعرج. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٣٤. وعن هارون عن أبي عمرو في البحر المحيط لأبي حيّان، ٥٦٠/٧.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حَيوة. البحر المحيط لأبي حيّان، ٥٦١/٧.

[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حَيوة. البحر المحيط لأبي حيّان، ٥٦١/٧.

تشبيهًا بـ"قَبْلُ"، وبالكسر على الوجهين،[١] وبالسكون[٢] على لفظ الوقف، وإبدالِ التاء هاءً.

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ٣٧﴾

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾ أصله: إنِ الحياة إلّا حياتنا. فأقيمَ الضمير مُقام الأولى لدلالة الثانية عليها حذرًا مِن التكرار، وإشعارًا بإغنائها عن التصريح، كما في "هي النفس تتحمّل ما حُمّلت"، و"هي العربُ تقول ما شاءت". وحيث كان الضمير بمعنى الحياة الدالّة على الجنس كانت ﴿إِنْ﴾ النافية بمنزلة "لا" النافية للجنس.

وقوله تعالى: ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ جملة مفسّرة لِما ادّعَوه مِن أنّ الحياة هي الحياة الدنيا، أي: يموت بعضنا ويولد بعض إلى انقراض العصر، ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ بعد الموت.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ٣٨﴾

﴿إِنْ هُوَ﴾ أي: ما هو ﴿إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ فيما يدّعيه مِن إرساله، وفيما يَعِدنا مِن أنّ الله تعالى يبعثنا، ﴿وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ﴾ بمُصدّقين فيما يقوله.

﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ٣٩﴾

﴿قَالَ﴾ أي: هود عليه السلام عند يأسه مِن إيمانهم بعد ما سلك في دعوتهم كلّ مَسلك متضرّعًا إلى الله عزّ وجلّ: ﴿رَبِّ ٱنصُرْنِي﴾ عليهم، وانتقم لي منهم ﴿بِمَا كَذَّبُونِ﴾ أي: بسبب تكذيبهم إيّاي وإصرارِهم عليه.

﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ٤٠﴾

﴿قَالَ﴾ تعالى إجابةً لدعائه وعِدَةً بالقبول: ﴿عَمَّا قَلِيلٍ﴾ أي: عن زمانٍ قليلٍ، و﴿مَا﴾ مزيدة بين الجارّ والمجرور لتأكيد معنى القِلّة، كما زيدت في قوله تعالى:

---

[١] بالكسر مِن غير تنوين قرأ أبو جعفر المدني. **النشر** لابن الجزري، ٣٢٨/٢. وبالكسر مع التنوين قراءة شاذّة، مرويّة عن خالد بن إياس. **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٥٦١/٧.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن خارجة بن مصعب عن أبي عمرو والأعرج وعيسى. **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٥٦١/٧.

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران، ١٥٩/٣]، /. أو نكرة موصوفة أي: عن شيء قليل [١٣٩ظ] ﴿لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ﴾ على ما فعلوا مِن التكذيب، وذلك عند معاينتهم للعذاب.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾﴾

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ لعلَّهم حين أصابتهم الريح العقيم أُصِيبوا في تضاعيفها بصيحة هائلة أيضًا. وقد رُوي أنّ شدّاد بن عاد[١] حين أتمّ بناءَ إرَمَ سار إليها بأهله، فلمّا دنا منها بعث الله تعالى[٢] عليهم صيحة مِن السماء، فهلكوا.[٣] وقيل: الصيحة نفس العذاب والموت. وقيل: هي العذاب المصطَلم، قال قائلهم:

صاح الزمانُ بآل بَرْمَكَ صيحةً   خرّوا لشدّتها على الأذقانِ[٤]

﴿بِٱلْحَقِّ﴾ متعلّق بـ"الأخذ"، أي: بالأمر الثابت الذي لا دفاع له، أو بالعدل مِن الله تعالى، أو بالوعد الصِّدق. ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً﴾ أي: كغُثاء السيل، وهو حَميله. ﴿فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ إخبار أو دعاء. و﴿بُعْدًا﴾ مِن المصادر التي لا يكاد يُستعمل ناصبُها. والمعنى: بَعُدوا بُعدًا، أي: هلكوا. و"اللام" لبيان مَن قيل له: ﴿بُعْدًا﴾. ووضع الظاهر موضع الضمير للتعليل.

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾﴾

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ أي: بعدِ هلاكهم ﴿قُرُونًا ءَاخَرِينَ﴾ هم قوم صالح ولوط وشعيب عليهم السلام وغيرِهم.

---

[١] هو شدّاد بن عاد بن ملطاط بن جشم بن عبد شمس بن وائل بن حِمير، مِن قحطان، ملِك يَماني جاهلي قديم مِن ملوك الدولة الحِميريّة. اتّفقت عليه كلمة أولي الرأي مِن حِمير وقحطان بعد وفاة النعمان بن يعفر، فولّوه المُلك في صنعاء، فكان حازمًا مِغوارًا، غزا البلاد إلى أن بلغ أرمينيّة، وعاد إلى الشام فزحف إلى المغرب، يبني المدن، ويتّخذ المصانع. ولمّا رجع إلى اليمن مضى إلى مأرب فبنى فيه قَصر "إرَم" بجانب السدّ. انظر: التيجان في ملوك حِمير للمعافري، ص ٧٤؛ والأعلام للزركلي، ١٥٨/٣.

[٢] س - تعالى.

[٣] الكشّاف للزمخشري، ٧٤٨/٤ (الفجر، ٧/٨٩)؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٠٩/٥ (الفجر، ٧/٨٩).

[٤] بغير نسبة في الدرّ الفريد للمستعصمي، ٥٤/٧؛ واللباب لابن عادل، ٢١٥/١٤.

﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾﴾

﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا﴾ أي: ما تتقدّم أمّةٌ مِن الأُمم المهلَكة الوقتَ الذي عُيِّن لهلاكهم، أي: ما تهلِك أمّة قبل مجيء أجلها، ﴿وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ ذلك الأجل ساعةً.

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا﴾ عطفٌ على ﴿أَنشَأْنَا﴾،[1] لكن لا على معنى أنّ إرسالهم متراخٍ مِن إنشاء القرون المذكورة جميعًا؛ بل على معنى أنّ إرسال كلّ رسول متأخّر عن إنشاء قَرن مخصوص بذلك الرسول، كأنّه قيل: ثمّ أنشأنا مِن بعدهم قرونًا آخرين قد أرسلنا إلى كلّ قرن منهم رسولًا خاصًّا به. والفَصل بين المعطوفين بالجملة المعترِضة الناطقة بعدم تقدّم الأمم أجلَها المضروبَ لهلاكهم للمسارعة إلى بيان هلاكهم على وجهٍ إجمالي.

/ ﴿تَتْرَا﴾ أي: متواترين واحدًا بعد واحد، مِن "الوتر"، وهو الفرد. و"التاء" بدل مِن الواو، كما في "تَوْلَج"[2] و"تَيْقُور".[3] والألف للتأنيث باعتبار أنّ الرسل جماعة. وقُرئ بالتنوين[4] على أنّه مصدر بمعنى الفاعل وقع حالًا. [١٤٠و]

وقوله تعالى: ﴿كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ﴾ استئناف مبيّن لمجيء كلّ رسول لأمّته، ولِما صدر عنهم عند تبليغ الرسالة. والمراد بالمجيء إمّا التبليغ وإمّا حقيقة المجيء للإيذان بأنّهم كذّبوه في أوّل الملاقاة. وإضافة "الرسول" إلى "الأمّة" مع إضافة كلّهم فيما سبق إلى نون العظمة لتحقيق أنّ كلّ رسول جاءَ أمّته الخاصّة به، لا أنّ كُلّهم جاءوا كلّ الأمم، وللإشعار بكمال شناعتهم وضلالهم

---

[1] المؤمنون، ٤٢/٢٣.

[2] التَوْلج: الكِناس الذي يتّخذه الوحش في أصول الشجر، الأصل: "وَوْلَج"، فقُلبت الواو تاءً. لسان العرب لابن منظور، «دلج».

[3] التَيقور: الوَقار، وأصله "وَيقور،" قلبت الواو تاء. الصحاح للجوهري، «وقر».

[4] قرأ بها أبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٣٢٨/٢.

حيث كذّبت كلّ واحدة منهم رسولَها المعيّن لها. وقيل: لأنّ الإرسال لائِق بالمرسِل، والمجيءَ بالمرسَل إليهم.

﴿فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا﴾ في الهلاك حسبما تبع بعضُهم بعضًا في مباشرة أسبابه التي هي الكفر والتكذيب وسائر المعاصي. ﴿وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَحَادِيثَ﴾ لم يبقَ منهم إلّا حكايات يَعتبر بها المعتبِرون. وهو اسم جمع للحديث، أو جمعُ "أُحدُوثة"، وهي ما يُتحدّث به تَلهّيًا، كـ"أعاجيب" جمع "أُعجُوبة"، وهي ما يُتعجّب منه، أي: جعلناهم أحاديثَ يُتحدّث بها تلهّيًا وتعجّبًا.

﴿فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ اقتُصِر ههنا على وصفهم بعدم الإيمان حسبما اقتُصِر على حكاية تكذيبهم إجمالًا. وأمّا القَرن الأَوّلون فحيث نُقل عنهم ما مرّ مِن الغلوّ وتجاوز الحدّ في الكفر والعدوان وُصِفوا بالظلم.

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَـٰرُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾﴾

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَـٰرُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ هي الآيات التسع مِن اليد والعصا[1] والجراد والقمّل والضفادع والدم والسنين[2] ونقص الثمرات والطاعون. ولا مساغ لِعَدِّ "فَلْق البحر" منها، إذ المراد هي الآيات التي كذّبوها واستكبروا عنها.

﴿وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ﴾ أي: حجّة واضحة ملزِمةٍ للخصم، وهي إمّا العصا، وإفرادُها بالذكر مع اندراجها في الآياتِ لِما أنّها أمّ آياته عليه السلام وأولاها، وقد تعلّقت بها معجزات شتّى مِن انقلابها ثعبانًا وتلقّفِها لِما أفِكته السحرة، حسبما فُصّل في تفسير سورة طه.[3] وأمّا التعرّض لانفلاق البحر وانفجار العيون مِن الحَجر بضربها وحِراستها وصيرورتها شمعة وشجرة خضراء مثمرة / ودلوًا ورِشاءً وغير ذلك ممّا ظهر منها مِن قبلُ ومِن بعدُ في غير مَشهد فرعونَ وقومه[4] فغير ملائم لمقتضى المقام. [١٤٠ظ]

[1] س + والطوفان [زِيد في الهامش بعلامة "صح"].
[2] م ط س - والسنين ["صح" في هامش م].
[3] طه، ٢٠/٢٠؛ طه، ٦٩/٢٠.
[4] الكشّاف للزمخشري، ١٨٩/٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٨٨/٤.

وإمّا نفس الآيات كقوله:

إلى المَلِك القَرم وابنِ الهُمام... إلخ[١]

عُبّر عنها بذلك على طريقة العطف تنبيهًا على جمعها لعنوانين جليلين وتنزيلًا لتغايرهما منزلة التغاير الذاتي.

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾﴾

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ أي: أشرافِ قومه، خُصّوا بالذكر لأنّ إرسال بني إسرائيل مَنوط بآرائهم، لا بآراء أعقابهم، ﴿فَٱسْتَكْبَرُواْ﴾ عن الانقياد، وتمرّدوا، ﴿وَكَانُواْ قَوْمًا عَالِينَ﴾ متكبّرين متمرّدين.

﴿فَقَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾﴾

﴿فَقَالُوٓاْ﴾ عطفٌ على ﴿ٱسْتَكْبَرُواْ﴾،[٢] وما بينهما اعتراض مقرّر للاستكبار، أي: كانوا قومًا عادتهم الاستكبار والتمرّد، أي: قالوا فيما بينهم بطريق المناصَحة: ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾ ثُنّي "البشَرُ" لأنّه يُطلَق على الواحد، كقوله تعالى: ﴿بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم، ١٧/١٩]، كما يُطلَق على الجمع، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا﴾ [مريم، ٢٦/١٩]، ولم يُثَنَّ "المِثْلُ" نظرًا إلى كونه في حكم المصدر.

وهذه القَصص كما ترى تدلّ على أنّ مدار شُبَه المنكرين للنبوّة قياس حال الأنبياء على أحوالهم بناءً على جهلهم بتفاصيل شئون الحقيقة البشريّة، وتباين طبقات أفرادها في مراقي الكمال ومَهاوي النقصان، بحيث يكون بعضها في أعلى علّيّين، وهم المختصّون بالنفوس الزكيّة، المؤيَّدون بالقوّة القدسيّة، المتعلّقون لِصفاءِ جواهرهم بكِلا العالَمين الروحاني والجسماني، يَتلقَّون مِن جانب ويُلْقُون إلى جانب، ولا يَعوقهم التعلّق بمصالح الخلق عن التبتّل إلى جناب الحقّ، وبعضُها في أسفل سافلين، كأولئك الجهلة الذين هم كالأنعام؛ بل هم أضلّ سبيلًا.

---

[١] وفي هامش م: تمامه:

وليثُ الكتائب في المزدحَم

وهو بغير نسبة في معاني القرآن للفرّاء، ١٠٥/١؛ وخزانة الأدب للبغدادي، ٤٥١/١.

[٢] في الآية السابقة.

﴿وَقَوۡمُهُمَا﴾ يعنون بني إسرائيل ﴿لَنَا عَٰبِدُونَ﴾ أي: خادمون منقادون لنا كالعبيد، وكأنّهم قصدوا بذلك التعريضَ بشأنهما عليهما السلام وحطَّ رتبتهما العليّة عن منصب الرسالة مِن وجه آخر غيرِ البشريّة. و"اللام" في ﴿لَنَا﴾ متعلّقة بـ﴿عَٰبِدُونَ﴾، قُدّمت عليه رعايةً للفواصل، والجملةُ حال مِن فاعل ﴿نُؤۡمِنُ﴾ مؤكِّدة لإنكار الإيمان لهما بناءً على زعمهم الفاسد المؤسَّس على قياس الرياسة الدينيّة على الرياسات الدنيويّة الدائرة على التقدّم في نيل الحظوظ الدنيّة مِن المال والجاه، كدأب قريش حيث قالوا: ﴿لَوۡ كَانَ خَيۡرٗا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيۡهِ﴾ [الأحقاف، ١١/٤٦]، وقالوا: ﴿لَوۡلَا نُزِّلَ[١] هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف، ٣١/٤٣]، وجهلِهم بأنّ مناط الاصطفاء للرسالة هو السَّبق في حيازة ما ذكر مِن النعوت العليّة، وإحرازِ الملَكات السنيّة جِبِلّةً واكتسابًا.

﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡلَكِينَ ۝٤٨﴾

﴿فَكَذَّبُوهُمَا﴾ أي: فَتَمُّوا[٢] على تكذيبهما، وأصرّوا واستكبروا استكبارًا، ﴿فَكَانُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡلَكِينَ﴾ بالغرَق في بحر قلزم.

﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ ۝٤٩﴾

﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا﴾ أي: بعد إهلاكِهم وإنجاءِ بني إسرائيل مِن مَلَكتهم ﴿مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أي: التوراةَ. / وحيث كان إيتاؤه عليه السلام إيّاها لإرشاد قومه إلى الحقّ كما هو شأن الكتب الإلهيّة جُعِلوا كأنّهم أُوتُوها، فقيل: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ أي: إلى طريق الحقّ بالعمل بما فيها مِن الشرائع والأحكام، وقيل: أريدَ: آتينا قومَ موسى، فحُذف المضاف وأقيمَ المضاف إليه مُقامه، كما في قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ خَوۡفٖ مِّن فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِمۡ﴾ [يونس، ٨٣/١٠]، أي: مِن آل فرعونَ وملَئِهم. ولا سبيل إلى عود الضمير إلى "فرعونَ وقومِه"؛ لظهور أنّ التوراة إنّما نزلت بعد إغراقهم لبني إسرائيل. [١٤١و]

---

[١] م ط س: أنزل.

[٢] تَمّ على الأمر، وتَمَمَ عليه بإظهار الإدغام، أي: استمرّ عليه. لسان العرب لابن منظور، «تمم».

وأمّا الاستشهاد على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [القصص، ٤٣/٢٨]،[١] ممّا لا سبيل إليه ضرورةَ أن ليس المراد بـ﴿ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾ ما يتناول "قومَ فرعون"؛ بل مَن قبلَهم مِن الأمم المهلَكة خاصّةً، كقوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم لوط، كما سيأتي في سورة القصص.

﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ۝٥٠﴾

﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾ -وأيّةَ آيةٍ- دالّةً على عظيم قدرتنا بولادته منها مِن غير مَسيس بَشَر، فـ"الآية" أمرٌ واحد نُسِب إليهما، أو جعَلنا ابنَ مريم آيةً بأن تكلّم في المهد، فظهرت منه معجزات جمّة، وأمَّه آيةً بأنّها ولَدته مِن غير مَسيسٍ، فحُذفت الأولى لدلالة الثانية عليها.

والتعبير عنهما بما ذُكر مِن العنوانَين -وهما كونه عليه السلام ابنَها وكونُها أمّه عليه السلام- للإيذان مِن أوّل الأمر بحيثيّة كونهما آيةً، فإنّ نسبته عليه السلام إليها -مع أنّ النسَب إلى الآباء- دالّةٌ على أن لا أب له، أي: جعلنا ابن مريم وحدها مِن غير أن يكون له أب، وأمَّه التي وَلَدَتْه خاصّة مِن غير مشاركة الأب آيةً. وتقديمه عليه السلام لأصالته فيما ذُكر مِن كونه آية، كما أنّ تقديم أمّه في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء، ٩١/٢١] لأصالتها فيما[٢] نُسب إليها مِن الإحصان والنفخ.

﴿وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ﴾ أي: أرضٍ مرتفعة. قيل: هي إيليا أرضُ بيت المقدس، فإنّها مرتفعة، وإنّها كَبِدُ الأرض وأقرب الأرض إلى السماءِ بثمانية عشر مِيلًا على ما يُروى عن كعب.[٣] وقيل: دمشق وغوطَتها. وقيل: فِلسطين والرَّملة. وقيل: مصر، فإنّ قُراها على الرُّبَى. وقُرئ بكسر الراء[٤] وضمّها،[٥]

---

[١] انظر: الكشّاف للزمخشري، ١٨٩/٣؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٥٦٥/٧.

[٢] س: في ما.

[٣] جامع البيان للطبري، ٥٥/١٧؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٤٩/٧.

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس رضي الله عنهما وسعيد بن المسيّب ونصر بن عاصم والحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٣٥.

[٥] قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وحمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢٣٢/٢.

و"رُبَاوَةٍ" بالكسر[١] والضمّ.[٢]

[١٤١ظ] ﴿ذَاتِ قَرَارٍ﴾ مستقَرٍّ مِن أرض منبسطة / سهلة يستقرّ عليها ساكنوها. وقيل: ذاتِ ثمار وزروع لأجلها يستقرّ فيها ساكنوها. ﴿وَمَعِينٍ﴾ أي: وماءٍ معين؛ ظاهرٍ جارٍ، "فَعيل" مِن "مَعَنَ الماءُ" إذا جَرى، وأصله الإبعاد في المشي، أو مِن "الماعون"، وهو النفع؛ لأنّه نفّاع. أو "مفعول" مِن "عانَه" إذا أدركه بالعين، فإنّه لظهوره يدرَك بالعيون. وُصِفَ ماؤها بذلك للإيذان بكونه جامعًا لفنون المنافع مِن الشرب وسَقي ما يُسقَى مِن الحيوان والنبات بغير كُلفة، والتنزّهِ بمنظره المونِق.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٞ ۝٥١﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ حكاية لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم على وجه الإجمال لِما خوطب به كلُّ رسول في عصره، جيء بها إثرَ حكاية إيواء عيسى عليه السلام وأمِّه إلى الربوة إيذانًا بأنّ ترتيب مبادي التنعّم لم يكن مِن خصائصه عليه السلام؛ بل إباحة الطيّبات شرع قديم جرى[٣] عليه جميع الرسل عليهم السلام ووُصُّوا به، أي: وقلنا لكلّ رسول: كُلْ مِن الطيّبات واعمل صالحًا، فعُبِّر عن تلك الأوامر المتعدّدة المتعلّقة بالرسل بصيغة الجمع عند الحكاية إجمالًا للإيجاز. وفيه مِن الدلالة على بطلان ما عليه الرهابنة مِن رفض الطيّبات ما لا يخفى.

وقيل: حكاية لِما ذُكر لعيسى عليه السلام وأمِّه عند إيوائهما إلى الربوة ليقتديا بالرسل في تناوُل ما رُزِقا. وقيل: نداء وخطاب له، والجمع للتعظيم. وعن الحسن ومجاهد وقتادة والسدّي والكلبي رحمهم الله تعالى أنّه خطاب لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم وحدَه على دأب العرب في مخاطبة الواحد بلفظ الجمع.[٤] وفيه إبانة لفضله وقيامِه مقام الكلّ في حيازة كمالاتهم.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأشهب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٣٥.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي إسحاق. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٣٥.

٣ س: حرى.

٤ التفسير الوسيط للواحدي، ٢٩١/٣؛ اللباب لابن عادل، ٢٢٥/١٤.

و"الطيّبات" ما يُستطاب ويُستلذّ مِن مباحات المَأكل والفواكه حسبما ينبئ عنه سياق النظم الكريم، فالأمر للترفيه.

﴿وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًا﴾ أي: عملًا صالحًا، فإنّه المقصود منكم والنافع عند ربّكم. ﴿إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ مِن الأعمال الظاهرة والباطنة ﴿عَلِيمٞ﴾ فأجازيكم عليه.

﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ ٥٢﴾

﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ﴾ استئناف داخل فيما خوطب به الرسل عليهم السلام على الوجه المذكور، مَسوق لبيانِ أنّ ملّة الإسلام والتوحيد ممّا أُمِر به كافّة الرسل والأمم. وإنّما أشيرَ إليها بـ﴿هَٰذِهِۦٓ﴾ للتنبيه على كمال ظهور أمرها في الصحّة والسداد، وانتظامِها بسبب ذلك في سِلك الأمور المشاهَدة.

﴿أُمَّتُكُمۡ﴾ أي: ملّتكم وشريعتكم أيّها الرسل ﴿أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ أي: / ملّةً وشريعةً متّحدة في أصول الشرائع التي لا تتبدّل بتبدّل الأعصار. وقيل: ﴿هَٰذِهِۦٓ﴾ إشارة إلى الأمم المؤمنة للرسل، والمعنى: إنّ هذه جماعتكم جماعةً واحدةً متّفقةً على الإيمان والتوحيد في العبادة. [١٤٢و]

﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ﴾ مِن غير أن يكون لي شريك في الربوبيّة. وضمير المخاطَب فيه وفي قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُونِ﴾ -أي: في شَقّ العصا والمخالفة بالإخلال بمَواجب ما ذكر مِن اختصاص الربوبيّة بي- للرسل والأمم جميعًا على أنّ الأمر في حقّ الرسل للتهييج والإلهاب، وفي حقّ الأمم للتحذير والإيجاب. و"الفاء" لترتيب الأمر أو وجوبِ الامتثال به على ما قبله مِن اختصاص الربوبيّة به تعالى واتّحاد الأمّة، فإنّ كلًّا منهما موجِب للاتّقاء حتمًا.

وقُرِئ: "وَأَنَّ هَذِهِ" بفتح "الهمزة"[١] على حذف "اللام"، أي: ولِأنّ هذه أمّتكم أمّةً... وأنا ربّكم فاتّقون، أي: اتّقوا، فـ﴿ٱتَّقُونِ﴾ كما مرّ في قوله تعالى: ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ [البقرة، ٢/٤٠]. وقيل: على العطف على ﴿مَا﴾، أي:

---

١ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٣٢٨.

إنّي عليم بأنّ أمّتكم أمّة... إلخ. وقيل: على حذف فِعلٍ عاملٍ فيه، أي: واعلموا أنّ هذه أمّتكم... إلخ. وقُرئ: "وَأَنْ هَذِهِ"[١] على أنّها مخفّفة مِن "أنّ".

﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ٥٣﴾

﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم﴾ حكاية لِما ظهر مِن أمم الرسل بعدهم مِن مخالفة الأمر وشقّ العصا. والضمير لِما دلّ عليه الأمّة مِن أربابها، أو لها على التفسيرين. و"الفاء" لترتيب عصيانهم على الأمر لزيادة تقبيح حالهم، أي: تقطّعوا أمر دينهم مع اتّحاده، وجعلوه قِطعًا متفرّقة وأديانًا مختلفة.

﴿بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗا﴾ أي: قِطعًا، جمع "زَبور" بمعنى الفِرقة، ويؤيّده قراءة "زُبَرًا" بفتح "الباء"[٢] جمع "زُبرة"، وهو حال مِن ﴿أَمۡرَهُم﴾، أو مِن واو ﴿تَقَطَّعُوٓاْ﴾، أو مفعول ثان له، فإنّه متضمِّن لمعنى "جَعلوا". وقيل: كُتُبًا، فيكون مفعولًا ثانيًا، أو حالًا مِن ﴿أَمۡرَهُم﴾ على تقدير المضاف، أي: مثلَ زُبُرٍ. وقُرئ بتخفيف الباء،[٣] كـ"رُسْلٍ" في "رُسُل".

﴿كُلُّ حِزۡبِۭ﴾ مِن أولئك المتحزِّبين ﴿بِمَا لَدَيۡهِمۡ﴾ مِن الدين الذي اختاروه ﴿فَرِحُونَ﴾ مُعجَبون معتقِدون / أنّه الحقّ. [١٤٢ظ]

﴿فَذَرۡهُمۡ فِي غَمۡرَتِهِمۡ حَتَّىٰ حِينٍ ٥٤﴾

﴿فَذَرۡهُمۡ فِي غَمۡرَتِهِمۡ﴾ شُبِّه ما هم فيه مِن الجهالة بالماء الذي يغمُر القامةَ؛ لأنّهم مَغمورون فيها لاعبون بها. وقُرئ: "غَمَرَاتِهِمْ".[٤] والخطاب لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم. و"الفاء" لترتيب الأمر بالترك على ما قبله مِن كونهم فرحين بما لديهم، فإنّ انهماكهم فيما هم فيه وإصرارَهم عليه مِن مَخائل كونهم مطبوعًا على قلوبهم، أي: اتركهم على حالهم ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ هو حينُ قتلِهم،

---

١ قرأ بها ابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢/٣٢٨.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وأبي رجاء وأبي عمرو. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٣٥.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي عمرو. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٣٥.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن السلمي وأبي البرهسم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٣٥.

أو موتِهم على الكفر، أو عذابِهم، فهو وعيد لهم بعذاب الدنيا والآخرة، وتسليةٌ لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم، ونهيٌ له عن الاستعجال بعذابهم، والجزعِ مِن تأخيره. وفي التنكير والإبهام ما لا يخفى مِن التهويل.

﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ۝٥٦﴾

﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ﴾ أي: نعطيهم إيّاه ونجعله مدَدًا لهم. فـ﴿مَا﴾ موصولة، وقولُه تعالى: ﴿مِن مَّالٍ وَبَنِينَ﴾ بيان لها، وتقديم "المال" على "البنين" مع كونهم أعزّ منه قد مرّ وجهه في سورة الكهف،[١] لا خبرٌ لـ﴿أَنَّ﴾، وإنّما الخبر قوله تعالى: ﴿نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ على حذف الراجع إلى الاسم، أي: أيحسبون أنّ الذي نمدّهم به مِن المال والبنين نسارع به لهم فيما فيه خيرهم وإكرامهم؟ على أنّ "الهمزة" لإنكار الواقع واستقباحه.

وقوله تعالى: ﴿بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ عطفٌ على مقدّر ينسحب عليه الكلام، أي: كلّا لا نفعل ذلك؛ بل هم لا يشعرون بشيء أصلًا، كالبهائم لا فطنةَ لهم ولا شعور؛ ليتأمّلوا ويعرفوا أنّ ذلك الإمداد استدراج واستِجرار إلى زيادة الإثم، وهم يحسبونه مسارعة لهم في الخيرات. وقُرئ: "يُمِدُّهُمْ"[٢] على الغيبة، وكذلك "يُسَارِعُ"،[٣] و"يُسْرِعُ"،[٤] ويحتمل أن يكون فيهما ضمير المُمَدِّ به. وقُرئ: "يُسَارَعُ" مبنيًّا للمفعول.[٥]

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝٥٧﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ استئناف مَسوق لبيان مَن له المسارعة

---

١ الكهف، ١٨/٤٦.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن كثير. **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٧/٥٦٧.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن السلمي وعبد الرحمن بن أبي بكرة. **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٧/٥٦٨.

٤ قراءة شاذّة، ذكرها ابن خالَوَيه عن بعضهم. **مختصر شواذّ القرآن** لابن خالويه، ص ١٠٠. وقال ابن الجوزي: «وقرأ أبو عمران الجوني وعاصم الجحدَري وابن السميفع: "يَسْرَعُ" بياء مرفوعة وسكون السين ونصب الراء مِن غير ألف». **زاد المسير** لابن الجوزي، ٣/٢٦٥. ورُوي كذلك في الشاذّ: "نُسْرِعُ" بالنون عن الحرّ النحوي. انظر: **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٣٦.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي بكرة. **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٧/٥٦٨.

في الخيرات إثرَ إقناط الكفّار عنها، وإبطالِ حسبانهم الكاذب، أي: مِن خوف عذابه حَذِرون.

﴿وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ۝٥٨﴾

﴿وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ المنصوبةِ والمُنزَلةِ ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ بتصديق مدلولها.

﴿وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ۝٥٩﴾

﴿وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾ شِركًا جليًا ولا خفيًا، ولذلك أُخِّر عن الإيمان بالآيات. والتعرّض لعنوان الربوبيّة في المواقع الثلاثة للإشعار بعلّيّتها للإشفاق والإيمان وعدم الإشراك.

﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ۝٦٠﴾

﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا﴾ أي: يُعطون ما أعطَوه مِن الصدقات. وقُرئ: "يَأْتُونَ مَا أَتَوْا"،[١] أي: يفعلون ما فعلوه مِن الطاعات. وأيًّا ما كان فصيغة الماضي في الصلة الثانية للدلالة على التحقّق، / كما أنّ صيغة المضارع في الأولى للدلالة على الاستمرار. [١٤٣و]

﴿وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ حال مِن فاعل ﴿يُؤْتُونَ﴾ أو "يَأْتُونَ"، أي: يُؤتون ما آتَوه، أو يفعلون مِن العبادات ما فعلوه، والحالُ أنّ قلوبهم خائفة أشدّ الخوف ﴿أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ أي: مِن أنّ رجوعهم إليه[٢] عزّ وجلّ، على أنّ مناط الوجَل أن لا يُقبَل منهم ذلك، وأن لا يقع على الوجه اللائق، فيؤاخَذُوا به حينئذ، لا مجرّدَ رجوعهم إليه تعالى. وقيل: لأنّ مرجعهم إليه تعالى.

والموصولات الأربعة عبارةٌ عن طائفةٍ واحدةٍ مُتّصفةٍ بما ذُكِر في حيِّز صِلاتها مِن الأوصاف الأربعة، لا عن طوائفَ، كلُّ واحدةٍ منها متّصفةٌ بواحدِ

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن عائشة وابن عبّاس رضي الله عنهم وقتادة والأعمش والحسن والنخعي. انظر: شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٣٦؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٥٦٩/٧.

[٢] وفي هامش م: خبر لـ"أنّ". «منه».

مِن الأوصاف المذكورة، كأنّه قيل: إنّ الذين هم مِن خشية ربّهم مشفِقون، وبآيات ربّهم يؤمنون... إلخ. وإنّما كُرّر الموصول إيذانًا باستقلال كلّ واحدة مِن تلك الصفات بفضيلة باهرة على حِيالها، وتنزيلًا لِاستقلالها منزلةَ استقلال الموصوف بها.

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ٦١﴾

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ إشارة إليهم باعتبار اتّصافهم بها. وما فيه مِن معنى البعد للإشعار ببُعد رتبتهم في الفضل، أي: أولئك المنعوتون بما فُصِّل مِن النعوت الجليلة خاصّةً دون غيرهم ﴿يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ أي: في نَيل الخيرات التي مِن جملتها الخيرات العاجلة الموعودة على الأعمال الصالحة، كما في قوله تعالى: ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا وَحُسۡنَ ثَوَابِ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [آل عمران، ١٤٨/٣]، وقولِه تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ أَجۡرَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [العنكبوت، ٢٧/٢٩]، فقد أثبت لهم ما نُفي عن أضدادهم، خلا أنّه غُيّر الأسلوبُ حيث لم يُقَل: أولئك نسارع لهم في الخيرات؛ بل أُسنِد المسارعة إليهم إيماءً إلى كمال استحقاقهم لنيل الخيرات بمحاسن أعمالهم.

وإيثار كلمةِ ﴿فِي﴾ على كلمة "إلى" للإيذان بأنّهم متقلِّبون في فنون الخيرات، لا أنّهم خارجون عنها متوجِّهون إليها بطريق المسارعة، كما في قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ﴾ الآية [آل عمران، ١٣٣/٣].

﴿وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ / أي: إيّاها سابقون، و"اللام" لتقوية العمل كما في قوله تعالى: ﴿هُمۡ لَهَا عَٰمِلُونَ﴾ [المؤمنون، ٦٣/٢٣]، أي: ينالونها قَبل الآخرة، حيث عُجّلت لهم في الدنيا. وقيل: المراد بـ﴿ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ الطاعات. والمعنى: يَرغبون في الطاعات والعبادات أشدَّ الرغبة، وهم لأجلها فاعلون السبقَ، أو لأجلها سابقون الناسَ، والأوّل هو الأَولى. [١٤٣ظ]

﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ وَلَدَيۡنَا كِتَٰبٞ يَنطِقُ بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ٦٢﴾

﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَا﴾ جملة مستأنَفة سيقت للتحريض على ما وصف به "السابقون" مِن فعل الطاعات المؤدّي إلى نيل الخيرات ببيان سهولته،

وكونِه غيرَ خارج عن حدّ الوسع والطاقة، أي: عادتنا جارية على أن لا نكلّف نفسًا مِن النفوس إلّا ما في وسعها، على أنّ المراد استمرار النفي بمعونة المقام، لا نفيُ الاستمرار كما مرّ مرارًا.

أو للترخيص[1] فيما هو قاصر عن درجة أعمال أولئك الصالحين ببيان أنّه تعالى لا يكلّف عباده إلّا ما في وُسعهم، فإن لم يبلغوا في فعل الطاعات مراتب السابقين فلا عليهم بعد أن يبذلوا طاقتهم ويستفرغوا وُسعَهم. قال مقاتل: «مَن لم يستطع القيام فليصلّ قاعدًا، ومَن لم يستطع القعود فلْيُومِ إيماءً».[2]

وقوله تعالى: ﴿وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ﴾... إلخ تتمّة لِما قبله ببيان أحوال ما كُلِّفوه مِن الأعمال وأحكامها المترتّبة عليها مِن الحساب والثواب والعقاب، والمراد بـ"الكتاب" صحائف الأعمال التي يقرءونها عند الحساب حسبما يُعرِب عنه قوله تعالى: ﴿يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ﴾، كقوله تعالى: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية، ٢٩/٤٥]، أي: عندنا كتاب قد أُثبِت فيه أعمال كلّ أحد على ما هي عليه، أو أعمالُ السابقين والمقتصِدين جميعًا، لا أنّه أُثبت فيه أعمال الأوّلين، وأُهمل أعمال الآخرين، ففيه قَطع معذرتهم أيضًا.

وقوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ متعلّق بـ﴿يَنطِقُ﴾، أي: يُظهِر الحقّ المطابقَ للواقع على ما هو عليه ذاتًا ووصفًا، ويبيّنه للناظر كما يبيّنه النطق، ويُظهِره / للسامع، فيُظهِر هنالك جلائل أعمالهم ودقائقها، ويُرتِّبُ عليها أجزيتَها، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشرّ. [١٤٤و]

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ بيان لفضله تعالى وعدله في الجزاء إثرَ بيان لطفه في التكليف وكتب الأعمال، أي: لا يُظلَمون في الجزاء بنَقص ثواب أو بزيادة عذاب؛ بل يُجزَون بقدر أَعمالِهم التي كُلِّفوها، ونطقت بها صحائفها بالحقّ. وقد جُوّز أن يكون تقريرًا لِما قبله مِن التكليف وكتبِ الأعمال، أي: لا يُظلَمون بتكليف ما ليس في وُسعهم، ولا بعدم كَتب بعض أعمالهم التي مِن جملتها

---

[1] السياق: سيقت للتحريض... أو للترخيص...

[2] اللباب لابن عادل، ٢٣٥/١٤. وفي تفسير مقاتل، ١٦٠/٣: «﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ يقول: لا نُكلّف نفسًا مِن العمل إلّا ما أطاقت».

أعمال المقتصِدين بناءً على قصورها عن درجة أعمال السابقين؛ بل يُكتَب كلّ منها على مقاديرها وطبقاتها.

والتعبير عمّا ذُكر مِن الأمور بـ"الظلم" مع أنّ شيئًا منها ليس بظلمٍ على ما تقرّر مِن أنّ الأعمال الصالحة لا تُوجب أصل الثواب فضلًا عن إيجابِ مرتبةٍ معيّنةٍ منه حتّى يُعَدّ الإثابةُ بما دونها نقصًا، وكذلك الأعمال السيّئة لا تُوجب درجةً معيّنةً مِن العذاب حتّى يُعَدّ التعذيب بما فوقها زيادة، وكذا تكليفُ ما في الوُسع وكَتبُ الأعمال ليسا ممّا يجب عليه سبحانه حتّى يُعَدّ تركُهما ظلمًا لكمال تنزيه ساحة السبحان عنها بتصويرها بصورة ما يستحيل صدوره عنه تعالى وتسميتِها باسمه.

﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ إضراب عمّا قبله. والضمير للكفرة، لا للكلّ كما قبله، أي: بل قلوب الكفرة في غفلة غامرة لها مِن هذا الذي بيّن في القرآن مِن أنّ لديه تعالى[1] كتابًا ينطق بالحقّ، ويُظهِر لهم أعمالهم السيّئةَ على رءوس الأشهاد فيُجزَون بها، كما يُنبئ عنه ما سيأتي مِن قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾... إلخ [المؤمنون، ٦٦/٢٣]. وقيل: ممّا عليه أولئك الموصوفون بالأعمال الصالحة.

﴿وَلَهُمْ أَعْمَالٌ﴾ سيّئة كثيرة ﴿مِن دُونِ ذَٰلِكَ﴾ الذي ذُكر مِن كون قلوبهم في غفلة عظيمة ممّا ذُكر، / وهي فنونُ كفرهم ومعاصيهم التي مِن جملتها ما سيأتي مِن طعنهم في القرآن، حسبما يُنبئ عنه قوله تعالى: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ﴾ [المؤمنون، ٦٧/٢٣]. وقيل: متخطّية لِما وُصف به المؤمنون مِن الأعمال الصالحة المذكورة، وفيه أنّه لا مزيّة في وصف أعمالهم الخبيثة بالتخطّي للأعمال الحسنة للمؤمنين. وقيل: متخطّية عمّا هم عليه مِن الشرك،[2] ولا يخفى بُعده لعدم جريان ذكره. [١٤٤ظ]

---

[1] س - تعالى.

[2] أنوار التنزيل للبيضاوي، ٩١/٤.

﴿هُمۡ لَهَا عَٰمِلُونَ﴾ مستمرّون عليها، معتادون فعلها، ضارُّون بها، لا يكادون يَبرحونها.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذۡنَا مُتۡرَفِيهِم بِٱلۡعَذَابِ إِذَا هُمۡ يَجۡـَٔرُونَ ٦٤﴾

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذۡنَا مُتۡرَفِيهِم﴾ أي: متنعّميهم، وهم الذين أمدّهم الله تعالى بما ذُكر مِن المال والبنين، وحتّى مع كونها غايةً لأعمالهم المذكورة، مبدأٌ لِما بعدها مِن مضمون الشرطيّة، أي: لا يزالون يعملون أعمالهم إلى حيث إذا أخذنا رؤساءهم ﴿بِٱلۡعَذَابِ﴾ قيل: هو القتل والأسر يومَ بدرٍ، وقيل: هو الجوع الذي أصابهم حين دعا عليهم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بقوله: «اللّهمّ اشْدُدْ وَطأتَك على مُضَر، واجعلها عليهم سنين كسِنِي يوسف». فَقُحِطُوا حتّى أكلوا الكلابَ والجِيَفَ والعظامَ المحرَقة والأولاد.[1]

والحقّ أنّه العذاب الأخروي، إذ هو الذي يفاجِئون عنده الجُؤارَ، فيجابون بالردّ والإقناط عن النصر. وأمّا عذاب يوم بدر فلم يوجد لهم عنده جُؤار حسبما يُنبئ عنه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡعَذَابِ فَمَا ٱسۡتَكَانُواْ لِرَبِّهِمۡ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ [المؤمنون، ٧٦/٢٣]، فإنّ المراد بهذا العذاب ما جرى عليهم يوم بدر مِن القتل والأسر حتمًا.

وأمّا عذاب الجوع فإنّ أبا سفيان وإن تضرّع فيه إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لكن لم يَرُدَّ عليه بالإقناط، حيث رُوي أنّه عليه السلام قد دعا بكشفه فكُشِف عنهم ذلك.[2]

﴿إِذَا هُمۡ يَجۡـَٔرُونَ﴾ أي: فاجَئُوا الصراخ بالاستغاثة مِن الله عزّ وجلّ كقوله تعالى: ﴿فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ﴾ [النحل، ٥٣/١٦]، وهو جواب الشرط.

وتخصيص مترفيهم بما ذكر مِن الأخذ بالعذاب ومفاجأةِ الجُؤار مع عمومه لغيرهم أيضًا لغاية ظهور انعكاس حالهم وانتِكاس أمرهم، وكونِ ذلك

---

١ الكشف والبيان للثعلبي، ٥١/٧؛ اللباب لابن عادل، ٢٣٧/١٤. وهو في صحيح البخاري، ١٦٠/١ (٨٠٤)؛ ١٣١/٦ (٤٨٢١)؛ وصحيح مسلم، ٤٦٦/١ (٦٧٥)؛ ٢١٥٦/٤ (٢٧٩٨).

٢ انظر: جامع البيان للطبري، ٣٩/١٧؛ والمستدرك للحاكم، ٤٢٨/٢ (٣٤٨٨).

أشقُّ عليهم، ولأنّهم مع كونهم متمنِّعين مَحميّين بحماية غيرهم مِن المنَعة والحشَم حينَ لَقُوا ما لَقُوا مِن الحالة الفظيعة، فلَأن يلقاها مَن عداهم مِن الحُماة والخدَم أولى وأقدم.

﴿لَا تَجْـَٔرُواْ ٱلْيَوْمَۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ۝٦٥ قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ۝٦٦﴾

﴿لَا تَجْـَٔرُواْ ٱلْيَوْمَ﴾ على إضمار القول مسوقًا لردّهم وتبكيتهم وإقناطِهم عمّا علّقوا به أطماعَهم الفارغة مِن الإغاثة والإعانة مِن جهته تعالى. وتخصيص ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ بالذكر لتهويله والإيذانِ بتَفْويتِهم وقتَ الجُؤار. وقد جُوّز كونُه جواب الشرط، وأنت خبير بأنّ المقصود الأصلي في الجملة الشرطيّة هو الجواب، فيؤدّي ذلك إلى أن يكون مفاجأتُهم إلى الجؤار غيرَ مقصود أصلي.

[١٤٥و] / وقوله تعالى: ﴿إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ﴾ تعليل للنهي عن الجؤار ببيان عدم إفادته ونفعه، أي: لا يلحقكم مِن جهتنا نصرة تُنجّيكم ممّا دَهِمكم.

وقيل: لا تُغاثون ولا تُمنَعون منّا،[١] ولا يساعده سباق النظم الكريم؛ لأنّ جُؤارهم ليس إلى غيره تعالى حتّى يُرَدَّ عليهم بعدم منصوريّتهم مِن قِبَله، ولا سياقُه، فإنّ قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾... إلخ صريح في أنّه تعليل لِما ذكرنا مِن عدم لُحوق النصر مِن جهته تعالى بسبب كفرهم بالآيات، ولو كان النصر المنفيّ متوهَّمًا مِن الغير لَعُلِّل بعجزه وذُلّه، أو بعزّة الله تعالى وقوّته، أي: قد كانت آياتي تتلى عليكم في الدنيا ﴿فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ﴾ أي: تُعرِضون عن سماعها أشدَّ الإعراض، فضلًا عن تصديقها والعمل بها. و"النكوص": الرجوعُ قَهقَرى.

﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ۝٦٧﴾

﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ﴾ أي: بالبيت الحرام، أو بالحرَم، والإضمارُ قبل الذكر لاشتهار استكبارهم وافتخارهم بأنّهم خُدّامه وقُوّامه، أو بكتابي الذي عُبّر عنه بـ﴿آياتى﴾،

---

[١] الكشّاف للزمخشري، ١٩٤/٣.

على تضمين "الاستكبار" معنى التكذيب، أو لأنّ استكبارهم على المسلمين قد حدث بسبب استماعه.

ويجوز أن يتعلّق "الباء" بقوله تعالى: ﴿سَٰمِرًا﴾ أي: تسمُرون[١] بذكر القرآن وبالطعن فيه، حيث كانوا يجتمعون حول البيت بالليل يَسمُرون، وكانت عامّة سَمَرهم ذكر القرآن وتسميته سحرًا وشِعرًا. و"السامِر" كالحاضر في الإطلاق على الجمع. وقيل: هو مصدر جاء على لفظ الفاعل. وقُرئ: "سُمَّرًا"،[٢] و"سُمَّارًا".[٣]

وأن تتعلّق بقوله تعالى: ﴿تَهْجُرُونَ﴾ مِن "الهَجْر" بالفتح، بمعنى الهذيان أو الترك، أي: تَهذون في شأن القرآن، أو تتركونه، أو مِن "الهُجْر" بالضمّ، وهو الفُحش، ويؤيّده قراءةُ "تُهْجِرُونَ" مِن "أهجَر في مَنطِقه" إذا أفحش فيه. وقُرئ: "تُهَجِّرُونَ"[٤] مِن "هَجّر" الذي هو مبالغة في "هَجَرَ" إذا هذَى.

﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٦٨﴾

[١٤٥ظ] ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ / ٱلْقَوْلَ﴾ "الهمزة" لإنكار الواقع واستقباحه، و"الفاء" للعطف على مقدّر ينسحب عليه الكلام، أي: أَفَعلوا ما فعلوا مِن النكُوص والاستكبار والهَجر، فلم يتدبّروا القرآن ليعرفوا بما فيه مِن إعجاز النظم، وصحّةِ المدلول، والإخبارِ عن الغيب، أنّه الحقّ مِن ربّهم، فيؤمنوا به فضلًا عمّا فعلوا في شأنه مِن القبائح؟

و﴿أَمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ منقطعة، وما فيها مِن معنى "بل" للإضراب والانتقال عن التوبيخ بما ذُكر إلى التوبيخ بآخر، و"الهمزةِ" لإنكار الوقوع، لا لإنكار الواقع، أي: بل أجاءهُم مِن الكتاب ما لم يأتِ آباءهم الأوّلين حتّى استبدَعوه واستبعَدوه، فوقعوا فيما وقعوا فيه

---

١ ط س: يسمرون.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود وابن عبّاس رضي الله عنهم وأبي حَيوة وابن مُحَيصن وعِكرمة والزعفراني ومحبوب عن أبي عمرو. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٣٦؛ **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٥٧٢/٧.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس رضي الله عنهما وزيد بن علي وأبي رجاء وأبي نهيك. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٣٦؛ **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٥٧٢/٧.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس رضي الله عنهما وعكرمة. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٣٧.

مِن الكفر والضلال. يعني: أنّ مَجيء الكتب مِن جهته تعالى إلى الرسل عليهم السلام سنّة قديمة له تعالى لا يكاد يتسنّى إنكاره، وأنّ مَجيء القرآن على طريقته، فمِن أين ينكرونه؟

وقيل: أم جاءهم مِن الأمْن مِن عذابه تعالى ما لم يأتِ آباءَهم الأوّلين، كإسماعيل عليه السلام وأعقابِه مِن عدنان وقحطان ومُضَر وربيعة وقُسّ والحارث بن كعب[1] وأسد بن خزيمة وتميم بن مرّة وتبّع وضبّة بن أُدّ، فآمنوا به تعالى وبكتبه ورسله وأطاعوه.

﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُواْ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ۝٦٩﴾

﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُواْ رَسُولَهُمْ﴾ إضراب وانتقال مِن التوبيخ بما ذُكر إلى التوبيخ بوجه آخر. و"الهمزة" لإنكار الوقوع أيضًا، أي: بل أَلَم يعرفوه عليه السلام بالأمانة والصدق وحسن الأخلاق وكمال العلم مع عدم التعلّم مِن أحد وغيرِ ذلك ممّا حازه مِن الكمالات اللائقة بالأنبياء عليهم السلام.

﴿فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ أي: جاحدون بنبوّته، فجحودهم بها مترتّب على عدم معرفتهم بشأنه عليه السلام، ومِن ضرورة انتفاء المبنَى بطلانُ ما بُني عليه، أو فهم غير عارفين له عليه السلام، فهو تأكيد لِما قبله.

﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةُۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ۝٧٠﴾

﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌ﴾ انتقال إلى توبيخ آخر. و"الهمزة" لإنكار الواقع كالأُولى، أي: بل أيقولون: به جنّة، أي: جنون، مع أنّه أرجح الناس عقلًا، وأثقبُهم ذهنًا، وأتقنُهم رأيًا، وأوفرُهم رَزانةً؟

ولقد رُوعي في هذه التوبيخات الأربعة -التي اثنان منها متعلّقان بالقرآن، والباقيان به عليه السلام- الترقّي مِن الأدنى إلى الأعلى، حيث وُبّخوا أوّلًا

[1] بنو الحارث بن كعب بن سعد بن زيد بن مناة بن تميم، وهم بطن مِن تميم مِن العدنانيّة، قيل: هم أشدُّ العرب بأسًا، كانوا لا يَغزون ولا يُغزون. انظر: أنساب الأشراف للبلاذُري، ٥/ ٣٢، ونهاية الأرب للقلقشندي، ١/ ٤٧.

بعدم التدبّر، وذلك يتحقّق مع كون القول غيرَ مُتَعَرَّضٍ له بوجه مِن الوجوه، [١٤٦و] / ثمّ وُبّخوا بشيء لو اتّصف به القول لكان سببًا لعدم تصديقهم به، ثمّ وُبّخوا بما يتعلّق بالرسول صلّى الله عليه وسلّم مِن عدم معرفتهم به عليه السلام، وذلك يتحقّق بعدم المعرفة بخير ولا شرّ، ثمّ بما لو كان فيه عليه السلام ذلك لقدَح في رسالته عليه السلام.

﴿بَلۡ جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ﴾ إضراب عمّا يدلّ عليه ما سبق، أي: ليس الأمر كما زعموا في حقّ القرآن والرسول عليه السلام؛ بل جاءهم عليه السلام بالحقّ، أي: الصدقِ الثابتِ الذي لا مَحيد عنه أصلًا، ولا مدخل فيه للباطل بوجه مِن الوجوه.

﴿وَأَكۡثَرُهُمۡ لِلۡحَقِّ﴾ مِن حيث هو حقّ، أيّ حقّ كان، لا لهذا الحقّ فقط، كما يُنبئ عنه الإظهار في موقع الإضمار.

﴿كَٰرِهُونَ﴾ لِما في جِبِلّتهم مِن الزيغ والانحراف المناسب للباطل، ولذلك كرِهوا هذا الحقّ الأبلَج، وزاغوا عن الطريق الأنهَج. وتخصيص أكثرِهم بهذا الوصف لا يقتضي إلّا عدمَ كراهة الباقين لكلّ حقّ مِن الحقوق، وذلك لا ينافي كراهتهم لهذا الحقّ المبين، فتأمّل.

وقيل: تقييد الحكم بالأكثر لأنّ منهم مَن ترك الإيمان استِنكافًا مِن توبيخ قومه، أو لِقِلّة فِطنته، وعدمِ تفكّره، لا لكراهته الحقَّ. وأنت خبير بأنّ التعرّض لعدم كراهة بعضهم للحقّ مع اتّفاق الكلّ على الكفر به ممّا لا يساعده المقام أصلًا.

﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ بَلۡ أَتَيۡنَٰهُم بِذِكۡرِهِمۡ فَهُمۡ عَن ذِكۡرِهِم مُّعۡرِضُونَ ۝٧١﴾

﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾ استئناف مَسوق لبيان أنّ أهواءهم الزائغة التي ما كرهوا الحقَّ إلّا لعدم موافقته إيّاها مقتضيةٌ للطامّة، أي: لو كان ما كرهوه مِن الحقّ الذي مِن جملته ما جاء به عليه السلام موافقًا لأهوائهم الباطلة ﴿لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ وخرجت عن الصلاح والانتظام بالكلّيّة؛ لأنّ مناط النظام ليس إلّا ذلك. وفيه مِن تنويه شأن الحقّ والتنبيه على سموّ مكانه ما لا يخفى.

وأمّا ما قيل: لو اتّبع الحقّ الذي جاء به عليه السلام أهواءَهم وانقلب شِركًا لَجاء الله تعالى بالقيامة، ولَأهلَك العالَم ولم يؤخِّر،[1] ففيه أنّه لا يلائم فرضَ مَجيئه عليه السلام به، وكذا ما قيل: لو كان في الواقع إلهان؛[2] لا يناسب المقام. وأمّا ما قيل: لو اتّبع الحقّ أهواءهم لَخرَج / عن الإلهيّة،[3] ممّا لا احتمال له أصلًا. [١٤٦ظ]

﴿بَلْ أَتَيْنَـٰهُم بِذِكْرِهِمْ﴾ انتقال مِن تشنيعهم بكراهة الحقّ الذي به يقوم العالَم إلى تشنيعهم بالإعراض عمّا جُبِل عليه كلّ نفس مِن الرغبة فيما فيه خيرها. والمراد بـ"الذِّكر" القرآن الذي هو فخرهم وشرفهم، حسبما ينطق به قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف، ٤٣/٤٤]، أي: بل أتيناهم بفخرهم وشرفهم الذي كان يجب عليهم أن يُقبِلوا عليه أكملَ إقبال.

﴿فَهُمْ﴾ بما فعلوا مِن النكوص ﴿عَن ذِكْرِهِم﴾ أي: فخرهم وشرفهم خاصّةً ﴿مُعْرِضُونَ﴾ لا عن غير ذلك ممّا لا يوجِب الإقبال عليه والاعتناءَ به. وفي وضع الظاهر مَوضع الضمير مزيد تشنيع لهم وتقريعٍ. و"الفاء" لترتيب ما بعدها مِن إعراضهم عن ذكرهم على ما قبلها مِن إيتاء ذكرهم، لا لترتيب الإعراض على الإيتاء مطلقًا، فإنّ المستتبع لكون إعراضهم إعراضًا[4] عن ذكرهم هو إيتاء ذكرهم، لا الإيتاءُ مطلقًا.

وفي إسناد "الإتيان بالذكر" إلى "نون" العظَمة بعد إسناده إلى ضميره عليه السلام تنويهٌ لشأن النبيِّ صلّى الله عليه وسلّم، وتنبيهٌ على كونه بمثابة عظيمة منه عزّ وجلّ.

وفي إيراد القرآن الكريم عند نسبته إليه عليه السلام بعنوان "الحقّيّة" وعند نسبته إليه تعالى بعنوان "الذِّكر" مِن النكتة السرّيّة والحكمة العبقريّة ما لا يخفى؛ فإنّ التصريح بحقّيّته المستلزمةِ لحقّيّة مَن جاء به هو الذي يقتضيه مقام حكاية ما قاله المبطِلون في شأنه. وأمّا التشريف فإنّما يليق به تعالى، لا سيّما رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أحدُ المشرَّفين.

---

[1] **الكشّاف** للزمخشري، ١٩٦/٣.
[2] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٩٢/٤.
[3] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٩٢/٤.
[4] م ط س - إعراضًا. ["صح" في هامش م]

وقيل: المراد بـ"الذِّكر" ما تمنَّوه بقولهم: ﴿لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الصافات، ١٦٨/٣٧]. وقيل: وَعظُهم، وأُيّد ذلك بأنّه قُرئ: "بِذِكْرَاهُمْ".[١] والتشنيع على الأوّلين أشدّ، فإنّ الإعراض عن وعظهم ليس في مثابة إعراضهم عن شرفهم، أو عن ذكرهم الذي يتمنَّونه في الشناعة والقباحة.

﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ۝٧٢﴾

﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ﴾ انتقال مِن توبيخهم بما ذُكر مِن قولهم: ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌ﴾[٢] إلى التوبيخ بوجه آخر، كأنّه قيل: أم يزعمون أنّك تسألهم على أداء الرسالة ﴿خَرْجًا﴾ أي: جُعلًا، فلأجل ذلك لا يؤمنون بك.

وقوله تعالى: ﴿فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ﴾ أي: رزقُه في الدنيا وثوابُه في الآخرة، تعليل لنفي السؤال المستفاد مِن الإنكار، أي: لا تسألهم ذلك، فإنّ ما رزَقك الله تعالى في الدنيا والعُقبى خير لك مِن ذلك. وفي التعرّض لعنوان الربوبيّة مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام مِن تعليل الحكم وتشريفه عليه السلام ما لا يخفى.

و"الخَرْج" بإزاء "الدَّخْل"، يقال لكلّ ما تُخرجه إلى غيرك. و"الخَراج" غالب في الضريبة على الأرض. وقيل: "الخَرْج": ما تبرّعتَ به، و"الخَراج": ما لَزِمك. وقيل: "الخَرْج" أخصّ مِن "الخَراج"، ففي النظم الكريم إشعار بالكثرة واللزوم. وقُرئ: "خَرْجًا فَخَرْجُ"،[٣] و"خَرَاجًا فَخَرَاجُ".[٤] ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ تقرير لخيريّة خَراجه تعالى.

﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٧٣﴾

﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ تشهد العقول السليمة باستقامته، ليس فيه شائبة اعوجاج تُوهم اتّهامَهم لك بوجهٍ مِن الوجوه، ولقد ألزَمَهم الله عزّ وعلا[٥]

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى. البحر المحيط لأبي حيّان، ٥٧٥/٧.
[٢] المؤمنون، ٧٠/٢٣.
[٣] قرأ بها ابن عامر. النشر لابن الجزري، ٣١٥/٢.
[٤] قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٣١٥/٢.
[٥] س: تعالى.

وأزاحَ عِللهم في هذه الآيات، حيث حصر أقسام ما يؤدّي إلى / الإنكار والاتّهام، [١٤٧و] وبيّن انتفاء ما عدا كراهتهم للحقّ وقلّة فطنتهم.

﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ٧٤﴾

﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ﴾ وُصِفوا بذلك تشنيعًا لهم بما هم عليه مِن الانهماك في الدنيا، وزعمِهم أن لا حياة إلّا الحياة الدنيا، وإشعارًا بعلّة الحكم، فإنّ الإيمان بالآخرة وخوفَ ما فيها مِن الدواهي مِن أقوى الدواعي إلى طلب الحقّ وسلوك سبيله.

﴿عَنِ ٱلصِّرَٰطِ﴾ أي: عن جنس الصراط ﴿لَنَٰكِبُونَ﴾ لعادلون، فضلًا عن الصراط المستقيم، أو عن الصراط المستقيم الذي تدعوهم إليه. والأوّل أدلّ على كمال ضلالهم وغاية غوايتهم، لِما أنّه يُنبئ عن كون ما ذهبوا إليه ممّا لا يطلق عليه اسم الصراط ولو كان مُعوجًّا.

﴿وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّواْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ٧٥﴾

﴿وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ﴾ أي: قَحط وجَدب. ﴿لَّلَجُّواْ﴾ لتمادَوا ﴿فِى طُغْيَٰنِهِمْ﴾ إفراطِهم في الكفر والاستكبار وعداوة الرسول صلّى الله عليه وسلّم والمؤمنين ﴿يَعْمَهُونَ﴾ أي: عامِهين عن الهدى.

رُوي أنّه لمّا أسلم ثُمامة بن أثال الحنفي[1] ولحِق باليمامة، ومنع المِيرة[2] مِن أهل مكّة، وأخذَهم الله تعالى بالسنين حتّى أكلوا العِلهزَ،[3] جاء أبو سفيان إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقال له: «أنشُدك اللهَ والرحِم، ألستَ تزعم

---

١ هو ثُمامة بن أثال بن النعمان اليمامي، مِن بني حنيفة، أبو أمامة (ت. ١٢هـ/٦٣٣م). الصحابي، كان سيّدَ أهل اليمامة. ولمّا ارتدّ أهل اليمامة في فتنة مسيلِمة ثبت هو على إسلامه، ولحِق بالعلاء بن الحضرمي في جمع مِمّن ثبت معه، فقاتل معه المرتدّين مِن أهل البحرين، فلمّا ظفِروا اشترى ثُمامة حلّة كانت لكبيرهم، فرآها عليه ناس مِن بني قيس بن ثعلبة، فظنّوا أنّه هو الذي قتله وسلبه، فقتلوه. انظر: **الإصابة** لابن حجر، ٥٢٥/١؛ **والأعلام** للزركلي، ١٠٠/٢.

٢ المِيرة، بالكسر: جَلب الطعام. **القاموس المحيط** للفيروزابادي، «مير».

٣ العَلهَز: الوبَر والدَّم. انظر: **جامع البيان** للطبري، ٣٩/١٧؛ والمستدرك للحاكم، ٤٢٨/٢ (٣٤٨٨).

أنّك بُعِثت رحمةً للعالمين؟» قال: «بلى»، فقال: «قتلتَ الآباء بالسيف، والأبناءَ بالجوع»، فنزلت.[١]

والمعنى: لو كشفنا عنهم ما أصابهم مِن القَحط والهُزال برحمتنا إيّاهم ووجَدوا الخِصب لَارتدّوا إلى ما كانوا عليه مِن الإفراط في الكفر والاستكبار، ولَذهب عنهم هذا التملّق والإبلاس، وقد كان كذلك.

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ﴾ استئناف مسوق للاستشهاد على مضمون الشرطيّة. والمراد بـ﴿ٱلْعَذَابِ﴾ ما نالَهم يوم بدر مِن القتل والأسر، وما أصابهم مِن فنون العذاب التي مِن جملتها القَحط المذكور. و"اللام" جواب قَسَم محذوف، أي: وبالله[٢] لقد أخذناهم بالعذاب، ﴿فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ﴾ بذلك، أي: لم يخضعوا ولم يتذلّلوا -على أنّه إمّا "استِفعال" مِن "الكَون"؛ لأنّ الخاضع ينتقل مِن كَون إلى كَون، أو "افتِعالٌ" مِن "السكون" قد أُشبِعت فتحتُه، كـ"مُنتَزاح" في "مُنتَزح"- بل أقاموا على ما كانوا عليه مِن العتوّ والاستكبار.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ اعتراض مقرّر لمضمون ما قبله، أي: وليس مِن عادتهم التضرّع إليه تعالى.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾﴾

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ هو عذاب الآخرة، كما ينبئ عنه التهويل بفتح الباب، والوصفُ بالشدّة. وقُرئ: "فَتَّحْنَا" بالتشديد. ﴿إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ أي: متحيّرون آيِسون مِن كلّ خير، أي: مَحنّاهم بكلّ مِحنة مِن القتل والأسر والجوع وغير ذلك، فما رُئي منهم لينُ مَقادةٍ[٣] وتوجّهٍ إلى الإسلام قطّ.

---

[١] الكشف والبيان للثعلبي، ٥٣/٧؛ الكشّاف للزمخشري، ١٩٧/٣. وأخرجه بنحوه الطبري في جامع البيان، ٣٩/١٧؛ والحاكم في المستدرك، ٤٢٨/٢ (٣٤٨٨).

[٢] ط س: وتالله.

[٣] "لينُ مَقادة": مستعارٌ لسهولة تأتّي الحقّ، مِن قولهم: "هو يقود الخيلَ ويقتادها". الأساس: "قاد الفرس بمَقاودها"، وهو حبلٌ يُشدّ في العنق للقياد. فتوح الغيب للطيبي، ٦١٤/١٠.

وأمّا ما أظهره أبو سفيان فليس مِن الاستكانة له تعالى والتضرّع إليه تعالى في شيء، وإنّما هو نوع خُنوع إلى أن يتمّ غرَضه، فحاله كما قيل: «إذا جاع ضَغا،[1] وإذا شبع طغا».[2] وأكثرهم مستمرّون على ذلك إلى أن يرَوا عذاب الآخرة، فحينئذ يُبلِسون.

وقيل: المراد بـ"الباب" الجوع، فإنّه أشدّ وأعمّ مِن القتل والأسر. والمعنى: أخذناهم أوّلًا بما جرى عليهم يوم بدر مِن قتل صناديدهم وأسرِهم، فما وُجد منهم تضرّع واستكانة حتّى فتحنا عليهم باب الجوع الذي هو أطمّ وأتمّ، فأُبلِسوا الساعة، وخضعت رقابهم، وجاءك أعتاهم وأشدّهم شكيمةً في العِناد يستعطفك. والوجه هو الأوّل.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ۝٧٨﴾

﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ﴾ لتشاهدوا بها الآيات التنزيليّة والتكوينيّة ﴿وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ﴾ لتتفكّروا بها ما تشاهدونها، وتعتبروا اعتبارًا لائقًا، ﴿قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ﴾ أي: شكرًا قليلًا غيرَ معتَدّ به، تشكرون تلك النعم الجليلة لِما أنّ العمدة في الشكر صَرف تلك القوى التي هي في أنفسها نِعم باهِرة إلى ما خُلِقت هي له، وأنتم تُخِلّون بذلك إخلالًا عظيمًا.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي ذَرَأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَإِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ۝٧٩﴾

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي ذَرَأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ / أي: خلَقكم وبثّكم فيها بالتناسل، ﴿وَإِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾ أي: تُجمَعون يوم القيامة بعد تفرّقكم، لا إلى غيره، فما لكم لا تؤمنون به ولا تشكرونه. [١٤٧ظ]

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخۡتِلَٰفُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ۝٨٠﴾

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾ مِن غير أن يشاركه في ذلك شيء مِن الأشياء،

---

[1] ضَغا الثعلب والسنّور يَضغُو ضَغوًا وضُغاءً، أي: صاح. وكذلك صوت كلّ ذليل مَقهور. الصحاح للجوهري، «ضغا».

[2] في البيان والتبيين للجاحظ، ١١٦/٣: «قيل لعامر بن عبد قيس: ما تقول في الإنسان؟ قال: ما عسى أن أقول فيمَن إذا جاع ضرَع، وإذا شبع طغى».

﴿وَلَهُ﴾ خاصّةً ﴿ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي: هو المؤثّر في اختلافهما، أي: تعاقبهما، أو اختلافِهما ازديادًا وانتقاصًا، أو لأمره وقضائه اختلافُهما.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي: ألا تتفكّرون فلا تعقلون؟ أو أتتفكّرون فلا تعقلون بالنظر والتأمّل أنّ الكلّ منّا، وأنّ قدرتنا تعمّ جميع الممكنات التي مِن جملتها البعث؟ وقُرئ: "يَعْقِلُونَ"[١] على أنّ الالتفات إلى الغيبة لحكاية سوء حال المخاطَبين لغيرهم، وقيل: على أنّ الخطاب الأوّل لتغليب المؤمنين،[٢] وليس بذاك.

﴿بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾﴾

﴿بَلْ قَالُوا۟﴾ عطف على مُضمَر يقتضيه المقام، أي: فلم يعقِلوا؛ بل قالوا ﴿مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ أي: آباؤهم ومَن دانَ بدِينهم.

﴿قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾﴾

﴿قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ تفسير لِما قبله مِن المُبهم، وتفصيلٌ لِما فيه مِن الإجمال، وقد مرّ الكلام فيه.

﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾﴾

﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا﴾ أي: البعث ﴿مِن قَبْلُ﴾ متعلّق بالفعل مِن حيث إسناده إلى آبائهم، لا إليهم، أي: ووُعِد آباؤنا مِن قَبلُ، أو بمحذوف وقع حالًا مِن ﴿ءَابَآؤُنَا﴾، أي: كائنين مِن قبلُ.

﴿إِنْ هَٰذَآ﴾ أي: ما هذا ﴿إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: أكاذيبهم التي سطّروها، جمع "أُسطورة"، كـ"أُحدوثة" و"أُعجوبة". وقيل: جمع "أسطار" جمعِ "سَطَر".

﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾﴾

﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ﴾ مِن المخلوقات تغليبًا للعقلاء على غيرهم ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ جوابُه محذوف ثقةً بدلالة الاستفهام عليه، أي: إن كنتم تعلمون

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي عمرو. البحر المحيط لأبي حيّان، ٥٨٠/٧.

[٢] أنوار التنزيل للبيضاوي، ٩٣/٤.

شيئًا ما فأخبِروني به، فإنّ ذلك كافٍ في الجواب. وفيه مِن المبالغة في وضوح الأمر وفي تجهيلهم ما لا يخفى، أو إن كنتم تعلمون ذلك فأخبِروني، وفيه استهانة بهم، وتقريرٌ لجَهلهم، ولذلك أُخبِر بجوابهم قبل أن يجيبوا حيث قيل: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ لأنّ بديهةَ العقلِ تضطرُّهم إلى الاعترافِ بأنّه تعالى خالقُها.

﴿قُلْ﴾ أي: عند اعترافهم بذلك تبكيتًا لهم: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: أتعلمون ذلك، أو أتقولون ذلك / فلا تتذكّرون أنّ مَن فطَر الأرض وما فيها ابتداءً قادرٌ على إعادتها ثانيًا؟ فإنّ البَدء ليس بأهون مِن الإعادة؛ بل الأمر بالعكس في قياس العقول. وقُرئ: "تَتَذَكَّرُونَ"[1] على الأصل. [١٤٨و]

﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾﴾

﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أُعيدَ "الربّ" تنويهًا لشأن العرش، ورفعًا لمحلّه مِن أن يكون تبعًا لـ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وجودًا وذِكرًا. ولقد روعي في الأمر بالسؤال الترقّي مِن الأدنى إلى الأعلى.

﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾﴾

﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ بـ"اللام" نظرًا إلى معنى السؤال، فإنّ قولك: "مَن رَبُّه؟" و"لِمَن هو؟" في معنى واحد. وقُرئ هو وما بعده بغير لام[2] نظرًا إلى لفظ السؤال.

﴿قُلْ﴾ إفحامًا لهم وتوبيخًا: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي: أتعلمون ذلك ولا تَقُون أنفسَكم عقابَه بعدم العمل بموجَب العلم، حيث تكفرون به، وتُنكرون البعث، وتُثبتون له شريكًا في الربوبيّة؟

---

[1] قراءة شاذّة، ذكرها البيضاوي بغير نسبة. انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ٩٣/٤. وقرأ نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر وشعبة: "تَذَّكَّرُونَ" بتشديد الذال. انظر: النشر لابن الجزري، ٢٦٦/٢.

[2] أي: "سَيَقُولُونَ اللهُ". قرأ بها أبو عمرو ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٢٩/٢.

﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٨٨﴾

﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ ممّا ذُكر وما لم يُذكر، أي: ملكه التامّ القاهر، وقيل: خزائنه. ﴿وَهُوَ يُجِيرُ﴾ أي: يُغيث غيره إذا شاء، ﴿وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ أي: ولا يُغِيث أحد عليه، أي: لا يمنع أحد منه بالنصر عليه. ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: شيئًا ما، أو ذلك، فأجيبوني على ما سبق.

﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ۝٨٩﴾

﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ أي: لله ملكوت كلّ شيء، وهو الذي يُجير ولا يُجار عليه، ﴿قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ أي: فمِن أين تُخدعون وتُصرَفون عن الرشد مع علمكم به إلى ما أنتم عليه مِن الغَيّ؟ فإنّ مَن لا يكون مسحورًا مختلّ العقل لا يكون كذلك.

﴿بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ۝٩٠﴾

﴿بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ﴾ الذي لا مَحيد عنه مِن التوحيد والوعدِ بالبعث، ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ فيما قالوا مِن الشرك وإنكار البعث.

﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝٩١﴾

﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ﴾ كما يقوله النصارى والقائلون: إنّ الملائكة بنات الله، تعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا. ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ﴾ يشاركه في الألوهيّة كما يقوله عبَدة الأوثان وغيرهم. ﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ﴾ جوابٌ لمُحاجّتهم، وجزاءٌ لشرطٍ قد حُذف لدلالة ما قبله عليه، أي: لو كان معه / آلهة كما يزعمون لَذهب [١٤٨ظ] كلّ واحد منهم بما خلقه، واستبدّ به،[١] وامتاز مُلكه عن مُلك الآخرين، ووقع بينهم التغالب والتحارب كما هو الجاري فيما بين الملوك. ﴿وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾

---

١ ط س – به.

فلم يكن بيده وحده ملكوت كلّ شيء، وهو باطلٌ لا يقول به عاقل قطّ مع قيام البرهان على استناد جميع الممكنات إلى واجب الوجود واحدٍ بالذات.

﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي: يصفونه مِن أن يكون له أنداد وأولاد.

﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٩٢﴾

﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ بالجرّ على أنّه بدَل مِن الجلالة. وقيل: صفة لها. وقُرِئ بالرفع[1] على أنّه خبر مبتدأ محذوف. وأيًّا ما كان فهو دليل آخر على انتفاء الشريك بناءً على توافقهم في تفرّده تعالى بذلك، ولذلك رُتّب عليه بالفاء قولُه تعالى: ﴿فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ فإنّ تفرّده تعالى بذلك موجب لتعاليه عن أن يكون له شريك.

﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ۝٩٣ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٩٤﴾

﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي﴾ أي: إن كان لا بدّ مِن أن تُرِيَنّي ﴿مَا يُوعَدُونَ﴾ مِن العذاب الدنيوي المستأصِل، وأمّا العذاب الأخروي فلا يناسبه المقام. ﴿رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: قرينًا لهم فيما هم فيه مِن العذاب.

وفيه إيذان بكمال فظاعة ما وُعِدوه مِن العذاب، وكونِه بحيث يجب أن يستعيذ منه مَن لا يكاد يمكن أن يَحيق به، وردٌّ لإنكارهم إيّاه واستعجالِهم به على طريقة الاستهزاء به.

وقيل: أُمِر به عليه السلام هضمًا لنفسه. وقيل: لأنّ شُؤم الكفرة قد يَحيق بمَن وراءهم، كقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ [الأنفال، ٨/٢٥].

ورُوي أنّه تعالى أخبر نبيّه عليه السلام بأنّ له في أمّته نقمةً، ولم يطلعه على وقتها، فأمره بهذا الدعاء، وتكريرِ النداء.[2] وتصدير كلّ مِن الشرط والجزاء به لإبراز كمال الضراعة والابتهال.

---

[1] قرأ بها نافع وأبو جعفر وحمزة والكسائي وخلف وشعبة. النشر لابن الجزري، ٢/٣٢٩.

[2] عن الحسن في الكشّاف للزمخشري، ٣/٢٠١؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٤/٩٤.

﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ ٩٥﴾

﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ﴾ مِن العذاب ﴿لَقَٰدِرُونَ﴾ ولكنّا نؤخّره لِعلمنا بأنّ بعضهم أو بعضَ أعقابهم سيؤمنون، أو لأنّا لا نعذّبهم وأنت فيهم. وقيل: قد أراه ذلك، / وهو ما أصابهم يوم بدر، أو فتح مكّة،[1] ولا يخفى بعده، فإنّ المتبادَر أن يكون ما يستحقّونه مِن العذاب الموعود عذابًا هائلًا مستأصِلًا لا يظهر على يديه عليه السلام للحكمة الداعية إليه. [١٤٩و]

﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ٩٦﴾

﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ وهو الصفح عنها، والإحسان في مقابَلتها، لكن لا بحيث يؤدّي إلى وَهَن في الدين. وقيل: هي كلمة التوحيد، و﴿ٱلسَّيِّئَةَ﴾ الشرك. وقيل: هو الأمر بالمعروف، و﴿ٱلسَّيِّئَةَ﴾ المنكر، وهو أبلغ مِن: "ادفع بالحسنة السيّئة"، لِما فيه مِن التنصيص على التفضيل. وتقديم الجارّ والمجرور على المفعول في الموضعين للاهتمام.

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ أي: بما يصفونك به، أو بوصفهم إيّاك على خلاف ما أنت عليه. وفيه وعيد لهم بالجزاء والعقوبة، وتسليةٌ لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وإرشادٌ له عليه السلام إلى تفويض أمره إليه تعالى.

﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ٩٧﴾

﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ أي: وَساوسهم المغرية على خلاف ما أَمرت به مِن المحاسن التي مِن جملتها دفع السيّئة بالحسنة. وأصل "الهمز" النَّخس، ومنه "مِهْماز الرائِض". شُبّه حثّهم للناس على المعاصي بهَمزِ الرائض الدوابَّ على الإسراع أو الوثب. والجمع للمرّات، أو لتنوّع الوساوس، أو لتعدّد المضاف إليه.

﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ٩٨﴾

﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ أُمر عليه السلام بأن يَعوذ به تعالى مِن حضورهم

---

[1] أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤/٩٤؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٧/٥٨٢.

بعد ما أُمر بالعوذ به مِن همزاتهم للمبالغة في التحذير عن ملابستهم. وإعادة الفعل[١] مع تكرير النداء لإظهار كمال الاعتناء بالمأمور به، وعرضِ نهاية الابتهال في الاستدعاء، أي: أعوذ بك مِن أن يحضروني، ويَحوموا حولي في حال مِن الأحوال.

وتخصيص حال الصلاة وقراءة القرآن -كما رُوي عن ابن عبّاس رضي الله عنهما-[٢] وحالِ حلول الأجل -كما رُوي عن عِكرمة رحمه الله-[٣] لأنّها أحرى الأحوال بالاستعاذة منها.[٤]

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ۝٩٩﴾

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ هي التي يُبتدأ بها الكلام، دخلت على الجملة الشرطيّة، وهي مع ذلك غاية لِما قبلها، متعلّقة بـ﴿يَصِفُونَ﴾،[٥] وما بينهما اعتراض مؤكِّد للإغضاء بالاستعاذة به تعالى مِن الشياطين أن يُزِلُّوهُ عليه السلام عن الحِلم، ويُغْرُوه على الانتقام، لكن لا بمعنى أنّه العامل فيه لفساد المعنى؛ بل بمعنى أنّه معمول لمحذوف يدلّ عليه ذلك. وتعلّقها بـ﴿كَٰذِبُونَ﴾[٦] في غاية البعدِ لفظًا ومعنى.

أي: يستمرّون على الوصف المذكور حتّى إذا جاء أحدَهم -أيّ أحدٍ كان- الموتُ الذي لا مردّ له وظهرت له أحوال الآخرة ﴿قَالَ﴾ تحسّرًا على ما فرّط فيه مِن الإيمان والطاعة: ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ﴾ أي: رُدَّني إلى الدنيا. و"الواو" لتعظيم المخاطَب، وقيل: لتكرير قوله: "ارجِعني"، كما قيل في:

قِفَا نَبْكِ...[٧]

ونظائرِه.

---

[١] م س - بأن يعوذ به تعالى مِن حضورهم بعد ما أُمر بالعَوذ به مِن همزاتهم للمبالغة في التحذير عن ملابستهم. وإعادة الفعل ["صح" في هامش م س].

[٢] الكشّاف للزمخشري، ٢٠٢/٣.

[٣] الكشّاف للزمخشري، ٢٠٢/٣.

[٤] أنوار التنزيل للبيضاوي، ٩٥/٤.

[٥] المؤمنون، ٩٦/٢٣.

[٦] المؤمنون، ٩٠/٢٣. | انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢٠٢/٣؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٩٥/٤.

[٧] مِن قول امرئ القيس في معلّقته:

قِفا نَبْكِ مِن ذِكرى حبيبٍ ومَنزِلِ
بسِقْطِ اللِّوى بين الدَّخولِ فحَومَلِ

ديوان امرئ القيس، ص ٨. قال الزوزني: «يجوز أن يكون المراد به: قف قف، فإلحاق الألف أمارة دالّة على أن المراد تكرير اللفظ». شرح المعلّقات السبع للزوزني، ص ٣٥.

﴿لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ١٠٠﴾

﴿لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُ﴾ أي: في الإيمان الذي تركته. لم يَنظمه في سِلك الرجاء كسائر الأعمال الصالحة بأن يقول: لعلّي أُومِن فأعمل... إلخ للإشعارِ بأنّه أمر مقرَّر الوقوع، غنيٌّ عن الإخبار بوقوعه / قطعًا، فضلًا عن كونه مرجوّ الوقوع، أي: لعلّي أعمل في الإيمان الذي آتي به البتّة عملًا صالحًا. [١٤٩ظ]

وقيل: فيما تركته مِن المال، أو مِن الدنيا. وعنه عليه السلام: «إذا عاين المؤمِن الملائكة قالوا: "أَنُرجعك إلى الدنيا؟" فيقول: "إلى دار الهموم والأحزان؛ بل قُدُومًا إلى الله تبارك وتعالى"، وأمّا الكافر فيقول: "ارجعوني"».[١]

﴿كَلَّآ﴾ ردعٌ عن طلب الرجعة واستبعاد لها. ﴿إِنَّهَا﴾ أي: قوله: ﴿رَبِّ ٱرۡجِعُونِ﴾...[٢] إلخ ﴿كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾ لا محالةَ لِتسلّط الحسرة عليه. ﴿وَمِن وَرَآئِهِم﴾ أي: أمامهم، والضميرُ لـ﴿أَحَدَهُمُ﴾، والجمع باعتبار المعنى؛ لأنّه في حكم "كلّهم"، كما أنّ الإفراد في الضمائر الأُوَل باعتبار اللفظ.

﴿بَرۡزَخٌ﴾ حائل بينهم وبين الرجعة ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ يوم القيامة، وهو إقناط كلّي عن الرجعة إلى الدنيا، لِما عُلم أنّه لا رجعةَ يوم البعث إلى الدنيا، وإنّما الرجعة يومئذ إلى الحياة الأخرويّة.

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ١٠١﴾

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ لقيام الساعة، وهي النفخة الثانية التي يقع عندها البعث والنشور. وقيل: المعنى: فإذا نُفخ في الأجساد أرواحها، على أنّ ﴿ٱلصُّورِ﴾ جمع "الصورة"، لا القَرن، ويؤيّده القراءةُ بفتح الواو،[٣] وبه مع كسر الصاد.[٤]

---

١ جامع البيان للطبري، ١٧/١٠٧؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٧/٥٦.

٢ س: ارجعوني.

٣ أي: "الصُّوَرِ". قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسَن. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٣/٢٠٣.

٤ أي: "الصِّوَرِ". قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي رزين. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٣/٢٠٣.

﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ﴾ تنفعهم لزوال التراحم والتعاطف مِن فرط الحيرة واستيلاء الدهشة، بحيث يفرّ المرء مِن أخيه، وأمّه وأبيه، وصاحبته وبنيه، أو لا أنساب يفتخرون بها ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ كما هي بينهم اليوم ﴿وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ أي: لا يسأل بعضهم بعضًا لاشتغال كلٍّ منهم بنفسه. ولا يناقضه قوله تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ [الصافات، ٥٠/٣٧]؛ لأنّ هذا عند ابتداء النفخة الثانية، وذاك بعد ذلك.

﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾﴾

﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ مَوزونات حسناتِه مِن العقائد والأعمال، أي: فمَن كانت له عقائد صحيحة وأعمال صالحة يكون لها وزن وقدر عند الله تعالى ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون بكلّ مطلوب، الناجون عن كلّ مَهروب.

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَـٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ ومَن لم يكن له مِن العقائد والأعمال ما له وزن وقدر عنده تعالى، وهم الكفّار لقوله تعالى: ﴿فَلَا[1] نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف، ١٠٥/١٨]، وقد مرّ تفصيل ما في هذا المقام مِن الكلام في تفسير سورة الأعراف.[2] ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ ضيّعوها بتضييع زمان استكمالها، وأبطلوا استعدادها لنيل كمالها. واسم الإشارة في الموضعين عبارة عن الموصول، وجمعُه باعتبار معناه، كما أنّ إفراد الضميرين في الصِّلتين باعتبار لفظه. ﴿فِى جَهَنَّمَ خَـٰلِدُونَ﴾ بدل مِن الصلة، أو خبر ثانٍ لـ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾.

﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَـٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾

﴿تَلْفَحُ / وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ تحرقها. و"اللَّفح" كـ"النفخ"، إلّا أنّه أشدّ تأثيرًا منه. [١٥٠و] وتخصيص الوجوه بذلك لأنّها أشرف الأعضاء، فبيان حالها أزجر عن المعاصي

[1] م ط س: ولا.

[2] الأعراف، ٨/٧.

المؤدّية إلى النار، وهو السرّ في تقديمها على الفاعل. ﴿وَهُمْ فِيهَا كَـٰلِحُونَ﴾ مِن شدّة الاحتراق. و"الكُلُوح": تقلّص الشفتين مِن الأسنان. وقُرئ: "كَلِحُونَ".[١]

﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَـٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾

﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَـٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ على إضمار القول، أي: يقال لهم تعنيفًا وتوبيخًا وتذكيرًا لِما به استحقّوا ما ابتُلوا به مِن العذاب: ألم تكن آياتي تُتلى عليكم في الدنيا ﴿فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ حينئذ.

﴿قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَـٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾﴾

﴿قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا﴾ أي: مَلَكتنا ﴿شِقْوَتُنَا﴾ التي اقترفناها بسوء اختيارنا، كما ينبئ عنه إضافتها إلى أنفُسهم. وقُرئ: "شَقْوَتُنَا" بالفتح،[٢] و"شِقَاوَتُنَا" أيضًا بالفتح[٣] والكسر.[٤] ﴿وَكُنَّا﴾ بسبب ذلك ﴿قَوْمًا ضَآلِّينَ﴾ عن الحقّ، ولذلك فعلنا ما فعلنا مِن التكذيب.

وهذا كما ترى اعتراف منهم بأنّ ما أصابهم قد أصابهم بسوء صنيعهم، وأمّا ما قيل مِن أنّه اعتذار منهم بغلبة ما كُتب عليهم مِن الشقاوة الأزليّة،[٥] فمَع أنّه باطل في نفسه -لِما أنّه لا يكتب عليهم مِن السعادة والشقاوة إلّا ما علم الله تعالى أنّهم يفعلونه باختيارهم ضرورةَ أنّ العلم تابع للمعلوم- يردّه قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَـٰلِمُونَ﴾ أي: أَخرِجنا مِن النار وأرجعنا إلى الدنيا، فإن عدنا بعد ذلك إلى ما كنّا عليه مِن الكفر والمعاصي فإنّا متجاوِزون الحدَّ في الظلم.

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي البرهسم وأبي حيوة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٣٨.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبان عن عاصم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٣٨.

[٣] قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٣٢٩/٢.

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن قتادة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٣٨.

[٥] انظر: تفسير الرازي، ٢٩٦/٢٣.

ولو كان اعتقادهم أنّهم مجبورون على ما صدَر عنهم لَما سألوا الرجعةَ إلى الدنيا، ولَما وعَدوا الإيمان والطاعة؛ بل قولهم: ﴿فَإِنْ عُدْنَا﴾ صريح في أنّهم حينئذ على الإيمان والطاعة، وإنّما الموعود على تقدير الرجعة إلى الدنيا الثباتُ عليهما، لا إحداثُهما.

﴿قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾﴾

﴿قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا﴾ أي: اسكتوا في النار سكوتَ هوانٍ، وذِلّوا وانزجِروا انزجارَ الكلاب إذا زُجرَتْ. مِن "خَسأْتُ الكلب" إذا زجرتَه "فخَسَأ"، أي: انزَجر. ﴿وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ أي: باستدعاء الإخراج مِن النار، والرجعِ إلى الدنيا.

وقيل: لا تُكَلِّمونِ في رفع العذاب،[١] ويردّه التعليل الآتي. وقيل: لا تُكلّمونِ رأسًا،[٢] وهو آخر كلام يتكلّمون به، ثمّ لا كلام بعد ذلك إلّا الشهيق والزفير والعِواء كعِواء الكلب، لا يَفْهَمون ولا يُفهِمون،[٣] ويردّه الخطابات الآتية قطعًا.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ﴾ تعليل لِما قبله مِن الزجر عن الدعاء، أي: إنّ الشأن. وقُرئ بالفتح،[٤] أي: لِأنَّ الشأن ﴿كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى﴾ وهم المؤمنون. وقيل: هم الصحابة. وقيل: أهل الصُّفّة، رضوان الله تعالى عليهم أجمعين. ﴿يَقُولُونَ﴾ في الدنيا ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

﴿فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾﴾

﴿فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا﴾ أي: اسكتوا عن الدعاء بقولكم: ربّنا... إلخ؛ لأنّكم كنتم تستهزئون بالداعين بقولهم: ربنا آمنّا... إلخ، وتتشاغلون باستهزائهم ﴿حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ﴾

---

[١] الكشف والبيان للثعلبي، ٥٨/٧؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٢٩٩/٣.

[٢] أنوار التنزيل للبيضاوي، ٩٦/٤.

[٣] عن الحسن في الكشف والبيان للثعلبي، ٥٨/٧؛ واللباب لابن عادل، ٢٦٤/١٤.

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبيّ رضي الله عنه. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٣٨.

أي: الاستهزاءُ بهم ﴿ذِكۡرِي﴾ مِن فَرط اشتغالكم باستهزائهم، ﴿وَكُنتُم مِّنۡهُمۡ تَضۡحَكُونَ﴾ وذلك غاية الاستهزاء.

﴿إِنِّي جَزَيۡتُهُمُ ٱلۡيَوۡمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ١١١﴾

وقوله تعالى: ﴿إِنِّي جَزَيۡتُهُمُ ٱلۡيَوۡمَ﴾ استئناف لبيان حُسن حالهم، وأنّهم انتفعوا بما آذَوهم، ﴿بِمَا صَبَرُوٓاْ﴾ بسبب صبرهم على أذيّتكم. وقوله تعالى: ﴿أَنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾ ثاني مفعولَي الجزاء، أي: جزيتُهم فوزَهم بمجامع مراداتهم مخصوصين به. وقُرئ بكسر الهمزة[1] على أنّه تعليل للجزاء، وبيانٌ لكونه في غاية ما يكون مِن الحُسن.

﴿قَٰلَ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ عَدَدَ سِنِينَ ١١٢﴾

﴿قَٰلَ﴾ أي: الله عزّ وجلّ، أو الملَكُ المأمور بذلك تذكيرًا لِما لبثوا فيما سألوا الرجوع إليه مِن الدنيا بعد التنبيه على استحالته بقوله: ﴿ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا﴾... إلخ. وقُرئ: "قُلْ"[2] على الأمر للملَك: ﴿كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ التي تدعون أن ترجعوا إليها ﴿عَدَدَ سِنِينَ﴾ تمييز لِـ﴿كَمۡ﴾.

﴿قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ فَسۡـَٔلِ ٱلۡعَآدِّينَ ١١٣﴾

﴿قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ﴾ استقصارًا لِمدّة لبثهم فيها ﴿فَسۡـَٔلِ ٱلۡعَآدِّينَ﴾ أي: المتمكّنين مِن العدّ، فإنّا بما دَهِمَنا مِن العذاب بمَعزِل مِن ذلك، أو الملائكة العادّين لأعمار العباد وأعمالهم. وقُرئ: "العَادِينَ" / [١٥٠ظ] بالتخفيف،[3] أي: المتعدّين، فإنّهم أيضًا يقولون ما نقول، كأنّهم الأتباعُ يسمّون الرؤساءَ بذلك لظلمهم إيّاهم بإضلالهم. وقُرئ: "العَادِيِّينَ"،[4] أي: القدماء المعمِّرين، فإنّهم أيضًا يستقصِرون مدّة لبثهم.

---

[1] قرأ بها حمزة والكسائي. النشر لابن الجزري، ٣٢٩/٢.

[2] قرأ بها ابن كثير وحمزة والكسائي. النشر لابن الجزري، ٣٣٠/٢.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن المفضّل وعن يعقوب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٣٨.

[4] قراءة شاذّة، ذكرها المفسّرون ولم أجد مَن ذكَر قارئها. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢٠٦/٣.

﴿قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

﴿قَٰلَ﴾ أي: الله تعالى، أو الملَك. وقُرئ: "قُلْ"،[١] كما سبق: ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ تصديقًا لهم في ذلك ﴿لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: تعلمون شيئًا، أو لو كنتم مِن أهل العلم. والجواب محذوف ثقةً بدلالة ما سبق عليه، أي: لَعلِمتم يومئذ قِلّة لبثكم فيها كما علمتم اليومَ، ولَعمِلتم بموجَبه ولم تُخلِدوا إليها.

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا﴾ أي: ألم تعلموا شيئًا فحسبتم أنّما خلقناكم بغير حكمة بالغة حتّى أنكرتم البعث؟ فـ﴿عَبَثًا﴾ حال مِن نون العظمة، أي: عابثين، أو مفعول له، أي: إنّما خلقناكم للعبَث، ﴿وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ عطفٌ على ﴿أَنَّمَا﴾، فإنّ خَلقكم بغير بَعث مِن قَبيل العبَث، وإنّما خلقناكم لِنتعبَّدكم ونجازيكم على أعمالكم. وقُرئ: "تَرْجِعُونَ"[٢] بفتح التاء مِن الرجوع.

﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾

﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ﴾ استعظامٌ له تعالى ولشئونه التي تصرّف عليها عبادُه مِن البَدء والإعادة والإثابة والعقاب بموجَب الحكمة البالغة، أي: ارتفع بذاته وتنزّه عن مماثلة المخلوقين في ذاته وصفاته وأحواله وأفعاله، وعن خلوّ أفعاله عن الحِكم والمصالح والغايات الحميدة ﴿ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾ الذي يحِقّ له المُلك على الإطلاق إيجادًا وإعدامًا، بَدءًا وإعادةً، إحياءً وإماتةً، عقابًا وإثابةً، وكلُّ ما سواه مَملوك له مَقهور تحت ملكوته.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ فإنّ كلّ ما عداه عبيدُه، ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ فكيف بما تحته ومحاط به مِن الموجودات كائنًا ما كان. ووصفُه بالكرَم إمّا لأنّه منه ينزل الوحي الذي منه القرآن الكريم، أو الخير والبركة والرحمة، أو لنسبته إلى أكرم الأكرمين.

---

[١] قرأ بها حمزة والكسائي. النشر لابن الجزري، ٢/٣٣٠.

[٢] قرأ بها حمزة والكسائي وخلف ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٢٠٨.

وقُرئ: "الكَرِيمُ" بالرفع[١] على أنّه صفة "الربّ"، كما في قوله تعالى: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ﴾ [البروج، ١٥/٨٥].

﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾﴾

﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ يعبُده إفرادًا أو إشراكًا ﴿لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ صفة لازمة لـ﴿إِلَٰهًا﴾، كقوله تعالى: ﴿يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [الأنعام، ٣٨/٦]، جيء بها للتأكيد وبناء الحُكم عليه تنبيهًا على أنّ التديّن بما لا دليلَ عليه باطل، فكيف بما شهدَت بديهةُ العقول بخلافه. أو اعتراض بين الشرط والجزاء، كقولك: "مَن أحسنَ إلى زيد لا أحقّ منه بالإحسان فالله مُثيبه".

﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ فهو مُجَازٍ له على قدر ما يستحقّه. ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ أي: إنّ الشأن... إلخ. وقُرئ بالفتح[٢] على أنّه تعليل، أو خبر، ومعناه: حسابُه عدم الفلاح. والأصل: حسابُه أنّه لا يُفلح هو، فوُضع ﴿ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ موضع الضمير؛ لأنّ ﴿مَن يَدْعُ﴾ في معنى الجمع، وكذلك "حِسَابُهُ أَنَّهُ لَا يُفْلِحُ" في معنى: حسابُهم أنّهم لا يفلحون.

بُدئت السورة الكريمة بتقرير فلاح المؤمنين، وخُتِمت بنفي الفلاح عن الكافرين، ثمّ أُمِر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بالاستغفار والاسترحام فقيل: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ إيذانًا بأنّهما مِن أهمّ الأمور الدينيّة، حيث أُمِر به مَن قد غُفِر له ما تقدّم مِن ذنبه وما تأخّر، فكيف بمَن عَداه.

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة المؤمنين بشّرته الملائكة بالرَّوح والرَّيحان، وما تَقَرُّ به عينُه عند نزول ملك الموت».[٣] وعنه عليه السلام

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن كثير وابن مُحيصن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٣٨.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وقتادة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٣٨.

٣ الكشف والبيان للثعلبي، ٣٧/٧؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٢٨٣/٣. وهو جزء مِن الحديث المروي عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

أنّه قال: «لقد أُنزلت عليّ عشر آيات مَن أقامهنّ دخل الجنّة، ثمّ قرأ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون، ١/٢٣] حتّى ختم العشر».[١] ورُوي «أنّ أوّلها وآخرها مِن كنوز الجنّة، مَن عمل بثلاث آيات مِن أوّلها، واتّعظ بأربع مِن آخرها نجا وأفلح».[٢]

---

[١] سنن الترمذي، ٣٢٦/٥ (٣١٧٣)؛ المستدرك للحاكم، ٧١٧/١ (١٩٦١).

[٢] س + الحمد لله ربّ العالمين. | الكشّاف للزمخشري، ٢٠٧/٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٩٧/٤. قال الزيلعي: «غريب جدًّا». تخريج أحاديث الكشّاف للزيلعي، ٤٠٩/٢.

/ سورة النور [١٥١و]

مدنيّة، وهي ثِنتان أو أربع وسبعون آيةً.[١]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ①﴾

﴿سُورَةٌ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي: هذه سورة، وإنّما أشيرَ إليها مع عدم سبق ذكرها لأنّها باعتبار كونها في شرَف الذكر في حُكم الحاضر المشاهَد.

وقوله تعالى: ﴿أَنزَلْنَٰهَا﴾ مع ما عطف عليه صفاتٌ لها مؤكِّدة لِما أفاده التنكير مِن الفخامة مِن حيث الذاتُ بالفخامة مِن حيث الصفات. وأمّا كونها مبتدأً محذوفَ الخبر على أن يكون التقدير: فيما أوحينا إليك سورةٌ أنزلناها؛[٢] فيأباه أنّ مقتضى المقام بيان شأن هذه السورة الكريمة، لا أنّ في جملة ما أوحيَ إلى النبيّ عليه السلام سورةً شأنُها كذا وكذا. وحملُها على السورة الكريمة بمعونة المقام يوهم أنّ غيرها مِن السوَر الكريمة ليست على تلك الصفات.

وقُرئ بالنصب[٣] على إضمار فعل يفسّره ﴿أَنزَلْنَٰهَا﴾، فلا محلّ له حينئذ مِن الإعراب، أو على تقدير "اقرأ" ونحوِه، أو "دونَك" عند مَن يسوّغ حذف أداة الإغراء،[٤] فمَحلّ "أنزَلنا" النصب على الوصفيّة.

---

١ ط س: وهي ثنتان وستّون آيةً، وقيل: أربع وستّون. | وما في نسخة م سهو، وهي في المصاحف اليوم أربع وستون آية.

٢ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢٠٨/٣؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٩٨/٤.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن أم الدرداء وعمر بن عبد العزيز وعيسى البصري وعيسى الكوفي وابن قطيب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٣٩.

٤ أجازه الزمخشري في الكشّاف، ٢٠٨/٣، وردّه أبو حيّان في البحر المحيط، ٦/٨، قال: «ولا يجوز حذف أداة الإغراء».

﴿وَفَرَضۡنَـٰهَا﴾ أي: أوجبنا ما فيها مِن الأحكام إيجابًا قطعيًا، وفيه مِن الإيذان بغاية وَكادة الفرضيّة ما لا يخفى. وقُرئ: "فَرَّضْنَاهَا" بالتشديد[1] لتأكيد الإيجاب، أو لتعدّد الفرائض، أو لكثرة المفروض عليهم مِن السلَف والخلَف.

﴿وَأَنزَلۡنَا فِيهَا﴾ أي: في تضاعيف السورة ﴿ءَايَـٰتِۭ بَيِّنَـٰتٍ﴾ إن أريدَ بها الآيات التي نِيطت بها الأحكام المفروضة -وهو الأظهر- فكونها في السورة ظاهر، ومعنى كونها ﴿بَيِّنَـٰتٍ﴾ وضوحُ دلالاتها على أحكامها، لا على معانيها على الإطلاق، فإنّها أسوة لسائر الآيات في ذلك.

وتكرير ﴿أَنزَلۡنَا﴾ مع استلزام إنزال السورة لإنزالها لإبراز كمال العناية بشأنها، وإن أريدَ جميع الآيات فالظرفيّة باعتبار اشتمال الكلّ على كلّ واحد مِن أجزائه. وتكرير ﴿أَنزَلۡنَا﴾ مع أنّ جميع الآيات عينُ السورة وإنزالَها عينُ إنزالِها لاستقلالها بعنوانٍ / رائقٍ داعٍ إلى تخصيص إنزالها بالذكر إبانةً لخَطرها ورفعًا لِمحلّها، كقوله تعالى: ﴿وَنَجَّيۡنَـٰهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [هود، ٥٨/١١] بعد قوله تعالى:[2] ﴿نَجَّيۡنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٍ مِّنَّا﴾ [هود، ٥٨/١١]. [١٥١ظ]

﴿لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ بحذف إحدى التاءين، وقُرئ بإدغام الثانية في الذال،[3] أي: تتذكّرونها فتعملون بموجَبها عند وقوع الحوادث الداعية إلى إجراء أحكامها، وفيه إيذان بأنّ حقّها أن تكون على ذكرٍ منهم بحيث متى مسّت الحاجة إليها استحضروها.

﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖۖ وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ وَلۡيَشۡهَدۡ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢﴾

﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي﴾ شروع في تفصيل ما ذُكر مِن الآيات البيّنات وبيانِ أحكامها. و﴿ٱلزَّانِيَةُ﴾ هي المرأة المطاوِعة للزنا الممكِّنة منه كما يُنبئ عنه الصيغة،

---

[1] قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٣٣٠/٢.

[2] س - تعالى.

[3] أي: "تَذَّكَّرُونَ". قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر وشعبة. النشر لابن الجزري، ٢٦٦/٢.

لا المَزنيّةُ كرهًا، وتقديمُها على الزاني لأنّها الأصل في الفعل، لكون الداعية فيها أوفر، ولولا تمكينها منه لم يقع.

ورفعُهما على الابتداء، والخبرُ قوله تعالى: ﴿فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٖ﴾ و"الفاء" لتضمّن المبتدأ معنى الشرط، إذ "اللام" بمعنى الموصول، والتقدير: التي زَنت والذي زَنا، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَا﴾ [النساء، ١٦/٤]. وقيل: الخبر محذوف، أي: فيما أنزلنا، أو فيما فرَضنا الزانيةُ والزاني، أي: حكمهما.

وقوله تعالى ﴿فَٱجْلِدُواْ﴾... الخ بيان لذلك الحكم، وكان هذا عامًّا في حقّ المحصَن وغيره، وقد نُسخ في حقّ المحصَن قطعًا. ويكفينا في تعيين الناسخ القَطعُ بأنّه عليه السلام قد رجَم ماعِزًا[1] وغيرَه،[2] فيكون مِن باب نسخ الكتاب بالسنّة المشهورة. وفي **الإيضاح**:[3] «الرجم حكمٌ ثبت بالسنّة المشهورة المتّفَق عليها، فجازت الزيادة بها على الكتاب»،[4] ورُوي عن عليّ رضي الله تعالى[5] عنه: «جلدتُها بكتاب الله، ورجمتُها بسنّة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم».[6] وقيل: نُسخ بآية منسوخة التلاوة، هي: «الشيخُ والشيخةُ إذا زنَيا فارجموهما البتّة، نكالًا مِن الله، والله عزيز حكيم».[7] / ويأباه ما رُوي عن عليّ رضي الله عنه. [١٥٢و]

﴿وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ﴾ وقُرئ بفتح الهمزة،[8] وبالمدّ أيضًا[9] على "فَعالة"، أي: رحمة ورِقّة ﴿فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ في طاعته وإقامة حدّه، فتعطِّلوه أو تسامحوا فيه،

---

١ انظر: **صحيح البخاري**، ١٦٧/٨ (٦٨٢٤)؛ و**صحيح مسلم**، ١٣٢١/٣ (١٦٩٥). | هو ماعز بن مالك الأسلمي، ويقال: إنّ اسمه غريب، وماعز لقَب، عن جابر أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم لمّا رُجم ماعز بن مالك قال: «لقد رأيته يتَخضخَض في أنهار الجنّة». انظر: **الإصابة** لابن حجر، ٥٢١/٥.

٢ انظر حديث رجم المرأة الغامديّة في **صحيح مسلم**، ١٣٢١/٣ (١٦٩٥).

٣ لعلّه **الإيضاح** لأبي الفضل الكرماني الحنفي.

٤ انظر: **تبيين الحقائق** للزيلعي مع **حاشية الشلبي**، ١٧٣/٣.

٥ س - تعالى.

٦ **مسند أحمد**، ٢٥٦/٢ (٩٤٢)؛ **المستدرك** للحاكم، ٤٠٥/٤ (٨٠٨٦).

٧ انظر: **مسند أحمد**، ١٣٤/٣٥ (٢١٢٠٧)؛ **المستدرك** للحاكم، ٤٠٠/٤ (٨٠٦٨). وذُكرت آية الرجم دون لفظها في **صحيح البخاري**، ١٦٨/٨ (٦٨٣٠)؛ و**صحيح مسلم**، ١٣١٧/٣ (١٦٩١).

٨ قرأ بها ابن كثير بخُلف عن البزّي. **النشر** لابن الجزري، ٣٣٠/٢.

٩ قراءة شاذّة، مرويّة عن عاصم وابن كثير وابن جريج. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٣٩.

وقد قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «لو سرقَت فاطمةُ لَقَطعت يدها».[١] ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ مِن باب التهييج والإلهاب، فإنّ الإيمان بهما يقتضي الجِدّ في طاعته تعالى والاجتهادَ في إجراء أحكامه. وذكر اليوم الآخر لتذكير ما فيه مِن العقابِ في مقابلة المسامحة والتعطيل.

﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: لِتحضُرْه زيادةً في التنكيل، فإنّ التفضيح قد ينكِّل أكثر ممّا ينكِّل التعذيب. و"الطائفة" فرقة يمكن أن تكون حافّةً حول الشيء، مِن "الطَّوف"، وأقلّها ثلاثة كما رُوي عن قتادة.[٢] وعن ابن عبّاس رضي الله تعالى[٣] عنهما: أربعة إلى أربعين.[٤] وعن الحسَن: عشرة.[٥] والمراد جمعٌ يحصل به التشهير والزجر.

﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾

﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾ حكمٌ مؤسَّس على الغالب المعتاد، جِيء به لزجر المؤمنين عن نكاح الزواني بعد زجرهم عن الزنا بهنّ.

وقد رغِب بعض مِن ضعَفة المهاجرين في نكاح موسرات كانت بالمدينة مِن بَغايا المشركين، فاستأذنوا رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم في ذلك، فنُفِّروا عنه ببيان أنّه مِن أفعال الزناة وخصائص المشركين،[٦] كأنّه قيل: الزاني لا يرغب إلّا في نكاح إحداهما، والزانية لا يرغب في نكاحها إلّا أحدُهما، فلا تحوموا حوله كيلا تنتظموا في سِلكهما، أو تتّسِموا بسمتِهما، فإيرادُ الجملة الأولى -مع أنّ مَناط التنفير هي الثانية- إمّا للتعريض بقَصرهم الرغبةَ عليهنّ حيث استأذنوا في نكاحهنّ،

---

[١] صحيح البخاري، ١٧٥/٤ (٣٤٧٥)؛ صحيح مسلم، ١٣١٥/٣ (١٦٨٨).
[٢] الكشّاف للزمخشري، ٢١٠/٣؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٩/٨.
[٣] س – تعالى.
[٤] الكشّاف للزمخشري، ٢١٠/٣؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٩/٨.
[٥] الكشّاف للزمخشري، ٢١٠/٣؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٩/٨.
[٦] الكشف والبيان للثعلبي، ٦٥/٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٢١٠/٣.

أو لتأكيد العلاقة بين الجانبين مبالغةً / في الزجر والتنفير. وعدم التعرّض في [١٥٢ظ] الجملة الثانية للمشرِكة للتنبيه على أنّ مناط الزجر والتنفير هو الزنا، لا مجرّدُ الإشراك، وإنّما تُعُرِّض لها في الأولى إشباعًا في التنفير عن الزانية بنظمها في سِلك المشرِكة.

﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ﴾ أي: نكاحُ الزواني ﴿عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لِما أنّ فيه مِن التشبّه بالفسَقة، والتعرّضِ للتهمة، والتسبّبِ لسوء القالة، والطعنِ في النسب، واختلالِ أمر المعاش، وغيرِ ذلك مِن المفاسد ما لا يكاد يَليق بأحدٍ مِن الأداني والأراذل فضلًا عن المؤمنين، ولذلك عبّر عن التنزيه بالتحريم مبالغةً في الزجر. وقيل: النفي بمعنى النهي، وقد قُرئ به.[1] والتحريم على حقيقته، والحكمُ إمّا مخصوص بسبب النزول، أو منسوخ بقوله تعالى: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ﴾ [النور، ٣٢/٢٤]، فإنّه متناول للمسافِحات، ويؤيّده ما رُوي أنّه عليه السلام سُئل عن ذلك، فقال: «أوّله سِفاح، وآخره نكاح، والحرام لا يُحرِّم الحلال».[2] وما قيل مِن أنّ المراد بالنكاح هو الوطء بيّنُ البطلان.[3]

﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَـٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُواْ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَـٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُواْ لَهُمْ شَهَـٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ۝٤﴾

﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَـٰتِ﴾ بيان لحكم العفائف إذا نُسِبن إلى الزنا بعد بيان حكم الزواني. ويُعتبر في الإحصان ههنا مع مدلوله الوضعي الذي هو العفّة عن الزنا: الحرّيّةُ والبلوغ والإسلام.

---

١ أي: "لَا يَنكِحْ" بالجزم. قراءة شاذّة، مرويّة عن عمرو بن عُبيد. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٣٩.

٢ الكشّاف للزمخشري، ٢١٢/٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٩٩/٤. قال الزيلعي: «غريب بهذا اللفظ». تخريج أحاديث الكشّاف للزيلعي، ٤١٩/٢. وأخرج الدارقطني في السنن، ٤٠١/٤ (٣٦٨٠)، عن عائشة رضي الله عنها، قالت: سئل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عن رجل زنى بامرأة فأراد أن يتزوّجها أو ابنتها، قال: «لا يحرّم الحرامُ الحلالَ، إنّما يحرّم ما كان بنكاح». وأخرج ابن أبي شيبة في مصنّفه، ٥٢٩/٣ (١٦٧٩٦)، عن ابن عبّاس رضي الله عنهما، في الرجل يفجر بالمرأة، ثمّ يتزوّجها، قال: «أوّله سِفاح، وآخره نكاح، أوّله حرام، وآخره حلال».

٣ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢١٢/٣؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٩٩/٤.

وفي التعبير عن التفوّه بما قالوا في حقّهنّ بالرمي المنبئ عن صلابة الآلة وإيلام المَرميّ وبُعدِه عن الرامي إيذانٌ بشدّة تأثيره فيهنّ وكونِه رجمًا بالغيب، والمراد به رميُهنّ بالزنا لا غير، وعدمُ التصريح به للاكتفاء بإيرادهنّ عقيب الزواني، ووصفِهنّ بالإحصان الدالّ بالوضع على نزاهتهنّ عن الزنا خاصّةً، فإنّ ذلك بمنزلة التصريح بكون رميهنّ به لا محالةَ.

ولا حاجة في ذلك إلى الاستشهاد باعتبار الأربعة مِن الشهداء على أنّ فيه مؤنة بيان تأخّر نزول الآية عن قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَشْهِدُواْ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً﴾ [النساء، ٤/١٥]، / ولا بعدم وجوب الحدّ بالرمي بغير الزنا، على أنّ فيه شبه المصادرة، [١٥٣و] كأنّه قيل: والذين يرمون العفائف المنزّهات عمّا رُمين به مِن الزنا.

﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُواْ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ يشهدون عليهنّ بما رمَوهنّ به. وفي كلمة ﴿ثُمَّ﴾ إشعار بجواز تأخير الإتيان بالشهود، كما أنّ في كلمة ﴿لَمْ﴾ إشارة إلى تحقّق العجز عن الإتيان بهم وتقرّره، خلا أنّ اجتماع الشهود لا بدّ منه عند الأداء خلافًا للشافعي، فإنّه جوّز التراخي بين الشهادات، كما بين الرمي والشهادة.[١] ويجوز أن يكون أحدُهم زوجَ المقذوفة خلافًا له أيضًا.[٢] وقُرئ: "بِأَرْبَعَةٍ شُهَدَاءَ".[٣]

﴿فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً﴾ لظهور كذِبهم وافترائهم بعجزهم عن الإتيان بالشهداء، لقوله تعالى: ﴿فَإِذْ[٤] لَمْ يَأْتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ [النور، ٢٤/١٣]. وانتصاب ﴿ثَمَٰنِينَ﴾ كانتصاب المصادر، ونصبُ ﴿جَلْدَةً﴾ على التمييز. وتخصيصُ رميهنّ بهذا الحكم مع أنّ حكم رمي المحصَنين أيضًا ذلك لخصوص الواقعة وشيوع الرمي فيهنّ.

﴿وَلَا تَقْبَلُواْ لَهُمْ شَهَٰدَةً﴾ عطفٌ على "اجْلِدوا"، داخل في حكمه، تتمّة له، لِما فيه مِن معنى الزجر؛ لأنّه مؤلم للقلب، كما أنّ الجَلد مؤلم للبدن، وقد آذى المقذوفُ بلسانه فعوقب بإهدار منافعه جزاءً وِفاقًا.

---

١ انظر: الحاوي الكبير للماوردي، ١٣/٢٢٨.

٢ انظر: المبسوط للسرخسي، ٧/١٥٤؛ وبدائع الصنائع للكاساني، ٣/٢٤٠؛ والبيان للعُمراني، ١٣/٣٢٨.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن عبد الله بن مسلمة وأبي زرعة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٣٩.

٤ م: وإذ.

و"اللام" في ﴿لَهُمْ﴾ متعلّقة بمحذوف هو حال مِن ﴿شَهَٰدَةً﴾، قدّمت عليها لكونها نكرة، ولو تأخّرت عنها لكانت صفةً لها. وفائدتها تخصيص الردّ بشهادتهم الناشئة عن أهليّتهم الثابتة لهم عندَ الرمي، وهو السرّ في قبول شهادة الكافر المحدود في القذف بعد التوبة والإسلام؛ لأنّها ليست ناشئةً مِن أهليّته السابقة؛ بل مِن أهليّةٍ حدثت له بعد إسلامه، فلا يتناولها الردّ، فتدبّر ودَع عنك ما قيل مِن أنّ المسلمين لا يَعبأون بسَبّ الكفّار، فلا يلحق المقذوفَ بقذفِ / الكافر مِن الشّين والشّنار ما يلحقه بقذف المسلم،[1] فإنّ ذلك بدون ما مرّ [١٥٣ظ] مِن الاعتبار تعليل في مقابلة النصّ، ولا يخفى حاله، فالمعنى: لا تقبلوا منهم شهادةً مِن الشهادات حالَ كونها حاصلةً لهم عند الرمي.

﴿أَبَدًا﴾ أي: مدّةَ حياتهم وإن تابوا وأصلحوا، لِما عرفت مِن أنّه تتمّة للحدّ، كأنّه قيل: فاجلدوهم ورُدّوا شهادتَهم، أي: فاجمعوا لهم الجلد والردّ، فيبقى كأصله.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ كلام مستأنَف مقرِّر لِما قبله، ومبيِّن لسوءِ حالهم عند الله عزّ وجلّ. وما في اسم الإشارة مِن معنى البُعد للإيذان ببُعد منزلتهم في الشرّ والفساد، أي: أولئك هم المَحكوم عليهم بالفِسق، والخروجِ عن الطاعة، والتجاوزِ عن الحدود، الكاملون فيه، كأنّهم هم المستحِقّون لإطلاق اسم الفاسق عليهم، لا غيرُهم مِن الفَسَقة.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٥﴾

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ﴾ استثناء مِن "الفاسقين"،[2] كما يُنبئ عنه التعليل الآتي. ومحلّ المستثنى النصب؛ لأنّه عن موجَب. وقوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾ لتهويل المَتوب عنه، أي: مِن بعد ما اقترفوا ذلك الذنب العظيم الهائل، ﴿وَأَصۡلَحُواْ﴾ أي: أصلحوا أعمالهم التي مِن جملتها ما فرَط منهم بالتلافي والتدارك، ومنه الاستسلام للحدّ، والاستحلال مِن المقذوف. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾

---

[1] قاله الزمخشري في الكشّاف، ٣/٢١٤.

[2] في الآية السابقة.

تعليل لِما يفيده الاستثناء مِن العفو عن المؤاخذة بموجَب الفسق، كأنّه قيل: فحينئذٍ لا يؤاخذهم الله تعالى بما فرَط منهم، ولا ينظمهم في سِلك الفاسقين؛ لأنّه تعالى مبالغ في المغفرة والرحمة.

هذا، وقد علّق الشافعي رحمه الله الاستثناء بالنهي، فمحلّ المستثنى حينئذ الجرّ على البدليّة مِن الضمير في ﴿لَهُمْ﴾،[1] وجعلَ "الأبد" عبارةً عن مدّة كونه قاذفًا، فتنتهي بالتوبة، فتُقبل شهادته بعدها.[2]

﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٦﴾

[١٥٤و] ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ﴾ / بيان لحكم الرامين لأزواجهم خاصّةً، بعد بيان حكم الرامين لغيرهنّ، لكن لا بأن يكون هذا مخصِّصًا للمحصَنات بالأجنبيّات ليلزم بقاء الآية السابقة ظنّيّة فلا يثبت بها الحدّ، فإنّ مِن شرائط التخصيص[3] أن لا يكون المخصِّص متراخي النزول؛ بل بكونه ناسخًا لعمومها ضرورةَ تراخي نزولها -كما سيأتي- فيبقى الآية السابقة قطعيّة الدلالة فيما بقي بعد النسخ، لِما بُيّن في موضعه أنّ دليل النسخ غير معلَّل.

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ﴾ يشهدون بما رموهنّ به مِن الزنا. وقُرئ بتأنيث الفعل.[4] ﴿إِلَّآ أَنفُسُهُمْ﴾ بدل مِن ﴿شُهَدَآءُ﴾ أو صفة لها على أنّ ﴿إِلَّا﴾ بمعنى "غير".

جُعِلوا مِن جملة الشهداء إيذانًا مِن أوّل الأمر بعدم إلغاءِ قولهم بالمرّة، ونظمِه في سِلك الشهادة في الجملة، وبذلك ازداد حسنُ إضافة الشهادة إليهم في قوله تعالى: ﴿فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ﴾ أي: شهادة كلّ واحد منهم، وهو مبتدأ، وقوله تعالى: ﴿أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍ﴾ خبره، أي: فشهادتهم المشروعة أربعُ شهادات ﴿بِٱللَّهِ﴾

---

[1] في الآية السابقة.
[2] انظر: الحاوي الكبير للماوردي، ١٧/٢٥.
[3] س: التخصّص.
[4] أي: "تكُنْ". قراءة شاذّة، عزاها ابن خالويه إلى بعضهم، وعزاها الكرماني إلى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم. انظر: مختصر شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٠٢؛ وشواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٤٠.

متعلّق بـ﴿شَهَٰدَٰتٍ﴾ لِقُربها، وقيل: بـ﴿شَهَٰدَةُ﴾ لِتقدّمها. وقُرئ: "أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ"[1] بالنصب على المصدر، والعاملُ ﴿فَشَهَٰدَةُ﴾ على أنّه إمّا خبر لمبتدأ محذوف، أي: فالواجب شهادة أحدهم، وإمّا مبتدأ محذوف الخبرِ، أي: فشهادة أحدهم واجبة.

﴿إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أي: فيما رماها به مِن الزنا، وأصله "على أنّه"... إلخ، فحُذف الجارّ، وكُسرت ﴿إِنَّ﴾، وعُلّق العامل عنها للتأكيد.

﴿وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٧﴾

﴿وَٱلْخَٰمِسَةُ﴾ أي: الشهادة الخامسة للأربع المتقدّمة، أي: الجاعلةُ لها خمسًا بانضمامها إليهنّ، وإفرادُها عنهنّ مع كونها شهادةً أيضًا لاستقلالها بالفحوى، ووَكادتِها في إفادة ما يقصد بالشهادة مِن تحقيق الخبر، وإظهارِ الصدق. وهي مبتدأ، خبره: ﴿أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ فيما رماها به مِن الزنا، فإذا لاعَنَ الزوجُ حُبست الزوجة حتّى تعترف فتُرجَمَ، أو تُلاعِن.

﴿وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٨﴾

﴿وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ﴾ أي: العذابَ الدنيوي، وهو الحبس المُغيّا على أحد الوجهين بالرجم الذي هو أشدّ / العذاب، ﴿أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ﴾ أي: الزوجَ ﴿لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ أي: فيما رماني به مِن الزنا. [١٥٤ظ]

﴿وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٩﴾

﴿وَٱلْخَٰمِسَةَ﴾ بالنصب عطفًا على ﴿أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍ﴾،[2] ﴿أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ﴾ أي: الزوجُ ﴿مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أي: فيما رماني به مِن الزنا. وقُرئ: "وَالْخَامِسَةُ" بالرفع[3] على الابتداء. وقُرئ: "أَنْ" بالتخفيف في الموضعين،

---

[1] قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر وشعبة. النشر لابن الجزري، ٢/٣٣٠.

[2] في الآية السابقة.

[3] قرأ بها جميع القرّاء العشر غير حفص. انظر: النشر لابن الجزري، ٢/٣٣١.

ورَفعِ "اللَّعنة" و"الغضب".[١] وقُرِئ: "أَنْ غَضِبَ اللهُ".[٢] وتخصيص الغضب بجانب المرأة للتغليظ عليها، لِما أنّها مادّة الفجور، ولأنّ النساء كثيرًا ما يستعملن اللعن، فربّما يجترئن على التفوّه به لسقوط وقعه عن قلوبهنّ بخلاف غضبه تعالى.

رُوي أنّ آية القذف لمّا نزلت قرأها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم على المنبر، فقام عاصم بن عديّ الأنصاري رضي الله عنه فقال: «جعلني الله فداك، إن وجَد رجل مع امرأته رجلًا فأخبَرَ جُلدَ ثمانين ورُدّت شهادته وفُسِّق، وإن ضربه بالسيف قُتل، وإن سَكت سَكت على غيظ، وإلى أن يجيء بأربعة شهداء فقد قضى الرجل حاجته ومضى، اللّهمّ افتَح»، وخرَج، فاستقبله هلال بن أميّة،[٣] أو عُويمِر،[٤] فقال: «ما وراءك؟» قال: «شرّ، وجدتُ على امرأتي خولة -وهي بنتُ عاصم- شريكَ بن سحماء»،[٥] فقال: «واللهِ، هذا سُؤالي، ما أسرع ما ابتُلِيتَ به»، فرجَعا فأخبرا رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم، فكلّم خولة فأنكرت، فنزلَت، فلاعَنَ بينهما.[٦]

---

١ قرأ: "أَنْ لَعْنَةُ اللهِ عَلَيْهِ" نافع ويعقوب. وقرأ: "أَنْ غَضَبُ اللهِ عَلَيْهَا" يعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٣٠/٢.

٢ قرأ بها نافع. النشر لابن الجزري، ٣٣٠/٢.

٣ هو هلال بن أميّة بن عامر بن قيس بن عبد الأعلم بن عامر بن كعب بن واقف الأنصاري الواقفي. شهدَ بدرًا وما بعدها. وهو أحد الثلاثة الذين تِيب عليهم. قال الحافظ ابن حجر: «أخرج ابن شاهين عن عكرمة بن هلال بن أميّة أنّه أتى عمرَ، فذكر قصّة اللِّعان مطوّلة. وهذا لو ثبت لدلّ على أنّ هلال بن أميّة عاش إلى خلافة معاوية حتى أدرك عكرمة الرواية عنه، ولكنّ عطاء بن عجلان متروك، ويحتمل أيضًا أن يكون عكرمة أرسل الحديث عنه». **الإصابة** لابن حجر، ٤٢٨/٦.

٤ هو عُوَيمر بن أبي أبيض العجلاني. وقال الطبراني: هو عُوَيمر بن الحارث بن زيد بن جابر بن الجدّ بن العجلان. و"أبيض" لقَب لأحد آبائه. **الإصابة** لابن حجر، ٦٢٠/٤.

٥ شريك بن سَحْماء، وهي أمّه. واسم أبيه: عبدة بن مغيث بن الجدّ بن العجلان البلوي، حليف الأنصار. يقال: إنّه شهِد مع أبيه أحُدًا، ويقال: إنّ شريك بن سَحماء بعثه أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه رسولًا إلى خالد بن الوليد وهو باليمامة، وبعثه عمر رضي الله عنه رسولًا إلى عمرو بن العاص حين أذِن له أن يتوجّه إلى فتح مصر. انظر: **الإصابة** لابن حجر، ٢٧٩/٣.

٦ **الكشّاف** للزمخشري، ٢١٦/٣. قال الزيلعي: «غريب بهذا السياق، وفيه تخليط، فإنّ حديث عاصم بن عدي رواه البخاري ومسلم عن ابن عبّاس مِن غير هذا الوجه، وروى مسلم أوّله عن ابن مسعود، وليس فيه ذكر الأسامي. وقصّة هلال وشريك رواها مسلم، وليس فيها ذكر عاصم وغيره. ونقله الثعلبي هكذا بتمامه عن ابن عبّاس». **تخريج أحاديث الكشّاف** للزيلعي، ٤٢١/٢.

والفُرقة الواقعة باللِّعان في حكم التطليقة البائنة عند أبي حنيفة ومحمّد رحمهما الله تعالى، ولا يتأبّد حكمها، حتّى إذا أكذبَ الرجلُ نفسه بعد ذلك فحُدَّ جاز له أن يتزوّجها. وعند أبي يوسف وزُفر[1] والحسن بن زياد[2] والشافعي رحمهم الله تعالى[3] / هي فُرقة بغير طلاق توجب تحريمًا مؤبّدًا، ليس لهما اجتماع بعد ذلك أبدًا.[4] [١٥٥و]

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ۝١٠﴾

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ التفات إلى خطاب الرامين والمرميّات بطريق التغليب لتوفية مقام الامتنان حقّه. وجواب ﴿لَوْلَا﴾ محذوف لتهويله والإشعارِ بضيق العبارة عن حصره، كأنّه قيل: لولا تفضّله تعالى عليكم ورحمته، وأنّه تعالى مبالغ في قبول التوبة، حكيم في جميع أفعاله وأحكامه التي مِن جملتها ما شرع لكم مِن حكم اللعان، لكان ما كان ممّا لا يحيط به نطاق البيان.

ومِن جملته أنّه تعالى لو لم يشرع لهم ذلك لوجب على الزوج حدّ القذف مع أنّ الظاهر صدقه؛ لأنّه أعرف بحال زوجته، وأنّه لا يفتري عليها لاشتراكهما في الفضاحة. وبعد ما شرَعَ لهم ذلك لو جعل شهاداته موجبةً لحدّ الزنا عليها لفات النظر لها، ولو جعل شهاداتها موجبة لحدّ القذف عليه لفات النظر له، ولا ريبَ في خروج الكلّ عن سَنن الحكمة والفضل والرحمة.

---

[1] هو زُفر بن الهذيل بن قيس العنبري، مِن تميم، أبو الهذيل (ت. ١٥٨هـ/٧٧٥م)، الفقيه، المجتهد، صاحب الإمام أبي حنيفة. أصله مِن أصبهان. أقام بالبصرة وولي قضاءها، وتُوفّي بها. وهو أحد العشرة الذين دوّنوا الكتب. جمع بين العلم والعبادة. وكان يقول: «نحن لا نأخذ بالرأي ما دام أثر، وإذا جاء الأثر تركنا الرأي». انظر: **سير أعلام النبلاء** للذهبي، ٣٨/٨؛ **والأعلام** للزركلي، ٤٥/٢.

[2] هو الحسن بن زياد اللؤلؤي الكوفي، أبو عليّ (ت. ٢٠٤هـ/٨١٩م)، القاضي، فقيه العراق، صاحب الإمام أبي حنيفة. كان أحد الأذكياء البارعين في الرأي، وليَ القضاء بعد حفص بن غياث، ثمّ عزَل نفسَه. مِن كتبه: **أدب القاضي، ومعاني الإيمان، والنفقات، والخراج، والفرائض، والوصايا**. انظر: **سير أعلام النبلاء** للذهبي، ٥٤٣/٩؛ **والأعلام** للزركلي، ١٩١/٢.

[3] س – تعالى.

[4] انظر: **الهداية** للمَرغيناني، ٢٧١/٢؛ **وردّ المحتار** لابن عابدين، ٤٨٨/٣؛ **والحاوي الكبير** للماوردي، ٧٥/١١؛ **والمهذّب** للشيرازي، ٩١/٣.

فجعَل شهاداتِ كلٍّ منهما مع الجزم بكذب أحدهما حتمًا دَارِئةً لِما توجّه إليه مِن الغائلة الدنيويّة، وقد ابتُلي الكاذب منهما في تضاعيف شهاداته مِن العذاب بما هو أتمّ ممّا درأتْه عنه وأطَمّ. وفي ذلك مِن أحكام الحِكَم البالغة وآثار التفضّل والرحمة ما لا يخفى، أمّا على الصادق فظاهر، وأمّا على الكاذب فهو إمهاله والستر عليه في الدنيا، / ودرْءُ الحدّ عنه، وتعريضُه للتوبة حسبما يُنبئ عنه التعرّض لعنوان توّابيّته سبحانه، ما أعظمَ شأنه، وأوسعَ رحمته، وأدقَّ حكمته. [١٥٥ظ]

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١١﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ﴾ أي: بأبلغ ما يكون مِن الكذب والافتراء. وقيل: هو البهتان، لا تشعر به حتّى يفجَأك، وأصله الإفك، وهو القلب؛ لأنّه مأفوك عن وجهه وسَننه، والمراد به ما أُفِك به الصدِّيقةُ أُمُّ المؤمنين رضي الله تعالى عنها. وفي لفظ "المجيء" إشارة إلى أنّهم أظهروه مِن عند أنفسهم مِن غير أن يكون له أصل.

وذلك أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كان إذا أراد سفَرًا أقرَع بين نسائه، فأيّتهنّ خرجت قُرعتُها استصحبَها، قالت عائشة رضي الله تعالى[1] عنها: «فأقرَع بيننا في غزوة غزاها -قيل: غزوة بني المصطلق-[2] فخرج سهمي، فخرجت معه صلّى الله عليه وسلّم بعد نزول آية الحجاب، فحُمِلتُ في هَودج،[3] فسِرنا حتّى إذا قفَلنا ودنَونا مِن المدينة نزلنا منزلًا، ثمّ نُودي بالرحيل، فقُمت ومشَيت حتّى جاوزت الجيش، فلمّا قضيتُ شأني أقبلتُ إلى رحلي، فلمستُ صدري فإذا عِقدي مِن جَزْع ظَفارِ[4] قد انقطع، فرجعتُ فالتمسته، فحبسني ابتغاؤه، وأقبل الرهط

---

[1] س - تعالى.

[2] بنو المُصْطَلِق: بطن مِن خُزاعة مِن الأزْد مِن القحطانيّة، وهم بنو المُصْطَلِق، واسمه جذيمة بن سعد بن عمرو بن عامر بن لحيّ. **نهاية الأرب للقلقشندي**، ص ٧٢.

[3] "الهَودج" بفتح الهاء مركَب مِن مراكب النساء. **شرح النووي على صحيح مسلم**، ١٠٤/١٧.

[4] "الجَزْع" بفتح الجيم وإسكان الزاي؛ وهو خرز يماني. وأمّا "ظَفارِ" فبفتح الظاء المعجمة وكسر الراء، وهي مبنيّة على الكسر، تقول: هذه ظَفارِ، ودخلت ظَفارِ، وإلى ظَفارِ، بكسر الراء بلا تنوين في الأحوال كلِّها، وهي قرية في اليمن. **شرح النووي على صحيح مسلم**، ١٠٤/١٧.

الذين كانوا يَرْحَلون بي،[١] فاحتملوا هَودجي فرَحَلوه على بعيري، وهم يحسبون أنّي فيه لخفّتي، فلم يستنكروا خِفّة الهَودج، وذهبوا بالبعير، ووجدت عِقدي بعد ما استمرّت الجيش، فجئت منازلَهم وليس فيها داعٍ ولا مجيب، فتيمّمت منزلي، وظننت أنّي سيفقدونني ويعودون في طلبي، فبينا أنا جالسة في منزلي غلبتني عيني فنِمت، وكان / صفوان بن المعطَّل السلمي[٢] مِن وراء الجيش، فلمّا رآني [١٥٦و] عرفني، فاستيقظت باسترجاعه، فخمّرت وجهي بجِلبابي، ووالله ما تكلّمنا بكلِمة، ولا سمعتُ منه كلمة غيرَ استرجاعه، وهَوَى حتّى أناخ راحلتَه فوطِئ على يديها، فقُمت إليها فركبتُها، وانطلق يقود بي الراحلةَ حتّى أتينا الجيش موعرين[٣] في نَحر الظهيرة[٤] وهم نزول، وافتقدني الناس حين نزلوا، وماج القوم في ذكري، فبينا الناس كذلك إذ هجَمتُ عليهم فخاض الناس في حديثي، فهلَك مَن هلَك».[٥]

وقوله تعالى: ﴿عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾، أي: جماعة، وهي مِن العشرة إلى الأربعين، وكذا العِصابة، وهم عبد الله بن أبيّ، وزيد بن رفاعة،[٦] وحسّان بن ثابت، ومِسطح بن أثاثة، وحمنةُ بنت جحش،[٧] ومَن ساعدهم.

---

[١] أي: يجعلون الرَّحْل على البعير. وهو معنى قولها: "فرَحَلوه" بتخفيف الحاء. **شرح النووي على صحيح مسلم**، ١٧/١٠٤.

[٢] هو صفوان بن المعطّل بن رُبَيْعة بن خزاعي بن محارب بن مرّة بن فالج بن ذكوان السلمي، ثمّ الذكواني (ت. ١٩هـ/٦٧٠م). سكَن المدينة، وشهِد الخندق والمشاهد في قول الواقدي، ويقال: أوّل مشاهِده المُريسيع. يقال: عاش إلى خلافة معاوية، فغزا الروم، فاندقّت ساقه، ثمّ نزل يُطاعن حتّى مات. وقال ابن السُّكن مثله، لكن قال: في خلافة عمر. انظر: **الإصابة** لابن حجر، ٣/٣٥٦؛ و**الاعلام** للزركلي، ٣/٢٠٦.

[٣] كذا في الأصول الخطّيّة بالعين، والأصحّ بالغين، قال النووي رحمه الله: «المُوغِر بالغين المعجمة: النازل في وقت الوَغْرة بفتح الواو وإسكان الغين، وهي شدّة الحرّ، كما فسّرها في الكتاب في آخر الحديث، وذكَر هناك أنّ منهم مَن رواه "موعرين" بالعين المهملة، وهو ضعيف». **شرح النووي على صحيح مسلم**، ١٧/١٠٥.

[٤] "نحر الظهيرة": وقت القائلة وشدّة الحرّ. **شرح النووي على صحيح مسلم**، ١٧/١٠٥.

[٥] **صحيح البخاري**، ٥/١١٦ (٤١٤١)؛ **صحيح مسلم**، ٤/٢١٢٩ (٢٧٧٠).

[٦] لم أجد له ترجمة. وقال الألوسي: «وعدّ بعضهم مع الأربعة المذكورين: زيدَ بن رفاعة، ولم نرَ فيه نقلًا صحيحًا، وقيل: إنّه خطأ». **روح المعاني** للألوسي، ٩/٣١١.

[٧] هي حَمْنة بنت جَحش الأسديّة، أخت أمّ المؤمنين زينب وإخوتها، وكانت زوج مصعب بن عمير، فقتل عنها يومَ أُحُد، فتزوّجها طلحة بن عبيد الله فولَدت له محمّدًا وعمران. قال ابن عبد البرّ: «كانت مِن المبايِعات، وشهِدت أحُدًا، فكانت تسقي العطشى، وتحمل الجرحى وتُداويهم». انظر: **الإصابة** لابن حجر، ٨/٨٨.

وقوله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم﴾ استئناف خوطب به رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وأبو بكر وعائشة وصفوان تسليةً لهم مِن أوّل الأمر، والضمير لـ﴿ٱلْإِفْكِ﴾. ﴿بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ لاكتسابكم به الثواب العظيم، وظهورِ كرامتكم على الله عزّ وجلّ بإنزال ثماني عشرة آية في نزاهة ساحتكم، وتعظيمِ شأنكم، وتشديدِ الوعيد فيمَن تكلّم فيكم، والثناءِ على مَن ظنّ بكم خيرًا.

﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم﴾ أي: مِن أولئك العُصبة ﴿مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ﴾ بقدرِ ما خاض فيه. ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ﴾ أي: معظَمه. وقُرئ بضمّ الكاف،[1] وهي لغة فيه. ﴿مِنْهُمْ﴾ مِن العُصبة، وهو ابن أبيّ، فإنّه بدأ به وأذاعه بين الناس عداوةً لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم. وقيل: هو وحسّان ومِسطح، فإنّهما شايَعاه بالتصريح به، فإفراد الموصول حينئذ باعتبار الفوج أو الفريق أو نحوهما. / ﴿لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي: في الآخرة، أو في الدنيا أيضًا، فإنّهم جُلِدُوا ورُدّت شهادتهم، وصار ابنُ أبيّ مطرودًا مشهودًا عليه بالنفاق، وحسّانُ أعمى وأشلَّ اليدين، ومِسطح مكفوفَ البصر. وفي التعبير عنه بـ﴿ٱلَّذِى﴾ وتكريرِ الإسناد وتنكيرِ العذاب ووصفِه بالعِظَم مِن تهويل الخَطْب ما لا يخفى. [١٥٦ظ]

﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ۝١٢﴾

﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ تلوين للخطاب وصرفٌ له عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وذويه إلى الخائضين بطريق الالتفات لتشديد ما في ﴿لَوْلَا﴾ التحضيضيّة مِن التوبيخ، ثمّ العدولُ عنه إلى الغيبة في قوله تعالى: ﴿ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ لتأكيد التوبيخ والتشنيع، لكن لا بطريق الإعراض عنهم وحكايةِ جناياتهم لغيرهم على وجه المُباثّة؛ بل بالتوسّل بذلك إلى وصفهم بما يوجب الإتيانَ بالمحضَّض عليه ويقتضيه اقتضاءً تامًّا، ويزجرهم عن ضدّه زجرًا بليغًا، فإنّ كون وصفِ الإيمان ممّا يحملهم على إحسان الظنّ، ويكفّهم عن إساءته بأنفسهم، أي: بأبناء جنسهم النازلين منزلةَ أنفسهم، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ

---

[1] قرأ بها يعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٣١/٢.

﴿تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة، ٨٥/٢]، وقولِه تعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [الحجرات، ١١/٤٩] ممّا لا ريب فيه، فإخلالهم بموجَب ذلك الوصف أقبَحُ وأشنَعُ، والتوبيخُ عليه أدخلُ، مع ما فيه مِن التوسّل به إلى التصريح بتوبيخ الخائضات.

ثمّ إن كان المراد بالإيمان الإيمانَ الحقيقي فإيجابه لِما ذُكر واضح، والتوبيخُ خاصّ بالمؤمنين، وإن كان مطلقَ الإيمان الشاملَ لِما يظهره المنافقون أيضًا فإيجابه له مِن حيث إنّهم كانوا يحترزون عن إظهار ما ينافي مُدّعاهم، فالتوبيخ حينئذ متوجِّه إلى الكلّ، وتوسيط الظرف بين ﴿لَوْلَا﴾ وفعلها لتخصيص التحضيض بأوّل زمانِ سماعهم. وقَصر التوبيخ / على تأخير الإتيان بالمحضَّض عليه عن ذلك الآن والتردّدُ فيه ليفيد أنّ عدم الإتيان به رأسًا في غاية ما يكون مِن القباحة والشناعة، أي: كان الواجب أن يَظنّ المؤمنون والمؤمنات أوّلَ ما سمعوه ممّن اخترعه بالذاتِ أو بالواسطة مِن غير تلعثم وتردّد بمثلهم مِن آحاد المؤمنين خيرًا. [١٥٧و]

﴿وَقَالُواْ﴾ في ذلك الآن: ﴿هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ أي: ظاهر مكشوف كونُه إفكًا، فكيف بالصدّيقةِ ابنةِ الصدّيق أمِّ المؤمنين حُرمةِ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم.

﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾﴾

﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ إمّا مِن تمام القول المحضَّض عليه، مَسوقٌ لحثّ السامعين على إلزام المُسمِعين، وتكذيبِهم إثر تكذيب ما سمعوه منهم بقولهم: هذا إفك مبين، وتوبيخِهم على تركه، أي: هلّا جاء الخائضون بأربعة شهداء يشهدون على ما قالوا.

﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُواْ﴾ بهم، وإنّما قيل: ﴿بِٱلشُّهَدَآءِ﴾ لزيادة التقرير، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى الخائضين،[١] وما فيه مِن معنى البعد للإيذان بغلوّهم في الفساد، وبُعدِ منزلتهم في الشرّ، أي: أولئك المفسدون ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: في حكمه وشرعِه المؤسَّس على الدلائل الظاهرة المتقَنة ﴿هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ الكاملون في الكذب، المشهودُ عليهم بذلك، المستحقّون لإطلاق الاسم عليهم دون غيرهم، ولذلك رُتّب عليه الحدّ خاصّةً.

---

[١] س: الحائضين.

وإمّا كلامٌ مبتدَأ[1] مَسوق مِن جهته تعالى للاحتجاج على كذبهم بكون ما قالوه قولًا لا يساعده الدليل أصلًا.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾﴾

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ خطاب للسامعين والمُسمِعين جميعًا ﴿وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ مِن فنون النعم التي مِن جملتها الإمهال للتوبة، ﴿وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ مِن ضروب الآلاء التي مِن جملتها العفو والمغفرة بعد التوبة ﴿لَمَسَّكُمْ﴾ عاجلًا ﴿فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ﴾ بسبب ما خضتم فيه مِن حديث الإفك. والإبهام لتهويل أمره والاستهجانِ بذكره. / يقال: "أفاض في الحديث"، و"خاض"، و"اندفع"، و"هَضَب"؛ بمعنًى. [١٥٧ظ] ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ يُستحقَر دونه التوبيخ والجَلد.

﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾

﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ﴾ بحذف إحدى التاءين ظرف للمَسّ، أي: لَمسّكم ذلك العذاب العظيم وقت تلقّيكم إيّاه مِن المخترعين ﴿بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ و"التلقّي" و"التلقّف" و"التلقّن" معانٍ متقاربة، خلا أنّ في **الأوّل** معنى الاستقبال، وفي **الثاني** معنى الخطف والأخذِ بسرعة، وفي **الثالث** معنى الحذق والمهارة.

وقُرئ: "تَتَلَقَّونَهُ"[2] على الأصل، و"تَلْقَوْنَهُ"[3] مِن "لَقِيَه"، و"تِلْقَوْنَهُ" بكسر حرف المضارَعة،[4] و"تُلْقُونَهُ"[5] مِن "إلقاء بعضهم على بعض"، و"تَلِقُونَهُ"،[6]

---

[1] السياق: إمّا مِن تمام القول... وإمّا كلامٌ مبتدَأ...

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبيّ رضي الله عنه. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٤٠.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن السميفع. **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٢٢/٨.

[4] قراءة شاذّة، ذكرها البيضاوي بغير نسبة. انظر: **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١٠١/٤.

[5] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن السميفع. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٤٠.

[6] قراءة شاذّة، مرويّة عن عائشة وابن عبّاس رضي الله عنهم وعيسى وابن يَعمر وزيد بن علي. انظر: **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٤٠؛ و**البحر المحيط** لأبي حيّان، ٢٢/٨.

و"تَأْلِقُونَهُ"[١] مِن "الوَلْقِ" و"الأَلْق" وهو الكذب، و"تَثْقَفُونَهُ"[٢] مِن "ثَقِفتُه" إذا طلبتَه فوجدتَه، و"تَقَفَّوْنَهُ"،[٣] أي: تَتَبَّعُونَه.[٤]

﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ أي: تقولون قولًا مختصًّا بالأفواه مِن غير أن يكون له مصداق ومنشأ في القلوب؛ لأنّه ليس بتعبيرٍ عن علمٍ به في قلوبكم، كقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾ [آل عمران، ١٦٧/٣]. ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا﴾ سهلًا لا تَبِعةَ له، أو ليس له كثير عقوبة، ﴿وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ﴾ والحال أنّه عنده عزّ وجلّ ﴿عَظِيمٌ﴾ لا يقادَر قدرُه في الوِزر واستجرار العذاب.

﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾﴾

﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ مِن المخترِعين أو المُشايِعين[٥] لهم ﴿قُلْتُم﴾ تكذيبًا لهم وتهويلًا لِما ارتكبوه: ﴿مَّا يَكُونُ لَنَآ﴾ ما يمكننا ﴿أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا﴾ وما يصدر عنّا ذلك بوجهٍ مِن الوجوه. وحاصله نفي وجود التكلّم به، لا نفي وجوده على وجه الصحّة أو الاستقامة والانبِغاء. و﴿هَٰذَا﴾ إشارة إلى ما سمعوه. وتوسيط الظرف بين ﴿لَوْلَآ﴾ و﴿قُلْتُم﴾ لِما مرّ مِن تخصيص التحضيض بأوّل وقت السماع، وقَصرِ التوبيخ واللوم على تأخير القول المذكور عن ذلك الآن، ليفيد أنّه / المحتمِلُ [١٥٨و] للوقوع، المفتقرُ إلى التحضيض على تركه، وأمّا تركُ القولِ نفسِه رأسًا فممّا لا يتوهّم وقوعه حتّى يُحضّض على فعله، ويُلام على تركه، وعلى هذا ينبغي أن يُحمل ما قيل: إنّ المعنى أنّه كان الواجب عليهم أن يتفادَوا أوّلَ ما سمعوا بالإفك عن التكلّم به، فلمّا كان ذكر الوقت أهمَّ وجب التقديم.

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أسلم وأبي جعفر. البحر المحيط لأبي حيّان، ٢٢/٨.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن أمّ سفيان بن عيينة وكان أبوها يقرأ بحرف ابن مسعود رضي الله عنه. انظر: شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٤٠؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٢٢/٨.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة كذلك عن أمّ سفيان بن عيينة. انظر: المحتسب لابن جنّي، ١٠٤/٢؛ وشواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٤٠.

[٤] ط س: تتبّعونه. | وفي هامش م: و"تَقَفَّوْنَهُ" مِن "تَقَفَّيْتُ" تَتَبَّعْتُ. «كواشي». | تفسير الكواشي، ٣٤٩ظ.

[٥] م: المشائعين. | وهو مِن المُشايَعة، وهي المُتابَعة والمُطاوَعة. انظر: لسان العرب لابن منظور، «شيع».

وأمّا ما قيل مِن أنّ ظروف الأشياء مُنزَّلةٌ مَنزلةَ أنفسها لوقوعها فيها، وأنّها لا تنفكّ عنها، فلذلك يُتّسع فيها ما لا يتّسع في غيرها، فهي ضابطةٌ ربّما تُستعمل فيما إذا وُضع الظرف موضع المظروف، بأن جُعل مفعولًا صريحًا لفعل مذكور، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ﴾ [الأعراف، ٦٩/٧]، أو مقدَّرٍ، كعامّة الظروف المنصوبة بإضمار "اذكُرْ"، وأمّا ههنا فلا حاجة إليها أصلًا لِما تحقّقت أنّ مَناط التقديم توجيهُ التحضيض إليه، وذلك يتحقّق في جميع متعلَّقات الفعل، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَوۡلَآ إِن كُنتُمۡ غَيۡرَ مَدِينِينَ ۞ تَرۡجِعُونَهَآ﴾ [الواقعة، ٨٦/٥٦-٨٧].

﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾ تعجّب ممّن تفوّه به، وأصله أن يُذكر عند معاينة العجيب مِن صنائعه تعالى تنزيهًا له سبحانه مِن أن يصعب عليه أمثاله، ثمّ كثر حتّى استُعمل في كلّ متعجَّب منه، أو تنزيهٌ له تعالى مِن أن يكون حرمة نبيّه فاجرةً، فإنّ فجورها تنفير عنه، ومخِلّ بمقصود الزواج، فيكون تقريرًا لِما قبله، وتمهيدًا لقوله تعالى: ﴿هَٰذَا بُهۡتَٰنٌ عَظِيمٞ﴾ لِعَظَمة المبهوت عليه، واستحالة صدقه، فإنّ حقارة الذنوب وعِظمَها باعتبار متعلَّقاتها.

﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثۡلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ۞﴾

﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: ينصحُكم ﴿أَن تَعُودُواْ لِمِثۡلِهِۦٓ﴾ أي: كراهةَ أن تعودُوا، أو يزجرُكم مِن أن تعودُوا، أو في أن تعودوا، مِن قولِك: "وعظتُه في كذا فتركَه". ﴿أَبَدًا﴾ أي: مدَّةَ حياتِكم ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ فإنّ الإيمان وازع عنه لا محالةَ، وفيه تهييج وتقريع.

﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۞﴾

﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ الدالّةَ على الشرائع ومحاسن الآداب دلالة واضحةً لتتّعظوا وتتأدّبوا بها، أي: ينزّلُها كذلك، أي: مبيَّنةً ظاهرة الدلالة على معانيها، لا أنّه يبيّنها بعد أن لم يكن كذلك، وهذا كما في قولهم: "سبحانَ مَن صغّر البعوض وكبّر الفيل"، أي: خلقهما صغيرًا وكبيرًا، ومنه قولك:

"ضيّق فمَ الركيّة، ووسّع أسفلها". وإظهار الاسم الجليل في موقع الإضمار لتفخيم شأن البيان.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأحوال جميع مخلوقاته جلائلِها ودقائقِها، ﴿حَكِيمٌ﴾ في جميع تدابيره وأفعاله، فأنَّى يمكن صدقُ ما قيل في حقّ حُرمةِ مَن اصطفاه لرسالاته، وبعثه إلى كافّة الخلق ليرشدهم إلى الحقّ، ويزكّيهم، ويطهّرهم تطهيرًا. وإظهار الاسم الجليل ههنا لتأكيد استقلال الاعتراض التذييلي، والإشعارِ بعلّيّة الألوهيّة للعلم والحكمة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ﴾ أي: يريدون ويقصدون ﴿أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ﴾ أي: تنتشر الخَصلة المفرطة في القُبح، وهي الفِرية والرمي بالزنا، أو نفس الزنا، فالمراد بشيوعها شيوعُ خبرها، أي: يحبّون شيوعها، ويتصدّون مع ذلك لإشاعتها، وإنّما لم يصرَّح به اكتفاءً بذكر المحبّة، فإنّها مستتبعة له لا محالةَ.

﴿فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ متعلّق بـ﴿تَشِيعَ﴾، أي: تشيع فيما بين الناس، وذِكر المؤمنين لأنّهم العمدة فيهم، أو بمُضمَر هو حال مِن ﴿ٱلْفَٰحِشَةُ﴾، فالموصول عبارة عن المؤمنين خاصّةً، أي: يحبّون أن تشيع الفاحشة كائنةً في حقّ المؤمنين وفي شأنهم. ﴿لَهُمْ﴾ بسبب ما ذكر ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ مِن الحَدّ وغيره ممّا يتّفق مِن البلايا الدنيويّة. ولقد ضرب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عبدَ الله بنَ أبيّ وحسّانًا ومِسطحًا حدَّ القذف. وضرب صفوانُ حسّانًا ضربةً بالسّيف، وكُفّ بصره. ﴿وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ مِن عذاب النار، وغير ذلك ممّا يعلمه الله عزّ وجلّ.

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ﴾ جميع الأمور التي مِن جملتها / ما في الضمائر مِن المحبّة [١٥٩و] المذكورة، ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ما يعلمه تعالى؛ بل إنّما تعلمون ما ظهر لكم مِن الأقوال والأفعال المحسوسة، فابنوا أمركم على ما تعلمونه، وعاقبوا في الدنيا على ما تشاهدونه مِن الأحوال الظاهرة، والله سبحانه هو المتولّي للسرائر، فيعاقب في الآخرة على ما تُكِنّه الصدور.

هذا إذا جُعل العذابُ العظيم في الدنيا عبارةً عن حدّ القذف أو منتظِمًا له كما أطبَق عليه الجمهور، أمّا إذا أُبقِيَ[1] على إطلاقه يُراد بالمحبّة نفسُها مِن غير أن يقارنها التصدّي للإشاعة -وهو الأنسب بمساق النظم الكريم- فيكون ترتيب العذاب عليها تنبيهًا على أنّ عذاب مَن يباشر الإشاعة ويتولّاها أشدّ وأعظم، ويكون الاعتراض التذييلي -أعني: قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾- تقريرًا لثبوت العذاب العظيم لهم وتعليلًا له.

﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ٢٠﴾

﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ﴾ تكرير للمِنّة بترك المعاجَلة بالعقاب للتنبيه على كمال عِظَم الجَريرة، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ عطفٌ على ﴿فَضۡلُ ٱللَّهِ﴾. وإظهار الاسم الجليل لتربية المهابة، والإشعارِ باستتباع صفة الألوهيّة للرأفة والرحمة. وتغيير سَبكه وتصديرُه بحرف التحقيق لِما أنّ المراد بيان اتّصافه تعالى في ذاته بالرأفة التي هي كمال الرحمة، وبالرحيميّة التي هي المبالغة فيها على الدوام والاستمرار، لا بيانُ حدوث تعلّق رأفته ورحمته بهم كما أنّه المراد بالمعطوف عليه. وجواب ﴿لَوۡلَا﴾ محذوف لدلالة ما قبله عليه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٢١﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ أي: لا تسلُكوا مسالكَه في كلّ ما تأتون وما تذرون مِن الأفاعيل التي مِن جملتها إشاعة الفاحشة وحبّها. وقُرئ: "خُطْوَاتِ" بسكونِ الطّاءِ[2] وبفتحِها[3] أيضًا. ﴿وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ وُضِع الظاهِران / مَوضع ضميرَيهما، حيثُ لم يُقَل: "ومَن يتّبعْها" أو "ومَن يتّبع خطواتِه" [١٥٩ظ]

---

[1] ط س: أبقى.

[2] قرأ بها نافع وأبو عمرو وحمزة وخلف وشعبة والبزي بخُلف عنه. النشر لابن الجزري، ٢/٢١٦.

[3] قراءة شاذّة، ذكرها الزجّاج بغير نسبة، ونقلها عنه الكرماني. انظر: **معاني القرآن وإعرابه** للزجّاج، ٤/١/٢٤١؛ **وشواذّ القراءات** للكرماني، ص ٨١.

لزيادة التقرير، والمبالغةِ في التنفير والتحذير. ﴿فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ﴾ علّة للجزاء وضعت موضعه، كأنّه قيل: فقد ارتكب الفحشاء والمنكر؛ لأنّ دأبه المستمرّ أن يأمر بهما، فمَن اتّبع خطواتِه فقد امتثل بأمره قطعًا.

و﴿ٱلۡفَحۡشَآءِ﴾ ما أفرَط قُبحه كالفاحشة، و﴿ٱلۡمُنكَرِ﴾ ما ينكره الشرع. وضمير ﴿إِنَّهُۥ﴾ للشيطان، وقيل: للشأن على رأي مَن لا يوجب عودَ الضمير مِن الجملة الجزائيّة إلى اسم الشرط، أو على أنّ الأصل "يأمره". وقيل: هو عائد إلى ﴿مَن﴾ أي:[1] فإنّ ذلك المتّبِع يأمر الناسَ بهما؛ لأنّ شأن الشيطان هو الإضلال، فمَن اتّبعه يترقّى مِن رتبة الضلال والفسادِ إلى رتبة الإضلال والإفساد.

﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ﴾ بما مِن جُملته هاتيك البيانات، والتوفيق للتوبة الماحِصة للذنوب، وشرع الحدود المكفّرة لها. ﴿مَا زَكَىٰ﴾ أي: ما طهُر مِن دنَسها. وقُرئ: "مَا زَكّى" بالتشديد،[2] أي: ما طهّر الله تعالى.

و﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنكُم﴾ بيانيّة، وفي قوله تعالى: ﴿مِّنۡ أَحَدٍ﴾ زائدة، و﴿أَحَدٍ﴾ في حيّز الرفع على الفاعليّة على القراءة الأولى، وفي محلّ النصب على المفعوليّة على القراءة الثانية. ﴿أَبَدًا﴾ لا إلى نهاية. ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي﴾ يطهّر ﴿مَن يَشَآءُ﴾ مِن عباده، بإفاضة آثار فضله ورحمته عليه، وحملِه على التوبة، ثمّ قبولِها منه، كما فعلَ بكم.

﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ مبالِغ في سمع الأقوال التي مِن جملتها ما أظهروه مِن التوبة، ﴿عَلِيمٌ﴾ بجميع / المعلومات التي مِن جملتها نيّاتهم، وفيه حثّ لهم على الإخلاص في التوبة. وإظهار الاسم الجليل للإيذان باستدعاء الألوهيّة للسمع والعلم مع ما فيه مِن تأكيد استقلال الاعتراض التذييلي. [١٦٠و]

﴿وَلَا يَأۡتَلِ أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤۡتُوٓاْ أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ٢٢﴾

---

[1] س – أي.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حيوة ورَوح وأبي البرهسم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٤١.

﴿وَلَا يَأۡتَلِ﴾ أي: لا يحلِف، "افتعال" مِن "الألية"، وقيل: لا يقصّر مِن "الألْو". والأوّل هو الأظهر لنزوله في شأن الصدّيق رضي الله عنه حين حلَف أن لا يُنفق على مِسطح بعدُ،[١] وكان ينفق عليه لكونه ابنَ خالته، وكان مِن فقراء المهاجرين. ويعضده قراءة مَن قرأ: "وَلَا يَتَأَلَّ".[٢]

﴿أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ﴾ في الدين، وكفى به دليلًا على فضل الصدّيق رضي الله تعالى عنه، ﴿وَٱلسَّعَةِ﴾ في المال ﴿أَن يُؤۡتُوٓاْ﴾ أي: على أن لا يؤتوا. وقُرئ بتاء الخطاب[٣] على الالتفات. ﴿أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ صفات لموصوف واحد، جيء بها بطريق العطف تنبيهًا على أنّ كلًّا منها علّة مستقلّة لاستحقاقه الإيتاءَ، وقيل: لِموصوفاتٍ أقيمت هي مُقامها، وحذفُ المفعول الثاني لغاية ظهوره، أي: على أن لا يؤتِيَهم شيئًا.

﴿وَلۡيَعۡفُواْ﴾ ما فرَط منهم ﴿وَلۡيَصۡفَحُوٓاْ﴾ بالإغضاء عنه. وقد قُرئ الأمرانِ بتاءِ الخطابِ[٤] على وَفق قوله تعالى: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾ أي: بمقابلة عفوكم وصفحكم وإحسانكم إلى مَن أساء إليكم. ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ مبالغ في المغفرة والرحمة مع كمال قدرته على المؤاخذة وكثرة ذنوب العباد الداعية إليها. وفيه ترغيب عظيم في العفو، ووعد كريم بمقابلته، كأنّه قيل: ألا تحبّون أن يغفر الله لكم، فهذا مِن موجباته. رُوي أنّه صلّى الله عليه وسلّم قرأها على أبي بكر رضي الله عنه، فقال: «بلى أُحِبّ أن يغفر الله لي»، فرَجع إلى مِسطح نفقتَه، وقال: «واللهِ لا أنزعها أبدًا».[٥]

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٢٣﴾﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ﴾ أي: العفائفَ ممّا رُمِينَ به مِن الفاحشة ﴿ٱلۡغَٰفِلَٰتِ﴾ منها على الإطلاق بحيث لم يخطر ببالهنّ شيء / منها ولا مِن مقدّماتها أصلًا، [١٦٠ظ]

---

١ صحيح البخاري، ١١٦/٥ (٤١٤١)؛ صحيح مسلم، ٢١٢٩/٤ (٢٧٧٠).

٢ قرأ بها أبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٣٣١/٢.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حيوة وابن قطيب وأبي البرهسم. البحر المحيط لأبي حيّان، ٢٥/٨.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه والحسن وسفيان بن الحسين وأسماء بنت يزيد. البحر المحيط لأبي حيّان، ٢٥/٨.

٥ صحيح البخاري، ١١٦/٥ (٤١٤١)؛ صحيح مسلم، ٢١٢٩/٤ (٢٧٧٠).

ففيها مِن الدلالة على كمال النزاهة ما ليس في ﴿ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾، أو السليماتِ الصدور النقيّاتِ القلوب عن كلّ سوءٍ.

﴿ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ أي: المتّصفات بالإيمان بكلّ ما يجب أن يؤمَن به مِن الواجبات والمحظورات وغيرها إيمانًا حقيقيًّا تفصيليًّا كما يُنبئ عنه تأخير ﴿ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ عمّا قبلها مع أصالة وصف الإيمان، فإنّه للإيذان بأنّ المراد بها المعنى الوصفي المُعرِب عمّا ذكر، لا المعنى الاسمي المصحّح لإطلاق الاسم في الجملة كما هو المتبادَر على تقدير التقديم.

والمراد بها عائشة الصدّيقة رضي الله تعالى عنها، والجمعُ باعتبار أنّ رميها رميٌ لسائر أمّهات المؤمنين لاشتراك الكلّ في العصمة والنزاهة والانتساب إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، كما في قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء، ١٠٥/٢٦]، ونظائرِه.

وقيل: أمّهات المؤمنين، فيدخل فيهنّ الصدّيقة دخولًا أوّليًّا. وأمّا ما قيل مِن أنّ المراد هي الصدّيقة، والجمعُ باعتبار استتباعها للمتّصفات بالصفات المذكورة مِن نساء الأمّة،[١] فيأباه أنّ العقوبات المرتّبة على رمي هؤلاء عقوباتٌ مختصّةٌ بالكفّار والمنافقين. ولا ريب في أنّ رمي غير أمّهات المؤمنين ليس بكفر، فيجب أن يكون المراد إيّاهنّ على أحد الوجهين، فإنّهنّ قد خُصِصْنَ مِن بين سائر المؤمنات، فجُعل رميُهنّ كفرًا إبرازًا لِكرامتهنّ على الله عزّ وجلّ، وحمايةً لحِمى الرسالة عن أن يَحوم حوله أحد بسوء، حتّى إنّ ابن عبّاس رضي الله عنهما جعله أغلظَ مِن سائر أفراد الكفر حين سُئل عن هذه الآيات، فقال: «مَن أذنب ذنبًا ثمّ تاب منه قُبلت توبته إلّا مَن خاض في أمر عائشة رضي الله تعالى عنها».[٢] وهل هو منه رضي الله عنه إلّا لِتهويل أمر الإفك والتنبيهِ على أنّه كفرٌ غليظ.

﴿لُعِنُوا۟﴾ بما قالوا في حقّهنّ ﴿فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ حيث يلعنهم اللاعنون مِن المؤمنين والملائكة أبدًا، ﴿وَلَهُمْ﴾ مع ما ذكر مِن اللعن الأبدي ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

---

١ الكشّاف للزمخشري، ٢٢٤/٣.

٢ الكشّاف للزمخشري، ٢٢٣/٣؛ اللباب لابن عادل، ٣٣٨/١٤.

هائل لا يُقادَر قدره لغاية عِظم ما اقترفوه مِن الجناية.

﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾

[١٦١و] وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ﴾... إلخ، / إمّا متّصل بما قبله، مَسوق لتقرير العذاب المذكور بتعيين وقت حلوله، وتهويلِه ببيان ظهور جنايتهم الموجبة له مع سائر جناياتهم المستتبعة لعقوباتها على كيفيّةٍ هائلة وهيئةٍ خارقة للعادات، فـ﴿يَوْمَ﴾ ظرف لِما في الجارّ والمجرور المتقدّم مِن معنى الاستقرار، لا لِـ﴿عَذَابٌ﴾[1] وإن أغضَينا عن وصفه؛ لإخلاله بجزالة المعنى.

وإمّا منقطع عنه مَسوق لتهويل اليوم بتهويل ما يحويه على أنّه ظرف لفعل مؤخَّر قد ضُرِب عنه الذكرُ صفحًا للإيذان بقصور العبارة عن تفصيل ما يقع فيه مِن الطامّة التامّة والداهية العامّة، كأنّه قيل: يومَ تشهد عليهم ﴿أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ يكون مِن الأحوال والأهوال ما لا يحيط به حيطة المقال، على أنّ الموصول المذكور عبارة عن جميع أعمالهم السيّئة وجناياتِهم القبيحة، لا عن جنايتهم المعهودة فقط.

ومعنى شهادة الجوارح المذكورة بها أنّه تعالى يُنطِقُها بقدرته، فتُخبر كلّ جارحة منها بما صدَر عنها مِن أفاعيل صاحبها، لا أنّ كلًّا منها تخبر بجنايتهم المعهودة فحسبُ،[2] والموصول المحذوف عبارة عنها وعن فنون العقوبات المترتّبة عليها كافّة، لا عن إحداهما خاصّةً، ففيه مِن ضروب التهويل بالإجمال والتفصيل ما لا مزيد عليه.

وجَعلُ الموصول المذكور عبارةً عن خصوص جنايتهم المعهودة، وحملُ شهادة الجوارح على إخبار الكلّ بها فقط؛ تحجيرٌ للواسع، وتهوينٌ لأمر الوازع. والجمعُ بين صيغتي الماضي والمستقبل للدلالة على استمرارهم عليها في الدنيا. وتقديم ﴿عَلَيْهِمْ﴾ على الفاعل للمسارعة إلى بيان كون الشهادة ضارّةً لهم، مع ما فيه مِن التشويق إلى المؤخَّر كما مرّ مرارًا.

---

[1] في الآية السابقة.

[2] انظر: **الكشّاف** للزمخشري، ٣/٢٢٣.

﴿يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ وَيَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ ٱلۡمُبِينُ ٢٥﴾

وقوله تعالى: ﴿يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ﴾ أي: يوم إذ تشهد جوارحهم بأعمالهم القبيحة يعطيهم الله تعالى جزاءَهم الثابتَ الذي يحَقّ أن يثبت لهم لا محالةَ وافيًا كاملًا، كلام مبتدأ مَسوق لبيان ترتيب حكم الشهادة عليها، متضمّن لبيان ذلك المبهم المحذوف على وجه الإجمال، ويجوز أن يكون / ﴿يَوۡمَ تَشۡهَدُ﴾[1] ظرفًا لـ﴿يُوَفِّيهِمُ﴾، و﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ بدلًا منه. وقيل: هو منصوب على أنّه مفعولٌ لفعل مضمَر، أي: اذكُر يوم تشهد. وقُرئ: "يَوْمَ يَشْهَدُ"[2] بالتذكير للفصل. [١٦١ظ]

﴿وَيَعۡلَمُونَ﴾ عند معاينتهم الأهوالَ والخطوبَ حسبما نطق به **القرآن الكريم** ﴿أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ الثابت الذي يحقّ أن يثبت لا محالةَ في ذاته وصفاته وأفعاله التي مِن جملتها كلماتُه التامّات المنبئة عن الشئون التي يشاهدونها منطبقةً عليها، ﴿ٱلۡمُبِينُ﴾ المظهِرُ للأشياءِ كما هي في أنفسها، أو الظاهرُ أنّه هو الحقّ. وتفسيره بظهور ألوهيّته تعالى وعدمِ مشاركة الغير له فيها، وعدمِ قدرة ما سواه على الثواب والعقاب؛[3] ليس له كثير مناسبة للمقام، كما أنّ تفسير ﴿الحقّ﴾ بـ"ذي الحقّ البيّن"، أي: العادل الظاهر عدلُه،[4] كذلك.

ولو تتبّعتَ ما في الفرقان المجيد مِن آيات الوعيد الواردة في حقّ كلّ كَفّارٍ مَرِيد وجبّار عنيد لا تجد شيئًا منها فوق هاتيك القَوارع المشحونة بفنون التهديد والتشديد، وما ذاك إلّا لإظهار منزلة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم في علوّ الشأن والنباهة، وإبرازِ رتبة الصدّيقة رضي الله[5] عنها في العفّة والنزاهة.

﴿ٱلۡخَبِيثَٰتُ لِلۡخَبِيثِينَ وَٱلۡخَبِيثُونَ لِلۡخَبِيثَٰتِۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ٢٦﴾

وقوله تعالى: ﴿ٱلۡخَبِيثَٰتُ﴾... إلخ كلامٌ مستأنَف مؤسَّس على قاعدة السنّة الإلهيّة الجارية فيما بين الخلق على موجب أنّ لله مُلكًا يسوق الأهل إلى الأهل،

---

١ في الآية السابقة.

٢ قرأ بها حمزة والكسائي وخلف، النشر لابن الجزري، ٢/٣٣١.

٣ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤/١٠٣.

٤ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤/١٠٣.

٥ س + تعالى.

أي: الخبيثات مِن النساء ﴿لِلْخَبِيثِينَ﴾ مِن الرجال، أي: مختصّات بهم لا يكَدْنَ يتجاوَزْنَهم إلى غيرهم على أنّ "اللام" للاختصاص. ﴿وَٱلْخَبِيثُونَ﴾ أيضًا ﴿لِلْخَبِيثَٰتِ﴾ لأنّ المجانَسة مِن دواعي الانضمام.

﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ منهنّ ﴿لِلطَّيِّبِينَ﴾ منهم، ﴿وَٱلطَّيِّبُونَ﴾ أيضًا ﴿لِلطَّيِّبَٰتِ﴾ منهنّ بحيث لا يكادون يجاوزونهنّ إلى مَن عداهنّ، وحيث كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أطيبَ الأطيبين وخيرةَ الأوّلين والآخرين تبيّن كونُ الصدّيقة رضي الله تعالى عنها مِن أطيب الطيّبات بالضرورة، واتّضح بطلان ما قيل / في [١٦٢و] حقّها مِن الخرافات حسبما نطق به قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ على أنّ الإشارة إلى أهل البيت المنتظِمين للصدّيقة انتظامًا أوّليًا. وقيل: إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم والصدّيقة وصفوان. وما في اسم الإشارة مِن معنى البعد للإيذان بعلوّ رتبة المشار إليهم وبُعد منزلتهم في الفضل، أي: أولئك الموصوفون بعلوّ الشأن مبرّءون ممّا يقوله أهل الإفك في حقّهم مِن الأكاذيب الباطلة.

وقيل: الخبيثات مِن القول للخبيثين مِن الرجال والنساء، أي: مختصّة ولائقة بهم، لا ينبغي أن تُقال في حقّ غيرهم، وكذا الخبيثون مِن الفريقين أحقّاء بأن يقال في حقّهم خبائثُ القول. والطيّبات مِن الكلِم للطيّبين مِن الفريقين، مختصّةٌ وحقيقةٌ بهم، وهم أحقّاء بأن يقال في شأنهم طيّباتُ الكلِم، أولئك الطيّبون مبرّءون ممّا يقول الخبيثون في حقّهم، فمآله تنزيه الصدّيقة أيضًا.

وقيل: خبيثات القول مختصّة بالخبيثين مِن فريقَي الرجال والنساء، لا تصدر عن غيرهم، والخبيثون مِن الفريقين مختصّون بخبائث القول متعرّضون لها، والطيّبات مِن الكلام للطيّبين مِن الفريقين، أي: مختصّة بهم، لا تصدر عن غيرهم، والطيّبون مِن الفريقين مختصّون بطيّبات الكلام، لا يصدر عنهم غيرها، أولئك الطيّبون مبرّءون ممّا يقوله الخبيثون مِن الخبائث، أي: لا يصدر عنهم مثل ذلك، فمآله تنزيه القائلين: ﴿سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾.[1]

---

[1] النور، ١٦/٢٤.

﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ عظيمة لِما لا يخلو عنه البشر مِن الذنب، ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ هو الجنّة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَاۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ﴾ إثر ما فُصِل الزواجر عن الزنا وعن رميِ العفائف عنه، شُرِع في تفصيل الزواجر عمّا عسى يؤدّي إلى أحدهما مِن مخالطة الرجال بالنساء، ودخولِهم عليهنّ في أوقات الخلوات، وتعليمِ الآداب الجميلة، والأفاعيلِ المرضيّة المستتبعة لسعادة الدارين. ووصفُ البيوت بمغايرة بيوتهم خارج / مخرجَ العادة التي هي سُكنى كلّ أحد في مِلكه، وإلّا فالآجر والمُعير [١٦٢ظ] أيضًا منهيّان عن الدخول بغير إذنٍ. وقُرئ: "بِيُوتًا غَيْرَ بِيُوتِكُمْ" بكسر الباء[١] لأجل الياء.

﴿حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ﴾ أي: تستأذنوا مَن يملك الإذن مِن أصحابها، مِن "الاستئناس" بمعنى الاستعلام، مِن "آنَس الشيءَ" إذا أبصرَه، فإنّ المستأذِن مستعلِم للحال، مستكشِف أنّه هل يؤذَن له، أو مِن "الاستئناس" الذي هو خلاف الاستيحاش، لِما أنّ المستأذِن مستوحِش خائف أن لا يؤذَنَ له، فإذا أُذِن له استأنس.

﴿وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ عند الاستئذان. رُوي عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم «أنّ التسليم أن يقول: السلام عليكم، أأدخل؟ ثلاث مرّات، فإن أُذِن له دخل، وإلّا رجع».[٢]

---

[١] قرأ بها ابن كثير وابن عامر وحمزة والكسائي وخلف وقالون وشعبة. النشر لابن الجزري، ٢/٢٢٦.

[٢] أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٠٣/٤. وفي سنن الترمذي، ٥٣/٥ (٢٦٩٠)، عن أبي سعيد، قال: استأذن أبو موسى على عمر، فقال: «السلام عليكم أأدخل؟» قال عمر: «واحدة»، ثم سكت ساعة، ثم قال: «السلام عليكم أأدخل؟» قال عمر: «ثنتان»، ثمّ سكت ساعة فقال: «السلام عليكم أأدخل؟» فقال عمر: «ثلاث»، ثم رجع، فقال عمر للبوّاب: «ما صنَع؟» قال: «رجَع»، قال: «عليّ به»، فلمّا جاءه، قال: «ما هذا الذي صنعت؟» قال: «السنّة»، قال: «آلسنّة؟ والله لتأتيني على هذا ببرهان أو ببيّنة أو لأفعلنّ بك»، قال: فأتانا ونحن رفقة مِن الأنصار، فقال: يا معشر الأنصار، ألستم أعلم الناس بحديث رسول الله صلّى الله عليه وسلّم؟ ألم يقل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «الاستئذان ثلاث، فإن أُذِن لك، وإلّا فارجع» فجعل القوم يمازحونه، قال أبو سعيد: «ثم رفعت رأسي إليه» فقلت: «فما أصابك في هذا مِن العقوبة فأنا شريكك». قال: فأتى عمر فأخبره بذلك، فقال عمر: «ما كنت علمت بهذا».

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ أي: الاستئذان مع التسليم ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ مِن أن تدخلوا بغتةً، أو على تحيّة الجاهليّة حيث كان الرجل منهم إذا أراد أن يدخل بيتًا غير بيته يقول: "حُيِّيتم صباحًا"، "حُيِّيتم مساءً"، فيدخلُ، فربّما أصابَ الرجلَ مع امرأته في لِحاف.[١] ورُوي أنّ رجلًا قال للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «أأستأذن على أمّي؟» قال: «نعم»، قال: «ليس لها خادم غيري، أأستأذن عليها كلّما دخلتُ؟» قال عليه السلام: «أتحبّ أن تراها عريانةً؟» قال: «لا»، قال عليه السلام: «فاستأذِنْ».[٢]

﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ متعلّق بمُضمَر، أي: أُمِرتم به، أو قيل لكم هذا كي تتذكّروا وتتّعظوا وتعملوا بموجَبه.

﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾

﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا﴾ أي: ممّن يملك الإذن على أنّ مَن لا يملكه مِن النساء والولدان وجدانُه كفُقدانه، أو أحدًا أصلًا على أنّ مدلول النصّ الكريم عبارةً هو النهي عن دخول البيوت الخالية، لِما فيه مِن الاطّلاع على ما يعتاد الناس إخفاءَه، مع أنّ التصرّف في مِلك الغير محظور مطلقًا، وأمّا حرمة دخول ما فيه النساء والولدان فثابتة بدلالة النصّ؛ لأنّ الدخول حين حَرُم مع ما ذُكر مِن العلّة فلَأن يَحرم عند انضمام / ما هو أقوى منه إليه -أعني الاطّلاعَ على العورات- أولى. [١٦٣و]

﴿فَلَا تَدْخُلُوهَا﴾ واصبروا ﴿حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ أي: مِن جهة مَن يملك الإذن عند إتيانه. ومَن فسّره بقوله: حتّى يأتي مَن يأذن لكم،[٣] أو حتّى تجدوا مَن يأذن لكم؛[٤] فقد أبرز القطعي في معرض الاحتمال.

ولمّا كان جعلُ النهي مُغيًّا بالإذن ممّا يوهم الرخصة في الانتظار على الأبواب مطلقًا؛ بل في تكرير الاستئذان ولو بعد الردّ دُفعَ ذلك بقوله تعالى:

---

١ الكشّاف للزمخشري، ٢٢٧/٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٠٣/٤.

٢ الموطّأ لمالك، ١٤٠٢/٥ (٣٥٣٨)؛ السنن الكبرى للبيهقي، ١٥٧/٧ (١٣٥٥٧).

٣ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٠٤/٤.

٤ الكشّاف للزمخشري، ٢٢٧/٣.

﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُواْ فَٱرْجِعُواْ﴾ أي: إن أُمِرتم مِن جهة أهل البيت بالرجوع سواء كان الآمر ممّن يملك الإذن أو لا فارجعوا، ولا تُلِحّوا بتكرير الاستئذان كما في الوجه الأوّل، ولا تَلَجُّوا[1] بالإصرار على الانتظار إلى أن يأتي الآذِن كما في الثاني، فإنّ ذلك ممّا يجلب الكراهة في قلوب الناس، ويقدح في المروءة أيّ قدْح.

﴿هُوَ﴾ أي: الرجوع ﴿أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾ أي: أطهر ممّا لا يخلو عنه اللجّ والعناد والوقوف على الأبواب مِن دنَس الدناءة والرذالة. ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ فيعلم ما تأتون وما تذَرون ممّا كُلِّفتموه فيجازيكم عليه.

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾﴾

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُواْ﴾ أي: بغير استئذانٍ ﴿بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ﴾ أي: غيرَ موضوعة لسُكنى طائفة مخصوصة[2] فقط؛ بل ليتمتّع بها مَن يضطرّ إليها كائنًا مَن كان مِن غير أن يتّخذها سَكنًا، كالرُّبُط والخانات والحوانيت والحمّامات ونحوها، فإنّها مُعدّة لمصالح الناس كافّة، كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ﴾ فإنّه صفة للبيوت، أو استئناف جارٍ مجرى التعليل لعدم الجُناح، أي: فيها حقّ تمتّع لكم، كالاستكنان مِن الحرّ والبرد، وإيواءِ الأمتعة والرِّحال والشِّرى والبيع والاغتسال وغير ذلك ممّا يليق بحال البيوت وداخليها، فلا بأس بدخولها بغير استئذان مِن داخليها مِن قبلُ، ولا ممّن يتولّى أمرها ويقوم بتدبيرها مِن قُوّام الرباطات والخانات وأصحاب الحوانيت ومتصرّفي الحمّامات ونحوهم.

ويُروى أنّ أبا بكر رضي الله عنه / قال: «يا رسول الله، إنّ الله تعالى قد أنزل عليك آية في الاستئذان، وإنّا نختلف في تجاراتنا، فننزل هذه الخانات، أفَلا ندخلها إلّا بإذن؟» فنزلت.[3] وقيل: هي الخَرِبات يُتبرّز فيها، و"المتاع" التبرّز. والظاهر أنّها مِن جملة ما ينتظمه البيوت، لا أنّها المُرادة فقط. [١٦٣ظ]

---

[1] وفي هامش م: لجّ يَلَجّ. | انظر: لسان العرب لابن منظور، «لجج». وفيه: «ولَجّ في الأمر: تمادى عليه وأبَى أن ينصرف عنه».

[2] س: محصوصة.

[3] الكشّاف للزمخشري، ٢٢٨/٣؛ اللباب لابن عادل، ٣٤٨/١٤.

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ﴾ وعيد لِمَن يدخل مدخلًا مِن هذه المداخل لفسادٍ أو اطّلاعٍ على عورات.

﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ ذَٰلِكَ أَزۡكَىٰ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ٣٠﴾

﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ شروع في بيان أحكامٍ كلّيّة شاملة للمؤمنين كافّةً، يندرج فيها حكم المستأذِنين عند دخولهم البيوت اندراجًا أوّليًا. وتلوين الخطاب وتوجيهُه إلى رسولِ الله صلّى الله عليه وسلّم وتفويضُ ما في حيّزه مِن الأوامر والنواهي إلى رأيِه عليه السلام لأنّها تكاليف متعلّقة بأمور جزئيّة كثيرة الوقوع حقيقةٍ بأن يكون الآمرُ بها والمتصدّي لتدبيرها حافظًا ومهيمنًا عليهم. ومفعول الأمر أمرٌ آخر قد حُذف تعويلًا على دلالة جوابه عليه، أي: قل لهم: غُضُّوا ﴿يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ﴾ عمّا يحرُم ويقتصروا به على ما يحِلّ ﴿وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡ﴾ إلّا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم. وتقييد الغضّ بـ﴿مِنۡ﴾ التبعيضيّة دون الحفظ لِما في أمر النظر مِن السّعة. وقيل: المراد بالحفظ ههنا خاصّةً هو الستر.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ما ذكر مِن الغضّ والحفظ ﴿أَزۡكَىٰ لَهُمۡ﴾ أي: أطهَر لهم مِن دنَس الريبة. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾ لا يخفى عليه شيء ممّا يصدر عنهم مِن الأفاعيل التي مِن جملتها إحالةُ النظر، واستعمالُ سائر الحواسّ، وتحريكُ الجوارح، وما يقصدون بذلك فليكونوا على حذَر منه في كلّ ما يَأتون وما يَذرون.

﴿وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَغۡضُضۡنَ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِنَّ وَيَحۡفَظۡنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنۡهَاۖ وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّۖ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوۡ ءَابَآئِهِنَّ أَوۡ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوۡ أَبۡنَآئِهِنَّ أَوۡ أَبۡنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوۡ إِخۡوَٰنِهِنَّ أَوۡ بَنِيٓ إِخۡوَٰنِهِنَّ أَوۡ بَنِيٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوۡ نِسَآئِهِنَّ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيۡرِ أُوْلِي ٱلۡإِرۡبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفۡلِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يَظۡهَرُواْ عَلَىٰ عَوۡرَٰتِ ٱلنِّسَآءِۖ وَلَا يَضۡرِبۡنَ بِأَرۡجُلِهِنَّ لِيُعۡلَمَ مَا يُخۡفِينَ مِن زِينَتِهِنَّۚ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٣١﴾

﴿وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَغۡضُضۡنَ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِنَّ﴾ فلا ينظرن إلى ما لا يحلّ لهنّ النظر إليه

﴿وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ بالتستّر أو التصوّن عن الزنا. وتقديم الغضّ لأنّ النظر بَريد الزنا ورائد الفساد. ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ كالحُلِيّ وغيرها ممّا يُتَزيّن به، وفيه مِن المبالغة في النهي عن إبداء مواقعها ما لا يخفى. ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ عند مزاولة الأمور التي لا بدّ منها عادةً كالخاتم والكُحل / والخضاب ونحوها، فإنّ في [١٦٤و] سَترها حرَجًا بيّنًا. وقيل: المراد بالزينة مواضعها على حذف المضاف، أو ما يعمّ المحاسن الخَلقيّة والتزيينيّة. والمستثنى هو الوجه والكفّان؛ لأنّها ليست بعورة.

﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ إرشاد إلى كيفيّة إخفاء بعض مواقع الزينة بعد النهي عن إبدائها. وقد كانت النساء على عادة الجاهليّة يسدُلن خُمُرهنّ مِن خلفهنّ فتبدو نُحورهنّ وقلائدهنّ مِن جيوبهنّ لوسعتها، فأُمِرن بإرسال خُمُرهنّ إلى جُيوبهنّ سترًا لِما يبدو منها. وقد ضُمِّن الضرب معنى الإلقاء فعُدّي بـ﴿عَلَىٰ﴾. وقُرئ بكسر الجيم[١] كما تقدّم. ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ كُرّر النهي لاستثناء بعض موادّ الرخصة عنه باعتبار الناظر بعد ما استُثني عنه بعض موادّ الضرورة باعتبار المنظور. ﴿إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ فإنّهم المقصودون بالزينة، ولهم أن ينظروا إلى جميع بدنهنّ حتّى الموضع المعهود.

﴿أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ﴾ لكثرة المخالطة الضروريّة بينهم وبينهنّ، وقلّةِ توقّع الفتنة مِن قِبلهم، لِما في طباع الفريقين مِن النُّفرة عن مماسّة القرائب، ولهم أن ينظروا منهنّ ما يبدو عند المِهنة والخدمة. وعدمُ ذكر الأعمام والأخوال لِما أنّ الأحوط أن يتستّرن عنهم حِذارًا مِن أن يصفوهنّ لأبنائهم.

﴿أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾ المختصّات بهنّ بالصحبة والخدمة مِن حرائر المؤمنات، فإنّ الكوافر لا يتحرّجن عن وصفهنّ للرجال. ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ أي: مِن الإماء، فإنّ عبد المرأة بمنزلة الأجنبي منها. وقيل: مِن الإماء والعبيد، لِما رُوي أنّه عليه السلام أتى فاطمة رضي الله تعالى[٢] عنها بعبدٍ وهبَه لها،

---

[١] قرأ بها ابن كثير وحمزة والكسائي وابن ذكوان وشعبة بخُلف عنه. النشر لابن الجزري، ٢/٢٢٦.

[٢] م – تعالى.

[١٦٤ظ] / وعليها ثوب إذا قَنّعت به رأسها لم يبلغ رجليها، وإذا غطّت رجليها لم يبلغ رأسها، فقال عليه السلام: «إنّه ليس عليك بأس، إنّما هو أبوكِ وغلامُكِ».[١]

﴿أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيۡرِ أُوْلِي ٱلۡإِرۡبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ﴾ أي: أولي الحاجة إلى النساء، وهم الشيوخ الهِمّ[٢] والمَمسوحون. وفي المَجبوب والخَصيّ خلاف. وقيل: هم البُلْهُ الذين يتّبعون الناس لفَضل طعامهم، ولا يعرفون شيئًا مِن أمور النساء. وقُرئ: "غَيرَ" بالنصب[٣] على الحاليّة. ﴿أَوِ ٱلطِّفۡلِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يَظۡهَرُواْ عَلَىٰ عَوۡرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ لعدم تمييزهم، مِن "الظهور" بمعنى الاطّلاع، أو لعدم بلوغهم حدّ الشهوة، مِن "الظهور" بمعنى الغلَبة. و"الطفل" جنسٌ وُضع موضع الجمع اكتفاء بدلالة الوصف.

﴿وَلَا يَضۡرِبۡنَ بِأَرۡجُلِهِنَّ لِيُعۡلَمَ مَا يُخۡفِينَ﴾ أي: ما يخفينه مِن الرؤية ﴿مِن زِينَتِهِنَّ﴾ أي: لا يضربن بأرجلهنّ الأرضَ ليتقعقع خَلخالهنّ، فيُعلم أنّهنّ ذوات خَلخال، فإنّ ذلك ممّا يورث الرجالَ مَيلًا إليهنّ، ويوهم أنّ لهنّ مَيلًا إليهم. وفي النهي عن إبداء صوت الحليّ بعد النهي عن إبداء عينها مِن المبالغة في الزجر عن إبداء مواضعها ما لا يخفى.

﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾ تلوين للخطاب وصرفٌ له عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إلى الكلّ بطريق التغليب لإبراز كمال العناية بما في حيّزه مِن أمر التوبة، وأنّها مِن معظمات المهمّات الحقيقة بأن يكون سبحانه وتعالى هو الآمِرَ بها، لِما أنّه لا يكاد يخلو أحد مِن المكلّفين عن نوع تفريط في إقامة مواجب التكاليف كما ينبغي.

وناهيك بقوله صلّى الله عليه وسلّم: «شيّبتني سورة هود»،[٤] لِما فيها مِن قوله عزّ وجلّ: ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ﴾ [هود، ١١/١١٢]، لا سيّما إذا كان المأمورُ به الكفُّ عن الشهوات.

---

[١] سنن أبي داود، ٦/٢٠٠ (٤١٠٦)؛ السنن الكبرى للبيهقي، ٧/١٥٤ (١٣٥٤٥).

[٢] الهِمّ، بالكسر: الكبير الفاني. لسان العرب لابن منظور، «همم».

[٣] قرأ بها ابن عامر وأبو جعفر وشعبة. النشر لابن الجزري، ٢/٣٣٢.

[٤] سنن الترمذي، ٥/٤٠٢ (٣٢٩٧)؛ المستدرك للحاكم، ٢/٣٧٤ (٣٣١٤).

[١٦٥و] / وقيل: توبوا عمّا كنتم تفعلونه في الجاهليّة، فإنّه وإن جُبَّ بالإسلام، لكن يجب الندم عليه والعزمُ على تركه كلّما خطر بباله. وفي تكرير الخطاب بقوله تعالى: ﴿أَيُّهَ[١] ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ تأكيد للإيجاب، وإيذان بأنّ وصف الإيمان موجب للامتثالِ حتمًا. وقُرِئ: "أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ".[٢] ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ تفوزون بذلك سعادةَ الدارين.

﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْۚ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾﴾

﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ﴾ بعدما زجر تعالى عن السِّفاح ومباديه القريبة والبعيدة أمرَ بالنكاح، فإنّه مع كونه مقصودًا بالذات مِن حيث كونُه مناطًا لبقاء النوع خيرُ مَزجرة عن ذلك. و"أيامَى" مقلوب "أيايم" جمعِ "أَيِّم"، وهو مَن لا زوج له مِن الرجال والنساء، بِكرًا كان أو ثيِّبًا، كما يُفصح عنه قول مَن قال:

فإن تَنكحي أنكِحْ وإن تتأيّمي ... وإن كنتُ أفتى منكمُ أتأيّمِ[٣]

أي: زوِّجوا مَن لا زوجَ له مِن الأحرار والحرائر.

﴿وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾ على أنّ الخطاب للأولياء والسادات. واعتبار الصلاح في الأرقّاء لأنّ مَن لا صلاحَ له منهم بمَعزِل مِن أن يكون خليقًا بأن يعتني مولاه بشأنه، ويشفق عليه، ويتكلّف في نظم مصالحه بما لا بدّ منه شرعًا وعادةً مِن بذل المال والمنافع؛ بل حقّه أن لا يستبقيَه عنده، وأمّا عدم اعتبار الصلاح في الأحرار والحرائر فلأنّ الغالب فيهم الصلاح على أنّهم مستبِدّون في التصرّفات المتعلّقة بأنفسهم وأموالهم، فإذا عزموا النكاح فلا بدّ مِن مساعدة الأولياءِ لهم، إذ ليس عليهم في ذلك غرامة حتّى يعتبر في مقابلتها غنيمة عائدة إليهم عاجلة أو آجلة. وقيل: المراد هو الصلاح للنكاح، والقيام بحقوقه.

---

١ م ط س: أيها.

٢ قرأ بها ابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢/٣٣٢.

٣ بغير نسبة في الجليس الصالح للنهرواني، ص ٦٣٩؛ والكشّاف للزمخشري، ٣/٢٣٣. يقول: أوافقك في حالتي التزوّج والتأيّم، وإن كنتُ أفتى منك. فتوح الغيب للطيبي، ١١/٧٣.

﴿إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ إزاحة لِما عسى يكون وازعًا مِن النكاح مِن فقر أحد الجانبين، أي: لا يَمنعنّ فقرُ الخاطب أو المخطوبة مِن المناكحة، فإنّ في فضل الله عزّ وجلّ غُنية عن المال، فإنّه غادٍ ورائحٌ، يرزق مَن يشاء مِن حيث لا يحتسب، أو وعدٌ منه سبحانه بالإغناء لقوله عليه السلام: «اطلبوا الغنى في هذه الآية»،[1] لكنّه مشروط بالمشيئة كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ / يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ﴾ [التوبة، ٢٨/٩]. [١٦٥ظ]

﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ غنيّ ذو سَعة، لا يرزؤه إغناءُ الخلائق، إذ لا نفادَ لِنعمته، ولا غايةَ لقدرته، ومع ذلك ﴿عَلِيمٌ﴾ يبسط الرزق لمَن يشاء ويقدِر حسبما يقتضيه الحكمة والمصلحة.

﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُواْ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾

﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ﴾ إرشاد للعاجزين عن مبادي النكاح وأسبابها إلى ما هو أولى لهم وأحرى بهم بعد بيان جواز مناكحة الفقراء، أي: لِيجتهدْ في العفّة وقمع الشهوة ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾ أي: أسباب نكاح أو لا يتمكّنون ممّا يُنكح به مِن المال ﴿حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ عِدةٌ كريمة بالتفضّل عليهم بالغنى، ولطف لهم في استعفافهم، وتقويةٌ لقلوبهم، وإيذانٌ بأنّ فضله تعالى أولى بالأعفّاء، وأدنى مِن الصلحاء.

﴿وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ بعد ما أُمِر بإنكاح صالحي المماليك الأحقّاءِ بالإنكاح أُمِر بكتابة مَن يستحقّها منهم. و﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ مصدر "كاتَبَ" كـ"المكاتَبة"، أي: الذين يطلبون المكاتبةَ ﴿مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ عبدًا كان أو أمةً.

---

[1] أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٠٥/٤. ولم أجده بهذا اللفظ في كتب الحديث، وبمعناه ما أخرجه الثعلبي في الكشف والبيان، ٩٥/٧، عن ابن عبّاس رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «التمسوا الرزق بالنكاح».

وهي أن يقول المَولى لمَملوكه: "كاتبتُك على كذا درهمًا تؤدّيه إليّ وتَعتِق"، ويقولَ المملوكُ: "قبلتُه" أو نحو ذلك، فإن أدّاه إليه عَتَق. قالوا: معناه: كتبتُ لك على نفسي أن تَعتِق منّي إذا وَفّيتَ بالمال، وكتبتَ لي على نفسك أن تفِي بذلك، أو كتبتُ عليك الوفاءَ بالمال، وكتبتَ عليّ العتقَ عنده.

والتحقيق أنّ المكاتبة اسم للعقد الحاصل مِن مجموع كلاميهما كسائر العقود الشرعيّة المنعقدة بالإيجاب والقبول، ولا ريب في أنّ ذلك لا يصدر حقيقةً إلّا مِن المتعاقدَين. وليس وظيفة كُلّ منهما في الحقيقة إلّا الإتيان بأحد شطرَيه معربًا عمّا يتمّ مِن قِبَله ويصدر عنه مِن الفعل الخاصّ به مِن غير تعرّض لِما يتمّ مِن قِبَل صاحبه ويصدر عنه مِن فعله الخاصّ به، إلّا أنّ كلًّا مِن ذينِك الفعلين لمّا كان بحيث لا يمكن تحقّقه في نفسه إلّا منوطًا بتحقّق الآخر، ضرورةَ أنّ التزام العتق بمقابلة البدل مِن جهة المولى لا يتصوّر تحقّقه وتحصّله إلّا بالتزام البدل مِن طرف / العبد، كما أنّ عقد البيع الذي هو تمليك المبيع [١٦٦و] بالثمن مِن جهة البائع لا يمكن تحقّقه إلّا بتملّكه به مِن جانب المشتري؛ لم يكن[1] بدّ مِن تضمين أحدِهما الآخرَ وقتَ الإنشاء، فكما أنّ قول البائع: "بِعتُ" إنشاء لِعقد البيع على معنى أنّه إيقاع لِما يتمّ مِن قِبَله أصالةً، ولِما يتمّ مِن قِبَل المشتري ضِمنًا، إيقاعًا متوقّفًا على رأيه توقّفًا شبيهًا بتوقّف عقد الفضولي، كذلك قول المَولى: "كاتبتك على كذا" إنشاء لعقد الكتابة، أي: إيقاع لِما يتمّ مِن قِبَله مِن التزام العتق بمقابلة البدل أصالةً، ولِما يتمّ مِن قِبَل العبد مِن التزام البدل ضِمنًا، إيقاعًا متوقّفًا على قَبوله، فإذا قَبِل تمّ العقد.

ومحلُّ الموصول الرفعُ على الابتداء، خبره: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ﴾، و"الفاء" لتضمّنه معنى الشرط، أو النصب على أنّه مفعول لمُضمَر يفسّره هذا. والأمر فيه للندب؛ لأنّ الكتابة عقد يتضمّن الإرفاق، فلا يجب كغيرها، ويجوز حالًا ومؤجّلًا، ومنجّمًا وغير منجّم. وعند الشافعي لا يجوز إلّا مؤجّلًا منجّمًا،[2] وقد فُصّل في موضعه.

---

[1] وفي هامش م: جواب "لَمّا".

[2] انظر: مغني المحتاج للشربيني، ٦/٤٨٦.

﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ أي: أمانةً ورشدًا وقدرةً على أداء البدل بتحصيله مِن وجهٍ حلال، وصلاحًا لا يؤذي الناس بعد العتق وإطلاق العَنان.

﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ أمر للموالي ببذل شيء مِن أموالهم، وفي حكمه حطُّ شيء مِن مال الكتابة، ويكفي في ذلك أقلّ ما يتموَّل. وعن عليّ رضي الله عنه: حطّ الربع.[١] وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: الثلث.[٢] وهو للندب عندنا، وعند الشافعي للوجوب،[٣] ويردّه قوله عليه السلام: «المكاتَب عبد ما بقي عليه درهم»،[٤] إذ لو وجب الحطّ لسقط عنه الباقي حتمًا، وأيضًا لو وجب الحطّ لكان وجوبه معلّقًا بالعقد، فيكون العقد موجِبًا ومسقِطًا معًا، وأيضًا فهو عقد معاوضة، فلا يجبَر على الحطيطة كالبيع.

وقيل: معنى ﴿آتوهم﴾ أقرِضوهُم. وقيل: هو أمر لهم بأن ينفقوا عليهم بعد أن يؤدّوا ويَعتِقوا.

وإضافة المال إليه تعالى ووصفُه بإيتائه إيّاهم للحثّ على الامتثال بالأمر بتحقيق المأمور به، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد، ٥٧/٧]، فإنّ ملاحظة وصول المال إليهم مِن جهته تعالى مع كونه هو المالكَ الحقيقيَّ له / مِن أقوى الدواعي إلى صرفه إلى الجهة المأمور بها. [١٦٦ظ]

وقيل: هو أمر بإعطاء سهمهم مِن الصدقات، فالأمر للوجوب حتمًا، والإضافة والوصف لتعيين المَأخذ. وقيل: هو أمر ندبٍ لعامّة المسلمين بإعانة المكاتَبين بالتصدّق عليهم، ويحلّ ذلك للمولى وإن كان غنيًا لتبدّل العنوان، حسبما ينطق به قوله عليه السلام في حديث بريرةَ:[٥] «هو لها صدقة، ولنا هديّة».[٦]

---

١ انظر: جامع البيان للطبري، ١٧/٢٨٣؛ والكشف والبيان للثعلبي، ٧/٩٧.

٢ معالم التنزيل للبغوي، ٦/٤٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤/١٠٦.

٣ انظر: مغني المحتاج للشربيني، ٦/٤٩١.

٤ سنن أبي داود، ٦/٧١ (٣٩٢٦)؛ السنن الكبرى للبيهقي، ١٠/٥٤٥ (٢١٦٣٨).

٥ هي بَريرة مولاة عائشة رضي الله عنها، قيل: كانت مولاة لقوم مِن الأنصار، وقيل: لبني هلال، فاشترتها عائشة رضي الله عنها، فأعتقتها، وكانت تخدم عائشة قبل أن تشتريَها، وقصّتها في ذلك في الصحيحين. انظر: الإصابة لابن حجر، ٨/٥٠.

٦ صحيح البخاري، ٢/١٢٨ (١٤٩٣)؛ صحيح مسلم، ٢/٧٥٥ (١٠٧٤).

﴿وَلَا تُكْرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمْ﴾ أي: إماءَكم، فإنّ كلًّا مِن "الفتى" و"الفتاة" كناية مشهورة عن العبد والأمة، وعلى ذلك مَبنى قوله عليه السلام: «لِيَقُلْ أحدُكم: فتايَ وفتاتِي، ولا يَقُلْ: عبدي وأمَتي».[١] ولهذه العبارة في هذا المقام باعتبار مفهومها الأصلي حُسن موقع ومزيد مناسبة لقوله تعالى: ﴿عَلَى ٱلْبِغَآءِ﴾ وهو الزنا مِن حيث صدورُه عن النساء؛ لأنّهنّ اللاتي يُتوقّع منهنّ ذلك غالبًا دون مَن عداهنّ مِن العجائز والصغائر.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ ليس لتخصيص النهي بصورة إرادتهنّ التعفّفَ عن الزنا، وإخراجِ ما عداها مِن حُكمه، كما إذا كان الإكراه بسبب كراهتهنّ الزنا لخصوص الزاني، أو لخصوص الزمان، أو لخصوص المكان، أو لغير ذلك مِن الأمور المصحِّحة للإكراه في الجملة؛ بل للمحافظة على عادتهم المستمرّة حيث كانوا يكرهونهنّ على البِغاء، وهنّ يُرِدن التعفّف عنه مع وفور شهوتهنّ الآمرةِ بالفجور، وقصورهنّ في معرفة الأمور الداعية إلى المحاسن الزاجرةِ عن تعاطي القبائح، فإنّ عبد الله بن أُبيّ كانت له ستّ جوارٍ يُكرههنّ على الزنا، وضرَب عليهنّ ضرائب، فشكَت اثنتان منهنّ إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فنزلت.[٢]

وفيه مِن زيادة تقبيح حالهم وتشنيعهم على ما كانوا يفعلونه مِن القبائح ما لا يخفى، فإنّ مَن له أدنى مروءة لا يكاد / يرضى بفجور مَن يَحوِيه حَرَمُه مِن إمائه، فضلًا عن أمرهنّ به، أو إكراهِهنّ عليه، لا سيّما عند إرادتهنّ التعفّف، فتأمّل، ودَعْ عنك ما قيل مِن أنّ ذلك لأنّ الإكراه لا يتأتّى إلّا مع إرادة التحصّن.[٣] وما قيل مِن أنّه إن جُعل شرطًا للنهي لا يلزم مِن عدمه جواز الإكراه لجواز أن يكون ارتفاع النهي لامتناع المنهيّ عنه،[٤] فإنّهما بمَعزِل مِن التحقيق. [١٦٧و]

وإيثارُ كلمة «إنْ» على "إذا" مع تحقّق الإرادة في مورد النصّ حتمًا للإيذان بوجوب الانتهاء عن الإكراه عند كون إرادة التحصّن في حيّز التردّد والشكّ،

---

[١] صحيح البخاري، ١٥٠/٣ (٢٥٥٢)؛ صحيح مسلم، ١٧٦٥/٤ (٢٢٤٩).

[٢] الكشّاف للزمخشري، ٢٣٩/٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٠٦/٤.

[٣] قاله الزمخشري في الكشّاف، ٢٣٩/٣.

[٤] قاله البيضاوي في أنوار التنزيل، ١٠٦/٤.

فكيف إذا كانت محقَّقةَ الوقوع كما هو الواقع، وتعليله بأنّ الإرادة المذكورةَ منهنّ في حيّز الشاذّ النادر[١] مع خلوّه عن الجدوى بالكلّيّة؛ يأباه اعتبارُ تحقّقها إباءً ظاهرًا.

وقوله تعالى: ﴿لِتَبْتَغُواْ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ قيد للإكراه، لكن لا باعتبار أنّه مدار للنهي عنه؛ بل باعتبار أنّه المعتاد فيما بينهم كما قبله، جيء به تشنيعًا لهم فيما هم عليه مِن احتمال الوزر الكبير لأجل النَّزْرِ الحقير، أي: لا تفعلوا ما أنتم عليه مِن إكراههنّ على البِغاء لِطلب المتاع السريع الزوال، الوشيكِ الاضمحلال، فالمراد بالابتغاء الطلبُ المقارن لنيل المطلوب واستيفائه بالفعل، إذ هو الصالح لكونه غايةً للإكراه مترتّبا عليه، لا المطلقُ المتناوِل للطلب السابق الباعث عليه.

﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ﴾... إلخ جملة مستأنَفةٌ سيقت لتقرير النهي وتأكيد وجوب العمل به ببيان خلاص المكرَهات عن عقوبة المكرَهِ عليه عبارةً، ورجوعِ غائلةِ الإكراهِ إلى المكرِهين إشارةً، أي: ومَن يكرههنّ على ما ذكر مِن البِغاء ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: لهنّ، كما وقع في مصحف ابن مسعود، وعليه قراءة ابن عبّاس رضي الله تعالى[٢] عنهم،[٣] وكما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ﴾ أي: كونهنّ مُكرَهاتٍ، على أنّ الإكراه مصدَر مِن المبنيّ للمفعول، / فإنّ توسيطه بين اسم "إنّ" وخبرها للإيذان بأنّ ذلك هو السبب للمغفرة والرحمة. [١٦٧ظ]

وكان الحسن البصري إذا قرأ هذه الآية يقول: "لهنّ واللهِ، لهنّ واللهِ".[٤] وفي تخصيصهما بـ"هنّ" وتعيينِ مدارِهما مع سبق ذكر المكرِهين أيضًا في الشرطيّة دلالة بيّنة على كونهم محرومين منهما بالكلّيّة، كأنّه قيل: لا للمكرِه، ولظهور هذا التقدير اكتُفي به عن العائد إلى اسم الشرط، فتجويزُ تعلّقهما بهم

---

١ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢٤٠/٣.

٢ س – تعالى.

٣ أي: "مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنّ لَهُنّ غَفُورٌ رَحِيمٌ". وهي قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس رضي الله عنهما والحسن وسعيد بن جبير. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٤٢.

٤ الكشف والبيان للثعلبي، ٩٩/٧؛ اللباب لابن عادل، ٣٧٧/١٤.

بشرط التوبة استقلالًا أو معهنّ[١] إخلالٌ بجَزالة النظم الجليل، وتهوينٌ لأمر النهي في مقام التهويل.

وحاجتهنّ إلى المغفرة المُنبئة عن سابقة الإثم إمّا باعتبار أنّهنّ وإن كنّ مكرَهاتٍ لا يخلون في تضاعيف الزنا عن شائبةِ مطاوعةٍ ما بحكم الجِبلّة البشريّة، وإمّا باعتبار أنّ الإكراه قد يكون قاصرًا عن حدّ الإلجاء المزيل للاختيار بالمرّة، وإمّا لغاية تهويل أمر الزنا، وحثِّ المكرَهات على التثبُّتِ في التجافي عنه، والتشديدِ في تحذير المكرِهين ببيان أنّهنّ حيث كنّ عُرضةً للعقوبة لولا أن تداركهنّ المغفرة والرحمة مع قيام العذر في حقهنّ فما حالُ مَن يكرههنّ في استحقاق العقاب؟

﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾﴾

﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾ كلام مستأنَف جيء به في تضاعيف ما ورد مِن الآيات السابقة واللاحقة لبيان جلالة شئونها المستوجِبة للإقبال الكلّي على العمل بمضمونها. وصُدِّر بالقسَم الذي يُعرِب عنه "اللام" لإبراز كمال العناية بشأنه، أي: وباللهِ لقد أنزلنا إليكم في هذه السورة الكريمة آياتٍ مبيّناتٍ لكلّ ما بكم حاجة إلى بيانه مِن الحدود وسائر الأحكام والآداب وغير ذلك ممّا هو مِن مبادي بيانِها، على أنّ إسناد التبيين إليها مجازي، أو آياتٍ واضِحات تصدّقها الكتب القديمة والعقول السليمة، على أنّ ﴿مُبَيِّنَٰتٍ﴾ مِن "بَيّن" بمعنى "تَبيّن"، ومنه المَثل: «قد بَيّن الصبحُ لِذي عَينين».[٢]

وقُرئ على صيغة المفعول،[٣] أي: التي بُيِّنَت وأوضِحت في هذه السورة في معاني الأحكام والحدود، وقد جُوّز أن يكون الأصل "مُبيَّنًا فيها الأحكام"، فاتُّسِع في الظرف بإجرائه مُجرى المفعول.

---

١ انظر: **الكشّاف** للزمخشري، ٢٤٠/٣؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١٠٦/٤.

٢ يُضرب للأمر يظهر كلَّ الظهور. انظر: **مجمع الأمثال** للميداني، ٩٩/٢.

٣ أي: "مُبَيَّنَاتٍ". قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وشعبة. **النشر** لابن الجزري، ٢٤٨/٢.

﴿وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُمْ﴾ عطفٌ على ﴿ءَايَٰتٍ﴾، أي: وأنزلنا مثلًا كائنًا مِن قَبيل أمثال الذين مَضوا مِن قبلكم مِن القصص العجيبة، والأمثالِ المضروبة لهم في الكتب السابقة، والكلماتِ الجارية على ألسنة الأنبياء عليهم السلام، فينتظِم قصّةَ عائشة رضي الله عنها المحاكيةَ لقصّة يوسف عليه السلام، وقصّةِ مريم رضي الله عنها، وسائرَ الأمثالِ الواردة في السورة الكريمة انتظامًا واضحًا. وتخصيص الآيات المبيَّنات بالسوابق وحملُ المَثل على القصّة العجيبة فقط[1] يأباه تعقيبُ الكلام بما سيأتي مِن التمثيلات.

﴿وَمَوْعِظَةً﴾ تتّعظون به، وتنزجرون عمّا لا ينبغي مِن المحرَّمات والمكروهات وسائرِ ما يُخِلّ بمحاسن الآداب، فهي عبارة عمّا سبق مِن الآيات والمَثل لظهور كونها مِن المواعظ بالمعنى المذكور. ومدار العطف / هو التغاير [١٦٨و] العنواني المنزّلُ منزلةَ التغاير الذاتي. وقد خُصّت "الآيات" بما يبيّن الحدود والأحكام، و"الموعظةُ" بما وُعِظ به مِن قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ [النور، ٢/٢٤]، وقولِه تعالى: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ [النور، ١٢/٢٤]، وغيرِ ذلك مِن الآيات الواردة في شأن الآداب.

وإنّما قيل: ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ مع شمول الموعظة للكلّ حسب شمول الإنزال لقوله تعالى: ﴿أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ﴾ حثًّا للمخاطَبين على الاعتناء بالانتظام في سِلك المتّقين ببيان أنّهم المغتنِمون لِآثارها المقتبِسون مِن أنوارها فحسب. وقيل: المراد بـ"الآيات المبيّنات" و"المَثل" و"الموعظة" جميعُ ما في **القرآن المجيد** مِن الآيات والأمثال والمواعظ.

﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾

---

[1] انظر: **الكشّاف** للزمخشري، ٢٤٠/٣؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١٠٦/٤.

فقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾... إلخ حينئذ استئناف مَسوق لتقرير ما فيها مِن البيان مع الإشعار بكونه في غاية الكمال على الوجه الذي ستعرفه، وأمّا على الأوّل فلتحقيق أنّ بيانه تعالى ليس مقصورًا على ما ورد في السورة الكريمة؛ بل هو شامل لكلّ ما يحقّ بيانه مِن الأحكام والشرائع ومباديها وغاياتها المترتّبة عليها في الدنيا والآخرة وغير ذلك ممّا له مدخل في البيان، وأنّه واقع منه تعالى على أتمّ الوجوه وأكملِها، حيث عُبّر عنه بالتنوير الذي هو أقوى مراتب البيان وأجلاها، وعُبّر عن المُنوِّر بنفس النور تنبيهًا على قوّة التنوير وشدّة التأثير، وإيذانًا بأنّه تعالى ظاهر بذاته، وكلّ ما سواه ظاهر بإظهاره، كما أنّ النور نيّر بذاته، وما عداه مستنير به.

وأضيفَ "النور" إلى ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ للدلالة على كمال شيوع البيان المستعار له، وغايةِ شموله لكلّ ما يليق به مِن الأمور التي لها مدخل في إرشاد الناس بوساطة بيان شمول المستعار منه لجميع ما يقبله ويستحقّه مِن الأجرام العلويّة والسفليّة، فإنّهما قُطران للعالَم الجسماني الذي لا مَظهر للنور الحسّي سواه، أو على شمول البيان لأحوالهما وأحوال ما فيهما مِن الموجودات، إذ ما مِن موجودٍ إلّا / وقد بُيّن مِن أحواله ما يستحقّ البيان إمّا تفصيلًا أو إجمالًا، [١٦٨ظ] كيف لا ولا ريب في بيان كونه دليلًا على وجود الصانع وصفاته، وشاهدًا بصحّة البعث، أو على تعلّق البيان بأهلهما، كما قال ابن عبّاس رضي الله عنهما:[1] «هادي أهلِ السماوات والأرض، فهُم بنوره يهتدون، وبهُداه مِن حَيرة الضلالة ينجون».[2]

هذا، وأمّا حمل التنوير على إخراجه تعالى للماهيّات مِن العدم إلى الوجود، إذ هو الأصل في الإظهار، كما أنّ الإعدام هو الأصل في الإخفاء، أو على تزيين السماوات بالنيّرين وسائر الكواكب، وما يفيض عنها مِن الأنوار،

---

١ وفي هامش م: وبه قال أنس بن مالك رضي الله عنه. | في جامع البيان للطبري، ٢٩٦/١٧، عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: «إنّ إلهي يقول: نوري هداي».

٢ الكشف والبيان للثعلبي، ١٠٠/٧؛ اللباب لابن عادل، ٣٨١/١٤.

أو بالملائكة عليهم السلام، وتزيينِ الأرض بالأنبياء عليهم السلام والعلماءِ والمؤمنين، أو بالنبات والأشجار، أو على تدبيره تعالى لأمورهما وأمور ما فيهما؛[١] فممّا لا يلائم المقام، ولا يساعده حُسن النظام.

﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ أي: نورِه الفائضِ منه تعالى على الأشياء المستنيرة به، وهو القرآن المبين، كما يُعرِب عنه ما قبله مِن وصفِ آياته بالإنزال والتبيين، وقد صُرِّح بكونه نورًا أيضًا في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء، ١٧٤/٤]، وبه قال ابن عبّاس رضي الله عنهما والحسَن وزيدُ بن أسلم رحمهم الله.[٢] وجعلُه عبارةً عن الحقّ -وإن شاع استعارته له كاستعارة الظلمة للباطل-[٣] يأباه مقامُ بيانِ شأن الآيات ووصفِها بما ذكر مِن التبيين، مع عدم سبق ذكر الحقّ، ولأنّ المعتبَر في مفهوم النور هو الظهور والإظهار كما هو شأن القرآن الكريم. / وأمّا الحقّ فالمعتبر في مفهومه مِن حيث هو حقّ هو الظهور لا الإظهار. [١٦٩و]

والمراد بـ"المَثل" الصفة العجيبة، أي: صفة نوره العجيبةُ ﴿كَمِشْكَوٰةٍ﴾ أي: صفة كوّة غير نافذة في الجدار في الإنارة والتنوير. ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ سِراج ضخم ثاقبٌ. وقيل: "المِشكاة" الأنبوبة في وسط القنديل، و"المصباح" الفتيلة المشتعلة.

﴿ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ﴾ أي: قنديل مِن الزجاجِ الصافي الأزهر. وقُرئ بفتح الزاء[٤] وكسرها[٥] في الموضعين. ﴿ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ﴾ متلألِئٌ وقّاد شبيه بالدُّرّ في صفائه وزُهرته. و"دَراريّ الكواكب" عِظامها المشهورة.

وقُرئ: "دِرِّيءٌ" بدال مكسورة وراء مشدّدة وياء ممدودةٍ بعدَها همزة،[٦] على أنّه "فِعّيلٌ" مِن "الدَّرْءِ"، وهو الدَّفع، أي: مبالغ في دفع الظلام بضوئه،

---

[١] انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ١٠٠/٧؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٤٥/٦؛ واللباب لابن عادل، ٣٨١/١٤.

[٢] الكشف والبيان للثعلبي، ١٠١/٧. وانظر: جامع البيان للطبري، ٢٩٩/١٧.

[٣] انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢٤٠/٣.

[٤] س: الزاي. | قراءة شاذّة، مرويّة عن نصر بن عاصم وابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٤٢.

[٥] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي رجاء ونصر بن عاصم. البحر المحيط لأبي حيّان، ٤٤/٨.

[٦] قرأ بها أبو عمرو والكسائي. النشر لابن الجزري، ٣٣٢/٢.

أو في دفع بعض أجزاء ضيائه لبعضٍ عند البريق واللمعان. وقرئ بضمّ الدال،[1] والباقي على حاله.

وفي إعادة "المصباح" و"الزجاجة" معرَّفين إثرَ سبقهما منكَّرين، والإخبارِ عنهما بما بعدهما مع انتظام الكلام بأن يقال: كمِشكاة فيها مصباح في زجاجة كأنّها كوكب دُرّيّ؛ مِن تفخيم شأنهما ورفعِ مكانهما بالتفسير إثرَ الإبهام، والتفصيلِ بعد الإجمال، وبإثبات ما بعدهما لهما بطريق الإخبار المُنبئ عن القصد الأصلي دون الوصف المبنيّ على الإشارة إلى الثبوت في الجملة ما لا يخفى.

ومحلّ الجملة الأولى الرفع على أنّها صفة لـ﴿مِصْبَاحٌ﴾، ومحلّ الثانية الجرّ على أنّها صفة لـ﴿زُجَاجَةٍ﴾، و"اللام" مغنية عن الرابط، كأنّه قيل: فيها مصباح، هو في زجاجة، هي كأنّها كوكب دُرّيّ.

﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ﴾ أي: يُبتدأ إيقاد المصباح مِن شجرة ﴿مُبَٰرَكَةٍ﴾ أي: كثيرةِ المنافع، بأن رُوِّيَت ذُبالته[2] بزيتها. وقيل: إنّما وصفت بالبركة لأنّها تَنبت في الأرض التي بارك الله تعالى فيها للعالمين. ﴿زَيْتُونَةٍ﴾ بدل مِن ﴿شَجَرَةٍ﴾، وفي إبهامها ووصفها بالبركة ثمّ الإبدالِ عنها تفخيم لشأنها.

/ وقُرئ: "تُوقَدُ" بالتاء[3] على أنّ الضمير القائم مقام الفاعل للزجاجة دون المصباح. [١٦٩ظ] وقُرئ: "تَوَقَّدَ"[4] على صيغة الماضي مِن "التَّفَعّلِ"، أي: ابتدأ ثُقُوب المصباح منها. وقُرئ: "تَوَقَّدُ"[5] بحذف إحدى التاءين مِن "تَتَوَقّد" على إسناده إلى "الزجاجة".

﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ تقع الشمس عليها حينًا دون حين؛ بل بحيث تقع عليها طولَ النهار كالتي على قلّة، أو صحراء واسعة فتقع الشمس عليها

---

[1] أي: "دُرِّيءٌ". قرأ بها حمزة وشعبة. النشر لابن الجزري، ٣/٣٣٢.

[2] الذبالة: الفتيلة التي تُسرَج. لسان العرب لابن منظور، «ذبل».

[3] قرأ بها حمزة والكسائي وخلف وشعبة. النشر لابن الجزري، ٢/٣٣٢.

[4] قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٣٣٢.

[5] قراءة شاذّة، مرويّة عن السلمي والحسن وابن محيصن وسلام. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٤٢.

حالتَي الطلوع والغروب، وهذا قول ابن عبّاس رضي الله عنهما، وسعيدِ بن جبير، وقتادة.[١] وقال الفرّاء والزجّاج: «لا شرقيّة وحدَها، ولا غربيّة وحدَها، لكنّها شرقيّة غربيّة»،[٢] أي: تصيبها الشمس عند طلوعها وعند غروبها، فيكون شرقيّة غربيّة تأخذ حظّها مِن الأمرين، فيكون زيتها أضوَء.

وقيل: لا نابتةٍ في شرق المعمورة ولا في غربها؛ بل في وسطها، وهو الشام، فإنّ زيتونها أجود ما يكون.[٣] وقيل: لا في مَضحًى تشرق الشمس عليها دائمًا فتحرقها، ولا في مَقنأةٍ[٤] تغيب عنها دائمًا فتتركها نِيًّا،[٥] وفي الحديث: «لا خيرَ في شجرة ولا نبات في مَقنأةٍ، ولا خير فيهما في مضحًى».[٦]

﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ أي: هو في الصفاء والإنارة بحيث يكاد يضيء بنفسه مِن غير مَساس نار أصلًا. وكلمة ﴿لَوْ﴾ في أمثال هذه المواقع ليست لبيان انتفاء شيء في الزمان الماضي لانتفاء غيره فيه، فلا يلاحظ لها جواب قد حُذف ثقةً بدلالة ما قبلها عليه ملاحظةً قصديّةً إلّا عند القصد إلى بيان الإعراب على القواعد الصناعيّة.

بل هي لبيان تحقّق ما يفيده الكلام السابق مِن الحُكم الموجَب أو المنفيّ على كلّ حال مفروض مِن الأحوال المقارِنة له إجمالًا بإدخالها على أبعدها منه، إمّا لوجود المانع كما في قوله تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء، ٧٨/٤]، وإمّا لعدم الشرط كما في هذه الآية الكريمة؛ ليظهر بثبوته أو انتفائه معه ثبوتُه أو انتفاؤه مع ما عداه مِن الأحوال بطريق الأولويّة، لِما أنّ الشيء / متى تحقّق مع ما ينافيه مِن وجود المانع [١٧٠و]

---

[١] انظر: جامع البيان للطبري، ٣١١/١٧؛ والتفسير الوسيط للواحدي، ٣٢١/٣.

[٢] انظر: معاني القرآن للفرّاء، ٢٥٣/٢؛ ومعاني القرآن للزجّاج، ٤٥/٤.

[٣] انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ١٠٣/٧؛ والكشّاف للزمخشري، ٢٤١/٣.

[٤] المَقْنَأة: المكان الذي لا تَطلع عليه الشمس. الصحاح للجوهري، «قنأ».

[٥] النِّيّ: غير الناضج. انظر: لسان العرب لابن منظور، «نيأ».

[٦] الكشّاف للزمخشري، ٢٤١/٣. ولم أجده في كتب الحديث، وقال الزيلعي: «غريب جدًّا». تخريج أحاديث الكشّاف للزيلعي، ٤٤٦/٢.

أو عدمِ الشرط فلَأن يتحقّق بدون ذلك أولى، ولذلك لا يُذكَر معه شيء آخر مِن سائر الأحوال، ويُكتفى عنه بذكر "الواو" العاطفة للجملة على نظيرتها المقابلة لها المتناوِلة لجميع الأحوال المغايرة لها عند تعدّدها.

وهذا معنى قولهم: إنّها لاستقصاء الأحوال على سبيل الإجمال، وهذا أمر مطّرد في الخبر الموجَب والمنفيّ، فإنّك إذا قلت: "فلان جواد يعطي ولو كان فقيرًا"، أو "بخيل لا يعطي ولو كان غنيًّا" تريد بيان تحقّق الإعطاء في الأوّل، وعدمِ تحقّقه في الثاني في جميع الأحوال المفروضة. والتقدير: يعطي لو لم يكن فقيرًا ولو كان فقيرًا، ولا يعطي لو لم يكن غنيًّا ولو كان غنيًّا، فالجملة مع ما عُطفت هي عليه في حيّز النصب على الحاليّة مِن المستكِنّ في الفعل الموجَب أو المنفيّ، أي: يعطي أو لا يعطي كائنًا على جميع الأحوال. وتقدير الآية الكريمة: يكاد زيتها يضيء لو مسّته نار ولو لم تمسَسه نار، أي: يضيء كائنًا على كلّ حال مِن وجود الشرط وعدمه، وقد حُذفت الجملة الأولى حسبما هو المطّرد في الباب لدلالة الثانية عليها دلالةً واضحة.

﴿نُورٌ﴾ خبر مبتدأ محذوف. وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ نُورٍ﴾ متعلّق بمحذوف هو صفة له مؤكِّدة لِما أفاده التنكير مِن الفخامة. والجملة فذلكة للتمثيل، وتصريح بما حصل منه، وتمهيد لِما يعقُبه، أي: ذلك النور الذي عُبّر به عن القرآن ومُثِّلَتْ صفتُه العجيبة الشأنِ بما فُصِّل مِن صفة المشكاة نورٌ عظيم كائن على نورٍ كذلك، لا على أنّه عبارة عن نور واحد معيّن أو غيرِ معيّن فوق نورٍ آخرَ مثلِه، ولا عن مجموع نورين اثنين فقط؛ بل عن نور متضاعف مِن غير تحديدٍ لتضاعفه بحدٍّ معيّن، وتحديدُ مراتب تضاعُفِ ما مُثِّل به مِن نور المشكاة بما ذُكر لكونه أقصى مراتب تضاعفه عادة، فإنّ المصباح إذا كان في مكان متضايق -كالمشكاة- كان أضوَأَ له وأجمع لنوره بسبب انضمام الشعاع المنعكس منه إلى أصل الشعاع، بخلاف المكان المتّسع، فإنّ الضوء ينبثّ فيه وينتشر، والقنديل أعونُ شيء على زيادة الإنارة، وكذلك الزيت وصفاؤه، وليس وراء هذه المراتب ممّا يزيد نورَها إشراقًا ويمدّه بإضاءة مرتبةٌ أخرى عادةً.

[١٧٠ظ] هذا، وجعلُ النور / عبارةً عن النور المشبّه به[١] ممّا لا يليق بشأن التنزيل الجليل.

﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ﴾ أي: يهدي هدايةً خاصّةً موصِلةً إلى المطلوب حتمًا لذلك النور المتضاعف العظيم الشأن. وإظهارُه في مقام الإضمار لزيادة تقريره، وتأكيدِ فخامته الذاتيّة بفخامته الإضافيّة الناشئة مِن إضافته إلى ضميره عزّ وجلّ.

﴿مَن يَشَآءُ﴾ هدايتَه مِن عباده بأن يوفّقَهم لفَهم ما فيه مِن دلائل حقّيّته، وكونِه مِن عند الله تعالى، مِن الإعجاز، والإخبارِ عن الغيب، وغيرِ ذلك مِن موجبات الإيمان به. وفيه إيذان بأنّ مَناط هذه الهداية ومَلاكَها ليس إلّا مشيئتَه تعالى، وأنّ تظاهر الأسباب بدونها بمَعزِل مِن الإفضاء إلى المطالب.

﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ﴾ في تضاعيف الهداية حسبما يقتضي حالهم، فإنّ له دخلًا عظيمًا في باب الإرشاد؛ لأنّه إبراز للمعقول في هيئة المحسوس، وتصويرٌ لأَوَابِد المعاني بصورة المأنوس، ولذلك مَثّل نورَه المعبّرَ به عن **القرآن المبين** بنور المِشكاة. وإظهارُ الاسم الجليل في مقام الإضمار للإيذان باختلاف حال ما أُسندَ إليه تعالى مِن الهداية الخاصّة وضربِ الأمثال الذي هو مِن قبيل الهداية العامّة كما يفصح عنه تعليق الأولى بـ﴿مَن يَشَآءُ﴾، والثانيةِ بـ"الناس" كافّةً.

﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ معقولًا كان أو محسوسًا، ظاهرًا كان أو باطنًا، ومِن قضيّته أن يتعلّق مشيئته بهداية مَن يليق بها ويستحقّها مِن الناس دون مَن عداهم لِمخالفته الحكمةَ التي عليها مبنى التكوين والتشريع، وأن يكون هدايته العامّةُ على فنون مختلفة وطرائقَ شتّى حسبما يقتضيه أحوالهم. والجملة اعتراض تذييلي مقرِّر لِما قبله. وإظهار الاسم الجليل لتأكيد استقلال الجملة، والإشعارِ بعلّة الحكم وبما ذُكر مِن اختلاف حال المحكوم به ذاتًا وتعلّقًا.

﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾﴾

﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ لمّا ذُكِر شأنُ **القرآن الكريم** في بيانه للشرائع والأحكام ومباديها وغاياتها المترتّبة عليها مِن الثواب والعقاب

---

[١] انظر: **الكشّاف** للزمخشري، ٣/٢٤١.

وغير ذلك مِن أحوال الآخرة وأهوالها، وأشيرَ إلى كونه في غاية ما يكون مِن التوضيح والإظهار حيث مُثّل بما فُصِّل مِن نور المشكاة، وأشيرَ إلى أنّ ذلك النور مع كونه في أقصى مراتب الظهور إنّما يَهتدي بهداه مَن تعلّقت مشيئة الله تعالى بهدايته دون مَن عداه؛ عُقِّب ذلك بذِكر الفريقين وتصويرِ بعض أعمالهم المُعرِبة عن كيفيّة حالهم / في الاهتداء وعدمه. [١٧١و]

والمراد بـ"البيوت" المساجد كلُّها حسبما رُوي عن ابن عبّاس رضي الله تعالى[1] عنهما.[2] وقيل: هي المساجد التي بناها نبيّ مِن أنبياء الله تعالى؛ الكعبةُ التي بناها إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وبيتُ المقدس الذي بناه داود وسليمان عليهما السلام، ومسجدُ المدينة ومسجدُ قباء اللذان بناهما رسول الله صلّى الله عليه وسلّم. وتنكيرها للتفخيم.

والمراد بـ"الإذن في رفعها" الأمرُ ببنائها رفيعةً، لا كسائر البيوت. وقيل: هو الأمر برفع مقدارها بعبادة الله تعالى فيها، فيكون عطف "الذكر" عليه مِن قَبيل العطف التفسيري. وأيًا ما كان ففي التعبير عنه بالإذن تلويح بأنّ اللائق بحال المأمور أن يكون متوجِهًا إلى المأمور به قبل ورود الأمر به ناويًا لِتحقيقه، كأنّه مستأذِن في ذلك، فيقع الأمرُ به موقعَ الإذن فيه. والمراد بـ"ذِكر اسمِه تعالى" ما يعمّ جميعَ أذكاره تعالى. وكلمةُ ﴿فِي﴾ متعلّقة بقوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ﴾. وقوله تعالى: ﴿فِيهَا﴾ تكرير لها للتأكيد والتذكير، لِما بينهما مِن الفاصلة، وللإيذان بأنّ التقديم للاهتمام، لا لقَصر التسبيح على الوقوع في البيوت فقط.

وأصل "التسبيح" التنزيه والتقديس، يستعمل بـ"اللام" وبدونها أيضًا، كما في قوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى، ١/٨٧]، قالوا: أريدَ به الصلوات المفروضة كما يُنبئ عنه تعيين الأوقات بقوله تعالى: ﴿بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾ أي: بالغدوات والعشايا على أنّ ﴿ٱلْغُدُوِّ﴾ إمّا جمع "غَداة"، كـ"قُنِيّ" في جمع "قَناة"[3]

---

[1] س - تعالى.

[2] انظر: جامع البيان للطبري، ٣١٦/١٧؛ والكشف والبيان للثعلبي، ١٠٧/٧.

[3] القَناة: الرُمح، والجمع قَنَواتٌ وقَنًا وقُنِيٌّ. لسان العرب لابن منظور، «قنا».

كما قيل،[١] أو مصدر أطلقَ على الوقت حسبما يشعر به اقترانه بـ﴿ٱلْآصَالِ﴾، وهو جمع "أَصيل"، وهو العشيّ، وهو شامل لأوقات ما عدا صلاة الفجر المؤدّاة بالغَداة.

ويجوز أن يراد به نفس التنزيه على أنّه عبارة عمّا يقع منه في أثناء الصلوات وأوقاتها، لزيادة شرفه وإنافتِه على سائر أفراده، أو عمّا يقع في جميع الأوقات. وإفرادُ طرفَي النهار بالذكر لقيامهما مقام كلّها لكونهما العمدةَ فيها بكونهما مشهورين، وكونِهما أشهرَ ما يقع فيه المباشَرةُ للأعمال، والاشتغالُ بالأشغال. وقُرئ: "وَالْإِيصَالِ"،[٢] وهو / الدخول في الأصيل. [١٧١ظ]

﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ۝٣٧﴾

وقوله تعالى: ﴿رِجَالٌ﴾ فاعلُ ﴿يُسَبِّحُ﴾،[٣] وتأخيرُه عن الظروف لِما مرّ مرارًا مِن الاعتناءِ بالمقدَّم، والتشويقِ إلى المؤخَّر، ولأنّ في وصفِه نوعَ طول، فيُخِلّ تقديمه بحسن الانتظام. وقُرئ: "يُسَبَّحُ"[٤] على البناء للمفعول بإسناده إلى أحد الظروف. و﴿رِجَالٌ﴾ مرفوع بما يُنبئ عنه حكاية الفعل مِن غير تسمية الفاعل على طريقة قوله:

لِيُبكَ يزيدُ ضارعٌ لخُصومة[٥]

كأنّه قيل: مَن يسبِّح له؟ فقيل: يُسبِّح له رجال.

وقُرئ: "تُسَبِّحُ"[٦] بتأنيث الفعل مبنيًّا للفاعل؛ لأنّ جمع التكسير قد يعامَل

---

١ قاله البيضاوي في أنوار التنزيل، ٣/١٨٤.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن سعيد بن جبير وأبي مجلز. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٤٣.

٣ في الآية السابقة.

٤ قرأ بها ابن عامر وشعبة. النشر لابن الجزري، ٢/٣٣٢.

٥ في هامش م: تمامه:

ومختبط ممّا تطيح الطوائحُ

لنهشل بن حرّي مِن قصيدة يرثي بها يزيدَ بن نهشل. والضارع: الذليل، والمختبط: طالب الحاجة مِن غير وسيلة لها، وتطيح: تهلك، والطوائح: الدواهي. والمعنى: يبكي عليه اثنان؛ مظلوم وطالب حاجة. انظر: خزانة الأدب للبغدادي، ١/٣٠٩.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن يحيى بن وثّاب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٤٣.

معاملةَ المؤنّث، ومبنيًا للمفعول[١] على أن يسنَد إلى أوقات الغدوِ والآصال بزيادة "الباء"، وتُجعَل الأوقات مُسَبَّحةً مع كونها مسبَّحًا فيها، أو يسنَد إلى ضمير التسبيحة، أي: تُسبَّح له التسبيحةُ على المجاز المسوِّغ لإسناده إلى الوقتين، كما خرّجوا قراءةَ أبي جعفر: "لِيُجْزَى قَوْمًا"،[٢] أي: ليُجزَى الجزاءُ قومًا؛ بل هذا أولى مِن ذلك، إذ ليس هنا مفعول صريح.

﴿لَا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ﴾ صفة لـ﴿رِجَالٌ﴾ مؤكّدة لِما أفاده التنكير مِن الفخامة، مفيدة لكمال تبتّلهم إلى الله تعالى واستغراقِهم فيما حُكي عنهم مِن التسبيح مِن غير صارف يَلويهم، ولا عاطف يَثنيهم، كائنًا ما كان. وتخصيص "التجارة" بالذكر لكونها أقوى الصوارف عندهم وأشهرَها، أي: لا يَشْغَلُهم نوع مِن أنواع التجارة.

﴿وَلَا بَيْعٌ﴾ أي: ولا فرد مِن أفراد البَياعات، وإن كان في غاية الربح. وإفرادُه بالذكر مع اندراجه تحت التجارة للإيذان بإنافته على سائر أنواعها، لأنّ ربحه متيقَّن ناجز، وربح ما عداه متوقَّع في ثاني الحال عند البيع، فلم يلزم مِن نفيِ إلهاءِ ما عداه نفيُ إلهائه، ولذلك كُرِّرت كلمةُ ﴿لَا﴾ لِتذكير النفي وتأكيده. وقد نُقِل عن الواقدي أنّ المراد بـ"التجارة" هو الشِّرى؛ لأنّه أصلها ومبدؤها. وقيل: هو الجَلَب؛ لأنّه الغالب / فيها، ومنه يقال: "تَجَر في كذا"، أي: جلَبَه. [١٧٢و]

﴿عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ بالتسبيح والتمجيد ﴿وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي: إقامتِها لمواقيتها مِن غير تأخيرٍ، وقد أُسقِطت "التاء" المعوَّضة عن "العين" الساقطة بالإعلال، وعُوِّض عنها الإضافة، كما في قوله:

وأخلفوك عِدَ الأمرِ الذي وَعَدوا[٣]

أي: عِدَةَ الأمر.

---

[١] أي: "يُسَبَّحُ". قرأ بها ابن عامر وشعبة. النشر لابن الجزري، ٣٣٢/٢.

[٢] في قوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الجاثية، ١٤/٤٥]. انظر: النشر لابن الجزري، ٣٧٢/٢.

[٣] وفي هامش م: صدره:
إنّ الخليط أجدّوا البَين وانجردوا
للفضل بن العبّاس بن عُتبة اللهبي في لسان العرب لابن منظور، «غلب».

﴿وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ أي: المال الذي فُرِض إخراجه للمستحقّين. وإيراده ههنا وإن لم يكن ممّا يُفعَل في البيوت لكونه قرينة لا تفارق إقامةَ الصلاة في عامّة المواضع، مع ما فيه مِن التنبيه على أنّ محاسن أعمالهم غير منحصرة فيما يقع في المساجد، وكذلك قوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ﴾... إلخ، فإنّه صفة ثانية لـ﴿رِجَالٌ﴾، أو حال مِن مفعول ﴿لَا تُلْهِيهِمْ﴾، وأيًّا ما كان فليس خوفهم مقصورًا على كونهم في المساجد.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمًا﴾ مفعول لـ﴿يَخَافُونَ﴾، لا ظرفٌ له. وقوله تعالى: ﴿تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾ صفة لـ﴿يَوْمًا﴾، أي: تضطرب وتتغيّر في أنفسها مِن الهول والفَزع وتشخَص، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب، ٣٣/١٠]، أو تتغيّر أحوالها وتتقلّب فَتَفْقَهُ القلوب بعد أن كانت مطبوعًا عليها، وتبصر الأبصار بعد أن كانت عمياءَ، أو تتقلّب القلوب بين توقّع النجاة وخوف الهلاك، والأبصارُ مِن أيّ ناحية يؤخَذ بهم ويُؤتَى كتابهم.

﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾﴾

﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ متعلّق بمحذوف يدلّ عليه ما حُكي مِن أعمالهم المرضيّة، أي: يفعلون ما يفعلون مِن المداومة على التسبيح والذكر وإيتاء الزكاة والخوف مِن غير صارفٍ لهم عن ذلك، ليجزيهم الله تعالى ﴿أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ﴾ أي: أحسن جزاء أعمالهم، حسبما وُعِد لهم بمقابلة حسنة واحدة عَشرُ أمثالها إلى سبعمائة ضعفٍ.

﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ أي: يتفضّل عليهم بأشياء لم توعَد لهم بخصوصيّاتها أو بمقاديرها، ولم يخطر ببالهم كيفيّاتها ولا كمّيّاتها، بل إنّما وُعِدت بطريق الإجمال في مثل قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس، ١٠/٢٦]، وقولِه عليه السلام حكاية عنه عزّ وجلّ: / «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عينٌ رأت [١٧٢ظ]

ولا أذنٌ سمعَت ولا خطرَ على قلب بشر»»،[١] وغيرِ ذلك مِن المواعيد الكريمة التي مِن جملتها قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ فإنّه تذييل مقرّر للزيادة، ووعد كريم بأنّه تعالى يعطيهم غيرَ أجزية أعمالهم مِن الخيرات ما لا يَفي به الحساب، وأمّا عدم سبق الوعد بالزيادة ولو إجمالًا، وعدمُ خطورها ببالهم ولو بوجه ما؛ فيأباه نظمها في سِلك الغاية.

والموصول عبارة عمّن ذُكرت صفاتهم الجميلة، كأنّه قيل: والله يرزقهم بغير حساب، ووضعُه موضعَ ضميرهم للتنبيه بما في حيّز الصلة على أنّ مَناط الرزق المذكور مَحض مشيئته تعالى، لا أعمالُهم المَحكيّة، كما أنّها المَناط لِما سبَق مِن الهداية لنوره تعالى، لا تظاهرُ الأسباب، وللإيذان بأنّهم ممّن شاء الله تعالى أن يرزقهم، كما أنّهم ممّن شاءَ تعالى أن يهديهم لنوره، حسبما يُعرِب عنه ما فصِّل مِن أعمالهم الحسنة، فإنّ جميع ما ذُكر مِن الذكر والتسبيح وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وخوف اليوم الآخر وأهواله ورجاء الثواب مقتبَس مِن القرآن العظيم الذي هو المَعنيّ بالنور، وبه يتمّ بيان أحوال مَن اهتدى بهُداه على أوضح وجهٍ وأجلاه.

هذا، وقد قيل: قوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ﴾... إلخ[٢] مِن تتمّة التمثيل، وكلمة ﴿فِي﴾ متعلّقة بمحذوف هو صفة لـ﴿مِشۡكَوٰةٖ﴾،[٣] أي: كائنة في بيوت، وقيل: لـ﴿مِصۡبَاحٌۖ﴾،[٤] وقيل: لـ﴿زُجَاجَةٍۖ﴾،[٥] وقيل: متعلّقة بـ﴿يُوقَدُ﴾.[٦] والكلّ ممّا لا يليق بشأن التنزيل الجليل، كيف لا، وإنّ ما بعد قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ﴾[٧] على ما هو الحقّ، أو ما بعد قوله تعالى: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ﴾[٨] على ما قيل إلى قوله تعالى: ﴿بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾[٩] كلام متعلِّق بالممثَّل قطعًا؟ فتوسيطه بين أجزاء التمثيل

---

١ صحيح البخاري، ١١٨/٤ (٣٢٤٤)؛ صحيح مسلم، ٢١٧٤/٤ (٢٨٢٤).

٢ النور، ٣٦/٢٤.

٣ النور، ٣٥/٢٤.

٤ النور، ٣٥/٢٤.

٥ النور، ٣٥/٢٤.

٦ النور، ٣٥/٢٤. | انظر: اللباب لابن عادل، ٣٩١/١٤.

٧ النور، ٣٥/٢٤.

٨ النور، ٣٥/٢٤.

٩ النور، ٣٥/٢٤.

[١٧٣و] مع كونه مِن قبيل الفصل / بين الشجر ولِحائه بالأجنبي يؤدّي إلى كون ذكر حال المنتفعين بالتمثيل المهديّين لنور **القرآن الكريم** بطريق الاستتباع والاستطراد، مع كون بيان حال أضدادهم مقصودًا بالذات، ومثل هذا ممّا لا عهد به في كلام الناس فضلًا أن يُحمل عليه الكلام المعجز.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ٣٩﴾

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ عطفٌ على ما ينساق إليه ما قبله، كأنّه قيل: الذين آمنوا أعمالُهم حالًا ومآلًا كما وُصِف، والذين كفروا **﴿أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾** أي: أعمالهم التي هي مِن أبواب البِرّ، كصلة الأرحام، وفكّ العُناة، وسقاية الحاجّ، وعمارة البيت، وإغاثة الملهوفين، وقِرى الأضياف، ونحو ذلك ممّا لو قارنه الإيمان لاستتبع الثواب، كما في قوله تعالى: **﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ﴾** الآيةَ [إبراهيم، ١٤/١٨].

﴿كَسَرَابِۭ﴾ وهو ما يُرى في الفلَوات مِن لَمعانِ الشمس عليها وقت الظهيرة فيُظَنُّ أنه ماء يسرُب، أي: يجري. **﴿بِقِيعَةٖ﴾** متعلّق بمحذوف هو صفة لـ**﴿سَرَابِۭ﴾**، أي: كائنٍ في قاعٍ، وهي الأرض المنبسطة المستوية. وقيل: هي جمع "قاعٍ"، كـ"جِيرة" جمع "جار". وقُرئ: "بِقِيعَاتٍ"[١] بتاء ممدودة كـ"دِيمات"، إمّا على أنّها جمع "قِيعة"، أو على أنّ الأصل "قِيعة" قد أشبعَت فتحة "العين"، فتولّد منها ألِف.

﴿يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً﴾ صفة أخرى لـ**﴿سَرَابِۭ﴾**، وتخصيص الحسبان بـ**﴿ٱلظَّمۡـَٔانُ﴾** -مع شموله لكلّ مَن يراه كائنًا مَن كان مِن العطشان والريّان- لتكميل التشبيه بتحقيق شركة طرَفيه في وجه الشبه الذي هو المَطلَع المُطمِع، والمَقطع المُويِس. **﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ﴾** أي: إذا جاء العطشانُ ما حسِبه ماء، وقيل: موضعَه **﴿لَمۡ يَجِدۡهُ﴾** أي: ما حسِبه ماءً وعلّق به رجاءَه **﴿شَيۡـٔٗا﴾** أصلًا، لا محقّقًا

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن مسلمة بن محارب. **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٥١/٨.

ولا متوهّمًا كما كان يراه مِن قبلُ، فضلًا عن وجدانه ماءً، وبه تمّ بيان أحوال الكفرة بطريق التمثيل.

وقوله تعالى: ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ بيان لبقيّة أحوالهم العارضة لهم بعد ذلك بطريق التكملة؛ لئلّا يُتوهّم أنّ قُصارى أمرهم / هو الخيبة والقنوط فقط، كما هو شأن الظمآن، ويظهَرَ أنّه يعتريهم بعد [١٧٣ظ] ذلك مِن سوء الحال ما لا قدر عنده للخيبة أصلًا، فليست الجملة معطوفةً على ﴿لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾؛ بل على ما يفهم منه بطريق التمثيل مِن عدم وجدان الكفرة مِن أعمالهم المذكورة عينًا ولا أثرًا، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان، ٢٥/٢٣].

كيف لا، وإنّ الحكم بأنّ "أعمال الكفرة كسَراب يحسبه الظمآنُ ماءً حتّى إذا جاءه لم يجده شيئًا" حكمٌ بأنّها بحيث يحسبونها في الدنيا نافعةً لهم في الآخرة حتّى إذا جاءوها لم يجدوها شيئًا، كأنّه قيل: حتّى إذا جاء الكفرةُ يوم القيامة أعمالهم التي كانوا في الدنيا يحسبونها نافعةً لهم في الآخرة لم يجدوها شيئًا، ووَجدوا الله، أي: حكمَه وقضاءَه عند المجيءِ، وقيل: عند العمل، فوفّاهم، أي: أعطاهم وافيًا كاملًا حسابَهم، أي: حسابَ أعمالهم المذكورة وجزاءَها، فإنّ اعتقادهم لنفعها بغير إيمانٍ وعملَهم بموجَبه كفرٌ على كفر موجِب للعقاب قطعًا.

وإفراد الضميرين الراجعين إلى ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ إمّا لإرادة الجنس كـ﴿ٱلظَّمْـَٔانُ﴾ الواقع في التمثيل، وإمّا للحمل على كلّ واحد منهم، وكذا إفرادُ ما يرجع إلى ﴿أَعْمَٰلُهُمْ﴾.

هذا، وقد قيل: نزلت في عتبة بن ربيعة بن أميّة، كان قد تعبّد في الجاهليّة، ولبِسَ المُسوح، والتمَس الدين، فلمّا جاء الإسلام كفر.[١]

﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ۝٤٠﴾

---

١ الكشف والبيان للثعلبي، ١١١/٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٢٤٤/٣.

﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ﴾ عطفٌ على ﴿كَسَرَابٍ﴾، وكلمةُ ﴿أَوْ﴾ للتنويع إثرَ ما مُثِّلت أعمالهم التي كانوا يعتمدون عليها أقوى اعتماد، ويفتخرون بها في كلِّ وادٍ وناد، بما ذُكر مِن حال السراب، مع زيادة حساب وعقاب، مُثِّلت أعمالهم القبيحة التي ليس فيها شائبةُ خيريّةٍ يَغْتَرُّ بها المغترّون بظلمات كائنةٍ ﴿فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ﴾ أي: عميقٍ كثيرِ الماء منسوبٍ إلى "اللُّجّ"، وهو معظم ماء البحر، وقيل: إلى اللُّجّة، وهي أيضًا معظمه.

﴿يَغْشَىٰهُ﴾ صفة أخرى للبحر، أي: يستره ويُغطّيه بالكلّيّة ﴿مَوْجٌ﴾، وقوله تعالى: ﴿مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ﴾ جملة مِن مبتدأ وخبر محلّها الرفع على أنّها صفة لـ﴿مَوْجٌ﴾، أو الصفة هي الجارّ والمجرور، و﴿مَوْجٌ﴾ الثاني فاعل له، لاعتماده على الموصوف، والكلام فيه كما مرّ في قوله تعالى: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾،[1] أي: يغشاه أمواج / متراكِمة متراكِبة بعضُها على بعض. [١٧٤و]

وقوله تعالى: ﴿مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ﴾ صفة لـ﴿مَوْجٌ﴾ الثاني على أحد الوجهين المذكورَين، أي: مِن فوق ذلك الموج سحاب ظلماني ستر أضواء النجوم. وفيه إيماء إلى غاية تراكم الأمواج وتضاعفها حتّى كأنّها بلغت السحاب.

﴿ظُلُمَٰتٌ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي: هي ظلمات ﴿بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ أي: متكاثفة متراكمة، وهذا بيان لكمال شدّة الظلمات، كما أنّ قوله تعالى: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾[2] بيان لغاية قوّة النور، خلا أنّ ذلك متعلّق بالمشبَّه، وهذا بالمشبَّه به كما يُعرِب عنه ما بعده. وقُرئ بالجرّ[3] على الإبدال مِن الأولى، وقُرئ بإضافة "السحاب" إليها.[4]

﴿إِذَآ أَخْرَجَ﴾ أي: مَن ابتُلِي بها، وإضمارُه مِن غير ذكره لدلالة المعنى عليه دلالة واضحة. ﴿يَدَهُۥ﴾ وجعَلَها بمرأى منه قريبةً مِن عينه لينظر إليها ﴿لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾ وهي أقرب شيء منه فضلًا عن أن يراها. ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا﴾... إلخ

---

١ النور، ٣٥/٢٤.

٢ النور، ٣٥/٢٤.

٣ أي: "ظُلُمَاتٍ". وهي رواية قنبل عن ابن كثير. النشر لابن الجزري، ٣٣٢/٢.

٤ أي: "سَحَابُ ظُلُمَاتٍ". وهي رواية البزّي عن ابن كثير. النشر لابن الجزري، ٣٣٢/٢.

اعتراض تذييلي جيء به لتقرير ما أفاده التمثيل مِن كون أعمال الكفرة كما فُصِّل، وتحقيقِ أنّ ذلك لعدم هدايته تعالى إيّاهم لنوره.

وإيرادُ الموصول للإشارة بما في حيّز الصلة إلى علّة الحكم، وأنّهم ممّن لم يشأ الله تعالى هدايتهم، أي: ومَن لم يشأ الله أن يهديه لنوره الذي هو القرآن هدايةً خاصّةً مستتبعةً للاهتداء حتمًا، ولم يوفّقه للإيمان به ﴿فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ أي: فما له هدايةٌ ما مِن أحدٍ أصلًا.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾... إلخ، استئناف خوطب به النبيّ صلّى الله عليه وسلّم للإيذان بأنّه تعالى قد أفاض عليه عليه السلام أعلى مراتب النور وأجلاها، وبيّن له مِن أسرار المُلك والملكوت أدقّها وأخفاها.

و"الهمزة" للتقرير، أي: قد علمتَ عِلمًا يقينيًا شبيهًا بالمشاهدة في القوّة والرصانة بالوحي الصريح والاستدلال الصحيح ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ﴾ أي: ينزّهه تعالى على الدوام في ذاته وصفاته وأفعاله عن كلّ ما لا يليق بشأنه الجليل مِن نقص أو خلَل ﴿مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: ما فيهما، إمّا بطريق الاستقرار فيهما مِن العقلاء وغيرهم كائنًا ما كان، / أو بطريق الجزئيّة منهما، تنزيهًا معنويًا يفهمه العقول السليمة، فإنّ كلّ موجود مِن الموجودات الممكنة مركّبًا كان أو بسيطًا فهو مِن حيث ماهيّته ووجوده وأحواله يدلّ على وجود صانعٍ واجبِ الوجود، متّصِفٍ بصفات الكمال، مقدّسٍ عن كلّ ما لا يليق بشأنٍ مِن شئونه الجليلة. [١٧٤ظ]

وقد نُبّه على كمال قوّة تلك الدلالة وغاية وضوحها حيث عُبّر عنها بما يخصّ العقلاء مِن التسبيح الذي هو أقوى مراتب التنزيه وأظهرها تنزيلًا لِلسان الحال منزلةَ لسان المقال، وأُكّد ذلك بإيثار كلمة ﴿مَن﴾ على "ما"، كأنّ كلّ شيء ممّا عزّ وهانَ وكلّ فرد مِن أفراد الأعراض والأعيان عاقلٌ ناطق ومخبرٌ صادق بعلوّ شأنه تعالى وعِزّة سلطانه. وتخصيصُ التنزيه بالذكر مع دلالة ما فيهما

على اتّصافه تعالى بنعوت الكمال أيضًا لِما أنّ مساق الكلام لتقبيح حال الكفرة في إخلالهم بالتنزيه بجعلهم الجماداتِ شركاءَ له في الألوهيّة، ونسبتِهم إلى اتّخاذ الولد، تعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا.

وحملُ التسبيحِ على ما يليق بكلّ نوع مِن أنواع المخلوقات بأن يرادَ به معنًى مجازي شامل لتسبيح العقلاء وغيرهم حسبما هو المتبادر مِن قوله تعالى: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾،[1] يردّه أنّ بعضًا مِن العقلاء -وهم الكفرة مِن الثقلين- لا يسبّحونه بذلك المعنى قطعًا، وإنّما تسبيحهم ما ذُكر مِن الدلالة التي يشارِكهم فيها غيرُ العقلاء أيضًا. وفيه مزيد تخطئةٍ لهم، وتعبير ببيان أنّهم يسبّحونه تعالى باعتبار أخسّ جهاتهم التي هي الجماديّة والجسميّة[2] والحيوانيّة، ولا يسبّحونه باعتبار أشرفها التي هي الإنسانيّة.

﴿وَٱلطَّيْرُ﴾ بالرفع عطفًا على ﴿مَن﴾، وتخصيصُها بالذكر مع اندراجها في جملة ما في الأرض لعدم استمرار قرارها فيها واستقلالِها بصنعٍ بارع وإنشاءٍ رائع، قُصِد بيانُ تسبيحها مِن تلك الجهة لوضوح إنبائها عن كمال قدرة صانعها، ولطفِ تدبير مبدِعها، حسبما يعرِب عنه التقييد بقوله تعالى: ﴿صَٰٓفَّٰتٍ﴾ أي: تسبّحه تعالى حال كونها صافّاتٍ أجنحتَها، فإنّ إعطاءه تعالى للأجرام الثقيلة ما تتمكّن به / مِن الوقوف في الجوّ والحركةِ كيف تشاء مِن الأجنحة والأذناب [١٧٥و] الخفيفة، وإرشادَها إلى كيفيّة استعمالها بالقبض والبسط؛ حجّةٌ نيّرة واضحة المكنون، وآية بيّنة لقوم يعقلون، دالّة على كمال قدرة الصانع المجيد، وغايةِ حِكمة المبدئ المعيد.

وقوله تعالى: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾ بيان لكمال عراقة كلّ واحد ممّا ذُكر في التنزيه ورسوخِ قدمه فيه بتمثيل حالِه بحال مَن يعلم ما يصدر عنه مِن الأفاعيل فيفعلها عن قصدٍ ونيّة، لا عن اتّفاق بلا رويّة. وقد أُدْمِجَ في تضاعيفه الإشارةُ إلى أنّ لكلّ واحد مِن الأشياء المذكورة مع ما ذُكر مِن التنزيه حاجةً ذاتيّةً إليه تعالى، واستفاضةً منه لِما يهمّه بلسان استعداده.

---

[1] انظر: اللباب لابن عادل، ٤٠٩/١٤.

[2] وفي هامش م: أي: النامية.

وتحقيقُه أنّ كلّ واحد مِن الموجودات الممكنة في حدّ ذاته بمَعزِل مِن استحقاق الوجود، لكنّه مستعدّ لِأن يفيض عليه منه تعالى ما يليق بشأنه مِن الوجود وما يتبعه مِن الكمالاتِ ابتداءً وبقاءً، فهو مستفيض منه تعالى على الاستمرار، فيفيض عليه في كلّ آنٍ مِن فنون الفيوض المتعلّقة بذاته وصفاته ما لا يحيط به نطاق البيان، بحيث لو انقطع ما بينه وبين العناية الربّانيّة مِن العلاقة لانعدم بالمرّة. وقد عُبّر عن تلك الاستفاضة المعنويّة بالصلاة التي هي الدعاء والابتهال لتكميل التمثيل، وإفادةِ المزايا المذكورة فيما مرّ على التفصيل.[1] وتقديمُها على التسبيح في الذكر لتقدّمها عليه في الرتبة.

هذا، ويجوز أن يكون العلم على حقيقته، ويراد به مطلق الإدراك، وبما ناب عنه التنوين في ﴿كُلٌّ﴾ أنواعُ الطيرِ أو أفرادُها، وبالصلاة والتسبيح ما ألهمه الله تعالى كلَّ واحد منها مِن الدعاء والتسبيح المخصوصَين به، لكن لا على أن يكون ﴿ٱلطَّيۡرُ﴾ معطوفًا على كلمة ﴿مَن﴾ مرفوعًا برافعها، فإنّه يؤدّي إلى أن يراد بالتسبيح معنًى مجازي شامل للتسبيح المقالي والحالي مِن العقلاء وغيرهم، وقد عرفت ما فيه؛ بل بفعلٍ مضمر أريدَ به التسبيح / المخصوص [١٧٥ظ] بالطير معطوفٍ على المذكور، كما مرّ في قوله تعالى: ﴿وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾،[2] أي: وتسبّح الطير تسبيحًا خاصًّا بها حال كونها صافّاتٍ أجنحتَها، وقولِه تعالى: ﴿كُلٌّ قَدۡ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسۡبِيحَهُۥ﴾ أي: دعاءَه وتسبيحَه اللذَين ألهمهما الله عزّ وجلّ إيّاه لبيان كمال رسوخه فيهما، وأنّ صدورهما عنه ليس بطريق الاتّفاق بلا رَويّة؛ بل عن علم وإيقان مِن غير إخلال بشيء منهما حسبما ألهمه الله تعالى، فإنّ إلهامه تعالى لكلّ نوع مِن أنواع المخلوقات علومًا دقيقةً لا يكاد يهتدي إليه جهابذة العقلاء ممّا لا سبيل إلى إنكاره أصلًا.

كيف لا، وإنّ القنفذ مع كونه أبعد الأشياء مِن الإدراك قالوا: إنّه يُحِسّ بالشمال والجنوب قبل هبوبها، فيغيّر المدخل إلى جحرها، حتّى رُوي

---

١ وفي هامش م: عند بيان سرّ التعبير عن الدلالة بالتسبيح. «منه».

٢ الحج، ١٨/٢٢.

أنّه كان بقسطنطينيّة قبل الفتح الإسلامي رجل قَدْ أُثرِيَ بسبب أنّه كان يُنذر الناسَ بالرياح قبل هبوبها، وينتفعون بإنذاره بتدارك أمور سفائنهم وغيرها، وكان السبب في ذلك أنّه كان يقتني في داره قنفذًا يستدِلّ بأحواله على ما ذَكر. وتخصيصُ تسبيح الطير بهذا المعنى بالذكر لِما أنّ أصواتها أظهر وجودًا وأقرب حملًا على التسبيح.

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ﴾ أي: ما يفعلونه؛ اعتراض مقرِّر لمضمون ما قبله. و﴿مَا﴾ على الوجه الأوّل عبارة عمّا ذكر مِن الدلالة الشاملة لجميع الموجودات مِن العقلاء وغيرهم، والتعبيرُ عنها بالفعل مسندًا إلى ضمير العقلاء لِما مرّ غير مرّة، وعلى الثاني إمّا عبارة عنها وعن التسبيح الخاصّ بالطير معًا، أو عن تسبيح الطير فقط، فالفعل على حقيقته، وإسنادُه إلى ضمير العقلاء لِما مرّ، والاعتراضُ حينئذ مقرِّر لتسبيح الطير فقط، وعلى الأوّلين لتسبيح الكلّ.

هذا، وقد قيل إنّ الضمير في قوله تعالى: ﴿قَدۡ عَلِمَ﴾ لله عزّ وجلّ، وفي ﴿صَلَاتَهُۥ وَتَسۡبِيحَهُۥ﴾ لـ﴿كُلٌّ﴾، أي: قد علّم الله تعالى صلاةَ كلّ واحد ممّا في السماوات / والأرض وتسبيحَه، فالاعتراض حينئذ مقرِّر لمضمونه على الوجهين، لكن لا على أن يكون ﴿مَا﴾ عبارة عمّا تعلّق به علمُه تعالى مِن ﴿صَلَاتَهُۥ وَتَسۡبِيحَهُۥ﴾؛ بل عن جميع أحواله العارضة له، وأفعاله الصادرة عنه، وهما داخلتان فيها دخولًا أوّليًّا. [١٧٦و]

﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ ٤٢﴾

﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ لا لغيره؛ لأنّه الخالق لهما ولِما فيهما مِن الذوات والصفات، وهو المتصرّف في جميعها إيجادًا وإعدامًا، بَدءًا وإعادةً. وقوله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: إليه تعالى خاصّةً، لا إلى غيره ﴿ٱلۡمَصِيرُ﴾ أي: رجوعُ الكلّ بالفناء والبعث؛ بيانٌ لاختصاص المُلك به تعالى في المَعاد إثرَ بيان اختصاصه به تعالى في المبدأ. وإظهار الاسم الجليل في موقع الإضمار لتربية المَهابة، والإشعارِ بعلّة الحكم.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾﴾

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا﴾ "الإزجاء" سَوق الشيء برفقٍ وسهولة، غلَب في سَوق شيء يسيرٍ أو غيرِ معتَدّ به، ومنه "البضاعة المُزجاة"، ففيه إيماء إلى أنّ السحاب بالنسبة إلى قدرته تعالى ممّا لا يعتَدّ به.

﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ﴾ أي: بين أجزائه بِضَمّ بعضِها إلى بعضٍ. وقُرئ: "يُوَلِّفُ" بغير همزة.[1] ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا﴾ أي: متراكمًا بعضُه فوق بعض، ﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ﴾ أي: المطرَ إثرَ تراكمه وتكاثفه. وقوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ أي: مِن فتوقه؛ حالٌ مِن ﴿ٱلْوَدْقَ﴾؛ لأنّ الرؤية بصريّة.

وفي تعقيب الجعل المذكور برؤيته خارجًا لا بخروجه مِن المبالغة في سرعة الخروج، على طريقة قوله تعالى: ﴿أَنِ[2] ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ﴾ [الشعراء، ٦٣/٢٦]، ومِن الاعتناء بتقرير الرؤية ما لا يخفى. و"الخِلال" جمع "خَلَل"، كـ"جِبال" و"جَبَل". وقيل: مفرد كـ"حِجاب" و"حِجاز"، ويؤيّده أنّه قُرئ: "مِنْ خَلَلِهِ".[3]

﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ مِن الغمام، فإنّ كلّ ما علاك سماءٌ ﴿مِن جِبَالٍ﴾ أي: مِن قِطَعٍ عِظامٍ تشبه الجبال في العِظَم كائنةٍ ﴿فِيهَا﴾. وقوله تعالى: ﴿مِنۢ بَرَدٍ﴾ مفعول ﴿يُنَزِّلُ﴾ على أنّ ﴿مِن﴾ تبعيضيّة، والأولَيان لابتداء الغاية على أنّ الثانية بدل اشتمال مِن الأولى بإعادة الجارّ، أي: ينزّل مبتدئًا مِن السماء مِن جبالٍ فيها بعض بَرَدٍ.

وقيل: المفعول محذوف، و﴿مِنۢ بَرَدٍ﴾ بيان للجبال، أي: ينزّل مبتدئًا مِن السماء مِن جبالٍ فيها مِن جنس البرَد بَرَدًا. والأوّل أظهر لخلوّه عن ارتكاب الحذف،

---

[1] قرأ بها أبو جعفر وورش عن نافع. انظر: النشر لابن الجزري، ٣٩٥/١.

[2] م ط س: فقلنا. | وهو في قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنفَجَرَتْ﴾ [البقرة، ٦٠/٢].

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ وابن عبّاس وابن مسعود رضي الله عنهم والضحّاك. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٤٤.

والتصريحِ ببعضيّة المنزَّل. وقيل: المفعول ﴿مِن جِبَالٍ﴾ على أنّ ﴿مِن﴾ تبعيضيّة، و﴿مِنۢ بَرَدٍ﴾ بيان للجبال، / أي: ينزّل مِن السماء بعضَ جبالٍ كائنة فيها مِن برَد، أي: مشبّهةٍ بالجبال في الكثرة. وأيًّا ما كان فتقديم الجارّ والمجرور على المفعول لِما مرّ غير مرّة مِن الاعتناء بالمقدّم والتشويقِ إلى المؤخّر. [١٧٦ظ]

وقيل: المراد بـ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ المظِلّة، وفيها جبال مِن برَد كما أنّ في الأرض جبالًا مِن حجَر، وليس في العقل ما ينفيه مِن قاطع. والمشهور أنّ الأبخِرة إذا تصاعَدت ولم يُحلّلها حرارة فبلغت الطبقة الباردة مِن الهواء وقوي البرْدُ اجتمع هناك وصار سحابًا، وإن لم يشتدّ البرد تقاطَر مطرًا، وإن اشتدّ فإن وصل إلى الأجزاء البخاريّة قبل اجتماعها نزَل ثلجًا، وإلّا نزَل برَدًا، وقد يبرد الهواء برْدًا مفرِطًا، فينقبض وينعقِد سحابًا، وينزل منه المطر أو الثلج، وكلّ ذلك مستنِد إلى إرادة الله تعالى ومشيئته المبنيّة على الحِكم والمصالح.

﴿فَيُصِيبُ بِهِۦ﴾ أي: بما ينزّله مِن البرَد ﴿مَن يَشَآءُ﴾ أن يصيبه به، فينالُه ما يناله مِن ضرر في نفسه وماله، ﴿وَيَصۡرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ﴾ أن يصرفه عنه فينجو مِن غائلته ﴿يَكَادُ سَنَا بَرۡقِهِۦ﴾ أي: ضَوءُ برْق السحاب الموصوف بما مرّ مِن الإزجاء والتأليف وغيرهما.

وإضافة "البرْق" إليه قبل الإخبار بوجوده فيه للإيذان بظهور أمره واستغنائه عن التصريح به. وقُرئ بالمدّ[١] بمعنى الرفعة والعلوّ، وبإدغام الدال في السين،[٢] و"بُرَقِهِ"[٣] بفتح الراء على أنّه جمع "بُرْقَة"، وهي مقدار مِن البَرق، كـ"الغُرفة"، وبضمّها[٤] للإتباع بضمّة الباء.

﴿يَذۡهَبُ بِٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ أي: يخطفها مِن فرط الإضاءة وسرعة وُرودها. وفي إطلاق ﴿ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ مزيد تهويل لأمره، وبيان لشدّة تأثيره فيها، كأنّه يكاد يذهب بها

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة بن مصرِّف. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٤٤.

٢ قرأ بها أبو عمرو ويعقوب بخُلف عنهما. انظر: النشر لابن الجزري، ٢٩١/١.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن محمّد بن طلحة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٤٤.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن محمّد بن طلحة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٤٤.

ولو عند الإغماض، وهذا مِن أقوى الدلائل على كمال القدرة مِن حيث إنّه توليد للضدّ مِن الضدّ. وقُرئ: "يُذْهِبُ"[١] مِن "الإذهاب" على زيادة "الباء".

﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾﴾

﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ بالمعاقبة بينهما، أو بنقصِ أحدهما وزيادة الآخر، أو بتغيير أحوالهما بالحرّ والبرد وغيرهما ممّا يقع فيهما مِن الأمور / التي مِن جملتها ما ذُكر مِن إزجاء السحاب وما تَرتّب عليه. [١٧٧و]

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما فُصّل آنفًا، وما فيه مِن معنى البُعد مع قرب المشار إليه للإيذان بعلوّ رتبته وبُعدِ منزلته ﴿لَعِبْرَةً﴾[٢] لَدلالةً واضحةً على وجود الصانع القديم ووَحدته، وكمال قدرته، وإحاطة علمه بجميع الأشياء، ونَفاذ مشيئته، وتنزّهه عمّا لا يليق بشأنه العليّ ﴿لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ لكلّ مَن له بصَر.

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾﴾

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ﴾ أي: كلَّ حيوان يدبّ على الأرض. وقُرئ: "خَالِقُ كُلِّ دَابَّةٍ"[٣] بالإضافة. ﴿مِّن مَّآءٍ﴾ هو جزء مادّته، أو ماءٍ مخصوص هو النطفة، فيكون تنزيلًا للغالب منزلة الكلّ؛ لأنّ مِن الحيوانات ما يتولّد لا عن نُطفة، وقيل: ﴿مِّن مَّآءٍ﴾ متعلّق بـ﴿دَآبَّةٍ﴾، وليست صلةً لـ﴿خَلَقَ﴾.

﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ﴾ كالحيّة، وتسميةُ حركتها مشيًا مع كونها زحفًا بطريق الاستعارة أو المشاكلة، ﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ﴾ كالإنس والطير ﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ﴾ كالنَّعَم والوحش. وعدم التعرّض لِما يمشي على أكثر مِن أربع -كالعناكب ونحوها مِن الحشرات- لعدم الاعتداد بها.

---

[١] قرأ بها أبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٣٣٢.

[٢] ط س + أي.

[٣] قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٣٣٢.

وتذكير الضمير في ﴿مِنْهُم﴾ لتغليب العقلاء. والتعبير عن الأصناف بكلمة ﴿مَن﴾ ليوافق التفصيلُ الإجمالَ.[١] والترتيب لتقديم ما هو أعرق في القدرة.

﴿يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ ممّا ذكر وممّا لم يذكر، بسيطًا كان أو مركّبًا، على ما يشاء مِن الصور والأعضاء والهيئات والحركات والطبائع والقوى والأفاعيل مع اتّحاد العنصر. وإظهار الاسم الجليل في موضع الإضمار لتفخيم شأن الخَلق المذكور، والإيذانِ بأنّه مِن أحكام الألوهيّة. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيفعل ما يشاء كما يشاء. وإظهار الجلالة لِما ذكر مع تأكيد استقلال الاستئناف التعليلي.

﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾﴾

[١٧٧ظ] ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾ / أي: لكلّ ما يليق بيانه مِن الأحكام الدينيّة والأسرار التكوينيّة. ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ أن يهديه بتوفيقه للنظر الصحيح فيها، وإرشادِه إلى التأمّل في مطاويها ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ موصل إلى حقيقة الحقّ والفوز بالجنّة.

﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾

﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ﴾ شروع في بيان أحوال بعضِ مَن لم يشأ الله هدايته إلى الصراط المستقيم. قال الحسن: «نزلت في المنافقين الذين كانوا يُظهرون الإيمانَ ويُسِرّون الكفر».[٢] وقيل: نزلت في بِشرٍ المنافقِ، خاصم يهوديًّا، فدعاه إلى كعب بن الأشرف، واليهوديُّ يدعوه إلى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم.[٣] وقيل: في المغيرة بن وائل، خاصم عليًّا رضي الله عنه في أرضٍ وماءٍ، فأبى أن يحاكم إلى الرسول صلّى الله عليه وسلّم.[٤] وأيًّا ما كان فصيغة الجمع للإيذان

---

١ س: الإجمالي.

٢ اللباب لابن عادل، ١٤/٤٢٦. وانظر: جامع البيان للطبري، ١٧/٣٤١.

٣ الكشف والبيان للثعلبي، ٧/١١٣؛ التفسير الوجيز للواحدي، ص ٧٦٧.

٤ الكشّاف للزمخشري، ٣/٢٤٨؛ اللباب لابن عادل، ١٤/٤٢٦.

بأنّ للقائل طائفةً يساعدونه ويشايعونه في تلك المقالة، كما يقال: "بنو[1] فلان قتلوا فلانًا" والقاتل واحد منهم.

﴿وَأَطَعْنَا﴾ أي: أطعناهما في الأمر والنهي، ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ﴾ عن قبول حكمه ﴿فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ أي: بعد ما صدر عنهم ما صدر مِن ادّعاء الإيمان بالله وبالرسولِ والطاعةِ لهما على التفصيل، وما في ﴿ذَٰلِكَ﴾ مِن معنى البعد للإيذان بكونه أمرًا معتدًّا به واجبَ المراعاة.

﴿وَمَآ أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى القائلين، لا إلى الفريق المتولّي منهم فقط؛ لعدم اقتضاء نفي الإيمان عنهم نفيَه عن الأوّلين، بخلاف العكس، فإنّ نفيه عن القائلين مقتضٍ لنفيه عنهم على أبلغ وجهٍ وآكده، وما فيه مِن معنى البعد للإشعار ببُعد منزلتهم في الكفر والفساد، أي: وما أولئك الذين يدّعون الإيمان والطاعة ثمّ يتولّى بعضهم الذين يشاركونهم في العقد والعمل ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: المؤمنين حقيقةً كما يُعرِب عنه "اللام"، أي: ليسوا بالمؤمنين المعهودين بالإخلاص في الإيمان والثبات عليه.

﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾﴾

﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ﴾ أي: الرسولُ ﴿بَيْنَهُمْ﴾ لأنّه المباشِر للحكم حقيقة، وإن كان ذلك حكم الله تعالى حقيقة. وذكرُ الله عزّ وجلّ[2] لتفخيمه عليه السلام والإيذانِ بجلالة محلّه عنده تعالى. ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ﴾ أي: فاجأ فريق منهم الإعراض عن المحاكمة إليه عليه السلام لكون الحقّ عليهم، وعلمِهم بأنّه عليه السلام يحكم بالحقّ عليهم، وهو شرح للتولّي ومبالغة فيه.

﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾

﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ لا عليهم ﴿يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ / مُذْعِنِينَ﴾ منقادين لجَزمهم [١٧٨و] بأنّه عليه السلام يحكم لهم. و﴿إِلَى﴾ صلة لـ﴿يَأْتُوٓاْ﴾، فإنّ الإتيان والمجيء

---

[1] ط س: بنوا.

[2] س: تعالى.

يعدَّيان بـ"إلى"، أو لـ﴿مُذْعِنِينَ﴾ على تضمين معنى الإسراع والإقبال، كما في قوله تعالى: ﴿فَأَقْبَلُوٓاْ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ﴾ [الصافات، ٣٧/٩٤]. والتقديم للاختصاص.

﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ۝٥٠﴾

﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ إنكار واستقباح لإعراضهم المذكور، وبيانٌ لمَنشئه بعد استقصاء عدّة مِن القبائح المحقَّقة فيهم والمتوقَّعة منهم، وترديدِ المنشئيّة بينها، فمدارُ الاستفهام ليس نفسَ ما وَلِيَتْه "الهمزة" و﴿أَمْ﴾ مِن الأمور الثلاثة؛ بل هو منشئيّتُها له؛ كأنّه قيل: أَذلك -أي: إعراضُهم المذكور- لأنّهم مرضى القلوب لكفرهم ونفاقهم، ﴿أَمِ﴾ لأنّهم ﴿ٱرْتَابُوٓاْ﴾ في أمر نبوّته عليه السلام مع ظهور حقّيّتها، ﴿أَمْ﴾ لأنّهم ﴿يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ﴾؟

ثمّ أُضرِبَ عن الكلّ، وأُبطِلَت منشئيّته، وحُكِم بأنّ المَنشأ شيء آخر مِن شنائعهم، حيث قيل: ﴿بَلْ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ أي: ليس ذلك لشيء ممّا ذكر، أمّا الأوّلان فلأنّه لو كان لشيء منهما لأعرضوا عنه عليه السلام عند كون الحقّ لهم، ولَما أتَوا إليه عليه السلام مذعنين لحكمه؛ لِتحقّق نفاقهم وارتيابهم حينئذ أيضًا، وأمّا الثالث فلانتفائه رأسًا حيث كانوا لا يخافون الحَيفَ أصلًا لمعرفتهم بتفاصيل أحواله عليه السلام في الأمانة والثبات على الحقّ؛ بل لأنّهم هم الظالمون، يريدون أن يظلموا مَن له الحقُّ عليهم، ويتمّ لهم جُحودُه، فيأبَون المحاكَمة إليه عليه السلام لعلمهم بأنّه عليه السلام يقضي عليهم بالحقّ، فمناطُ النفي المستفاد مِن الإضراب في الأوّلين هو وصفُ منشئيّتهما للإعراض فقط مع تحقّقهما في نفسهما، وفي الثالث هو الأصل والوصف / جميعًا. [١٧٨ظ]

هذا، وقد خُصّ الارتياب بما له منشأ مصحِّح لعروضه لهم في الجملة، والمعنى: أم ارتابوا بأن رأوا منه عليه السلام تُهمةً فزالت ثقتُهم ويقينهم به عليه السلام، فمدارُ النفي حينئذ نفسُ الارتياب ومنشئيّتُه معًا، فتأمّل فيما ذُكر على التفصيل، ودَع عنك ما قيل وقيل حسبما يقتضيه النظر الجليل.

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ٥١﴾

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بالنصب على أنّه خبر ﴿كَانَ﴾، و﴿أَنْ﴾ مع ما في حيّزها اسمُها. وقُرئ بالرفع[1] على العكس. والأوّل أقوى صناعةً؛ لأنّ الأولى للاسميّة ما هو أوغل في التعريف، وذلك هو الفعل المُصَدَّر بـ﴿أَنْ﴾، إذ لا سبيل إليه للتنكير، بخلاف قول المؤمنين فإنّه يحتمله، كما إذا اختزلت عنه الإضافة.

لكنّ قراءة الرفع أقعَدُ بحسب المعنى، وأوفى لمقتضى المقام، لِما أنّ مصبّ الفائدة وموقع البيان في الجمل هو الخبر، فالأحقّ بالخبريّة ما هو أكثر إفادةً وأظهر دلالةً على الحدوث، وأوفرُ اشتمالًا على نِسبٍ خاصّةٍ بعيدة مِن الوقوع في الخارج وفي ذهن السامعِ. ولا ريب في أنّ ذلكَ ههنا في ﴿أَنْ﴾ مع ما في حيّزها أتمّ وأكمل، فإذن هو أحقّ بالخبريّة، وأمّا ما يفيده الإضافة مِن النسبة المطلقة الإجماليّة فحيث كانت قليلة الجدوى سهلةَ الحصول خارجًا وذهنًا كان حقّها أن تُلاحَظ ملاحظةً مجملةً، وتُجعل عنوانًا للموضوع، فالمعنى: إنّما كانَ مطلقُ القول الصادر عن المؤمنين ﴿إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ﴾ أي: الرسول عليه السلام ﴿بَيْنَهُمْ﴾ أي: وبين خصومهم سواء كانوا منهم أو مِن غيرهم ﴿أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ أي: خصوصيّةَ هذا القول المحكي عنهم، لا قولًا آخر أصلًا.

وأمّا قراءة النصب فمعناها: إنّما كان قولَ المؤمنين، أي: إنّما كانَ قولًا لهم عند الدعوة خصوصيّةُ قولهم المحكي عنهم، ففيه مِن جعل أخصّ النسبتين وأبعدهما وقوعًا وحضورًا في الأذهان وأحقِّهما بالبيان مفروغًا عنها عنوانًا للموضوع، وإبرازِ ما هو بخلافها في معرض القصد الأصلي ما لا يخفى.

[١٧٩و] / وقُرئ: "لِيُحْكَمَ"[2] على بناء الفعل للمفعول مسندًا إلى مصدره مُجاوِبًا لقوله تعالى: ﴿إِذَا دُعُوٓاْ﴾، أي: لِيُفْعَلَ الحكمُ، كما في قوله تعالى: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام، ٩٤/٦]، أي: وقع التقطّع بينكم.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وابن أبي إسحاق. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٤٥.

٢ قرأ بها أبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢٢٧/٢.

﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى المؤمنين باعتبار صدور القول المذكور عنهم، وما فيه مِن معنى البُعد للإشعار بعلوّ رتبتهم وبُعد منزلتهم في الفضل، أي: أولئك المنعوتون بما ذُكر مِن النعت الجميل ﴿هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ أي: هم الفائزون بكلّ مطلب، والناجون عن كلّ محذور.

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ۝٥٢﴾

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ استئناف جيء به لتقرير مضمون ما قبله مِن حسن حال المؤمنين، وترغيبِ مَن عداهم في الانتظام في سلكهم، أي: ومَن يطعهما كائنًا مَن كان فيما أَمرا به مِن الأحكام الشرعيّة اللازمة والمتعدّية، وقيل: في الفرائض والسنن، والأوّل هو الأنسب بالمقام.

﴿وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ﴾ بإسكان القاف المبنيّ على تشبيهه بـ"كَتْف". وقُرئ بكسر القاف والهاء، وبإسكان الهاء،[١] أي: ويَخْشَ الله على ما مضى مِن ذنوبه ويتّقِهِ فيما يَستقبل.

﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بما ذكر مِن الطاعة والخشية والاتّقاء ﴿هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ بالنعيم المقيم، لا مَن عداهم.

﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لَّا تُقْسِمُواْ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝٥٣﴾

﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ﴾ حكاية لبعضٍ آخر مِن أكاذيبهم مؤكَّدٍ بالأيمان الفاجرة. وقوله تعالى: ﴿جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ﴾ نصب على أنّه مصدر مؤكِّد لفعله الذي هو في حيّز

---

[١] للقرّاء في "وَيَتّقه" سبع قراءات: الأولى: بكسر القاف والهاء مع اختلاس كسرة الهاء، لقالون ويعقوب. الثانية: بإسكان القاف واختلاس كسرة الهاء، لحفص. الثالثة: بكسر القاف وإسكان الهاء، لأبي عمرو وشعبة. الرابعة: بكسر القاف والهاء مع إشباع كسرة الهاء، لورش وابن كثير وخلف عن حمزة والكسائي وخلف. الخامسة: بكسر القاف والهاء مع جواز الوجهين الإشباع والاختلاس، لابن ذكوان وابن جمّاز. السادسة: بكسر القاف وفي الهاء الوجهان الإسكان والإشباع، لخلّاد وابن وَردان. السابعة: بكسر القاف وفي الهاء ثلاثة أوجه الإسكان والاختلاس والإشباع، لهشام. انظر: النشر لابن الجزري، ٣٠٥/١.

النصب على أنّه حال مِن فاعل ﴿أَقْسَمُواْ﴾، أي: أقسموا به تعالى يَجهَدون أيمانَهم جَهدًا، ومعنى "جَهد اليمين" بلوغُ غايتها بطريق الاستعارة، مِن قولهم: "جَهَدَ نفسَه" إذا بلغ أقصى وسعها وطاقتها، أي: جاهدين بالغين أقصى مراتب اليمين في الشدّة والوَكادة. وقيل: هو مصدر مؤكِّد لـ﴿أَقْسَمُواْ﴾، أي: أقسموا إقسامَ اجتهاد في اليمين. قال مقاتل: «مَن حلف بالله فقد اجتهد في اليمين».[١]

﴿لَئِنۡ أَمَرۡتَهُمۡ﴾ / أي: بالخروج إلى الغزو، لا عن ديارهم وأموالهم، كما [١٧٩ظ] قيل: لأنّه حكاية لِما كانوا يقولون لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «أينما كنتَ نكن معك؛ لئن خرجتَ خرجنا، وإن أقمتَ أقمنا، وإن أمرتَنا بالجهاد جاهدنا».[٢]

وقوله تعالى: ﴿لَيَخۡرُجُنَّ﴾ جواب لـ﴿أَقْسَمُواْ﴾ بطريق حكاية فعلِهم،[٣] لا حكايةِ قولِهم،[٤] وحيث كانت مقالتُهم هذه كاذبةً ويَمِينُهم فاجرةً أُمِر عليه السلام بردِّها حيث قيل: ﴿قُل﴾ أي: ردًّا عليهم وزجرًا لَهم عن التفوّه بها، وإظهارًا لِعدم القبول لكونهم كاذبين فيها: ﴿لَّا تُقۡسِمُواْ﴾ أي: على ما ينبئ عنه كلامكم مِن الطاعة.

وقوله تعالى: ﴿طَاعَةٞ مَّعۡرُوفَةٌۚ﴾ خبر مبتدأ محذوف، والجملة تعليل للنهي، أي: لا تقسموا على ما تدَّعون مِن الطاعة؛ لأنّ طاعتكم طاعة نفاقيّة واقعة باللسان فقط مِن غير مواطأةٍ مِن القلب، وإنّما عُبّر عنها بـ﴿مَّعۡرُوفَةٌۚ﴾ للإيذان بأنّ كونها كذلك مشهور معروف لكلّ أحد. وقُرِئ بالنصب،[٥] والمعنى: تطيعون طاعةً معروفةً. هذا، وحملُها على الطاعة الحقيقيّة بتقدير ما يناسبُها مِن مبتدأٍ أو خبرٍ أو فعلٍ -مثل: الذي يُطلب منكم طاعة معروفة حقيقيّةٌ، لا نفاقيّة، أو طاعة معروفة أمثلُ، أو ليكن طاعةٌ معروفة، أو أطيعوا طاعةً معروفة-[٦] ممّا لا يساعده المقام.

---

١ تفسير مقاتل بن سليمان، ١/٥٨٣؛ التفسير البسيط للواحدي، ١٦/٣٣٩.

٢ الكشف والبيان للثعلبي، ٧/١١٤؛ اللباب لابن عادل، ١٤/٤٣٤.

٣ وفي هامش م: كقولك: "حلَف ليفعلنّ". «منه».

٤ وفي هامش م: كقولك: "حلَف لأفعلنّ". «منه».

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن علي. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٤٤.

٦ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٣/٢٥٠؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٤/١١٢.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ مِن الأعمال الظاهرة والباطنة التي مِن جملتها ما تظهرونه مِن الأكاذيب المؤكَّدة بالأيمان الفاجرة، وما تضمرونه في قلوبكم مِن الكفر والنفاق والعزيمة على مخادعة المؤمنين وغيرها مِن فنون الشرِّ والفساد. والجملة تعليل للحكم بأنّ طاعتهم طاعة نفاقيّة، مشعِر بأنّ مدار شهرة أمرها فيما بين المؤمنين إخبارُه تعالى بذلك، ووعيد لهم بأنّه تعالى مُجازيهم بجميع أعمالهم السيّئة التي منها نفاقهم.

﴿قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيۡكُم مَّا حُمِّلۡتُمۡۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٥٤﴾﴾

﴿قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ كرّر الأمر بالقول لإبراز كمال العناية به، والإشعارِ / باختلافهما مِن حيث إنّ المَقول في الأوّل نهي بطريق الردّ والتقريع، [١٨٠و] كما في قوله تعالى: ﴿ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون، ١٠٨/٢٣]، وفي الثاني أمرٌ بطريق التكليف والتشريع. وإطلاق الطاعة المأمور بها عن وصف الصحّة والإخلاص ونحوهما بعدَ وصف طاعتهم بما ذُكر للتنبيه على أنّها ليست مِن الطاعة في شيء أصلًا.

وقوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾ خطاب للمأمورين بالطاعة مِن جهته تعالى وارد لتأكيد الأمر بها، والمبالغةِ في إيجاب الامتثال به. والحمل عليه بالترهيب والترغيب، لِما أنّ تغيير الكلام المَسوق لمعنى مِن المعاني وصرفَه عن سَننه المسلوك ينبئ عن اهتمام جديد بشأنه مِن المتكلّم، ويستجلب مزيدَ رغبة فيه مِن السامع، كما أشيرَ إليه في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا﴾ [الكهف، ١٠٩/١٨]، لا سيّما إذا كان ذلك بتغيير الخطاب بالواسطة إلى الخطاب بالذات، فإنّ في خطابه تعالى إيّاهم بالذات بعد أمره تعالى إيّاهم بوساطته[١] عليه السلام، وتصدِّيه لبيان حكم الامتثال بالأمر والتولّي عنه إجمالًا وتفصيلًا؛ مِن إفادة ما ذُكِر مِن التأكيد والمبالغة ما لا غاية وراءه.

---

[١] س: بواسطته.

وتَوهّمُ أنّه داخل تحت القول مأمورٌ بحكايته مِن جهته تعالى، وأنّه أبلغ في التبكيت؛[١] تعكيسٌ للأمر.

و"الفاء" لترتيب ما بعدها على تبليغه عليه السلام للمأمور به إليهم، وعدمُ التصريح به للإيذان بغاية ظهور مسارعته عليه السلام إلى تبليغ ما أُمِر به، وعدمِ الحاجة إلى الذكر، أي: إن تتولّوا عن الطاعة إثر ما أُمِرتم بها ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ﴾ أي: فاعلموا أنّما عليه عليه السلام ﴿مَا حُمِّلَ﴾ أي: أُمِر به مِن التبليغ، وقد شاهدتموه عند قوله: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾. ﴿وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ أي: ما أُمِرتم به مِن الطاعة. ولعلّ التعبيرَ عنه بالتحميل للإشعار بثِقله وكونِه مؤنةً باقية في عُهدتهم بعد، كأنّه قيل: وحيث تولّيتم عن[٢] ذلك فقد بقيتم تحت ذلك الحِمل الثقيل. وقوله تعالى: ﴿مَا حُمِّلَ﴾ محمول على المشاكلة.

﴿وَإِن تُطِيعُوهُ﴾ / أي: فيما أمركم به مِن الطاعة ﴿تَهْتَدُواْ﴾ إلى الحقّ الذي هو المَقصد الأصلي الموصل إلى كلّ خير، والمنجّي عن كلّ شرّ. وتأخيره مِن بيان حكم التولّي لِما في تقديم الترهيب مِن تأكيدِ الترغيب وتقريبِه ممّا هو مِن بابه مِن الوعد الكريم. [١٨٠ظ]

وقوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ اعتراض مقرّر لِما قبله مِن أنّ غائلةَ التولّي وفائدةَ الإطاعة مقصورتان عليهم. و"اللام" إمّا للجنس المنتظِم له عليه السلام انتظامًا أوّليًا، أو للعهد، أي: ما على جنس الرسول كائنًا مَن كان، أو ما عليه عليه السلام إلّا التبليغُ الموضّح لكلّ ما يحتاج إلى الإيضاح، أو الواضحُ على أنّ ﴿ٱلْمُبِينُ﴾ مِن "أبانَ" بمعنى "بَانَ"، وقد علمتم أنّه قد فعله بما لا مزيد عليه، وإنّما بقي ما حُمِّلتم.

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ۝٥٥﴾

---

[١] انظر: الكشّاف للزمخشري، ٣/٢٥٠؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٤/١١٢.

[٢] س: مِن.

وقوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ﴾ استئناف مقرّر لِما في قوله تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ﴾[1] مِن الوعد الكريم، ومُعرِب عنه بطريق التصريح، ومبيِّنٌ لتفاصيل ما أُجمِل فيه مِن فنون السعادات الدينيّة والدنيويّة التي هي مِن آثار الاهتداء، ومتضمِّن لِما هو المرادُ بالطاعة التي نِيط بها الاهتداء. والمراد بـ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ كلُّ مَن اتّصف بالإيمان بعد الكفر على الإطلاق، مِن أيّ طائفةٍ كان، وفي أيّ وقتٍ كان، لا مَن آمنَ مِن طائفة المنافقين فقط، ولا مَن آمَن بعد نزول الآية الكريمة فحسب، ضرورةَ عموم الوعد الكريم للكلّ كافّةً، فالخطاب في ﴿مِنكُمْ﴾ لعامّة الكفرة، لا للمنافقين خاصّةً، و﴿مِن﴾ تبعيضيّة.

﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ عطفٌ على ﴿ءَامَنُواْ﴾، داخل معه في حيّز الصلة، وبه يتمّ تفسير الطاعة التي أُمر بها ورُتِّب عليها ما نُظِم في سلك الوعد الكريم كما أشيرَ إليه. وتوسيط الظرف بين المعطوفين لإظهار أصالة الإيمان وعراقته في استتباع الآثار والأحكام، والإيذانِ بكونه أوّلَ ما يُطلَب منهم، وأهمَّ ما يجب عليهم.

وأمّا تأخيره عنهما في قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح، ٤٨/٢٩] / فلأنّ ﴿مِن﴾ هناك بيانيّة، والضمير للذين معه عليه الصلاة والسلام مِن خُلَّص المؤمنين، ولا ريب في أنّهم جامعون بين الإيمان والأعمال الصالحة، مثابرون عليهما، فلا بدّ مِن وُرُود بيانهم بعد ذِكر نعوتهم الجليلة بكمالها. [١٨١و]

هذا، ومَن جعل الخطاب للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم وللأمّة عمومًا على أنّ ﴿مِن﴾ تبعيضيّة، أو له عليه السلام ولمَن معه مِن المؤمنين خصوصًا على أنّها بيانيّة،[2] فقد نأى عمّا يقتضيه سباق النظم الكريم وسياقه بمَنازل، وأبعدَ عمّا يليق بشأنه عليه السلام بمراحل.

﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ جوابُ للقسَم، إمّا بالإضمار، أو تنزيل وعده تعالى منزلةَ القسَم لتحقّق إنجازه لا محالةَ، أي: لَيجعلنّهم خلفاء متصرّفين فيها

---

[1] في الآية السابقة.

[2] انظر: الكشّاف للزمخشري، ٣/٢٥١؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٤/١١٢.

تصرّف الملوك في ممالكهم، أو خلفاءَ مِن الذين لم يكونوا على حالهم مِن الإيمان والأعمال الصالحة.

﴿كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ هم بنو إسرائيل، استخلفهم الله عزّ وجلّ في مصر والشام بعد إهلاك فرعونَ والجبابرة، أو هم ومَن قبلَهم مِن الأمم المؤمِنة التي أشيرَ إليهم في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ [ابراهيم، ٩/١٤] إلى قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ [ابراهيم، ١٤/١٣-١٤].

ومحلّ "الكاف" النصب على أنّه مصدر تشبيهي مؤكِّد للفعل بعد تأكيده بالقسَم، و﴿مَا﴾ مصدريّة، أي: ليَستخلفنّهم استخلافًا كائنًا كاستخلافه تعالى للذين مِن قبلهم. وقُرِئ: "كَمَا اسْتُخْلِفَ"[١] على البناء للمفعول، فليس العاملُ في "الكاف" حينئذ الفعلَ المذكورَ؛ بل ما يدلّ هو عليه مِن فعلٍ مبنيّ للمفعول، جارٍ منه مجرى المطاوع، فإنّ استخلافه تعالى إيّاهم مستلزِم لكونهم مستخلَفين لا محالةَ، كأنّه قيل: ليَستخلفنَّهم في الأرض فيُسْتَخْلَفُنَّ فيها استِخلافًا، أي: / مُسْتَخْلَفِيَةً كائنةً كَمُسْتَخْلَفِيَة مَن قَبلهم، وقد مرّ تحقيقه في قوله تعالى: ﴿كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ [البقرة، ١٠٨/٢]. ومِن هذا القبيل قوله تعالى: ﴿وَأَنۢبَتَهَا[٢] نَبَاتًا حَسَنًا﴾ [آل عمران، ٣٧/٣] على أحد الوجهين، أي: فَنبت نباتًا حسنًا، وعليه قولُ مَن قال: [١٨١ظ]

وَعضّةُ دهرٍ يا ابنَ مروانَ لم يدَع مِن المال إلّا مُسْحَتٌ أو مُجلّفُ[٣]

أي: فلم يبقَ إلّا مُسْحَت... إلخ.

---

[١] قرأ بها شعبة. النشر لابن الجزري، ٣٣٢/٢.

[٢] ط س: فأنبته الله. | يظهر أثر كشطٍ في نسخة المؤلّف، فلعلّه صحّحها بعد نسخ ط س.

[٣] للفرزدق في ديوانه، ١١٧/٢، بلفظ:
وَعَضّ زمان يا ابنَ مروانَ لم يدَع
مِن المال إلّا مُسْحَتًا أو مُجرّفُ
قال ابن منظور: «ويُروى: "إلّا مُسحَتٌ أو مُجَلّفُ"، ومَن رواه كذلك جعل معنى "لم يدَع": لم يَتقارّ؛ ومَن رواه: "إلّا مُسحتًا" جعل "لم يدَع" بمعنى: لم يترك، ورَفع قوله: "أو مجلّفُ" بإضمار، كأنه قال: "أو هو مجلّفُ"؛ قال الأزهري: "وهذا هو قول الكسائي"، ومال مَسحوت ومُسحَت، أي: مُذهَب». لسان العرب لابن منظور، «سحت».

﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ﴾ عطفٌ على ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ﴾، منتظِم معه في سِلك الجواب، وتأخيرُه عنه مع كونه أجلّ الرغائب الموعودة وأعظمَها لِما أنّ النفوس إلى الحظوظ العاجلة أميَل، فتصدير المواعيد بها في الاستمالة أدخل، والمعنى: لَيجعلَنّ دينَهم ثابتًا مقرَّرًا بحيث يستمرّون على العمل بأحكامه ويرجعون إليه في كلّ ما يأتون وما يذرون.

والتعبير عن ذلك بـ"التمكين" -الذي هو جعلُ الشيء مكانًا لآخر، يقال: مَكّن له في الأرض، أي: جعلها مَقرًّا له، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الكهف، ٨٤/١٨] ونظائرُه. وكلمة ﴿فِى﴾ للإيذان بأنّ ما جُعل مقرًّا له قطعة منها، لا كلُّها- للدلالة على كمال ثباتِ الدين، ورَصانةِ أحكامه، وسلامتِه عن التغيير والتبديل؛ لابتنائه على تشبيهه بالأرض في الثبات والقرار، مع ما فيه مِن مراعاة المناسبة بينه وبين الاستخلاف في الأرض.

وتقديم صلة التمكين على مفعوله الصريح للمسارعة إلى بيان كون الموعود مِن منافعهم تشويقًا لهم إليه وترغيبًا لهم في قبوله عند وروده، ولأنّ في توسيطها بينه وبين وصفه -أعني قولَه تعالى: ﴿ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾- وتأخيرِها عنه مِن الإخلال بجزالة النظم الكريم ما لا يخفى. وفي إضافة "الدين" إليهم -وهو دين الإسلام- ثمّ وصفِه بارتضائه لهم تأليف لقلوبهم، ومزيدُ ترغيب فيه، وفضلُ تثبيت عليه.

﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم﴾ بالتشديد، وقُرئ بالتخفيف[1] مِن الإبدال. ﴿مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ﴾ أي: مِن الأعداء ﴿أَمْنًا﴾ حيث كان أصحاب النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قبل الهجرة عشر سنين -بل أكثر- خائفين، ثمّ هاجروا / إلى المدينة، وكانوا [١٨٢و] يُصبحون في السلاح ويُمسون كذلك، حتّى قال رجل منهم: «ما يأتي علينا يوم نأمَن فيه؟» فقال عليه السلام: «لا تَغبُرون[2] إلّا يسيرًا حتّى يجلس الرجل منكم

---

[1] أي: "وَلَيُبْدِلَنَّهُمْ". قرأ بها ابن كثير ويعقوب وشعبة. النشر لابن الجزري، ٣٣٣/٢.

[2] "لا تَغبُرون" أي: لا تبقون. غَبَر الشيء يَغبُر، أي: بَقي، والغابِر: الباقي. انظر: **الصحاح** للجوهري، «غبر».

في الملأ العظيم مُحتَبِيًا ليس معه حديدة»،[1] فأنزل الله عزّ وجلّ هذه الآية،[2] وأنجز وَعده[3] فأظهرهم على جزيرة العرب، وفتح لهم بلاد الشرق والغرب، وصاروا إلى حالٍ يخافهم كلُّ مَن عداهم.

وفيه مِن الدلالة على صحّة النبوّة للإخبار بالغيب على ما هو عليه قبل وقوعه ما لا يخفى. وقيل: المراد الخوفُ مِن العذاب والأمنُ منه في الآخرة.

﴿يَعْبُدُونَنِي﴾ حال مِن الموصول الأوّل مفيدة لتقييد الوعد بالثبات على التوحيد، أو استئناف ببيان المقتضي للاستخلاف وما انتظم معه في سِلك الوعد. ﴿لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا﴾ حال مِن "الواو"، أي: يعبدونني غيرَ مشركين بي في العبادة شيئًا.

﴿وَمَن كَفَرَ﴾ أي: اتّصف بالكفر، بأن ثبت واستمرّ عليه ولم يتأثّر بما مرّ مِن الترهيب والترغيب، فإنّ الإصرار عليه بعد مشاهدة دلائل التوحيد كفرٌ مستأنَف زائد على الأصل. وقيل: كفَرَ بعد الإيمان. وقيل: كفَرَ هذه النعمة العظيمة، والأوّل هو الأنسب بالمقام. ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ أي: بعد ذلك الوعد الكريم بما فُصِّل مِن المطالب العالية المستوجبة لغاية الاهتمام بتحصيلها والسعي الجميل في حيازتها ﴿فَأُولَٰٓئِكَ﴾ البُعَداءُ عن الحقّ التائهون في تِيه الغواية والضلال ﴿هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ الكاملون في الفسق والخروج عن حدود الكفر والطغيان.

﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ٥٦﴾

﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ عطفٌ على مقدّر ينسحب عليه الكلام ويستدعيه النظام، فإنّ خطابه تعالى للمأمورين بالطاعة على طريق الترهيبِ مِن التولّي بقوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾... إلخ،[4] وترغيبَه تعالى إيّاهم في الطاعة بقوله تعالى:

---

[1] "مُحتبِيًا ليس فيه حديدة"، عبارةٌ عن غاية الأمن ورخاء البال. "الحَبو": هو أن يضمّ الإنسان رجليه إلى بطنه بثوب ويجمعها مع ظهره، ويشدّه عليها. فتوح الغيب للطيبي، ١٣٤/١١.

[2] جامع البيان للطبري، ٣٤٨/١٧؛ الكشف والبيان للثعلبي، ١١٥/٧.

[3] س + الكريم.

[4] النور، ٥٤/٢٤.

[١٨٢ظ] ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ﴾... إلخ،[١] / ووَعْدَه تعالى إيّاهم على الإيمان والعمل الصّالح بما فُصِّل مِن الاستخلاف، وما يتلوه مِن الرغائب الموعودة، ووَعيدَه على الكفر؛ ممّا يوجب الأمرَ بالإيمان والعمل الصالح والنهيَ عن الكفر، فكأنّه قيل: فآمِنوا واعملوا صالحًا وأقيموا، أو فلا تكفروا وأقيموا. وعطفُه على ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾[٢] ممّا لا يليق بجزالة النظم الكريم.

﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ أمرهم الله سبحانه بالذات بما أمرهم به بواسطة الرسول عليه السلام مِن طاعته التي هي طاعته تعالى في الحقيقة تأكيدًا للأمر السابق، وتقريرًا لِمضمونه، على أنّ المراد بالمطاع فيه جميعُ الأحكام الشرعيّة المنتظِمة للآداب المرضيّة أيضًا، أي: وأطيعوه في كلّ ما يأمركم به وينهاكم عنه، أو تكميلًا لِما قبله مِن الأمرين الخاصَّين المتعلِّقين بالصلاة والزكاة، على أنّ المراد بما ذُكر ما عداهما مِن الشرائع، أي: وأطيعوه في سائر ما يأمركم به... إلخ.

وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ متعلّق على الأوّل بالأمر الأخير المشتمِل على جميع الأوامر، وعلى الثاني بالأوامر الثلاثة، أي: افعلوا ما ذكر مِن الإقامة والإيتاء والإطاعة راجِين أن تُرحَموا.

﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾﴾

﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ لمّا بيّنَ حالُ مَن أطاعه عليه السلام وأشيرَ إلى فوزِه بالرحمة المطلقة المستتبعة لسعادة الدارين عُقِّب ذلك ببيان حالِ مَن عصاه عليه السلام ومآلِ أمرِه في الدنيا والآخرة بعد بيان تناهيه في الفسق تكميلًا لأمر الترغيب والترهيب. والخطاب إمّا لِكلّ أحد ممّن يصلح له كائنًا مَن كان، وإمّا للرسول صلّى الله عليه وسلّم على منهاج قوله تعالى: ﴿وَلَا[٣] تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام، ١٤/٦] ونظائرِه للإيذانِ بأنّ الحِسبان المذكورَ مِن القُبح والمحذوريّة بحيث يُنْهَى عنه مَن يمتنع صدوره عنه، فكيف بمَن يمكن ذلك منه؟

---

[١] النور، ٥٤/٢٤.

[٢] النور، ٥٤/٢٤. | انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢٥٢/٣؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١١٣/٤.

[٣] م ط س: فلا.

ومحلّ الموصول النصب على أنّه مفعول أوّلُ للحسبان، وقوله تعالى: ﴿مُعْجِزِينَ﴾ ثانيهما، وقوله تعالى: ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ظرف لـ﴿مُعْجِزِينَ﴾، لكن لا لإفادة كون الإعجاز المنفيّ فيها لا في غيرها، فإنّ ذلك ممّا لا يحتاج إلى البيان؛ بل لإفادة شمول عدم الإعجاز لجميع أجزائها، أي: لا تحسبنّهم معجزين الله عزّ وجلّ[١] عن إدراكهم وإهلاكهم / في قُطر مِن أقطار الأرض بما [١٨٣و] رحبت، وإن هربوا منها كلَّ مهرب.

وقُرئ: "لَا يَحْسَبَنَّ"[٢] بياء الغيبة على أنّ الفاعل كلّ أحد، والمعنى كما ذُكر، أي: لا يحسَبنّ أحدٌ الكافرين معجزين له سبحانه في الأرض، أو هو الموصولُ والمفعول الأوّل محذوف؛ لكونه عبارة عن أنفسهم، كأنّه قيل: لا يحسبنّ الكافرون أنفسهم معجزين في الأرض. وأمّا جعلُ ﴿مُعْجِزِينَ﴾ مفعولًا أوّل، و﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ مفعولًا ثانيًا؛[٣] فبمَعزِل مِن المطابقة لمقتضى المقام ضرورةَ أنّ مصبّ الفائدة هو المفعول الثاني، ولا فائدة في بيان كون المعجزين في الأرض، وقد مرّ في قوله تعالى: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة، ٢/٣٠].

وقوله تعالى: ﴿وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ معطوف على جملة النهي بتأويلها بجملة خبريّة؛ لأنّ المقصود بالنهي عن الحِسبان تحقيقُ نفي الحِسبان، كأنّه قيل: ليس الذين كفروا معجزين ومأواهم... إلخ، أو على جملة مقدَّرة وقعت تعليلًا للنهي، كأنّه قيل: لا تحسبنّ الذين كفروا معجزين في الأرض، فإنّهم مُدْرَكون ومأواهم... إلخ. وقيل: الجملة المقدّرة: بل هم مقهورون، فتدبّر.

﴿وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ جواب لقسَم مقدّر، والمخصوص بالذمّ محذوف، أي: وبالله، لبئس المصير هي، أي: النار. والجملة اعتراض تذييلي مقرّر لِما قبله. وفي إيراد ﴿ٱلنَّارُ﴾ بعنوان كونها مأوًى ومصيرًا لهم إثرَ نفي فوتهم بالهرب في الأرض كُلَّ مَهرب مِن الجزالة ما لا غاية وراءَه، فللهِ درّ شأن التنزيل.

---

[١] س: تعالى.

[٢] قرأ بها ابن عامر وحمزة وإدريس عن خَلف بخُلف عنه، إلّا أنّ إدريس يكسر السين والباقين يفتحونها. انظر: النشر لابن الجزري، ٢/٢٧٧.

[٣] انظر: الكشّاف للزمخشري، ٣/٢٥٢؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٤/١١٣.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٖۚ مِّن قَبۡلِ صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِۚ ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡۚ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ وَلَا عَلَيۡهِمۡ جُنَاحُۢ بَعۡدَهُنَّۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيۡكُم بَعۡضُكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ۝٥٨﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ رجوع إلى بيان تتمّة الأحكام السابقة بعد تمهيد ما يوجب الامتثال بالأوامر والنواهي الواردة فيها وفي الأحكام اللاحقة مِن التمثيلات والترغيب والترهيب والوعدِ والوعيد. والخطاب / إمّا للرجال خاصّةً، [١٨٣ظ] والنساءُ داخلات في الحكم بدلالة النصّ،[١] أو للفريقين جميعًا بطريق التغليب.

رُوي أنّ غلامًا لأسماء بنتِ أبي مرثد دخل عليها في وقتٍ كَرِهته، فنزلت.[٢] وقيل: أرسل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم مدلجَ بن عمرو الأنصاري[٣] -وكان غلامًا- وقتَ الظهيرة ليدعو عمر رضي الله تعالى[٤] عنه، فدخل عليه وهو نائم قد انكشف عنه ثوبُه، فقال عمر رضي الله عنه: «لَوددت أنّ الله تعالى نهى آباءَنا وأبناءَنا وَخَدَمَنا أن لا يدخلوا علينا هذه الساعاتِ إلّا بإذن»، ثمّ انطلق معه إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فوجدَه وقد أنزلت عليه هذه الآية.[٥]

﴿لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ﴾ مِن العبيد والجواري ﴿وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ﴾ أي: الصبيان القاصرون عن درجة البلوغ المعهود. والتعبير عنه بـ﴿ٱلۡحُلُمَ﴾ لكونه أظهرَ دلائله. ﴿مِنكُمۡ﴾ أي: مِن الأحرار ﴿ثَلَٰثَ مَرَّٰتٖ﴾ أي: ثلاثةَ أوقات في اليوم والليلة. والتعبير عنها بـ"المرّات" للإيذان بأنّ مدار وجوب الاستئذان مقارنةُ تلك الأوقاتِ لمرور المستأذِنين بالمخاطَبين، لا أنفسُها.

---

١ وفي هامش م: بل بطريق الأولويّة. «منه».

٢ الكشّاف للزمخشري، ٢٥٣/٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١١٣/٤.

٣ ذكره أبو نُعيم باسم مُدلِج الأنصاري، وقال: «غير منسوب، ذكره ابن عبّاس في حديثه» وأخرج القصّة. معرفة الصحابة لأبي نعيم، ٢٦٢١/٥.

٤ س - تعالى.

٥ التفسير البسيط للواحدي، ٣٥٢/١٦؛ الكشّاف للزمخشري، ٢٥٣/٣.

﴿مِن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ﴾ لظهور أنّه وقتُ القيام عن المضاجع، وطرحِ ثياب النوم، ولبسِ ثياب اليقظة. ومحلّه النصبُ على أنّه بدل مِن ﴿ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ﴾، أو الرفع على أنّه خبر لمبتدأ محذوف، أي: أحدُها مِن قبل... إلخ.

﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم﴾ أي: ثيابكم التي تلبسونها في النهار وتخلعونها لأجل القَيلولة. وقوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ﴾ وهي شدّة الحرّ عند انتصاف النهار؛ بيانٌ للحِين. والتصريح بمدار الأمر –أعني: وضعَ الثياب في هذا الحين، دون الأوّل والآخر- لِما أنّ التجرّد عن الثياب فيه لأجل القيلولة لِقلّة زمانها، كما ينبئ عنها إيرادُ الحِين مضافًا إلى فعلٍ حادث مُتَقَضٍّ، ووقوعُها في النهار الذي هو مَئِنّة لكثرة الورود والصدور ومظِنّة لظهور الأحوال وبروز الأمور ليس مِن التحقّق والاطّراد بمنزلة ما في الوقتين المذكورين، / فإنّ تحقّق التجرّد واطّرادَه [١٨٤و] فيهما أمر معروف لا يحتاج إلى التصريح به.

﴿وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ﴾ ضرورةَ أنّه وقت التجرّد عن اللباس والالتحاف باللحاف، وليس المراد بالقبليّة والبعديّة المذكورتين مطلقَهما المتحقّقَ في الوقتِ الممتدِّ المتخلّلِ بين الصلاتين، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [يوسف، ٣/١٢]، وقولِه تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ﴾ [يوسف، ١٠٠/١٢]؛ بل ما يعرض منهما[١] لطرفي ذلك الوقت الممتدّ المتّصلين بالصلاتين المذكورتين اتّصالًا عاديًّا.

وقوله تعالى: ﴿ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ﴾ خبر مبتدأ محذوف. وقوله تعالى: ﴿لَّكُمْ﴾ متعلّق بمحذوف هو صفة لـ﴿ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ﴾، أي: كائنة لكم، والجملة استئناف مسوق لبيان علّة وجوب الاستئذان، أي: هنّ ثلاثةُ أوقات يختلّ فيها التستّر عادةً. و"العورة" في الأصل هو الخلل، غلَب في الخلل الواقع فيما يهُمّ حفظه ويُعتَنَى بسَتره، أُطلقت على الأوقات المشتملة عليها مبالغةً، كأنّها نفس العورة. وقُرئ: "ثَلَاثَ عَوْرَاتٍ"[٢] بالنصب بدلًا مِن ﴿ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ﴾.

---

[١] وفي هامش م: مِن القبليّة والبعديّة. «منه».

[٢] قرأ بها حمزة والكسائي وخلف وشعبة. النشر لابن الجزري، ٣٣٣/٢.

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ﴾ أي: على المماليك والصبيان ﴿جُنَاحٌ﴾ أي: إثم في الدخول بغير استئذانٍ، لعدم ما يوجبه مِن مخالفة الأمر والاطّلاع على العورات، ﴿بَعْدَهُنَّ﴾ أي: بعد كلّ واحدةٍ مِن تلك العورات الثلاثِ، وهي الأوقات المتخلّلة بين كلّ اثنتين منهنّ، وإيرادها بعنوان البعديّة -مع أنّ كلّ وقت مِن تلك الأوقات قبلَ عورة مِن العورات، كما أنّها بعد أُخرى منهنّ- لتوفية حقّ التكليف والترخيص الذي هو عبارة عن رفعه، إذ الرخصة إنّما تتصوّر في فعل يقع بعد زمان وقوع الفعل المكلَّف.

والجملة على القراءتين مستأنَفة مسوقة لتقرير ما قبلها بالطرد والعكس.

[١٨٤ظ] وقد جُوِّز على القراءة الأولى كونُها في محلّ الرفع على أنّها / صفةٌ أخرى لـ﴿ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ﴾، وأمّا على القراءة الثانية فهي[1] مستأنَفة لا غير، إذ لو جعلت صفة لـ﴿ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ﴾، وهي بدل مِن ﴿ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ﴾؛ لكان التقدير: لِيستأذنكم هؤلاء في ثلاث عوراتٍ، لا إثمَ في ترك الاستئذان بعدهنّ، وحيث كان انتفاء الإثم حينئذ ممّا لم يعلمه السامع إلّا بهذا الكلام لم يَتَسَنَّ إبرازُه في معرِض الصفة، بخلاف قراءة الرفع، فإنّ انتفاء الإثم حينئذ معلوم مِن صدر الكلام.

وقوله تعالى: ﴿طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم﴾ استئناف ببيان العذر المرخِّص في ترك الاستئذان، وهي المخالطة الضروريّة، وكثرة المداخلة. وفيه دليل على تعليل الأحكام، وكذا في الفرق بين الأوقات الثلاثة وبين غيرها بكونها عورات. ﴿بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي: بعضكم طائف على بعض طوافًا كثيرًا، أو بعضكم يطوف على بعض.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى مصدر الفعل الذي بعده، وما فيه مِن معنى البعد لِما مرّ مرارًا مِن تفخيم شأن المشار إليه، والإيذانِ ببُعد منزلته، وكونِه مِن الوضوح بمنزلة المشار إليه حِسًّا، أي: مثلَ ذلك التبيين ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ الدالّةَ على الأحكام، أي: ينزّلها مبيَّنةً واضحةَ الدلالات عليها، لا أنّه تعالى يبيّنها بعد أن لم تكن كذلك.

---

[1] س: هي.

و"الكاف" مقحمة، وقد مرّ تفصيله في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة، ١٤٣/٢]. و﴿لَكُمُ﴾ متعلّق بـ﴿يُبَيِّنُ﴾، وتقديمه على المفعول الصريح لِما مرّ مرارًا مِن الاهتمام بالمقدّم، والتشويقِ إلى المؤخَّر. وقيل: يبيّن عِلل الأحكام، وليس بواضح مع أنّه مؤدٍّ إلى تخصيص الآيات بما ذكر ههنا.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ مبالغ في العلم بجميع المعلومات، فيعلم أحوالكم، ﴿حَكِيمٌ﴾ في جميع أفاعيله، فيشرع لكم ما فيه صلاح أمركم معاشًا ومعادًا.

﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾﴾

﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ﴾ لمّا بُيّن فيما مرّ آنفًا حكم الأطفال في أنّه لا جناح عليهم[1] في ترك الاستئذان فيما عدا الأوقات الثلاثة عُقِّبَ ببيان حالهم بعد البلوغ دفعًا لِما عسى يُتوهّم أنّهم / وإن كانوا أجانب ليسوا كسائر الأجانب [١٨٥و] بسبب اعتيادهم الدخولَ، أي: إذا بلغ الأطفال الأحرار الأجانب ﴿فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟﴾ إذا أرادوا الدخول عليكم.

وقوله تعالى: ﴿كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ في حيّز النصب على أنّه نعت لِمصدر مؤكِّدٍ للفعل السابق. والموصول عبارة عمَّن قيل لهم: ﴿لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟﴾ الآية [النور، ٢٧/٢٤]، ووصفُهم بكونهم قبل هؤلاء باعتبار ذكرهم قبل ذكرهم، لا باعتبار بلوغهم قبل بلوغهم كما قيل،[2] لِما أنّ المقصود بالتشبيه بيانُ كيفيّة استئذانِ هؤلاءِ وزيادةُ إيضاحه، ولا يتسنّى ذلك إلّا بتشبيهه باستئذان المعهودين عند السامع. ولا ريب في أنّ بلوغهم قبل بلوغ هؤلاء ممّا لا يخطر ببال أحدٍ وإن كان الأمر كذلك في الواقع، وإنّما المعهود المعروف ذكرهم قبل ذكرهم، أي: فليستأذنوا استئذانًا كائنًا مثل استئذان المذكورين قبلكم، بأن يستأذنوا في جميع الأوقات ويرجعوا إن قيل لهم: "ارجعوا" حسبما فصّل فيما سلف.

---

[1] ط س - عليهم.

[2] انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢٥٤/٣؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١١٤/٤.

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ الكلام فيه كالذي سبق، والتكرير للتأكيد والمبالغةِ في الأمر بالاستئذان. وإضافة الآيات إلى ضمير الجلالة لتشريفها.

﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٦٠﴾

﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ أي: العجائز اللاتي قعدن عن الحيض والحمل ﴿ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا﴾ أي: لا يطمعن فيه لكِبرهنّ، ﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ﴾ أي: الثيابَ الظاهرةَ كالجلباب ونحوه. و"الفاء" فيه لأنّ "اللام" في ﴿ٱلْقَوَٰعِدُ﴾ بمعنى "اللاتي" أو للوصف بها.[١]

﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ﴾ غيرَ مظهراتٍ لزينةٍ ممّا أُمِر بإخفائه في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾،[٢] وأصل التبرّجِ التكلّف في إظهار ما يخفى، مِن قولهم: "سفينة بارجة" لا غطاءَ عليها، / و"البرَجُ" سَعة العين بحيث يُرى بياضها محيطًا بسوادِها كلِّه، إلّا أنّه خُصّ[٣] بكشف المرأة زينتَها ومحاسنَها للرجال. ﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ﴾ بترك الوضع ﴿خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾ مِن الوضع، لبُعده مِن التهمة. [١٨٥ظ]

﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ مبالِغ في سمع جميع ما يُسْمَع، فيسمع بما يجري بينهنّ وبين الرجال مِن المقاوَلة، ﴿عَلِيمٌ﴾ فيعلم مقاصِدهنّ، وفيه مِن الترهيب ما لا يخفى.

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٦١﴾

---

[١] وفي هامش م: أي: وصف ﴿ٱلْقَوَٰعِدُ﴾ بـ﴿ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا﴾. «منه».

[٢] النور، ٣١/٢٤.

[٣] س: خص.

﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡأَعۡرَجِ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرِيضِ حَرَجٞ﴾ كانت هؤلاء الطوائف يتحرّجون مِن مؤاكلة الأصحّاء حذارًا مِن استقذارهم إيّاهم، وخوفًا مِن تأذّيهم بأفعالهم وأوضاعهم، فإنّ الأعمى ربّما سبقت يده إلى ما سبقت إليه عينُ أكيله وهو لا يشعُر به، والأعرج يتفسّح في مجلسه، فيأخذ أكثر مِن موضعه، فيضيّقُ على جليسه، والمريض لا يخلو عن حالة تؤذي قرينَه.

وقيل: كانوا يدخلون على الرجل لطلب العلم، فإذا لم يكن عنده ما يطعمهم ذهب بهم إلى بيوت آبائهم وأمّهاتهم، أو إلى بعض مَن سمّاهم الله عزّ وجلّ في الآية الكريمة، فكانوا يتحرّجون مِن ذلك، ويقولون: "ذهب بنا إلى بيت غيره، ولعلّ أهلَه كارهون لذلك". وكذا كانوا يتحرّجون مِن الأكل مِن أموال الذين كانوا إذا خَرجوا إلى الغزو خَلّفوا هؤلاء الضعفاءَ في بيوتهم، ودفعوا إليهم مفاتيحها، وأَذِنوا لَهم أن يأكلوا ممّا فيها مخافةَ أن لا يكون إذنهم عن طيب نفس منهم. وكان غير هؤلاء أيضًا يتحرّجون مِن الأكل في بيوت غيرهم، فقيل لهم: ليس على الطوائف المعدودة ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ أي: عليكم وعلى مَن يماثلكم في الأحوال مِن المؤمنين حرَج ﴿أَن تَأۡكُلُواْ﴾ أي: تأكلوا أنتم وهم معكم.

وتعميم الخطاب للطوائف المذكورة أيضًا يأباه ما قبله وما بعده، فإنّ الخطاب فيهما لغير أولئك الطوائف حتمًا.

﴿مِنۢ بُيُوتِكُمۡ﴾ أي: البيوتِ التي فيها أزواجكم وعيالكم، فيدخل فيها بيوت الأولاد؛ لأنّ بيتهم كبَيته؛ لقوله عليه السلام: «أنت ومالُك لأبيك»،[١] وقوله عليه السلام: «إنّ أطيب مال الرجل مِن كسبه، / وإنّ ولده مِن كسبه».[٢] [١٨٦و]

﴿أَوۡ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمۡ﴾ وقُرِئ بكسر الهمزة والميم،[٣] وبكسر الأولى وفتح الثانية.[٤] ﴿أَوۡ بُيُوتِ إِخۡوَٰنِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَعۡمَٰمِكُمۡ

---

١ مسند أحمد، ٥٠٣/١١ (٦٩٠٢)؛ سنن ابن ماجه، ٣٩١/٣ (٢٢٩١).

٢ مسند أحمد، ٣٤/٤٠ (٢٤٠٣١)؛ سنن ابن ماجه، ٢٦٩/٣ (٢١٣٧).

٣ قرأ بها حمزة في حالة الوصل. النشر لابن الجزري، ٢٤٨/٢.

٤ قرأ بها الكسائي في حالة الوصل. النشر لابن الجزري، ٢٤٨/٢.

﴿أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾ مِن البيوت التي تملكون التصرّف فيها بإذن أربابها على الوجه الذي مرّ بيانه. وقيل: هي بيوت المماليك، و"المفاتِح" جمع "مِفتَح"، وجمع "المِفتاح" "مفاتيح". وقُرِئَ: "مِفْتَاحَهُ".[١]

﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ أي: أو بيوتِ صديقكم، وإن لم يكن بينكم وبينهم قرابة نَسَبيّة، فإنّهم أرضى بالتبسّط وأَسَرُّ به مِن كثير مِن الأقرباء. رُوي عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «أنّ الصَّديق أكبر مِن الوالِدين، إنّ الجهنّميّين لمّا استغاثوا لم يستغيثوا بالآباء والأمّهات؛ بل قالوا: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ۝ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ [الشعراء، ٢٦/١٠٠-١٠١]».[٢] و"الصَّديق" يقع على الواحد والجمع، كـ"الخَليط" و"القَطِين" وأضرابِهما. وهذا فيما إذا عُلِم رضى صاحب البيت بصريح الإذن أو بقرينةٍ دالّة عليه، ولذلك خُصّص هؤلاء بالذكر لاعتيادهم التَبسُّطَ فيما بينهم.

وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾ كلام مستأنَف مسوق لبيان حكم آخر مِن جنس ما بُيّن قبله، حيث كان فريق مِن المؤمنين كبَني ليث بن عمرو بن كنانة[٣] يتحرّجون أن يأكلوا طعامهم منفردين. وكان الرجل منهم لا يأكل ويمكث يومَه حتّى يجد ضيفًا يأكل معه، فإن لم يجد مَن يؤاكله لم يأكل شيئًا. وربّما قعد الرجل والطعام بين يديه لا يتناوله مِن الصباح إلى الرواح، وربّما كانت معه الإبل الحُفَّلُ[٤] فلا يشرب مِن ألبانها حتّى يَجد مَن يشاربه، فإذا أمسى ولم يجد أحدًا أكل.[٥]

[١٨٦ظ] وقيل: كان الغنيّ منهم يدخل على الفقير / مِن ذوي قرابته وصداقته، فيدعوه إلى طعامه، فيقول: "إنّي أتحرّج أن آكل معك وأنا غنيّ وأنت فقير".

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن قتادة وهارون عن أبي عمرو. البحر المحيط لأبي حيّان، ٧١/٨.

٢ الكشّاف للزمخشري، ٢٥٧/٣؛ اللباب لابن عادل، ٤٦٠/١٤.

٣ كذا في الأصول الخطّيّة، والصواب: "مِن كِنانة"، فإنّ بني ليث بن عمرو حيّ مِن كِنانة. انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ١١٩/٧؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٦٥/٦.

٤ حفَل اللبن في الضَّرع يَحفِل: اجتمع، وضَرع حافل، أي: ممتلئ لبنًا، والجمع حُفَّل. لسان العرب لابن منظور، «حفل».

٥ معاني القرآن للزجّاج، ٥٤/٤؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٣٧٩/١٦.

وقيل: كان قوم مِن الأنصار لا يأكلون إذا نزل بهم ضيف إلّا مع ضيفهم، فرُخّص لهم في أن يأكلوا كيف شاءوا.[١] وقيل: كانوا إذا اجتمعوا ليأكلوا طعامًا عزلوا للأعمى وأشباهِه طعامًا على حِدة، فبيّن الله تعالى أنّ ذلك ليس بواجب.[٢]

وقوله تعالى: ﴿جَمِيعًا﴾ حال مِن فاعل ﴿تَأْكُلُواْ﴾، و﴿أَشْتَاتًا﴾ عطفٌ عليه داخل في حكمه، وهو جَمع "شَتّ" على أنّه صفةٌ كـ"الحَقّ"، يقال: "أمرٌ شَتٌ"، أي: متفرّق، أو على أنّه في الأصل مصدر وُصف به مبالغةً، أي: ليس عليكم أن تأكلوا مجتمعين أو متفرّقين.

﴿فَإِذَا دَخَلْتُم﴾ شروع في بيان الآداب التي تجب رعايتها عند مباشرة ما رُخّص فيه إثرَ بيان الرخصة فيه. ﴿بُيُوتًا﴾ أي: مِن البيوت المذكورة ﴿فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ أي: على أهلها الذين بمنزلة أنفسكم، لِما بينكم وبينهم مِن القرابة الدينيّة والنَسَبيّة الموجِبة لذلك.

﴿تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أي: ثابتة بأمره مشروعةً مِن لدنه، ويجوز أن يكون صلة للتحيّة، فإنّها طلب الحياة التي هي مِن عنده تعالى، وانتصابُها على المصدريّة؛ لأنّها بمعنى التسليم. ﴿مُبَٰرَكَةً﴾ مستتبعةً لزيادة الخير والثواب ودوامهما ﴿طَيِّبَةً﴾ يطيبُ بها نفسُ المستمع. وعن أنس رضي الله عنه أنّه عليه السلام قال: «متى لقيتَ أحدًا مِن أمّتي فسلّم عليه يَطُلْ عمرك، وإذا دخلتَ بيتك فسلّم عليهم يكثُرْ خيرك، وصَلِّ صلاة الضحى، فإنّها صلاة الأبرار الأوّابين».[٣]

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأٓيَٰتِ﴾ تكرير لتأكيد الأحكام المختَتمة به وتفخيمها ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي: ما في تضاعيفها مِن الشرائع والأحكام / [١٨٧و] وتعملون بموجَبها، وتفوزون بذلك سعادة الدارين. وفي تعليل هذا التبيين بهذه الغاية القصوى بعد تذييل الأوّلين بما يوجبهما مِن الجزالة ما لا يخفى.

---

١ جامع البيان للطبري، ٣٧٦/١٧؛ الكشف والبيان للثعلبي، ١١٩/٧.

٢ الكشّاف للزمخشري، ٢٥٦/٣؛ اللباب لابن عادل، ٤٦١/١٤.

٣ الكشف والبيان للثعلبي، ١٢٠/٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٢٥٨/٣. وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان، ١٨٨/١١ (٨٣٨٣).

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُواْ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ استئناف جيء به في أواخر الأحكام السابقة تقريرًا لها وتأكيدًا لوجوب مراعاتها، وتكميلًا لها ببيان بعض آخر مِن جنسها. وإنّما ذُكِر الإيمان بالله ورسوله في حيّز الصلة للموصول الواقع خبرًا للمبتدأ مع تضمّنه له قطعًا تقريرًا لِما قبله، وتمهيدًا لِما بعده، وإيذانًا بأنّه حقيق بأن يجعل قرينًا للإيمان بهما منتظَمًا في سِلكه. فقوله تعالى: ﴿وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ﴾... إلخ معطوف على ﴿ءَامَنُواْ﴾ داخل معه في حيّز الصلة.

أي: إنّما الكاملون في الإيمان الذين آمنوا بالله ورسوله عن صميم قلوبهم وأطاعوهما في جميع الأحكام التي مِن جملتها ما فُصِّل مِن قبلُ مِن الأحكام المتعلّقة بعامّة أحوالهم المطّردة في الوقوع، وأحوالهم الواقعة بحسب الاتّفاق، كما إذا كانوا معه عليه السلام على أمرٍ مهمّ يجب اجتماعهم في شأنه، كالجمعة والأعياد والحروب وغيرها مِن الأمور الداعية إلى اجتماع أولي الآراء والتجارِب. ووصف الأمر بالجمع للمبالغة. وقُرئ: "أَمْرٍ جَمِيعٍ".[١]

﴿لَّمْ يَذْهَبُواْ﴾ أي: مِن المَجمع مع كون ذلك الأمر ممّا لا يوجب حضورَهم لا محالةَ، كما عند إقامة الجمعة ولقاءِ العدوّ؛ بل يَسوغُ التخلّف عنه. ﴿حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ﴾ عليه السلام في الذهاب، لا على أنّ نفس الاستئذان غاية لعدم الذهاب؛ بل الغاية هي الإذن المَنوط برأيه عليه السلام. والاقتصارُ على ذكره لأنّه الذي يتمّ مِن قِبَلهم، وهو المعتبَر في كمال الإيمان، / لا الإذن ولا الذهاب المترتّبُ عليه. واعتبارُه في ذلك لِما أنّه كالمِصداق لصحّته، والمميّز للمخلِص عن المنافق، فإنّ دَيدَنه التسلّل للفِرار، ولتعظيم ما في الذهاب بغير إذنه عليه السلام مِن الجناية. [١٨٧ظ]

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن اليماني. **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٧٤/٨.

وللتنبيه على ذلك عُقِّب بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ فقُضِي بأنّ المستأذِنين هم المؤمنون بالله ورسوله، كما حكم في الأوّل بأنّ الكاملين في الإيمان هم الجامعون بين الإيمان بهما وبين الاستئذان. وفي ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ مِن تفخيم شأن المستأذِنين ما لا يخفى.

﴿فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ﴾ بيان لِما هو وظيفتُه عليه السلام في هذا الباب إثرَ بيان ما هو وظيفة المؤمنين، وأنّ الإذن عند الاستئذان ليس بأمر محتوم، بل هو مفوَّض إلى رأيه عليه السلام. و"الفاء" لترتيب ما بعدها على ما قبلها، أي: بعد ما تحقّق أنّ الكاملين في الإيمان هم المستأذِنون، فإذا استأذنوك ﴿لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ﴾ أي: لبعض أمرِهم المهمّ، وخَطبِهم المُلِمّ ﴿فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ لِما علمتَ في ذلك مِن حكمةٍ ومصلحةٍ، ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ﴾ فإنّ الاستئذان وإن كان لعذرٍ قويّ لا يخلو عن شائبة تقديم أمر الدنيا على أمر الآخرة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ مبالِغ في مغفرة فَرطات العباد، ﴿رَّحِيمٌ﴾ مبالِغ في إفاضة آثار الرحمة عليهم. والجملة تعليل للمغفرة الموعودة في ضمن الأمر بالاستغفار لهم.

﴿لَّا تَجْعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًاۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًاۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾

﴿لَّا تَجْعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ﴾ استئناف مقرِّر لمضمون ما قبله، والالتفاتُ لإبراز مزيد الاعتناء بشأنه، أي: لا تجعلوا دعوته عليه السلام إيّاكم في الاعتقاد والعمل بها ﴿كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ أي: لا تقيسوا دُعاءه عليه السلام إيّاكم / على دعاء بعضكم بعضًا في حال مِن الأحوال وأمر مِن الأمور التي مِن جملتها المساهَلة فيه والرجوع عن مجلسه عليه السلام بغير استئذان، فإنّ ذلك مِن المحرَّمات. [١٨٨و]

وقيل: لا تجعلوا دعاءَه عليه السلام رَبَّه كدعاء صغيرِكم كبيرَكم؛ يجيبه مرّة ويردّه أُخرى، فإنّ دعاءه مستجاب لا مَرَدَّ له عند الله عزّ وجلّ. وتقرير الجملة

حينئذ لِما قبلها إمّا مِن حيث إنّ استجابته تعالى لدعائه عليه السلام ممّا يوجب امتثالهم بأوامره عليه السلام ومتابعتهم له في الورود والصدور أكملَ إيجاب، وإمّا مِن حيث إنّها موجِبة للاحتراز عن التعرّض لسخطه عليه السلام المؤدّي إلى ما يوجب هلاكهم مِن دعائه عليه السلام عليهم.

وأمّا ما قيل مِن أنّ المعنى: لا تجعلوا نداءَه عليه السلام كنداءِ بعضكم بعضًا باسمه ورفعِ الصوت والنداءِ مِن وراء الحجرات، ولكن بلقبه المعظّم، مثل: يا رسول الله، يا نبيّ الله، مع غاية التوقير والتفخيم والتواضع وخفض الصوتِ؛[1] فلا يناسبُ المقام، فإنّ قوله تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ﴾... إلخ وعيد لِمُخالفي أمره عليه السلام فيما ذُكِر مِن قبل، فتوسيط ما ذُكر بينهما ممّا لا وجه له.

و"التسلّل" الخروج مِن البَين على التدريج والخُفية. و﴿قَدْ﴾ للتحقيق، كما أنّ "رُبّ" يجيء للتكثير حسبما بُيّن في مطلع سورة الحِجر، أي: يعلم الله الذين يخرجون مِن الجماعة قليلًا قليلًا على خُفية.

﴿لِوَاذًا﴾ أي: مُلاوذةً، بأن يستتر بعضهم ببعضٍ حتّى يخرجَ، أو بأن يلوذ بمَن يخرج بالإذن إراءةَ أنّه مِن أتباعه. وقُرئ بفتح "اللام".[2] وانتصابه على الحاليّة مِن ضمير يتسلّلون، أي: مُلاوِذين، أو على أنّه مصدر مؤكِّد لفعل مُضمَر هو الحال في الحقيقة، أي: يلوذون لِواذًا.

[١٨٨ظ] / و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾ لترتيب الحذَر أو الأمرِ به على ما قبلها مِن علمه تعالى بأحوالهم، فإنّه ممّا يوجب الحذَر البتّة، أي: يخالفون أمره بترك مقتضاه، ويذهبون سَمتًا خلاف سَمته. و﴿عَنْ﴾ إمّا لتضمينه معنى الإعراض، أو حملِه على معنى: يَصدّون عن أمره دون المؤمنين، مِن "خالَفه عن الأمر" إذا صدّ عنه دونه. وحذف المفعول لِما أنّ المقصود بيان المخالِف والمخالَف عنه. والضمير لله تعالى؛ لأنّه الآمر حقيقةً، أو للرسول صلّى الله عليه وسلّم؛ لأنّه المقصود بالذكر.

---

[1] أنوار التنزيل للبيضاوي، ١١٦/٤.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن يزيد بن قطيب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٤٦.

﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ أي: مِحنة في الدنيا ﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: في الآخرة. وكلمة ﴿أَوْ﴾ لمَنع الخلوّ دون الجمع. وإعادة الفعل صريحًا للاعتناء بالتهديد والتحذير. واستُدلّ به على أنّ الأمر للإيجاب، فإنّ ترتيب العذابين على مخالفته كما يُعرِب عنه التحذير عن إصابتهما يوجِب وجوبَ الامتثال به حتمًا.

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٦٤﴾﴾

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ مِن الموجوداتِ بأسرها خَلقًا ومِلكًا وتصرّفًا، وإيجادًا وإعدامًا، بَدءًا وإعادةً، ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ أيّها المكلّفون مِن الأحوال والأوضاع التي مِن جملتها الموافقة والمخالفة والإخلاص والنفاق.

﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾ عطفٌ على ﴿مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾، أي: يعلم يومَ يُرْجَعُ المنافقون المخالِفون للأمر إليه تعالى للجزاء والعقاب. وتعليقُ علمه تعالى بيوم رَجْعهم -لا برَجْعهم- لزيادة تحقيق علمه تعالى بذلك. وغاية تقريره لِما أنّ العلم بوقت وقوع الشيء مستلزِم للعلم بوقوعه على أبلغ وجه وآكَده. وفيه إشعار بأنّ علمه تعالى لِنفْس رَجْعهم مِن الظهور بحيث لا يحتاج إلى البيان قطعًا. ويجوز أن يكون الخطاب أيضًا خاصًّا بالمنافقين على طريقة الالتفات. وقُرئ: "يَرْجِعُونَ"[1] مبنيًّا للفاعل.

﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟﴾ مِن الأعمال السيّئة التي مِن جملتها مخالفةُ الأمر، فيرتّب عليه ما يَليق به مِن التوبيخ والجزاء، وقد مرّ وجه التعبير مِن[2] الجزاء بالتنبئة في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ الآيةَ [يونس، ١٠/٢٣]. ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ لا يعزُب عنه مثقال ذرّة في الأرض ولا في السماء.

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة النور أعطيَ مِن الأجر عشر حسنات بعدد كلّ مؤمن ومؤمنة فيما مضى وفيما بقي».[3]

---

١ قرأ بها يعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٢٠٨.

٢ ط س: عن.

٣ الكشف والبيان للثعلبي، ٧/٦٢؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٣/٣٠٢. وهو جزء مِن الحديث المروي عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ١/٢٤٠. | وفي هامش م: الحمد لله سبحانه وتعالى. إلى هنا انتهى يومَ الخميس الثاني مِن شهر رمضان الكريم لسنة ٩٧٠.

/ سورة الفرقان

[١٨٩و]

مكيّة، وهي سبع وسبعون آيةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ "البرَكة" النماء والزيادة، حسّيّةً كانت أو معنويّة، وكثرةُ الخير ودوامُه أيضًا، ونسبتها إلى الله عزّ وجلّ على المعنى الأوّل -وهو الأليق بالمقام- باعتبار تعاليه عمّا سواه في ذاته وصفاته وأفعاله التي مِن جملتها تنزيل **القرآن الكريم** المعجِز الناطق بعلوّ شأنه تعالى، وسموّ صفاته، وابتناءِ أفعاله على أساس الحِكَم والمصالح، وخلوّها عن شائبة الخَلل بالكلّيّة. وصيغة التفاعل للمبالغة فيما ذُكر، فإنّ ما لا يتصوّر نسبته إليه سبحانه حقيقةً مِن الصيغ كالتكبّر ونحوه لا تنسب إليه تعالى إلّا باعتبار غاياتها.

وعلى المعنى الثاني باعتبار كَثرة ما يُفيض منه على مخلوقاته -لا سيّما على الإنسان- مِن فنون الخيرات التي مِن جملتها تنزيل **القرآن** المنطوي على جميع الخيرات الدينيّة والدنيويّة. والصيغة حينئذ يجوز أن تكون لإفادة نماء تلك الخيرات وتزايُدها شيئًا فشيئًا وآنًا فآنًا بحسب حدوثها أو حدوث متعلّقاتها. ولِاستقلالها بالدلالة على غاية الكمال، وتحقّقها بالفعل، والإشعارِ بالتعجّب المناسب للإنشاء، والإنباءِ عن نهاية التعظيم؛ لم يجُز استعمالها في حقّ غيره تعالى، ولا استعمالُ غيرها مِن الصيغ في حقّه تعالى.

و﴿ٱلْفُرْقَانَ﴾ مصدر "فَرَق بين الشيئين"، أي: فصل بينهما، سمّي به **القرآن** لغاية فَرقه بين الحقّ والباطل بأحكامه، أو بين المُحِقّ والمُبطِل بإعجازه، أو لكونه مفصولًا بعضُه مِن بعض في نفسه، أو في إنزاله.

﴿عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ﴾ محمّدٍ صلّى الله عليه وسلّم، وإيرادُه عليه السلام بذلك العنوان لتشريفه، والإيذانِ بكونه عليه السلام في أقصى مراتب العبوديّة، والتنبيهِ على أنّ الرسول لا يكون إلّا عبدًا للمرسِل ردًّا على النصارى. ﴿لِيَكُونَ﴾ غايةٌ للتنزيل، أي: نزّله عليه ليكون هو عليه السلام أو الفرقانُ ﴿لِلۡعَٰلَمِينَ﴾ مِن الثقلَين ﴿نَذِيرًا﴾ أي: منذِرًا، أو إنذارًا مبالغةً، أو ليكون تنزيلُه إنذارًا. وعدم التعرّض للتبشير لانسياق الكلام على أحوال الكفرة. وتقديم "اللام" على عاملها لمراعاة الفواصل.

[١٨٩ظ] وإبرازُ تنزيل الفرقان في معرِض الصلة / التي حقُّها أن تكون معلومةَ الثبوت للموصول عند السامع مع إنكار الكفرة له لإجرائه مُجرى المعلوم المسلَّم تنبيهًا على كمال قوّة دلائله، وكونِه بحيث لا يكاد يجهله أحد، كقوله تعالى: ﴿لَا رَيۡبَۛ فِيهِ﴾ [البقرة، ٢/٢].

﴿ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا ۝٢﴾

﴿ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: له خاصّةً -دون غيره، لا استقلالًا، ولا اشتراكًا- السلطانُ القاهر، والاستيلاءُ الباهر عليهما، المستلزمان للقدرة التامّة والتصرّف الكلّي فيهما وفيما فيهما إيجادًا وإعدامًا، وإحياءً وإماتة، وأمرًا ونهيًا، حسبما يقتضيه مشيئته المبنيّة على الحِكَم والمصالح. ومحلّه الرفع على أنّه خبر لمبتدأ محذوف، والجملةُ مستأنَفة مقرِّرة لِما قبلها، أو على أنّه نعت للموصول الأوّل، أو بيان له، أو بدل منه، وما بينهما ليس بأجنبيّ؛ لأنّه مِن تمام صلته، ومعلوميّةُ مضمونه للكفرة ممّا لا ريب فيه؛ لقوله تعالى: ﴿قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ۝ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ [المؤمنون، ٢٣/٨٦-٨٧] ونظائرِه، أو مدح له تعالى بالرفع أو بالنصب.

﴿وَلَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا﴾ كما يزعم الذين يقولون في حقّ المسيح والملائكة ما يقولون، فسبحان الله عمّا يصفون. وهو معطوف على ما قبله مِن الجملة الظرفيّة، ونظمه في سِلك الصلة للإيذان بأنّ مضمونه مِن الوضوح والظهور بحيث لا يكاد يجهله جاهل، لا سيّما بعد تقرير ما قبله.

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِي ٱلْمُلْكِ﴾ أي: مُلكِ السماوات والأرض، وهو أيضًا عطفٌ على الصلة. وإفراده بالذكر مع أنّ ما ذُكر مِن اختصاص ملكهما به تعالى مستلزِم له قطعًا للتصريح ببطلان زعم الثنويّة القائلين بتعدّد الآلهة والردِّ في نحورهم. وتوسيطُ نفي اتّخاذ الولد بينهما للتنبيه على استقلاله وأصالتِه، والاحترازِ عن توهّم كونه تتمّةً للأوّل.

﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أي: أحدث كلّ موجودٍ مِن الموجودات إحداثًا جاريًا على سَنن التقدير حسبما اقتضته إرادته المبنيّة على الحِكَم البالغة بأن خلق كلًّا منها مِن موادَّ مخصوصةٍ على صور معيّنةٍ، / ورتّب فيه قوًى وخواصَّ مختلفةَ [١٩٠و] الآثار والأحكام، ﴿فَقَدَّرَهُۥ﴾ أي: هيّأه لِما أراد به مِن الخصائص والأفعال اللائقة به ﴿تَقْدِيرًا﴾ بديعًا لا يُقادَر قدره ولا يُبلَغ كنهُه، كتهيئة الإنسان للفهم والإدراك والنظر والتدبّر في أمور المعاد والمعاش، واستنباطِ الصنائع المتنوعة، ومزاولةِ الأعمال المختلفة، وهكذا أحوال سائر الأنواع.

وقيل: أُريدَ بالخلق مطلق الإيجاد والإحداث مجازًا مِن غير ملاحظة معنى التقدير، وإن لم يَخلُ عنه في نفس الأمر، فالمعنى: أوجد كلّ شيء فقدّره في ذلك الإيجاد تقديرًا. وأمّا ما قيل مِن أنّه سمّى إحداثه تعالى خلقًا لأنّه تعالى لا يُحدث شيئًا إلّا على وجه التقدير مِن غير تفاوتٍ، ففيه أنّ ارتكاب المجاز بحَمل الخلق على مطلق الإحداث لتجريده عن معنى التقدير، فاعتبارُه فيه بوجهٍ مِن الوجوه مُخِلّ بالمرام قطعًا.

وقيل: المراد بالتقدير الثاني هو التقدير للبقاء إلى الأجل المسمّى، وأيًّا ما كان فالجملة جاريةٌ مَجرى التعليل لِما قبلها مِن الجمل المنتظِمة مِثلَها في سلك الصلة، فإنّ خلقه تعالى لجميع الأشياء على ذلك النمط البديع كما يقتضي استقلالَه تعالى باتّصافه بصفات الألوهيّة يقتضي انتظام كلّ ما سواه كائنًا ما كان تحت ملكوته القاهرة بحيث لا يشذّ عنها شيء مِن ذلك قطعًا، وما كان كذلك كيف يُتوهَّم كونُه ولدًا له سبحانه، أو شريكًا في مُلكه.

﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ وَلَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا وَلَا يَمۡلِكُونَ مَوۡتٗا وَلَا حَيَوٰةٗ وَلَا نُشُورٗا ٣﴾

﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ بعد ما بُيِّن حقيقةُ الحقّ في مطلع السّورة الكريمة بذكرِ تنزيله تعالى للفرقان العظيم على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، ووَصفِه تعالى بصفات الكمال، وتنزيهِه عمّا لا يليق بشأنه الجليل؛ عُقِّبَ ذلك بحكاية أباطيل المشركين في حقّ المُنزِل سبحانه والمُنزَلِ والمُنزَلِ عليه على الترتيب، وإظهارِ بطلانها.

[١٩٠ظ] والإضمار مِن غير جريانِ ذكرهم للثقة بدلالة ما قبله مِن نفي / الشريك عليهم، أي: اتّخذوا لأنفسهم -متجاوزين الله الذي ذُكِر بعضُ شئونه العظيمة مِن اختصاص ملك السماوات والأرض به تعالى، وانتفاءِ الولد والشريك منه، وخلقِ جميع الأشياء وتقديرها أبدعَ تقدير- آلهةً ﴿لَّا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا﴾ أي: لا يقدرون على خلق شيء مِن الأشياء أصلًا ﴿وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ﴾ كسائر المخلوقات. وقيل: لا يقدرون على أن يختلقوا شيئًا، وهم يُختلَقون حيث يختلقُهم عبَدتُهم بالنحت والتصوير.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا﴾ لبيان ما لم يَدُلَّ عليه ما قبلَه مِن مراتب عجزِهم وضعفِهم، فإنّ بعض المخلوقين العاجزين عن الخلق ربّما يملك دفع الضرّ وجلب النفع في الجملة كالحيوان، وهؤلاء لا يقدِرون على التصرّف في ضرٍّ ما ليدفعوه عن أنفسهم، ولا في نفعٍ ما حتّى يجلبوه إليهم، فكيف يملكون شيئًا منهما لغيرهم؟ وتقديم ذكر الضرّ لأنّ دفعه مع كونه أهمّ في نفسه أوّلُ مراتب النفع وأقدمُها.

والتنصيص على قوله تعالى: ﴿وَلَا يَمۡلِكُونَ مَوۡتٗا وَلَا حَيَوٰةٗ وَلَا نُشُورٗا﴾ أي: لا يقدرون على التصرّف في شيء منها بإماتة الأحياءِ، وإحياء الموتى وَبَعْثِهم، بعد بيان عجزهم عمّا هو أهون مِن هذه الأمور مِن دفع الضرّ وجلب النفع؛ للتصريح بعجزهم عن كلّ واحدٍ ممّا ذكر على التفصيل، والتنبيهِ على أنّ الإله يجب أن يكون قادرًا على جميع ذلك. وفيه إيذان بغاية جهلهم وسخافة عقولهم،

كأنّهم غير عارفين بانتفاء ما نُفِي عن آلِهَتهم مِن الأمور المذكورة، مفتقرون إلى التصريح بذلك.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ۝٤﴾

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ﴾ شروع في حكاية أباطيلهم المتعلّقة بالمُنزَل والمُنزَل عليه معًا وإبطالِها. والموصول إمّا عبارة عن غُلاتهم في الكفر والطغيان، وهم النضر بن الحارث، وعبد الله بن أميّة، ونوفل بن خويلد، ومَن ضامّهم. ورُوي عن الكلبي ومقاتل أنّ القائل هو النضر بن الحارث،[1] والجمعُ لمشايَعة الباقين له في ذلك. وإمّا عن كلّهم، / ووضعُ الموصول موضع [١٩١و] ضميرهم لذمّهم بما في حيّز الصلة، والإيذانِ بأنّ ما تفوّهوا به كفر عظيم.

وفي كلمة ﴿هَٰذَآ﴾ حطّ لرتبة المشار إليه، أي: ما هذا إلّا كذِب مصروف عن وجهه ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾ يريدون أنّه اختلقه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ﴿وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ﴾ أي: على اختلاقه ﴿قَوْمٌ ءَاخَرُونَ﴾ يعنون اليهودَ بأن يُلقوا إليه أخبارَ الأمم الدارجة، وهو يعبّر عنها بعبارته. وقيل: هما جَبر ويسار[2] كانا يصنعان السيف بمكّة ويقرآن التوراة والإنجيل.[3] وقيل: هو عابس،[4] وقد مرّ تفصيله في سورة النحل.[5]

﴿فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا﴾ منصوب بـ﴿جَآءُو﴾، فإنّ "جاء" و"أتى" يُستعملان في معنى "فَعَلَ"، فيُعدَّيان تعديتَه، أو بنزع الخافض، أي: بظلم، قاله الزجّاج.[6]

---

[1] تفسير مقاتل بن سليمان، ٢٢٦/٣؛ اللباب لابن عادل، ٤٧٨/١٤.

[2] قال عبد الله بن مسلم الحضرمي: «كان لنا غلامان نصرانيّان مِن أهل عين التمر، اسم أحدهما يسار واسم الآخر جبر، وكانا صيقلين يعملان السيوف، وكانا يقرآن كتابًا لهم، فكان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يمرّ بهما ويسمع قراءتَهما، وكان المشركون يقولون: يتعلّم منهما، فأنزل الله هذه الآية وأكذبهم». تفسير مجاهد، ص ٤٢٥؛ تفسير القرطبي، ١٧٨/١٠.

[3] انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ١٢٣/٧؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١١٨/٤.

[4] هو عابس غلام حُوَيطب بن عبد العزّى، وكان قد أسلم. انظر: تفسير السمرقندي، ٢٩١/٢؛ والإصابة لابن حجر، ٤٥٩/٣.

[5] النحل، ١٠٣/١٦.

[6] معاني القرآن للزجّاج، ٥٨/٤.

والتنوين للتفخيم، أي: جاءوا بما قالوا ظلمًا هائلًا عظيمًا لا يُقَادَرُ قَدرُه حيث جعلوا الحقَّ البحتَ الذي لا يأتيه الباطلُ مِن بين يديه ولا مِن خلفه إفكًا مفترًى مِن قِبل البشر، وهو مِن جهة نظمه الرائق وطَرزه الفائق بحيث لو اجتمعتِ الإنس والجنّ على مُباراتِه لعجِزوا عن الإتيان بمثل آيةٍ مِن آياته، ومِن جهة اشتماله على الحِكَم الخفيّة والأحكامِ المستتبِعة للسعادات الدينيّة والدنيويّة والأمورِ الغيبيّة بحيث لا يناله عقول البشر، ولا يَفي بفهمه القوى والقُدَر.

﴿وَزُورًا﴾ أي: كذبًا كبيرًا لا يُبلَغُ غايته، حيث نسبوا إليه عليه السلام ما هو بريء منه. و"الفاء" لترتيب ما بعدها على ما قبلها، لكن لا على أنّهما أمران متغايران حقيقةً يقع أحدهما عقيب الآخر، أو يحصل بسببه؛ بل على أنّ الثاني هو عين الأوّل حقيقةً، وإنّما الترتيب بحسب التغاير الاعتباري. و﴿قَدْ﴾ لتحقيق ذلك المعنى، فإنّ ما جاءوه مِن الظلم والزور هو عين ما حُكي عنهم، لكنّه لمّا كان مغايرًا له في المفهوم وأظهرَ منه بطلانًا رُتّب عليه بـ"الفاء" ترتيبَ اللازم على المَلزوم تهويلًا لأمره.

﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ۝٥﴾

﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ بعد ما جعلوا الحقّ الذي لا مَحيد عنه إفكًا مختلَقًا بإعانة البشر بيّنوا على زعمهم الفاسد كيفيّةَ الإعانة. و"الأساطير" جمع "أَسطار"، أو "أُسطورة" كـ"أُحدوثة"، وهي ما سطّرهُ المتقدّمون مِن الخُرافات ﴿ٱكۡتَتَبَهَا﴾ أي: كتبها لنفسه على الإسناد المجازي، أو استكتبها. وقُرئ على البناءِ للمفعول؛[١] لأنّه عليه السلام أُمّي. وأصله "اكْتَتَبَها له كاتبٌ"، فحُذف "اللام" وأُفضيَ الفعل إلى الضمير، فصار "اكْتَتَبَها إيّاه كاتبٌ"، ثمّ حُذف الفاعل لعدم تعلّق الغرض العلمي بخصوصه، وبُني الفعلُ للضمير المنفصل فاستتر فيه.

﴿فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ﴾ أي: تُلقى عليه تلك الأساطير بعد اكتتابها لِيحفَظَها مِن أفواه / مَن يُمليها عليه مِن ذلك المكتتَب؛ لكونه أمّيًّا لا يقدر على أن يتلقّاها منه بالقراءة، أو تُملَى على الكاتب، على أنّ معنى ﴿اكتتبها﴾ أرادَ اكتتابها، [١٩١ظ]

---

١ أي: "اكْتُتِبَهَا". قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة بن مصرّف. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٤٦.

أو استِكتابَها. ورَجعُ الضمير المجرور إليه عليه السلام كإسناد الكتابة في ضِمن الاكتتاب إليه عليه السلام.

﴿بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا﴾ أي: دائمًا، أو خُفيةً قبل انتشار الناس حين يأوون إلى مساكنهم. انظر إلى هذه الرتبة مِن الجَراءة العظيمة، قاتلهم الله أنّى يؤفكون.

﴿قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ۝٦﴾

﴿قُلۡ﴾ لهم رَدًّا عليهم وتحقيقًا للحقّ: ﴿أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ وصفُه تعالى بإحاطة علمه بجميع المعلومات الجليّة والخفيّة للإيذان بانطواء ما أنزله على أسرارٍ مطويّة عن عقول البشر مع ما فيه مِن التعريض بمُجازاتهم بجِناياتهم المَحكيّة التي هي مِن جملة معلوماته تعالى، أي: ليس ذلك ممّا يُفترَى ويُفتَعلُ بإعانة قومٍ وكتابةِ آخرين مِن الأحاديث الملفَّقة وأساطيرِ الأوّلين؛ بل هو أمر سماوي أنزلَه الله الذي لا يعزُب عن علمه شيءٌ مِن الأشياء، وأودعَ فيه فنونَ الحِكَم والأسرار على وجه بديع لا يحوم حوله الأفهام حيث أعجزكم قاطبةً بفصاحته وبلاغته، وأخبرَكم بمغيَّباتٍ مستقبَلة وأمورٍ مكنونةٍ لا يُهتدَى إليها ولا يُوقَف عليها إلّا بتوفيق العليم الخبير، وقد جعلتموه إفكًا مفترًى مِن قَبيل الأساطير، واستوجبتم بذلك أن يُصَبَّ عليكم سوطُ العذاب صبًّا.

فقوله تعالى:[1] ﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ تعليل لِما هو المشاهَد مِن تأخير العقوبة، أي: إنّه تعالى أزَلًا وأبَدًا مستمرّ على المغفرة والرحمة المستَتبِعتين للتأخير، فلذلك لا يَعجَلُ بعقوبتكم على ما تقولون في حقّه مع كمال استيجابه إيّاها وغايةِ قدرته تعالى عليها.

﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝٧﴾

﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ﴾ شروع في حكاية جناياتهم المتعلّقة بخصوصيّة المنزَل عليه. و﴿مَا﴾ استفهاميّة بمعنى إنكار الوقوع ونفيِه، مرفوعةٌ على الابتداء،

---

[1] س – فقوله تعالى.

خبرُها ما بعدها مِن الجارّ والمجرور. وفي هذا تصغير لشأنه عليه الصلاة والسلام.[١] وتسميتُه عليه السلام رسولًا بطريق الاستهزاء به عليه السلام، كما قال فرعون: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ﴾ [الشعراء، ٢٧/٢٦].

وقوله تعالى: ﴿يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ﴾ حال مِن ﴿ٱلرَّسُولِ﴾، والعامل فيها ما عَمِل في الجارّ مِن معنى الاستقرار، أي: أيُّ شيء وأيُّ سبب حصل لهذا الذي يدّعي الرسالة حالَ كونه يأكل الطعام كما نأكل، ﴿وَيَمۡشِى فِى ٱلۡأَسۡوَاقِ﴾ لابتغاء الأرزاق كما نفعله، على توجيه الإنكار والنفيِ إلى السبب فقط، مع تحقّق المسبَّب الذي هو مضمون الجملة الحاليّة، كما في قوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [الانشقاق، ٢٠/٨٤]، وقولِه تعالى: ﴿مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا﴾ [نوح، ١٣/٧١]، فكما أنّ كلًّا مِن عدم الإيمان وعدمِ الرجاء أمرٌ محقَّق قد أُنكِرَ واستُبْعِد تحقُّقه لانتفاء سببه -بل لوجود سبب نقيضه- كذلك كلٌّ مِن الأكل والمشي أمر محقَّق قد استُبعد تحقُّقه لانتفاء سببه -بل لوجود سبب عدمه- خلا أنّ استبعاد المسبَّب وإنكارَ السبب ونفيَه في عدم الإيمان وعدم الرجاء بطريق التحقيق، وفي الأكل والمشي بطريق التهكّم والاستهزاء، فإنّهم لا يستبعدونهما، ولا ينكرون سببهما حقيقةً؛ بل هم معترِفون بوجودهما وتحقّق سببهما، وإنّما الذي يستبعدونه الرسالةُ المنافيةُ لهما على زعمهم، يعنون أنّه إن صحّ ما يدّعيه فما باله لم يخالف حالُه حالَنا، وهل هو إلّا لِعَمَهِهم وركَاكة عقولِهم وقُصور أنظارهم على المحسوسات، فإنّ تَميُّز الرسل عمّن عداهم ليس بأمور جسمانيّة، وإنّما هو بأمور نفسانيّة، كما أشيرَ إليه بقوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ [فصلت، ٦/٤١].

[١٩٢و] ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ﴾ أي: على صورته وهيئته / ﴿فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ تنزّلٌ منهم عن اقتراح أن يكون ملَكًا مستغنيًا عن الأكل والشرب إلى اقتراح أن يكون معه مَلَك يصدّقه، ويكون رِدْءًا له في الإنذار، وهو يُعبِّر عنه ويفسّر ما يقوله للعامّة.

---

[١] س: عليه السلام.

﴿أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ۝٨﴾

وقوله تعالى: ﴿أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ﴾ تَنزّلٌ مِن تلك المرتبة إلى اقتراح أن يُلقَى إليه مِن السماء كنزٌ يَستظهر به، ولا يحتاج إلى طلب المعاش، ويكون دليلًا على صدقه. وقوله تعالى: ﴿أَوْ تَكُونُ[1] لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ تنزّلٌ مِن ذلك إلى اقتراح ما هو أيسر منه وأقربُ مِن الوقوع. وقُرِئ: "نَأْكُلُ"[2] بنون الحكاية، وفيه مَزيد مكابرة، وفَرطُ تحكّم.

﴿وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ هم القائلُون الأوّلون، وإنّما وُضِع المُظهَر موضع ضميرهم تسجيلًا عليهم بالظلم وتجاوزِ الحدّ فيما قالوه، لكونه إضلالًا خارجًا عن حدّ الضلال، مع ما فيه مِن نسبته صلّى الله عليه وسلّم إلى المَسحوريّة، أي: قالوا للمؤمنين: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ﴾ أي: ما تتّبعون ﴿إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ قد سُحِر فَغُلِبَ على عقله. وقيل: ذا سَحْرٍ، وهي الرِّئة، أي: بشرًا لا مَلَكًا، على أنّ الوصف لزيادة التقرير، والأوّل هو الأنسب بحالهم.

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ۝٩﴾

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ﴾ استعظام للأباطيل التي اجترءوا على التفوّه بها، وتعجيبٌ منها، أي: انظر كيف قالوا في حقّك تلك الأقاويلَ العجيبة الخارجة عن[3] العقول، الجاريةَ لغرابتها مَجرى الأمثال، واخترعوا لك تلك الصفاتِ والأحوالَ الشاذّة البعيدةَ مِن الوقوع، ﴿فَضَلُّوا۟﴾ أي: عن طريق المُحاجّة حيث لم يأتوا بشيءٍ يمكن صُدوره عمّن له أدنى عقل وتمييز، فبقُوا متحيّرين، ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ إلى القَدْح في نبوّتك بأن يجدوا قولًا يستقِرّون عليه وإن كان باطلًا في نفسه، أو فضلّوا عن الحقّ ضلالًا مُبينًا فلا يجدون طريقًا موصلًا إليه، / فإنّ مَن اعتادَ استعمالَ أمثال هذه الأباطيل لا يكاد يهتدي إلى استعمال المقدّمات الحقّة. [١٩٢ظ]

---

١ م ط س: يكون. | وهي بالياء قراءة شاذّة، مروية عن طلحة بن مصرّف. انظر: شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٤٦.

٢ قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٣٣٣.

٣ س: مِن.

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ۝١٠﴾

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ﴾ أي: تكاثرَ وتزايدَ خيرُ الذي ﴿إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ﴾ في الدنيا عاجلًا شيئًا ﴿خَيْرًا﴾ لك ﴿مِّن ذَٰلِكَ﴾ الذي اقترحوه مِن أن يكون لك جنّة تأكل منها، بأن يُعجِّل لك مثلَ ما وعدك في الآخرة.

وقوله تعالى: ﴿جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ بدل مِن ﴿خَيْرًا﴾ ومحقِّق لخيريّته ممّا قالوا؛ لأنّ ذلك كان مطلَقًا عن قيد التعدّد وجريان الأنهار. ﴿وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا﴾ عطفٌ على محلّ الجزاء الذي هو ﴿جَعَلَ﴾. وقُرئ بالرفع[1] عطفًا على نفسه؛ لأنّ الشرط إذا كان ماضيًا جاز في جزائه الجزمُ والرفع،[2] كما في قول القائل:

وإن أتــاه خـليـلٌ يــومَ مسألـةٍ يقـول: لا غـائبٌ مالي ولا حَـرِمُ[3]

ويجوز أن يكون استئنافًا بوعد ما يكون له في الآخرة. وقُرئ بالنصب[4] على أنّه جواب بـ"الواو". وتعليق ذلك بمشيئته تعالى للإيذان بأنّ عدم جعلها بمَشيئته[5] المبنيّة على الحِكم والمصالح، وعدمُ التعرّض لجواب الاقتراحَين الأوّلين للتنبيه على خروجهما عن دائرة العقل واستغنائِهما عن الجواب لظهور بطلانهما ومنافاتهما للحكمة التشريعيّة، وإنّما الذي له وجه في الجملة هو الاقتراح الأخير، فإنّه غير منافٍ للحكمة بالكلّيّة، فإنّ بعض الأنبياء عليهم السلام قد أوتوا في الدنيا مع النبوّة مُلكًا عظيمًا.

﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ۝١١﴾

﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ﴾ إضراب عن توبيخهم بحكاية جنايتهم السابقة، وانتقالٌ منه إلى توبيخهم بحكاية جنايتهم الأخرى، للتخلّص إلى بيان ما لهم في الآخرة

---

[1] قرأ بها ابن كثير وابن عامر وأبو بكر شعبة. النشر لابن الجزري، ٢/٣٣٣.

[2] ط س: الرفع والجزم.

[3] لزهير بن أبي سلمى، و"الخليل" مِن "الخَلّة": الفقير، و"الحَرِم": المنع. انظر: شرح شعر زهير لثعلب، ص ١٢٠.

[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن عبد الله بن موسى وطلحة بن سليمان وأبي حيوة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٤٧.

[5] وفي هامش م: خبر "أنّ".

بسببها مِن فنون العذاب بقوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾... إلخ، أي: أعتدنا لهم نارًا عظيمةً شديدةَ الاشتعال شأنُها كيتَ وكيتَ بسبب تكذيبهم بها على ما يُشعِر به وضع الموصول / موضعَ ضميرهم، أو لكلّ مَن [١٩٣و] كذّب بها كائنًا مَن كان، وهم داخلون في زمرتهم دخولًا أوّليًا.

ووضع ﴿ٱلسَّاعَةِ﴾ موضع ضميرها للمبالغة في التشنيع. ومدار إعْتادِ السعير لهم وإن لم يكن مجرّدَ تكذيبهم بالساعة؛ بل مع تكذيبهم بسائر ما جاء به الشريعةُ الشريفة، لكن الساعة لمّا كانت هي العلّةَ القريبة لدخولهم السعير أشيرَ إلى سببيّة تكذيبها لدخولها.

وقيل: هو عطفٌ على ﴿قَالُواْ مَالِ هَـٰذَا﴾... إلخ،[١] على معنى: بل أتَوا بأعجبَ مِن ذلك حيث كذّبوا بالساعة وأنكروها، والحال أنّا قد أعتدنا لكلّ مَن كذّب بها سعيرًا، فإنّ جُرأتَهم[٢] على التكذيب بها، وعدمَ خوفِهم ممّا أُعِدّ لمَن كذّب بها مِن أنواع العذاب أعجبُ مِن القَول السابق.

وقيل: هو متّصل بما قبله مِن الجواب المبنيّ على التحقيق المُنبئ عن الوعد بالجنّات في الآخرة، مَسوقٌ لِبيان أنّ ذلك لا يُجدي نفعًا ولا يحلَى بطائل،[٣] على طريقة قولِ مَن قال:

عوجُوا لِنُعْمٍ فَحَيُّوا دِمنةَ الدارِ ... ماذا تُحَيُّون مِنَ نُؤْيٍ وأحْجارِ[٤]

والمعنى: أنّهم لا يؤمنون بالساعة، فكيف يقتنعون بهذا الجواب؟ وكيف يصدّقون بتعجيل مثلِ ما وعدك في الآخرة؟

وقيل: المعنى: بل كذّبوا بها فقصُرت أنظارهم على الحظوظ الدنيويّة، وظنّوا أنّ الكرامة ليست إلّا بالمال، وجعلوا فقرك ذريعة إلى تكذيبك.

﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ۝١٢﴾

وقوله تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُم﴾... إلخ صفة للسعير، أي: إذا كانت منهم بمرأى

---

[١] الفرقان، ٧/٢٥.

[٢] ط س: جراءتهم.

[٣] قولهم: "لم يَحلَ منه بطائلٍ"، أي: لم يستفد منه كبير فائدة. الصحاح للجوهري، «حلي».

[٤] للنابغة في ديوانه، ص ٢٠٢، بلفظ:

عوجوا فحَيُّوا لِنُعْمٍ دِمنةَ الدارِ

الناظر في البعد، كقوله عليه السلام: «لا تتراءى ناراهما»،[١] أي: لا تتقاربان بحيث تكون إحداهما بمَرأى مِن الأخرى على المجاز، كأنّ بعضها يرى البعض. ونسبة الرؤية إليها لا إليهم للإيذان بأنّ التغيّظ والزفير منها لهَيجان غضبها عليهم عند رؤيتها إيّاهم حقيقةً أو تمثيلًا.

[١٩٣ظ] / وفي قوله تعالى: ﴿مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ إشعار بأنّ بُعدَ ما بينها وبينهم مِن المسافة حين رَأتهم خارج عن حدود البُعد المعتاد في المسافات المعهودة، وفيه مزيد تهويل لأمرها. قال الكلبي والسُّدّي: «مِن مسيرة عام».[٢] وقيل: مِن مسيرة مائة سنة.[٣]

﴿سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ أي: صوتَ تَغيّظٍ على تشبيه صوت غليانها بصوت المُغتاظ وزفيره، وهو صوت يسمع مِن جوفه. هذا، وإنّ الحياة لمّا لم تكن مشروطةً عندنا بالبنية أمكَن أن يخلق الله تعالى فيها حياة فترى وتتغيّظ وتزفر. وقيل: إنّ ذلك لزبانيّتها فنُسب إليها على حذف المضاف.

﴿وَإِذَآ أُلۡقُواْ مِنۡهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوۡاْ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾﴾

﴿وَإِذَآ أُلۡقُواْ مِنۡهَا مَكَانًا﴾ نصب على الظرفيّة، و﴿مِنۡهَا﴾ حال منه؛ لأنّه في الأصل صفة له. ﴿ضَيِّقًا﴾ صفة لـ﴿مَكَانًا﴾ مفيدة لزيادة شدّةٍ، فإنّ الكَرب مع الضيق، كما أنّ الرَّوح مع السَّعة، وهو السرّ في وصف الجنّة بأنّ عرضها السماوات والأرض. وعن ابن عبّاس وابن عمر رضي الله تعالى[٤] عنهم: «تضيق جهنّمُ عليهم كما يضيق الزُّجُّ[٥] على الرُّمح».[٦] وسُئل النبيّ صلّى الله عليه وسلّم عن ذلك، فقال:

---

[١] وفي هامش م: ونسبة عدم الترائي في الحديث الشريف إلى النار للإنباء عن غاية البعد؛ لأنّ النار مع كمال ظهورها وارتفاع لهَبها إذا لم تكن مرئيّة كانت في غاية البعد. «منه». | وتمام الحديث في **سنن أبي داود**، ٢٨١/٤ (٢٦٤٥)؛ و**سنن الترمذي**، ١٥٥/٤ (١٦٠٤)، عن جرير بن عبد الله، أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: «أنا بريء مِن كلّ مسلم يُقيم بين أظهر المشركين». قالوا: يا رسول الله، ولِم؟ قال: «لا تَراءَى ناراهما».

[٢] **معالم التنزيل** للبغوي، ٧٤/٦؛ **اللباب** لابن عادل، ٤٨٩/١٤.

[٣] **التفسير الوسيط** للواحدي، ٣٣٥/٣؛ **اللباب** لابن عادل، ٤٨٩/١٤.

[٤] س - تعالى.

[٥] الزُّجّ: الحديدة التي في أسفل الرمح. **الصحاح** للجوهري، «زجج».

[٦] **الكشف والبيان** للثعلبي، ١٢٦/٧؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٢٦٧/٣؛ **الدرّ المنثور** للسيوطي، ٢٤٠/٦.

«والذي نفسي بيده إنّهم يُستكرَهون في النار كما يُستكرَه الوتَد في الحائط».[1] قال الكلبيّ: «الأسفلون يرفعهم اللهبُ، والأعلَون يَحطُّهم الداخلون، فيزدحمون فيها».[2] وقُرئ: "ضَيْقًا" بسكون الياء.[3]

﴿مُقَرَّنِينَ﴾ حال مِن مفعول ﴿أُلقوا﴾ أي: إذا أُلقوا منها مكانًا ضيّقًا حالَ كونهم مقرّنين قد قُرِنت أيديهم إلى أعناقهم بالجوامع. وقيل: مقرّنين مع الشياطين في السلاسل، كلّ كافر مع شيطان، وفي أرجلهم الأصفاد.

﴿دَعَوْاْ هُنَالِكَ﴾ أي: في ذلك المكان الهائل والحالة الفظيعة ﴿ثُبُورًا﴾ أي: يتمنَّون هلاكًا، وينادونه: "يا ثُبوراه تعالَ، فهذا حِينك وأَوانُك".

﴿لَا تَدْعُواْ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَٱدْعُواْ ثُبُورًا كَثِيرًا ١٤﴾

﴿لَا تَدْعُواْ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا﴾ / على تقدير قولٍ إمّا منصوبٍ على أنّه حال مِن فاعل ﴿دَعَوْاْ﴾، أي: دعَوه مَقُولًا لهم ذلك حقيقةً بأن يخاطبهم الملائكةُ به لِتنبيههم على خلود عذابهم، وأنّهم لا يُجابون إلى ما يدعونه، ولا ينالون ما يتمنّونه مِن الهلاك المنجّي، أو تمثيلًا وتصويرًا لِحالهم بحال مَن يقال له ذلك مِن غير أن يكون هناك قول ولا خطاب، أي: دعَوه حالَ كونهم أحِقّاءَ بأن يقال لهم ذلك؛ وإمّا مُستأنِف وقع جوابًا عن سؤال ينسحب عليه الكلام، كأنّه قيل: فماذا يكون عند دعائهم المذكور؟ فقيل: يقال لهم ذلك إقناطًا عمّا عَلّقوا به أطماعَهم مِن الهلاك، وتنبيهًا على أنّ عذابهم المُلجئَ لهم إلى استدعاء الهلاك بالمرّة أبديٌّ لا خلاصَ لهم منه، أي: لا تقتصِروا على دعاء ثبورٍ واحدٍ. [١٩٤و]

﴿وَٱدْعُواْ ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ أي: بحسب كثرة الدعاء المتعلّق به، لا بحسب كثرته في نفسه، فإنّ ما يدعونه ثبور واحد في حدّ ذاته، لكنّه كلّما تعلّق به دعاء مِن تلك الأدعية الكثيرة صار كأنّه ثبور مغايِر لِما تعلّق به دعاء آخر منها.

---

[1] الكشف والبيان للثعلبي، ١٢٦/٧؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٣٣٥/٣.

[2] تفسير الرازي، ٤٣٨/٢٤؛ اللباب لابن عادل، ٤٩٠/١٤.

[3] قرأ بها ابن كثير. النشر لابن الجزري، ٢٦٢/٢.

وتحقيقه: لا تدعوه دعاءً واحدًا، وادعوه أدعيةً كثيرةً، فإنّ ما أنتم فيه مِن العذاب لغاية شدّته وطول مدّته مستوجب لتكرير الدعاء في كلّ آنٍ، وهذا أدلّ على فَظاعة العذاب وهَولِه مِن جَعلِ تعدّد الدعاء وتجدّده لِتعدّد العذاب بتعدّد أنواعه وألوانه، أو لتعدّده بتجدّد الجلود كما لا يخفى.

وأمّا ما قيل مِن أنّ المعنى: إنّكم وقعتم فيما ليس ثبوركم فيه واحدًا، إنّما هو ثبور كثير، إمّا لأنّ العذاب أنواع وألوان، كلُّ نوع منها ثبور لشدّته وفظاعته، أو لأنّهم كلّما نضجت جلودهم بُدِّلوا غيرَها، فلا غايةَ لهلاكهم،[1] فلا يلائم المقام، كيف لا، وهم إنّما يدعون هلاكًا يُنهي عذابَهم وينجّيهم منه؟ فلا بدّ أن يكون الجواب إقناطًا لهم عن ذلك ببيان استحالته ودوام ما يوجب استدعاءَه مِن العذاب الشديد. وتقييدُ النهي والأمر بـ"اليوم" لمَزيد التهويل والتفظيع، والتنبيهِ على أنّه ليس كسائر الأيّام المعهودة.

﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ١٥﴾

﴿قُلْ﴾ تقريعًا لهم وتهكّمًا بهم وتحسيرًا على ما فاتهم: ﴿أَذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذُكر مِن السعير باعتبار اتّصافها بما فُصّل مِن الأحوال الهائلة. وما فيه مِن معنى البعد للإشعار بكونها في الغاية / القاصية مِن الهول والفظاعة، أي: [١٩٤ظ] قل لهم: أذلك الذي ذُكر مِن السعير التي أُعتِدَت[2] لِمَن كذّب بالساعة -وشأنُها كَيت وكَيت، وشأنُ أهلها ذَيت وذَيت- ﴿خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ أي: وُعِدها المتّقون. وإضافة "الجنّة" إلى ﴿ٱلْخُلْدِ﴾ للمدح. وقيل: للتمييز عن جنّات الدنيا. والمراد بـ"المتّقين" المتّصفون بمطلق التقوى، لا بالمرتبة الثانية أو الثالثة منها فقط.

﴿كَانَتْ﴾ تلك الجنّة ﴿لَهُمْ﴾ في علم الله تعالى، أو في اللوح، أو لأنّ ما وعده الله تعالى فهو كائن لا محالةَ، فحُكي تحقّقه ووقوعه ﴿جَزَآءً﴾ على أعمالهم حسبما مرّ مِن الوعد الكريم ﴿وَمَصِيرًا﴾ ينقلبون إليه.

---

١ قاله الزمخشري في الكشّاف، ٢٦٧/٣.

٢ أَعتَد الشيء: أعدّه، قال الله عز وجلّ: ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا﴾ [يوسف، ٣١/١٢]، أي: هيّأت وأعدّت. لسان العرب لابن منظور، «عتد».

﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ١٦﴾

﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ﴾ أي: ما يشاءونه مِن فنون الملاذّ والمشتهَيات وأنواع النعيم، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ﴾ [فصلت، ٣١/٤١]، ولعلّ كلَّ فريق منهم يقتنع بما أُتيح له مِن درجات النعيم، ولا يمتدّ أعناقُ هِمَمهم إلى ما فوق ذلك مِن المراتب العالية، فلا يلزم الحِرمان، ولا تساوي مراتب أهل الجِنان. ﴿خَٰلِدِينَ﴾ حال مِن الضمير المستكِنّ في الجارّ والمجرور لاعتماده على المبتدأ. وقيل: مِن فاعل ﴿يَشَآءُونَ﴾.

﴿كَانَ﴾ أي: ما يَشاءونه. وقيل: الوعدُ المدلولُ عليه بقوله تعالى: ﴿وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾[1] ﴿عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا﴾ أي: موعودًا حقيقًا بأن يُسأل ويُطلَب، لكونه ممّا يتنافس فيه المتنافسون، أو مسئولًا يسأله الناس في دعائهم بقولهم: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ [آل عمران، ١٩٤/٣]، أو الملائكةُ بقولهم: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ﴾ [غافر، ٨/٤٠].

وما في ﴿عَلَىٰ﴾ مِن معنى الوجوب لامتناع الخُلف في وعده تعالى، ولا يلزم منه الإلجاء إلى الإنجاز، فإنّ تعلّق الإرادة بالموعود متقدِّم على الوعد الموجِب للإنجاز. وفي التعرّض / لعنوان الربوبيّة مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام مِن تشريفه والإشعارِ بأنّه عليه السلام هو الفائز آثِرَ ذِي أثيرٍ بمَغانم الوعد الكريم ما لا يخفى. [١٩٥و]

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ١٧﴾

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ نصب على أنّه مفعول لمُضمَر مقدَّمٍ معطوفٍ على قوله تعالى: ﴿قُلْ أَذَٰلِكَ﴾... إلخ،[2] أي: واذكُر لهم بعد التقريع والتحسير يومَ يحشرهم الله عزّ وجلّ. وتعليق التذكير باليوم مع أنّ المقصود تذكيرُ ما وقع فيه مِن الحَوادث الهائلة قد مرّ وجهه غيرَ مرّة، أو على أنّه ظرف لمُضمَر مؤخَّر

---

[1] في الآية السابقة.

[2] الفرقان، ١٥/٢٥.

قد حُذِف للتنبيه على كمال هَوله وفظاعة ما فيه، والإيذانِ بقصورِ العبارة عن بيانه، أي: يوم يحشرهم يكون مِن الأحوال والأهوال ما لا يفي ببيانه المقال. وقُرئ بنون العظمة[1] بطريق الالتفات مِن الغيبة إلى التكلّم، وبكسر الشين أيضًا.[2]

﴿وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أريدَ به ما يعمّ العقلاءَ وغيرَهم، إمّا لأنّ كلمة ﴿مَا﴾ موضوعة للكلّ كما ينبئ عنه أنّك إذا رأيت شبَحًا مِن بعيد تقول: "ما هو؟" أو لأنّه أريدَ به الوصف لا الذات، كأنّه قيل: ومعبودِيهم، أو لتغليب الأصنام على غيرها تنبيهًا على أنّهم مثلُها في السقوط عن رتبة المعبوديّة، أو اعتبارًا لِغلبة عبَدَتِها، أو أريدَ به الملائكةُ والمسيحُ وعُزيرٌ بقرينة السؤال والجواب، أو الأصنام يُنطقها الله تعالى، أو تُكلِّمُ بلسان الحال كما قيل: في شهادة الأيدي والأرجل.

﴿فَيَقُولُ﴾ أي: الله عزّ وجلّ للمعبودين إثرَ حشْر الكلّ تقريعًا لِلعَبَدة وتبكيتًا لهم. وقُرئ بالنون[3] كما عُطف عليه. وقُرئ هذا بالياء والأوّلُ بالنون[4] على طريق الالتفات إلى الغيبة.

﴿ءَأَنتُمۡ أَضۡلَلۡتُمۡ عِبَادِي هَٰٓؤُلَآءِ﴾ بأن دَعوتموهم إلى عبادتكم كما في قوله تعالى: ﴿ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة، ١١٦/٥].

﴿أَمۡ هُمۡ ضَلُّواْ ٱلسَّبِيلَ﴾ أي: عن السبيل بأنفسهم لإخلالهم بالنظر الصحيح، وإعراضِهم عن المُرشد، فحُذف الجارّ، وأُوصلَ / الفعلُ إلى المفعول، كقوله [١٩٥ظ] تعالى: ﴿وَهُوَ يَهۡدِي ٱلسَّبِيلَ﴾ [الأحزاب، ٤/٣٣]، والأصل: إلى السبيل، أو للسبيل. وتقديم الضميرين على الفعلين لِما أنّ المقصود بالسؤال هو المتصدّي للفعل، لا نفسُه.

---

[1] قرأ بها نافع وأبو عمرو وابن عامر وحمزة والكسائي وخلَف وشعبة. النشر لابن الجزري، ٣٣٣/٢.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعرج. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٤٧.

[3] قرأ بها ابن عامر. النشر لابن الجزري، ٣٣٣/٢.

[4] قرأ بها نافع وأبو عمرو وحمزة والكسائي وخلَف وشعبة. النشر لابن الجزري، ٣٣٣/٢.

﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعۡتَهُمۡ وَءَابَآءَهُمۡ حَتَّىٰ نَسُواْ ٱلذِّكۡرَ وَكَانُواْ قَوۡمَۢا بُورٗا ١٨﴾

﴿قَالُواْ﴾ استئناف مبنيّ على سؤال نشأ مِن حكاية السؤال، كأنّه قيل: فماذا قالوا في الجواب؟ فقيل: قالوا: ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾ تعجّبًا ممّا قيل لهم؛ لأنّهم إمّا ملائكة معصومون، أو جمادات لا قدرةَ لها على شيء، أو إشعارًا بأنّهم الموسومون بتسبيحه تعالى وتوحيده، فكيف يتأتّى منهم إضلال عباده؟ أو تنزيهًا له تعالى عن الأنداد.

﴿مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ﴾ أي: ما صحّ وما استقام لنا ﴿أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ﴾ أي: متجاوزين إيّاك ﴿مِنۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ نعبدهم لِما بِنا مِن الحالة المنافية له، فأنّى يُتصوّر أن نحمِل غيرنا على أن يتّخذ وليًا غيرَك، فضلًا أن يتّخذنا وليًا؟ أو أن نتّخذ مِن دونك أولياء، أي: أتباعًا، فإنّ "الوليّ" كما يطلق على المتبوع يطلق على التابع، كـ"المَولى" يطلق على الأعلى والأسفل، ومنه "أولياء الشيطان" أي: أتباعه.

وقُرئ على البناء للمفعول[1] مِن المتعدّي إلى مفعولين، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا﴾ [النساء، ١٢٥/٤]، ومفعوله الثاني ﴿مِنۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ على أنّ ﴿مِنۡ﴾ للتبعيض، أي: أن نُتّخَذَ بعضَ أولياء، وهي على الأوّل مزيدة. وتنكير ﴿أَوۡلِيَآءَ﴾ مِن حيث إنّهم أولياء مخصوصون، وهم الجنّ والأصنام.

﴿وَلَٰكِن مَّتَّعۡتَهُمۡ وَءَابَآءَهُمۡ﴾ استدراك مسوق لبيان أنّهم هم الضالّون بعد بيان تنزّههم عن إضلالهم. وقَد نُعِيَ عليهم سوءُ صنيعِهم حيث جعلوا أسباب الهداية أسبابًا للضلالة، أي: ما أضللناهم، ولكنّك متّعتَهم / وآباءَهم بأنواع [١٩٦و] النِّعم ليعرفوا حقّها ويشكروها، فاستغرقوا في الشهوات، وانهمَكوا فيها ﴿حَتَّىٰ نَسُواْ ٱلذِّكۡرَ﴾ أي: غفِلوا عن ذِكرك، أو عن التذكّر في آلائك، والتدبّرِ في آياتك، فجعلوا أسباب الهداية بسوء اختيارهم ذريعةً إلى الغواية.

﴿وَكَانُواْ﴾ أي: في قضائك المبنيّ على علمك الأزلي المتعلّق بما سيصدر عنهم فيما لا يزال باختيارهم مِن الأعمال السيّئة ﴿قَوۡمَۢا بُورٗا﴾ هالكين، على أنّ ﴿بُورٗا﴾

---

[1] أي: "نُتّخَذَ". قرأ بها أبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٣٣٣/٢.

مصدر وُصف به الفاعل مبالغةً، ولذلك يستوي فيه الواحد والجمع، أو جمعُ "بائر" كـ"عُوذ" في جمع "عائذ". والجملة اعتراض تذييلي مقرِّر لمضمون ما قبله.

﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم﴾ حكاية لاحتجاجه تعالى على العبَدة بطريق تلوين الخطاب، وصرفِه عن المعبودين عند تمام جوابهم وتوجيهِه إلى العبَدة مبالغةً في تقريعهم وتَبكيتهم على تقدير قولٍ مرتَّبٍ على الجواب، أي: فقال الله تعالى عند ذلك: فقد كذَّبكم المعبودون أيّها الكفرة ﴿بِمَا تَقُولُونَ﴾ أي: في قولكم: إنّهم آلِهَةٌ. وقيل: في قولكم: هؤلاء أضلّونا،[1] ويأباه أنّ تكذيبهم في هذا القول لا تعلّقَ له بما بعده مِن عدم استطاعتهم للصَّرف والنصر أصلًا، وإنّما الذي يستتبعه تكذيبُهم فِي زعمهم أنّهم آلهتهم وناصروهم. وأيًّا ما كان فـ"الباء" بمعنى "في"، أو هي صلة للتكذيب على أنّ الجارّ والمجرور بدل اشتمالٍ مِن الضمير المنصوب. وقُرئ بـ"الياء"،[2] أي: كذّبوكم بقولهم: ﴿سُبْحَانَكَ﴾ الآية.[3]

﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ﴾ أي: ما تَملكون ﴿صَرْفًا﴾ أي: دفعًا للعذاب عنكم بوجه مِن الوجوه كما يُعرِب عنه التنكير، أي: لا بالذّات ولا بالواسطة. وقيل: حيلةً، مِن قولهم: "إنّه لَيتصرّف في أموره"، أي: يَحتال فيها. وقيل: توبةً. ﴿وَلَا نَصْرًا﴾ أي: فردًا مِن أفراد النصر، لا مِن جهة أنفسكم، ولا مِن جهة غيركم. و"الفاء" لترتيب عدم الاستطاعة على ما قبلها مِن التكذيب، لكن لا على معنى أنّه لولاه لَوُجِدت الاستطاعة حقيقةً؛ بل في زعمهم، حيث كانوا يزعمون أنّهم يدفعون عنهم العذاب وينصرونهم، وفيه ضربُ تهكّمٍ بهم.

---

[1] أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٢٠/٤. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٤٧.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حيوة وأبي البرهسم.

[3] في الآية السابقة.

[١٩٦ظ] / وقُرِئ: "يَسْتَطِيعُونَ"[١] على صيغة الغيبة، أي: ما يستطيع آلهتكم أن يصرفوا عنكم العذاب، أو يحتالوا لكم، ولا أن ينصروكم. وتَرتّبُ ما بعد "الفاء" على ما قبلها كما مرّ بيانه.

﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ﴾ أيها المكلّفون كدأب هؤلاء، حيث ركبوا متن المكابَرة والعِناد، واستمرّوا على ما هم عليه مِن الفساد، وتجاوزوا في اللَّجاج كلَّ حدّ معتاد ﴿نُذِقْهُ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابًا كَبِيرًا﴾ لا يُقادَر قدرُه، وهو عذابُ النار. وقُرِئ: "يُذِقْهُ"[٢] على أنّ الضمير لله سبحانه. وقيل: لمصدر الفعل الواقع شرطًا. وتعميم الظلمِ لا يستلزم اشتراكَ الفاسق للكافر في إذاقة العذاب الكبير، فإنّ الشرط في اقتضاء الجزاء مقيّد بعدم المزاحِم وِفاقًا، وهو التوبة، والإحباطِ بالطاعة إجماعًا، وبالعفوِ عندنا.[٣]

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ۝٢٠﴾

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ جواب عن قولهم: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾.[٤] والجملة الواقعة بعد ﴿إِلَّآ﴾ صفة لموصوف قد حُذف ثقةً بدلالة الجارّ والمجرور عليه، وأقيمت هي مُقامه، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الصافات، ١٦٤/٣٧]. والمعنى: ما أرسلنا قبلك أحدًا مِن المرسلين إلّا آكلين وماشين. وقيل: ﴿فِى﴾ حال، والتقدير: إلّا وإنّهم لَيأكلون... إلخ. وقُرِئ: "يُمَشُّونَ"[٥] على البناء للمفعول، أي: يمَشِّيهم حوائجهم أو الناس.

---

[١] قرأ بها جميع القرّاء العشر غير حفص. النشر لابن الجزري، ٣٣٤/٢.

[٢] قراءة شاذّة، غير منسوبة. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢٧١/٣؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٨٤/٨.

[٣] أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٢١/٤. قال الشهاب: «وقوله: "وِفاقًا" أي: منّا ومِن المعتزلة، والتوبةُ شاملة للكفر والفسق، وقوله: "عندنا" أي: معاشر أهل السنة». حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، ٤١٣/٦.

[٤] الفرقان، ٧/٢٥.

[٥] قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ وابن مسعود رضي الله عنهما وعبد الرحمن بن عبد الله. انظر: شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٤٧؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٩٤/٨.

[١٩٧و] / ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ﴾ تلوين للخطاب بتعميمه لسائر الرسل عليهم السلام بطريق التغليب، والمراد بهذا البعض كفّارُ الأمم، فإنّ اختصاصهم بالرسل وتبعيّتهم لهم مصحِّح لأن يُعَدُّوا بعضًا منهم، وبما في قوله تعالى: ﴿لِبَعْضٍ﴾ رسُلُهم، لكن لا على معنى: جعلنا مجموعَ البعض الأوّل ﴿فِتْنَةً﴾ أي: ابتلاءً ومِحنةً لِمجموع البعض الثاني، ولا على معنى: جعلنا كلّ فرد مِن أفراد البعض الأوّل فتنةً لكلّ فرد مِن أفراد البعض الثاني، ولا على معنى: جعلنا بعضًا مبهمًا مِن الأوّلين فتنةً لبعض مبهم مِن الآخرين ضرورةَ أنّ مجموع الرسل مِن حيث هو مجموعٌ غيرُ مفتون بمجموع الأمم، ولا كلُّ فرد منهم بكلّ فرد مِن الأمم، ولا بعضٌ مبهم مِن الأوّلين ببعض مبهم مِن الآخرين؛ بل على معنى: جعلنا كلّ بعضٍ معيّن مِن الأمم فتنةً لبعضٍ معيّن مِن الرسل، كأنّه قيل: وجعلنا كلَّ أمّةٍ مخصوصةٍ مِن الأُمم الكافرة فتنةً لرسولها المعيّن المبعوث إليها، وإنّما لم يصرَّح بذلك تعويلًا على شهادة الحال.

هذا، وأمّا تعميم الخطاب لجميع المكلّفين، وإبقاءُ البعضَين على العموم والإبهام، على معنى: وجعلنا بعضكم أيّها الناس فتنةً لبَعض آخر منكم؛[١] فيأباه قوله تعالى: ﴿أَتَصْبِرُونَ﴾ فإنّه غاية للجعل المذكور، ومِن البيّن أن ليس ابتلاء كلِّ أحد مِن آحاد الناس مُغيًّا بالصبر؛ بل بما يناسب حاله، على أنّ الاقتصار على ذكره مِن غير تعرّض لِمُعادله ممّا يدلّ على أنّ اللائق بحال المفتونين والمتوقَّعَ صدورُه عنهم هو الصبر لا غير، فلا بدّ أن يكون المراد بهم الرسلَ فيحصل به تسليته عليه السلام، فالمعنى: جرَت سنّتنا بموجَب حِكمتنا على ابتلاء المرسلين بأممهم وبمناصَبتهم لهم العداوةَ، وإيذائِهم لهم، وأقاويلِهم الخارجة عن حدود الإنصاف لنعلم صبرَكم.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ وعد كريم للرسول عليه السلام بالأجر الجزيل لصبره الجميل مع مزيد تشريف له عليه السلام بالالتفات إلى اسم الربّ مضافًا إلى ضميره صلّى الله عليه وسلّم.

---

١ انظر: **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١٢١/٤.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾﴾

/ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ شروع في حكاية بعضٍ آخر مِن أقاويلهم [١٩٧ظ] الباطلة، وبيانِ بطلانها إثرَ إبطال أباطيلهم السابقة. والجملة معطوفة على قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ﴾... إلخ.[١] ووضعُ الموصول موضع الضمير للتنبيه بما في حيّز الصلة على أنّ ما يُحكى عنهم في الشناعة بحيث لا يصدر عمّن يعتقد المصير إلى الله عزّ وجلّ.

ولقاء الشيء عبارة عن مصادفته مِن غير أن يمنع مانع مِن إدراكه بوجهٍ مِن الوجوه. والمراد بلقائه تعالى إمّا الرجوع إليه تعالى بالبعث والحشر، أو لقاءُ حسابه تعالى كما في قوله تعالى: ﴿إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾ [الحاقة، ٢٠/٦٩]، وبعدم رجائهم إيّاه عدمُ توقّعهم له أصلًا لإنكارهم البعثَ والحسابَ بالكلّيّة، لا عدمُ أملِهم حسنَ اللقاء، ولا عدمُ خوفِهم سوءَ اللقاء؛ لأنّ عدمهما غير مستلزم لِما هم عليه مِن العتوّ والاستكبار وإنكارِ البعث والحساب رأسًا، أي: وقال الذين لا يتوقّعون الرجوعَ إلينا أو حسابَنا المؤدّيَ إلى سوء العذاب الذي يستوجبه مقالتهم: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي: هلّا أُنزلوا علينا ليخبرونا بصدق محمّد عليه السلام.

وقيل: هلّا أُنزِلوا علينا بطريق الرسالة، وهو الأنسب لقولهم: ﴿أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ مِن حيث إنّ كِلا القولَين ناشئٌ عن غاية غلوّهم في المكابرة والعتوّ حسبما يُعرِب عنه قوله تعالى: ﴿لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: في شأنها حتّى اجترءوا على التفوّه بمثل هذه العظيمة الشنعاء، ﴿وَعَتَوْ﴾ أي: تجاوزوا الحدَّ في الظلم والطغيانِ ﴿عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ بالغًا أقصى غاياته حيث أمّلوا نَيل مرتبة المفاوَضة الإلهيّة مِن غير توسّط الرسول والملَك، كما قالوا: ﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ﴾ [البقرة، ١١٨/٢]، ولم يكتفوا بما عايَنوا مِن المعجزات القاهرة التي تخِرّ لها / صُمُّ الجبال، فذهبوا في الاقتراح [١٩٨و] كلَّ مذهب حتّى مَنّتهم أنفسُهم الخبيثةُ أمانيَّ لا تكاد تَرنُو إليها أحداقُ الأمم،

---

[١] الفرقان، ٧/٢٥.

ولا يمتدّ إليها أعناق الهِمم، ولا ينالها إلّا أولو العزائم الماضية مِن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

و"اللام" جواب قسَم محذوف، أي: واللهِ لقد استكبروا... الآية. وفيه مِن الدلالة على غاية قُبح ما هم عليه والإشعارِ بالتعجّب مِن استكبارهم وعُتوّهم ما لا يخفى.

﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾﴾

﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ﴾ استئناف مسوق لبيان ما يلقَونه عند مشاهدتهم لِما اقترحوه مِن نزول الملائكة عليهم السلام بعد استعظامه وبيانِ كونه في غاية ما يكون مِن الشناعة. وإنّما قيل: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ﴾ دون أن يقال: "يوم يُنَزَّلُ الملائكةُ" إيذانًا مِن أوّل الأمر بأنّ رؤيتهم لهم ليست على طريق الإجابة إلى ما اقترحوه؛ بل على وجهٍ آخر غيرِ معهود.

و﴿يَوْمَ﴾ منصوب على الظرفيّة بما يدلّ عليه قوله تعالى: ﴿لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ فإنّه في معنى: لا يُبَشَّرُ يومئذ المجرمون. والعدول إلى نفي الجنس للمبالغة في نفي "البشرى". وما قيل: مِن أنّه بمعنى: يُمنَعون البُشرى، أو يُعْدَمُونها؛[1] تهوينٌ للخَطب في مقام التهويل، فإنّ منع البُشرى وفقدانَها مُشعِران بأنّ هناك بُشرى يُمنَعونها أو يَفقِدونها، وأين هذا مِن نفيها بالكلّية؟ وحيث كان نفيها كنايةً عن إثبات ضدّها كما أنّ نفي المحبّة في مِثل قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ[2] ٱللَّهَ[3] لَا يُحِبُّ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [آل عمران، ٣/٣٢] كنايةٌ عن البغض والمَقت دلّ على ثبوت النُّذْرَى لهم على أبلغ وجهٍ وآكَدِه.

وقيل: منصوب بفعل مقدّر يؤكّده ﴿بُشْرَىٰ﴾ على أنّ ﴿لَا﴾ غير نافية للجنس. وقيل: منصوب على المفعوليّة بمُضمَر مقدَّم عليه، أي: اذكُر يوم رؤيتهم الملائكة. و﴿يَوْمَئِذٍ﴾ على كلّ حال تكرير للتأكيد والتهويل مع ما فيه مِن الإيذان

---

[1] الكشّاف للزمخشري، ٣/٢٧٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤/١٢١.

[2] م ط س - فإنّ.

[3] م ط س: والله. | وهو في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [آل عمران، ٣/٥٧].

بأنّ تقديم الظرف للاهتمام، لا لقصر نفي البُشرى على ذلك الوقت فقط، فإنّ ذلك مخِلّ بتفظيع حالهم.

و﴿لِلْمُجْرِمِينَ﴾ تَبيين على أنّه مُظهَر وُضع موضع الضمير تسجيلًا عليهم بالإجرام مع ما هم عليه مِن الكفر. وحملُه على العموم بحيث يتناول فسّاق المؤمنين، ثمّ الالتجاءُ في إخراجهم عن الحرمان الكلّي إلى أنّ / نفي البُشرى [١٩٨ظ] حينئذ لا يستلزم نفيه في جميع الأوقات، فيجوز أن يُبَشَّروا بالعفو والشفاعة في وقت آخر؛[١] بمَعزِل مِن الحقّ بعيدٍ.

﴿وَيَقُولُونَ﴾ عطفٌ على ما ذُكر مِن الفعل المنفيّ المُنبِئ عن كمال فظاعة ما يَحيق بهم مِن الشرّ وغايةِ هَوْل مَطلَعه ببيان أنّهم يقولون عند مشاهدتهم له: ﴿حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ وهي كلمة يتكلّمون بها عند لقاء عدوّ مَوتور، وهجومِ نازلة هائلة، يضعونها موضع الاستعاذة حيث يطلبون مِن الله تعالى أن يمنع المكروهَ فلا يلحقهم، فكأنّ المعنى: نسأل الله تعالى أن يمنع ذلك منعًا ويَحجُره حَجْرًا. وكَسر "الحاءِ" تصرّفٌ فيه لاختصاصه بموضع واحدٍ، كما في "قِعْدَكَ" و"عَمْرَكَ".[٢] وقد قُرئ: "حُجْرًا" بالضمّ.[٣]

والمعنى: أنّهم يطلبون نزولَ الملائكة عليهم السلام ويقترحونه، وهم إذا رَأَوهم كرهوا لقاءَهم أشدَّ كراهة، وفزِعوا منهم فزعًا شديدًا، وقالوا ما كانوا يقولونه عند نزول خَطبٍ شَنيع، وحُلول بأسٍ فظيع.

و﴿مَّحْجُورًا﴾ صفة لـ﴿حِجْرًا﴾ وإرادة للتأكيد، كما قالوا: "ذَيلٌ ذائل"، و"لَيلٌ أَلْيَل". وقيل: يقولها الملائكة إقناطًا للكفرة، بمعنى: حرامًا محرّمًا عليكم الغفران أو الجنّة أو البشرى، أي: جعل الله تعالى ذلك حرامًا عليكم،[٤] وليس بواضح.

---

١ انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٢١/٤.

٢ "قِعدَك الله" بالكسر: استعطافٌ، لا قسَم، بدليل أنّه لم يجئ جوابُ القسم، وهو مصدرٌ واقع مَوقع الفعل بمنزلة "عَمرَك الله"، أي: عَمَرتُكَ اللهَ، ومعناه: سألتُ اللهَ تَعميرك، وكذلك: "قِعدَكَ اللهَ"، تقديره: قَعدتُك اللهَ، أي: سألت الله حِفظك. القاموس المحيط للفيروزابادي، «قعد».

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وقتادة والأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٤٧.

٤ الكشّاف للزمخشري، ٢٧٤/٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٢٢/٤.

﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾

﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ بيان لحال ما كانوا يعملونه في الدنيا مِن صلة رحِم، وإغاثةِ ملهوف، وقِرى ضيف، ومَنٍّ على أسير، وغير ذلك مِن مكارمهم ومحاسنهم التي لو كانوا عملوها مع الإيمان لَنالوا ثوابَها، بتمثيل حالهم وحالِ أعمالهم المذكورة بحال قوم خالفوا سلطانَهم واستعصَوا عليه، فقدِم إلى أشيائهم، وقصَدَ إلى ما تحت أيديهم، فأنحى عليها بالإفساد والتحريق، ومزّقها كلّ تمزيق، بحيث لم يدع لها عينًا ولا أثرًا، أي: عمِدنا إليها وأبطلناها، أي: أظهرنا بطلانها بالكلّيّة مِن غير أن يكون هناك قدوم ولا شيء يُقصَدُ تشبيهُه به.

و"الهباء" شِبه غبارٍ يُرى في شعاع الشمس يطلع مِن الكُوّة، مِن "الهَبوة"، وهي الغبار، و﴿مَنثُورًا﴾ صفته، شبّه به أعمالهم المُحبَطة في الحقارة وعدم الجَدوى، ثمّ بالمنثور منه في الانتشار بحيث لا يمكن نظمه، أو مفعول ثالث مِن حيث إنّه كالخبر بعد الخبر، كما في قوله تعالى: / ﴿كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ [الأعراف، ٧/١٦٦]. [١٩٩و]

﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾

﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ هم المؤمنون المشار إليهم في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾... إلخ.[١] ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يومَ إذ يكون ما ذُكِر مِن عدم التبشير وقولِهم: "حِجرًا مَحجورًا"، وجَعْلِ أعمالهم هباءً منثورًا ﴿خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا﴾ "المستقَرّ" المكانُ الذي يُستَقَرّ فيه في أكثر الأوقات للتجالُسِ والتحادُث.

﴿وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ "المَقيل" المكان الذي يُئوَى إليه للاسترواح إلى الأزواج والتمتّعِ بمغازلتهنّ، سمّي بذلك لِما أنّ التمتّع به يكون وقت القيلولة غالبًا. وقيل: لأنّه يُفرَغُ مِن الحساب في منتصف ذلك اليوم فيَقِيل أهلُ الجنّة في الجنّة،

---

١ الفرقان، ٢٥/١٥.

وأهلُ النار في النار. وفي وصفه بزيادة الحسن مع حصول الخيريّة بعطفه على "المستقرّ" رمزٌ إلى أنّه مزيّن بفنون الزِّيَنِ والزخارف.

والتفضيل المعتبَر فيهما إمّا لإرادة الزيادة على الإطلاق، أي: هم في أقصى ما يكون مِن خيريّة المستقَرّ وحُسنِ المَقيل، وإمّا بالإضافة إلى ما للكفرة المتنعِّمين في الدنيا، أو إلى ما لهم في الآخرة بطريق التهكّم بهم، كما مرّ في قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَذَٰلِكَ خَيۡرٌ﴾ الآيةَ.[1] هذا، وقد جُوّز أن يُراد بأحدهما المصدر أو الزمان إشارةً إلى أنّ مكانهم وزمانهم أطيب ما يُتخيّل مِن الأمكنة والأزمنة.

﴿وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلۡغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ۝٢٥﴾

﴿وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ﴾ أي: تتفتّح، وأصله "تَتَشَقَّقُ"، فحُذفت إحدى التاءين كما في "تلظّى".[2] وقُرئ بإدغام التاء في الشين.[3] ﴿بِٱلۡغَمَٰمِ﴾ بسبب طلوع الغَمام منها، وهو الغَمام الذي ذُكر في قوله تعالى: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [البقرة، ٢/٢١٠]. قيل: هو غمام أبيضُ رقيق مثلُ الضبابة، ولم يكن إلّا لبني إسرائيل.

﴿وَنُزِّلَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ أي: تنزيلًا عجيبًا غيرَ معهود، قيل: تنشقّ سَماءٌ سَماءٌ، وينزل الملائكة خلال ذلك الغمام بصحائف أعمال العباد. وقُرئ: "وَنُزِّلتِ الْمَلَائِكَةُ"،[4] و"تُنْزِلُ"،[5] و"نُنَزِّلُ"[6] على صيغة المتكلّم مِن الإنزال والتنزيل، / و"نَزَّلَ الْمَلَائِكَةَ"،[7] و"نَزَلَ الْمَلَائِكَةُ"،[8] و"نُزِلَ الْمَلَائِكَةَ"[9] على حذف النون الذي هو فاء الفعل مِن "نُنَزِّلُ". [١٩٩ظ]

---

[1] الفرقان، ٢٥/١٥.

[2] مِن قوله تعالى: ﴿فَأَنذَرۡتُكُمۡ نَارٗا تَلَظَّىٰ﴾ [الليل، ٩٢/١٤].

[3] أي: "تَشَّقَّقُ". قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وابن عامر ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٣٣٤.

[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبيّ رضي الله عنه. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٤٨.

[5] قرأ بها ابن كثير. النشر لابن الجزري، ٢/٣٣٤.

[6] قراءة شاذّة، نسبها أبو حيّان إلى بعض المصاحف. انظر: البحر المحيط لأبي حيّان، ٨/١٠٠.

[7] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي رجاء. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٤٨.

[8] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي عمرو. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٤٨.

[9] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي معاذ وخارجة عن أبي عمرو. البحر المحيط لأبي حيّان، ٨/١٠٠.

﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾﴾

﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ أي: السلطنة القاهرة والاستيلاءُ الكلّي العامّ، الثابتُ صورةً ومعنًى، ظاهرًا وباطنًا، بحيث لا زوالَ له أصلًا؛ ثابتٌ للرحمن يومئذ. فـ﴿ٱلْمُلْكُ﴾ مبتدأ، و﴿ٱلْحَقُّ﴾ صفته، و﴿لِلرَّحْمَٰنِ﴾ خبره، و﴿يَوْمَئِذٍ﴾ ظرف لثبوت الخبر للمبتدأ. وفائدة التقييد أنّ ثبوت المُلك المذكور له تعالى خاصّةً يومئذ، وأمّا فيما عداه مِن أيّام الدنيا فيكون لغيره أيضًا تصرّف صوري في الجملة.

وقيل: ﴿ٱلْمُلْكُ﴾ مبتدأ، و﴿ٱلْحَقُّ﴾ خبره، و﴿لِلرَّحْمَٰنِ﴾ متعلّق بـ﴿ٱلْحَقُّ﴾، أو بمحذوف على التبيين، أو بمحذوف هو صفة لـ﴿ٱلْحَقُّ﴾، و﴿يَوْمَئِذٍ﴾ معمول لـ﴿ٱلْمُلْكُ﴾. وقيل: الخبر ﴿يَوْمَئِذٍ﴾، و﴿ٱلْحَقُّ﴾ نعت لـ﴿ٱلْمُلْكُ﴾، و﴿لِلرَّحْمَٰنِ﴾ على ما ذُكر. وأيًّا ما كان، فالجملة بمعناها عاملة في الظرف، أي: ينفرد الله تعالى بالمُلك يوم تشقَّقُ. وقيل: الظرف منصوب بما ذُكر، فالجملة حينئذ استئناف مَسوق لبيان أحواله وأهواله.

وإيراده تعالى بعنوان الرحمانيّة للإيذان بأنّ اتّصافه تعالى بغاية الرحمة لا يهوّن الخطبَ على الكفرة لعدم استحقاقهم للرحمة كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ [الانفطار، ٦/٨٢]، والمعنى أنّ المُلك الحقيقي يومئذ للرحمن.

﴿وَكَانَ﴾ ذلك اليوم مع كون المُلك فيه لله المبالِغ في الرحمة لعباده ﴿يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ شديدًا / لهم. وتقديم الجارّ والمجرور لمراعاة الفواصل.[1] [٢٠٠و] وأمّا للمؤمنين فيكون يسيرًا بفضل الله تعالى. وقد جاء في الحديث: «أنّه يَهُون يومُ القيامة على المؤمن حتّى يكونُ أخفّ عليه مِن صلاةٍ مكتوبةٍ صلّاها في الدنيا».[2] والجملة اعتراض تذييلي مقرّر لِما قبله.

---

١ وفي هامش م: لا للقصر؛ لأنّه معلوم على تقدير التأخير أيضًا. «منه».

٢ مسند أحمد، ٢٤٦/١٨ (١١٧١٧)؛ صحيح ابن حبان، ٣٢٩/١٦ (٧٣٣٤). وتمامه: عن أبي سعيد الخدري قال: قيل لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم: يومًا كان مقداره خمسين ألف سنةٍ، ما أطولَ هذا اليوم. فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «والذي نفسي بيده، إنّه لَيُخفّف على المؤمن، حتّى يكون أخفّ عليه مِن صلاة مكتوبة يصلّيها في الدنيا».

﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ۝٢٧﴾

﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ عضُّ اليدين والأنامل وأكلُ البَنان وحرقُ الأسنان ونحوُها كنايات مِن الغيظ والحسرة؛ لأنّها مِن روادفها.

والمراد بـ﴿ٱلظَّالِمُ﴾ إمّا عُقبةُ بن أبي مُعَيط[1] على ما قيل مِن أنّه كان يكثر مجالسة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم،[2] فدعاه عليه السلام يومًا إلى ضيافته، فأبى عليه السلام أن يأكل مِن طعامه حتّى ينطق بالشهادتين، ففعل، وكان أُبيّ بن خلف صديقَه فعاتبه، وقال: «صَبأتَ»، فقال: «لا، ولكن آلَى أن لا يأكل مِن طعامي وهو في بيتي، فاستحيَيتُ منه، فشهِدتُ له»، فقال: «إنّي لا أرضى منك إلّا أن تأتيَه فتطأَ قفاه، وتبزقَ في وجهه»، فوجده ساجدًا في دار الندوة، ففعل ذلك، فقال عليه السلام: «لا ألقاك خارجًا مِن مكّة إلّا علَوتُ رأسَك بالسيف»، فأُسِر يومَ بدر، فأمرَ عليًّا رضي الله عنه فقتله. وقيل: قتله عاصم بن ثابت الأنصاري.[3] وطعن عليه السلام أُبيًّا يوم أُحدٍ في المبارزة، فرجع إلى مكّة فمات.[4]

وإمّا جنس الظالم، وهو داخل فيه دخولًا أوّليًا. وقوله تعالى: ﴿يَقُولُ﴾... إلخ حال مِن فاعل ﴿يَعَضُّ﴾. وقوله تعالى: ﴿يَٰلَيْتَنِى﴾... إلخ محكيّ به، و"يا" إمّا لمجرّد التنبيه مِن غير قصدٍ إلى تعيين المنبَّه، أو المنادى محذوف، أي: يا هؤلاء ليتني ﴿ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ أي: طريقًا واحدًا منجيًا مِن هذه الوَرطات، / وهو طريق الحقّ، ولم تتشعّب بي طرق الضلالة، أو حصّلتُ في صحبته عليه السلام طريقًا، ولم أكن ضالًّا لا طريقَ لي قطّ. [٢٠٠ظ]

---

[1] عقبة بن أبي مُعيط قُتل يوم بدر كافرًا، واسم أبي مُعيط أبان بن أبي عمرو ذكوان بن أميّة بن عبد شمس بن عبد مناف القرشي. **تهذيب الأسماء واللغات** للنووي، ١/٣٣٧.

[2] س: عليه السلام.

[3] هو عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح قيس بن عصمة الأنصاري الأوسي، أبو سليمان (ت. ٤هـ/٦٢٥م)، مِن السابقين الأوّلين مِن الأنصار. شهِد بدرًا وأحُدًا مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، واستشهد يوم الرجيع، ورثاه حسّان بن ثابت. انظر: **الإصابة** لابن حجر، ٣/٤٦٠؛ **والاعلام** للزركلي، ٣/٢٤٨.

[4] **الكشف والبيان** للثعلبي، ٧/١٣٠؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٣/٢٧٦.

﴿يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا ٢٨﴾

﴿يَٰوَيۡلَتَىٰ﴾ بقَلبِ "ياء المتكلّم" ألِفًا، كما في "صحارَى" و"مَدارَى".[1] وقُرئ على الأصل: "يَا وَيْلَتِيْ"،[2] أي: هَلَكَتي تَعالَي واحضُري فهذا أوانُكِ، ﴿لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا﴾ يريد مَن أضلّه في الدنيا، فإنّ ﴿فُلَانًا﴾ كناية عن الأعلام، كما أنّ "الْهَنَ" كناية عن الأجناس.[3] وقيل: "فُلان" كناية عن علَم ذكور مَن يعقل، و"فُلانة" عن علَم إناثهم. و"فُلٌ" كناية عن نكرة مَن يعقل مِن الذكور، و"فُلَة" عمّن يعقل مِن الإناث، و"الفُلان" و"الفُلانة" عن غير العاقل، ويختصّ "فُلٌ" بالنداء إلّا في ضرورة، كما في قوله:

فـي لَـجّـة[4] أَمْـسِـكْ فـلانًـا عـن فُـلِ[5]

وقولِه:

خــذا حَــدِّثــانِــي عــن فُــلٍ وفــلانِ[6]

وليس "فُل" مرخّمًا مِن "فُلان" خلافًا للفرّاء.[7] واختلفوا في لام "فُلٍ" و"فُلان"، فقيل: "واو"، وقيل: "ياء".

هذا، فإن أريدَ بـ﴿ٱلظَّالِمُ﴾ عُقبة فـ"فُلان" كناية عن أُبيّ، وإن أريدَ به الجِنسُ فهو كناية عن عَلَم كلِّ مَن يُضلّه كائنًا مَن كان مِن شياطين الإنس والجنّ، وهذا التمنّي منه وإن كان مَسوقًا لإبراز الندَم والحسْرة لكنّه متضمّن لنوع تعلّلٍ واعتذارٍ بِتَوريك[8] جنايته إلى الغير.

---

[1] وفي هامش م: جمع "مَدراء" تأنيث "أمدَر"، وهو ضخم النطق. «منه». | انظر: لسان العرب لابن منظور، «مدر».

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٤٨.

[3] انظر: المُغرب للمطرّزي، «هنو».

[4] وفي هامش م: "اللَّجّة" كثرة الأصوات. «منه». | الصحاح للجوهري، «لجج».

[5] صدره:

تَــدافُــعَ الـشـيـبُ ولَــم تـقْـتـلِ

وهو لأبي النجم في الصحاح للجوهري، «فلل»؛ ولسان العرب لابن منظور، «فلل».

[6] وفي هامش م: تمامه:

لعلّي أرى بـاقٍ على الحدثانِ

وهو لأبي العبّاس التطيلي في الحماسة المغربيّة للجراوي، ٨٨٧/٢.

[7] انظر: شرح الرضيّ على الكافية، ٤٣٠/١.

[8] تَوريك الرجلِ ذنبَه غيرَه كأنّه يُلزمه إيّاه. ووَرَّكَ فلانٌ ذنبَه على غيره تَوريكًا إذا أضافه إليه وقَرفَه به. لسان العرب لابن منظور، «ورك».

﴿لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ۝٢٩﴾

وقوله تعالى:[1] ﴿لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ﴾ تعليل لتمنّيه المذكور وتوضيح لتَعلّله. وتصديره بـ"اللام" القسَميّة للمبالغة في بيان خَطئه، وإظهارِ ندَمه وحسْرته، أي: واللهِ لقد أضلّني عن ذكر الله تعالى، أو عن القرآن، أو عن موعظة الرسول صلّى الله عليه وسلّم، أو كلمة الشهادة، ﴿بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي﴾ وتمكّنت منه.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾ أي: مبالِغًا في الخذلان حيث يواليه حتّى يؤدّيه إلى الهلاك، ثمّ يتركه ولا ينفعه اعتراض مقرّر لمَضمون ما قبله، / إمّا مِن جِهته تعالى، أو مِن تمام كلام الظالم، على أنّه سمّى خليله شيطانًا بعد وصفه بالإضلالِ الذي هو أخصّ الأوصاف الشيطانيّة، أو على أنّه أراد بـ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ إبليس؛ لأنّه الذي حمله على مُخالّة المضلّين ومخالفةِ الرسول الهادي عليه السلام بوسوسته وإغوائه، فإنّ وصفه بالخِذلان يُشعر بأنّه كان يَعِدُه في الدنيا، ويُمَنِّيه بأنّه ينفعه في الآخرة، وهو أوفق لحال إبليس. [٢٠١و]

﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِي ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ۝٣٠﴾

﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ﴾ عطفٌ على قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾،[2] وما بينهما اعتراض مَسوق لاستعظام ما قالوه، وبيانِ ما يَحيق بهم في الآخرة مِن الأهوال والخطوب. وإيرادُه عليه السلام بعنوان الرسالة لتحقيق الحقّ والردّ على نحورهم حيث كان ما حُكِي عنهم قدحًا في رسالته عليه السلام، أي: قالوا: كَيت وكَيت، وقال الرسول إثرَ ما شاهد منهم غاية العتوّ ونهاية الطغيان بطريق البثّ إلى ربّه عزّ وجلّ: ﴿يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِي﴾ يعني الذين حُكي عنهم ما حُكِي مِن الشنائع ﴿ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ الذي مِن جملته هذه الآيات الناطقة بما يَحيق بهم في الآخرة مِن فنون العقاب كما ينبئ عنه كلمة الإشارة.

﴿مَهْجُورًا﴾ أي: متروكًا بالكلّيّة، ولم يؤمنوا به، ولم يرفعوا إليه رأسًا، ولم يتأثّروا بوعيده، وفيه تلويح بأنّ مِن حقّ المؤمن أن يكون كثيرَ التعاهُد للقرآن،

---

[1] م - تعالى.

[2] الفرقان، ٢١/٢٥.

كيلا يندرج تحت ظاهر النظم الكريم، فإنّه رُوي عنه صلّى الله عليه وسلّم: «مَن تعلّم القرآن وعلّق مصحفًا لم يتعاهده ولم ينظر فيه جاء يوم القيامة متعلّقًا به يقول: يا ربّ العالمين عبدُك هذا اتّخذني مهجورًا، اقضِ بيني وبينه».[١]

[٢٠١ظ] وقيل: هو مِن "هَجَرَ" إذا هَذَا، أي: جعلوه مهجورًا فيه، / إمّا على زعمهم الباطل، وإمّا بأن هَجَروا فيه إذا سمعوه، كما يُحكَى عنهم مِن قولهم: ﴿لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ﴾ [فصلت، ٤١/٢٦].

وقد جُوّز أن يكون "المَهجور" بمعنى "الهَجْر" كالمَجلود والمعقول، فالمعنى: اتّخذوه هَجْرًا وهذيانًا. وفيه مِن التحذير والتخويف ما لا يخفى، فإنّ الأنبياء إذا شكَوا إلى الله عزّ وعلا[٢] قومَهم عُجّل لهم العذاب، ولم يُنْظَروا.

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ تسلية لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وحَملٌ له على الاقتداء بمَن قبله مِن الأنبياء عليهم السلام، أي: كما جعلنا لك أعداءً مِن المشركين يقولون ما يقولون ويفعلون ما يفعلون مِن الأباطيل، جعلنا لكلّ نبيّ مِن الأنبياء الذين هم أصحاب الشريعة والدعوة إليها عدوًّا مِن مجرمي قومهم، فاصبر كما صبروا.

وقوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ وعدٌ كريم له عليه السلام بالهداية إلى كافّة مَطالبه، والنصرِ على أعدائه، أي: كفاك مالِكُ أمرِك ومبلّغك إلى الكمال هاديًا لك إلى ما يوصلك إلى غاية الغايات التي مِن جملتها تبليغ الكتاب أجلَه، وإجراءُ أحكامه في أكناف الدنيا إلى يوم القيامة، ونصيرًا لك على جميع مَن يعاديك.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾﴾

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ حكاية لاقتراحهم الخاصّ بالقرآن الكريم بعد حكاية

---

[١] الكشف والبيان للثعلبي، ١٣٢/٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٢٧٧/٣.

[٢] س: تعالى.

اقتراحهم في حقّه عليه السلام، والقائلون هم القائلون أوّلًا، وإيرادهم بعنوان الكفر لذمّهم به، والإشعارِ بعلّة الحكم.

﴿لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ﴾ "التنزيل" ههنا مجرّد عن معنى التدريج كما في قوله تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُكَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيۡهِمۡ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [النساء، ١٥٣/٤]. ويجوز أن يُراد به الدلالة على كثرة المنزَّل في نفسه، أي: هلّا أُنزِل كلّه ﴿جُمۡلَةً وَٰحِدَةً﴾ كالكتب الثلاثة.

وبطلان هذه الكلمة الحمقاءِ ممّا لا يكاد يخفى على أحد، فإنّ الكتب المتقدّمة لم يكن شاهدُ صحّتِها ودليلُ كونها مِن عند الله تعالى / إعجازَها، [٢٠٢و] وأمّا القرآن الكريم فبيّنةُ صحّتِه وآيةُ كونِه مِن عند الله عزّ وجلّ[1] نظمُه المعجِز الباقي على مرّ الدهور المتحقِّقُ في كلّ جزء مِن أجزائه المقدّرة بمقدار أقصر السوَر حسبما وقع به التحدّي، ولا ريب في أنّ ما يدور عليه فلَك الإعجاز هو المطابقة لِما يقتضيه الأحوال، ومِن ضرورة تغيّرها وتجدّدها تغيّرُ ما يطابقها حتمًا، على أنّ فيه فوائدَ جمّة قد أشيرَ إلى بعضٍ منها بقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ فإنّه استئناف وارد مِن جهته تعالى لردّ مقالتهم الباطلة، وبيانِ الحكمة في التنزيل التدريجي.

ومحلّ "الكاف" النصب على أنّها صفة لمصدرٍ مؤكِّدٍ لمُضمَر معلَّل بما بعده، وذلك إشارة إلى ما يُفهم مِن كلامهم، أي: مثلَ ذلك التنزيل المفرَّقِ الذي قدحوا فيه واقترحوا خلافَه نزّلناه، لا تنزيلًا مغايرًا له؛ لنُقوّي بذلك التنزيل المفرَّق فؤادَك، فإنّ فيه تيسيرًا لحِفظ النظم، وفهمِ المعاني، وضبطِ الأحكام، والوقوفِ على تفاصيل ما رُوعي فيها مِن الحِكَم والمصالح المبنيّة على المناسبة، على أنّها مَنوطة بأسبابها الداعية إلى شرعها ابتداءً أو تبديلًا بالنسخ مِن أحوال المكلّفين. وكذلك عامّة ما ورد في القرآن المجيد مِن الأخبار وغيرها، متعلّقةٌ بأمور حادثة مِن الأقاويل والأفاعيل، ومِن قضيّة تجدّدها تجدّدُ ما يتعلّق بها، كالاقتراحات الواقعة مِن الكفرة الداعيةِ إلى حكايتها وإبطالها،

---

[1] س: تعالى.

وبيانِ ما يئول إليه حالهم في الآخرة، على أنّهم في هذا الاقتراح كالباحث عن حَتفه بظِلْفه، حيث أُمِروا بالإتيان بمِثل نوبةٍ مِن نُوَبِ التنزيل، فظهر عجزهم عن المعارضة، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت، فكيف لو تُحُدُّوا بكلّه.

وقوله تعالى: ﴿وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا﴾ عطفٌ على ذلك المُضمَر. وتنكير ﴿تَرۡتِيلٗا﴾ للتفخيم، أي: كذلك نزّلناه ورتّلناه ترتيلًا / بديعًا لا يُقادَر قدرُه، ومعنى "ترتيله" تفريقُه آيةً بعد آية، قاله النخعي والحسَن وقتادة رحمهم الله.[1] وقال ابن عبّاس رضي الله عنهما: «بيّنّاه بيانًا فيه ترتيل وتثبيت».[2] وقال السدّي: «فصّلناه تفصيلًا».[3] وقال مجاهد: «جعلنا بعضه في إثر بعض».[4] [٢٠٢ظ]

وقيل: هو الأمر بترتيل قراءته بقوله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا﴾ [المزمل، ٤/٧٣]. وقيل: قرأناه عليك بلسان جبريل شيئًا فشيئًا في عشرين أو في ثلاثٍ وعشرين سنةً على تُؤَدة وتَمهّل.

﴿وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا ۝٣٣﴾

﴿وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾ مِن الأمثال التي مِن جملتها ما حُكِي مِن اقتراحاتهم القبيحة الخارجة عن دائرة العقول الجاريةِ لذلك مَجرى الأمثال، أي: لا يأتونك بكلام عجيب هو مَثَل في البطلان يريدون به القَدْح في حقّك وحقِّ القرآن ﴿إِلَّا جِئۡنَٰكَ﴾ في مقابلته ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ أي: بالجواب الحقّ الثابت الذي يُنحِي عليه بالإبطال، ويحسِم مادّة القيل والقال، كما مرّ مِن الأجوبة الحَقّة القالعة لعروق أَسْوِلتِهم[5] الشنيعة الدامغة لها بالكلّيّة.

وقوله تعالى: ﴿وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا﴾ عطفٌ على ﴿ٱلۡحَقِّ﴾، أي: جئناك بأحسنَ تفسيرًا، أو على محلّ ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾، أي: آتيناك الحقّ وأحسنَ تفسيرًا، أي: بيانًا[6]

---

[1] س – رحمهم الله.
[2] التفسير الوسيط للواحدي، ٣٤٠/٣؛ اللباب لابن عادل، ٥٢٩/١٤.
[3] التفسير الوسيط للواحدي، ٣٤٠/٣؛ اللباب لابن عادل، ٥٢٩/١٤.
[4] التفسير الوسيط للواحدي، ٣٤٠/٣؛ اللباب لابن عادل، ٥٢٩/١٤.
[5] "أسوِلة" لغة في "أسئلة"، مفردها سوال. انظر: لسان العرب لابن منظور، «سول».
[6] م: معنًى ["صح" في الهامش].

وتفصيلًا،[١] على معنى أنّه في غاية ما يكون مِن الحُسن في حدّ ذاته، لا أنّ ما يأتون به له حُسن في الجملة وهذا أحسنُ منه كما مرّ.

والاستثناء مفرّغ محلّه النصب على الحاليّة، أي: لا يأتونك بمَثَلٍ إلّا حالَ إيتائنا إيّاك الحقَّ الذي لا مَحيد عنه. وفيه مِن الدلالة على المسارعة إلى إبطال ما أَتَوا به وتثبيتِ فؤاده عليه السلام ما لا يخفى.

وهذا بعبارته ناطق ببطلان جميع الأَسْوِلة، وبصحّة جميع الأجوبة، وبإشارته مُنبِئٌ عن بطلان السؤال الأخير وصحّة جوابه، إذ لولا أنّ تنزيل القرآن على التدريج لَما أمكن إبطال تلك الاقتراحات الشنيعة، ولَما حصل تثبيتُ فؤادِه عليه السلام / مِن تلك الحيثيّة. [٢٠٣و]

هذا، وقد جوّز أن يكون "المَثَل" عبارة عن الصفة الغريبة التي كانوا يقترحون كونه عليه السلام عليها، مِن مقارنة الملَك، والاستغناءِ عن الأكل والشرب، وحيازةِ الكنز والجنّة، ونزولِ القرآن عليه جملةً واحدة، على معنى: لا يأتونك بحالة عجيبة يقترحون اتّصافك بها قائلين: هلّا كان على هذه الحالة، إلّا أعطيناك نحن مِن الأحوال الممكنة ما يحقّ لك في حكمتنا ومشيئتنا أن تُعطاه، وما هو أحسنُ تكشيفًا لِما بُعثتَ عليه، ودلالةً على صحّته، وهو الذي أنت عليه في الذات والصفات.[٢]

ويأباه الاستثناء المذكور، فإنّ المتبادر منه أن يكون ما أعطاه الله تعالى مِن الحقّ مترتّبًا على ما أَتَوا به مِن الأباطيل دامغًا لها، ولا ريب في أنّ ما آتاه الله تعالى مِن المَلَكات السنيّة اللائقة بالرسالة قد آتاه مِن أوّل الأمر، لا بمقابلة ما حُكي عنهم مِن الاقتراحات لأجل دَمغِها وإبطالِها.

﴿ٱلَّذِينَ يُحۡشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ٣٤﴾

﴿ٱلَّذِينَ يُحۡشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ أي: يُحشَرون كائنين على وجوههم، يُسحبون عليها ويُجرّون إلى جهنّم. وقيل: مقلوبين وجوههم على قفاهم

---

[١] م: ومؤدّى ["صح" في الهامش].

[٢] الكشّاف للزمخشري، ٣/٢٧٩.

وأرجلهم إلى فوق. رُوي عنه عليه السلام: «يُحشر الناس يوم القيامة على ثلاثة أثلاثٍ؛ ثلُث على الدوابّ، وثلُث على وجوههم، وثلُث على أقدامهم ينسلون نسلًا».[١]

وأمّا ما قيل: متعلّقة قلوبُهم بالسفليّات متوجّهة وجوههم إليها،[٢] فبعيد؛ لأنّ هَول ذلك اليوم ليس بحيث يبقى لهم عنده تعلّق بالسفليّات، أو توجّه إليها في الجملة.

ومحلّ الموصول إمّا النصب، أو الرفع على الذمّ، أو الرفع على الابتداء، وقوله تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ بدل منه، أو بيان له، وقوله تعالى:[٣] ﴿شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ خبر له، أو اسم الإشارة مبتدأ ثانٍ، و﴿شَرٌّ﴾ خبره، / والجملة خبر للموصول. ووصف "السبيل" بالضلال مِن باب الإسناد المجازي للمبالغة، والمفضّلُ عليه الرسول صلّى الله عليه وسلّم، على منهاجِ قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم[٤] بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ [المائدة، ٦٠/٥]، كأنّه قيل: إنّ حامِلَهم على هذه الاقتراحات تحقيرُ مكانِه عليه السلام بتضليل سبيله، ولا يعلمون حالهم ليعلموا أنّهم شرّ مكانًا وأضلّ سبيلًا. وقيل: هو متّصل بقوله تعالى: ﴿أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ[٥] خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾.[٦]

[٢٠٣ظ]

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَـٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾﴾

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ﴾ جملة مستأنَفة سيقت لتأكيد ما مرّ مِن التسلية والوعد بالهداية والنصر في قوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾[٧] بحكاية ما جرى بين مَن ذُكر مِن الأنبياء عليهم السلام وبين قومهم حكايةً إجماليّةً كافيةً فيما هو المقصود.

---

١ الكشف والبيان للثعلبي، ١٣٣/٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٢٧٩/٣. وأخرجه بنحوه الترمذي في السنن، ٣٠٥/٥.

٢ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٢٤/٤.

٣ م - تعالى.

٤ م ط س: قل أأنبئكم.

٥ م ط س - يومئذٍ.

٦ الفرقان، ٢٤/٢٥.

٧ الفرقان، ٣١/٢٥.

و"اللام" جواب لقسم محذوف، أي: وباللهِ لقد آتينا موسى **التوراة**، أي: أنزلناها عليه بالآخرة، ﴿وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ﴾ الظرف متعلّق بـ﴿جَعَلْنَا﴾، وقوله تعالى: ﴿أَخَاهُ﴾ مفعول أوّل له، وقوله تعالى: ﴿هَٰرُونَ﴾ بدل مِن ﴿أَخَاهُ﴾، أو عطفُ بيانٍ له على عكس ما وقع في سورة طه،[1] وقوله تعالى: ﴿وَزِيرًا﴾ مفعول ثان له، وقد مرّ ثمّة معنى "الوزير"، أي: جعلناه في أوّل الأمر وزيرًا له.

﴿فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾﴾

﴿فَقُلْنَا﴾ لهما حينئذٍ: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ هم فرعونُ وقومه. و"الآيات" هي المعجزات التسع المفصَّلات الظاهرة على يدَي موسى عليه السلام. ولم يُوصَف القومُ لهما عند إرسالهما إليهم بهذا الوصف ضرورةَ تأخّر تكذيب الآيات عن إظهارها المتأخّر عن ذهابهما المتأخّر عن الأمر به؛ بل إنّما وُصِفوا بذلك عند الحكاية لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم بيانًا لِعلّة استحقاقهم لِما يُحكى بعده مِن التدمير، أي: فذهبا / إليهم فأَرَياهم آياتِنا كلَّها فكذّبوها تكذيبًا مستمِرًّا، ﴿فَدَمَّرْنَٰهُمْ﴾ إثر ذلك التكذيب المستمرّ ﴿تَدْمِيرًا﴾ عجيبًا هائلًا لا يُقادَرُ قَدرُه ولا يُدرَك كُنهُه، فاقتُصر على حاشيتَي القصّة اكتفاءً بما هو المقصود. [٢٠٤و]

وحملُ قوله تعالى: ﴿فَدَمَّرْنَٰهُمْ﴾ على معنى: فحكمنا بتدميرهم[2] -مع كونه تعسّفًا ظاهرًا- ممّا لا وجه له، إذ لا فائدةَ يُعتدّ بها في حكاية الحُكم بتدمير قد وقع وانقضى.

والتعرّض في مطلع القصّة لإيتاء الكتاب مع أنّه كان بعد مَهلِك القوم، ولم يكن له مدخل في هلاكهم كسائر الآيات، للإيذان مِن أوّل الأمر ببلوغِه عليه السلام غايةَ الكمال ونيلهِ نهايةَ الآمال التي هي إنجاءُ بني إسرائيل مِن مَلَكة فرعونَ، وإرشادُهم إلى طريق الحقّ بما في **التوراة** مِن الأحكام، إذ به يحصل تأكيد الوعد بالهداية على الوجه الذي مرّ بيانه.

---

١ في قوله تعالى: ﴿وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى﴾ [طه، ٢٠/٢٩-٣٠].

٢ انظر: **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١٢٤/٤.

وقُرِئ: "فَدَمَّرْتُهُمْ"،[١] و"فَدَمِّرَاهُمْ"،[٢] و"فَدَمِّرَانِّهِمْ"[٣] على التأكيد بالنون الثقيلة.

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾﴾

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ﴾ منصوب بمُضمَر يدلّ عليه قوله تعالى: ﴿فَدَمَّرْنَٰهُمْ﴾،[٤] أي: ودمّرنا قومَ نوح. وقيل: عطفٌ على مفعول ﴿فَدَمَّرْنَٰهُمْ﴾،[٥] وليس مِن ضرورة ترتّبِ تدميرهم على ما قبله ترتّبُ تدميرِ هؤلاء عليه، لا سيّما وقد بُيّن سببُه بقوله تعالى: ﴿لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ﴾ أي: نوحًا ومَن قَبله مِن الرسل، أو نوحًا وحده؛ لأنّ تكذيبه تكذيب للكلّ؛ لاتّفاقهم على التوحيد والإسلام.

وقيل: هو منصوب بمُضمَر يفسّره قوله تعالى: ﴿أَغْرَقْنَٰهُمْ﴾، وإنّما يتسنّى ذلك على تقدير كون كلمة ﴿لَّمَّا﴾ ظرف زمان، وأمّا على تقدير كونها حرفَ وجودٍ لِوجودٍ فلا؛ لأنّه حينئذ جواب لها، وجوابُ ﴿لَّمَّا﴾ لا يفسّر ما قبله، مع أنّه مخِلّ بعطف المنصوبات الآتية على ﴿قَوْمَ نُوحٍ﴾، لِما أنّ إهلاكهم ليس بالإغراق، فالوجه ما تقدّم. وقوله تعالى: ﴿أَغْرَقْنَٰهُمْ﴾ استئناف مبيّن لكيفيّة تدميرهم.

﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ﴾ أي: جعلنا إغراقهم أو قصّتهم ﴿لِلنَّاسِ ءَايَةً﴾ أي: آية عظيمة يَعتبر بها كلّ مَن شاهدها أو سمعها، وهي مفعول ثانٍ لـ"جَعَلنا"، و﴿لِلنَّاسِ﴾ ظرف لَغوٌ له، أو متعلّق بمحذوف وقع حالًا / مِن ﴿ءَايَةً﴾، إذ لو تأخّر عنها لكان صفةً لها. [٢٠٤ظ]

﴿وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: لهم. والإظهار في موقع الإضمار للإيذان بتجاوزهم الحدّ في الكفر والتكذيب. ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ هو عذاب الآخرة، إذ لا فائدة في الإخبار بإعتاد العذاب الذي قد أُخبرَ بوقوعه مِن قبل، أو لجميع الظالمين الباقين الذين لم يَعتبروا بما جرى عليهم مِن العذاب فيدخل في زمرتهم قريش دخولًا أوّليًا، ويحتمل العذابَ الدنيوي والأخروي.

---

[١] قراءة شاذّة، عزاها الزمخشري إلى عليّ رضي الله عنه. انظر: **الكشّاف** للزمخشري، ٣/٢٨٠.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ ومسلمة بن محارب. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٤٨.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ ومسلمة بن محارب. **المحتسب** لابن جنّي، ٢/١٢٢.

[٤] في الآية السابقة.

[٥] في الآية السابقة.

﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونَۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ۝٣٨﴾

﴿وَعَادًا﴾ عطفٌ على ﴿قَوْمَ نُوحٍ﴾.[1] وقيل: على المفعول الأوّل لـ﴿جَعَلْنَٰهُمْ﴾.[2] وقيل: على محلّ ﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾،[3] إذ هو في معنى: وعدنا الظالمين،[4] وكلاهما بعيد. ﴿وَثَمُودَاْ﴾ الكلام فيه وفيما بعده كما فيما قبله. وقُرِئ: "وَثَمُودًا"[5] على تأويل الحيّ، أو على أنّه اسم الأب الأقصى.

﴿وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ﴾ هم قوم يعبدون الأصنام، فبعث الله تعالى إليهم شعيبًا عليه السلام، فكذّبوه، فبينما هم حَول الرسّ -وهي البئر التي لم تُطْوَ بعدُ- إذ انهارَت فخُسف بهم وبديارهم. وقيل: ﴿ٱلرَّسِّ﴾ قرية بفلج اليمامة[6] كان فيها بقايا ثمود، فبُعث إليهم نبيّ فقتلوه، فهلكوا. وقيل: هو الأُخدود. وقيل: بئر بأنطاكيّة قتلوا فيها حبيبًا النجّار.

وقيل: هم أصحاب حنظلة بن صفوان النبيّ عليه السلام، ابتلاهم الله تعالى بطيرٍ عظيم، كان فيها مِن كلّ لَون، وسمَّوها عنقاء لطول عُنقها، وكانت تسكن جبَلهم الذي يقال له: فَتْخٌ أو دَمخ، فتنقضّ على صبيانهم فتختَطِفهم[7] إن أعوَزها الصيد، ولذلك سمّيت مُغربًا،[8] فدعا عليها حنظلة عليه السلام، فأصابتها الصاعقة، ثمّ إنّهم قتلوه عليه السلام فأُهلِكوا. وقيل: / قوم كذّبوا رسولَهم، [٢٠٥و] فرَسُّوه -أي: دَسُّوه- في بئر.

﴿وَقُرُونًا﴾ أي: أهلَ قُرونٍ. قيل: القَرن أربعون سنةً. وقيل: سبعون. وقيل: مائة. وقيل: مائة وعشرون. ﴿بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ أي: بين ذلك المذكور مِن الطوائف والأمم.

---

١ في الآية السابقة.
٢ في الآية السابقة. | أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٢٤/٤.
٣ في الآية السابقة.
٤ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٢٤/٤.
٥ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر والكسائي وخلف وشعبة. النشر لابن الجزري، ٢٨٩/٢.
٦ الفَلج: الماء الجاري مِن العين. وفَلج: مدينة بأرض اليمامة لبَني جَعدة وقُشير وكعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة. معجم البلدان للحموي، ٢٧١/٤.
٧ س: فتخطفهم.
٨ م ط س: "مُغريا". | والصواب بالباء الموحدة. انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ١٣٤/٧؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١٢٥/٤، وقال الثعلبي: «فسمّيت عنقاءَ "مُغرب" لأنّها تَغرُب بما تأخذه وتذهب به».

وقد يذكر الذاكر أشياءَ مختلفة ثمّ يشير إليها بـ"ذلك"، ويحسُب الحاسب أعدادًا متكاثرة ثمّ يقول: "فذلك كيت وكيت" على ذلك المذكور وذلك المحسوب.

﴿كَثِيرًا﴾ لا يَعلم مقدارَها إلّا العليم الخبير. ولعلّ الاكتفاءَ في شئون تلك القرون بهذا البيان الإجمالي لِما أنّ كلّ قَرْن منها لم يكن في الشهرة وغرابة القصّة بمثابة الأمم المذكورة.

﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ۝٣٩﴾

﴿وَكُلًّا﴾ منصوب بمُضمَر يدلّ عليه ما بعده، فإنّ ضرب المَثَل في معنى التذكير والتحذير. والمحذوف الذي عُوِّض عنه التنوين عبارةٌ إمّا عن الأمم التي لم يُذكر أسباب إهلاكهم، وإمّا عن الكلّ، فإنّ ما حُكي عن قوم نوح وقوم فرعونَ تكذيبُهم للآيات والرسل، لا عدمُ التأثّر مِن الأمثال المضروبة، أي: ذَكَّرْنا وأنذَرْنا كلَّ واحد مِن المذكورين. ﴿ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ﴾ أي: بيّنّا له القَصص العجيبة الزاجِرة عمّا هم عليه مِن الكفر والمعاصي بواسطة الرسل.

﴿وَكُلًّا﴾ أي: كلَّ واحدٍ منهم، لا بعضَهم دون بعضٍ[1] ﴿تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾ عجيبًا هائلًا، لِما أنّهم لم يتأثّروا بذلك، ولم يرفعوا له رأسًا، وتمادَوا على ما هم عليه مِن الكفر والعدوان. وأصل "التَتبِير" التفتيت. قال الزجّاج: «كلّ شيء كسَّرتَه وفَتّتَّه فقد تبّرتَه، ومنه "التِبْر" لفُتاتِ الذهب والفضّة».[2]

﴿وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ۝٤٠﴾

[٢٠٥ظ] ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا۟﴾ / جملة مستأنَفة مَسوقة لبيان مشاهدتهم لآثار هلاك بعض الأمم المتبّرة وعدم اتّعاظهم بها. وتصديرها بالقسَم لمزيد تقرير مضمونها، أي: وباللهِ لقد أتى قريش في متاجرهم إلى الشام ﴿عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ﴾ أي: أُهلِكت بالحجارة. وهي قرى قوم لوط، وكانت خمسَ قرى ما نجَت منها إلّا واحدةٌ

---

[1] س - بعضٍ.

[2] معاني القرآن للزجّاج، ٤/١٦٨.

كان أهلُها لا يعملون العمل الخبيث، وأمّا البواقي فأهلكها الله تعالى بالحجارة، وهي المرادة بقوله تعالى: ﴿مَطَرَ ٱلسَّوْءِ﴾، وانتصابُه إمّا على أنّه مصدر مؤكِّد بحذف الزوائد، كما قيل في "أنبتَه الله نباتًا حسنًا"،[1] أي: إمطارَ السَّوء، أو على أنّه مفعول ثانٍ، إذ المعنى: أُعطِيَت، أو أُولِيَت مطرَ السَّوء.

﴿أَفَلَمْ يَكُونُواْ يَرَوْنَهَا﴾ توبيخ لهم على تركهم التذكّرَ عند مشاهدة ما يوجبه. و"الهمزة" لإنكار نفي استمرار رؤيتهم لها، وتقريرِ استمرارها حسبَ استمرار ما يوجبها مِن إتيانهم عليها، لا لإنكار استمرار نفي رؤيتِهم وتقريرِ رؤيتهم لها في الجملة. و"الفاء" لعطف مدخولها على مقدّر يقتضيه المقام، أي: أَلَم يكونوا ينظرون إليها فلَم يكونوا يرونها، أو أكانوا ينظرون إليها فلم يكونوا يرونها في مِرار مرورهم ليتّعظوا بما كانوا يشاهدونها مِن آثار العذاب. فالمُنكَر في الأوّل ترك النظر وعدمُ الرؤية معًا، وفي الثاني عدمُ الرؤية مع تحقّق النظر الموجِب لها.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ كَانُواْ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾ إمّا إضراب عمّا قبله مِن عدم رؤيتهم لآثارِ ما جرى على أهل القرى مِن العقوبة، وبيانٌ لكون عدم اتّعاظهم بسبب إنكارهم، لكون ذلك عقوبةً لمعاصيهم، لا لعدم رؤيتهم لآثارها، خلا أنّه اكتُفِي عن التصريح بإنكارهم ذلك بذِكر ما يستلزمه مِن إنكارهم للجزاء الأخروي الذي هو الغاية مِن خلق العالم. وقد كُنِي عن ذلك بعدم رجاء النشور، أي: / عدمِ توقّعه، كأنّه قيل: بل كانوا يُنكرون النشور المستتبع للجزاء [٢٠٦و] الأخروي، ولا يرون لنفسٍ مِن النفوس نشورًا أصلًا مع تحقّقه حتمًا وشموله للناس عمومًا، واطّراده وقوعًا، فكيف يعترفون بالجزاء الدنيوي في حقّ طائفة خاصّة مع عدم الاطّراد والملازمة بينه وبين المعاصي حتّى يتذكّروا ويتّعظوا بما شاهدوه مِن آثار الهلاك، وإنّما يحملونه على الاتّفاق؟

وإمّا انتقال[2] مِن التوبيخ بما ذُكر مِن ترك التذكّر إلى التوبيخِ بما هو أعظم منه مِن عدم توقّع النشور.

---

[1] قال تعالى في شأن مريم: ﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ [آل عمران، ٣/٣٧].

[2] السياق: إمّا إضراب... وإمّا انتقال...

﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾﴾

﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾[١] أي: ما يتّخذونك إلّا مهزوءًا به، على معنى قَصر معاملتهم معه عليه السلام على اتّخاذهم[٢] إيّاه عليه السلام هزؤًا، لا على معنى قَصر اتّخاذهم على كونه هزؤًا كما هو المتبادر مِن ظاهر العبارة، كأنّه قيل: ما يفعلون بك إلّا اتّخاذك هزؤًا، وقد مرّ تحقيقه في قوله تعالى: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ مِن سورة الأنعام [الأنعام، ٦/٥٠].

وقوله تعالى: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾ محكيّ بعد قول مُضمَر هو حال مِن فاعل ﴿يَتَّخِذُونَكَ﴾، أي: يستهزئون بك قائلين: أهذا الذي... إلخ. والإشارة للاستحقار. وإبراز بَعث الله رسولًا في مَعرض التسليم بجعله صلة للموصول الذي هو صفته عليه السلام مع كونهم في غاية النكير لبعثه عليه السلام بطريق التهكّم والاستهزاء، وإلّا لقالوا: أَبَعث الله هذا رسولًا؟ أو أهذا يزعم أنّه بعثه الله رسولًا؟

﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾

﴿إِن كَادَ﴾ ﴿إِن﴾ مخفّفة مِن "إنّ". وضمير الشأن محذوف، أي: إنّه كاد ﴿لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا﴾ أي: لَيَصرِفُنا عن عبادتها صرفًا كلّيًا بحيث يُبَعّدُنا عنها، لا عن عبادتها فقط. والعدول إلى الإضلال لغاية ضلالهم بادّعاء أنّ عبادتها طريق سَوِيّ.

[٢٠٦ظ] ﴿لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ ثَبتْنا عليها واستَمسكنا بعبادتها. و"لولا" / في أمثال هذا الكلام يجري مَجرى التقييد للحكم المطلق مِن حيث المعنى، كما أشيرَ إليه في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ﴾... إلخ [يوسف، ١٢/٢٤]. وهذا اعتراف منهم بأنّه صلّى الله عليه وسلّم قد بلغ مِن الاجتهاد في الدعوة إلى الحقّ

---

[١] م ط س: هُزُؤًا. | وقرأ بالهمز جميع القرّاء العشر غير حفص. انظر: النشر لابن الجزري، ٢/٢١٥.

[٢] س: اتّخادهم.

وإظهارِ المعجزات وإقامةِ الحُجج والبيّنات إلى حيث شارفوا أن يتركوا دينهم لولا فرطُ لَجاجهم وغايةُ عنادهم. يروى أنّه مِن قول أبي جَهل.[١]

﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ جواب مِن جهته تعالى لآخر كلامهم، وردٌّ لِما يُنبئ عنه مِن نسبته عليه السلام إلى الضلال في ضمن الإضلال، أي: سوف يعلمون البتّة وإن تراخى ﴿حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ﴾ الذي يستوجبه كفرُهم وعِنادهم ﴿مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ وفيه ما لا يخفى مِن الوعيد والتنبيه على أنّه تعالى لا يُهملهم وإن أمهلهم.

﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾﴾

﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ تعجيب لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم مِن شناعة حالهم بعد حكاية قبائحهم مِن الأقوال والأفعال، وبيانِ ما لهم مِن المصير والمآل، وتنبيهٌ على أنّ ذلك مِن الغرابة بحيث يجب أن يُرى ويُتعجّب منه.

و﴿إِلَٰهَهُۥ﴾ مفعول ثانٍ لـ﴿ٱتَّخَذَ﴾ قُدّم على الأوّل للاعتناء به؛ لأنّه الذي يدور عليه أمر التعجيب. ومَن توهّم أنّهما على الترتيب بناء على تساويهما في التعريف فقد زلّ عنه أنّ المفعول الثاني في هذا الباب هو المتلبّس بالحالة الثانية،[٢] أي: أرأيت مَن جعل هواه إلهًا لنفسه مِن غير أن يلاحظه، وبنى عليه أمرَ دينه مُعرِضًا عن استماع الحجّة الباهرة والبرهان النيّرِ بالكلّيّة، على معنى: انظر إليه وتعجّب منه.

وقوله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ إنكار واستبعاد لكونه عليه السلام حفيظًا عليه يَزجره عمّا هو عليه مِن الضلال، ويُرشده إلى الحقّ طوعًا أو كرهًا. و"الفاء" لترتيب الإنكار على ما قبله مِن الحالة الموجِبة له، كأنّه قيل: أبَعدَ ما / شاهدتَ غلوَّه في طاعة الهوى وعُتُوَّه عن اتّباع الهدى تقسُره على الإيمان شاء أو أبى؟ [٢٠٧و]

---

[١] انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ١٣٩/٧؛ واللباب لابن عادل، ٥٣٧/١٤.

[٢] م ط س: الحادثة [صُحّح في هامش م].

﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ﴾ إضراب وانتقال عن الإنكار المذكور إلى إنكار حِسبانه عليه السلام لهم ممّن يسمعُ أو يعقل حسبما يُنبئ عنه جِدُّه عليه السلام في الدعوة واهتمامُه بالإرشاد والتذكير، لكن لا على أنّه لا يقع كالأوّل؛ بل على أنّه لا ينبغي أن يقع، أي: بل أتَحسب أنّ أكثرهم يسمعون ما تتلو عليهم مِن الآيات حقّ السماع، أو يعقلون ما في تضاعيفها مِن المواعظ الزاجرة عن القبائح الداعية إلى المحاسن، فتعتني بشأنهم وتطمع في إيمانهم؟ وضمير ﴿أَكْثَرَهُمْ﴾ لـ﴿مَن﴾،[١] وجمعُه باعتبار معناها، كما أنّ الإفراد في الضمائر الأُوَلِ باعتبار لفظها. وضمير الفعلين للأكثر، لا لِما أضيفَ هو إليه.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ﴾... إلخ جملة مستأنَفة مَسوقة لتقرير النكير وتأكيده، وحَسمِ مادّة الحِسبان بالمرّة، أي: ما هم في عدم الانتفاع بما يقرع آذانهم مِن قوارع الآيات وانتفاءِ التدبّر فيما يشاهدونه مِن الدلائل والمعجزات إلّا كالبهائم التي هي مثَلٌ في الغفلة، وعَلَمٌ في الضلالة.

﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ منها ﴿سَبِيلًا﴾ لِما أنّها تنقاد لصاحبها الذي يعلفها ويتعهّدها، وتعرف مَن يُحسن إليها ممّن يُسيء إليها، وتطلب ما ينفعها، وتجتنب ما يضرّها، وتهتدي لمَراعيها ومشاربها، وتأوي إلى مَعاطنها، وهؤلاء لا ينقادون لربّهم وخالقهم ورازقهم، ولا يعرفون إحسانه إليهم / مِن إساءة الشيطان الذي [٢٠٧ظ] هو أعدى عدوّهم، ولا يطلبون الثواب الذي هو أعظم المنافع، ولا يتّقون العقاب الذي هو أشدّ المضارّ والمهالك، ولا يهتدون للحقّ الذي هو المَشرع الهنيّ، والمَورد العذب الرويّ.

ولأنّها إن لم تعتقد حقًّا مستتبعًا لاكتساب الخير لم تعتقد باطلًا مستوجبًا لاقتراف الشرّ، بخلاف هؤلاء حيث مهّدوا قواعد الباطل، وفرّعوا عليها أحكام الشرور، ولأنّ أحكام جهالتها وضلالتها مقصورة على أنفسها لا تتعدّى إلى أحد، وجهالةُ هؤلاء مؤدّية إلى ثَوران الفتنة والفساد، وصَدِّ الناس عن سَنن السداد،

---

[١] في الآية السابقة.

وهَيجان الهرجِ والمرجِ فيما بين العباد، ولأنّها غير معطّلة لِقوّةٍ مِن القوى المودَعة؛ بل صارفة لها إلى ما خُلِقَت هي له، فلا تقصيرَ مِن قِبَلها في طلب الكمال. وأمّا هؤلاء فهم مُعَطِّلون لِقواهم العقليّة، مضيِّعون للفطرة الأصليّة التي فُطر الناس عليها، مستحقّون بذلك أعظم العقاب وأشدّ النِّكال.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾﴾

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ بيان لبعض دلائل التوحيد إثرَ بيان جهالة المعرضين عنها وضلالتهم. والخطاب لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم. و"الهمزة" للتقرير. والتعرّض لعنوان الربوبيّة مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام لتشريفه عليه السلام، وللإيذانِ بأنّ ما يعقبه مِن آثار ربوبيّته تعالى ورحمته تعالى، أي: ألَم تنظر إلى بديع صنعه تعالى ﴿كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ أي: كيف أَنْشأ ظِلَّ أيِّ مُظلٍّ كان مِن جبل أو بناءٍ أو شجر عند ابتداء طلوع الشمس ممتدًّا؟ لا أنّه تعالى مَدَّه بعد أن لم يكن كذلك، كما بعد نصف النهار إلى غروبها، فإنّ ذلك مع خلوّه عن التصريح بكونِ نفسه بإنشائه تعالى وإحداثه يأباه سياق النظم الكريم.

وأمّا ما قيل مِن أنّ المراد بـ﴿ٱلظِّلَّ﴾ ما بين طلوع الفجر وطلوع الشمس، وأنّه أطيب الأوقات، فإنّ / الظُّلمة الخالصة تَنفِر عنها الطباع، وشعاع الشمس يسخّن الجوّ ويُبهر البصر، ولذلك وُصف به الجنّة في قوله تعالى: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ [الواقعة، ٥٦/٣٠][1] فغير سديد، إذ لا ريب في أنّ المراد تنبيه الناس على عظيم قدرة الله عزّ وجلّ وبالِغ حكمته فيما يشاهدونه. [٢٠٨و]

فلا بدّ أن يراد بـ﴿ٱلظِّلَّ﴾ ما يتعارفونه مِن حالةٍ مخصوصة يشاهدونها في موضع يَحول بينه وبين الشمس جسم كثيف مخالفةٍ لِما في جوانبه مِن مواقع ضِحّ الشمس،[2] وما ذكر وإن كان في الحقيقة ظلًّا للأفق الشرقيّ لكنّهم لا يعدّونه ظلًّا،

---

[1] أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤/١٢٦.

[2] ضِحّ الشمس: ضوءها. وقيل: هو ضوءها إذا استمكن مِن الأرض. وقيل: هو قرنها يصيبك. وقيل: كلّ ما أصابته الشمس ضِحّ. لسان العرب لابن منظور، «ضحح».

ولا يصفونه بأوصافه المعهودة، ولعلّ توجيهَ الرؤية إليه سبحانه مع أنّ المراد تقرير رؤيته عليه السلام لكيفيّةِ مدّ الظلّ للتنبيه على أنّ نظره عليه السلام غير مقصور على ما يطالعه مِن الآثار والصنائع؛ بل مَطمح أنظاره معرفة شُئون الصانع المجيد.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾ جملة اعترضت بين المعطوفين للتنبيه مِن أوّل الأمر على أنّه لا مدخل فيما ذكر مِن المدّ للأسباب العاديّة، وإنّما المؤثّر فيه المشيئة والقدرة. ومفعول المشيئة محذوف على القاعدة المستمرّة مِن وقوعها شرطًا وكونِ مفعولها مضمونَ الجزاء، أي: ولو شاء سكونه لَجَعلَه ساكنًا، أي: ثابتًا على حاله مِن الطول والامتداد. وإنّما عُبّر عن ذلك بالسكون لِما أنّ مقابلَه الذي هو تغيّر حاله حَسْبَ تغيّرِ الأوضاع بين المُظِلِّ وبين الشمسِ يُرى رأيَ العين حركةً وانتقالًا، وحاصله أنّه لا يعتريه اختلافُ حالٍ بأن لا ينسخه الشمس.

وأمّا التعليل بأن يُجعل الشمس مقيمةً على وضع واحد[1] فمدارُه الغفول عمّا سِيق له النظم الكريم ونطق به صريحًا مِن بيان كمال قدرته القاهرة وحكمته الباهرة بنسبة جميع الأمور الحادثة إليه تعالى بالذات، وإسقاطِ الأسباب العاديّة عن رتبة السببيّة والتأثير بالكلّيّة، وقَصرِها على مجرّد الدلالة على وجود المسبّبات، لا بذِكر قدرته تعالى على بعض الخوارق، كإقامة الشمس في مقامٍ واحد على أنّها أعظم مِن إبقاء الظلّ على حاله في الدلالة على ما ذُكر مِن كمال القدرة والحكمة لكونه مِن فروعها ومستتبعاتها، فهي أولى وأحقّ بالإيراد في معرض البيان.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ عطفٌ على ﴿مَدَّ﴾ داخل في حكمه، أي: جعلناها علامة يُستدَلّ بأحوالها المتغيّرة على أحواله مِن غير أن يكون بينهما سببيّة وتأثير قطعًا حسبما نطَق به الشرطيّة المعترضة. والالتفات إلى نون العظمة لِما في الجعل المذكور العاري عن التأثير / مع ما يشاهَدُ بين الشمس والظلّ مِن الدوران المطّرد المُنبئ عن السببيّة مِن مَزيد دلالةٍ على عِظم القدرة ودِقّة الحكمة، وهو السرّ في إيراد كلمة التراخي. [٢٠٨ظ]

---

[1] أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤/١٢٦.

﴿ثُمَّ قَبَضْنَـٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَبَضْنَـٰهُ﴾ عطفٌ على ﴿مَدَّ﴾ داخل في حكمه. و﴿ثُمَّ﴾ للتراخي الزماني، لِما أنّ في بيان كَون القبض والمدّ مرتَّبين دائرين على قطب مصالح المخلوقات مزيدَ دلالةٍ على الحكمة الربّانيّة. ويجوز أن يكون للتراخي الرتْبي، أي: أزلناه بعد ما أنشأناه ممتدًّا، ومحوناه بمحض قدرتنا ومشيئتنا عند إيقاع شعاع الشمس موقعَه مِن غير أن يكون له تأثير في ذلك أصلًا. وإنّما عُبّر عنه بالقبض المُنبئ عن جمع المنبسط وطَيّه لِما أنّه قد عُبّر عن إحداثه بالمدّ الذي هو البسط طولًا.

وقوله تعالى: ﴿إِلَيْنَا﴾ للتنصيص على كَون مرجعه إليه تعالى، كما أنّ حدوثه منه عزّ وجلّ. ﴿قَبْضًا يَسِيرًا﴾ أي: على مَهَل قليلًا قليلًا حسب ارتفاع دليله على وتيرة معيّنة مطَّرِدة مستتبعة لمصالح المخلوقات ومرافقها.

وقيل: إنّ الله تعالى حين بنى السماء كالقبّة المَضروبة ودحا الأرض تحتها ألقَت القُبّةُ ظِلّها على الأرض لعدم النيّر، وذلك مَدُّه تعالى إيّاه، ولو شاء لجعله ساكنًا مستقرًّا على تلك الحالة، ثمّ خلق الشمس وجعلها على ذلك الظلّ، أي: سلّطها عليه ونصبها دليلًا متبوعًا له كما يُتَّبَعُ الدليل في الطريق، فهو يزيد بها وينقص، ويمتدّ ويقلص، ثمّ نسخه بها فقَبَضه قَبْضًا سهلًا يسيرًا غيرَ عسير، أو قَبْضًا سهلًا عند قيام الساعة بقَبْض أسبابه، وهي الأجرام التي تلقي الظِلّ، فيكون قد ذُكر إعدامه بإعدام أسبابه كما ذكر إنشاؤه بإنشائها. ووَصفُه باليُسرِ على طريقة قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ [ق، ٥٠/٤٤]، وصيغةُ الماضي للدلالة على تحقّق الوقوع.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾﴾

/ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾ بيان لبعض بدائع آثار قدرته تعالى [٢٠٩و] وحكمته وروائع أحكام رحمته ونِعمته الفائضة على الخلق. وتلوين الخطاب لتوفية مقام الامتنان حقَّه. و"اللام" متعلّقة بـ﴿جَعَلَ﴾، وتقديمها على مفعولَيه

للاعتناء ببيان كون ما يعقُبه مِن منافعهم. وفي تعقيب بيان أحوال الظلّ ببيان أحكام الليل الذي هو ظلّ الأرض مِن لطف المسلك ما لا مزيدَ عليه، أي: هو الذي جعل لكم الليل كاللباس يَستركم بظلامه كما يستركم اللباس.

﴿وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا﴾ أي: وجعلَ النومَ الذي يقع في الليل غالبًا قطعًا عن الأفاعيل المختصّة بحال اليقظة، عُبّر عنه بالسُّبات الذي هو الموت لِما بينهما مِن المشابهة التامّة في انقطاع أحكام الحياة، وعليه قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾ [الأنعام، ٦٠/٦]، وقولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا﴾ [الزمر، ٤٢/٣٩].

﴿وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾ أي: زمانَ بعثٍ مِن ذلك السُّبات كبعث الموتى، على حذف المضاف وإقامةِ المضاف إليه مُقامه، أو نفسَ البعث على طريق المبالغة. وفيه إشارة إلى أنّ النوم واليقظة أنموذج للموت والنشور. وعن لقمان عليه السلام: «يا بُنيّ كما تنام فتوقَظُ، كذلك تَموت وتُنشر».[1]

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾﴾

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾ وقُرئ بالتوحيد[2] على أنّ المراد هو الجنس. ﴿بُشْرًا﴾ تخفيف "بُشُرٍ" جمع "بَشُور"، أي: مُبشِّرين. وقُرئ: "بُشْرَى".[3] وقُرئ: "نُشُرًا" بالنون،[4] جمع "نَشور"، أي: ناشراتٍ للسحاب. وقُرئ بالتخفيف،[5] وبفتح النون[6] أيضًا على أنّه مصدر وُصف به مبالغة.

وقوله تعالى: ﴿بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ استعارة بديعة، أي: قدّامَ المطر. والالتفات إلى نون العظمة في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾ لإبراز كمال العناية

---

[1] الكشف والبيان للثعلبي، ٢٨٤/٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٢٦/٤.
[2] قرأ بها ابن كثير. النشر لابن الجزري، ٢٢٣/٢.
[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن السميفع وابن قطيب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٨٨.
[4] قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢٧٠/٢.
[5] أي: "نُشْرًا" بضمّ النون وإسكان الشين. قرأ بها ابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢٧٠/٢.
[6] أي: "نَشْرًا". قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢٧٠/٢.

بالإنزال؛ لأنّه نتيجة ما ذُكر مِن إرسال الرياح، أي: أنزلنا بعظمتنا بما رتّبنا مِن إرسال الرياح مِن جهة الفوق ماءً بليغًا في الطهارة.

وما قيل: إنّه ما يكون طاهرًا / في نفسه ومطهّرًا لغيره[1] فهو شرح لبلاغته [٢٠٩ظ] في الطهارة كما يُنبئ عنه قوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾ [الأنفال، ١١/٨]، فإنّ "الطَّهور" في العربيّة إمّا صفة كما تقول: "ماء طَهور"، أو اسم، كما في قوله عليه السلام: «التراب طَهور المؤمن».[2] وقد جاء بمعنى الطهارة، كما في قولك: "تطهّرت طَهورًا حسنًا"، كقولك: "وَضوءًا حسنًا"، ومنه قوله عليه السلام: «لا صلاةَ إلّا بطَهور».[3] ووصف الماء به إشعار بتمام النعمة فيه، وتتميم للنعمة فيما بعده، فإنّ الماء الطَّهور أهنأ وأنفع ممّا خالطه ما يُزِيل طَهوريّته، وتنبيه على أنّ ظواهرهم لَمّا كانت ممّا ينبغي أن يطهّروها فبواطنهم أحقّ بذلك وأولى.

﴿لِّنُحْـِۧيَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَـٰمًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾﴾

﴿لِّنُحْـِۧيَ بِهِۦ﴾ أي: بما أنزلنا مِن الماء الطهور ﴿بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ بإنبات النبات. والتذكير لأنّ "البلدة" بمعنى "البلد"، ولأنّه غير جارٍ على الفعل كسائر أبنية المبالغة، فأجريَ مُجرى الجامد، والمراد به القطعة مِن الأرض عامرة كانت أو غامرة.

﴿وَنُسْقِيَهُۥ﴾ أي: ذلك الماء الطهور عند جريانه في الأودية أو اجتماعِه في الحِياض والمناقع أو الآبار ﴿مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَـٰمًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾ أي: أهل البوادي الذي يعيشون بالحَيا،[4] ولذلك نكّر "الأنعام" و"الأناسيّ". وتخصيصهم بالذكر

---

[1] نقله الزمخشري عن أحمد بن يحيى. انظر: **الكشّاف** للزمخشري، ٢٨٤/٣.

[2] لم أجده بهذا اللفظ. وأخرج أبو داود في السنن، ٢٤٨/١ (٣٣٣)؛ والترمذي في السنن، ٢١١/١ (١٢٤)، عن أبي ذرّ، أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: «إنّ الصعيد الطيّب طَهورُ المسلم وإن لم يجِد الماء عشر سنينَ».

[3] **الكشّاف** للزمخشري، ٢٨٤/٣. وقال الزيلعي: غريب بهذا اللفظ. وأخرج الترمذي في السنن، ٥/١ (١)، عن ابن عمر، عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، قال: «لا تقبل صلاة بغير طهور».

[4] الحيا: الخِصب. **الصحاح** للجوهري، «حيا».

لأنّ أهل القرى والأمصار يُقيمون بقُرب الأنهار والمنابع، فَبِهم وبما لهم مِن الأنعام غُنية عن سُقيا السماء. وسائرُ الحيوانات تُبعِد في طلب الماء، فلا يُعْوِزها الشرب غالبًا مع أنّ مساق الآيات الكريمة كما هو للدلالة على عِظَم القدرة، فهو لتعداد أنواع النعمة. والأنعامُ حيث كانت قُنيةً للإنسان، وعامّةُ منافعهم ومعايشهم مَنوطةً بها، قُدّم سَقيها على سَقيهم، كما قُدّم عليها إحياءُ الأرض، فإنّه سبب لحياتها وتعيّشها.

وقُرئ: "نَسْقِيَهُ"،[1] و"أَسْقى" و"سَقى" لغتان. وقيل: "أَسْقاه" جعل له سُقيا. و﴿أَنَاسِيَّ﴾ جمع "إنسيّ"، أو "إنسان"، كـ"ظَرَابيّ" في "ظِربان"[2] على أنّ أصله "أَنَاسِينُ"، فقُلبت نونه ياءً. / وقُرئ: "أَنَاسِيْ"[3] بالتخفيف[4] بحذف ياء "أفاعيل"، كـ"أناعِم" في "أناعيم". [٢١٠و]

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُواْ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ۝٥٠﴾

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ﴾ أي: وباللهِ لقد كرّرنا هذا القول الذي هو ذكرُ إنشاء السحاب وإنزالِ القَطر لِما مرّ مِن الغايات الجميلة في القرآن وغيره مِن الكتب السماويّة ﴿بَيْنَهُمْ﴾ أي: بين الناس مِن المتقدّمين والمتأخّرين ﴿لِيَذَّكَّرُواْ﴾ ليتفكّروا ويعرفوا بذلك كمالَ قدرته تعالى وواسعَ رحمته في ذلك، ويقوموا بشكر نعمته حقَّ قيام.

وقيل: الضمير للمطر، وتصريفُه بينهم إنزالُه في بعض البلاد دون غيرها، أو في بعض الأوقات دون بعضٍ، أو جعلُه تارةً وَابِلًا،[5] وأخرى طَلًّا،[6] وحينًا دِيمةً،[7] ووقتًا رَهْمةً،[8] والأوّل هو الأظهر.

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن البرجمي والمفضّل عن عاصم وابن أبي عبلة. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٥٠.

[2] وفي هامش م: وهي دُوَيبّة كالهرّة. «منه».

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن يحيى بن الحارث. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٥٠.

[4] س: بالتحفيف.

[5] الوابل: المطر الشديدُ. **الصحاح** للجوهري، «وبل».

[6] الطلّ: أضعفُ المطر. **الصحاح** للجوهري، «طلل».

[7] الديمَةُ: المطر الذي ليس فيه رعدٌ ولا برق. **الصحاح** للجوهري، «ديم».

[8] الرِّهْمة، بالكسر: المطرُ الضعيفُ الدائم. **القاموس المحيط** للفيروزابادي، «رهم».

﴿فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ﴾ ممّن سلَف وخلَف ﴿إِلَّا كُفُورٗا﴾ أي: لم يفعل إلّا كُفران النعمة، وقلّةَ الاكتراث لها، أو إلّا جحودَها بأن يقولوا: "مُطِرنا بنَوءِ كذا"،[1] ولا يذكروا صُنع الله تعالى ورحمته. ومَن لا يرى الأمطار إلّا مِن الأنواء فهو كافر، بخلاف مَن يَرى أنّ الكلّ بخلق الله تعالى، والأنواءَ أمارات بجَعله تعالى.

﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَبَعَثۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٖ نَّذِيرٗا ۝٥١﴾

﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَبَعَثۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٖ نَّذِيرٗا﴾ نبيًّا يُنذر أهلَها، فيخفّ عليك أعباءُ النبوّة، لكن لم نشأ ذلك فلم نفعَلْه؛ بل قَصَرنا الأمر عليك حِسبما ينطق به قوله تعالى: ﴿لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان، ١/٢٥] إجلالًا لك وتعظيمًا وتفضيلًا لك على سائر الرسل.

﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا ۝٥٢﴾

﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي: فقابِلْ ذلك بالثبات والاجتهاد في الدعوة وإظهار الحقّ والتشدّد معهم. كأنّه نهي لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم / عن المداراة [٢١٠ظ] معهم والتلطّف في الدعوة، لِما أنّه عليه السلام كان يودّ أن يدخلوا في الإسلام، ويجتهدُ في ذلك بتأليف قلوبهم أشدَّ الاجتهاد.

﴿وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ﴾ أي: بالقرآن، بتلاوة ما في تضاعيفه مِن القوارع الزواجر والمواعظ، وتذكيرِ أحوال الأمم المكذِّبة ﴿جِهَادٗا كَبِيرٗا﴾ فإنّ دعوة كلّ العالمين على الوجه المذكور جهادٌ كبير لا يقادَر قدرُه كمًّا وكيفًا.

وقيل: الضمير المجرور لترك الطاعة المفهومِ مِن النهي عن الطاعة. وأنت خبير بأنّ مجرّد ترك الطاعة يتحقّق بلا دعوة أصلًا، وليس فيه شائبة الجهاد فضلًا عن الجهاد الكبير، اللّهمّ إلّا أن يُجعل "الباء" للملابسة، ليكون المعنى:

---

[1] عن زيد بن خالد الجهني، قال: صلّى بنا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم صلاةَ الصبح بالحديبية في إثرِ السماء كانت مِن الليل، فلمّا انصرف أقبل على الناس فقال: «هل تدرون ماذا قال ربّكم؟» قالوا: «الله ورسوله أعلم»، قال: «قال: أصبح مِن عبادي مؤمن بي وكافر، فأمّا مَن قال: "مُطِرنا بفضل الله ورحمته" فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأمّا مَن قال: "مُطِرنا بنَوء كذا وكذا" فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب». صحيح مسلم، ٨٣/١ (٧١).

وجاهدهم بما ذُكر مِن أحكام القرآن الكريم ملابسًا بترك طاعتهم، كأنّه قيل: فجاهدهم بالشدّة والعنف، لا بالملاءمة والمداراة، كما في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التحريم، ٦٦/٩].

وقد جُعل الضمير لِما دلّ عليه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا﴾[١] مِن كونه عليه السلام نذيرَ كافّة القرى؛ لأنّه لو بُعث في كلّ قرية نذيرًا لَوجبت على كلّ نذير مجاهدةُ قريته، فاجتمعت على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم تلك المجاهدات كلّها، فكَبُر مِن أجل ذلك جهادُه وعَظُم، فقيل له عليه السلام: وجاهدهم بسبب كونك نذيرَ كافّة القرى جهادًا كبيرًا جامعًا لكلّ مجاهدة. وأنت خبير بأنّ بيان سبب كِبَرِ المجاهدة بحسب الكمّيّة ليس فيه مزيدُ فائدة، فإنّه بيّن بنفسه، وإنّما اللائق بالمقام بيان سبب كِبَرها وعِظَمها في الكيفيّة.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَـٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَـٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾﴾

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ أي: خلّاهما متجاورين متلاصقين بحيث لا يتمازجان، مِن "مَرَج دابّته" إذا خلّاها. ﴿هَـٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ قامع للعطش لغاية عُذوبته ﴿وَهَـٰذَا / مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ بليغ المُلوحة. وقُرئ: "مَلِحٌ"،[٢] فلعلّه تخفيف مالح كَبَرِد في بارِدٍ. ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا﴾ حاجزًا غير مرئيّ مِن قدرته، كما في قوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد، ١٣/٢]. [٢١١و]

﴿وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ وتنافرًا مُفرِطًا، كأنّ كلًّا منهما يتعوّذ مِن الآخر بتلك المقالة. وقيل: حدًّا مَحدودًا، وذلك كدِجلة تدخل البحر وتشقّه وتجري في خلاله فَراسخ لا يتغيّر طعمُها. وقيل: المراد بـ"البحر العذب" النهرُ العظيم، وبـ"المالح" البحرُ الكبير، وبـ"البرزخ" ما بينهما مِن الأرض، فيكون أثر القدرة في الفصل واختلاف الصفة، مع أنّ مقتضى طبيعة كلّ عنصر التضامُّ والتلاصق والتشابه في الكيفيّة.

---

١ في الآية السابقة.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة بن مصرّف. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٥٠.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾﴾

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا﴾ هو الماء الذي خمّر به طينة آدم عليه السلام، أو جعله جزءًا مِن مادّة البشر ليجتمع ويسلَس ويستعدّ لقَبول الأشكال والهيئات بسهولة، أو هو النطفة ﴿فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾ أي: قَسَمه قسمين ذوي نسب، أي: ذكورًا يُنتَسَب إليهم وذوات صِهر، أي: إناثًا يصاهَرُ بهنّ، كقوله تعالى: ﴿فَجَعَلَ[١] مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ [القيامة، ٣٩/٧٥].

﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ مبالِغًا في القدرة، حيث قدَر على أن يخلق مِن مادّة واحدة بشرًا ذا أعضاءٍ مختلفة، وطِباع متباعدة، وجعلَه قسمين متقابلين، وربّما يخلق مِن نطفة واحدة توأَمين ذكرًا وأنثى.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾﴾

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الذي شأنه ما ذُكر ﴿مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾ أي: ما ليس مِن شأنِه النفع والضرّ أصلًا، وهو الأصنام / أو كلُّ ما يُعبَد مِن دونه تعالى، إذ ما مِن مخلوق يستقلّ بالنفع والضرّ. [٢١١ظ]

﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ﴾ الذي ذُكِرت آثارُ ربوبيّته ﴿ظَهِيرًا﴾ يظاهر الشيطانَ بالعداوة والشرك. والمراد بـ﴿ٱلْكَافِرُ﴾ الجنس أو أبو جَهل. وقيل: هَيِّنًا مَهِينًا لا اعتدادَ به عنده تعالى مِن قولهم: "ظَهَرتُ به" إذا نبذتَه خلفَ ظهرِك، فيكون كقوله تعالى: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ﴾ [آل عمران، ٧٧/٣].

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾﴾

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا﴾ للمؤمنين ﴿وَنَذِيرًا﴾ للكافرين.

﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾﴾

﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: على تبليغ الرسالة الذي يُنبئ عنه الإرسال ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ مِن جهتكم ﴿إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ أي: إلّا فعلَ

---

[١] م ط س: وجعل.

مَن يريد أن يتقرّب إليه تعالى، ويطلبَ الزُّلفى عنده بالإيمان والطاعة حسبما أدعوهم إليهما، فصُوِّرَ ذلك بصورة الأجر مِن حيث إنّه مقصود الإتيان به، واستُثنِي منه قلعًا كلّيًا لشائبة الطمع، وإظهارًا لغاية الشفقة عليهم، حيث جُعل ذلك مع كون نفعه عائدًا إليهم عائدًا إليه عليه السلام. وقيل: الاستثناء منقطع، أي: لكن مَن شاء أن يتّخذ إلى ربّه سبيلًا فليفعل.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾﴾

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ في الاستكفاء عن شرورهم، والإغناء عن أجورهم، فإنّه الحقيق بأن يُتوكّل عليه دون الأحياء الذين مِن شأنهم الموت، فإنّهم إذا ماتوا ضاع مَن توكّل عليهم. ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ﴾ ونَزِّهْهُ عن صفات النقصان مُثنِيًا عليه بنعوت الكمال، طالبًا لمزيد الإنعام بالشكر على سوابقه.

[٢١٢و] ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ﴾ ما ظهَر منها وما بطَن ﴿خَبِيرًا﴾ أي: / مطّلعًا عليها بحيث لا يَخفى عليه شيء منها، فيجزيهم جزاءً وافيًا.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾﴾

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ قد سلَف تفسيره. ومحلّ الموصول الجرّ على أنّه صفة أخرى لـ﴿ٱلْحَىِّ﴾، وُصِف بالصفة الفعليّة بعد وصفه بالأبديّة التي هي مِن الصفات الذاتيّة. والإشارة إلى اتّصافه بالعلم الشامل لتقرير وجوب التوكّل عليه تعالى وتأكيدِه، فإنّ مَن أنشأ هذه الأجرامَ العِظام، على هذا النمط الفائق، والنسَق الرائق، بتدبيرٍ متين، وترتيبٍ رصين، في أوقات معيّنة مع كمال قدرته على إبداعها دفعةً، لحِكَمٍ جليلة، وغاياتٍ جميلة، لا يقف على تفاصيلها العقول؛ أَحَقُّ مَن يُتوكَّلُ عليه، وأولى مَن يُفوَّض الأمرُ إليه.

﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ مرفوع على المدح، أي: هو الرحمن، وهو في الحقيقة وصف آخر لـ﴿ٱلۡحَيِّ﴾، كما قُرئ بالجرّ،[١] مفيدٌ لزيادة تأكيد ما ذُكر مِن وجوب التوكّل عليه تعالى، وإن لم يتبعه في الإعراب، لِما تقرَّر مِن أنّ المنصوب والمرفوع مدحًا وإن خرَجا عن التبعيّة لِما قبلهما صورةً حيث لم يتبعاه في الإعراب، وبذلك سُمِّيا قَطْعًا، لكنّهما تابعان له حقيقةً، ألا يُرى كيف التزموا حذف الفعل والمبتدأ في النصب والرفع رَوْمًا لتصوير كلٍّ منهما بصورة متعلِّقٍ مِن متعلّقاتِ ما قبله، وتنبيهًا على شدّة الاتّصال بينهما. وقد مرّ تمامُ التحقيق في تفسير قوله عزّ وجلّ: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ الآية [البقرة، ٣/٢].

وقيل: الموصول مبتدأ، و﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ خبره. وقيل: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ بدل مِن المستكِنّ في ﴿ٱسۡتَوَىٰ﴾.

﴿فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ﴾ أي: بتفاصيل ما ذُكر إجمالًا مِن الخلق والاستواء، لا بنفسهما فقط، إذ بعد بيانهما لا يبقى إلى السؤال حاجة، ولا في تعديته بـ"الباء" فائدة، فإنّها مبنيّة على تضمينه معنى الاعتناء المستدعي لكون المسئول أمرًا خطيرًا مهتمًّا بشأنه غيرَ حاصلٍ للسائل. وظاهرٌ أنّ نفس الخلق والاستواء بعد الذكر ليس كذلك.

وما قيل مِن أنّ التقدير: إن شككتَ فيه فاسأل به خَبيرًا، على أنّ الخطاب له عليه السلام والمرادُ غيرُه؛[٢] بمَعزِل مِن السداد؛ بل التقدير: إن شئت تحقيقَ ما ذُكِر أو تفصيلَ ما ذُكر فاسأل معتنيًا به ﴿خَبِيرٗا﴾ عظيمَ الشأن، محيطًا بظواهر الأمور وبواطنها، وهو الله سبحانه، يُطلِعْك / على جليّة الأمر. [٢١٢ظ]

وقيل: فاسأل به مَن وجده في الكتب المتقدّمة ليصدّقك فيه، فلا حاجة حينئذٍ إلى ما ذكرنا.

وقيل: الضمير لـ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾، والمعنى: إن أنكروا إطلاقه على الله تعالى فاسأل عنه مَن يُخبرك مِن أهل الكتاب ليعرفوا مَجيء ما يرادفه في كتبهم، وعلى هذا يجوز أن يكون ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ مبتدأً، وما بعده خبرًا. وقُرئ: "فَسَلْ".[٣]

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عمير. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٥٠.

٢ انظر: التفسير الوسيط للواحدي، ٣٤٤/٣.

٣ قرأ بها ابن كثير والكسائي وخلف، وكذا حمزة عند الوقف. النشر لابن الجزري، ٤١٤/١.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ۝٦٠﴾

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ قالوه لِما أنّهم ما كانوا يُطلقونه على الله تعالى، أو لأنّهم ظنّوا أنّ المراد به غيره تعالى، ولذلك قالوا: ﴿أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ أي: للذي تأمرنا بسجوده، أو لأمرك إيّانا مِن غير أن نعرف أنّ المسجود ماذا. وقيل: لأنّه كان مُعَرَّبًا لم يسمعوه. وقُرِئ: "يَأْمُرُنَا" بياء الغيبة[1] على أنّه قولُ بعضِهم لبعض.

﴿وَزَادَهُمْ﴾ أي: الأمرُ بسجود الرحمن ﴿نُفُورًا﴾ عن الإيمان.

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ۝٦١﴾

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾ هي البروج الإثنى عشر، سُمّيت به، وهي القصور العالية؛ لأنّها للكواكب السيّارة، كالمنازل الرفيعة لسكّانها. واشتقاقه مِن "البُرج" لظهوره.

﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا﴾ هي الشمس؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [نوح، ٧١/١٦]. وقُرِئ: "سُرُجًا"،[2] وهي الشمس والكواكب الكبار. ﴿وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾ مضيئًا بالليل. وقُرِئ: "قُمْرًا"،[3] أي: ذَا قُمْرٍ، وهي جمعُ "قَمْراءَ"، ولِما أنّ الليالي بالقَمَر تكون قُمْرًا أضيفَ إليها ثمّ حُذِفَ وَأُجري حكمه على المضاف إليه القائمِ مَقامه، كما في قول حسّان رضي الله عنه:

بَــرَدَى يُصَفَّـقُ بـالرحيـقِ السَّلسَـلِ[4]

أي: ماءَ بَرَدَى، ويحتمل أن يكون بمعنى "القَمَر"، كـ"الرُّشْد" و"الرَّشَد"، و"العُرْب" و"العَرَب".

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ۝٦٢﴾

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ أي: ذَوَي خِلفةٍ، يخلفُ كلّ منهما الآخر،

---

[1] قرأ بها حمزة والكسائي. النشر لابن الجزري، ٣٣٤/١.

[2] قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٣٣٤/٢.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن والأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٥٠.

[4] صدره:
يَسقُون مَن ورَدَ البَريصَ عليهمِ
ديوان حسّان بن ثابت، ٧٤/١.

بأن يقوم مقامَه فيما ينبغي أن يُعملَ فيه، أو بأن يَعتَقِبا، كقوله تعالى: ﴿وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [البقرة، ١٦٤/٢]. وهي اسم للحالة مِن "خَلَفَ"، كـ"الرِّكْبَة" و"الجِلْسة" مِن "رَكِبَ" و"جَلَسَ".

﴿لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ﴾ أي: يتذكّر آلاء الله عزّ وعلا،[1] ويتفكّر في بدائع صنعه، فيعلم أنّه لا بدّ لها مِن صانعٍ حكيم، واجبِ الذات، رحيمٍ للعباد. / ﴿أَوۡ أَرَادَ شُكُورٗا﴾ [٢١٣و] أي: أن يشكر الله تعالى على ما فيهما مِن النعم، أو ليكونا وقتين للذاكرين، مَن فاتَه وِردُه في أحدهما تداركه في الآخَر. وقُرئ: "أَنْ يَذْكُرَ"[2] مِن "ذَكَرَ" بمعنى "تَذَكَّرَ".

﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ٦٣﴾

﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ كلام مستأنَف مَسوق لبيان أوصاف خُلّص عباد الرحمن وأحوالهم الدنيويّة والأخرويّة بعد بيان حال المنافرين عن عبادته والسجودِ له. والإضافة للتشريف. وهو مبتدأ خبره ما بعده مِن الموصول وما عُطف عليه. وقيل: هو ما في آخر السورة الكريمة مِن الجملة المصدَّرة باسم الإشارة.[3] وقُرئ: "عُبَّادُ الرَّحْمَنِ"،[4] أي: عبادُه المقبولون.

﴿ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا﴾ أي: بسكينةٍ وتواضع. و﴿هَوۡنٗا﴾ مصدر وُصف به. ونصبه إمّا على أنّه حال مِن فاعل ﴿يَمۡشُونَ﴾، أو على أنّه نعت لمصدره، أي: يمشون هيّنين لَيّنِي الجانِب مِن غير فَظاظة، أو مَشيًا هَيّنًا.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ﴾ أي: السفهاء، كما في قول مَن قال:

أَلا لا يَجهَلَنْ أحَدٌ علينا   فنَجهلَ فوقَ جَهلِ الجاهلِينا[5]

﴿قَالُواْ سَلَٰمٗا﴾ بيان لحالهم في المعاملة مع غيرهم إثرَ بيان حالهم في أنفسهم، أي: إذا خاطبوهم بالسوء قالوا: تسلّمًا منكم ومتاركةً، لا خيرَ بيننا وبينكم ولا شرّ.

---

[1] س: عزّ وجلّ.

[2] قرأ بها حمزة وخلف. النشر لابن الجزري، ٣٣٤/٢.

[3] هو قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ﴾ [الفرقان، ٧٥/٢٥].

[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي البرهسم واليماني. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٥١.

[5] لعمرو بن كلثوم في لسان العرب لابن منظور، «رشد». وفيه: «أي: إنّما نُكافئهم على جَهلهم».

وقيل: سَدادًا مِن القول يَسلمون به مِن الأذيّة والإثم. وليس فيه تعرّض لمعاملتهم مع الكفرة حتّى يقال: نَسخَتْها آية القتال،[1] كما نُقل عن أبي العالية.[2]

﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ۝٦٤﴾

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا﴾ بيان لحالهم في معاملتهم مع ربّهم، أي: يكونون ساجدين لربّهم وقائمين، أي: يُحيُون الليلَ كلًّا أو بعضًا بالصلاة. وقيل: مَن قرأ شيئًا مِن القرآن في صلاةٍ وإن قَلّ فقد بات ساجدًا وقائمًا.[3] وقيل: هما الركعتان بعد المغرب، والركعتان بعد العشاء.[4] وتقديمُ السجود على القيام لرعاية الفواصل.

﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ۝٦٥﴾

﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ أي: في أعقاب صلواتهم، أو في عامّة أوقاتهم: ﴿رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ أي: شرًّا دائمًا، وهلاكًا لازمًا. وفيه مزيد مدح لهم ببيان أنّهم مع حسن معاملتهم مع الخَلق، واجتهادِهم في عبادة الحقّ؛ يخافون العذاب، ويبتهلون إلى الله تعالى في صرفه عنهم غيرَ محتفِلين بأعمالهم، / كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ [المؤمنون، ٢٣/٦٠]. [٢١٣ظ]

﴿إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ۝٦٦﴾

﴿إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ تعليل لاستدعائهم المذكور بسوءِ حالِها في نفسها إثرَ تعليله بسوء حال عذابها. وقد جُوّز أن يكون تعليلًا للأُولى وليس بذاك. و﴿سَآءَتْ﴾ في حكم "بِئسَت"، وفيها ضمير مبهَم يفسّره ﴿مُسْتَقَرًّا﴾،

---

[1] آية القتال قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ الآية [التوبة، ٩/٥].

[2] انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ١٤٥/٧؛ والكشّاف للزمخشري، ٢٩١/٣.

[3] الكشّاف للزمخشري، ٢٩٢/٣؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ١٢٧/٨.

[4] الكشّاف للزمخشري، ٢٩٢/٣. وهو في الكشف والبيان للثعلبي، ١٤٦/٧، عن الكلبي بلفظ: "وأربع بعد العشاء الآخرة".

والمخصوصُ بالذمّ محذوف، معناه: ساءَت مستقرًّا ومُقامًا هي، وهذا الضمير هو الذي ربط الجملة باسم "إنّ"، وجعلها خبرًا لها.

قيل: ويجوز أن يكون ﴿سَآءَتۡ﴾ بمعنى "أَحزَنَت"، وفيها ضمير اسم "إنّ"، و﴿مُسۡتَقَرࣰّا﴾ حال أو تمييزٌ،[1] وهو بعيدٌ خالٍ عمّا في الأوّل مِن المبالغة في بيان سوء حالها، وكذا جعلُ التعليلين مِن جهته تعالى.[2]

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامࣰا ۝٦٧﴾

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ﴾ لم يجاوزوا حدّ الكرَم، ﴿وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ﴾ ولم يضيّقوا تضييقَ الشحيح. وقيل: "الإسراف" هو الإنفاق في المعاصي، و"القَتْر" منع الواجبات والقُرَب. وقُرئ بكسر التاء مع فتح الياء،[3] وبكسرها مخفّفةً[4] ومشدّدةً[5] مع ضمّ "الياء".

﴿وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ﴾ أي: بين ما ذُكر مِن الإسراف والقَتْر ﴿قَوَامࣰا﴾ وَسَطًا وعدلًا، سمّي به لاستقامة الطرفين، كما سمّي به "سَواء" لاستوائهما. وقُرئ بالكسر،[6] وهو ما يُقام به الحاجة، لا يفضل عنها ولا ينقص، وهو خبر ثانٍ، أو حال مؤكِّدةٌ، أو هو الخبر، و﴿بَيۡنَ ذَٰلِكَ﴾ لغو، وقد جُوّز أن يكون اسمَ ﴿كَانَ﴾ على أنّه مبنيّ لإضافته إلى غير متمكّن،[7] ولا يخفى ضعفه، فإنّه بمعنى "القَوام"، فيكون كالإخبار بشيءٍ عن نفسه.

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامࣰا ۝٦٨﴾

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ شروع في بيان اجتنابهم عن المعاصي بعد بيان إتيانهم بالطاعات. وذِكرُ نفي الإسراف والقَتْر لتحقيق معنى الاقتصاد.

---

[1] انظر: **الكشّاف** للزمخشري، ٢٩٢/٣؛ **وأنوار التنزيل** للبيضاوي، ١٣٠/٤.

[2] انظر: **الكشّاف** للزمخشري، ٢٩٢/٣؛ **وأنوار التنزيل** للبيضاوي، ١٣٠/٤.

[3] قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب. **النشر** لابن الجزري، ٣٣٤/٢.

[4] قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن عامر. **النشر** لابن الجزري، ٣٣٤/٢.

[5] قراءة شاذّة، مرويّة عن العلاء بن سيابة واليزيدي. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٥١؛ **اللباب** لابن عادل، ٥٦٦/١٤.

[6] قراءة شاذّة، مرويّة عن حسان بن عبد الرحمن. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٥١.

[7] أجازه الفرّاء. انظر: **معاني القرآن** للفرّاء، ٢٧٣/٢.

[٢١٤و] / والتصريح بوصفهم بنفي الإشراك مع ظهور إيمانهم لإظهار كمال الاعتناء بالتوحيد والإخلاص، وتهويلِ أمرِ القتل والزنا بنظمهما في سِلكه، وللتعريض بما كان عليه الكفرة مِن قريش وغيرهم، أي: لا يعبدون معه تعالى إلهًا آخر.

﴿وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ أي: حرّمها بمعنى حَرّم قتلها، فحُذف المضاف، وأقيمَ المضاف إليه مُقامه مبالغةً في التحريم. ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: لا يقتلونها بسبب مِن الأسباب إلّا بسبب الحقّ المزيلِ لحُرمتها وعِصمتها، أو لا يقتلون قتلًا ما إلّا قتلًا ملتبسًا بالحقّ، أو لا يقتلونها في حال مِن الأحوال إلّا حالَ كونهم ملتبسين بالحقّ.

﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾ أي: الذين لا يفعلون شيئًا مِن هذه العظائم القبيحة التي جمعهنّ الكفرة، حيث كانوا مع إشراكهم به سبحانه مداومين على قتل النفوس المحرّمة -التي مِن جملتها المَوءودة- مكبّين على الزنا، لا يَرعَوون عنه أصلًا.

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ أي: ما ذُكر كما هو دأب الكفرة المذكورين ﴿يَلْقَ﴾ في الآخرة. وقُرئ:[١] "يَلْقَى"، وقُرئ: "يُلَقَّ" بالتشديد مجزومًا.[٢] ﴿أَثَامًا﴾ وهو جزاء الإثم، كـ"الوَبال" و"النَّكال" وزنًا ومعنًى. وقيل: هو الإثم، أي: يلقَ جزاءَ الإثم، والتنوين على التقديرين للتفخيم. وقُرئ: "أَيَّامًا"،[٣] أي: شدائدَ، يقال: "يوم ذو أيّام" لليوم العَصيب.

﴿يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾

﴿يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ بدل مِن ﴿يَلْقَ﴾[٤] لاتّحادهما في المعنى، كقوله:

متى تأتِنا تُلمِمْ بِنا في ديارنا   تَجِدْ حطَبًا جَزْلًا ونارًا تأجّجا[٥]

---

[١] وفي هامش م: عبد الله وأبو رجاء. | قراءة شاذّة، مرويّة عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وأبي رجاء. **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٨/١٣٠.

[٢] قراءة شاذّة، غير منسوبة. انظر: **الكشّاف** للزمخشري، ٣/٢٩٤.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. انظر: **الكشّاف** للزمخشري، ٣/٢٩٤.

[٤] في الآية السابقة.

[٥] لعبيد الله بن الحرّ الجُعفي في **شرح أبيات سيبويه** للسيرافي، ٢/٧٧.

وقُرئ بالرفع[1] على الاستئناف، أو على الحاليّة، وكذا ما عُطِف عليه. وقُرئ: "يُضَعَّفُ"،[2] و"نُضَعِّفْ لَهُ العَذَابَ"[3] بالنون ونصب ﴿ٱلْعَذَابُ﴾.

﴿وَيَخْلُدْ / فِيهِۦ﴾ أي: في ذلك العذاب المضاعَف ﴿مُهَانًا﴾ ذليلًا مستحقَرًا [٢١٤ظ] جامعًا للعذاب الجسماني والروحاني. وقُرئ: "يُخْلَدْ"،[4] و"يُخَلَّدْ"[5] مبنيًّا للمفعول، مِن "الإخلاد" و"التخليد". وقُرئ: "تَخْلُدْ"[6] بالتاء على الالتفات المُنبِئ عن شدّة الغضب. ومضاعفة العذاب لانضمام المعاصي إلى الكفر كما يُفصح عنه قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ وذكرُ الموصوف مع جريان الصالح والصالحات مَجرى الاسم للاعتناء به والتنصيص على مغايرته للأعمال السابقة.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى الموصول، والجمعُ باعتبار معناه، كما أنّ الإفراد في الأفعال الثلاثة باعتبار لفظه، أي: أولئك الموصوفون بالتوبة والإيمان والعمل الصالح ﴿يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ بأن يمحو سوابقَ معاصيهم بالتوبة، ويُثبت مكانَها لواحقَ طاعاتهم،[7] أو يُبدّل بمَلَكةِ المعصية ودواعِيها في النفس مَلَكةَ الطاعة، بأن يزيل الأولى ويأتي بالثانية. وقيل: بأن يوفّقه لأضداد ما سلَف منه، أو بأن يُثبِت له بدلَ كلّ عقاب ثوابًا. وقيل: يبدّلهم بالشرك إيمانًا، وبقتلِ المسلمين قتلَ المشركين، وبالزنا عِفّةً وإحصانًا.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ اعتراض تذييلي مقرّر لِما قبله مِن المَحو والإثبات.

﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾﴾

﴿وَمَن تَابَ﴾ أي: عن المعاصي بتركها بالكلّيّة والندم عليها ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ يتلافى به ما فرَط منه، أو خرج عن المعاصي ودخل في الطاعات ﴿فَإِنَّهُۥ﴾

---

[1] قرأ بها ابن عامر وأبو بكر شعبة. النشر لابن الجزري، ٢/٣٣٤.

[2] قرأ بها ابن كثير وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب، إلّا أنّ ابن عامر يقرأ بالرفع في الفاء والباقون بالجزم. انظر: النشر لابن الجزري، ٢/٢٢٨؛ ٣٣٤.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة بن سليمان. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٥١.

[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٥١.

[5] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبيّ رضي الله عنه. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٥١.

[6] قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة بن سليمان. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٥١.

[7] ط س: طاعتهم.

بما فعلَ ﴿يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: يرجع إليه تعالى ﴿مَتَابًا﴾ أي: مَتابًا عظيمَ الشأن، مرضيًّا عنده تعالى، ماحيًا للعقاب، محصّلًا للثواب، أو يتوب مَتابًا إلى الله تعالى[1] / الذي يحبّ التوّابين ويُحسن إليهم، أو فإنّه يرجع إليه تعالى أو إلى ثوابه مرجعًا حسنًا، وهذا تعميم بعد تخصيص. [٢١٥و]

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴿٧٢﴾﴾

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ لا يقيمون الشهادةَ الكاذبة، أو لا يَحضرون محاضِر الكذب، فإنّ مشاهدة الباطل مشاركة فيه. ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟﴾ على طريقِ الاتّفاق ﴿بِٱللَّغْوِ﴾ أي: ما يجب أن يُلغَى ويُطّرح ممّا لا خير فيه ﴿مَرُّوا۟ كِرَامًا﴾ معرضين عنه مكرِمين أنفسَهم عن الوقوف عليه والخوض فيه، ومِن ذلك الإغضاءُ عن الفواحش، والصفحُ عن الذنوب، والكنايةُ عمّا يُستهجن التصريح به.

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾﴾

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ المنطويةِ على المواعظ والأحكام ﴿لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ أي: أكبّوا عليها سامعين بآذانٍ واعية، مُجْتَلِين لها بعيون راعية. وإنّما عُبّر عن ذلك بنفي الضدّ تعريضًا بما يفعله الكفرة والمنافقون. وقيل: الضمير للمعاصي المدلول عليها بـ﴿ٱللَّغْوِ﴾.[2]

﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾﴾

﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ بتوفيقهم للطاعة وحيازة الفضائل، فإنّ المؤمن إذا ساعده أهله في طاعة الله عزّ وجلّ وشاركوه فيها يُسَرُّ بهم قلبه، وتَقَرُّ بهم عَينُه، لِما يشاهده مِن مشايعتهم له في مناهج الدين، وتوقّعِ لحوقهم به في الجنّة، حسبما وعد بقوله تعالى: ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الطور، ٢١/٥٢]. و﴿مِنْ﴾ ابتدائيّة أو بيانيّة. وقُرِئ: "وَذُرِّيَّتِنَا".[3] وتنكير "الأعين"

---

[1] م - تعالى.

[2] في الآية السابقة.

[3] قرأ بها أبو عمرو وحمزة والكسائي وخلف وشعبة. النشر لابن الجزري، ٣٣٥/٢.

لإرادة تنكير "القُرّة" تعظيمًا، وتقليلُها لأنّ المراد أعينُ المتّقين، ولا ريب في قلّتها نظرًا إلى غيرها.

﴿وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ أي: اجعلنا بحيث يقتدون بنا في إقامة مراسم الدين بإفاضة العلم والتوفيق للعمل. وتوحيدُه / لدلالته[1] على الجنس، وعدمِ الالتباس، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلًا﴾ [غافر، ٦٧/٤٠]، أو لأنّ المراد: واجعلْ كلّ واحد منّا إمامًا، أو لأنّهم كنفس واحدة لاتّحاد طريقتهم واتّفاق كلمتهم، كذا قالوا. [٢١٥ظ]

وأنت خبير بأنّ مدار الكلّ صدورُ هذا الدعاء إمّا عن الكلّ بطريق المعيّة، وأنّه محال لاستحالة اجتماعهم في عصر واحد، فما ظنّك باجتماعهم في مجلس واحد، واتّفاقِهم على كلمة واحدة، وإمّا عن كلّ واحد منهم بطريق تشريك غيره في استدعاء الإمامة، وأنّه ليس بثابت جزمًا؛ بل الظاهر صدورُه عنهم بطريق الانفراد، وأنّ عبارةَ كلِّ واحدٍ منهم عند الدعاء: "واجعلني للمتّقين إمامًا"، خلا أنّه حُكِيَت عباراتُ الكلّ بصيغة المتكلّم مع الغير للقصد إلى الإيجاز، على طريقة قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًا﴾ [المؤمنون، ٥١/٢٣]، وأُبقِيَ ﴿إِمَامًا﴾ على حاله. وقيل: "الإمام" جمعُ "آمّ" بمعنى "قاصد"، كـ"صيام" جمعِ "صائم"، ومعناهُ: قاصدين لهم مقتدين بهم.

وإعادة الموصول في المواقع السبعة مع كفاية ذِكر الصِّلات بطريق العطف على صلة الموصول الأوّل للإيذان بأنّ كلّ واحد ممّا ذُكر في حيّز صِلة الموصولات المذكورة وصفٌ جليلٌ على حيالِه، له شأن خطير حقيقٌ بأن يُفْرَد له موصوف مستقِلّ، ولا يُجعَلَ شيء مِن ذلك تتمّةً لغيره. وتَوسيط العاطف بين الموصولات لتنزيل الاختلاف العنواني منزلةَ الاختلاف الذاتي، كما في قوله:

إلى المَلِك القَرم وابنِ الهُمام ... وليثِ الكتائبِ في المزدحَمْ[2]

---

[1] ط س: للدلالة.

[2] بغير نسبة في معاني القرآن للفرّاء، ١٠٥/١. و"القَرم" بفتح القاف: السيّد. و"الهُمام": الملك العظيم الهِمّة، والسيّد الشجاع السخي. و"الكتيبة": الجيش. و"المُزدَحم": محل الازدحام، وأراد به المعركة. انظر: خزانة الأدب للبغدادي، ٤٥٢/١.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ٧٥﴾

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى المتّصفين بما فُصِّل في حيّز صلة الموصولات الثمانية مِن حيث اتّصافُهم به. وفيه دلالة على أنّهم متميّزون بذلك أكملَ تميّز، منتظَمون بسببه في سلك الأمور المشاهَدة. وما فيه مِن معنى البعد للإيذان ببُعد منزلتهم في الفضل. وهو مبتدأٌ خبره قوله تعالى: ﴿يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ﴾ والجملة مستأنَفة لا محلّ لها مِن الإعراب، مبيّنةٌ لِما لهم في الآخرة مِن السعادة الأبديّة إثرَ بيان ما لهم في الدنيا مِن الأعمال السنيّة.

و﴿ٱلْغُرْفَةَ﴾ الدرجة العالية مِن المنازل، وكلُّ بناءٍ مرتفع عالٍ، أي: يُثابون أعلى منازل الجنّة، وهي اسم جنس أريدَ به الجمع، كقوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِي ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبأ، ٣٤/٣٧]. وقيل: هي مِن أسماء الجنّة.

﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾ بصبرهم على المشاقّ مِن مَضَض الطاعات، ورفضِ الشهوات، وتحمّلِ المجاهدات.

﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا﴾ مِن جهة الملائكة ﴿تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا﴾ أي: يُحَيّيهم الملائكة، ويدعون لهم بطول الحياة والسلامة عن الآفات، أو يُعطَون التبقِيةَ والتَّخليدَ مع السلامة مِن كلّ آفة. وقيل: يحيّي بعضُهم بعضًا ويسلّم عليه. وقُرئ: "يَلْقَوْنَ"[١] مِن لَقِي.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ٧٦﴾

[٢١٦و] ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ لا يموتون ولا يخرجون ﴿حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ / الكلام فيه كالذي مرّ في مقابله.

﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ٧٧﴾

﴿قُلْ﴾ أُمِر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بأن يبيّن للناس أنّ الفائزين بتلك النعماء الجليلة التي يتنافس فيها المتنافسون إنّما نالوها بما عُدّدَ مِن محاسنهم، ولولاها لم يُعتَدّ بهم أصلًا، أي: قل لهم كافّةً مشافِهًا لهم بما صدر عن جنسهم

---

[١] قرأ بها حمزة والكسائي وخلف وأبو بكر شعبة. النشر لابن الجزري، ٢/٣٣٥.

مِن خيرٍ وشرّ: ﴿مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾ أي: أيُّ عِبْءٍ يَعبأ بكم، وأيُّ اعتدادٍ يَعتدّ بكم لولا عبادتُكم له تعالى حسبما مرّ تفصيله، فإنّ ما خُلِق له الإنسان معرفته تعالى وطاعته، وإلّا فهو وسائر البهائم سواء.

وقال الزجّاج: «معناه: أيُّ وزنٍ يكون لكم عنده».[1] وقيل: معناه: ما يصنع بكم ربّي لولا دعاؤُه إيّاكم إلى الإسلام. وقيل: ما يصنع بعذابكم لولا دعاؤُكم معه آلهةً. ويجوز أن تكون ﴿مَا﴾ نافية.

وقوله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾ بيان لِحال الكفرة مِن المخاطَبين، كما أنّ ما قبله بيانٌ لِحال المؤمنين منهم، أي: فقد كذّبتم بما أخبرتكم به وخالفتموه أيّها الكفرة، ولم تعملوا عملَ أولئك المذكورين. وقيل: فقد قصّرتم في العبادة، مِن قولهم: "كذّب القتال" إذا لم يبالِغ فيه. وقُرئ: "فَقَدْ كَذَّبَ الْكَافِرُونَ"،[2] أي: الكافرون منكم؛ لعموم الخطاب للفريقين. وفائدته الإيذان بأنّ مَناط فوز أحدهما وخسران الآخر مع الاتّحاد الجنسي المصحِّح للاشتراك في الفَوز ليس إلّا اختلافهما في الأعمال.

﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ أي: يكون جزاءُ التكذيب أو أثرُه لازمًا يَحيق بكم لا محالةَ حتّى يَكُبَّكم في النار، كما يُعرِب عنه "الفاء" الدالّة على لزوم ما بعدها لِما قبلها، وإنّما أُضمر مِن غير ذِكرٍ للإيذان بغاية ظهوره، وتهويلِ أمره، وللتنبيه على أنّه ممّا لا يَكتنهه البيان. وقيل: يكون العذاب لِزامًا. وعن مجاهد رحمه الله تعالى:[3] «هو القتل يوم بدر، وأنّه لُوزم بين القتلى».[4] / [٢١٦ظ] وقرئ: "لَزَامًا"[5] بالفتح بمعنى اللزوم، كـ"الثَّبات" و"الثُّبوت".

عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة الفرقان لَقي الله تعالى وهو مؤمن بأنّ الساعة آتية، وأُدخِلَ الجنّةَ بغير نَصَب».[6]

---

١ **معاني القرآن** للزجّاج، ٧٨/٤.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٥٢.

٣ س – تعالى.

٤ **الكشّاف** للزمخشري، ٢٩٧/٣؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١٣٢/٤.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي السَّمّال. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٥٢.

٦ **الكشف والبيان** للثعلبي، ١٢٢/٧؛ **التفسير الوسيط** للواحدي، ٣٣٣/٣. وهو جزء مِن الحديث المروي عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: **الموضوعات** لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

سورة الشعراء

مكّيّة إلّا قوله تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ﴾... إلى آخر السورة [الشعراء، ٢٦/٢٢٤-٢٢٧]، وهي مائتان وسبع وعشرون آيةً، وفي رواية ستّ وعشرون.[١]

/ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ [٢١٧و]

﴿طسٓمٓ ①﴾

﴿طسٓمٓ﴾ بتفخيم الألف،[٢] وبإمالتها،[٣] وإظهار النون، وبإدغامها في الميم.[٤] وهو إمّا مسرود على نمط التعديد بطريق التحدّي على أحد الوجهين المذكورين في فاتحة سورة البقرة، فلا محلّ له مِن الإعراب، وإمّا اسم للسورة كما عليه إطباق الأكثر، فمحلّه الرفع على أنّه خبر لمبتدأ محذوف، وهو أظهر مِن الرفع على الابتداء، وقد مرّ وجهه في مطلع سورة يونس عليه السلام، أو النصبُ بتقدير فعلٍ لائقٍ بالمقام، نحو: "اذكر" أو "اقرأ".

﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ②﴾

و﴿تِلۡكَ﴾ في قوله تعالى: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾ إشارة إلى السورة سواء كان ﴿طسٓمٓ﴾ مسرودًا على نمط التعديد، أو اسمًا للسورة حسبما مرّ تحقيقه هناك.[٥] وما في اسم الإشارة مِن معنى البعد للتنبيه على بُعد مَنزلة المُشار إليه

---

[١] م - سورة الشعراء، مكّيّة إلّا قوله تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ﴾... إلى آخر السورة [الشعراء، ٢٦/٢٢٤-٢٢٧]، وهي مائتان وسبع وعشرون آيةً، وفي رواية ستّ وعشرون.

[٢] أي: بتفخيم ألف "طا" مع فتحها. وقرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر وحفص. النشر لابن الجزري، ٢/٧٠.

[٣] قرأ بها حمزة والكسائي وخلف وشعبة. النشر لابن الجزري، ٢/٧٠.

[٤] قرأ حمزة وأبو جعفر بالإظهار، لكن أبو جعفر على أصله مِن السكت بين الحروف. وقرأ باقي القرّاء العشر بالإدغام. انظر: النشر لابن الجزري، ٢/١٩.

[٥] وفي هامش م: أي: في سورة يونس عليه السلام. «منه».

في الفخامة. ومحلّه الرفع على أنّه مبتدأ خبره ما بعده. وعلى[١] تقدير كون ﴿طسٓمٓ﴾ مبتدأً فهو مبتدأٌ ثانٍ، أو بدَل مِن الأوّل.

والمراد بـ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾ **القرآن**، وبـ﴿ٱلْمُبِينِ﴾ الظاهرُ إعجازه، على أنّه مِن "أَبانَ" بمعنى "بانَ"، أو المُبيِّنُ للأحكام الشرعيّة وما يتعلّق بها، أو الفاصلُ بين الحقّ والباطل. والمعنى: هي آيات مخصوصةٌ منه مُتَرجَمةٌ باسم مستقلّ. والمراد[٢] ببيان كونِها بعضًا منه وصفُها بما اشتهر به الكلّ مِن النعوت الفاضلة.

﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝٣﴾

﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ﴾ أي: قاتل. وأصلُ "البَخْع" أن يبلغ بالذبح البِخاعَ، وهو عِرقٌ مستبطِن الفَقار، وذلك أقصى حدّ الذبح. وقُرئ: "بَاخِعُ نَفْسِكَ"[٣] على الإضافة، و"لعلّ" للإشفاق، أي: أَشفِق على نفسك أن تقتلها حسرةً على ما فاتك مِن إسلام قومك.

﴿أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ أي: لعدم إيمانهم بذلك الكتاب المبين، أو خِيفةَ أن لا يؤمنوا به.

﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ۝٤﴾

وقوله تعالى: ﴿إِن نَّشَأْ﴾... إلخ استئناف مَسوق لتعليل ما يُفهم مِن الكلام مِن النهي عن التحسّر المذكور ببيان أنّ / إيمانهم ليس ممّا تعلّقت به مشيئة الله [٢١٧ظ] تعالى حَتمًا، فلا وجه للطمع فيه والتألّم مِن فواته. ومفعول المشيئة محذوف لكونه مضمونَ الجزاء، أعني: قوله تعالى: ﴿نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً﴾ أي: ملجئةً لهم إلى الإيمان قاسرة عليه، وتقديم الظرفين على المفعول الصريح لِما مرّ مرارًا مِن الاهتمام بالمقدَّم والتشويق إلى المؤخَّر.

﴿فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ أي: منقادين. وأصله: فظلّوا لها خاضعين، فأُقحِمت الأعناقُ لزيادة التقرير ببيان موضع الخضوع، وتُرِك الخبرُ على حاله.

---

١ س: أو على.
٢ ط س: والمقصود.
٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عمير وزيد بن علي. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٥٢.

وقيل: لمّا وُصفت الأعناق بصفات العقلاء أُجريَت مُجراهم في الصيغة أيضًا، كما في قوله تعالى: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف، ٤/١٢]. وقيل: أُريدَ بها الرؤساء والجماعات، مِن قولهم: "جاءنا عُنُق مِن الناس" أي: فوج منهم. وقُرئ: "خَاضِعَةً".[١]

وقوله تعالى: ﴿فَظَلَّتْ﴾ معطوف[٢] على ﴿نُنَزِّلْ﴾ باعتبار محلّه.

﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُواْ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ۝﴾

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُواْ عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ بيان لشدّة شَكيمتهم، وعدمِ ارعِوائهم عمّا كانوا عليه مِن الكفر والتكذيب بغير ما ذُكر مِن الآية المُلجِئة لصَرف رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عن الحرص على إسلامهم وقَطع رجائه عنه. و﴿مِن﴾ الأُولى مزيدة لتأكيد العموم، والثانية لابتداء الغاية مجازًا متعلّقةٌ بـ﴿يَأْتِيهِم﴾، أو بمحذوف هو صفة لـ﴿ذِكْرٍ﴾. وأيًّا ما كان ففيه دلالة على فضله وشرَفه وشَناعة ما فعلوا به.

والتعرّض لعنوان الرحمة لتغليظ شَناعتهم، وتهويل جنايتهم، فإنّ الإعراض عمّا يأتيهم مِن جنابه عزّ وجلّ على الإطلاق شَنيع قبيح، وعمّا يأتيهم بموجَب رحمته تعالى لمحض منفعتهم أشنع وأقبح، أي: ما يأتيهم مِن موعظة مِن المواعظ القرآنيّة، أو مِن طائفةٍ نازلة مِن القرآن تذكّرهم أكملَ تذكير، وتنبّههم عن الغفلة أتمّ تنبيه، كأنّها نفس الذِّكر مِن جهته تعالى، بمقتضى رحمته الواسعة مجدَّدٍ تنزيله حسبما يقتضيه الحكمة والمصلحة، إلّا جدّدوا إعراضًا عنه على وجه التكذيب والاستهزاء، وإصرارًا على ما كانوا عليه مِن الكفر والضلال.

والاستثناء / مفرّغ مِن أعمّ الأحوال، محلّه النصب على الحاليّة مِن مفعول ﴿يَأْتِيهِم﴾ بإضمار "قد" أو بدونه على الخلاف المشهور، أي: ما يأتيهم مِن ذكر في حال مِن الأحوال إلّا حالَ كونهم معرضين عنه. [٢١٨و]

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٥٢.

٢ ط س: عطف.

﴿فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَـٰٓؤُا مَا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٦﴾

﴿فَقَدْ كَذَّبُوا﴾ أي: كذّبوا بالذكر الذي يأتيهم تكذيبًا صريحًا مقارِنًا للاستهزاء به، ولم يكتفوا بالإعراض عنه، حيث جعلوه تارةً سِحرًا، وأخرى أساطيرَ، وأخرى شعرًا.

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَسَيَأْتِيهِمْ﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها. و"السين" لتأكيد مضمون الجملة وتقريره، أي: فسيأتيهم البتّة مِن غير تخلّف أصلًا ﴿أَنْبَـٰٓؤُا مَا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ عدلٌ عمّا يقتضيه ظاهر ما سلف مِن الإعراض والتكذيب للإيذان بأنّهما كانا مقارِنين للاستهزاء كما أشيرَ إليه حسبما وقع في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم[1] مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَـٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ۝ فَقَدْ كَذَّبُوا بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَـٰٓؤُا مَا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأنعام، ٦/٤-٥].

و"أنباؤه" ما سيحيق بهم مِن العقوبات العاجلة والآجلة، عُبّر عنها بذلك إمّا لكونها ممّا أنبأ بها القرآن الكريم، وإمّا لأنّهم بمشاهدتها يقفون على حقيقة حال القرآن، كما يقفون على الأحوال الخافية عنهم باستماع الأنباء. وفيه تهويل له لأنّ النبأَ لا يطلق إلّا على خبرٍ خَطِرٍ[2] له وقع عظيم، أي: فسيأتيهم لا محالةَ مِصداق ما كانوا[3] يستهزئون به قبلُ مِن غير[4] أن يتدبّروا في أحواله ويقفوا عليها.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝٧﴾

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ "الهمزة" للإنكار التوبيخي، و"الواو" للعطف على مقدّر يقتضيه المقام، أي: أفَعلوا ما فعلوا مِن الإعراض عن الآيات والتكذيب والاستهزاء بها ولم ينظروا ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: إلى عجائبها الزاجرة عمّا فعلوا، الداعيةِ إلى الإقبال على ما أعرضوا عنه وإلى الإيمان به.

وقوله تعالى: ﴿كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ استئناف مبيّن لِما في الأرض مِن الآيات الزاجرة / عن الكفر الداعية إلى الإيمان. و﴿كَمْ﴾ خبريّة [٢١٨ظ]

---

[1] م: يأتيهم.
[2] ط س: خطير.
[3] س + به.
[4] س: عير.

منصوبة بما بعدها على المفعوليّة، والجمعُ بينها وبين ﴿كُلِّ﴾ لإفادة الإحاطة والكثرة معًا، و﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ﴾ أي: صِنفٍ؛ تمييزٌ، و"الكريم" مِن كلّ شيء مَرضيُّه ومحمودُه، أي: كثيرًا مِن كلّ صِنف مرضيّ كثيرِ المنافع أنبتنا فيها. وتخصيصُ إنباته بالذكر دون ما عداه مِن الأصناف لاختصاصه بالدلالة على القدرة والنعمة معًا.

ويحتمل أن يراد به جميع أصناف النبات نافعِها وضارِّها، ويكونَ وصف الكلّ بالكرَم للتنبيه على أنّه تعالى ما أنبت شيئًا إلّا وفيه فائدة، كما نطق به قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة، ٢٩/٢]، فإنّ الحكيم لا يكاد يفعل فعلًا إلّا وفيه حكمة بالغة وإن غفل عنها الغافلون، ولم يتوصّل إلى معرفة كُنهها العاقلون.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ⑧﴾

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى مصدر ﴿أَنۢبَتْنَا﴾، أو إلى كلّ واحد مِن تلك الأزواج، وأيًا ما كان فما فيه مِن معنى البعد للإيذان ببُعد منزلته في الفضل. ﴿لَءَايَةً﴾ أي: آيةً عظيمةً دالّة على كمال قدرة مُنبتها، وغايةِ وُفور علمه وحِكمته، ونهايةِ سَعةِ رحمته موجبةً للإيمان وازِعة عن الكفر.

﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم﴾ أي: أكثرُ قومه عليه السلام ﴿مُّؤْمِنِينَ﴾ قيل: أي: في علم الله تعالى وقضائه، حيث علِم أزلًا أنّهم سيُصرفون فيما لا يزال اختيارهم الذي عليه يدور أمر التكليف إلى جانب الشرّ، ولا يتدبّرون في هذه الآيات العظام.

وقال سيبويه: «﴿كَانَ﴾ صلة،[1] والمعنى: وما أكثرهم مؤمنين»،[2] وهو الأنسب بمقام بيان عتوّهم وغلوّهم في المكابرة والعناد مع تعاضد موجِبات الإيمان مِن جهته تعالى. / وأمّا نسبة كفرهم إلى علمه تعالى وقضائه فربّما يُتوهّم منها [٢١٩و] كونُهم معذورين فيه بحسب الظاهر؛ لأنّ ما أشيرَ إليه مِن التحقيق ممّا خفي على مَهرة العلماء المتقنين، كأنّه قيل: إنّ في ذلك لآية باهرةً موجِبةً للإيمان،

---

[1] وفي هامش م: أي: زائدة. «منه».

[2] الكشف والبيان للثعلبي، ١٥٩/٧؛ اللباب لابن عادل، ٧/١٥.

وما أكثرهم مؤمنين مع ذلك، لِغاية تماديهم في الكفر والضلالة، وانهماكِهم في الغَيّ والجهالة. ونسبةُ عدم الإيمان إلى أكثرهم لأنّ منهم مَن سيؤمن.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٩﴾

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالبُ على كلّ ما يريده مِن الأمور التي مِن جملتها الانتقام مِن هؤلاء، ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ المبالِغ في الرحمة، ولذلك يُمهلهم ولا يؤاخذهم بغتةً بما اجترءوا عليه مِن العظائم الموجِبة لفنون العقوبات. وفي التعرّض لوصف الربوبيّة مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام مِن تشريفه والعِدَة الخفيّة بالانتقام مِن الكفرة ما لا يخفى.

﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٠﴾

﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ﴾ كلام مستأنَف مَسوق لتقرير ما قبله مِن إعراضهم عن كلّ ما يأتيهم مِن الآيات التنزيليّة، وتكذيبِهم بها إثرَ بيان إعراضهم عمّا يشاهدونه مِن الآيات التكوينيّة.

و﴿إِذْ﴾ منصوب على المفعوليّة بمُضمَر خُوطب به النبيّ صلّى الله عليه وسلّم،[1] أي: واذكر لأولئك المعرضين المكذّبين وقتَ ندائه تعالى إيّاه عليه السلام، وذكّرهم بما جرى على قوم فرعونَ بسبب تكذيبهم إيّاه زجرًا لهم عمّا هم عليه مِن التكذيب، وتحذيرًا مِن أن يَحيق بهم مثلُ ما حاق بأضرابهم المكذّبين الظالمين حتّى يتّضح لك أنّهم لا يؤمنون بما يأتيهم مِن الآيات، لكن لا بقياس[2] حال هؤلاء بحال أولئك فقط؛ بل بمشاهدة إصرارهم على ما هم عليه بعد سماع الوحي الناطق بقصّتهم، وعدمِ اتّعاظهم بذلك، كما يلوّح به تكريرُ قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً / وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ عقيب كلّ قصّةٍ. [٢١٩ظ]

وتوجيه الأمر بالذكر إلى الوقت مع أنّ المقصود تذكير ما وقع فيه مِن الحوادث قد مرّ سرّه مرارًا.

---

[1] س: عليه السلام.

[2] وفي هامش م: يقال: قاسَه به، وعليه. «منه».

﴿أَنِ ٱئْتِ﴾ بمعنى: أيِ ائتِ، على أنّ ﴿أَن﴾ مفسِّرة، أو بأنِ ائتِ، على أنّها مصدريّة حُذِف عنها الجارّ. ﴿ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: بالكفر واستعباد بني إسرائيل وذبحِ أبنائهم. وليس هذا مَطلعَ ما ورد في حيّز النداء، وإنّما هو ما فُصِّل في سورة طه مِن قوله تعالى: ﴿إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى﴾ [طه، ١٢/٢٠-٢٣].

وإيراد ما جرى في قصّة واحدة مِن المقالات بعبارات شتّى وأساليبَ مختلفة قد مرّ تحقيقه في أوائل سورة الأعراف عند قوله تعالى:[١] ﴿قَالَ أَنظِرْنِى﴾ [الأعراف، ١٤/٧].

﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾﴾

﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ بدلٌ مِن الأوّل، أو عطفُ بيان له، جيء به للإيذان بأنّهم عَلَمٌ في الظلم، كأنّ معنى ﴿ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[٢] وترجمتَه: ﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾. والاقتصار على ذكر قومه للإيذان بشهرة أنّ نفسه أوّلُ داخلٍ في الحكم.

﴿أَلَا يَتَّقُونَ﴾ استئناف جيء به إثرَ إرساله عليه السلام إليهم للإنذار تعجيبًا مِن غُلوّهم في الظلم وإفراطهم في العدوان. وقُرئ بتاء الخطاب[٣] على طريقة الالتفات المُنبئ عن زيادة الغضب عليهم، كأنّ ذكرَ ظلمهم أدّى إلى مشافهتهم بذلك، وهم وإن كانوا حينئذ غُيّبًا لكنّهم قد أُجروا مُجرى الحاضرين في كلام المرسَل إليهم مِن حيث إنّه مبلّغه إليهم، وإسماعَه مَبدأ إسماعهم، مع ما فيه مِن مزيد الحثّ على التقوى لِمَن تدبّر وتأمّل.

وقُرئ بكسر النون[٤] اكتفاءً به عن ياء المتكلّم، وقد جُوّز أن يكون بمعنى "ألا يا ناسُ اتّقونِ"، نحو: "أَلَا يَا اسْجُدُوا".[٥]

---

[١] س – تعالى.

[٢] في الآية السابقة.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن عبد الله بن مسلم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٥٣.

[٤] قراءة شاذّة، غير منسوبة. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٣٠١/٣؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١٣٤/٤.

[٥] في قراءة الكسائي وأبي جعفر ورُويس في قوله تعالى: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ﴾ [النمل، ٢٥/٢٧]، حيث قرءوا بتخفيف اللام، ووقفوا في الابتداء "ألا يا"، وابتدءوا "اُسْجُدُوا" بهمزة مضمومة على الأمر، على معنى: ألا يا هؤلاء، أو يا أيها الناس اسجدوا، فحُذفت همزة الوصل بعد "يا" وقبل السين مِن الخطّ على مراد الوصل دون الفصل. انظر: النشر لابن الجزري، ٣٣٧/٢.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ١٢﴾

﴿قَالَ﴾ استئناف مبنيّ على سؤال نشأ مِن حكاية ما مضى، كأنّه قيل: فماذا قال موسى عليه السلام؟ فقيل: قال متضرّعًا إلى الله تعالى:[١] ﴿رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ مِن أوّل / الأمر. [٢٢٠و]

﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ١٣﴾

﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي﴾ معطوفان على ﴿أَخَافُ﴾.[٢] ﴿فَأَرْسِلْ﴾ أي: جبريل عليه السلام ﴿إِلَىٰ هَٰرُونَ﴾ ليكون معي، وأتعاضدَ به في تبليغ الرسالة.

رتّب عليه السلام استدعاءَه ذلك على الأمور الثلاثة: خوفِ التكذيب، وضيقِ الصدر، وازديادِ ما كان فيه عليه السلام مِن حَبسة اللسان بانقباض الروح إلى باطن القلب عند ضيقه بحيث لا ينطلق؛ لأنّها إذا اجتمعت تمسّ الحاجة إلى مُعِين يقوّي قلبَه وينوب مَنابَه إذا اعتراه حَبسة، حتّى لا يختلّ دعوته، ولا ينقطع حجّته. وليس هذا مِن التعلّل والتوقّف في تلقّي الأمر في شيء، وإنّما هو استدعاء لِما يُعِينه على الامتثال به، وتمهيدِ عذرٍ فيه.

وقُرئ: "وَيَضِيقَ"، "وَلَا يَنْطَلِقَ" بالنصب[٣] عطفًا على ﴿يُكَذِّبُونِ﴾،[٤] فيكونان مِن جملة ما يَخاف منه.

﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ١٤﴾

﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنۢبٌ﴾ أي: تَبِعةُ ذنبٍ، فحُذف المضاف، وأقيمَ المضاف إليه مُقامه، أو سُمّي باسمه. والمراد به قتل القبطي، وتسميته ذنبًا بحسب زعمِهم، كما ينبئ عنه قوله تعالى:[٥] ﴿لَهُمْ﴾. وهذا إشارة إلى قصّة مبسوطة في غير موضع.[٦]

﴿فَأَخَافُ﴾ أي: إن أتيتهم وَحدي ﴿أَن يَقْتُلُونِ﴾ بمقابلته، قبل أداء الرسالة كما ينبغي. وليس هذا أيضًا تعلّلًا، وإنّما هو استدفاع للبليّة المتوقّعة قبل وقوعها.

---

١ س: عزّ وجلّ.
٢ في الآية السابقة.
٣ قرأ بها يعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٣٣٥.
٤ في الآية السابقة.
٥ س – تعالى.
٦ انظر على سبيل المثال: القصص، ١٥/٢٨.

﴿قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ۝١٥﴾

وقوله تعالى: ﴿قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا﴾ حكاية لإجابته تعالى إلى الطِّلبتين: الدفعِ المفهوم مِن الردع عن الخوف، وضمِّ أخيه المفهومِ مِن توجيه الخطاب إليهما بطريق التغليب، فإنّه معطوف على مُضمَر يُنبئ عنه الردع، كأنّه قيل: ارتدع يا موسى عمّا تظنّ، فاذهب / أنت ومَن استدعيتَه. [٢٢٠ظ]

وفي قوله تعالى: ﴿بِآيَاتِنَا﴾ رمز إلى أنّها تَدفع ما يخافه.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾ تعليل للردع عن الخوف، ومزيد تسلية لهما بضمان كمال الحفظ والنصرة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه، ٤٦/٢٠]. وحيث كان الموعود بمَحضرٍ مِن فرعونَ اعتُبر ههنا في المعيّة. وقيل: أُجريا مُجرى الجماعة،[١] ويأباه ما قبله وما بعده مِن ضمير التثنية.

أي: سامعون ما[٢] يجري بينكما وبينه فنُظهِركما عليه. مُثِّل حاله تعالى بحال ذي شوكة قد حضر مجادلةَ قوم يستمع ما يجري بينهم، ليُمِدَّ أولياءَه ويظهرهم على أعدائهم مبالغةً في الوعدِ بالإعانة، أو استُعيرَ الاستماع الذي هو بمعنى الإصغاء للسمع الذي هو العلمُ بالحروف والأصوات. وهو خبر ثانٍ، أو خبرٌ وحدَه، و﴿مَعَكُم﴾ ظرف لغوٌ.

﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝١٦﴾

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها مِن الوعد الكريم. وليس هذا مُجرّدَ تأكيدٍ للأمر بالذهاب؛ لأنّ معناه الوصول إلى المأتيّ، لا مجرّدُ التوجّه إليه كالذهاب. وإفرادُ "الرسول" إمّا باعتبار رسالة كلّ منهما، أو لاتّحاد مطلبهما، أو لأنّه مصدر وُصِفَ به.

---

١ انظر: التفسير الوسيط للواحدي، ٣٥١/٣؛ واللباب لابن عادل، ١٢/١٥.

٢ ط س: بما.

﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيَ إِسْرَآءِيلَ ١٧﴾

و﴿أَنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيَ إِسْرَآءِيلَ﴾ مفسِّرة لتضمّن الإرسال المفهوم مِن "الرسول" معنى القول. ومعنى إرسالِهم تخليتُهم وشأنَهم ليذهبوا معهما إلى الشام.

﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ١٨﴾

﴿قَالَ﴾ أي: فرعون لموسى عليه السلام بعد ما أتياه وقالا له ما أُمِرَا به.

يُروى أنّهما انطلقا إلى باب فرعون، فلم يُؤذن لهما سنةً، حتّى قال البوّاب: إنّ ههنا إنسانًا يزعمُ أنّه رسول ربّ العالمين، فقال: ائذَنْ له لعلّنا نضحكُ، فأدّيا إليه الرسالة، فعرف موسى عليه السلام،[1] / فقال عند ذلك: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا﴾ في حَجرِنا ومنازلنا ﴿وَلِيدًا﴾ أي: طفلًا. عُبّر عنه بذلك لقُرب عهده بالولادة. [٢٢١و]

﴿وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ قيل: لبِثَ فيهم ثلاثين سنةً، ثمّ خرج إلى مدين، وأقام به عشر سنين، ثمّ عاد إليهم يدعوهم إلى الله عزّ وجلّ ثلاثين سنةً، ثمّ بقي بعد الغرق خمسين.[2] وقيل: وكَز القبطي وهو ابن ثنتي عشرة سنةً، وفرّ منهم على إثر ذلك،[3] والله تعالى[4] أعلم.

﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ١٩﴾

﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ﴾ يعني: قتلَ القبطي. بعد ما عدّد عليه نعمته مِن تربيته وتبليغه مبلغَ الرجال وَبّخه بما جرى عليه مِن قتل خبّازه، وعظّم ذلك وفظّعه. وقُرئ: "فِعْلَتَكَ" بكسر الفاء؛[5] لأنّها كانت نوعًا مِن القتل.

﴿وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: بنعمتي حيث عمَدتَ إلى قتل رجلٍ مِن خواصّي، أو أنت حينئذ ممّن تُكفّرهم الآن. وقد افترى عليه عليه السلام، أو جَهِل أمرَه عليه السلام

---

١ الكشف والبيان للثعلبي، ١٦٠/٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٣٠٥/٣.
٢ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٣٥/٤.
٣ الكشّاف للزمخشري، ٣٠٥/٣.
٤ س - تعالى.
٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن الشعبي. البحر المحيط لأبي حيّان، ١٤٦/٨.

حيث كان يعايشهم بالتقيّة، وإلّا فأين هو عليه السلام مِن مشاركتهم في الدين، فالجملة حينئذ حال مِن إحدى التاءين، ويجوزُ أن يكون حكمًا مبتدأً عليه بأنّه مِن الكافرين بإلهيّته، أو ممّن يُكفِّرون في دينهم، حيث كانت لهم آلهة يعبدونهم، أو مِن الكافرين بالنِّعم المعتادين لِغَمطها، ومَن اعتادَ ذلك لا يكون مثلُ هذه الجناية بِدْعًا منه.

﴿قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ٢٠﴾

﴿قَالَ﴾ مُجيبًا له مصدِّقًا له في القتل، ومكذِّبًا فيما نسبه إليه مِن الكفر: ﴿فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ أي: مِن الجاهلين، وقد قُرئ كذلك،[1] لا مِن الكافرين كما زعمتَ افتراءً، أي: مِن الفاعلين فِعلَ الجهَلة والسفهاء، أو مِن المُخطئين؛ لأنّه لم يتعمّد قتلَه؛ بل أراد تأديبَه، أو الذاهبين عمّا يؤدّي إليه الوَكْز، أو الناسين كقوله تعالى: ﴿أَن تَضِلَّ / إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ [البقرة، ٢/٢٨٢]. [٢٢١ظ]

﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ٢١﴾

﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ﴾ إلى ربّي ﴿لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾ أن تصيبوني بمضرّة، وتؤاخذوني بما لا أستحقّه بجنايتي مِن العقاب، ﴿فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا﴾ أي: حِكمةً، أو نبوّةً،[2] ﴿وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ ردَّ أوّلًا بذلك ما وبّخه به قَدْحًا في نبوّته، ثمّ كَرّ على ما عدّه عليه مِن النعمة، ولم يصرّح بردّه حيث كان صِدقًا غيرَ قادح في دعواه؛ بل نبّه على أنّ ذلك كان في الحقيقةِ نِقمة، فقال:

﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٢٢﴾

﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي: تلك التربية نعمة تَمُنّ بها عليّ ظاهرًا، وهي في الحقيقة تعبيدك بني إسرائيل، وقصدك إيّاهم بذبح أبنائهم، فإنّه السبب في وقوعي عندك، وحصولي في تربيتك.

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود وابن عبّاس رضي الله عنهم ومجاهد. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٥٣.

[2] وفي هامش م: مقاتل.

وقيل: إنّه مقدّر بهمزة الإنكار، أي: أوَتلك نعمة تمنّها عليّ، وهي أن عبّدت بني إسرائيل؟ ومحلّ ﴿أَنْ عَبَّدتَّ﴾ الرفع على أنّه خبر مبتدأ محذوف، أو بدل مِن ﴿نِعْمَةٌ﴾، أو الجرُّ بإضمار "الباء"، أو النصبُ بحذفها.

وقيل: ﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى خَصلة شنعاء مبهمة، و﴿أَنْ عَبَّدتَّ﴾ عطف بيان لها، والمعنى: تعبيدك بني إسرائيل نعمةٌ تَمُنّها عليّ. وتوحيد الخطاب في ﴿تَمُنُّهَا﴾ وجمعُه فيما قبله؛ لأنّ المِنّة منه خاصّة، والخوفَ والفرارَ منه ومِن مَلَئه.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾﴾

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾ لمّا سمع منه عليه السلام تلك المقالة المتينة وشاهد تَصلّبه في أمره وعدمَ تأثّره بما قدّمه مِن الإبراق والإرعاد شرَع في الاعتراض على دعواه عليه السلام فبدأ بالاستفسار عن المرسِل فقال: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ حكايةً لِما وقع في عبارته عليه السلام، أي: أيُّ شيء ربّ العالمين الذي تدّعي[1] أنّك رسوله منكِرًا لِأن يكون للعالمين / ربٌّ سواه حسبما يُعرِب عنه قوله: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات، ٢٤/٧٩]، وقوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص، ٣٨/٢٨]، وينطق به وعيده عند تمام أجوبته عليه السلام. [٢٢٢و]

﴿قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾﴾

﴿قَالَ﴾ موسى عليه السلام مجيبًا له: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ بتعيين ما أراد بـ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[2] وتفصيلِه لزيادة التحقيق والتقرير، وحَسمِ مادّة تزوير اللعين وتشكيكِه بحمل "العالَمين" على ما تحت مملكته.

﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ أي: إن كنتم موقنين بالأشياء محقّقين لها علمتم ذلك، أو إن كنتم موقنين بشيء مِن الأشياء فهذا أولى بالإيقان لظهوره وإنارة دليله.

﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾﴾

﴿قَالَ﴾ أي: فرعون عند سماع جوابه عليه السلام خوفًا مِن تأثيره في قلوب

---

١ ط س: ادّعيت.

٢ في الآية السابقة.

قومه وإذعانهم له ﴿لِمَنْ حَوْلَهُۥ﴾ مِن أشراف قومه. قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: «كانوا[1] خمسمائة عليهم الأساور، وكانت للملوك خاصّةً».[2]

﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ مرائيًا لهم أنّ ما سمعوه مِن جوابه عليه السلام مع كونه ممّا لا يليق بأن يُعتدّ به أمرٌ حقيق بأن يُتعجّبَ منه، كأنّه قال: ألا تستمعون ما يقوله؟ فاستمعوه وتعجّبوا منه حيث يدّعي خلاف أمرٍ محقَّق لا اشتباه فيه، يريد به ربوبيّة نفسه.

﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾﴾

﴿قَالَ﴾ عليه السلام تصريحًا بما كان مندرجًا تحت جوابيه السابقين: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ وحَطًّا له مِن ادّعاء الربوبيّة إلى مَرتبة المَربوبيّة.

﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾﴾

﴿قَالَ﴾ أي: فرعون، لمّا واجهه موسى عليه السلام بما ذُكر غاظَه ذلك وخاف مِن تأثّر قومه منه، فأراهم أنّ ما قاله عليه السلام ممّا لا يصدر عن العقلاء صدًّا لهم عن قَبوله، فقال مؤكّدًا لِمقالته الشنعاء بحرفَي التأكيد: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ لِيفتِنهم بذلك ويَصرِفهم عن قَبول الحقّ. وسمّاه "رسولًا" بطريق الاستهزاء، وأضافه إلى مخاطَبيه ترفّعًا مِن أن يكون مرسَلًا إلى نفسه.

﴿قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾

﴿قَالَ﴾ عليه السلام: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ قاله عليه السلام تكميلًا لجوابه الأوّل / وتفسيرًا له، وتنبيهًا على جهلهم، وعدمِ فهمهم لمعنى [٢٢٢ظ] مقالته، فإنّ بيان ربوبيّته تعالى للسماوات والأرض وما بينهما وإن كان متضمّنًا لبيان ربوبيّته تعالى للخافقين وما بينهما، لكن لمّا لم يكن فيه تصريح باستناد

---

[1] ط س: وكانوا.

[2] الكشّاف للزمخشري، ٣/٣٠٨؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٨/١٥٠.

حركات السماوات وما فيها وتغيّرات أحوالها وأوضاعها وكونِ الأرض تارةً مظلمة وأخرى منوَّرةً إلى الله تعالى، أرشدهم إلى طريق معرفة ربوبيّته تعالى لِما ذُكر، فإنّ ذكر ﴿ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ﴾ مُنبئ عن شروق الشمس وغروبها المَنوطَين بحركات السماوات وما فيها على نمطٍ بديع يترتّب عليه هذه الأوضاع الرصينة، وكلُّ ذلك أمور حادثة مفتقِرة إلى مُحدِث قادر عليم حكيم، لا كذَوات السماوات والأرض التي ربّما يَتوهّم جهلة المتوهّمين باستمرارها استغناءَها عن الموجد المتصرّف.

﴿إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ أي: إن كنتم تعقلون شيئًا مِن الأشياء، أو إن كنتم مِن أهل العقل علمتم أنّ الأمر كما قلته. وفيه إيذان بغاية وضوح الأمر بحيث لا يشتبه على مَن له عَقل في الجملة، وتلويح بأنّهم بمَعزِل مِن دائرة العقل، وأنّهم المتّصفون بما رمَوه به عليه السلام[1] مِن الجنون.

﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذۡتَ إِلَٰهًا غَيۡرِي لَأَجۡعَلَنَّكَ مِنَ ٱلۡمَسۡجُونِينَ ۝٢٩﴾

﴿قَالَ﴾ لمّا سمع اللعينُ منه عليه السلام هذه[2] المقالاتِ المبنيّة على أساس الحِكَمِ البالغة، وشاهَدَ شدّة حزمه وقوّةَ عزمه على تمشية أمره، وأنّه ممّن لا يجارَى في حَلْبة[3] المحاورة، ضرَبَ صَفْحًا عن المقاولة بالإنصاف، ونَأَى بجانبه إلى عُدوة الجَور والاعتساف، فقال مُظهِرًا لِما كان يُضمره عند السؤال والجواب: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذۡتَ إِلَٰهًا غَيۡرِي لَأَجۡعَلَنَّكَ مِنَ ٱلۡمَسۡجُونِينَ﴾ لم يقتنع منه عليه السلام بترك دعوى الرسالة وعدمِ التعرّض له حتّى كلّفه عليه السلام أن يتّخذه إلهًا لغاية عتوّه وغلوّه فيما فيه مِن دعوى الألوهيّة، وهذا صريح في أنّ تعجّبه وتعجيبه مِن الجواب الأوّل ونسبتَه عليه السلام إلى الجنون في الجواب الثاني كان لنسبته عليه السلام الربوبيّة إلى غيره.

وأمّا ما قيل مِن أنّ سؤاله كان عن حقيقة المرسِل، وتعجّبَه مِن جوابه كان لعدم مطابقته له / لكونه يذكر أحواله،[4] فلا يساعده النظم الكريم، ولا حالُ فرعونَ ولا مقالُه. [٢٢٣و]

---

[1] ط س + به.

[2] م ط س: تلك ["صح" في هامش م].

[3] س: حلبه.

[4] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١٣٦/٤.

واللام في ﴿ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ للعهد، أي: لأجعلنّك ممّن عرفت أحوالهم في سجوني، حيث كان يطرحهم في هُوّة عميقة حتّى يموتوا، ولذلك لم يقل: لأسجُننّك.

﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ۝٣٠﴾

﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ﴾ أي: أتفعل بي ذلك ولو جئتك بشيء مبين، أي: موضِح لصِدق دعواي؟ يريد به المعجزة، فإنّها جامعة بين الدلالة على وجود الصانع وحِكمته وبين الدلالة على صدق دعوى مَن ظهرت على يده. والتعبير عنها بـ"الشيء" للتهويل.

قالوا: "الواو" في ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ﴾ للحال، دخلت عليها همزة الاستفهام، أي: جائيًا بشيء مبين،[١] وقد سلف منّا مرارًا أنّها للعطف، وأنّ كلمة "لو" ليست لانتفاء الشيء في الزمان الماضي لانتفاء غيره فيه، فلا يلاحظُ له جواب قد حُذف تعويلًا على دلالة ما قبلها عليه ملاحظةً قصديّة إلّا عند القصد إلى بيان الإعراب على القواعد الصناعيّة؛ بل هي لبيان تحقّق ما يفيده الكلام السابق مِن الحُكم الموجَب أو المنفيّ على كلّ حال مفروضٍ مِن الأحوال المقارِنة له على الإجمال بإدخالها على أبعدها منه وأشدِّها منافاةً له، ليَظهر بثبوته أو انتفائه معه ثبوتُه أو انتفاؤه مع ما عداه مِن الأحوال بطريق الأولويّة، لِما أنّ الشيء متى تحقّق مع المنافي القويّ، فلَأن يتحقّق مع غيره أولى، ولذلك لا يُذكر معه شيء مِن سائر الأحوال، ويُكتَفَى عنه بذكر العاطف للجملة على نظيرتها المقابلة لها الشاملةِ لجميع الأحوال المغايرةِ لها عند تعدّدها؛ ليظهر ما ذُكر مِن تحقّق الحُكم على جميع الأحوال.

فإنّك إذا قلت: "فلان جواد يعطي ولو كان فقيرًا" تريد بيان تحقّق الإعطاء منه على كلّ حال مِن أحواله المفروضة، فتُعلِّق الحكمَ بأبعدها منه ليَظهر بتحقّقه معه تحقّقُه مع ما عداه مِن الأحوال التي لا منافاةَ بينها وبين الحُكم

---

[١] وفي هامش م: في قوله تعالى: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ مِن سورة البقرة [البقرة، ١٧٠/٢]، وفي قوله تعالى: ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ﴾ مِن سورة الأعراف [الأعراف، ٨٨/٧]، وفي غيرهما مِن المواقع. «منه».

بطريق الأولويّة المصحِّحة للاكتفاء بذكر العاطف عن تفصيلها، كأنّك قلت: "فلان جواد يعطي لو لم يكن فقيرًا ولو كان فقيرًا"، أي: يعطي حالَ كونه غنيًّا وحالَ كونه فقيرًا، فالحال في الحقيقة كلتا الجملتين المتعاطفتين، لا المذكورةُ على أنّ الواو للحال.

وتصدير المجيء بما ذُكر مِن[1] كلمة[2] "لو" دون "إن" ليس لبيان استبعاده في نفسه؛ بل بالنسبة إلى فرعون. والمعنى: أتفعل بي ذلك حال عدم مَجيئي / بشيء مبين، وحالَ مجيئي به؟ [٢٢٣ظ]

﴿قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٣١ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ۝٣٢﴾

﴿قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أي: فيما يدلّ عليه كلامك مِن أنّك تأتي بشيء مبين موضّح لصِدق دعواك، أو في دعوى الرسالة. وجواب الشرط محذوف لدلالة ما قبله عليه.

﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ أي: ظاهرٌ ثعبانيّتُه، لا أنّه شيء يشبهه. واشتقاق "الثعبان" مِن "ثَعَبْتُ الماءَ فَانْثَعَب"، أي: فجّرتُه فانفجر، وقد مرّ بيان كيفيّة الحال في سورة الأعراف[3] وسورة طه.[4]

﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ۝٣٣﴾

﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ﴾ مِن جيبه ﴿فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾ قيل: لمّا رأى فرعون الآية الأولى قال: «هل لكَ غيرها؟» فأخرج يده، فقال: «ما هذه؟» قال فرعون: «يدُك، فما فيها؟» فأدخلها في إبطه ثمّ نزعها ولها شعاع يكاد يُغشي الأبصار ويسدّ الأفق.

﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ۝٣٤﴾

﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥ﴾ أي: مستقرّين حوله، فهو ظرف وقع موقع الحال: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ فائقٌ في فنّ السحر.

---

١ ط س – مِن.

٢ ط س: بكلمة.

٣ الأعراف، ١٠٧/٧.

٤ طه، ٢٠/٢٠.

﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ۝٣٥﴾

﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم﴾ قَسْرًا ﴿مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ بَهَرَه سلطان المعجزة، وحيّره حَتّى حطّه عن ذروة ادّعاء الربوبيّة إلى حضيض الخضوع لعبيده في زعمه، والامتثال بأمرهم، أو إلى مقام مؤامرتهم ومشاورتهم بعدما كان مستقلًّا في الرأي والتدبير، وأظهر استشعار الخوف مِن استيلائه على مُلكه ونسبةَ الإخراج والأرض إليهم لتنفيرهم عن موسى عليه السلام.

﴿قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ۝٣٦﴾

﴿قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ أخِّر أمرهما، وقيل: احبسهما ﴿وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾ أي: شُرَطًا[1] يَحشرون السحرة.

﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ۝٣٧﴾

﴿يَأْتُوكَ﴾ أي: الحاشرون ﴿بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ فائق في فنّ السحر. وقُرئ: "بِكُلِّ سَاحِرٍ".[2]

﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ۝٣٨ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ۝٣٩ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ۝٤٠﴾

﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ هو ما عيّنه موسى عليه السلام بقوله: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾ [طه، ٥٩/٢٠].

﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ﴾ قيل لهم ذلك استبطاءً لهم في الاجتماع، وحثًّا لهم على المبادرة إليه.

/ ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ أي: نتّبعهم في دينهم إن كانوا هم الغالبين، لا موسى عليه السلام،[3] وليس مرادهم بذلك أن يتّبعوا دينهم حقيقة، [٢٢٤و]

---

١ وفي هامش م: جمع شُرْطة، وهم عمّال الولاة.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش وعاصم. البحر المحيط لأبي حيّان، ١٥٤/٨.

٣ م – عليه السلام.

وإنّما هو أن لا يتّبعوا موسى عليه السلام، لكنّهم ساقوا كلامهم مَساق الكناية حملًا لهم على الاهتمام والجِدّ في المغالبة.

﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾﴾

﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا﴾ أي: أجرًا عظيمًا ﴿إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ لا موسى عليه السلام.

﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾﴾

﴿قَالَ نَعَمْ﴾ لكم ذلك، ﴿وَإِنَّكُمْ﴾ مع ذلك ﴿إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ عندي. قيل: قال لهم: تكونون أوّلَ مَن يدخل عليّ، وآخرَ مَن يخرج عنّي. وقُرئ: "نَعِمْ" بكسر العين[1] وهما لغتان.

﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾﴾

﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ﴾ أي: بعدما قال له السحرة: ﴿إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾ [طه، ٦٥/٢٠]. ﴿أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾ ولم يُرِد به الأمر بالسحر والتمويه؛ بل الإذن في تقديم ما هم فاعلوه البتّة توسّلًا به إلى إظهار الحقّ وإبطال الباطل.

﴿فَأَلْقَوْاْ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾﴾

﴿فَأَلْقَوْاْ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُواْ﴾ أي: وقد قالوا عند الإلقاء: ﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ قالوا ذلك لفَرْط اعتقادهم في أنفسهم وإتيانهم بأقصى ما يمكن أن يؤتى به مِن السحر.

﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾﴾

﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ﴾ أي: تَبتلعُ بسرعة. وقُرئ: "تَلَقَّفُ"[2] بحذف إحدى التاءين مِن "تَتَلَقّفُ" ﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾ أي: ما يَقلبونه مِن[3] وجهه وصورته

---

[1] قرأ بها الكسائي. النشر لابن الجزري، ٢٦٩/٢.

[2] قرأ بها جميع القرّاء العشر غير حفص. النشر لابن الجزري، ٢٧١/٢.

[3] ط س: عن.

بتمويههم وتزويرهم، فيُخيّلون حبالهم وعصيّهم أنّها حيّات تسعى، أو إفكَهم، تسميةً للمأفوك به مبالغةً.

﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾﴾

﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ﴾ أي: إثرَ ما شاهدوا ذلك مِن غير تَلعثُمٍ وتردّدٍ غيرَ متمالِكين، كأنّ مُلقِيًا ألقاهم، لعلمهم بأنّ مثل ذلك خارج عن حدود السحر، وأنّه أمر إلهي قد ظهر على يده عليه السلام لتصديقه. وفيه دليل على أنّ قُصارى ما ينتهي إليه هِمَم السحرة هو التمويه والتزوير وتخييلُ شيء لا حقيقةَ له.

﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ بدل اشتمال، مِن "أُلقِي"، أو حال بإضمار "قد".

وقوله تعالى: ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ بدل مِن ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ للتوضيح ودفع توهّم إرادة فرعونَ حيث كان قومه الجهلة يسمّونه بذلك، وللإشعار بأنّ الموجِب لإيمانهم به تعالى ما أجراه على أيديهما مِن المعجزة القاهرة.

﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾﴾

﴿قَالَ﴾ أي: فرعون للسحرة: ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ أي: بغير أن آذن لكم -في قوله تعالى: ﴿لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى﴾ [الكهف، ١٠٩/١٨]- لا أنّ الإذن منه ممكن أو متوقَّع. ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ فتواطأتم على ما فعلتم، أو علّمكم شيئًا دون شيء، فلذلك غلبكم. أراد بذلك التلبيس على قومه كيلا يعتقدوا أنّهم آمنوا عن بصيرة وظهورِ حقٍّ. وقُرئ: "أَآمَنْتُمْ" بهمزتين.[١]

﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أي: وبالَ ما فعلتم. وقوله: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ بيانٌ لِما أوعدهم به.

---

[١] قرأ بها جميع القرّاء العشر غير حفص ورويس وورش مِن طريق الأصبهاني، وهم في الهمزة الثانية على أصولهم في التسهيل والتحقيق، فقرأها بالتسهيل قالون وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر وابن ذكوان وهشام بخلف عنه وورش مِن طريق الأزرق، وحقّقها الباقون، وقرأ قنبل في حالة الوصل بإبدال الهمزة الأولى واوًا، واختُلف عنه في تسهيل الهمزة الثانية. انظر: النشر لابن الجزري، ٣٦٨/١.

﴿قَالُواْ لَا ضَيْرَۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ۝٥٠﴾

﴿قَالُواْ﴾ أي: السحرة: ﴿لَا ضَيْرَ﴾ لا ضرر فيه علينا. وقوله تعالى: ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ / تعليل لعدم الضير، أي: لا ضيرَ في ذلك؛ بل لنا فيه نفع عظيم، [٢٢٤ظ] لِما يحصل لنا في الصبر عليه لوجه الله تعالى مِن تكفير الخطايا والثواب العظيم، أو لا ضيرَ علينا فيما تتوعّدنا به مِن القتل، إنّه لا بدّ لنا مِن الانقلاب إلى ربّنا بسببٍ مِن أسباب الموت، والقتلُ أهونُها وأرجاها.

﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٥١﴾

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ﴾ أي: لِأَن كنّا ﴿أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: مِن أتباع فرعون، أو مِن أهل المَشهَد. تعليل ثانٍ لنفي الضير، أي: لا ضيرَ علينا في قتلك، إنّا نطمع أن يغفر لنا ربّنا خطايانا لكوننا أوّلَ المؤمنين. وقُرئ: "إِنْ كُنَّا"[١] على الشرط لِهضم النفس، وعدمِ الثقة بالخاتمة، أو على طريقة قول المُدِلّ بأمره، كقول العامل لمستأجِرٍ أخَّر أجرته: "إن كنتُ عملتُ لك فوفّني حقّي".

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِيٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ۝٥٢﴾

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِيٓ﴾ وذلك بعد بِضع سنين أقام بين أظهُرِهم يدعوهم إلى الحقّ، ويُظهِر لهم الآيات، فلم يزيدوا إلّا عُتوًّا وعِنادًا، حسبما فصّل في سورة الأعراف بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ﴾ الآيات [الأعراف، ٧/١٣٠]. وقُرئ بكسر النون ووصل الألِف،[٢] مِن "سَرَى"،[٣] وقُرئ: "أَنْ[٤] سِرْ" مِن "السَّير".[٥]

﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ تعليل للأمر بالإسراء، أي: يتّبعكم فرعونُ وجنوده مصبحين،

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبان بن تغلب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٥٤.

٢ أي: "أَنِ اسْرِ". قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير. النشر لابن الجزري، ٢/٢٩٠.

٣ ط س: السَّير.

٤ ط س – أن.

٥ ط س – مِن "السَّير".

فأَسْرِ بمَن معك حتّى لا يُدرِكوكم قبل الوصول إلى البحر، فيدخلوا مَداخِلكم، فأُطبِقَه عليهم فأُغرِقَهم.

﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾

﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ﴾ حين أُخبِر بمسيرهم ﴿فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾ جامعين للعساكرِ ليتّبعوهم.

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾﴾

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يريد بني إسرائيل ﴿لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ استقلّهم -وهم ستُّمائة ألفِ وسبعون ألفًا- بالنسبة إلى جنوده، إذ رُوي أنّه أرسلَ في أثَرهم ألفَ ألفِ وخمسَمائةِ مَلِكٍ مُسَوَّرٍ،[١] مع كلّ مَلِكٍ ألفٌ، وخرَج فرعونُ في جمع عظيم، وكانت مقدِّمته سبعَمائة ألفِ رجلٍ على حصان، وعلى رأسه بيضة. وعن ابن عبّاس رضي الله تعالى[٢] عنهما خرج فرعونُ في ألفِ ألفِ حِصان سوى الإناث.

﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾﴾

/ ﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ﴾ أي: فَاعلون ما يَغيظُنا. [٢٢٥و]

﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ﴾ يريد أنّهم لقِلَّتهم لا يُبالَى بهم، ولا يُتوقَّع غلبتهم وعلوّهم، ولكنّهم يفعلون أفعالًا تُغيظنا، وتضيّق صدورَنا، ونحن قوم مِن عادتنا التيقّظ والحذَر واستعمالُ الحزم في الأمور، فإذا خرج علينا خارج سارعنا إلى إطفاء ثائرة فساده، وهذه معاذير اعتذر بها إلى أهل المدائن لئلّا يُظَنّ به ما يكسِر مِن قهره وسلطانه.

وقُرئ: "حَذِرُونَ"،[٣] فالأوّل دالّ على التجدّد، والثاني على الثبات. وقيل: "الحاذِر" المُؤدّي في السلاح. وقُرئ: "حَادِرُونَ" بالدال المُهملة،[٤] أي: أقوياء وأشدّاء. وقيل: مدجَّجون في السلاح، قد كسبهم ذلك حَدارةً في أجسامهم.

---

١ وفي هامش م: مِن السوار. «منه».

٢ ط س - تعالى.

٣ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وهشام بخلف عنه. النشر لابن الجزري، ٢/٣٣٥.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن حميد بن قيس عن أبي عمارة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٥٤.

﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٥٧ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٥٨﴾

﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم﴾ بأن خلقْنا فيهم داعيةَ الخروج بهذا السبب فحملْتْهم عليه ﴿مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ كانت لهم جملة ذلك.

﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝٥٩﴾

﴿كَذَٰلِكَ﴾ إمّا مصدر تشبيهي لـ"أخرَجْنا"، أي: مِثل ذلك الإخراج العجيب أخرجناهم، أو صفة لـ﴿مَقَامٍ كَرِيمٍ﴾، أي: مِن مقام كريم، كائنٍ كذلك، أو خبر لمبتدأٍ محذوف، أي: الأمر كذلك.

﴿وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي: ملّكناها إيّاهم على طريقة تمليك مال المورِّث للوارث، كأنّهم مَلَكوها مِن حين خروج أربابها منها قبل أن يَقبضوها ويتسلّموها.

﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ۝٦٠﴾

﴿فَأَتْبَعُوهُم﴾ أي: فلَحِقوهم. وقُرِئ: "فَاتَّبَعُوهُمْ"[١] ﴿مُّشْرِقِينَ﴾ داخلين في وقت شُروق الشمس، أي: طلوعها.

﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ۝٦١﴾

﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ﴾ تقارَبا بحيث رأى كلّ واحدٍ منهما الآخَر. وقُرِئ: "تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ".[٢] ﴿قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ جاءوا بالجملة الاسميّة مؤكَّدة بحرفي التأكيد للدلالة على تحقّق الإدراك واللحاق وتَنجّزهما. وقُرِئ: "لَمُدَّرِكُونَ" بتشديد الدال،[٣] مِن "ادَّرَكَ الشَّيْءَ" إذا تتابعَ ففَني، أي: لَمُتَتابِعُون في الهلاك على أيديهم.

﴿قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ۝٦٢ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ۝٦٣﴾

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وعمرو بن عبيد. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٥٤.

٢ قراءة شاذّة، غير منسوبة. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٣١٦/٣؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١٤٠/٤.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعرج وعبيد بن عمير. انظر: البحر المحيط لأبي حيّان، ١٦٠/٨.

﴿قَالَ كَلَّآ﴾ ارتدِعوا عن ذلك، فإنّهم لا يُدركونكم، ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي﴾ بالنصرة والهداية ﴿سَيَهْدِينِ﴾ البتّةَ إلى طريق النجاة منهم بالكلّيّة. رُوي أنّ يوشع عليه السلام / قال: «يا كليم الله، أين أُمِرتَ، فقد غشِيَنا فرعونُ والبحرُ أمامَنا؟» قال عليه السلام: «ههنا»، فخاض يوشَع الماءَ، وضرَب موسى عليه السلام بعصاه البحر، فكان ما كان.[1] [٢٢٥ظ]

ورُوي أنّ مؤمنًا مِن آل فرعونَ كان بين يدَي موسى عليه السلام، فقال: «أين أُمرتَ، فهذا البحر أمامك، وقد غشيك آل فرعونَ؟» قال عليه السلام:[2] «أُمِرتُ بالبحر، ولعلّي أُومَر بما أصنع»، فأُمِر بما أُمِر به.[3]

وذلك قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ﴾ القلزم أو النيل، ﴿فَٱنفَلَقَ﴾ الفاء فصيحة، أي: فضرَب فانفلَق، فصارَ اثني عشر مَسلكًا[4] بعدَد الأسباط،[5] ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ﴾ حاصلٍ بالانفلاق[6] ﴿كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾ كالجبل المنيف الثابت في مقرّه، فدخلوا في شِعابها، كلُّ سِبط في شِعب منها.

﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ۝٦٤ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ۝٦٥ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ۝٦٦﴾

﴿وَأَزْلَفْنَا﴾ أي: قرّبنا ﴿ثَمَّ[7] ٱلْءَاخَرِينَ﴾ أي: فرعون وقومه حتّى دخلوا على أثرهم مداخلَهم.

﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ﴾ بحفظ البحر على تلك الهيئة إلى أن عبروا إلى البَرّ.

﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ﴾ بإطباقه عليهم.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝٦٧﴾

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: في جميع ما فُصِّل ممّا صدر عن موسى عليه السلام،

---

١ الكشف والبيان للثعلبي، ١٦٥/٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٣١٧/٣.

٢ س – عليه السلام.

٣ الكشّاف للزمخشري، ٣١٧/٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٤٠/٤.

٤ ط س: فرقًا.

٥ ط س + بينهنّ مسالك.

٦ ط س – حاصلٍ بالانفلاق. | يظهر أثر كشطٍ في نسخة المؤلّف، فلعلّه صحّحها بعد نسخ ط س.

٧ م ط س: ثمّه.

وظهر على يديه مِن المعجزات القاهرة، وممّا فَعل فرعونُ وقومُه مِن الأقوال والأفعال، وما فُعِل بهم مِن العذاب والنَّكال.

وما في اسم الإشارة مِن معنى البُعد لتهويل أمر المشار إليه وتفظيعه، كتنكير "الآية" في قوله تعالى: ﴿لَآيَةً﴾ أي: أيّةَ آيةٍ، وآيةً عظيمةً لا تكاد تُوصَف موجِبةً لأن يَعتبر بها المعتبِرون، ويقيسوا شأنَ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم بشأن موسى عليه السلام، وحالَ أنفسِهم بحال أولئك المُهلَكين، ويجتنبوا تعاطِيَ ما كانوا يتعاطَونه مِن الكفر والمعاصي ومخالفةِ الرسولِ، ويؤمنوا بالله تعالى، ويطيعوا رسولَه كيلا يحلّ بهم مثلُ ما حلّ بأُولئك.

أو إنّ فيما فُصِّل مِن القصّة مِن حيث حكايتُه عليه السلام إيّاها على ما هي عليه مِن غير أن يسمعها مِن أحدٍ لآيةً عظيمةً دالَّة على أنّ ذلك بطريق الوحي الصادق موجِبةً للإيمان بالله تعالى وحده وطاعةِ رسوله عليه السلام.

﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم﴾ أي: أكثرُ هؤلاء الذين سمعوا قصّتَهم منه عليه السلام ﴿مُؤْمِنِينَ﴾ لا بأن يقيسوا شأنَه بشأن موسى عليهما السلام وحالَ أنفسهم بحال أولئك المكذّبين المهلَكِين، / ولا بأن يتدبّروا في حكايته عليه السلام لقصّتهم مِن غير أن يسمعها مِن أحد مع كون كلٍّ مِن الطريقين ممّا يؤدّي إلى الإيمان قطعًا. [٢٢٦و]

ومعنى ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ ما أكثرهم مؤمنين، على أنّ ﴿كَانَ﴾ زائدة كما هو رأي سيبويه، فيكون كقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف، ١٠٣/١٢]، وهو إخبار منه تعالى بما سيكون مِن المشركين بعدما سمعوا الآياتِ الناطقةَ بالقصّة تقريرًا لِما مرّ مِن قوله تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُواْ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ۞ فَقَدْ كَذَّبُواْ﴾... إلخ [الشعراء، ٥/٢٦-٦]. وإيثارُ الجملة الاسميّة للدلالة على استقرارهم على عدم الإيمان، واستمرارِهم عليه.

ويجوز أن يُجعل ﴿كَانَ﴾ بمعنى "صار" كما فُعِل ذلك في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة، ٣٤/٢]، فالمعنى: وما صار أكثرهم مؤمنين مع ما سمعوا مِن الآية العظيمة الموجِبة له بما ذُكِر مِن الطريقين، فيكون الإخبار

بعدم الصيرورة قبل الحدوث للدلالة على كمال تحقّقه وتقرّره، كقوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ الآيةَ [النحل، ١/١٦].

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٦٨﴾

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ الغالبُ على كلّ ما يريده مِن الأمور التي مِن جملتها الانتقام مِن المكذّبين. ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ المبالغ في الرحمة، ولذلك يُمهلهم، ولا يعجّل عقوبتَهم بعدم إيمانهم بعد مشاهدة هذه الآية العظيمة بطريق الوحي، مع كمال استحقاقهم لذلك. هذا هو الذي يقتضيه جزالة النظم الكريم مِن مَطلع السورة الكريمة إلى آخر القَصص السبع؛ بل إلى آخر السورة الكريمة اقتضاءً بيّنًا لا ريب فيه.

وأمّا ما قيل مِن أنّ ضمير ﴿أَكۡثَرُهُم﴾ لأهل عصر فرعونَ مِن القِبط وغيرهم، وأنّ المعنى: وما كان أكثر أهل مِصر مؤمنين حيث لم يؤمن منهم إلّا آسية، وحزقيل، ومريم ابنة ياموشا التي دلّت على تابوت يوسف عليه السلام، وبنو إسرائيل بعد ما نجَوا سألوا بقرةً يعبدونها، واتّخذوا العجل، وقالوا: ﴿لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةً﴾ [البقرة، ٥٥/٢]،[١] فبمَعزِل مِن التحقيق.

كيف لا، ومَساق كلّ قصّة مِن القَصص الواردة في السورة الكريمة سوى قصّة إبراهيم عليه السلام إنّما هو لبيان حال طائفةٍ معيّنةٍ قد عتَوا عن أمر ربّهم وعصَوا رسله عليهم السلام، كما يُفصح عنه تصدير القَصص بتكذيبهم المرسلين بعد ما شاهدوا بأيديهم مِن الآيات العظام ما يوجب عليهم الإيمان، ويزجرهم عن الكفر والعصيان، وأصرّوا على ما هم عليه مِن التكذيب، فعاقبهم الله تعالى لذلك بالعقوبة الدنيويّة، وقَطَع دابرهم بالكلّيّة، فكيف يمكن أن يُخبر عنهم بعدم إيمان أكثرهم لا سيّما بعد الإخبار بهلاكهم؟[٢] وعَدُّ المؤمنين[٣] مِن جملتهم أوّلًا

---

١ انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٤٠/٤.

٢ ط س: بإهلاكهم.

٣ وفي هامش م: أي: مِن كلّ طائفة مِن الطوائف المعدودة قبل تكامل الآيات التي معظمها وأقواها إلجاءً للإيمان هلاك المكذّبين. «منه».

وإخراجُهم منها آخرًا مع عدم مشاركتهم لهم في شيء ممّا حُكِي عنهم مِن الجنايات أصلًا ممّا يجب تنزيه التنزيل عن أمثاله، فتدبّر.[١]

﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ ۝٦٩﴾

﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ﴾ عطفٌ على المُضمَر المقدّر عاملًا لِـ﴿إِذۡ نَادَىٰ﴾،[٢] أي: وَاتْلُ على المشركينَ ﴿نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ أي: خبَره العظيم الشأنِ حسبما أوحي إليك لتقف على ما ذُكر مِن عدم إيمانهم بما يأتيهم مِن الآيات بأحد الطريقين.

﴿إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا تَعۡبُدُونَ ۝٧٠﴾

﴿إِذۡ قَالَ﴾ منصوب إمّا على الظرفيّة للنبأ، أي: نبَأه وقتَ قوله ﴿لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ﴾ أو على المفعوليّة لـ﴿ٱتۡلُ﴾ على أنّه بدل مِن ﴿نَبَأَ﴾، أي: واتلُ عليهم وقتَ قوله لهم: ﴿مَا تَعۡبُدُونَ﴾ على أنّ المتلوّ ما قاله لهم في ذلك الوقت. سألَهم عليه السلام عن ذلك لِيَبنِيَ على جوابهم أنّ ما يعبدونه بمَعزِل مِن استحقاق العبادة بالكلّيّة.

﴿قَالُواْ نَعۡبُدُ أَصۡنَامٗا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ۝٧١﴾

﴿قَالُواْ نَعۡبُدُ أَصۡنَامٗا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ﴾ لم يقتصروا على الجواب الكافي بأن يقولوا: ﴿أَصۡنَامٗا﴾، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلِ ٱلۡعَفۡوَ﴾ [البقرة، ٢/٢١٩]، وقولِه تعالى: ﴿مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡۚ قَالُواْ خَيۡرٗا﴾[٣] [النحل، ١٦/٣٠]، ونظائرِهما، بل أطنبوا فيه بإظهار الفعل.

وعطفُ دوام عكوفهم على أصنامهم قصدًا إلى إبراز ما في نفوسهم الخبيثة مِن الابتهاج والافتخار بذلك. / [٢٢٦ظ] والمراد بالظلول الدوام. وقيل: كانوا يعبدونها بالنهار دون الليل.

---

١ وفي هامش م: وعدّ بني إسرائيل ههنا مِن المؤمنين الناجين مع موسى عليه السلام يأباه التعرّض لبيان ما سيكون منهم مِن الكفر والفسوق. «منه».

٢ ط س + إلخ. | الشعراء، ١٠/٢٦.

٣ م ط س: قالوا الحقّ. | وهو في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّ﴾ [سبأ، ٢٣/٣٤].

وصلة العُكوف كلمة "على"، وإيرادُ "اللام" لإفادة معنى زائد، كأنّهم قالوا: فنظلّ لأجلها مقبلين على عبادتها، أو مستديرين حولها، وهذا أيضًا مِن جملة إطنابهم.

﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ۝٧٢﴾

﴿قَالَ﴾ استئناف مبنيّ على سؤال نشأ مِن تفصيل جوابهم: ﴿هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ﴾ أي: هل يسمعون دعاءكم؟ على حذف المضاف، أو يسمعونكم تدعون؟ كقولك: "سمعت زيدًا يقول: كيتَ وكيتَ"، فحُذف لدلالة قوله تعالى: ﴿إِذْ تَدْعُونَ﴾ عليه.

وقُرئ: "هَلْ يُسْمِعونكُمْ"[١] مِن "الإسماع"، أي: هل يُسمِعونكم شيئًا مِن الأشياء، أو الجوابَ عن دعائكم؟ وهل يقدرون على ذلك؟

وصيغة المضارع مع ﴿إِذْ﴾ على حكاية الحال الماضية لاستحضار صورتها، كأنّه قيل لهم: استحضروا الأحوالَ الماضية التي كنتم تدعونها فيها، وأجيبوا: هل سَمعوا؟ أو أَسمعوا قطّ؟

﴿أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ۝٧٣﴾

﴿أَوْ يَنفَعُونَكُمْ﴾ بسبب عبادتكم لها ﴿أَوْ يَضُرُّونَ﴾ أي: يضرّونكم بترككم لعبادتها؛ إذ لا بدّ للعبادة لا سيّما عند كونها على ما وَصفتم مِن المبالغة فيها مِن جلب نفع أو دفع ضرّ.

﴿قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ۝٧٤﴾

﴿قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ اعترفوا بأنّها بمَعزِل ممّا ذُكر مِن السمع والمنفعة والمضرّة بالمرّة، واضطرّوا إلى إظهار أن لا سندَ لهم سوى التقليد، أي: ما علمنا أو ما رأينا منهم ما ذُكر مِن الأمور؛ بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون، أي: مثل عبادتنا يعبدون فاقتدينا بهم.

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن قتادة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٥٥.

﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۝٧٥ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ۝٧٦ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٧٧﴾

﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ أي: أَنَظرتم فأبصرتم، أو أَتَأمّلتم فعلمتم ما كنتم تعبدونه ﴿أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ﴾ حقّ الإبصار، أو حقّ العلم؟

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ﴾ بيان لحال ما يعبدونه بعد التنبيه على عدم علمهم بذلك، أي: فاعلموا أنّهم أعداء لعابديهم الذين يحبّونهم كحبّ الله تعالى، لِما أنّهم يتضرّرون مِن جهتهم فوق ما يتضرّر الرجل مِن جهة عدوّه، أو لأنّ مَن يغريهم على عبادتهم ويحملهم عليها الشيطان الذي هو أعدى عدوّ الإنسان، لكنّه عليه السلام صوّر الأمر في نفسه تعريضًا بهم، فإنّه أنفع في النصيحة مِن التصريح، وإشعارًا بأنّها نصيحة بدأ بها نفسه ليكون أدعى إلى القبول. والعدوّ والصديق / يجيئان في معنى الواحد والجمع، ومنه قوله [٢٢٧و] تعالى: ﴿وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ [الكهف، ٥٠/١٨]، شُبِّها بالمصادر للموازنة، كـ"القَبول" و"الوَلوع" و"الحَنين" و"الصَّهيل".

﴿إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ استثناء منقطع، أي: لكن ربُّ العالمين ليس كذلك؛ بل هو وَلِيّي في الدنيا والآخرة، لا يزال يتفضّل عليّ بمنافعِهما حسبما يُعرِب عنه ما وصفه تعالى به مِن أحكام الولاية، وقيل: متّصل، وهو قول الزجّاج،[1] على أنّ الضمير لكلّ معبود، وكان مِن آبائهم مَن عبدَ اللهَ تعالى.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ۝٧٨﴾

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى﴾ صفة لـ﴿رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. وجعلُه مبتدأً وما بعده خبرًا[2] غيرُ حقيق بجزالة التنزيل. وإنّما وصفَه تعالى بذلك وبما عطفه عليه مع اندراج الكلّ تحتَ ربوبيّته تعالى للعالمين تصريحًا بالنعم الخاصّة به عليه السلام وتفصيلًا لها، لكونها أدخل في اقتضاء تخصيص العبادة به تعالى، وقصرِ الالتجاء في جلب المنافع الدينيّة والدنيويّة ودفع المضارّ العاجلة والآجلة عليه تعالى.

---

[1] انظر: معاني القرآن للزجّاج، ٩٣/٤.

[2] انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٤١/٤.

﴿فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ أي: هو يهديني وحده إلى كلّ ما يُهمّني ويُصلحني مِن أمور الدين والدنيا هدايةً مُتّصِلةً بحينِ الخلق ونفخِ الروح متجدّدةً على الاستمرار، كما ينبئ عنه "الفاء" وصيغة المضارع، فإنّه تعالى يَهدي كلَّ ما خَلقَه لِما خُلِق له مِن أمور المعاش والمعاد هدايةً متدرّجةً مِن مبدأ إيجاده إلى منتهى أجله يتمكّن بها مِن جلب منافعه ودفع مضارّه، إمّا طَبعًا، وإمّا اختيارًا مبدؤها بالنسبة إلى الإنسان هدايةُ الجنين لِامْتِصاصِ دمِ الطَّمْثِ، ومنتَهاها الهداية إلى طريق الجنّة والتنعّم بنعيمها المقيم.

﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ۝٧٩ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۝٨٠ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ۝٨١﴾

﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ﴾ عطفٌ على الصفة الأولى. وتكرير الموصول في المواقع الثلاثة مع كفاية عطف ما وقع في حيّز الصلة مِن الجمل الستّ على صلة الموصول الأوّل للإيذانِ بأنّ كُلّ / واحدةٍ مِن تلك الصلات نعتٌ [٢٢٧ظ] جليل له تعالى مستقِلّ في استيجاب الحكم، حقيقٌ بأن تُجرَى عليه تعالى بحِيالِها، ولا تُجعلَ مِن روادِف غيرها.

﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ عطفٌ على ﴿يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ﴾،[1] نُظِم معهما في سِلك الصلة لموصولٍ واحدٍ، لِما أنّ الصحّة والمرض مِن متفرّعات الأكل والشرب غالبًا.

ونسبةُ المرض إلى نفسه والشفاءِ إلى الله تعالى مع أنّهما منه تعالى لمراعاةِ حُسن الأدب، كما قال الخَضِر عليه السلام: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ [الكهف، ٧٩/١٨]، وقال: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا﴾ [الكهف، ٨٢/١٨].

وأمّا الإماتَة فحيث كانت مِن معظم خصائصه تعالى كالإحياء بدءًا وإعادةً وقد نِيطَت أمورُ الآخرة جميعًا بها وبما بعدها مِن البعث، نظمَهما في سِمطٍ[2] واحدٍ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ على أنّ الموت لكونه ذريعةً إلى نيله عليه السلام للحياة الأبديّة بمَعزِل مِن أن يكون غيرَ مطبوع عنده عليه السلام.

---

[1] في الآية السابقة.

[2] السِمط: الخَيط ما دام فيه الخَرزُ، وإلّا فهو سِلْك. الصحاح للجوهري، «سمط».

﴿وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ ٨٢﴾

﴿وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾ ذَكره عليه السلام هَضمًا لنفسه، وتعليمًا للأمّة أن يجتنبوا المعاصي، ويكونوا على حذرٍ وطلبِ مغفرةٍ لِما يفرط منهم، وتَلافِيًا لِما عسى يَندُر منه عليه السلام مِن الصغائر، وتنبيهًا لأبيه وقومه على أن يتأمّلوا في أمرهم، فيقِفُوا على أنّهم مِن سوء الحال في درجةٍ لا يُقادَرُ قدرُها، فإنّ حاله عليه السلام مع كونه في طاعة الله تعالى وعبادته في الغاية القاصية حيث كانت بتلك المثابة، فما ظنّك بحال أولئك المغمورين في الكفر وفنون المعاصي والخطايا؟

وحملُ "الخطيئة" على كلماته الثلاث: ﴿إِنِّي سَقِيمٞ﴾ [الصافات، ٨٩/٣٧]، ﴿بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ﴾ [الأنبياء، ٦٣/٢١]، وقولِه لسارة: «هي أُختي»،[١] ممّا لا سبيلَ إليه؛ لأنّها مع كونها معاريضَ لا مِن قَبيل الخطايا المفتقِرةِ إلى الاستغفار، إنّما صدَرتْ عنه عليه السلام بعد هذه المقاولة الجارية بينه وبين قومه. أمّا الثالثة فظاهرة لوقوعها بعد مهاجرته عليه السلام إلى الشام، وأمّا الأُولَيان فلأنّهما وقعتا مكتنِفتَين[٢] بكسر الأصنام، / ومن البَيّن أنّ جريان هذه المقالات فيما بينهم كان في مبادئ الأمر. [٢٢٨و]

وتعليق مغفرة الخطيئة بيوم الدين مع أنّها إنّما تُغفَر في الدنيا لأنّ أثرها يومئذ يتبيّن، ولأنّ في ذلك تهويلًا له وإشارةً إلى وقوع الجزاء فيه إن لم تُغفَر.

﴿رَبِّ هَبۡ لِي حُكۡمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ٨٣﴾

﴿رَبِّ هَبۡ لِي حُكۡمٗا﴾ بعدما ذَكر عليه السلام لهم فنونَ الألطاف الفائضة عليه مِن الله عزّ وجلّ مِن مبدأ خلقه إلى يوم بعثه حَمَلَه ذلك على مناجاته تعالى ودعائه، لربط العَتيد، وجلب المزيد. و"الحُكم" الحِكمة التي هي الكمال في العلم والعمل بحيث يتمكّن به مِن خِلافة الحقّ ورياسة الخلق.

---

[١] انظر: الكشّاف للزمخشري، ٣١٩/٣.

[٢] وفي هامش م: يقال: اكتنف الشيءَ، أي: أحاط به، و"الباء" لتضمين معنى الإحاطة. «منه».

﴿وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ ووفِّقني مِن العلوم والأعمال والملَكات لِما يُرَشِّحُني للانتظام في زُمرة الكاملين الراسخين في الصلاح، المنزّهين عن كبائر الذنوب وصغائرها، أو اجمع بيني وبينهم في الجنّة. ولقد أجابه تعالى حيث قال: ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [البقرة، ١٣٠/٢].

﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾﴾

﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ﴾ أي: جاهًا وحُسنَ صيتٍ في الدنيا، بحيث يبقى أثره إلى يوم الدين، ولذلك لا ترى أمّةً مِن الأمم إلّا وهي محِبّة له ومُثنية عليه، أو صادقًا مِن ذرّيّتي يجدّد أصل ديني، ويدعو الناس إلى ما كنت أدعوهم إليه مِن التوحيد، وهو النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، ولذلك قال عليه السلام: «أنا دعوة أبي إبراهيم عليه السلام».[1]

﴿وَٱجْعَلْنِى﴾ في الآخرة ﴿مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ﴾ وقد مرّ معنى "الوِراثة" في سورة مريم.[2]

﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾﴾

﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ﴾ بالهداية والتوفيق للإيمان كما يلوّح به تعليله بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ أي: طريقَ الحقّ، وقد مرّ تحقيق المقام في تفسير سورة التوبة[3] وسورة مريم[4] بما لا مزيد عليه.

﴿وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾﴾

﴿وَلَا تُخْزِنِى﴾ بمعاتبتي على ما فرّطتُ، أو بنقصِ رُتبتي عن بعض الوُرّاث، أو بتعذيبي، لخفاء العاقبة وجواز التعذيب عقلًا، كلّ ذلك مبنيّ على هضم النفس منه عليه السلام، أو بتعذيب والدِي، أو ببَعثه في عداد الضالّين

---

١ مسند أحمد، ٥٩٦/٣٦ (٢٢٢٦٢)؛ المستدرك للحاكم، ٦٥٦/٢ (٤١٧٤).
٢ مريم، ٦/١٩.
٣ التوبة، ١١٤/٩.
٤ مريم، ٤٧/١٩.

[٢٢٨ظ] بعدمِ / توفيقه للإيمان. وهو مِن "الخِزْي" بمعنى الهَوان، أو مِن "الخِزاية" بمعنى الحَياء.

﴿يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ أي: الناس كافّةً. والإضمار قبل الذكر لِما في عموم البعث مِن الشهرة الفاشية المُغنية عنه، وتخصيصه بالضالّين[١] ممّا يخلّ بتهويل اليوم.

﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾

﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ بدل مِن ﴿يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾،[٢] جيء به تأكيدًا لِلتهويل، وتمهيدًا لِما يَعقُبه مِن الاستثناء، وهو مِن أعمّ المفاعيل، أي: لا ينفع مالٌ -وإن كان مَصروفًا في الدنيا إلى وجوه البِرّ والخيرات- ولا بنونَ -وإن كانوا صلحاءَ مستأهِلين للشفاعة- أحدًا. ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ أي: عن مَرَضي الكفر والنفاق ضرورةَ اشتراط نفع كلّ منهما بالإيمان. وفيه تأييدٌ لِكون استغفاره عليه السلام لأبيه طلبًا لهدايته إلى الإيمان، لاستحالة طلب مغفرته بعد موته كافرًا مع علمه عليه السلام بعدم نفعه؛ لأنّه مِن باب الشفاعة.

وقيل: هو استثناء مِن فاعل ﴿يَنفَعُ﴾[٣] بتقدير المضاف، أي: إلّا مالُ مَن أو بَنُو مَن أتى اللهَ... الآيةَ. وقيل: المضاف المحذوف ليس مِن جنس المستثنى منه حقيقةً؛ بل بضَربٍ مِن الاعتبار، كما في قوله:

تـحـيّـةُ بـيـنِـهـم ضـــربٌ وجـيـعُ[٤]

أي: إلّا حالُ مَن أتى الله بقلب سليم، على أنّها عبارة عن سلامة القلب، كأنّه قيل: إلّا سلامة قلب مَن أتى اللهَ... الآيةَ.

وقيل: المضاف المحذوف ما دلّ عليه "المال والبَنون" مِن الغِنَى، وهو المستثنى منه، كأنّه قيل: يوم لا ينفع غِنًى إلّا غِنَى مَن أتى اللهَ... الآيةَ؛ لأنّ غِنَى المرء في دينه بسلامة قلبه. وقيل: الاستثناء منقطع، والمعنى: لكن سلامةُ قلبه تَنفعه.

---

[١] انظر: الكشّاف للزمخشري، ٣/٣٢٠؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٤/١٤٢.

[٢] في الآية السابقة.

[٣] في الآية السابقة.

[٤] صدره:

وخيـلٍ قـد دَلِـفْـتُ لـهـا بـخيـلٍ

لعمرو بن معدي كرب في ديوانه، ص ١٤٩.

﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ۞ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ۞﴾

﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ عطفٌ على ﴿لَا يَنفَعُ﴾،[١] وصيغةُ الماضي فيه وفيما بعده مِن الجمل المنتظَمة معه في سِلك العطف للدلالة على تحقّق الوقوع وتقرّره، كما أنّ صيغة المضارع في المعطوف عليه للدلالة على استمرار انتفاء النفع ودوامه حسبما يقتضيه مقامُ / التهويل والتفظيع، أي: قُرِّبَتِ الجنّة للمتّقين [٢٢٩و] عن الكفر والمعاصي بحيث يشاهدونها مِن الموقف، ويَقِفُون على ما فيها مِن فُنون المحاسن، فيَبتهجون بأنّهم المَحشورون إليها.

﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ الضالّين عن طريق الحقّ الذي هو الإيمان والتقوى، أي: جُعِلَت بارزةً لهم بحيث يَرونها مع ما فيها مِن أنواع الأحوال[٢] الهائلة، ويُوقِنون بأنّهم مُواقِعوها ولا يجدون عنها مَصرفًا.

﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۞ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ۞ فَكُبْكِبُواْ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ۞﴾

﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ في الدنيا ﴿تَعْبُدُونَ ۞ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: أين آلهتكم الذين كنتم تزعمون في الدنيا أنّهم شفعاؤُكم في هذا الموقف. ﴿هَلْ يَنصُرُونَكُمْ﴾ بدفع العذاب عنكم ﴿أَوْ يَنتَصِرُونَ﴾ بدفعِه عن أنفسهم، وهذا سؤال تقريعٍ وتبكيت، لا يُتَوَقَّع له جواب، ولذلك قيل: ﴿فَكُبْكِبُواْ فِيهَا﴾ أي: أُلقوا في الجحيم على وجوههم مرّةً بعد أخرى إلى أن يستقرّوا في قَعرها، ﴿هُمْ﴾ أي: آلِهتُهم ﴿وَٱلْغَاوُۥنَ﴾ الذين كانوا يعبدونهم. وفي تأخير ذكرِهم عن ذكر آلهتهم رَمزٌ إلى أنّهم يؤخَّرون عنها في الكَبكَبة ليُشاهِدوا سوءَ حالها، فيزدادوا غمًّا إلى غمّهم.

﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ۞ قَالُواْ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ۞ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۞ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۞﴾

﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ﴾ أي: شياطينه الذين كانوا يُغوُونَهم، ويُوسوِسون إليهم، ويسوّلون لهم ما هم عليه مِن عبادة الأصْنام، وسائرِ فنون الكفر والمعاصي،

---

[١] الشعراء، ٨٨/٢٦.

[٢] ط س: الأهوال.

لِيجتمعوا في العذاب حسبما كانوا مجتمعين فيما يوجبه. وقيل: متّبعوه مِن عُصاة الثقلين، والأوّلُ هو الوجه. ﴿أَجْمَعُونَ﴾ تأكيد للضمير وما عُطف عليه.

وقوله تعالى: ﴿قَالُواْ﴾... إلخ استئناف وقع جوابًا عن سؤال نشأَ مِن حكاية حالهم، كأنّه قيل: ماذا قالوا حين فُعِل بهم ما فُعِل؟ فقيل: قال العَبَدة ﴿وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ﴾ أي: قالوا معترفين بخطَئِهم في انهماكهم في الضلالة، متحسّرين مُعَيِّرِين لأنفسهم، والحالُ / أنّهم في الجحيم بصدد الاختصام مع مَن معهم [٢٢٩ظ] مِن المذكورين، مُخَاطِبين لِمَعْبودِيهم على أنّ الله تعالى يجعل الأصنام صالحةً للاختصام بأن يُعطيَها القدرةَ على الفهم والنطق: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿إِن﴾ مخفّفة مِن الثقيلة، قد حُذف اسمها الذي هو ضمير الشأن، و"اللام" فارِقة بينها وبين النافية، أي: إنّ الشأن كنّا في ضلال واضح لا خفاءَ فيه.

ووصفهم له بالوضوح للإشباع في إظهار ندَمهم وتحسُّرهم، وبيانِ عِظَم خطئهم في رأيهم مع وضوح الحقّ، كما يُنبئ عنه تصديرُ قَسَمهم بحرف "التاء" المشعِرة بالتعجّب.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ظرف لكونهم في ضلال مبين. وقيل: لِما دلّ عليه الكلام، أي: ضَلَلنا. وقيل: للضلال المذكور، وإن كان فيه ضعف صناعي مِن حيث إنّ المصدر الموصوف لا يعمل بعد الوصف. وقيل: ظرف لـ﴿مُبِينٍ﴾.[١] وصيغة المضارع لاستحضار الصورة الماضية، أي: تاللهِ لقد كنّا في غاية الضلال الفاحش وقتَ تسويتنا إيّاكم أيّها الأصنام في استحقاق العبادة بربّ العالمين الذي أنتم أدنى مخلوقاته وأذلُّهم وأعجزُهم.

﴿وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾

وقولهم: ﴿وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ بيان لسبب ضلالهم بعد اعترافهم بصدوره عنهم، لكن لا على معنى قصر الإضلال على المجرمين دون مَن عَداهم؛ بل على معنى قَصر ضلالهم على كونه بسبب إضلالهم مِن غير أن يَستقِلّوا

---

[١] في الآية السابقة.

في تحققه أو يكونَ بسبب إضلال الغير، كأنّه قيل: وما صدر عنّا ذلك الضلال الفاحش إلّا بسبب إضلالهم.

والمراد بـ"المجرمين" الذين أضلّوهم رؤساؤهم وكُبراؤهم، كما في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾ [الأحزاب، ٦٧/٣٣]. وعن السُّدّي رحمه الله: «الأوّلون الذين اقتدَوا بهم».[1]

وأيًا ما كان ففيه أوفَرُ نصيبٍ مِن التعريض للذين قالوا: ﴿بَلۡ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ﴾.[2] وعن ابن جريج: «إبليس وابن آدم القاتلُ»؛[3] لأنّه أوّل مَن سَنّ القتلَ وأنواعَ المعاصي.

﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ﴾ كما للمؤمنين مِن الملائكة والأنبياء عليهم الصلاة والسلام.[4]

﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٖ﴾ / كما نرى[5] لهم أصدقاءَ، أو فما لنا مِن شافعين ولا صديقٍ حميم مِن الذين كنّا نعدّهم شفعاءَ وأصدقاءَ، على أنّ عدمهما كناية عن عداوتهما، كما أنّ عدم المحبّة في مثل قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ﴾ [البقرة، ٢٠٥/٢] كناية عن البغض حسبما يُنبئ عنه قوله تعالى: ﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف، ٦٧/٤٣]؛ أو وَقَعْنا في مَهلكة لا يخلّصنا منها شافع ولا صديق، على أنّ المراد بعدمهما عدمُ أثَرهما. [٢٣٠و]

وجمع "الشافع" لكثرة الشفعاء عادةً، كما أنّ إفراد "الصَّديق" لقِلّته، أو لصحّة إطلاقه على الجمع كالعدوّ تشبيهًا لهما بالمصادر، كـ"الحَنين" و"القَبول".

﴿فَلَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةٗ فَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٠٢﴾

وكلمة ﴿لَوۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَلَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةٗ﴾ للتمنّي كـ"لَيت"، لِما أنّ بين مَعنَيَيهما تلاقِيًا في معنى الفرض والتقدير، كأنّه قيل: فليت لنا كرّةً، أي:

---

١ الكشّاف للزمخشري، ٣٢٢/٣؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ١٧٠/٨.

٢ الشعراء، ٧٤/٢٦.

٣ الكشّاف للزمخشري، ٣٢٢/٣؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ١٧٠/٨. وهو في جامع البيان للطبري، ٥٩٩/١٧، عن ابن جريج عن عكرمة.

٤ س: عليهم السلام.

٥ ط س: يرى.

رجعةً إلى الدنيا. وقيل: هي على أصلها مِن الشرط، وجوابُه محذوف، كأنّه قيل: فَلو أنّ لنا[١] كرّةً لَفعلنا مِن الخيرات كَيتَ وكَيتَ،[٢] ويأباه قوله تعالى: ﴿فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لِتَحَتّم كونِه جوابًا للتمنّي مُفيدًا لِترتّب إيمانهم على وقوع الكرّة البتّة بلا تخلّفٍ كما هو مقتضى حالِهم.

وعطفُه على ﴿كَرَّةً﴾ على طريقة:

لَلُبسُ عَباءةٍ وتَقرّ عيني[٣]

كما يستدعيه كونُ ﴿لَوْ﴾ على أصلها إنّما يُفيد تحقّق مضمون الجواب، على تقدير تحقّق كَرّتهم وإيمانهم معًا مِن غير دلالة على استلزام الكَرّة للإيمان أصلًا مع أنّه المقصود حتمًا.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝١٠٣﴾

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي: فيما ذُكر مِن نبأِ إبراهيم عليه السلام المشتمِل على بيان بطلان ما كان عليه أهل مكّة مِن عبادة الأصنام، وتفصيلِ ما يئول إليه أمرُ عَبَدتها يوم القيامة مِن اعترافهم بخطئهم الفاحش، ونَدَمِهم وتحسّرِهم على ما فاتهم مِن الإيمان، وتمنّيهم الرجعةَ إلى الدنيا ليكونوا مِن المؤمنين عند مشاهدتهم لِما أُزلفت لهم جنّات النعيم، وبُرّزت لِأنفسِهم الجَحيم، وغَشيهم ما غَشيهم مِن ألوان العذاب وأنواع العقاب.

﴿لَآيَةً﴾ أي: آيةً عظيمةً لا يُقادَر قَدرُها موجبةً على عَبَدة الأصنام كافّةً لا سيّما على أهل مكّة الذين يدّعون أنّهم على ملّة إبراهيم عليه السلام أن يجتنبوا كلّ الاجتناب ما كانوا عليه مِن عبادتها خوفًا أن يَحيق بهم مثلُ ما حاق بأولئك مِن العذاب بحُكم الاشتراك فيما يوجبه، أو أنّ في ذكرِ نَبَئِه وتلاوته عليهم على ما هو عليه مِن غير أن تسمعَه مِن أحدٍ لآيةً عظيمةً دالّةً على أنّ ما تَتلوه عليهم / وحي صادق نازل مِن جهة الله تعالى موجبةً للإيمان به قطعًا. [٢٣٠ظ]

---

١ س: كنا.

٢ الكشّاف للزمخشري، ٣/٣٢٣.

٣ وفي هامش م: آخره:

أحبُّ إليّ مِن لُبس الشفوفِ

البيت لميسون بنت بَحدل الكلابيّة في لسان العرب لابن منظور، «مسن».

﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: أكثر هؤلاء الذين تتلو عليهم النبأ مؤمنين؛ بل هم مُصِرّون على ما كانوا عليه مِن الكفر والضلال. وأمّا أنّ ضمير ﴿أَكْثَرُهُم﴾ لقوم إبراهيم عليه السلام كما توهّموا[١] فممّا لا سبيل إليه أصلًا، لظهور أنّهم ما ازدادوا بما سمعوا منه عليه السلام إلّا طغيانًا وكفرًا حتّى اجترأوا على تلك العظيمة التي فعلوا به عليه السلام، فكيف يُعبَّر عنهم بعدم إيمان أكثرهم، وإنّما آمَن له لوط فنجّاهما الله عزّ وجلّ إلى الشّام؟ وقد مرّ بقيّة الكلام في آخر قصّة موسى عليه السلام.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝١٠٤ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٠٥ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۝١٠٦ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝١٠٧ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١٠٨﴾

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي: هو القادر على تعجيل العقوبة لقومك، ولكنّه يمهلهم بحكم رحمته الواسعة، ليؤمن بعض منهم، أو مِن ذرّيّاتهم.

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ "القوم" مؤنّث، ولذلك يصغّر على "قُوَيْمَةٍ"، وقيل: "القوم" بمعنى "الأُمّة". وتكذيبُهم للمرسلين إمّا باعتبار إجماع الكلّ على التوحيد وأصول الشرائع التي لا تختلف باختلاف الأزمنة والأعصار، وإمّا لأنّ المراد بالجمع الواحد كما يقال: "فلان يركب الدوابّ، ويلبس البُرود"، وما له إلّا دابّة وبُردة.

و﴿إِذْ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ﴾ ظرف للتكذيب على أنّه عبارة عن زمان مديدٍ وقع فيه ما وقع مِن الجانبين إلى تمام الأمر، كما أنّ تكذيبهم عبارة عمّا صدَر عنهم مِن حين ابتداء دعوته عليه السلام إلى انتهائها. ﴿أَخُوهُمْ﴾ أي: نَسِيبُهم ﴿نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ الله حيث تعبدون غيرَه. ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ﴾ مِن جهته تعالى ﴿أَمِينٌ﴾ مشهور بالأمانة فيما بينكم. ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ فيما آمُرَكم به مِن التوحيد والطاعة لله تعالى.

﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٠٩ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١١٠﴾

﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: على ما أنا متَصدٍّ له مِن الدعاء والنصح ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ أصلًا، ﴿إِنْ أَجْرِيَ﴾ فيما أتولّاه ﴿إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

---

[١] انظر: **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١٤٣/٤.

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها مِن تنزّهه عليه السلام مِن الطمع، كما أنّ نظيرتها السابقة لترتيب ما بعدها على أمانته. والتكرير للتأكيد والتنبيه على أنّ كلًّا منهما مستقِلّ في إيجاب التقوى والطاعة، فكيف إذا اجتمعا؟ وقُرئ: "إِنْ أَجْرِي" بسكون "الياء".[١]

﴿قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ۝١١١ قَالَ وَمَا عِلۡمِي بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝١١٢﴾

﴿قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ﴾ أي: الأقلّون جاهًا ومالًا، جمع "الأرذل" على الصحّة، فإنّه بالغلبة صار جاريًا مَجرى الاسم، كـ"الأكبر" و"الأكابر". وقيل: جمع "أَرْذُل" جمعِ "رَذْلٍ"، كـ"أَكَالِب" و"أَكْلُب" و"كَلْب".

[٢٣١و] وقُرئ: "وَأَتْبَاعُكَ"،[٢] وهو / جمع "تابع"، كـ"شاهد" و"أشْهَاد"، أو جمع "تَبَعٍ"، كـ"بَطَلٍ" و"أبطال".

يعنون أنّه لا عبرةَ باتّباعهم لك، إذ ليس لهم رَزانةُ عقل ولا إصابةُ رأي، وقد كان ذلك منهم في بادي الرأي، كما ذُكر في موضع آخر، وهذا مِن كمال سخافة عقولهم، وقَصْرِهم أنظارَهم على حطام الدنيا، وكونِ الأشرف عندهم مَن هو أكثر منها حظًّا، و"الأرذل" مَن حُرِمَها، وجهلِهم بأنّها لا تَزِن عند الله تعالى جناحَ بعوضة، وأنّ النعيم هو نعيم الآخرة، والأشرفُ مَن فَازَ بِه، والأرذَلُ مَن حُرِمَه.

﴿قَالَ وَمَا عِلۡمِي بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ جواب عمّا أشيرَ إليه مِن قولهم: إنّهم لم يؤمنوا عن نظَر وبَصيرة، أي: ما وظيفتي إلّا اعتبارُ الظواهر وبناءُ الأحكام عليها دون التفتيش عن بواطنهم والشقّ عن قلوبهم.

﴿إِنۡ حِسَابُهُمۡ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّيۖ لَوۡ تَشۡعُرُونَ ۝١١٣﴾

﴿إِنۡ حِسَابُهُمۡ﴾ أي: ما محاسبةُ أعمالِهم والتنقير عن كيفيّاتها البارزة والكامنة ﴿إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي﴾ فإنّه المُطّلِع على السرائر والضمائر ﴿لَوۡ تَشۡعُرُونَ﴾ أي:

---

١ قرأ بها ابن كثير وحمزة والكسائي وخلف ويعقوب وشعبة. انظر: النشر لابن الجزري، ٢/٣٣٦.

٢ قرأ بها يعقوب. انظر: النشر لابن الجزري، ٢/٣٣٥.

بشيء مِن الأشياء، أو لو كنتم مِن أهل الشعور لَعلمتم ذلك، ولكنّكم لَستُم كذلك، فتقولون ما تقولون.

﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١١٤ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝١١٥﴾

﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ جواب عمّا أوهمه كلامُهم مِن استدعاءِ طَرْدِهم وتعليقِ إيمانِهم بذلك حيث جَعَلوا اتّباعهم مانِعًا عنه.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ كالعلّة له، أي: ما أنا إلّا رسول مَبعوث لإنذار المكلَّفين وزجرِهم عن الكفر والمعاصي، سواء كانوا مِن الأعزّاء أو الأذلّاء، فكيف يتسنّى لي طرد الفقراء لاستتباع الأغنياء؟ أو ما عليّ إلّا إنذاركم بالبرهان الواضح، وقد فعلتُه، وما عليّ استرضاء بعضِكم بطرد الآخرين.

﴿قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ۝١١٦ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ۝١١٧ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١١٨﴾

﴿قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ﴾ عمّا تقول ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾ / مِن المَشْتومين، أو المَرميّين بالحجارة، قالوه قاتلهم الله تعالى في أواخر الأمر. [٢٣١ظ]

ومعنى قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ﴾ تَمُّوا على تكذيبي وأصَرّوا على ذلك بعد ما دعوتُهم هذه الأزمنةَ المتطاولةَ، ولم يزدهم دعائي إلّا فِرارًا، كما يُعرِب عنه دعاؤه بقوله: ﴿فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا﴾ أي: احكُم بيننا بما يستحقّه كلّ واحد منّا، وهذه حكاية إجماليّة لدعائه المفصَّل في سورة نوح.

﴿وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: مِن قَصدِهم، أو مِن شُؤم أعمالهم.

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ۝١١٩ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ۝١٢٠ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝١٢١ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝١٢٢﴾

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ﴾ حسب دعائه ﴿فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ أي: المَملوء بهم وبما لا بدّ لهم منه.

﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ﴾ أي: بعدَ إنجائهم ﴿ٱلْبَاقِينَ﴾ أي: مِن قومه.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۞ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ الكلام فيه كالذي مرّ، خلا أنّ حَمْل ﴿أَكْثَرُهُم﴾ على أكثر قوم نوح أبعد مِن السداد وأبعد.

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٢٣ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۝١٢٤﴾

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أُنِّث ﴿عَادٌ﴾ باعتبار القبيلة، وهو اسم أبيهم الأقصى.

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ الكلام في أنّ المراد بتكذيبهم وبما وقع فيه مِن الزمان ماذا كما مرّ في صدر قصّة نوح عليه السلام، أي: ألا تتّقون الله تعالى، فتفعلون ما تفعلون.

﴿إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝١٢٥ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١٢٦ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٢٧﴾

﴿إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۞ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۞ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ الكلام فيه كالذي مرّ. وتَصدير القصص به للتنبيه على أنّ مبنى البعثة هو الدعاء إلى معرفة الحقّ، والطاعة فيما يقرّب المدعوّ إلى الثواب، ويبعّده مِن العقاب، وأنّ / الأنبياء عليهم السلام مجمِعون على ذلك [٢٣٢و] وإن اختلفوا في بعض فروع الشرائع المختلفة باختلاف الأزمنة والأعصار، وأنّهم متنزِّهون عن المطامع الدنيّة، والأغراض الدنيويّة بالكلّيّة.

﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ۝١٢٨﴾

﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ﴾ أي: مكانٍ مرتفع، ومنه "رِيع الأرض" لارتفاعها. ﴿ءَايَةً﴾ علَمًا للمارّة ﴿تَعْبَثُونَ﴾ ببنائها، إذ كانوا يهتدون بالنجوم في أسفارهم، فلا يحتاجون إليها، أو بروجَ الحَمام، أو بنيانًا يجتمعون إليه لِيَعبثوا بمَن مرّ عليهم، أو قصورًا عالية يفتخرون بها.

﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾﴾

﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ﴾ أي: مآخذ الماء. وقيل: قصورًا مُشيّدةً وحصونًا ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ أي: راجين أن تَخلُدوا في الدنيا، أي: عاملين عملَ مَن يرجو ذلك، فلذلك تُحكِمون بنيانها.

﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾﴾

﴿وَإِذَا بَطَشْتُم﴾ بسَوطٍ أو سيف ﴿بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ مسلّطين غاشمين بلا رأفة، ولا قصدِ تأديب، ولا نظرٍ في العاقبة.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾﴾

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ واتركوا هذه الأفعال ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ فيما أدعوكم إليه، فإنّه أنفع لكم.

﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾﴾

﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ﴾ مِن ألوان النَّعماء، وأصناف الآلاءِ. أجمَلَها أوّلًا ثمّ فصّلها بقوله: ﴿أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ﴾ بإعادة الفعل لزيادة التقرير، فإنّ التفصيل بعد الإجمال والتفسيرَ إثرَ الإبهام أدخَلُ في ذلك.

﴿وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾﴾

﴿وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ إن لم تقوموا بشكر هذهِ النعم ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ في الدنيا والآخرة، فإنّ كُفران النعمة مستتبع للعذاب، كما أنّ شُكرها مستلزِم لزيادتها، قال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم، ١٤/٧].

﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾﴾

﴿قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ﴾ فإنّا لن نرعَويَ عمّا نحن عليه. وتغييرُ الشِّقّ الثاني عن مقابِله للمبالغة في / بيان قِلّة اعتدادهم بوَعظه، كأنّهم قالوا: أم لم تكن مِن أهل الوعظ ومباشريه أصلًا. [٢٣٢ظ]

﴿إِنْ هَٰذَآ﴾ ما هذا الذي جئتَنا به ﴿إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: عادتهم، كانوا يلفِّقون مثلَه ويسطِّرونه، أو ما هذا الذي نحن عليه مِن الدين إلّا خُلُق الأوّلين وعادتهم، ونحن بهم مقتدون، أو ما هذا الذي نحن عليه مِن الموت والحياة إلّا عادة قديمة لم يزَل الناس عليها. وقُرئ: "خَلْقُ الأَوَّلِينَ" بفتح "الخاء"،[١] أي: اختلاقُ الأوّلين، كما قالوا: "أساطير الأوّلين"، أو ما خَلقُنا هذا إلّا خَلقُهم، نَحْيَى كما حَيُوا، ونَموت كما ماتوا، ولا بعثَ ولا حسابَ، ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ على ما نحن عليه مِن الأعمال.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾﴾

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ أي: أصرّوا على ذلك، ﴿فَأَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ بسببه بريح صَرصَر. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾﴾

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ الله تعالى، ﴿إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ﴾ إنكار ونفي لِأن يُترَكوا فيما هم فيه مِن النعمة، أو تذكير للنعمة في تخليته تعالى إيّاهم وأسبابَ تنعّمهم آمنين.

وقوله تعالى: ﴿فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ تفسير لِما قبله مِن المبهم. و"الهَضيم": اللّطيف الليّن للطف الثمر، أو لأنّ النخل أنثى،

---

[١] قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب والكسائي وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٣٣٥.

وطلعُ الإناث ألطف، وهو ما يطلع منها كنَصل السيف، في جوفه شماريخ القِنو،[١] أو مُتَدَلٍّ متكسّر مِن كَثرة الحمل. وإفرادُ النخل لفضله على سائر أشجار الجنّات، أو لأنّ المراد بها غيرُها مِن الأشجار.

﴿وَتَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا فَٰرِهِينَ ۝١٤٩ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١٥٠ وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمۡرَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ۝١٥١ ٱلَّذِينَ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ ۝١٥٢﴾

﴿وَتَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا فَٰرِهِينَ﴾ بَطِرين، أو حاذقين، مِن "الفَراهة"، وهي النشاط، فإنّ الحاذق يعمل بنشاطٍ وطِيب قلب. وقُرئ: "فَرِهِينَ"،[٢] وهو أبلَغ.

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝ وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمۡرَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ استعير الطاعة التي هي انقيادُ الأمِر لامتثال الأمر وارتسامِه، أو نُسِب حكم الآمِر إلى أَمْره مجازًا.

﴿ٱلَّذِينَ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ وصفٌ موضّح لإسرافهم، ولذلك عُطف ﴿وَلَا يُصۡلِحُونَ﴾ على ﴿يُفۡسِدُونَ﴾ لبيان خلوص إفسادهم عن مخالطة / الإصلاح. [٢٣٣و]

﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ۝١٥٣ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا فَأۡتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝١٥٤﴾

﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ﴾ أي: الذين سُحِّرُوا حتّى غلب على عقولهم، أو مِن ذَوي السَّحر، أي: الرئة، أي: مِن الإنس، فيكون قوله تعالى: ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا﴾ تأكيدًا له. ﴿فَأۡتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أي: في دعواك.

﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٞ لَّهَا شِرۡبٞ وَلَكُمۡ شِرۡبُ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ۝١٥٥﴾

﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٞ﴾ أي: بعدما أخرجها الله تعالى مِن الصخرة بدعائه عليه السلام حسبما مرّ تفصيله في سورة الأعراف[٣] وسورة هود،[٤] ﴿لَّهَا شِرۡبٞ﴾ أي:

---

[١] "شَماريخ" جمع شُمْرُوخ، وهو غُصن دقيق يكون في أعلى الغُصن الغليظ. والقِنو: العِذق بما فيه مِن الرطب. انظر: لسان العرب لابن منظور، «شمرخ»؛ «قنو».

[٢] قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٣٣٦.

[٣] الأعراف، ٧/٧٣.

[٤] هود، ١١/٦٤.

نصيب مِن الماء، كـ"السِّقْي" و"القِيتِ" للحظّ مِن "السَّقي" و"القُوت". وقُرئ بالضمّ.[1] ﴿وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ فاقتنِعوا بشِربكم، ولا تزاحِموا على شِربها.

﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ١٥٦ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَـٰدِمِينَ ١٥٧﴾

﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾ كضَربٍ وعَقْرٍ ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وُصِف اليوم بالعِظَم لعِظَم ما يحلّ فيه، وهو أبلغ مِن تعظيم العذاب.

﴿فَعَقَرُوهَا﴾ أسندَ العَقْر إلى كلّهم لِما أنّ عاقرها عَقَرَها برأيهم، ولذلك عمّهم العذاب، ﴿فَأَصْبَحُوا۟ نَـٰدِمِينَ﴾ خوفًا مِن حلول العذاب، لا توبةً، أو عند معاينتهم لمَباديه، ولذلك لم ينفعهم الندم وإن كان بطريق التوبة.

﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ١٥٨ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ١٥٩﴾

﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ أي: العذاب الموعود.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۞ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ قيل: في نفي الإيمان عن أكثرهم في هذا المَعرِض إيماءٌ إلى أنّه لو آمَن أكثرهم أو شَطرهم لَما أُخِذوا بالعذاب، وأنّ قريشًا إنّما عُصِموا مِن مِثله ببَركة مَن آمَن منهم،[2] وأنت خبير بأنّ قريشًا هم المشهورون بعدم إيمان أكثرهم.

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ١٦٠ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ١٦١ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ١٦٢ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٦٣ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ١٦٤ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ١٦٥﴾

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ۞ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۞ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۞ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۞ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۞

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. البحر المحيط لأبي حيّان، ١٨٣/٨.

[2] أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٤٧/٤.

/﴿أَتَأۡتُونَ ٱلذُّكۡرَانَ مِنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي: أتأتون مِن بَين مَن عَداكم[1] مِن العالمين الذُّكرانَ لا يشارككم فيه غيركم، أو أتأتون الذُّكرانَ[2] مِن أولاد آدم مع كَثرتهم وغَلبةِ النساء فيهم[3] مع كونهنّ أليقَ بالاستمتاع. فالمراد بـ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ على الأوّل كلُّ ما يُنكح مِن الحيوان،[4] وعلى الثاني الناسُ.[5] [٢٣٣ظ]

﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٌ عَادُونَ ١٦٦﴾

﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمۡ رَبُّكُم﴾ لأجل استمتاعكم. وكلمة ﴿مِّنۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُم﴾ للبيان إن أريدَ بها جنس الإناث، وهو الظاهر، وللتبعيض إن أريدَ بها العضو المباحُ منهنّ، تعريضًا بأنّهم كانوا يفعلون ذلك بنسائهم أيضًا.

﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٌ عَادُونَ﴾ متعدّون متجاوزون الحدَّ في جميع المعاصي، وهذا مِن جملتها. وقيل: متجاوزون عن حدّ الشهوة حيث زادوا على سائر الناس؛ بل الحيوانات.

﴿قَالُواْ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُخۡرَجِينَ ١٦٧﴾

﴿قَالُواْ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰلُوطُ﴾ أي: عن تقبيح أمرنا، أو نَهْينا عنه، أو عن دعوى النبوّة التي مِن جملة أحكامها التعرّضُ لنا ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُخۡرَجِينَ﴾ أي: مِن المَنفيّين مِن قريتنا، وكأنّهم كانوا يُخرِجون مَن أخرجوه مِن بينهم على عنف وسُوءِ حال.

---

[1] ط س: بني آدم. | يظهر أثر كشطٍ في نسخة المؤلّف، فلعلّه صحّحها بعد نسخ ط س.
[2] ط س: أو أتأتونهم. | يظهر أثر كشطٍ في نسخة المؤلّف، فلعلّه صحّحها بعد نسخ ط س.
[3] م ط س - فيهم ["صح" في هامش م].
[4] وفي هامش م: وبـ﴿ٱلذُّكۡرَانَ﴾ ذكرانُه، و﴿مِن﴾ متعلّقة بـ﴿تَأۡتُونَ﴾ على أنّ المراد به إثباتًا بحسب المنطوق ونفيًا بحسب المفهوم إتيانُ كلّ عالمٍ لذكرانه، لا لذكران غيره. «منه».
[5] وفي هامش م: وبـ﴿ٱلذُّكۡرَانَ﴾ ذكرانُهم، و﴿مِن﴾ متعلّقة بـ﴿ٱلذُّكۡرَانَ﴾، والمنكر على كِلا الوجهين إتيانهم الرجل قطعًا كما في قوله تعالى: ﴿لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ﴾ الآية [الأعراف، ٨١/٧]، خلا أنّ في الأوّل إشباعًا في التوبيخ، والتعبير ببيان أنّهم أسوأ حالًا ممّن عداهم مِن العقلاء وغيرهم جميعًا حيث يفعلون ما لا يفعله أحد منهم. «منه».

﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾﴾

﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ﴾ أي: مِن المُبغِضين غايةَ البُغض، كأنّه يُقلَى الفؤاد والكبد لشدّته، وهو أبلغ مِن أن يقال: إنّي لِعملكم قالٍ، لدلالته على أنّه عليه السلام مِن زُمرة الراسخين في بُغضه المشهورين في قَلاه، ولعلّه عليه السلام أراد إظهار الكراهة مِن مُساكَنتهم، والرغبةِ في الخلاص مِن سوء جِوارهم، ولذلك أعرض عن محاورتهم، وتوجّه إلى الله تعالى قائلًا: ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ أي: مِن شؤم عملهم وغائلته.

﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾﴾

﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ﴾ أي: أهلَ بيته ومَن اتّبعه في الدين بإخراجهم مِن بينهم عند مشارفة حلول العذاب بهم.

﴿إِلَّا عَجُوزًا﴾ هي امرأة لوط، استُثنيت مِن أهله، فلا يضرّه كونها كافرة؛ لأنّ لها شركةً في الأهليّة بحقّ الزواج. ﴿فِي ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ أي: مقدّرًا كونُها مِن الباقين في العذاب؛ لأنّها كانت مائلةً / إلى القوم، راضيةً بفعلهم، وقد أصابها [٢٣٤و] الحَجَر في الطريق فأهلكها كما مرّ في سورة الحِجر[1] وسورة هود.[2] وقيل: كانت فيمَن بقيَ في القرية، ولم تخرج مع لوط عليه السلام.

﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾﴾

﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ﴾ أهلكناهم أشدَّ إهلاك وأفظعَه.

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾ أي: مطرًا غير معهود. قيل: أمطَر الله تعالى على شُذّاذ القوم حجارة فأهلكَتْهم، ﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ "اللام" فيه للجنس، وبه يتسنّى وقوعُ المضاف إليه فاعلَ ﴿سَآءَ﴾، والمخصوص بالذمّ محذوف، وهو مطَرهم.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

---

١ الحجر، ٦٠/١٥.

٢ هود، ٨١/١١.

﴿كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٧٦ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ شُعَيۡبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ١٧٧﴾

﴿كَذَّبَ[1] أَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ "الأيكة" الغيضة التي تُنبت ناعم الشجر، وهي غَيضة بقرب مَديَن يسكنها طائفة، وكانوا ممّن بُعِث إليهم شعيب عليه السلام، وكان أجنبيًّا منهم، ولذلك قيل: ﴿إِذۡ قَالَ لَهُمۡ شُعَيۡبٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ ولم يُقَل: "أخوهم". وقيل: "الأيكة" الشجرُ الملتَفّ، وكان شجرهم الدَّوْمَ، وهو المُقْل.

وقُرئ بحذف الهمزة وإلقاءِ حركتها على اللام.[2] وقُرئت كذلك مفتوحةً[3] على أنّها "لَيْكَة"، وهي اسم بلدهم، وإنّما كُتبت ههنا وفي "ص"[4] بغير ألف اتّباعًا للَفظ اللافظ.

﴿إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ١٧٨ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٧٩ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٨٠ أَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُخۡسِرِينَ ١٨١﴾

﴿إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ۞ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۞ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۞ أَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ﴾ أي: أتِمّوه ﴿وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُخۡسِرِينَ﴾ أي: حقوقَ الناس بالتطفيف.

﴿وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِ ١٨٢﴾

﴿وَزِنُواْ﴾ أي: المَوزونات ﴿بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِ﴾ بالميزان السويّ، وهو إن كانَ عربيًّا، فإن كان مِن "القِسْط" فـ"فِعْلَاس" بتكرير العين، وإلّا فـ"فِعلال". وقُرئ بضمّ القاف.[5]

﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ١٨٣﴾

﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ / أَشۡيَآءَهُمۡ﴾ أي: لا تنقصوا شيئًا مِن حقوقهم، أيّ حقّ كان، وهذا تعميم بعد تخصيص بعضِ الموادّ بالذكر لغاية انهماكهم فيها، [٢٣٤ظ]

---

[1] م ط س: كذّبت.

[2] بجرّ التاء قراءة شاذّة، مرويّة عن الزهري. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٥٦.

[3] قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢/٣٣٦.

[4] ص، ٣٨/١٣.

[5] قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر وشعبة. النشر لابن الجزري، ٢/٣٠٧.

﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ بالقتل والغارة وقطع الطريق.

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾﴾

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: وذَوي الجِبِلّة الأوّلين، وهم مَن تقدّمهم مِن الخلائق. وقُرئ بضمّ "الجيم" و"الباء"،[1] وبكسر "الجيم" وسكون الباء كـ"الخِلقة".[2]

﴿قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ۝ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ إدخال "الواو" بين الجملتين للدلالة على أنّ كلًّا مِن التسحير والبشريّة مُنافٍ للرسالة مبالغةً في التكذيب، ﴿وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ أي: فيما تدّعيه مِن النبوّة.

﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾﴾

﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: قِطعًا. وقُرئ بسكون السين،[3] وهو أيضًا جمع "كِسْفة". وقيل: "الكِسْفُ" و"الكِسْفَة" كـ"الرِّيع" و"الرِّيعَة"، وهي القِطعة. والمراد بـ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ إمّا السحاب أو المظِلّة. ولعلّه جواب لِما أشعر به الأمر بالتقوى مِن التهديد.

﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في دعواك، ولم يكن طلبُهم ذلك إلّا لتصميمهم على الجحود والتكذيب، وإلّا لَما أخطروه ببالهم فضلًا أن يطلبوه.

﴿قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾﴾

﴿قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ مِن الكفر والمعاصي، وبما تستحقّون بسببه مِن العذاب، فسيُنزِله عليكم في وقته المقدّر له لا محالةَ.

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وأبي حصين. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٥٦.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن السلمي. البحر المحيط لأبي حيّان، ١٨٧/٨.

[3] قرأ بها جميع القرّاء العشر غير حفص. انظر: النشر لابن الجزري، ٣٠٩/٢.

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ أي: فتمّوا على تكذيبه، وأصرّوا عليه، ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ﴾ حسبما اقترحوا. أمّا إن أرادوا بـ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ السحابَ فظاهر، وأمّا إن أرادوا المُظِلّة، فلِأنّ نزول العذاب مِن جهتها.

وفي[1] إضافة "العذاب" إلى ﴿يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ﴾ دون نفسها إيذانٌ بأنّ لهم يومئذ عذابًا آخر غيرَ عذاب الظُّلّة، وذلك بأن سلّط الله عليهم الحَرَّ سبعةَ أيّام ولياليَها، فأخذهم بأنفاسهم لا يَنفعهم ظلّ ولا ماءٌ ولا سَرَبٌ،[2] فاضطرُّوا إلى أن خرجوا إلى البَرِّيّة، فأظلّتهم سحابة وجدوا لها بَردًا ونسيمًا، فاجتمعوا تحتها فأمطَرَتْ عليهم نارًا، فاحترقوا جميعًا.[3]

رُوي أنّ شعيبًا عليه السلام بُعِث إلى أُمّتَين، أصحابِ مَديَن، وأصحابِ الأيكة، فأُهلِكَتْ مَديَن / بالصيحة والرجفة، وأصحابُ الأيكة بعذاب يوم الظلّة. [٢٣٥و]

﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي: في الشدّة والهَوْل وفَظاعة ما وقع فيه مِن الطامّة والداهية التامّة.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾﴾

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۞ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ هذا آخر القصص السبع التي أُوحِيت إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لصَرفه عليه السلام عن الحِرص على إسلام قومه، وقطعِ رجائه عنه، ودفع تحسّره على فواته، تحقيقًا لِمضمون ما مرّ في مطلع السورة الكريمة مِن قوله تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ۞ فَقَدْ كَذَّبُوا۟﴾ الآيةَ [الشعراء، ٢٦/٥-٦].

فإنّ كلّ واحدة مِن هذه القصص ذِكر مستقلّ متجدّد النزول قد أتاهم مِن جهته تعالى بموجَب رحمته الواسعة، وما كان أكثرهم مؤمنين بعد ما سمعوها على التفصيل قصّةً بعد قصّة، لا بأن يتدبّروا فيها، ويعتبروا بما في كلّ واحدة منها

---

[1] س + وفي.

[2] السَّرَبُ: بيتٌ في الأرض. انظر: الصحاح للجوهري، «سرب».

[3] الكشّاف للزمخشري، ٣/٣٣٤؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤/١٤٩.

مِن الدواعي إلى الإيمان، والزواجرِ عن الكفر والطغيان، ولا بأن يتأمّلوا في شأن الآيات الكريمة الناطقة بتلك القصص على ما هي عليه مع علمهم بأنّه عليه السلام لم يسمع شيئًا منها مِن أحدٍ أصلًا، واستمرّوا على ما كانوا عليه مِن الكفر والضلال، كأن لم يسمعوا شيئًا يَزجرهم عن ذلك قطعًا، كما حُقّق في خاتمة قصّة موسى عليه السلام.

﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٩٢﴾

﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي: ما ذُكِر مِن الآيات الكريمة الناطقة بالقَصص المَحكيّة، أو القرآن الذي هي مِن جملته ﴿لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: مُنَزَّل مِن جهته تعالى، سمّي به / مبالغةً. ووصفُه تعالى بربوبيّة العالمين للإيذان بأنّ تنزيله مِن أحكام تربيته تعالى ورأفته للكلّ، كقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء، ١٠٧/٢١]. [٢٣٥ظ]

﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ١٩٣﴾

﴿نَزَلَ بِهِ﴾ أي: أنزله ﴿ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ أي: جبريل عليه السلام، فإنّه أمينُ وحيه تعالى، ومُوصلُه إلى أنبيائه عليهم السلام. وقُرئ بتشديد "الزاء"، ونصبِ ﴿ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾،[1] أي: جعل الله تعالى الروحَ الأمينَ نازلًا به.

﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ١٩٤﴾

﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ أي: روحِك، وإن أريدَ به العضو فتَخصيصُه به لأنّ المعاني الروحانيّة تَنزل أوّلًا على الروح، ثمّ تنتقل منه إلى القلب، لِما بينهما مِن التعلّق، ثمّ تتصعّد إلى الدماغ، فينتقش بها لَوح المخيّلة.

﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ متعلّق بـ﴿نَزَلَ بِهِ﴾، أي: أنزله لتنذرهم بما في تضاعيفه مِن العقوبات الهائلة. وإيثارُ ما عليه النظم الكريم للدلالة على انتظامه عليه السلام في سِلك أولئك المنذِرين المشهورين في حقّيّة الرسالة، وتقرّرِ وقوع العذاب المُنذَر.

---

[1] قرأ بها ابن عامر وحمزة والكسائي وخلف ويعقوب وشعبة. النشر لابن الجزري، ٣٣٦/٢.

﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾﴾

﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ واضح المعنى، ظاهر المدلول؛ لئلّا يبقى لهم عذر ما، وهو أيضًا متعلّق بـ﴿نَزَلَ بِهِ﴾. وتأخيرُه للاعتناء بأمر الإنذار، وللإيماء إلى أنّ مدارَ كونه مِن جملة المنذِرين المذكورين عليهم السلام مجرّدُ إنزالِه عليه السلام، لا إنزالُه باللسان العربي.

وجعلُه متعلّقًا بـ﴿ٱلْمُنذِرِينَ﴾ كما جوّزه الجمهور يؤدّي إلى أنّ غاية الإنزال كونُه عليه السلام مِن جملة المنذِرين باللغة العربيّة فقط مِن هود وصالح وشعيب عليهم السلام،[1] ولا يخفى فساده، كيف لا والطامّة الكبرى في باب الإنذار ما أنذره نوح وموسى عليهما السلام، وأشدّ الزواجر تأثيرًا في قلوب المشركين ما أنذره إبراهيم عليه السلام لانتمائهم إليه وادّعائهم أنّهم على مِلّته عليه السلام.

/ ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: وإنّ ذِكره أو معناه لَفِي الكتب المتقدّمة، فإنّ أحكامه التي لا تحتمل النسخ والتبديل بحسب تبدّل الأعصار مِن التوحيد وسائرِ ما يتعلّق بالذات والصفات مسطورةٌ فيها، وكذا ما في تضاعيفه مِن المواعظ والقصص. وقيل: الضمير لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وليس بواضح.[2] [٢٣٦و]

﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَـٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾﴾

﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً﴾ "الهمزة" للإنكار والنفي، و"الواو" للعطف على مقدَّر يقتضيه المقام، كأنّه قيل: أغَفلوا عن ذلك ولم يكن لهم آيةً دالّةً على أنّه تنزيل مِن ربّ العالمين، وأنّه في زُبُر الأوّلين؟ على أنّ ﴿لَهُمْ﴾ متعلّق بالكون، قُدِّم على اسمه وخبره للاهتمام به، أو بمحذوف هو حال مِن ﴿ءَايَةً﴾ قدّمت عليها لكونها نكرة، و﴿ءَايَةً﴾ خبر للكون، قُدِّم على اسمه الذي هو قوله تعالى: ﴿أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَـٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ لِما مرَّ مرارًا مِن الاعتناء بالمقدَّم، والتشويقِ إلى المؤخَّر، أي: أن يعرفوه بنُعوته المذكورة في كُتبهم، ويعرفوا مَن أُنزل عليه.

---

[1] س - عليهم السلام.

[2] الكشّاف للزمخشري، ٣/٣٣٥.

وقُرئ: "تَكُنْ"[١] بالتأنيث، وجعلت "آيَةٌ" اسمًا، و﴿أَن يَعْلَمَهُۥ﴾ خبرًا، وفيه ضعفٌ حيث وقع النكرة اسمًا، والمعرفة خبرًا، وقد قيل: في "تَكُن" ضمير القصّة، و"آيَةٌ أنْ يَعلمَه" جملة واقعة موقع الخبر، ويجوز أَن[٢] يكون ﴿لَهُمْ ءَايَةً﴾ هي جملة الشأن، و﴿أَن يَعْلَمَهُۥ﴾ بدلًا مِن "آيَةٌ"، ويجوز مع نصب ﴿ءَايَةً﴾ تأنيث "تَكُن"، كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟﴾ [الأنعام، ٦/٢٣]. وقُرئ: "تَعْلَمَهُ" بالتاء.[٣]

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾﴾

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ﴾ كما هو بنظمه الرائق المُعجز ﴿عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ﴾ الذين لا يقدرون على التكلّم بالعربيّة. وهو جمع "أعجَمي" على التخفيف، ولذلك جُمِع جمعَ السلامة. وقُرئ: "الْأَعْجَمِيّينَ"،[٤] وفي لفظ "البعض" إشارة إلى كون ذلك واحدًا مِن عُرض تلك الطائفة كائنًا مَن كان.

﴿فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾﴾

﴿فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم﴾ قراءةً صحيحةً خارقةً للعادات ﴿مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾ مع انضمام إعجاز القراءة إلى إعجاز المقروء، لِفَرْط عنادهم، وشدّة شَكيمتهم في المكابرة. وقيل: المعنى: ولو نزّلناه على بعض الأعجمين بلغة العجَم فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين، لعدم فهمهم، واستنكافِهم مِن اتّباع العجَم،[٥] وليس بذاك، فإنّه بمَعزِل مِن المناسبة لمقام بيانِ تماديهم في المكابرة والعناد.

﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾﴾

﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ﴾ أي: مثلَ ذلك السَّلك البديع المذكور سَلكناه، أي: أدخلنا القرآن ﴿فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ ففهِموا معانيَه، وعرفوا فصاحته، / وأنّه خارج [٢٣٦ظ] عن القوى البشريّة مِن حيث النظم المعجِز، ومِن حيث الإخبار عن الغيب،

---

١ قرأ بها ابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢/٣٣٦.
٢ م + أن.
٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن الجحدري. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٥٧.
٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٥٧.
٥ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤/١٥٠.

وقد انضمّ إليه اتّفاق علماء أهل الكتب المنزَلة قبله على تضمّنها للبِشارة بإنزالِه وبِعثةِ مَن أُنزِل عليه بأوصافه.

فقوله تعالى: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ جملة مستأنَفة مَسوقة لبيان أنّهم لا يتأثّرون بأمثال تلك الأمور الداعية إلى الإيمان به؛ بل يستمرّون على ما هم عليه ﴿حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ الملجئَ إلى الإيمان به حين لا ينفعهم الإيمان.

﴿فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾

﴿فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ أي: فُجاءةً[1] في الدنيا والآخرة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بإتيانه.

﴿فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ﴾ تحسُّرًا على ما فات مِن الإيمان، وتمنّيًا للإمهال لتلافي ما فرّطوه.

وقيل: معنى ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ﴾[2] مثلَ تلك الحالِ وتلك الصفةِ مِن الكفر به[3] والتكذيبِ له وضعناه في قلوبهم. وقوله تعالى: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾[4] في موقع الإيضاح والتلخيص له، أو في موقع الحال، أي: سلكناه فيها غيرَ مؤمَنٍ به. والأوّل هو الأنسب بمقام بيان غاية عنادهم ومكابرتهم مع تعاضُدِ أدلّة الإيمان، وتآخُذِ مبادي الهداية والإرشاد، وانقطاعِ أعذارهم بالكلّيّة.

وقيل: ضمير ﴿سَلَكْنَٰهُ﴾[5] للكفر المدلول عليه بما قبله مِن قوله تعالى: ﴿مَا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾.[6] ونُقل عن ابن عبّاس رضي الله تعالى[7] عنهما والحسن ومجاهد رحمهما الله: «أدخلنا الشرك والتكذيب في قلوب المجرمين».[8]

﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾﴾

﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ بقولهم: ﴿فَأَمْطِرْ[9] عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا

---

١ س: فجأة.
٢ الشعراء، ٢٠٠/٢٦.
٣ وفي هامش م: أي: مكفورًا به. «منه».
٤ الشعراء، ٢٠١/٢٦.
٥ الشعراء، ٢٠٠/٢٦.
٦ الشعراء، ١٩٩/٢٦.
٧ س – تعالى.
٨ التفسير الوسيط للواحدي، ٣٦٣/٣؛ اللباب لابن عادل، ٨٥/١٥.
٩ م ط س: أَمطِر.

بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال، ٣٢/٨]، وقولِهم: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ [الأعراف، ٧٠/٧]، ونحوِهما. وحالهم عند نزول العذاب كما وُصِف مِن طلب الإنظار. / [٢٣٧و] فـ"الفاء" للعطف على مقدَّر يقتضيه المقام، أي: أَيَكون حالُهم كما ذُكِر مِن الاستنظار عند نزول العذاب الأليم، فيستعجلون بعذابنا، وبينهما مِن التنافي ما لا يخفى على أحد؟ أو أَيَغفُلون عن ذلك مع تحقّقه وتقرّره فيستعجلون... إلخ؟

وإنّما قُدِّم الجارّ والمجرور للإيذان بأنّ مَصبّ الإنكار والتوبيخ كونُ المستعجَل به عذابَه تعالى، مع ما فيه مِن رعاية الفواصل.

﴿أَفَرَءَيْتَ﴾ لمّا كانت الرؤية مِن أقوى أسباب الإخبار بالشيء وأشهرها شاعَ استعمال "أَرَأَيتَ" في معنى "أخبِرني". والخِطاب لكلّ مَن يَصلح له، كائنًا مَن كان. و"الفاء" لترتيب الاستخبار على قولهم: ﴿هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ﴾،[1] وما بينهما اعتراض للتوبيخ والتبكيت، وهي متقدّمة في المعنى على "الهمزة"، وتأخيرها عنها صورةً لاقتضاء "الهمزة" الصدارةَ كما هو رأي الجمهور، أي: فأخبِرني ﴿إِن مَّتَّعْنَـٰهُمْ سِنِينَ﴾ متطاولة بطول الأعمار وطيب المعايِش ﴿ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾ مِن العذاب.

﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾﴾

﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم﴾ أيَّ شيء، أو أيَّ إغناءٍ أغنى عنهم ﴿مَا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ﴾ أي: كونُهم ممتَّعِين ذلك التمتيعَ المديدَ، على أنّ ﴿مَا﴾ مصدريّة، أو ما كانوا يُمتَّعون به مِن متاع الحياة الدنيا، على أنّها موصولة حُذف عائدها، وأيًّا ما كان فالاستفهام للإنكار والنفي.

وقيل: ﴿مَا﴾ نافية أي: لم يُغنِ عنهم تمتّعهم المتطاوِل في دفع العذاب وتخفيفه، والأوّل هو الأولى لكونه أوفقَ لصورة الاستخبار، وأدلُّ على انتفاء الإغناء على أبلغ وجه وآكَدِه، كأنَّ كلَّ مَن مِن شأنه الخطابُ قد كُلِّف أن يُخبِر بأنّ تمتيعهم ماذا أفادهم، وأيّ شيء أغنى عنهم فلم يقدر أحد على أن يُخبِر بشيء مِن ذلك أصلًا. وقُرئ: "يُمْتَعُونَ"[2] مِن الإمتاع.

---

[1] الشعراء، ٢٠٣/٢٦.

[2] قراءة شاذّة، غير منسوبة. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٣٣٨/٣؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ١٩٤/٨.

﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ۝٢٠٨ ذِكۡرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝٢٠٩﴾

﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ﴾ مِن القرى المهلَكة ﴿إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾ قد أنذَروا أهلَها إلزامًا للحجّة.

﴿ذِكۡرَىٰ﴾ أي: تذكِرةً. ومحلّها النصب على العلّة، أو المصدر؛ لأنّها في معنى "الإنذار"، كأنّه قيل: مُذكّرون ذِكرى، أو على أنّه مصدر مؤكِّد لفعل هو صفة لـ﴿مُنذِرُونَ﴾،[١] أي: إلّا لها منذِرون يذكّرونَهم ذكرى، أو الرفع على أنّها صفة ﴿مُنذِرُونَ﴾[٢] بإضمار "ذَوُو"، أو بجعلهم ذِكرَى لإمعانهم في التذكرة، أو خبر مبتدأ محذوف، والجملة اعتراضيّة. وضمير ﴿لَهَا﴾[٣] للقرى المدلولِ عليها بمفردها الواقعِ في حيّز النفي، على معنى أنّ للكلّ منذرين أَعمُّ مِن أن يكون لكلّ قرية منها منذر واحد أو أكثر.

﴿وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ فنُهلِكَ غيرَ الظالمين وقبلَ الإنذار. والتعبير عن ذلك بنفي الظالميّة مع أنّ / إهلاكهم قبل الإنذار ليسْ بظلمٍ أصلًا على ما تقرّر مِن [٢٣٧ظ] قاعدة أهل السنّة لبيان كمال نزاهته تعالى عن ذلك بتصويره[٤] بصورة ما يستحيل صدورُه عنه تعالى مِن الظلم، وقد مرّ في سورة آل عمران عند قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ [آل عمران، ٣/١٨٢].

﴿وَمَا تَنَزَّلَتۡ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ۝٢١٠ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمۡ وَمَا يَسۡتَطِيعُونَ ۝٢١١﴾

﴿وَمَا تَنَزَّلَتۡ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ ردّ لِما زعمه الكفرة في حقّ القرآن الكريم مِن أنّه مِن قَبيل ما يُلقيه الشياطين على الكهَنة بعد تحقيق الحقّ ببيان أنّه نَزَل به الروح الأمين.

﴿وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمۡ﴾ أي: وما يصحّ وما يستقيم لهم ذلك ﴿وَمَا يَسۡتَطِيعُونَ﴾ ذلك أصلًا.

---

[١] في الآية السابقة.

[٢] في الآية السابقة.

[٣] في الآية السابقة.

[٤] س: بتصويرة.

﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ٢١٢﴾

﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ﴾ لكلام الملائكة ﴿لَمَعْزُولُونَ﴾ لانتفاء المشاركة بينهم وبين الملائكة في صفاء الذوات، والاستعدادِ لقَبول فيضان أنوار الحقّ، والانتقاشِ بصور العلومِ الربّانيّة والمعارفِ النورانيّة، كيف لا ونفوسُهم خبيثة ظلمانيّة شرّيرة بالذات غيرُ مستعدّة إلّا لقبول ما لا خير فيه أصلًا مِن فنون الشرور؟ فمِن أين لهم أن يَحوموا حولَ القرآن الكريم المنطوي على الحقائق الرائعة الغيبيّة التي لا يمكن تلقّيها إلّا مِن الملائكة عليهم السلام؟

﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ٢١٣ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ٢١٤﴾

﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ﴾ خُوطب به النبيّ صلّى الله عليه وسلّم مع ظهور استحالة صدور المنهيّ عنه عليه السلام تهييجًا وحثًّا على ازدياد الإخلاص ولُطفًا لسائر المكلَّفين ببيان أنّ الإشراك مِن القبح والسوء بحيث يُنهَى عنه مَن لا يمكن صدوره عنه، فكيف بمَن عداه؟

﴿وَأَنذِرْ﴾ العذابَ الذي يستتبعه الشرك والمعاصي ﴿عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ الأقربَ منهم فالأقربَ، فإنّ الاهتمام بشأنهم أهمّ.

رُوي أنّه لمّا نزلت صَعِد الصفا، وناداهم فَخِذًا فَخِذًا حتّى اجتمعوا إليه، فقال: «لو أخبرتكم أنّ بسفح هذا الجبلِ خيلًا أكنتم مصَدِّقِيَّ؟» / قالوا: نعم، [٢٣٨و] قال: «فإنّي نذير لكم بين يدي عذاب شديد».[١] ورُوي أنّه قال: «يا بني عبدِ المطّلب، يا بني هاشم، يا بني عبد مناف؛ افتدوا أنفسكم مِن النار، فإنّي لا أغني عنكم شيئًا»، ثمّ قال: «يا عائشة بنت أبي بكر، ويا حفصة بنت عمر، ويا فاطمة بنت محمّد صلّى الله عليه وسلّم، ويا صفيّة عمّة محمّد؛ اشترِينَ أنفسكنّ مِن النار، فإنّي لا أغني عنكنّ شيئًا».[٢]

[١] صحيح البخاري، ١٧٩/٦ (٤٩٧١)؛ صحيح مسلم، ١٩٣/١ (٢٠٨).

[٢] بنحوه: صحيح البخاري، ٦/٤ (٢٧٥٣)؛ صحيح مسلم، ١٩٢/١ (٢٠٦).

﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢١٥ فَإِنۡ عَصَوۡكَ فَقُلۡ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ۝٢١٦﴾

﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي: لَيِّن جانبك لهم. مستعار مِن حال الطائر، فإنّه إذا أراد أن ينحطَّ خفض جناحه. و﴿مِنۡ﴾ للتبيين؛ لأنّ مَن اتّبع أعمّ ممّن اتّبع لدين أو لغيره، أو للتبعيض على أنّ المراد بالمؤمنين المشارفون للإيمان، أو المصدّقون باللسان فحسب.

﴿فَإِنۡ عَصَوۡكَ﴾ ولم يتّبعوك ﴿فَقُلۡ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ أي: ممّا تعملونه، أو مِن أعمالكم.

﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢١٧ ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ۝٢١٨ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٢١٩ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ۝٢٢٠﴾

﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ الذي يقدر على قهر أعدائه ونصر أوليائه، يَكْفِكَ شرّ مَن يعصيك منهم ومِن غيرهم. وقُرئ: "فَتَوَكَّلْ"[١] على أنّه بدل مِن جواب الشرط.

﴿ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ﴾ أي: إلى التهجّد.

﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ وتردّدَك في تصفّح أحوال المتهجّدين، كما رُوي أنّه لمّا نُسخ فرض قيام الليل طاف عليه السلام تلك الليلة ببيوت أصحابه لينظر ما يصنعون حِرصًا على كثرة طاعتهم، فوجدها كبيوت الزنابير لِما سمع منها مِن دَندَنَتهم بذكر الله تعالى والتلاوة.[٢]

أو تصرّفَك فيما بين المصلّين بالقيام والركوع والسجود / والقعود إذا أَمَمتَهم. [٢٣٨ظ] وإنّما وصف الله تعالى ذاته بعلمه بحاله عليه السلام التي بها يستأهل ولايته

---

١ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن عامر، وكذلك هي في مصاحف المدينة والشام. النشر لابن الجزري، ٢/٣٣٦.

٢ الكشّاف للزمخشري، ٣/٣٤١؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤/١٥١.

بعد أن عبّر عنه بما ينبئ عن قهر أعدائه ونصر أوليائه مِن وصفَي ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ تحقيقًا للتوكّل، وتوطينًا لقلبه عليه.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ بما تقوله ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بما تنويه وتعمَله.

﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ۝٢٢١ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٢٢٢﴾

﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ أي: تتنزّل، بحذف إحدى التاءين، وهو استئناف مَسوق لبيان استحالة تنزُّلِ الشياطين على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بعد بيان امتناع تنزّلهم **بالقرآن**. ودخول حرف الجرّ على ﴿مَن﴾ الاستفهاميّة لِما أنّها ليست موضوعة للاستفهام، بل الأصل "أمَنْ" فحُذف حرف الاستفهام، واستمرَّ الاستعمال على حذفه كما حُذف مِن "هل"، والأصل "أهَلْ".

وقوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ قَصرٌ لتَنَزُّلِهم على كلّ مَن اتّصف بالإفك الكثير والإثم الكبير مِن الكهنة والمتنبِّئة، وتخصيصٌ له بهم بحيث لا يتخطّاهم إلى غيرهم، وحيث كانت ساحة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم منزّهةً مِن أن يحوم حولها شائبةُ شيء مِن تلك الأوصاف اتّضح استحالة تنزّلهم عليه عليه السلام.

﴿يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ۝٢٢٣﴾

﴿يُلْقُونَ﴾ أي: الأفّاكون ﴿ٱلسَّمْعَ﴾ إلى الشياطين، فيتلقّون منهم أوهامًا وأماراتٍ لنقصان علمِهم، فيضمّون إليها بحسب تخيّلاتهم الباطلة خُرافاتٍ لا يطابق أكثرها الواقع، وذلك قوله تعالى: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ﴾ أي: فيما قالوه مِن الأقاويل، وقد ورد في الحديث: «الكلمة يخطَفها الجنّي فيَقُرُّها في أُذُن وَلِيّه، فيزيد فيها أكثرَ مِن مائة كَذْبة».[1]

أو يُلقون السمعَ -أي: المسموعَ- مِن الشياطين إلى الناس، وأكثرهم كاذبون يفترون على الشياطين ما لم يُوحوا إليهم. والأظهر أنّ الأكثريّة باعتبار أقوالهم،

---

[1] صحيح البخاري، ٤٧/٨ (٦٢١٣)؛ صحيح مسلم، ١٧٥٠/٤ (٢٢٢٨).

على معنى أنّ هؤلاء قلّما يَصدُقون فيما يَحكون عن الجنّي، وأمّا في أكثره فهم كاذبون. ومآلُه وأكثر أقوالهم كاذبة، لا باعتبار ذواتهم حتّى يلزَم مِن نسبة الكذب إلى أكثرهم كونُ أقلّهم صادقين على الإطلاق. / وليس معنى "الأفّاك" [٢٣٩و] مَن لا ينطق إلّا بالإفك حتّى يمتنع منه الصدق؛ بل مَن يُكثِر الإفك، فلا ينافيه أن يصدق نادِرًا في بعض الأحايين.

وقيل: الضمير لـ﴿ٱلشَّيَٰطِينُ﴾، أي: يُلقون السمعَ -أي: المسموعَ- مِن الملأ الأعلى قَبل أن رُجِموا مِن بعض المغيّبات إلى أوليائهم، وأكثرُهم كاذبون فيما يوحون به إليهم، إذ لا يسمعونهم على نحو ما تكلّمت به الملائكة لشرارتهم، أو لقصور فهمهم، أو ضبطهم، أو إفهامِهم.

ولا سبيل إلى حمل "إلقاءِ السمع" على تَسمُّعِهم وإنصاتِهم إلى الملأ الأعلى قبل الرجم كما جوّزه الجمهور، لِما أنّ ﴿يُلْقُونَ﴾ كما صرّحوا به إمّا حال مِن ضمير ﴿تَنَزَّلُ﴾[١] مفيدة لمقارَنةِ التنزّل للإلقاء، أو استئناف مُبَيِّن للغرض مِن التنزّل مبنيّ على السؤال عنه. ولا ريبَ في أنّ إلقاء السمع إلى الملأ الأعلى بمَعزِل مِن احتمال أن يقارِنَ التنزّلَ أو يكونَ غرَضًا منه، لتقدّمه عليه قطعًا، وإنّما المحتمِلُ لهما الإلقاءُ بالمعنى الأوّل، فالمعنى على تقدير كونه حالًا: تنزَّل الشياطين على الأفّاكين مُلقِين إليهم ما سمِعوه مِن الملأ الأعلى، وعلى تقدير كونه جوابًا على سؤالِ مَن قال: لِمَ تَنَزّل عليهم؟ وماذا يفعلون بهم؟: يُلقون إليهم ما سمعوه.

وحملُه على استئناف الإخبار -كما فعله بعضهم-[٢] غيرُ سديد؛ لأنّ ذِكر حالهم السابقة على تنزّلهم المذكور قبله غير خَليق بجزالة التنزيل.

وأمّا على تقدير كون ضمير ﴿يُلْقُونَ﴾ للأفّاكين، فهو صفة لكلّ أفّاك، لأنّه في معنى الجمع، / سواء أُريدَ بإلقاء السمع الإصغاءُ إلى الشياطين، أو إلقاءُ [٢٣٩ظ] المسموع إلى الناس. ويجوز أن يكون استئنافَ إخبارٍ بحالهم على كِلا التقديرين،[٣]

---

[١] في الآية السابقة.

[٢] وفي هامش م: أبو حيّان. | انظر: البحر المحيط لأبي حيّان، ٨/١٩٩.

[٣] س: التقدير.

لِما أنّ كُلًّا مِن تلقّيهم مِن الشياطين وإلقائِهم إلى الناس يكون بَعد التنزُّل، وأن يكون استئنافًا مبنيًّا على السؤال على التقدير الأوّل فقط، كأنّه قيل: ما يفعلون عند تنزّل الشياطين عليهم؟ فقيل: يُلقون إليهم أسماعهم ليحفظوا ما يوحون به إليهم.

وقوله تعالى: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ﴾ على التقدير الأوّل استئناف فقط، وعلى الثاني يحتمل الحاليّة مِن ضمير ﴿يُلْقُونَ﴾، أي: يُلقُون ما سمعوه مِن الشياطين إلى الناس، والحال أنّهم في أكثر أقوالهم كاذبون، فتدبّر.

﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾﴾

﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ استئناف مَسوق لإبطال ما قالوا في حقّ القرآن العظيم مِن أنّه مِن قَبيل الشعر وأنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم مِن الشعراء ببيان حال الشعراء المنافية لحاله صلّى الله عليه وسلّم بعد إبطال ما قالوا: إنّه مِن قبيل ما يُلقي الشياطين على الكهَنة مِن الأباطيل؛ بما مرّ مِن بيان أحوالهم المُضادّة لأحواله عليه السلام. والمعنى: أنّ الشعراء يتّبِعُهم -أي: يُجارِيهم ويَسلكُ مَسلكَهم، ويكون مِن جُملتهم- الغاوون الضالُّون عن السَّنن، الحائرون فيما يأتون وما يذرون، لا يستمرّون على وتيرة واحدة في الأفعال والأقوال والأحوال، لا غيرُهم مِن أهل الرشد المهتدين إلى طريق الحقّ الثابتين عليه.

وقوله تعالى: **﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾** استشهاد على أنّ الشعراء إنّما يتبعهم الغاوون، وتقريرٌ له، والخطابُ لكلّ مَن يتأتّى منه الرؤية للقصد إلى أنّ حالهم مِن الجلاء والظهور بحيث لا يختصّ برؤيةِ راءٍ دون راء، أي: ألَم ترَ أنّ الشعراء في كلّ وادٍ مِن أودية القيل والقال، وفي كلّ شِعْبٍ مِن شِعاب الوَهم والخيال، وفي كلّ مَسلك مِن مَسالك الغيّ والضلال يَهيمون على وجوههم، لا يهتدون إلى سبيلٍ معيّن مِن السبل؛ / بل يتحيّرون في فَيافي الغواية والسفاهة، [٢٤٠و] ويتيهون في تِيه المُجون والوقاحة، دَيدنهم تمزيق الأعراض المحميّة، والقَدْحُ

في الأنساب الطاهرة السنيّة، والنسيبُ بالجُرَمِ،[١] والغَزَلُ،[٢] والابتهارُ،[٣] والتردّدُ بين طرفَي الإفراط والتفريط في المدح والهِجاء.

﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ مِن الأفاعيل غيرَ مبالين بما يستتبعه مِن اللوائم، فكيف يُتوهّم أن يتّبعهم في مَسلكهم ذلك، ويلتحقَ بهم، وينتظمَ في سِلكهم مَن تَنَزَّهَت ساحته عن أن يحوم حولَها شائبة الاتّصاف بشيء مِن الأمور المذكورة، واتّصف بمحاسن الصفات الجليلة، وتخلّقَ بمكارم الأخلاق الجميلة، وحازَ جميع الكمالات القدسيّة، وفاز بجملة المَلَكات الأنسيّة، مستقِرًّا على المنهاج القويم، مستمِرًّا على الصراط المستقيم، ناطقًا بكلّ أمر رشيد، داعيًا إلى صراط العزيز الحميد، مؤيّدًا بمعجزات قاهرة، وآياتٍ ظاهرة، مشحونةٍ بفنون الحِكَم الباهرة، وصنوف المعارف الزاهرة، مستقلَّةٍ بنظم رائقٍ أعجَز كلّ مِنطِيقٍ[٤] ماهر، وبكّت كلّ مُفْلِقٍ[٥] ساحر.

هذا وقد قيل في تنزيهه عليه السلام مِن أن يكون مِن الشعراء: إنّ أتباعَ الشعراء الغاوُون، وأتباعُ محمّد صلّى الله عليه وسلّم ليسوا كذلك. ولا ريب في أنّ تعليل عدم كونه عليه السلام منهم بكون أتباعه عليه السلام غيرَ غاوين ممّا لا يليق بشأنه العالي.

وقيل: ﴿ٱلْغَاوُۥنَ﴾ الراوُون. وقيل: الشياطين. وقيل: هم شعراء قريش: عبد الله بن الزِّبَعْرَى، وهُبَيرة بن أبي وهب المخزومي،[٦] ومسافع بن عبد مناف،[٧]

---

[١] وفي هامش م: نسَب الشاعر بالمرأة ينسِب نَسيبًا إذا شَبَّب بها. صحاح. | الصحاح للجوهري، «نسب».

[٢] وفي هامش م: مغازلة النساء: محادثتهنّ ومراودتهنّ، والاسم الغَزَل. صحاح. | الصحاح للجوهري، «غزل».

[٣] وفي هامش م: الابتهار: ادّعاء الشيء كذبًا، وابتُهِر فلان بفلانة شُهِر بها. صحاح. | الصحاح للجوهري، «بهر».

[٤] المِنطِيق: البليغ. الصحاح للجوهري، «نطق».

[٥] شاعر مُفْلِق: مُجيد، يَجيء بالعجائب في شعره. لسان العرب لابن منظور، «فلق».

[٦] هو هُبَيرة بن أبي وهب بن عامر بن عائذ بن عمران بن مخزوم، كان زوجَ أمّ هانئ بنت أبي طالب، فأسلمت وثبتَ هو على الشرك، وكان شاعرًا مِن رجال قريش المعدودين، وكان شديد العداوة لله ولرسوله فأخمله الله، ولمّا دخل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم مكّةَ هرَب هُبيرةُ إلى نَجران. انظر: الاشتقاق لابن دريد، ص ١٥٢؛ وطبقات فحول الشعراء لابن سلّام، ١/٢٣٥-٢٥٧؛ ومعرفة الصحابة لأبي نعيم، ٣/١٦٦٢.

[٧] هو مسافع بن عبد مناف بن عُمير بن وَهب بن حذافة بن جمح، الشاعر، وهو الذي خرج يوم أحُد

وأبو عَزّة الجُمَحي،[١] ومِن ثقيف: أميّة بن أبي الصلت، قالوا: نحن نقول مثلَ قول محمّد صلّى الله عليه وسلّم.

وقُرئ: "وَالشُّعَرَاءَ" بالنصب[٢] على إضمار فعل يفسّره الظاهر. وقُرئ: "يَتْبَعُهُمْ" على التخفيف،[٣] / و"يَتَّبِعْهُمْ" بسكون العين[٤] تَشْبِيهًا لِـ"بِعُهُ" بـ"عَضْدِ". [٢٤٠ظ]

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟﴾ استثناء للشعراء المؤمنين الصالحين الذين يُكثِرون ذكر الله عزّ وجلّ، ويكون أكثر أشعارِهم في التوحيد والثناء على الله تعالى، والحثّ على طاعته، والحكمة والموعظة، والزهد في الدنيا، والترغيب عن الركون إليها، والزجر عن الاغترار بزخارفها، والافتتان بملاذّها الفانية، ولو وقع منهم في بعض الأوقات هجوٌ وقع ذلك منهم بطريق الانتصار ممّن هجاهم.

وقيل: المراد بالمستثنَيْنَ عبد الله بن رَواحة، وحسّان بن ثابت، وكعب بن مالك، وكعب بن زهير بن أبي سُلمى، والذين كانوا ينافِحون عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ويكافحون هُجاة قريش.

وعن كعب بن مالك رضي الله تعالى[٥] عنهم[٦] أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم

إلى بني مالك بن كنانة يحرّضهم ويدعوهم إلى حرب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وقال في ذلك شعرًا. انظر: سيرة ابن هشام، ٦١/٢؛ ونسب قريش للزبيري، ص ٩٢.

١ هو عمرو بن عبد الله، أبو عَزّة الجُمَحي، كان شاعرًا يحرّض بشعره على قتال المسلمين، وكان النبيّ صلّى الله عليه وسلّم مَنّ عليه يومَ بدر، فذهب إلى مكّة، وقال: «سَخِرتُ بمحمّد»، فلمّا كان يوم أُحُد حضرَ وحرّض بشعره على قتال المسلمين، فقتله النبيّ صلّى الله عليه وسلّم صَبْرًا. تهذيب الأسماء واللغات للنووي، ٥٣٨/٢.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى الكوفة وابن عمير. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٥٧.

٣ قرأ بها نافع. النشر لابن الجزري، ٢٧٤/٢.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وعبد الوارث عن أبي عمرو. البحر المحيط لأبي حيّان، ٢٠٠/٨.

٥ س - تعالى.

٦ س: عنه.

قال له: «اهجُهم، فوَالذي نفسي بيده لَهُو أَشَدُّ عليهم مِن النَّبل».[١] وكان يقول لحسّان: «قُل ورُوح القدس معك».[٢]

﴿وَسَيَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَ﴾ تهديد شديد، ووعيد أكيد، لِما في ﴿سَيَعۡلَمُ﴾ مِن تهويل متعلَّقه، وفي ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ مِن الإطلاق والتعميم، وفي ﴿أَيَّ مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَ﴾ مِن الإبهام والتهويل، وقد قاله أبو بكر لعُمر رضي الله تعالى عنهما حين عَهِد إليه.[٣] وقُرئ: "أَيَّ مُنْفَلَتٍ يَنْفَلِتُونَ"[٤] مِن الانفلات بمعنى النجاة، والمعنى: إنّ الظالمين يطمعون أن ينفلتوا مِن عذاب الله تعالى، وسيعلمون أن ليس لهم وجه مِن وجوه الانفلات.

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة الشعراء كان له عشر حسنات بعدد مَن صدّق بنُوح وكذَّب به وهود وصالح وشعيب وإبراهيم، وبعدد مَن كذّب بعيسى وصدّق بمحمّد عليهم الصلاة والسلام».[٥]

---

[١] الكشّاف للزمخشري، ٣٤٥/٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٥٢/٤. ونحوه في مسند أحمد، ١٤٨/٤٥ (٢٧١٧٥).

[٢] مسند أحمد، ٥٩٧/٣٠ (١٨٦٤١)؛ المستدرك للحاكم، ٥٥٥/٣ (٦٠٦٢).

[٣] أخرج البيهقي في السنن الكبرى، ٢٥٧/٨-٢٥٨ (١٦٥٧٦)، أنّ أبا بكر الصدّيق رضي الله عنه أوصى في مرضه، فقال لعثمان رضي الله عنه: «اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أوصى به أبو بكر بن أبي قُحافة عند آخر عهده بالدنيا خارجًا منها، وأوّل عهده بالآخرة داخلًا فيها، حين يَصدق الكاذب، ويؤدّي الخائن، ويؤمن الكافر، إنّي أستخلف بعدي عمرَ بن الخطّاب، فإن عدَل فذلك ظنّي به ورجائي فيه، وإن بدّل وجار فلا أعلم الغيب، ولكلّ امرئ ما اكتسب، ﴿وَسَيَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَ﴾».

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٥٧.

[٥] الكشف والبيان للثعلبي، ١٥٥/٧؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٣٥٠/٣. وهو جزء مِن الحديث المروي عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

/ سورة النمل [٢٤١و]

مكّيّة، وهي ثلاث أو أربع[١] وتسعون آيةً.[٢]

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿طسٓۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ ١﴾

﴿طسٓ﴾ بالتفخيم، وقُرئ بالإمالة.[٣] والكلام فيه كالذي مرّ في نظائره مِن الفواتح الشريفة. ومحلّه على تقدير كونه اسمًا للسورة -وهو الأظهر الأشهر- الرفعُ على أنّه خبر لمبتدأ محذوف، أي: هذا ﴿طسٓ﴾، أي: مسمًّى به. والإشارة إليه قبل ذِكره قد مرّ وجهُها في فاتحة سورة يونس وغيرها. ورفعُه بالابتداء على أنّ ما بعده خبرُه ضعيفٌ لِما ذُكِر هناك.

﴿تِلۡكَ﴾ إشارة إلى نفس السورة؛ لأنّها التي نُوِّهَت بذكر اسمها، لا إلى آياتها؛ لعدم ذكرها صريحًا، ولأنّ إضافتها إليها تأبى إضافتها إلى القرآن كما سيأتي. وما في اسم الإشارة مِن معنى البُعد مع قرب العهد بالمشار إليه للإيذان ببُعد منزلته في الفضل والشرف. ومحلّه الرفع على الابتداء، خبره: ﴿ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ﴾ والجملة مستأنَفة مقرِّرة لِما أفاده التسمية مِن نَباهة شأن المسمّى.

و﴿ٱلۡقُرۡءَانِ﴾ عبارة عن الكلّ، أو عن الجميعِ المنزَّل عند نزول السورة حسبما ذُكر في فاتحة فاتحة الكتاب، أي: تلك السورة آيات القرآن المعروفِ بعلوّ الشأن، أي: بعض منه مترجَم مستقلّ باسم خاصّ.

---

١ ط س - أو أربع.

٢ ط س + وقيل: أربع وتسعون آيةً.

٣ قرأ بإمالة الطاء حمزة والكسائي وخلف وشعبة، وقرأ باقي القرّاء العشر بفتحها. انظر: النشر لابن الجزري، ٢/٧٠.

﴿وَكِتَابٍ﴾ أي: كتابِ عظيم[١] الشأن ﴿مُبِينٍ﴾ مظهِر لِما في تضاعيفه مِن الحِكَم والأحكام وأحوالِ الآخرة التي مِن جملتها الثواب والعقاب، أو لسبيل الرشد والغيّ، أو فارقٍ بين الحقّ والباطل، والحلالِ والحرام، أو ظاهرِ الإعجاز؛ على أنّه مِن "أَبانَ" بمعنى "بانَ". ولقد فُخِّم شأنه الجليل بما جُمِع فيه مِن وصف القرآنيّة المُنبئة عن كونه بديعًا في بابه، ممتازًا عن غيره بالنظم المعجز، كما يُعرِب عنه قوله تعالى: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾ [الزمر، ٢٨/٣٩]، ووصفِ الكتابيّة المُعرِبة عن اشتماله على صفات كمال الكتب الإلهيّة، فكأنّه كلّها.

وقُدِّم الوصف الأوّل ههنا نَظَرًا إلى تقدّم حال القرآنيّة على حال الكتابيّة،[٢] وعُكِس في سورة الحِجر نظَرًا إلى ما ذُكر هناك مِن الوجه.

وما قيل مِن أنّ "الكتاب" هو اللوح المحفوظ، وإبانتُه أنّه خُطَّ فيه ما هو كائن، فهو يُبيّنُه للناظرين فيه،[٣] لا يساعده إضافةُ الآيات إليه، إذ لا عهدَ باشتماله على الآيات، ولا وصفُه بالهداية والبشارة، إذ هما باعتبار إبانته، فلا بدّ مِن اعتبارها بالنسبة إلى الناس الذين مِن جملتهم المؤمنون، لا إلى الناظرين فيه، وقُرئ: "وَكِتَابٌ"،[٤] بالرفع على حذف المضاف، وإقامة المضاف إليه مُقامه، أي: وآياتُ كتابٍ مبين.

﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝﴾

﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ في حيّز النصب على الحاليّة مِن "الآيات"[٥] على أنّهما مصدران / أُقِيما مُقام الفاعل للمبالغة، كأنّها نفس الهدى والبشارة، والعامل معنى الإشارة، أي: هاديةً ومبشّرةً، أو الرفعِ على أنّهما بدَلان مِن الآيات، أو خبران آخران لـ﴿تِلْكَ﴾، أو لمبتدأٍ محذوف. ومعنى هدايتها لهم وهم مهتدون أنّها تزيدهم هدًى، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة، ١٢٤/٩]، [٢٤١ظ]

---

١ س: عظم.

٢ س: الكتابة.

٣ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٥٤/٤.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٥٧.

٥ في الآية السابقة.

وأمّا معنى تبشيرها إيّاهم فظاهر؛[١] لأنّها تبشّرهم برحمة مِن الله ورضوان وجنّاتٍ لهم فيها نعيم مقيم.

﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٣﴾

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ صفة مادحة لهم، وتخصيصُهما بالذِّكر لأنّهما قَرينتا الإيمان، وقُطْرَا العباداتِ البدنيّة والماليّة مُستتبِعتان لسائر الأعمال الصالحة.

وقوله تعالى: ﴿وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ جملة اعتراضيّة، كأنّه قيل: وهؤلاء الذين يؤمنون ويعملون الصالحات هم الموقِنون بالآخرة حقَّ الإيقان، لا مَن عداهم؛ لأنّ تحمّل مشاقّ العبادات لخوف العقاب ورجاء الثواب، أو هو مِن تتمّة الصلة، والواو حاليّة أو عاطفة له على الصلة الأولى، وتغيير نظمه للدلالة على قوّة يقينهم وثباته، وأنّهم أوحديّون فيه.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ۝٤﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ بيان لأحوال الكفرة بعد بيان أحوال المؤمنين، أي: لا يؤمنون بها وبما فيها مِن الثواب على الأعمال الصالحة، والعقاب على السيّئات، حسبما ينطق به القرآن. ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ القبيحة حيث جعلناها مشتهاةً للطبع محبوبة للنفس، كما يُنبئ عنه قوله عليه السلام: «حُفَّتِ النارُ بالشهوات»،[٢] أو الأعمالَ الحسنةَ ببيان حُسنِها في أنفسها حالًا، واستتباعِها لفنون المنافع مآلًا. وإضافتُها إليها باعتبار أمرهم بها وإيجابِها عليهم.

﴿فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ يتحيّرون ويتردّدون على التجدّد والاستمرار في الاشتغال بها، والانهماك فيها، مِن غير ملاحظة لِما يتبعها مِن نفع وضرّ، أو في الضلال والإعراض عنها. و"الفاء" على الأوّل لترتيب المسبَّب على السبب،

---

١ س: فظ [اختصار "فظاهر"].

٢ صحيح البخاري، ١٠٢/٨ (٦٤٨٧)؛ صحيح مسلم، ٢١٧٤/٤ (٢٨٢٢). ولفظ البخاري: "حُجبت".

وعلى الثاني لترتيب ضدّ المسبَّب على السبب، كما في قولك: "وَعظتُه فلم يتّعِظ". وفيه إيذان بكمال عُتوّهم ومُكابرتهم وتعكيسهم في الأمور.

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ۝٥﴾

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى المذكورين. وهو مبتدأ خبرُه الموصول بعده، أي: أولئك الموصوفون بالكفر والعمَهِ ﴿ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ أي: في الدنيا، كالقتل والأسر يوم بدر، ﴿وَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ / هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ أي: أشدّ الناس خُسرانًا لفوت الثواب واستحقاق العقاب. [٢٤٢و]

﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝٦﴾

﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ﴾ كلام مستأنَف قد سِيق بعد بيان بعض شئون القرآن الكريم تمهيدًا لِما يعقُبه مِن الأقاصيص. وتصديره بحرفَي التأكيد لإبراز كمال العناية بمَضمونه، أي: لَتُؤْتاه بطريق التَّلْقية والتلقين ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ أي: أيِّ حكيم وأيِّ عليم، وفي تفخيمهما تفخيمٌ لشأن القرآن، وتنصيصٌ على علوّ طبقته عليه السلام في معرفته والإحاطة بما فيه مِن الجلائل والدقائق، فإنّ مَن تَلَقَّى العلوم والحِكمَ مِن مِثل ذلك الحكيم العليم يكون عَلمًا في رصانة العلم والحكمة.

والجمع بينهما مع دخول العلم في الحكمة لعموم العلم ودلالة الحكمة على إتقان الفعل، وللإشعار بأنّ ما في القرآن مِن العلوم منها ما هو حكمة، كالعقائد والشرائع، ومنها ما ليس كذلك، كالقصص والأخبار الغيبيّة.

﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۝٧﴾

وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ﴾ منصوب على المفعوليّة بمُضمَر، خوطب به النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وأُمِر بتلاوة بعضٍ مِن القرآن الذي يُلَقّاه عليه السلام مِن لَدُنه عزّ وجلّ تقريرًا لِما قبله وتحقيقًا له، أي: اذكر لهم

وقتَ قوله عليه السلام لأهله في وادي طوى، وقد غشِيَتْهم ظلمة الليل، وقدَحَ فأَصْلَد زَنْدُه،[١] فبَدا له مِن جانب الطور نار: ﴿إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا سَـَٔاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ﴾ أي: عن حال الطريق، وقد كانوا ضَلُّوه، و"السين" للدلالة على نوع بُعدٍ في المسافة وتأكيدِ الوعد. والجَمعُ -إن صحّ أنّه لم يكن معه عليه السلام إلّا امرأته- لِما كُنِي عنها بالأهل، أو لِلتعظيم مبالغةً في التسلية.

﴿أَوۡ ءَاتِيكُم بِشِهَابٖ قَبَسٖ﴾ بتنوينهما على أنّ الثاني بدل مِن الأوّل، أو صفة له لأنّه بمعنى "مَقبوس"، أي: بشعلة نارٍ مَقبوسة، أي: مأخوذة مِن أصلها. وقُرئ بالإضافة،[٢] وعلى التقديرين فالمراد تعيين المقصود الذي هو القبَس الجامع لمنفعتَي الضياءِ والاصطلاء؛ لأنّ مِن النار ما ليس بقبَسٍ كالجَمْر. وكلتا العِدَتَين منه عليه السلام بطريق الظنّ، كما يفصح عن ذلك ما في سورة طه[٣] مِن صيغة الترجّي.

والترديد للإيذان بأنّه إن لم يظفر بهما لم يَعدَم أحدَهما بناء على ظاهر الأمر وثِقةً[٤] بسنّة الله تعالى، فإنّه تعالى لا يكاد يجمع على عبده حرمانَين.

﴿لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ﴾ رجاءَ أن تستدفِئوا بها، / و"الصِّلاء": النار العظيمة. [٢٤٢ظ]

﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٨﴾

﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ﴾ مِن جانب الطور ﴿أَنۢ بُورِكَ﴾ معناه: أي: بُورِك، على أنّ ﴿أن﴾ مفسّرة لِما في النداء مِن معنى القول، أو بأن بُورِك، على أنّها مصدريّة حُذف عنها الجارّ جَريًا على القاعدة المستمرّة. وقيل: مخفّفة مِن الثقيلة، ولا ضيرَ في فقدان التعويض بـ"لا" أو "قد" أو "السين" أو "سوف"، لِما أنّ الدعاء يخالف غيرَه في كثير مِن الأحكام.

﴿مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنۡ حَوۡلَهَا﴾ أي: مَن في مكان النار -وهي البقعة المباركة المذكورة في قوله سبحانه: ﴿نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ﴾

---

[١] صَلَدَ الزَنْدُ يَصْلِدُ -بالكسر- صُلودًا، إذا صَوَّتَ ولم يُخرِج نارًا. وأَصْلَدَ الرجلُ: أي صَلَدَ زَنْدُه. الصحاح للجوهري، «صلد».

[٢] أي: "بِشِهَابِ قَبَسٍ". قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر. النشر لابن الجزري، ٣٣٧/٢.

[٣] طه، ١٠/٢٠.

[٤] س: ثقةً.

[القصص، ٣٠/٢٨]- ومَن حولَ مكانها. وقُرِئ: "تَبَارَكَتِ الْأَرْضُ وَمَنْ حَوْلَهَا".[١] والظاهر عمومه لكلِّ مَن في ذلك الوادي وحَواليهِ مِن أرض الشام الموسومة بالبركات؛ لكونها مَبعثَ الأنبياء عليهم السلام، وكِفَاتَهم[٢] أحياءً وأمواتًا، ولا سيّما تلك البقعة التي كلّم الله تعالى موسى.

وقيل: المراد موسى والملائكة الحاضرون، وتصدير الخطاب بذلك بشارة بأنّه قد قُضِي له أمر عظيم ديني ينتشر بركاته في أقطار الشام، وهو تكليمه تعالى إيّاه عليه السلام، واستنباؤه له، وإظهار المعجزات على يدِه عليه السلام.

﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ تعجيب لموسى عليه السلام مِن ذلك، وإيذانٌ بأنّ ذلك مُريدُه ومُكَوِّنُه ربُّ العالمين تنبيهًا على أنّ الكائن مِن جلائل الأمور، وعظائمِ الشئون، ومِن أحكام تربيته تعالى للعالمين.

﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٩﴾

﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾ استئناف مَسوق لبيان آثار البركة المذكورة. والضمير إمّا للشأن، و﴿أَنَا ٱللَّهُ﴾ جملة مفسّرة له، وإمّا راجع إلى المتكلّم، و﴿أَنَا﴾ خبره، و﴿ٱللَّهُ﴾ بيان له.

وقوله تعالى: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ صفتان لله تعالى ممهِّدتانِ لِما أُريدَ إظهارُه على يده مِن المعجزة، أي: أنا القويُّ القادر على ما لا يناله الأوهام مِن الأمور العظام التي مِن جملتها أمر العصا واليد، الفاعِلُ، كلُّ ما أفعله بحكمة بالغة وتدبير رَصين.

﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝١٠﴾

﴿وَأَلْقِ﴾ عطفٌ على ﴿بُورِكَ﴾[٣] منتظِم معه في سِلك تفسير النداء، أي: نودي أن بُورك وأن ألقِ ﴿عَصَاكَ﴾ حسبما نطق به قوله تعالى: / ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ [٢٤٣و]

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبيّ رضي الله عنه. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٣٤٩/٣.

٢ الكِفات: الموضع الذي يُكْفَتُ فيه شيء، أي: يُضمّ، ومنه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ۝٢٥ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا﴾ [المرسلات، ٢٥/٧٧-٢٦].

٣ في الآية السابقة.

[القصص، ٣١/٢٨] بتكرير حرف التفسير، كما تقول: "كتبتُ إليه أن حُجَّ وأنِ اعتَمِر"، وإن شئتَ "أن حُجَّ واعتمِر".

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ﴾ فصيحة تفصِح عن جملةٍ قد حُذِفَت ثِقةً بظهورها، ودلالةً على سرعة وقوع مضمونها، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ﴾ بعد قوله تعالى: ﴿ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾ [يوسف، ٣١/١٢]، كأنّه قيل: فألقاها فانقلبَتْ حيّةً تسعَى فأبصرها،[١] فلمّا أبْصَرَها متحرِّكةً بسرعة واضطراب.

وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ أي: حيّةٌ خفيفة سريعة الحركة، جملةٌ حاليّة، إمّا مِن مفعول "رأى" مثل ﴿تَهْتَزُّ﴾ كما أشيرَ إليه، أو مِن ضمير ﴿تَهْتَزُّ﴾ على طريقة التداخل. وقُرئ: "جَأَنٌّ"[٢] على لغة مَن جدّ في الهرب مِن التقاء الساكنين.

﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا﴾ مِن الخوف ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ أي: لم يرجع على عقبه، مِن "عَقَّب المقاتل" إذا كَرَّ بعد الفَرِّ. وإنّما اعتراه الرُّعب لظنّه أنّ ذلك لأمرٍ أُريدَ به، كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ﴾ أي: مِن غيري ثِقةً بي، أو مطلقًا لقوله تعالى: ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ فإنّه يدلّ على نفي الخوف عنهم مطلقًا، لكن لا في جميع الأوقات؛ بل حين يُوحَى إليهم كوقت الخطاب، فإنّهم حينئذ مستغرِقون في مطالعة شئون الله عزّ وجلّ، لا يخطر ببالهم خوفٌ مِن أحدٍ أصلًا، وأمّا في سائر الأحيان فهم أخوف الناس منه سبحانه، أو لا يكون لهم عندي سوءُ عاقبة ليخافوا منه.

﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾﴾

﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ استثناء منقطع، استُدرِك به ما عسى يختلجُ في الخَلَد مِن نفي الخوف عن كلّهم مع أنّ منهم مَن فرطَتْ منه صغيرة ما ممّا يجوز صدوره عن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام،[٣] فإنّهم وإن صدر عنهم شيء مِن ذلك فقد فعلوا عقيبَه ما يبطله

---

١ م ط س - فأبصرها ["صح" في هامش م].

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن والزهري وعمرو بن عبيد. البحر المحيط لأبي حيّان، ٢١٣/٨.

٣ س: عليهم السلام.

ويستحقّون به مِن الله تعالى مغفرةً ورحمةً، وقد قُصِد به التعريضُ بما وقع مِن موسى عليه السلام مِن وَكزة القبطي والاستغفار. وتسميتُها ظلمًا لقوله عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥ﴾ [القصص، ١٦/٢٨].

﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ⑫﴾

﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾ لأنّه كان مِدرعةَ صوف لا كُمَّ لها. وقيل: "الجَيب" القميص؛ لأنّه يُجاب، أي: يُقطع. / ﴿تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ أي: [٢٤٣ظ] آفةٍ، كبَرَص ونحوه.

﴿فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ﴾ في جملتها، أو معها على أنّ التِسع هي: الفَلْق، والطوفان، والجراد، والقُمّل، والضفادع، والدم، والطَّمْسة، والجَدْب في بواديهم، والنقصان في مزارعهم. ولِمَن عدّ العصا واليد مِن التسع أن يعدّ الأخيرين واحدًا، ولا يعدّ الفَلْقَ منها؛ لأنّه لم يُبعث به إلى فرعون، أو اذهب في تسع آيات، على أنّه استئناف بالإرسال، فيتعلّق به: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ﴾، وعلى الأوّلَين يتعلّق بنحو: مبعوثًا أو مرسلًا.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ تعليل للإرسال، أي: خارجين عن الحدود في الكفر والعدوان.

﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ⑬﴾

﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا﴾ وظهَرت على يد موسى ﴿مُبْصِرَةً﴾ بيّنةً، اسم فاعل أُطلق على المفعول إشعارًا بأنّها لِفَرْط وضوحها وإنارتها كأنّها تُبصِر نفسَها لو كانت ممّا يُبصِر، أو ذاتَ تَبصّر مِن حيث إنّها تهدي، والعُمْيُ لا تَهتدي فضلًا عن الهداية، أو مُبصِرةً كلَّ مَن ينظر إليها ويتأمّل فيها. وقُرِئ: "مَبْصَرَةٌ"،[١] أي: مكانًا يكثُر فيه التبصّر.

﴿قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ واضحٌ سِحريّتُه.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن قتادة وعلي بن الحسين. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٥٨.

﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّاۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ١٤﴾

﴿وَجَحَدُواْ بِهَا﴾ أي: كذّبوا بها ﴿وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ "الواو" للحال، أي: وقد استيقنَتْها، أي: علِمتْها أنفسهم علمًا يقينيًا ﴿ظُلْمًا﴾ أي: للآيات، كقوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف، ٩/٧]، ولقد ظلَموا[1] أيَّ ظلم حيث حطّوها عن رتبتها العالية وسمّوها سِحرًا. وقيل: ظلمًا لأنفسهم،[2] وليس بذاك.

﴿وَعُلُوًّا﴾ أي: استكبارًا عن الإيمان بها، كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا﴾ [الأعراف، ٣٦/٧]. وانتصابُهما إمّا على العلّة مِن ﴿جَحَدُواْ بِهَا﴾، أو على الحاليّة مِن فاعله، أي: جحدوا بها ظالمين لها مستكبرين عنها.

﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ مِن الإغراق على الوجه الهائل الذي هو عِبرة للعالمين، وإنّما لـم يُذكر تَنبيهًا على أنّه عُرضة لكلّ ناظر مشهور فيما بين كلّ بادٍ وحاضر.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًاۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ١٥﴾

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا﴾ / كلام مستأنَف مَسوق لتقرير ما سبق مِن [٢٤٤و] أنّه عليه السلام يُلَقّى القرآنَ مِن لدن حكيمٍ عليم، فإنّ قصّتهما عليهما السلام مِن جملة القرآن الكريم لُقِّيَهُ عليه السلام مِن لدنه تعالى، كقِصّة موسى عليه السلام. وتصديره بالقسَم لإظهار كمال الاعتناء بتحقيق مضمونه، أي: آتينا كلّ واحد منهما طائفةً مِن العلم لائقةً به مِن علم الشرائع والأحكام وغير ذلك ممّا يختصّ بكلٍّ منهما، كصنعة لَبوسٍ، ومَنطق الطير، أو عِلمًا سنيًّا غزيرًا.

﴿وَقَالَا﴾ أي: قال كلّ واحدٍ منهما شكرًا لِما أُوتِيَه مِن العلم: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا﴾ بما آتانا مِن العِلم ﴿عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ على أنّ عبارة كلٍّ منهما: "فضّلَني"، إلّا أنّه عُبّر عنهما عند الحكاية بصيغة المتكلّم مع الغير إيجازًا، فإنّ حكاية الأقوال المتعدّدة سواء كانت صادرةً عن المتكلّم أو عن غيره

---

[1] ط س + بها.

[2] أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٥٦/٤.

بعبارة جامعة للكلّ ممّا ليس بعزيز، ومِن الأوّل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًا﴾ [المؤمنون، ٥١/٢٣]، وقد مرّ في سورة ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾. وبهذا ظهَر حُسن موقع العطف بـ"الواو"، إذ المتبادر مِن العطف بـ"الفاء" ترتّب حمد كلّ منهما على إيتاء ما أوتي كلٌّ منهما، لا على إيتاء ما أوتي نفسه فقط.

وقيل: في العطف بـ"الواو" إشعار بأنّ ما قالاه بعضُ ما أحدث فيهما، إيتاءُ العلم وشيء مِن مواجبه، فأُضمِر ذلك ثمّ عُطف عليه التحميد، كأنّه قيل: ولقد آتيناهما عِلمًا فعمِلا به وعلّماه وعرَفا حقّ النعمة فيه وقالا: الحمد لله... الآية، فتأمّل.

والكثير المفضّل عليه مَن لم يُؤتَ مثلَ علمهما. وقيل: مَن لم يُؤتَ عِلمًا،[1] ويأباه تبيين الكثير بـ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، فإنّ خلوّهم مِن العلم بالمرّة ممّا لا يمكن. وفي تخصيصهما الأكثرَ بالذكر رَمْز إلى أنّ البعض مفضَّلون عليهما.

[٢٤٤ظ] وفيه أوضح دليل على / فضل العلم وشرف أهله حيث شَكَرا على العلم، وجعلاه أساس الفضل، ولم يعتبرا دونه ما أوتيا مِن المُلك الذي لم يُؤتَهُ غيرهما، وتحريضٌ للعلماء على أن يحمدوا الله تعالى على ما آتاهم مِن فضله، ويتواضعوا، ويعتقدوا أنّهم وإن فُضّلوا على كثير فقَد فُضِّل عليهم كثير، وفوق كلّ ذي علمٍ عليمٌ، ونِعمّا قال أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه: «كلّ الناس أفقَه مِن عمر».[2]

﴿وَوَرِثَ سُلَيۡمَٰنُ دَاوُۥدَۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمۡنَا مَنطِقَ ٱلطَّيۡرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيۡءٍۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡمُبِينُ ١٦﴾

﴿وَوَرِثَ سُلَيۡمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ أي: النبوّةَ والعلمَ، أو المُلكَ بأن قام مقامَه في ذلك دون سائر بَنيه، وكانوا تسعة عشر. ﴿وَقَالَ﴾ تشهيرًا لنعمة الله تعالى، وتنويهًا بها، ودعاءً للناس إلى التصديق بذِكر المعجزات الباهرة التي أُوتِيَها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ

---

[1] أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٥٦/٤.

[2] سنن سعيد بن منصور، ١٩٥/١ (٥٩٨)؛ السنن الكبرى للبيهقي، ٣٨٠/٧ (١٤٣٣٦).

﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ "المنطق" في المتعارَف كلّ لفظ يعبَّر به عمّا في الضمير مفردًا أو مركّبًا، وقد يطلق على كلّ ما يُصَوِّت به مِن المفرد والمؤلَّف، المفيدِ وغيرِ المفيد، يقال: "نَطَقت الحمامة".

وكلّ صنف مِن أصناف الطير يتفاهم أصواتَه، والذي عُلِّمَه سليمان عليه السلام مِن مَنطِق الطير هو ما يَفهم بعضُه مِن بعض مِن معانيه وأغراضه.

ويُحكى أنّه مرّ على بلبلٍ في شجرة يُحرّك رأسه ويُميل ذنَبَه، فقال لأصحابه: «أتدرون ما يقول؟» قالوا: «الله ونبيّه أعلم»، قال: يقول: «إذا أكلتُ نصف تمرة فعلى الدنيا العَفاء». وصاحت فاخِتة، فأخبَر أنّها تقول: «ليت ذا الخلقَ لم يُخْلَقُوا». وصاح طاوس، فقال: يقول: «كما تَدِينُ تُدانُ». وصاح هُدهُد، فقال: يقول: «استغفروا الله يا مذنبون». وصاح طِيطُوي، فقال: يقول: «كلّ حيّ ميّت، وكلّ جديدٍ بالٍ». وصاح خطّاف، فقال: يقول: «قدِّموا خيرًا تجدوه». وصاح قُمريّ، فأخبَر أنّه يقول: «سبحان ربّي الأعلى». وصاحت رَخَمَة، فقال: تقول: «سبحان ربّي الأعلى مِلْأَ سمائه وأرضه».

وقال: الحِدأ يقول: «كلّ شيء هالك إلّا الله»، والقَطاة تقول: «مَن سكت سَلِم»، / والبَبَّغاء تقول: «ويل لمَن الدّنيا همّه»،[1] والديك يقول: «اذكروا الله يا غافلون»، والنَّسر يقول: «يا ابن آدم عِش ما شئتَ، آخرُك الموت»، والعُقاب يقول: «في البُعد مِن الناس أُنس»، والضِّفدَع يقول: «سبحان ربّي القدّوس».[2] [٢٤٥و]

وأراد عليه السلام بقوله: ﴿عُلِّمْنَا﴾ و﴿أُوتِينَا﴾ بـ"النون" التي يقال لها: "نون الواحد المطاع" بيانَ حالِه وصفتِه مِن كونِه مَلِكًا مُطاعًا، لكن لا تَكبّرًا وتَجبّرًا؛ بل تمهيدًا لِما أراد منهم مِن حسن الطاعة والانقياد له في أوامره ونواهيه حيث كان على عزيمة المسير.

وبقوله: ﴿مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ كثرةَ ما أُوتِيَه، كما يقال: "فلان يقصده كلّ أحد، ويعلم كلَّ شيء"، ويراد به كثرةُ قُصّاده وغَزارةُ علمه. ومثله قوله تعالى:

---

[1] م ط س: لمن همّه الدنيا ["صح" في هامش م].

[2] الكشف والبيان للثعلبي، ١٩٤/٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٣٥٣/٣.

﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل، ٢٣/٢٧]. وقال ابن عبّاس: «كلّ ما يهمّه مِن أمر الدنيا والآخرة».[1] وقال مقاتل: «يعني: النبوّةَ والمُلكَ وتسخيرَ الجنّ والإنس والشياطين والريح».[2]

﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ إشارة إلى ما ذكِر مِن التعليم والإيتاء ﴿لَهُوَ ٱلْفَضْلُ﴾ والإحسانُ مِن الله تعالى ﴿ٱلْمُبِينُ﴾ الواضح الذي لا يخفى على أحد.

أو إنّ هذا الفضل الذي أُوتِيَه لهو الفضل المبين، على أنّه عليه السلام قالَه على سبيل الشكر والمَحْمَدة، كما قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «أنا سيّد ولد آدم ولا فَخر»،[3] أي: أقول هذا القولَ شكرًا لا فخرًا، ولعلّه عليه السلام رَتّبَ على كلامه ذلك دعوةَ الناس إلى الغَزْو، فإنّ إخبارهم بإيتاءِ كلّ شيء مِن الأشياء التي مِن جملتها آلات الحرب وأسباب الغزو ممّا يُنبئ عن ذلك.

﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾﴾

فمعنى قوله تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ﴾ جُمع له عساكره ﴿مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ﴾ بمباشرة مُخاطَبِيه، فإنّهم كانوا رُؤساءَ مملكته وعظماءَ دَولته مِن الثقلين وغيرهم، بتعميم الناس للكلّ تغليبًا. وتقديم ﴿ٱلْجِنِّ﴾ على ﴿ٱلْإِنسِ﴾ في البيان للمسارعة إلى الإيذان بكمال قوّة مُلكه وعزّة سلطانه مِن أوّل الأمر، لِما أنّ الجنّ طائفة عاتية وقبيلة طاغية ماردة بعيدة مِن الحشر والتسخير.

﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي: يُحبَس أوائلهم على أواخرهم، أي: يُوقَف سُلّافُ العسكر حتّى يلحقهم التوالي، فيكونوا مجتمعين لا يتخلّف منهم أحد، وذلك للكثرة العظيمة. ويجوز أن يكون ذلك لترتيب الصفوف كما هو المعتاد في العساكر. وفيه إشعار بكمال مسارعتهم إلى السير.

---

١ التفسير الوسيط للواحدي، ٣٧٢/٣؛ اللباب لابن عادل، ١٢٤/١٥.

٢ التفسير الوسيط للواحدي، ٣٧٢/٣؛ اللباب لابن عادل، ١٢٤/١٥.

٣ سنن الترمذي، ٣٠٨/٥ (٣١٤٨)؛ سنن ابن ماجه، ٣٦٢/٥ (٤٣٠٨).

وتخصيص حبس أوائلهم بالذكر دون سَوق أواخرهم مع أنّ التلاحق يحصل بذلك أيضًا لِما أنّ أواخرهم غير قادرين على ما يقدر عليه أوائلهم مِن السير السريع، وهذا إذا لم يكن سيرهم بتسيير الريح في الجوّ.

رُوي أنّ مُعَسكَره عليه السلام كان مائةَ فرسخ في مائةٍ، خمسة وعشرون للجنّ، وخمسة وعشرون للإنس، وخمسة وعشرون للطير، وخمسة وعشرون للوحش. وكان له عليه السلام ألف بيتٍ مِن قواريرٍ على الخشب، فيها ثلاثُمائة منكوحةٍ، وسبعُمائة سُرِّيّةٍ، وقد نَسجَتْ له الجنّ بساطًا مِن ذهب وأَبْريسَمٍ فرسخًا في فرسخ، وكان يُوضَعُ مِنبره في وسطه -وهو مِن ذهب- فيقعد عليه وحوله ستُّمائة / ألفِ كرسيّ مِن ذهب وفضّة، فيقعد الأنبياء عليهم السلام على كراسيّ الذهب، والعلماء على كراسيّ الفضّة، وحولَهم الناس، وحولَ الناس الجنّ والشياطين، وتُظلُّه الطير بأجنحتها حتّى لا تقع عليه الشمس، وترفع ريح الصَّبا البساطَ فتسيرُ به مَسيرةَ شهر.[1] [٢٤٥ظ]

ويُروى أنّه كان يأمر الريحَ العاصف تحمِله، ويأمر الرُّخاءَ تُسَيِّره، فأوحى الله تعالى إليه وهو يسير بين السماء والأرض: «إنّي قد زِدْتُ في مُلكك؛ لا يتكلّم أحد بشيء إلّا ألقَتْه الريح في سمعك»، فيُحكَى أنّه مرّ بحرّاث فقال: «لقد أُوتِيَ آلُ داود مُلكًا عظيمًا»، فألقَتْهُ الريح في أُذُنه، فنزل ومشى إلى الحرّاث، وقال: «إنّما مشيتُ إليك لِئَلّا تتمنّى ما لا تقدر عليه»، ثمّ قال: «لَتَسبيحةٌ واحدة يقبلها الله تعالى خير ممّا أُوتِيَ آلُ داود».[2]

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١٨﴾

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ﴾ حتّى هي التي يُبتدَأُ بها الكلام، ومع ذلك هي غاية لِما قبلها كالتي في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ﴾

---

[1] الكشف والبيان للثعلبي، ١٩٦/٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٣٥٤/٣.

[2] الكشف والبيان للثعلبي، ١٩٦/٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٣٥٥/٣.

الآيةَ [هود، ١١/٤٠]، وهي ههنا غاية لِما يُنبئ عنه قوله تعالى: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ مِن السير، كأنّه قيل: فساروا حتّى إذا أتَوا... إلخ.

و"وادي النمل" وادٍ بالشام كثيرُ النمل على ما قاله مقاتل،[١] وبالطائف على ما قاله كعب.[٢] وقيل: هو وادٍ تسكنه الجنّ، والنمل مراكبهم. وتعدية الفعل إليه بكلمة ﴿عَلَىٰ﴾ إمّا لِأنّ إتيانهم كان مِن فوق، وإمّا لأنّ المراد بالإتيان عليه قطعُه، مِن قولهم: "أتَى على الشيء" إذا أَنفَدَه وبلغ آخره، ولعلّهم أرادوا أن يَنزلوا عند منتهى الوادي؛ إذ حينئذ يخافُهم ما في الأرض، لا عند سيرهم في الهواء.

وقوله تعالى: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ﴾ جواب ﴿إِذَا﴾، كأنّها لمّا رأتهم متوجّهين إلى الوادي فرّت منهم، فصاحت صيحةً تَنبّهتْ بها ما بحَضْرَتها مِن النمل لِمرادها، فتَبِعَها في الفرار، فَشُبّهَ / ذلك بمخاطبة العقلاء ومناصحتهم فأُجْرُوا مُجراهم، [٢٤٦و] حيث جُعلَت هي قائلةً، وما عداها مِن النمل مقولًا لهم، حيث قيل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمْ﴾ مع أنّه لا يمتنع أن يخلُق الله تعالى فيها النطقَ، وفيما عداها العقلَ والفهمَ.

وقُرئ: "نَمُلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمُلُ" بضمّ الميم،[٣] وهو الأصلُ، كـ"الرجُل"، وتسكينُ الميم تخفيف منه، كـ"السَّبْع" في "السَّبُع". وقُرئ بضمّ النون والميم.[٤]

قيل: كانت نملةً عرجاءَ تمشي وهي تَتَكاوَسُ،[٥] فنادت بما قالت، فسمع سليمان عليه السلام كلامَها مِن ثلاثة أميال. وقيل: كان اسمُها طاخيةَ. وقُرئ: "مَسْكَنَكُمْ".[٦]

---

١ التفسير الوسيط للواحدي، ٣/٣٧٣؛ اللباب لابن عادل، ١٥/١٢٧. وهو في الكشّاف للزمخشري، ٣/٣٥٥؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٤/١٥٧، مِن غير عزو إلى مقاتل.

٢ التفسير الوسيط للواحدي، ٣/٣٧٣؛ اللباب لابن عادل، ١٥/١٢٧.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وطلحة ومعتمر بن سليمان وسليمان التيمي. البحر المحيط لأبي حيّان، ٨/٢٢٠.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن سليمان التيمي. البحر المحيط لأبي حيّان، ٨/٢٢٠.

٥ مِن "الكَوس"، وهو المشي على رِجل واحدة، ومِن ذوات الأربع على ثلاث قوائم. انظر: لسان العرب لابن منظور، «كوس».

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن شَهر بن حوشب. البحر المحيط لأبي حيّان، ٨/٢٢٠.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ﴾ نهي في الحقيقة للنمل عن التأخّر في دخول مساكنهم وإن كان بحسب الظاهر نهيًا له عليه السلام ولجنوده عن الحَطْم، كقولهم: "لا أَرَيَنَّك ههنا"، فهو استئناف، أو بدل مِن الأمر، كقول مَن قال:

فقلتُ لَه: ارْحَلْ لا تقيمنَّ عندنا[١]

لا جواب له، فإنّ النون لا تدخله في السَّعة. وقُرئ: "لَا يَحْطِمَنْكُمْ" بالنون الخفيفة.[٢] وقُرئ: "لَا يَحَطِّمَنَّكُمْ" بفتح الحاء وكسرِها،[٣] وأصله: "لَا يَحْتَطِمَنَّكُمْ".

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ حال مِن فاعل ﴿يَحْطِمَنَّكُمْ﴾ مفيدة، لتقييد الحَطْم بحالِ عدم شعورهم بمكانهم، حتّى لو شعروا بذلك لم يَحْطِموا. وأرادت بذلك الإيذانَ بأنّها عارفة بشئون سليمان وسائر الأنبياء عليهم السلام في عصمتهم عن الظلم والإيذاء. وقيل: هو استئناف، أي: فَهِمَ سليمان ما قالته، والقوم لا يشعرون بذلك.

﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾

﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾ تعجّبًا مِن حذَرِها واهتدائها إلى تدبير مصالحها ومصالح بني نوعها، وسرورًا بشُهرة حاله وحالِ جنوده في باب التقوى والشَّفَقة فيما بين أصناف المخلوقات التي هي أبعدها مِن إدراك أمثال هذه الأمور، وابتهاجًا بما خصّه الله تعالى به مِن إدراك هَمسها وفهم مرادها. رُوي أنّها أحسّت بصوت الجنود ولا تعلم أنّهم في الهواء، فأمر سليمان عليه السلام الريح فوقفَت لئلّا يُذْعَرْنَ حتّى دخلن مساكنهنّ.[٤]

---

[١] تمامه:
وإلّا فكُن في السِّرّ والجهر مسلمًا
وهو بغير نسبة في مفتاح العلوم للسكّاكي، ٢٥٩/١؛ وشرح شواهد المغني للسيوطي، ٨٣٩/٢.

[٢] قرأ بها رُويس عن يعقوب. النشر لابن الجزري، ٢٤٦/٢.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٥٩.

[٤] الكشّاف للزمخشري، ٣٥٨/٣.

﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾ أي: اجعلني أَزَعُ شكرَ نعمتك عندي وأكفُّه وأرتَبِطه بحيث لا ينفلت عنّي، حتّى لا أنفكّ عن شكرك أصلًا. وقُرئ بفتح ياء ﴿أَوْزِعْنِيٓ﴾.[1] ﴿ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾ / أدرج فيه ذكرَهما تكثيرًا [٢٤٦ظ] للنعمة، فإنّ الإنعام عليهما إنعام عليه مستوجب للشكر.

﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾ إتمامًا لِلشكر واستدامةً للنعمة ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ في جملتهم الجنّةَ التي هي دار الصالحين.

﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ٢٠﴾

﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ﴾ أي: تعرّفِ أحوال الطير، فلم يَرَ الهُدهُدَ فيما بينها، ﴿فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ﴾ كأنّه قال أوّلًا: ما لي لا أراه؟ لِساتر ستَره أو لسبب آخر، ثمّ بَدَا له أنّه غائب، فأضرَبَ عنه، فأخذَ يقول: أَهُو غائب؟

﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ٢١﴾

﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ قيل: كان تعذيبه للطير بنتف ريشه وتشميسه. وقيل: بجَعله مع ضدّه في قفص. وقيل: بالتفريق بينه وبين إلْفه. ﴿أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ﴾ ليعتبر به أبناء جنسه ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ بحجّة تبيّن عذره. والحَلف في الحقيقة على أحد الأَوّلين على تقدير عدم الثالث. وقُرئ: "لَيَأْتِيَنَّنِي" بنونين أولاهما مفتوحة مشدّدة.[2]

قيل: إنّه عليه السلام لمّا أتمّ بناء بيت المقدس تجهّز للحجّ بحَشْره[3] فَوافى الحرمَ وأقامَ به ما شاء، وكان يقرِّب كلَّ يومٍ طُولَ مُقامِه بخمسة آلاف ناقة، وخمسةِ آلاف بقرةٍ، وعشرين ألفَ شاةٍ، ثمّ عزَم على السير إلى اليمن، فخرج مِن مكّة صباحًا يَؤُمُّ سُهَيلًا، فوافى صنعاءَ وقت الزوال، وذلك مسيرةُ شهرٍ، فرأى أرضًا حسناءَ أعجبته خُضرتُها، فنزل لِيتغدّى ويُصلّي، فلم يجدوا الماءَ،

---

[1] قرأ بها البزّي وورش مِن طريق الأزرق. النشر لابن الجزري، ٢/١٦٦.

[2] قرأ بها ابن كثير، وكذلك هي في مصاحف أهل مكّة. النشر لابن الجزري، ٢/٣٣٧.

[3] وفي هامش م: الحشر: المحشور. «منه».

وكان الهُدهُد قُنَاقِنَه،[١] وكان يرى الماء مِن تحت الأرض كما يُرى الماءُ في الزجاجة، فيجيء الشياطين فيَسلخونها كما يُسلَخ الإهابُ، ويستخرجون الماء، فتفقّده لذلك، وقد كان حين نزل سليمان عليه السلام حَلْقَ الهُدهُد، فرأى هُدهُدًا واقعًا، فانحطّ إليه، فوصف له مُلك سليمان عليه السلام وما سُخِّر له مِن كلّ شيء، وذَكر له صاحبةُ مُلك بِلْقِيسَ، وأنّ تحتَ يدها اثني عشر ألف قائد، تحت يدِ كلّ قائد مائةُ ألفٍ، وذهب معه لينظر، فما رجع إلّا بعد العصر.[٢] وذلك قوله تعالى:

﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾﴾

﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ أي: زمانًا غير مَديد. وقُرئ بضمّ الكاف.[٣] وذُكِر أنّه وقَعَتْ / نفحة مِن الشمس على رأس سليمان عليه السلام،[٤] فنظر فإذا موضع الهُدهُد خالٍ، فدعا عِرّيفَ الطير -وهو النسر- فسأله عنه، فلم يجد عنده علمَه، ثمّ قال لسيّد الطير -وهو العُقاب-: عليَّ به، فارتفعَتْ فنظرَتْ، فإذا هو مُقبل فقصدَتْه، فناشدها الله تعالى،[٥] وقال: بحقّ الله[٦] الذي قوّاكِ وأقدَركِ عليّ إلّا رَحِمتِني، فتركَتْه. وقالت: ثكِلَتكَ أمّك، إنّ نبيّ الله قد حلَف ليعذّبنّكَ، قال: وما استثنى، قالت: بلى، قال: أو لَيأتيَنّي بعذر مبين، فلمّا قَرُب مِن سليمان عليه السلام أرخى ذنَبَه وجناحَيه يجرّها على الأرض تواضعًا له، فلمّا دَنا منه أخذ عليه السلام برأسه فمدّه إليه، فقال: يا نبيّ الله اذكر وقوفك بين يدي الله تعالى، فارتعد سليمان عليه السلام، وعفا عنه، ثمّ سأله،[٧] ﴿فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ أي: علمًا ومعرفةً، وحفظتُه مِن جميع جهاته. وقُرئ: "أَحَطتُّ" بإدغام الطاء في التاء، بإطباقٍ[٨] وبغير إطباقٍ.[٩] [٢٤٧و]

---

١ وفي هامش م: "القُنَاقِنُ" مَن يعرف مَنابط الماء، والجمعُ "قَنَاقِن". «منه».

٢ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٠٠/٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٣٥٨/٣.

٣ قرأ بها جميع القرّاء العشر غير عاصم وروح. النشر لابن الجزري، ٣٣٧/٢.

٤ س - عليه السلام.

٥ م - تعالى.

٦ س - الله.

٧ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٠١/٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٣٥٨/٣.

٨ قرأ بالإدغام مع المحافظة على إطباق الطاء جميع القرّاء العشر. انظر: النشر لابن الجزري، ٢٢٠/١.

٩ أي: بالإدغام الكامل، قراءة شاذّة، ذكرها الزمخشري والبيضاوي بغير نسبة وعزاها الشهاب الخفاجي إلى ابن محيصن. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٣٥٩/٣؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١٥٨/٤؛ وحاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، ٤٠/٧.

ولا خفاءَ في أنّه لم يُرِد بما ادّعى الإحاطةَ به ما هو مِن حقائق العلوم ودقائق المعارف التي يكون معرفتُها والإحاطةُ بها مِن وَظائف أرباب العلم والحكمة، لتوقّفها على علم رصين وفضل مبين، حتّى يكون إثباتُها لنفسه بين يدي نبيّ الله سليمان عليه السلام تعدّيًا عن طَوره، وتجاوزًا عن دائرة قدره، ونَفيُها عنه عليه السلام جنايةً على جنايةٍ، فيُحتاجَ إلى الاعتذار عنه بأنّ ذلك كان منه بطريق الإلهام، فكافحه عليه السلام بذلك مع ما أوتي عليه السلام مِن فضل النبوّة والحكمة والعلوم الجمّة والإحاطةِ بالمعلومات الكثيرة ابتلاءً له عليه السلام في علمه، وتنبيهًا على أنّ في أدنى خلقه تعالى وأضعفِهم مَن أحاط علمًا بما لم يُحط به، ليتحاقرَ إليه نفسُه، ويتصاغرَ إليه عِلمُه، ويكونَ لطفًا له في ترك الإعجاب الذي هو فِتنةُ العلماء؛ بل أراد به ما هو مِن الأمور / المحسوسة [٢٤٧ظ] التي لا يُعَدُّ الإحاطة بها فضيلة، ولا الغفلةُ عنها نقيصة، لعدمِ توقّفِ إدراكها إلّا على مجرّد إحساسٍ يستوي فيه العقلاء وغيرُهم.

وقد عَلِم أنّه عليه السلام لم يشاهِده، ولم يسمَع خبرَه مِن غيره قطعًا، فعَبَّر عنه بما ذُكِرَ لِترويج كلامه عنده عليه السلام وترغيبِه في الإصغاء إلى اعتذاره واستمالةِ قلبه نحو قبوله، فإنّ النفس للاعتذارِ المُنبِئ عن أمرٍ بديع أَقْبَلُ، وإلى تَلَقِّي ما لا تعلمه أَمْيَلُ، ثمّ أيّده بقوله: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ حيث فسّر إبهامَه نوعَ تفسيرٍ وأراه عليه السلام أنّه كان بصَدد إقامة خدمةٍ مهمّةٍ له حيث عبّر عمّا جاء به بالنبأ الذي هو الخبر الخطير والشأن الكبير، ووصَفَه بما وصفَه، وإلّا فماذا صَدَر عنه عليه السلام مع ما حُكِي عنه ما حُكِي مِن الحمد والشكر، واستدعاء الإيزاع[1] حتّى يليقَ بالحكمة الإلهيّة تنبيهه عليه السلام على تركه.

و﴿سَبَإٍ﴾ منصرف على أنّه اسمٌ لحَيّ، سُمُّوا باسم أبيهم الأكبر، وهو سَبأُ بنُ يَشْجُبَ بنِ يَعْرُبَ بنِ قَحطان. قالوا: اسمُه عبد شمس، لُقِّب به لكونه أوّلَ مَن سبَى. وقُرئ بفتح الهمزة[2] غيرَ منصرف على أنّه اسم للقبيلة ثمّ سُمِّيَت

---

[1] وفي هامش م: بقوله: ﴿أَوْزِعْنِي﴾. «منه». | أي: مِن قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ [النمل، ١٩/٢٧].

[2] قرأ بها أبو عمرو والبزّي. النشر لابن الجزري، ٣٣٧/٢.

مدينة مَأرِبَ بِسَبَإٍ، وبينها وبين صنعاءَ مسيرة ثلاث. وعلى هذه القراءة يجوز أن يُراد به القبيلة والمدينة، وأمّا على القراءة الأولى فالمراد هو الحيّ لا غير.

وعدم وقوف سليمان عليه السلام على نبئهم قبل إنباءِ الهُدهُد ليس بأمر بديع لا بدّ له مِن حِكمةٍ داعية إليه البتّة، وإن استحال خلوّ أفعاله تعالى مِن الحِكم والمصالح، لِما أنّ المسافة بين محطّه عليه السلام وبين مَأرِب وإن كانت قصيرة لكن مدّةَ ما بين نزوله عليه السلام هناك وبين مجيء الهُدهُد بالخبر أيضًا قصيرة. نعم اختصاص الهُدهُد بذلك مع كون الجنّ أقوى منه مبنيّ على حِكم بالغة، يستأثر بها علّام الغيوب.

﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ ﴿٢٤﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ﴾ استئناف ببيان ما جاء به مِن النبأ، وتفصيلٌ له إثرَ الإجمال، وهي بِلْقِيسُ بنتُ شراحيل بن مالك بن ريّان. وكان أبوها مَلِكَ أرضِ اليمن كلّها، وُرِّثَ المُلكَ مِن أربعين أبًا، ولم يكن له ولد غيرها، فغلبَتْ بعده على المُلكِ، / ودانَت لها الأمّة. وكانت هي وقومُها مجوسًا يعبدون الشمس. [٢٤٨و]

وإيثارُ ﴿وَجَدتُّ﴾ على "رأيتُ" لِما أشيرَ إليه مِن الإيذان بكونه عند غيبته بصدد خدمته عليه السلام بإبراز نفسه في معرِض مَن يتفقّدُ أحوالَها ويتعرَّفُها كأنّها طَلِبَتُه وضالَّتُه لِيَعْرِضَها على سليمان عليه السلام. وضمير ﴿تَمۡلِكُهُمۡ﴾ لـ﴿سَبَإٍ﴾ على أنّه اسم الحيّ، أو لأهلها المدلول عليهم بذِكر مدينتهم على أنّه اسم لها.

﴿وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ﴾ أي: مِن الأشياء التي يحتاج إليها الملوك ﴿وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ﴾ قيل: كان ثلاثين ذراعًا في ثلاثين عرضًا وسَمكًا، وقيل: ثمانين في ثمانين، مِن ذهب وفضّةٍ مُكلَّلًا بالجواهر، وكانت قوائمه مِن ياقوت أحمر وأخضر،

ودرّ وزمرّد، وعليه سبعة أبيات على كلّ بيت باب مغلق. واستعظام الهُدهُد لعرشها مع ما كان يشاهده مِن مُلك سليمان عليه السلام، إمّا بالنسبة إلى حالها، أو إلى عروش أمثالها مِن الملوك. وقد جُوّز أن لا يكون لسليمان عليه السلام مِثلُه.

وأيًا ما كان فوصفُه بذلك بين يديه عليه السلام لِما مرّ مِن ترغيبه عليه السلام في الإصغاء إلى حديثه، وتوجيهِ عزيمته عليه السلام نحو تسخيرها، ولذلك عقّبه بما يوجبُ غَزْوَها مِن كفرها وكفر قومها حيث قال: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: يعبدونها متجاوزين عبادةَ اللهِ تعالى ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ التي هي عبادةُ الشمسِ ونظائرها مِن أصناف الكفر والمعاصي. ﴿فَصَدَّهُمْ﴾ بسبب ذلك ﴿عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: سبيلِ الحقّ والصواب، فإنّ تزيين أعمالهم لا يُتصوّر بدون تقويم طرق كفرهم وضلالهم، ومِن ضرورته نسبةُ / طريق الحقّ إلى العِوَج. ﴿فَهُمْ﴾ بسبب ذلك ﴿لَا يَهْتَدُونَ﴾ إليه. [٢٤٨ظ]

﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ﴾ مفعول له، إمّا للصَّدِّ، أو للتزيين، على حذف اللام منه، أي: فصدّهم لِأنْ لا يَسجُدوا له تعالى، أو زيّن لهم أعمالهم لِأن لا يَسجُدوا، أو بدل على حاله مِن ﴿أَعْمَٰلَهُمْ﴾،[١] وما بينهما اعتراض، أي: زُيّن لهم أن لا يسجدوا. وقيل: هو في موقع المفعول لـ﴿يَهْتَدُونَ﴾ بإسقاط الخافض، و﴿لَا﴾ مَزيدة كما في قوله تعالى: ﴿لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الحديد، ٥٧/٢٩]، والمعنى: فهم لا يهتدون إلى أن يسجدوا له تعالى.

وقُرِئ: "أَلَا يَا اسْجُدُوا"،[٢] على التنبيه والنداء، والمنادى محذوف، أي: أَلَا يا قومُ اسجدوا، كما في قوله:

ألا يـا اسلَمي يـا دارَ مَـيّ عَلَى البِلَى[٣]

---

١ في الآية السابقة.

٢ قرأ بها أبو جعفر والكسائي ورويس. النشر لابن الجزري، ٣٣٧/٢.

٣ تمامه:
ولا زالَ مُنهلًا بجَرعائِك القَطرُ
لذي الرمّة في ديوانه، ٥٥٩/١.

ونظائرِه. وعلى هذا يحتمل أن يكون استئنافًا مِن جهة الله عزّ وجلّ، أو مِن سليمان، ويوقَفُ على ﴿لا يهتدون﴾، ويكونُ أمرًا بالسجود، وعلى الوجوه المتقدّمة ذمًّا على تركه، وأيًّا ما كان فالسجود واجب. وقُرئ: "هَلَّا"، و"هَلَا"[1] بقلب الهمزتين "هاءً". وقُرئ: "هَلَّا تَسْجُدُونَ"[2] بمعنى "ألا تسجدون" على الخطاب.

﴿ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ[3] فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: يُظهر ما هو مَخبوءٌ ومخفيّ فيهما كائنًا ما كان، وتخصيصُ هذا الوصف بالذكر بصدد بيان تفرّده تعالى باستحقاق السجود له مِن بين سائر أوصافه الموجبة لذلك لِما أنّه أرسخ في معرفته والإحاطةِ بأحكامه بمشاهدة آثاره التي مِن جملتها ما أودعه الله تعالى في نفسه مِن القدرة على معرفة الماءِ تحت الأرض.

وأشار بعطف قوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ على ﴿يُخْرِجُ﴾ إلى أنّه تعالى يُخرج ما في العالم الإنساني مِن الخفايا كما يُخرج ما في العالم الكبير مِن الخبايا، لِما أنّ المراد يُظهِر ما تخفونه مِن الأحوال فيجازيكم بها. وذِكر ﴿مَا تُعْلِنُونَ﴾ لتوسيع دائرة العلم، أو للتنبيه على تساويهما بالنسبة إلى العلم الإلهي. وقُرئ: "مَا يُخْفُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ"[4] على صيغة الغيبة بلا التفات.

و"إخراجُ الخَبْءِ" / يَعُمّ إشراقَ الكواكب، وإظهارَها مِن آفاقها بعد استتارها وراءَها، وإنزالَ الأمطار، وإنباتَ النبات؛ بل الإنشاءَ الذي هو إخراج ما في الشيء بالقوّة إلى الفعل، والإبداعَ الذي هو إخراج ما في الإمكان والعدم إلى الوجود، وغيرَ ذلك مِن غيوبه عزّ وجلّ. [٢٤٩و]

وقُرئ: "الْخَبَ" بتخفيف الهمزة بالحذف.[5] وقُرئ: "الْخَبَا"[6] بتخفيفها

---

[1] قراءتان شاذّتان، مرويّتان عن ابن مسعود رضي الله عنه والأعمش. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٣٦٢/٣.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٣٦٢/٣.

[3] م ط س: الخبأ.

[4] قرأ بها جميع القرّاء العشر غير الكسائي وحفص. انظر: النشر لابن الجزري، ٣٣٧/٢.

[5] قراءة شاذّة، مرويّة عن عكرمة ومالك بن دينار والزهري والأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٥٩.

[6] قراءة شاذّة، مرويّة عن عكرمة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٥٩.

بالقلب. وقُرئ: "أَلَا[1] تَسْجُدُونَ للهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ[2] مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَمَا تُعْلِنُونَ".[3]

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ٢٦﴾

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ الذي هو أوّل الأجرام وأعظمها. وقُرئ: "الْعَظِيمُ" بالرفع[4] على أنّه صفة "الربّ".

واعلم أنّ ما حُكي مِن الهُدهُد مِن قوله: ﴿ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ﴾[5] إلى هنا ليس داخلًا تحت قوله: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾.[6] وإنّما هو مِن العلوم والمعارف التي اقتبسها مِن سليمان عليه السلام، أورده بيانًا لِما هو عليه، وإظهارًا لِتَصلّبه في الدين. وكلّ ذلك لتوجيه قلبه عليه السلام نحوَ قَبول كلامه، وصرفِ عَنان عزيمته عليه السلام إلى غزوها وتسخير ولايتها.

﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ٢٧﴾

﴿قَالَ﴾ استئناف وقع جوابًا عن سؤال نشأ مِن حكاية كلام الهُدهُد، كأنّه قيل: فماذا فعل سليمان عليه السلام عند ذلك، فقيل: قال: ﴿سَنَنظُرُ﴾ أي: فيما ذكرتَه، مِن "النظر" بمعنى التأمّل، و"السين" للتأكيد، أي: سنتعرّف بالتجربة البتّة ﴿أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ كان مقتضى الظاهر "أم كذبتَ"، وإيثارُ ما عليه النظم الكريم للإيذان بأنّ كذبه في هذه المادّة يستلزم انتظامه في سلك الموسومين بالكذب الراسخين فيه، فإنّ مساق هذه الأقاويل الملفّقة على ترتيب أنِيق يستميل قلوب السامعين نحو قبولها مِن غير أن يكون لها مصداق أصلًا -لا سيّما بين يدي نبيّ عظيم الشأن- لا يكاد يصدر إلّا عمّن له قدم راسخ في الكذب / والإفك. [٢٤٩ظ]

---

[1] وفي هامش م: للتحضيض.

[2] م ط س: الخبأ.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبيّ رضي الله عنه. انظر: **الكشّاف** للزمخشري، ٣/٣٦٢؛ و**البحر المحيط** لأبي حيّان، ٨/٢٢٩.

[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مُحيصن وجماعة. **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٨/٢٣٢.

[5] في الآية السابقة.

[6] النمل، ٢٧/٢٢.

﴿ٱذۡهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا فَأَلۡقِهۡ إِلَيۡهِمۡ ثُمَّ تَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَٱنظُرۡ مَاذَا يَرۡجِعُونَ ٢٨﴾

وقوله تعالى: ﴿ٱذۡهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا فَأَلۡقِهۡ إِلَيۡهِمۡ﴾ استئناف مبيّن لكيفيّة النظر الذي وعده عليه السلام، وقد قاله عليه السلام بعدما كتبَ كتابَه في ذلك المجلس أو بعده. وتخصيصه عليه السلام إيّاه بالرسالة دون سائر ما تحت مُلكه مِن أمناء الجنّ الأقوياء على التصرّف والتعرّف لِما عايَنَ فيه مِن مخائل العلم والحكمة وصحّةِ الفراسة، ولئلّا يبقى له عذر أصلًا.

﴿ثُمَّ تَوَلَّ عَنۡهُمۡ﴾ أي: تَنَحَّ إلى مكان قريب تتوارى فيه ﴿فَٱنظُرۡ﴾ أي: تأمَّلْ وتعرَّفْ ﴿مَاذَا يَرۡجِعُونَ﴾ أي: ماذا يرجع بعضُهم إلى بعض مِن القول. وجمعُ الضمائر لِما أنّ مضمون الكتاب الكريم دعوة الكلّ إلى الإسلام.

﴿قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ إِنِّيٓ أُلۡقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٞ كَرِيمٌ ٢٩﴾

﴿قَالَتۡ﴾ أي: بعدما ذهب الهُدهُد بالكتاب فألقاه إليهم وتنحّى عنهم حسبما أُمر به، وإنّما طُوِي ذكره إيذانًا بكمال مسارعته إلى إقامة ما أُمِر به مِن الخدمة، وإشعارًا باستغنائه عن التصريح به لغاية ظهوره.

رُوي أنّه عليه السلام كتب كتابه، وطبعَه بالمِسك، وختمَه بخاتَمه، ودفعَه إلى الهُدهُد، فوجدها الهُدهُد راقدةً في قصرها بمأرِبَ، وكانت إذا رقدت غلَّقت الأبوابَ، ووضعت المفاتيح تحت رأسها، فدخل مِن كُوّة، وطرح الكتاب على نَحرها وهي مستلقية.[1]

وقيل: نقرَها فانتبهت فَزِعةً. وقيل: أتاها والقادةُ والجنودُ حَوَالَيها فَرَفْرَفَ ساعةً والناسُ ينظرون حتّى رفعَت رأسها، فألقى الكتاب في حِجرها، وكانت قارئة كاتبةً عربيّة مِن نَسل تُبَّع الحِمْيَري كما مَرّ، فلمّا رأت الخاتم ارتعدَت وخضعَت،[2] فعند ذلك قالت لأشراف قومِها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ إِنِّيٓ أُلۡقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٞ كَرِيمٌ﴾ وصَفَتْه بالكرَم لِكرَم مضمونه، أو لكونه / مِن عند مَلِك كريم، أو لكونه مختومًا، [٢٥٠و]

---

[1] جامع البيان للطبري، ١٨/٤٤٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٣/٣٦٤.

[2] الكشف والبيان للثعلبي، ٧/٢٠٥؛ الكشّاف للزمخشري، ٣/٣٦٤.

أو لغَرابة شأنه ووصولِه إليها على مِنهاجٍ غير معتاد.

﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَـٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣٠﴾

﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَـٰنَ﴾ استئناف وقع جوابًا لِسؤال مقدّر، كأنّه قيل: ممّن هو؟ وماذا مضمونه؟ فقالت: إنّه مِن سليمان، ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي: مضمونه والمكتوبُ فيه: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ وفيه إشارة إلى سبب وصفِها إيّاه بالكرَم.

وقُرئ: "أَنَّهُ"... "وَأَنَّهُ" بالفتح[1] على حذف اللام، كأنّها علّلَت كرَمه بكونه مِن سليمان، وبكونه مصدَّرًا باسم الله تعالى. وقيل: على أنّه بدل مِن ﴿كِتَـٰبٌ﴾.[2] وقُرئ: "أَنْ مِن سُلَيْمَانَ وَأَنْ بِسْمِ اللهِ"،[3] على "أَن" المفسِّرة.

﴿أَلَّا تَعْلُواْ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ۝٣١﴾

﴿أَلَّا تَعْلُواْ عَلَىَّ﴾ "أن" مفسِّرة، و"لا" ناهية، أي: لا تَتكبّروا كما يفعل جبابرة الملوك. وقيل: مصدريّة ناصبة للفعل، و"لا" نافية محلّها الرفعُ على أنّها بدل مِن ﴿كِتَـٰبٌ﴾،[4] أو خبر لمبتدأ مضمر يليق بالمقام، أي: مضمونُه: ألّا تعلوا، أو النصبُ بإسقاط الخافض، أي: بأن لا تعلوا عليّ. وقُرئ: "أَلَّا تَغْلُوا" بـ"الغين" المعجمة،[5] أي: لا تجاوِزوا حدّكم.

﴿وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ أي: مؤمنين. وقيل: منقادين. والأوّل هو الأليق بشأن النبيّ عليه السلام على أنّ الإيمان مستتبع للانقياد حتمًا.

يُروى أنّ نسخة الكتاب: «مِن عبدِ الله سليمان بن داود إلى بِلْقِيس ملكةِ سبأ، السلام على مَن اتّبع الهدى، أمّا بعدُ فلا تَعلوا عليّ وائتوني مسلمين»،[6] وليس الأمر فيه بالإسلام قبل إقامة الحجّة على رسالته حتّى يتوهّم كونه استدعاءً

---

١ قراءة شاذّة، أجازها الزجّاج ولم يسندها إلى أحد. انظر: **معاني القرآن وإعرابه** للزجّاج، ١١٨/٤.

٢ في الآية السابقة.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبيّ رضي الله عنه. انظر: **الكشّاف** للزمخشري، ٣٦٤/٣؛ **والبحر المحيط** لأبي حيّان، ٢٣٤/٨.

٤ النمل، ٢٩/٢٧.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس رضي الله عنهما. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٦٠.

٦ **الكشف والبيان** للثعلبي، ٢٠٤/٧؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٣٦٤/٣.

للتقليد، فإنّ إلقاء الكتاب إليها على تلك الحالة معجزة باهرة دالّة على رسالة مرسلِها دلالةً بيّنةً.

﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾﴾

﴿قَالَتْ﴾ كُرِّرتْ حكايةُ قولها للإيذانِ بغاية اعتنائها / بما في حيّزه مِن قولها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى﴾ أي: أجيبوني في أمري الذي حَزَبَني وذكرتُ لكم خلاصتَه. وعَبّرتْ عن الجواب بـ"الفتوى" الذي هو الجواب في الحوادث المشكِلة غالبًا تهويلًا للأمر ورفعًا لمحلّهم بالإشعار بأنّهم قادرون على حلّ المشكِلات المُلِمّة. [٢٥٠ظ]

وقولها: ﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا﴾ أي: مِن الأمور المتعلّقة بالمُلك ﴿حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾ أي: إلّا بمَحضركم وبموجَب آرائكم، استعطافٌ لهم واستمالة لقلوبهم؛ لئلّا يخالفوها في الرأي والتدبير.

﴿قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾﴾

﴿قَالُوا۟﴾ استئناف مبنيّ على سؤال نشأَ مِن حكاية قولها، كأنّه قيل: فماذا قالوا في جوابها؟ فقيل: قالوا: ﴿نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ﴾ في الأجساد والآلات والعُدَد ﴿وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ أي: نَجدةٍ وشجاعةٍ مُفرِطة وبلاءٍ في الحرب. ﴿وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ﴾ أي: هو موكول إليكِ، ﴿فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ ونحن مطيعون لكِ، فمُرِينا بأمرِكِ نَمتَثِلْ به، ونَتَّبِعْ رَأيَكِ.

أو أرادوا: نحن مِن أبناءِ الحرب، لا مِن أبناء الرأي والمشورة، وإليكِ الرأي والتدبير، فانظري ماذا ترين نَكُنْ في الخدمة.

فلمّا أحسّتْ منهم الميلَ إلى الحِراب والعدولَ عن سَنن الصواب شرَعَت في تزييف مَقالتهم المبنيّة على الغفلة عن شأن سليمان عليه السلام. وذلك قوله تعالى: ﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً﴾ مِن القرى على منهاج المقاتَلة والحِراب

﴿أَفۡسَدُوهَا﴾ بتخريب عِماراتها، وإتلاف ما فيها مِن الأموال، ﴿وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ أَذِلَّةٗۚ﴾ بالقتل والأسر والإجلاء وغير ذلك مِن فنون الإهانة والإذلال.

[٢٥١و] ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ﴾ تأكيد لِما وصفَتْ / مِن حالهم بطريق الاعتراض التذييلي، وتقرير له بأنّ ذلك عادتهم المستمرّة. وقيل: تصديق لها مِن جهة الله تعالى، على طريقة قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا﴾ [الكهف، ١٨/١٠٩] إثرَ قوله تعالى: ﴿لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي﴾ [الكهف، ١٨/١٠٩].

﴿وَإِنِّي مُرۡسِلَةٌ إِلَيۡهِم بِهَدِيَّةٖ فَنَاظِرَةُۢ بِمَ يَرۡجِعُ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ۝٣٥ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيۡمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٖ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيۡرٞ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُمۚ بَلۡ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمۡ تَفۡرَحُونَ ۝٣٦﴾

﴿وَإِنِّي مُرۡسِلَةٌ إِلَيۡهِم بِهَدِيَّةٖ﴾ تقرير لرأيها بعدما زيّفَتْ آراءَهم. وأتت بالجملة الاسميّة الدالّة على الثبات المصدَّرة بحرف التحقيق للإيذان بأنّها مُزْمِعَةٌ على رأيها، لا يَلويها عنه صارِف، ولا يَثْنِيها عاطِف، أي: وإنّي مرسلة إليهم رسُلًا بهديّةٍ عظيمة، ﴿فَنَاظِرَةُۢ بِمَ يَرۡجِعُ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ حتّى أعمل بما يقتضيه الحال.

رُوي أنّها بعثت خمسَمائة غلامٍ عليهم ثياب الجواري، وحُلِيُّهنّ الأساور والأطواق والقِرَطة، راكبي خيل مغشّاة بالديباجِ، مُحلّاةِ اللُّجُمِ والسروج بالذهب المرصَّع بالجواهر، وخمسَمائة جاريةٍ على رِماك[١] في زيّ الغِلمان، وألفَ لبِنةٍ مِن ذهب وفضّة، وتاجًا مكَلّلًا بالدُّرّ والياقوت المرتفع، والمسك والعنبر، وحُقًّا فيه دُرّة عذراءُ، وجذعةٌ معوجّة الثقب، وبَعثَت رجلًا مِن أشراف قومها المنذرَ بنَ عمرو وآخرَ ذا رأيٍ وعقلٍ، وقالت: «إن كان نبيًّا ميّزَ بين الغلمان والجواري، ونقَبَ الدرّ نَقْبًا مستويًا، وسَلَك في الخَرزة خيطًا»، ثمّ قالت للمنذر: «إن نظرَ إليك نظرَ غضبانٍ فهو ملِك، فلا يهولنّك، وإن رأيته بشًّا لطيفًا فهو نبيّ».

فأقبل الهُدهُد فأخبر سليمان عليه السلام بذلك، فأمر الجنّ فضربوا لَبِنَ الذهب والفضّة، وفرشوه في ميدانٍ بين يديه طوله سبعة فراسخ، وجعلوا حول الميدان حائطًا شُرُفاتُه مِن الذهب والفضّة، وأمر بأحسن الدوابّ / في البرّ والبحر [٢٥١ظ]

---

[١] الرمكة: الأنثى مِن البراذين، والجمع رِماك. الصحاح للجوهري، «رمك».

فربطوها عن يمين الميدان ويسارِه على اللبِن، وأمر بأولاد الجنّ -وهم خلق كثير- فَأُقِيموا على اليمين واليسار، ثمّ قعد على سريره، والكراسيّ مِن جانبيه، واصطفّت الشياطين صفوفًا فراسخ، والإنسُ صفوفًا فراسخ، والوحش والسباع والطيور والهوامّ كذلك.

فلمّا دنا القومُ ونظروا بُهِتُوا ورأَوا الدوابّ تَرُوث على اللبِن، فتعاصَرت[1] إليهم نفوسهم، ورمَوا بما معهم، ولمّا وقفوا بين يديه نظر إليهم بوجهٍ طَلْقٍ، وقال: «ما وراءكم؟» وقال: «أين الحُقّ؟» وأخبره جبريل عليهما السلام بما فيه، فقال لهم: «إنّ فيه كذا وكذا»، ثمّ أمر بالأَرَضَة فأخذتْ شعرةً ونفذت في الدرّة، فجُعِل رزقها في الشجرة، وأخذت دودة بيضاءُ الخيطَ بفيها ونفذت في الجذعة، فجُعل رزقها في الفواكه، ودعا بالماء، فكانت الجارية تأخذ الماء بيدها فتجعله في الأخرى، ثمّ تضرب به وجهَها، والغلام كما يأخذه يضرب به وجهَه، ثمّ ردّ الهديّة.[2]

وذلك قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيۡمَٰنَ﴾ أي: الرسولُ ﴿قَالَ﴾ أي: مخاطبًا للرسول والمُرسِل تغليبًا للحاضر على الغائب. وقيل: للرسول ومَن معه، ويؤيّده أنّه قُرئ: "فَلَمَّا جَاءُوا"،[3] والأوّل أولى لِما فيه مِن تشديد الإنكار والتوبيخ وتعميمِهما لبِلقيس وقومها، ويؤيّده الإفراد في قوله تعالى: ﴿ٱرۡجِعۡ إِلَيۡهِمۡ﴾.[4]

﴿أَتُمِدُّونَنِ[5] بِمَالٍ﴾ وهو إنكارٌ لإمدادِهم إيّاه عليه السلام بالمال مع علوّ شأنه وسَعة سلطانه، وتوبيخٌ لهم بذلك. وتنكيرُ ﴿مَالٍ﴾ للتحقير.

وقوله تعالى: ﴿فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ[6] ٱللَّهُ﴾ أي: ممّا رأيتم آثارَه مِن النبوّة والمُلك الذي لا غاية وراءه ﴿خَيۡرٞ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم﴾ أي: مِن المال الذي مِن جملته ما جئتم به، فلا حاجة لي إلى هديّتكم، ولا وقعَ لها عندي. تعليلٌ للإنكار، ولعلّه عليه السلام

---

[1] ط س: فتقاصرت.

[2] الكشّاف للزمخشري، ٣٦٥/٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٦٠/٤.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. انظر: جامع البيان للطبري، ٥٧/١٨.

[4] في الآية التالية.

[5] م: أَتُمِدُّونَنِي.

[6] م ط س: آتاني.

إنّما قال لهم هذه المقالةَ إلى آخرها بعد ما جرى بينه وبينهم ما حُكِي مِن قصّة الحُقِّ وغيرها كما أُشيرَ إليه، لا أنّه عليه السلام خاطبَهم بها أوّلَ ما جاءوه كما يفهم مِن ظاهر قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ﴾... إلخ. وقُرئ: "أَتُمِدُّونِّي" بالإدغام،[١] وبنونٍ واحدةٍ،[٢] وبنونين وحذفِ الياء.[٣]

وقوله تعالى: ﴿بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ إضراب عمّا ذُكر مِن إنكار الإمداد بالمال إلى التوبيخ بفرحهم بهديّتهم التي أهدَوها إليه عليه السلام فرَحَ افتخارٍ وامتنانٍ واعتدادٍ بها، كما يُنبئ عنه / ما ذُكِر مِن حديث الحُقِّ والجَذْعة وتغييرِ زيِّ الغِلمان والجواري وغيرِ ذلك. [٢٥٢و]

وفائدة الإضراب التنبيه على أنّ إمداده عليه السلام بالمال منكَر قبيح، وعدَّ ذلك -مع أنّه لا قدر له عنده عليه السلام- ممّا يتنافس فيه المتنافسون أقبحُ، والتوبيخُ به أدخلُ. وقيل: المضاف إليه المُهدَى إليه، والمعنى: بل أنتم بما يُهدَى إليكم تفرحون حُبًّا لزيادة المال، لِما أنّكم لا تعلمون إلّا ظاهرًا مِن الحياة الدنيا.

﴿ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾

﴿ٱرْجِعْ﴾ أُفرِدَ الضميرُ ههنا بعد جَمْعِ الضمائر الخمسة فيما سبق لاختصاص الرجوع بالرسول، وعمومِ الإمداد ونحوِه للكلِّ، أي: ارجع أيّها الرسول ﴿إِلَيْهِمْ﴾ أي: إلى بِلقيس وقومها، ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُم﴾ أي: فوَاللهِ لنأتينّهم ﴿بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾ أي: لا طاقةَ لهم بمقاومتها، ولا قدرةَ لهم على مقابلَتها. وقُرئ: "بِهِمْ".[٤]

﴿وَلَنُخْرِجَنَّهُم﴾ عطفٌ على جواب القسم ﴿مِّنْهَا﴾ مِن سَبأ ﴿أَذِلَّةً﴾ أي: حالَ كونهم أذلّةً بعد ما كانوا فيه مِن العزّ والتمكين. وفي جمعِ القلّة تأكيد لذِلّتهم.

---

[١] قرأ بها حمزة ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٠٣/١.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن المسيّبي عن نافع. انظر: **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٢٣٧/٨.

[٣] قرأ بها ابن عامر وعاصم والكسائي وخلف. وقرأ نافع وأبو جعفر وأبو عمرو بإثبات الياء وصلًا، وحذفها وقفًا. انظر: النشر لابن الجزري، ١٨٢/٢.

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. **الكشّاف** للزمخشري، ٣٦٦/٣؛ **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٢٣٨/٨.

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ أي: أُسارَى مهانون، حال أخرى مفيدة لكون إخراجهم بطريق الأسر، لا بطريق الإجلاء. وعدمُ وقوع جواب القسم لأنّه كان معلّقًا بشرطٍ قد حُذف عند الحكاية ثقةً بدلالة الحال عليه، كأنّه قيل: ارجع إليهم فليأتوا مسلمين وإلّا فلنأتينّهم... إلخ.

﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ٣٨﴾

﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا﴾ قاله عليه السلام لمّا دَنا مجيءُ بلقيس إليه عليه السلام.

يُروَى أنّه لمّا رجعَت رسلُها إليها بما حُكِي مِن خبر سليمان عليه السلام قالت: «قد علمتُ واللهِ ما هذا بملِك، ولا لنا به مِن طاقة»، وبعثَتْ إلى سليمان: «إنّي قادمة عليك بملوك قومي حتّى أنظر ما أمرك وما تدعو إليه مِن دينك»، ثمّ آذنَت / بالرحيل إلى سليمان عليه السلام، فشَخَصَت إليه في اثني عشر ألف قَيلٍ،[1] تحت كُلّ قَيلٍ ألوف.[2] [٢٥٢ظ]

ويُروَى أنّها أَمرَتْ فجُعل عرشُها في آخر سبعة أبيات بعضُها في بعضٍ، في آخر قصر مِن قصورٍ سبعةٍ لها، وغلّقت الأبواب، ووكّلتْ به حَرَسًا يحفظونه،[3] ولعلّه أوحي إلى سليمان عليه السلام باستيثاقها مِن عرشها، فأراد أن يُرِيَها بعضَ ما خصَّه الله تعالى[4] عزّ سلطانُه به مِن إجراء التعاجيب على يده مع إطْلاعها على عظيم قدرته تعالى، وصحّةِ نبوّتِه عليه السلام، ويَختبِر عَقلَها بأن يُنكِّر عرشَها فينظرَ أتعرفه أم لا.

وتقييد الإتيان به بقوله تعالى: ﴿قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ لِما أنّ ذلك أَبْدَعُ وأغربُ وأبعد مِن الوقوع عادةً، وأدلّ على عِظَم قدرة الله تعالى وصحّةِ نبوّته عليه السلام، وليكونَ إخبارُها وإطلاعُها على بدائع المعجزات في أوّل مجيئها. وقيل: لأنّها إذا أتَتْ مسلمةً لم يحلّ له أخذ مالها بغير رضاها.

---

[1] القَيل: ملِك مِن ملوكِ حِمْيَر دونَ الملك الأعظم، والمرأةُ قَيلة، وأصله "قَيِّل" بالتشديد، كأنّه الذي له قَول، أي يَنفُذ قولُه. **الصحاح** للجوهري، «قيل».

[2] **جامع البيان** للطبري، ٦٢/١٨؛ **الكشف والبيان** للثعلبي، ٢٠٩/٧.

[3] **جامع البيان** للطبري، ٦٢/١٨؛ **الكشف والبيان** للثعلبي، ٢٠٩/٧.

[4] م - تعالى.

﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ۝٣٩﴾

﴿قَالَ عِفْرِيتٌ﴾ أي: مارد خبيث ﴿مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ بيان له، إذ يقال للرجل الخبيث المنكَر المُعَفِّر لأقرانه، وكان اسمه ذكوان أو صَخْرًا: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ﴾ أي: بعرشها ﴿قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ أي: مِن مجلسك للحكومة، وكان يجلس إلى نصف النهار. و﴿ءَاتِيكَ﴾ إمّا صيغةُ المضارع، أو الفاعل، وهو الأنسب لمقام ادّعاء الإتيان به لا محالةَ، وأوفقُ لِما عُطف عليه مِن الجملة الاسميّة، أي: أنا آتٍ به في تلك المدّة البتّةَ. ﴿وَإِنِّى عَلَيْهِ﴾ أي: على الإتيان به ﴿لَقَوِىٌّ﴾ لا يَثْقُل عليَّ حِمله ﴿أَمِينٌ﴾ لا أختزل منه شيئًا ولا أبدّله.

﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَـٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ۝٤٠﴾

﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ فُصِل عمّا قبله للإيذان بما بين القائلَين ومَقالَيهما وكَيفِيَّتَي قدرتهما على الإتيان به مِن كمال التبايُن، أو لإسقاطِ الأوّل عن درجة الاعتبار. قيل: هو آصفُ بن برخيا وزير سليمان عليه السلام. وقيل: رجل كان عنده اسم الله الأعظمُ الذي إذا سُئل به أجاب. وقيل: الخَضِر، أو جبريل، أو ملَك أيّده الله عزّ وجلّ به عليهم السلام. وقيل: هو سليمان نفسه عليه السلام،[1] وفيه بُعد لا يخفى.

والمراد بـ﴿ٱلْكِتَـٰبِ﴾ الجنس المنتظِم لجميع الكتب المنزلة أو اللوح، وتنكير ﴿عِلْمٌ﴾ للتفخيم والرمزِ إلى أنّه عِلمٌ غير معهود، و﴿مِّنَ﴾ ابتدائيّة.

[٢٥٣و] ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ "الطَّرْف" تحريك الأجفان / وفَتْحُها للنظر إلى شيء، وارتدادُه انضمامُها، ولكونه أمرًا طبيعيًّا غيرَ مَنوط بالقصد أُوثِرَ الارتدادُ على الردّ، ولمّا لم يكن بين هذا الوعد وإنجازِه مدّةٌ ما كما في وعدِ

[1] الكشّاف للزمخشري، ٣٦٧/٣.

العفريت استُغنِي عن التأكيد، وطُوِيَ عند الحكاية ذِكرُ الإتيانِ به للإيذان بأنّه أمر متحقِّقٌ غنيّ عن الإخبار به.

وجيءَ بالفاء الفصيحة -لا داخلةً على جملة معطوفة على جملة مقدّرة دالّةٍ على تحقّقه فقط، كما في قوله عزّ وجلّ: ﴿أَنِ[1] ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ﴾ [الشعراء، ٢٦/٦٣] ونظائرِه؛ بل داخلةً على الشرطيّة- حيث قيل: ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ﴾ أي: رأى العرش حاضرًا لديه كما في قوله عزّ وجلّ: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ﴾ [يوسف، ١٢/٣١]؛ للدلالة[2] على كمال ظهور ما ذُكر مِن تحققه واستغنائه عن الإخبار به ببيانِ ظهورِ ما يترتّبُ عليه مِن رؤية سليمان عليه السلام إيّاه، واستِغنائِه أيضًا عن التصريح به، إذ التقدير: فأتاه به فرآه، فلمّا رآه... إلخ، فحُذفَ ما حُذفَ لِما ذُكر، وللإيذان بكمال سرعة الإتيان به، كأنّه لم يقع بين الوعد به وبين رؤيته عليه السلام إيّاه شيء ما أصلًا.

وفي تقييد رؤيته باستقراره عنده عليه السلام تأكيد لهذا المعنى، لإيهامِهِ أنّه لم يتوسّط بينهما ابتداءُ الإتيان أيضًا، كأنّه لم يَزَلْ موجودًا عنده، مع ما فيه مِن الدلالة على دوام قراره عنده منتظِمًا في سِلك ملكه.

﴿قَالَ﴾ أي: سليمان عليه السلام تلقّيًا للنعمة بالشكر جريًا على سَنن أبناء جنسه مِن أنبياء الله تعالى عليهم السلام وخُلّص عبادِه: ﴿هَٰذَا﴾ أي: حضورُ العرش بين يديه في هذه المدّة القصيرة، أو التمكّنُ مِن إحضاره بالواسطة أو بالذات -كما قيل- ﴿مِن فَضْلِ رَبِّي﴾ أي: تفضّله عليّ مِن غير استحقاقٍ له مِن قِبَلي.

﴿لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ﴾ بأن أراه محضَ فضله تعالى مِن غير حول مِن جهتي ولا قوّةٍ، وأقومَ بحقّه، ﴿أَمْ أَكْفُرُ﴾ بأن أَجِد لنفسي مدخلًا في البَين، أو أقصّر في إقامة مواجبه كما هو شأن سائر النعم / الفائضة على العباد. [٢٥٣ظ]

﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ لأنّه يرتبط به عَتيدها، ويستجلب به مزيدَها، ويحطّ به عن ذمّته عِبْءَ الواجب، ويتخلّص عن وصمة الكفران،

---

[1] م ط س: فقلنا.

[2] السياق: وجيءَ بالفاء... للدلالة...

﴿وَمَن كَفَرَ﴾ أي: لم يشكر ﴿فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ﴾ عن شكره ﴿كَرِيمٌ﴾ بترك تعجيل العقوبة والإنعامِ مع عدم الشكر أيضًا.

﴿قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِيٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ٤١﴾

﴿قَالَ﴾ أي: سليمان عليه السلام، كُرِّرتِ الحكاية مع كونِ المَحكي سابقًا ولاحقًا مِن كلامه عليه السلام تنبيهًا على ما بين السابق واللاحق مِن المخالفة، لِما أنّ الأوّل مِن باب الشكر لله تعالى، والثاني أمرٌ لِخَدَمه.

﴿نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا﴾ أي: غيّروا هَيْئَتَه بوجهٍ مِن الوجوه ﴿نَنظُرْ﴾ بالجزم على أنّه جواب الأمر، وقُرئ بالرفع[1] على الاستئناف. ﴿أَتَهْتَدِيٓ﴾ إلى معرفته، أو إلى الجواب اللائق بالمقام. وقيل: إلى الإيمان بالله تعالى ورسولِه عند رؤيتها لِتَقدّمِ عرشها مِن مسافة طويلة في مدّة قليلة، وقد خَلَّفَته مُغلَّقةً عليه الأبواب مُوَكِّلةً عليه الحُرّاس والحُجّاب،[2] ويأباه تعليق النظر المتعلِّق بالاهتداء بالتنكير، فإنّ ذلك ممّا لا دخلَ فيه للتنكير.

﴿أَمْ تَكُونُ﴾ أي: بالنسبة إلى علمنا ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ أي: إلى ما ذُكر مِن معرفة عرشها، أو الجوابِ الصواب، فإنّ كونها في نفس الأمر منهم وإن كان أمرًا مستمرًا لكنّ كونها منهم عند سليمان عليه السلام وقومه أمرٌ حادث يظهر بالاختبار.

﴿فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ٤٢﴾

﴿فَلَمَّا جَآءَتْ﴾ شروع في حكاية التجربة التي قصدها سليمان عليه السلام، أي: فلمّا جاءت بلقيسُ سليمانَ عليه السلام وقد كان العرش بين يديه ﴿قِيلَ﴾ أي: مِن جهة سليمان عليه السلام بالذات أو بالواسطة: ﴿أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ﴾ لم يُقَل:

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حيوة. البحر المحيط لأبي حيّان، ٢٤٢/٨.

[2] الكشّاف للزمخشري، ٣٦٩/٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٦١/٤.

"أهذا عرشكِ؟" لئلّا يكون تلقينًا لها / فيفوتَ ما هو المقصود مِن الأمر بالتنكير [٢٥٤و] مِن إبراز العرش في معرِض الإشكال والاشتباه حتّى يتبيّن حالُها، وقد ذُكِرَت عنده عليه السلام بسَخافة العقل.

﴿قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾ فأنبأت عن كمال رَجاحة عقلها، حيث لم تقل: "هُو هُو" -مع علمها بحقيقة الحال- تلويحًا بما اعتراه بالتنكير مِن نوع مُغايَرةٍ في الصفات مع اتّحاد الذات، ومراعاةً لحُسن الأدب في محاورته عليه السلام.

﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ مِن تتمّة كلامها، كأنّها ظنّت أنّه عليه السلام أراد بذلك اختبار عقلها وإظهارَ معجزة لها، فقالت: أُوتينا العلم بكمال قدرة الله تعالى وصِحّة نبوّتك مِن قبل هذه المعجزة التي شاهدناها بما سمعناه مِن المنذر مِن الآيات الدالّة على ذلك، وكُنّا مسلمين مِن ذلك الوقت. وفيه مِن الدلالة على كمال رَزانةِ رأيها ورَصانة فِكرها ما لا يخفى.

﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ۝٤٣﴾

وقوله تعالى: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ بيان مِن جهته تعالى لِما كان يمنعها مِن إظهارِ ما ادَّعَتْه مِن الإسلام إلى الآن، أي: صدّها عن ذلك عبادتُها القديمةُ للشمس.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ تعليل لسببيّة عبادتها المذكورة لِلصدّ، أي: إنّها كانت مِن قوم راسخين في الكفر؛ ولذلك لم تكن قادرة على إظهار إسلامها وهي بين ظَهْرانَيهم إلى أن دخلَت تحت مَلَكةِ سليمان عليه السلام. وقُرئ: "أَنَّهَا" بالفتح[١] على البدليّة مِن فاعل "صَدَّ"، أو على التعليل بحذف "اللام".

هذا، وأمّا ما قيل[٢] مِن أنّ قوله تعالى: ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ﴾[٣] إلى قوله تعالى: ﴿مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ مِن كلام سليمان عليه السلام ومَلَئه، كأنّهم لمّا سمعوا قولَها:

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن سعيد بن جبير وابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٦٠.

٢ قاله الزمخشري في الكشّاف، ٣/٣٦٩.

٣ في الآية السابقة.

﴿كأنّه هو﴾ تفطّنوا لإسلامها، فقالوا استحسانًا لشأنها: أصابت في الجواب وعلِمَت قدرةَ الله تعالى وصحّةَ النبوّة بما سمعت مِن المنذر مِن الآيات المتقدّمة، وبما عاينَتْ مِن هذه الآية الباهرة مِن أمر عرشها، ورُزِقت الإسلامَ، فعَطَفُوا على ذلك قولَهم: وأُوتينا العلمَ... إلخ، / أي: وأوتينا نحن العِلمَ بالله تعالى وبقدرته وبصحّة ما جاء مِن عنده قبل علمِها، ولم نزَل على دين الإسلام شكرًا لله تعالى على فضلهم عليها وسَبْقهم إلى العلم بالله تعالى والإسلامِ قبلها، وصدُّها عن التقدّم إلى الإسلام عبادةُ الشمس، ونشوُؤها بين ظهرانَي الكفَرة؛ فممّا لا يخفى ما فيه مِن البُعد والتعسّف. [٢٥٤ظ]

﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾

﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ﴾ الصرح: القَصر. وقيل: صحنُ الدار. رُوي أنّ سليمان عليه السلام أَمَر قبل قُدومها فبُني له على طريقها قَصر مِن زجاج أبيض، وأُجري مِن تحته الماء، وأُلقي فيه مِن دوابّ البحرِ السمكِ وغيرِه، ووُضع سريره في صدره، فجلس عليه، وعَكَف عليه الطير والجنّ والإنس، وإنّما فعل ذلك ليزيدها استعظامًا لِأمرِه، وتحقّقًا لنبوّته وثباتًا على الدين.[١]

وزعموا أنّ الجنّ كرهوا أن يتزوّجها فتُفضِيَ إليه بأسرارهم؛ لأنّها كانت بنتَ جنّيّة. وقيل: خافوا أن يولَد له منها ولد تجتمع له فطنة الجنّ والإنس، فيخرجوا مِن مُلك سليمان إلى مُلكٍ هو أَشَدُّ وأفظع، فقالوا: إنّ في عقلها شيئًا، وهي شَعْراء الساقَين، ورِجلها كحافر الحمار، فاختبر عقلها بتنكير العرش، واتّخذ الصَّرح ليتعرّف ساقَها ورِجلَها.[٢]

﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ﴾ وهو حاضر بين يدَيها -كما يُعرِب عنه الأمر بدخولها- وأحاطت بتفاصيل أحواله خُبْرًا ﴿حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا﴾ وتشمّرت لئلّا يبتلّ أذيالُها،

---

[١] الكشّاف للزمخشري، ٣/٣٧٠؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤/١٦٢.

[٢] الكشف والبيان للثعلبي، ٧/٢١٢؛ الكشّاف للزمخشري، ٣/٣٧٠.

فإذا هي أحسن الناس ساقًا وقدمًا خلا أنّها شَعراء. قيل: هي السبب في اتّخاذ النُّورة، أمر بها الشياطينَ فاتّخذوها، واستنكحها عليه السلام، وأمر الجنَّ فبنَوا لها سيلحين[1] وغُمدان،[2] وكان يزورها في الشهر مرّة، ويقيم عندها ثلاثة أيّام.[3]

وقيل: بل زوّجها ذا تُبّع مَلِك هَمْدان، وسلّطه على اليمن، وأمرَ زَوْبَعةَ أميرَ جنِّ اليمن أن يطيعه فبنى له المصانع.[4]

وقُرئ: "سَأْقَيْهَا"[5] حَملًا للمفرد على الجمع في "سُؤْق" و"أَسْؤُقٍ".

﴿قَالَ﴾ عليه السلام حين رأى ما اعتراها مِن الدهشة والرعب: ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي: ما توهّمتِه ماءً ﴿صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ﴾ أي: مُمَلّس ﴿مِن قَوَارِيرَ﴾ مِن الزجاج، / ﴿قَالَتْ﴾ [٢٥٥و] حين عاينت تلك المعجزة أيضًا: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ بما كنت عليه إلى الآن مِن عبادة الشمس. وقيل: بظنّي بسليمان، حيث ظنّت أنّه يُريد إغراقها في اللُّجّة،[6] وهو بعيد.

﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ﴾ تابعةً له مقتديةً به. وما في قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ مِن الالتفات إلى الاسمِ الجليل ووصفِه بربوبيّة العالمين لإظهار معرفتها بألوهيّته تعالى، وتفرُّدِه باستحقاق العبادة، وربوبيّته لجميع الموجوداتِ التي مِن جملتها ما كانت تعبده قبل ذلك مِن الشمس.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ عطفٌ على قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا﴾،[7] مَسوق لِما سيق هو له مِن تقرير أنّه عليه السلام يُلَقّى القرآنَ مِن لدن حكيم عليم،[8] فإنّ هذه القصّة أيضًا مِن جملة القرآن الكريم الذي لُقِّيَهُ عليه السلام.

---

[1] وفي هامش م: اسم بلدة. «منه».

[2] وفي هامش م: قصرٌ بصنعاء. «منه».

[3] الكشّاف للزمخشري، ٣/٣٧٠. وانظر: الكشف والبيان للثعلبي، ٧/٢١٤.

[4] الكشف والبيان للثعلبي، ٧/٢١٥؛ الكشّاف للزمخشري، ٣/٣٧٠.

[5] قرأ بها قنبل عن ابن كثير. النشر لابن الجزري، ٢/٣٣٨.

[6] أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤/١٦٢.

[7] النمل، ١٥/٢٧.

[8] في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [النمل، ٦/٢٧].

و"اللام" جواب قسم محذوف، أي: وبالله لقد أرسلنا ﴿إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾، و﴿أَن﴾ في قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ مفسِّرة لِما في الإرسال مِن مَعنى القول، أو مصدريّة حُذف عنها "الباء". وقُرئ بضمّ "النون"[1] إتباعًا لها للباء.

﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ ففاجئوا التفرّق والاختصام، فآمَن فريقٌ، وكفر فريقٌ. و"الواو" لمجموع الفريقين.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾

﴿قَالَ﴾ عليه السلام للفريق الكافر منهم بعدما شاهد منهم ما شاهد مِن نهاية العتوّ والعِناد حتّى بلَغوا مِن المكابَرة إلى أن قالوا له عليه السلام: "يا صالح ائتِنا بما تعِدنا إن كنت مِن الصادقين":[2] ﴿يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ أي: بالعقوبة السيّئة ﴿قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾ أي: التوبةِ، فتؤخّرونها إلى حين نزولها، حيث كانوا مِن جهلهم وغَوايتهم يقولون: إن وقع إيعاده تُبنا حينئذ، وإلّا فنحن على ما كنّا عليه.

﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ﴾ هلّا تستغفرونه تعالى قبل نزولها ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ بقَبولها، إذ لا إمكان للقَبول عند النزول.

﴿قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾﴾

﴿قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا﴾ أصله: "تطَيّرنا"، و"التطيُّر": التشاؤم، عُبّر عنه بذلك لِما أنّهم كانوا إذا خرجوا مسافرين فيمرّون بطائر يزجُرونه، فإن مرّ سانِحًا تيمّنوا، وإن مرّ بارِحًا[3] تشاءَموا، فلمّا نسبوا الخير والشرَّ إلى الطائر استُعير لِما كان سبَبًا لهما مِن قدَر الله تعالى وقِسمته، أو مِن عمل العبد، أي: تشاءَمنا ﴿بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾

---

١ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وابن عامر والكسائي وخلف. انظر: النشر لابن الجزري، ٢/٢٢٥

٢ لفظه في الآية: ﴿وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف، ٧/٧٧].

٣ السانح: ما أتاك عن يمينك مِن ظبي أو طائر أو غير ذلك، والبارح: ما أتاك مِن ذلك عن يَسارك؛ قال أبو عبيدة: سأل يونس رُؤبةَ -وأنا شاهد- عن السانح والبارح، فقال: السانح ما ولّاك مَيامِنه، والبارح ما ولّاك مَياسره. لسان العرب لابن منظور، «سنح».

في دينك حيث تتابَعَت علينا الشدائد، وقد كانوا قُحِطوا، أو لم نزَل في اختلاف وافتراق مُذ اخترعتم دينكم.

﴿قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ﴾ أي: سببُكم الذي / منه ينالكم ما ينالكم مِن الشرّ ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ وهو قَدَره، أو عملُكم المكتوبُ عنده. [٢٥٥ظ]

وقوله تعالى: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ أي: تُختَبَرون بتعاقُب السرّاء والضرّاء، أو تعذَّبون، أو يفتِنكم الشيطان بوَسوسته إليكم الطيرة. إضرابٌ مِن بيان طائرهم الذي هو مبدأ ما يَحيق بهم إلى ذكر ما هو الداعي إليه.

﴿وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾﴾

﴿وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ وهي الحِجر ﴿تِسْعَةُ رَهْطٍ﴾ أي: أشخاصٍ، وبهذا الاعتبار وقع تمييزًا لِلتسعة، لا باعتبار لفظه. والفرق بينه وبين "النَّفَر" أنّه مِن الثلاثة، أو مِن السبعة إلى العشرة، و"النَّفَر" مِن الثلاثة إلى التسعة، وأسماؤُهم حسبما نُقِل عن وَهْب: الهُذَيلُ بن عبد ربّ، وغَنْم بن غَنْم، ورِئابُ بن مِهْرَج، ومِصْدَع بنُ مهرَج، وعُمَير بن كُرْدُبَةَ، وعاصم بن مَخرمة، وسُبَيطُ بن صدقة، وسِمعان[1] بن صفيّ، وقُدَارُ بن سالف، وهم الذين سَعَوا في عَقْر الناقة، وكانوا عُتاةَ قوم صالح، وكانوا مِن أبناء أشرافهم.

﴿يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ لا في المدينة فقط، إفسادًا بَحتًا، لا يخالطه شيء ما مِن الإصلاح، كما يَنطق به قوله تعالى: ﴿وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ أي: لا يفعلون شيئًا مِن الإصلاح، أو لا يصلحون شيئًا مِن الأشياء.

﴿قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾

﴿قَالُوا۟﴾ استئناف ببيان بعض ما فعلوا مِن الفساد، أي: قال بعضهم لبعض في أثناء المشاورة في أمرِ صالح عليه السلام، وكان ذلك غِبَّما أنذرهم بالعذاب،

---

[1] س: وشمعان.

وقوله: ﴿تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾... إلخ [هود، ٦٥/١١]: ﴿تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ﴾ إمّا أمْرٌ مَقول لـ﴿قَالُواْ﴾، أو ماضٍ وَقع بَدلًا منه، أو حالًا مِن فاعله بإضمار "قد".

وقوله تعالى: ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ﴾ أي: لَنُباغِتَنّ صالحًا وأهلَه ليلًا ونقتُلَنّهم. وقُرئ بـ"التاء"[١] على خطاب بعضهم لبعض. وقُرئ بياء الغيبة وضمّ "التاء"[٢] على أنّ ﴿تَقَاسَمُواْ﴾ فعلٌ ماض، ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ﴾ أي: لوليّ صالح. وقُرئ بـ"التاء"[٣] و"الياء"[٤] كما قبله.

[٢٥٦و] ﴿مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ﴾ / أي: ما حَضرنا هلاكَهُم، أو وقتَ هلاكهم، أو مكانَ هلاكهم، فضلًا أن نَتولّى إهلاكَهم. وقُرئ: "مَهْلَكَ" بفتح "اللام"،[٥] فيكون مصدرًا.

﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ مِن تمام القول، أو حال، أي: نقول ما نقول والحالُ إنّا صادقون في ذلك؛ لأنّ الشاهد للشيء غير المباشر له عُرفًا، أو لأنّا ما شَهِدنا مَهلِكَهم وحده؛ بل مَهلِكَه ومَهلِكَهم جميعًا، كقولك: "ما رأيت ثَمّةَ رجلًا؛ بل رجلَين".

﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٥٠﴾

﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا﴾ بهذه المواضعة ﴿وَمَكَرْنَا مَكْرًا﴾ أي: أهلكناهم إهلاكًا غيرَ مَعهود، ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أو جازينا مَكرَهم مِن حيث لا يحتسبون.

﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٥١﴾

﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ﴾ شروع في بيان ما ترتّب على ما باشروه مِن المَكر، و﴿كَيْفَ﴾ معلّقة لفعلِ النظر، ومحلّ الجملة النصب بنَزع الخافض، أي: فتفكّر في أنّه كيف كان عاقبة مكرهم.

---

[١] أي: "لَتُبَيِّتُنَّهُ". قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٣٣٨/٢.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن مجاهد وحُميد والحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٦١.

[٣] أي: "لَتَقُولُنَّ". قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٣٣٨/٢.

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن مجاهد وحُميد والحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٦١.

[٥] قرأ بها شعبة عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٣١١/٢.

وقوله تعالى: ﴿أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ﴾ إمّا بدل مِن ﴿عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ﴾ على أنّه فاعل ﴿كَانَ﴾، وهي تامّة، و﴿كَيْفَ﴾ حال، أي: فانظر كيف حصل، أي: على أيّ وجهٍ حدث تدميرنا إيّاهم. وإمّا خبر لمبتدأ محذوف، والجملة مُبيّنة لِما في ﴿عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ﴾ مِن الإبهام، أي: هي تدميرُنا إيّاهم ﴿وَقَوْمَهُمْ﴾ الذين لم يكونوا معهم في مباشرة التبييتِ ﴿أَجْمَعِينَ﴾ بحيث لم يشذَّ منهم شاذٌ. وإمّا تعليل لِما يُنبئ عنه الأمرُ بالنظر في كيفيّة عاقبة مكرهم مِن غاية الهَول والفظاعة بحذف الجارّ، أي: لأنّا دمّرناهم... إلخ.

وقيل: ﴿كَانَ﴾ ناقصة، اسمُها ﴿عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ﴾، خبرها ﴿كَيْفَ كَانَ﴾، فالأوجَه حينئذ أن يكون قوله تعالى: ﴿أنّا دمّرناهم﴾... الخ تعليلًا لِما ذكر. وقُرئ: "إِنَّا دَمَّرْنَا"... إلخ[1] بالكسر على الاستئناف.

رُوي أنّه كان لصالح عليه السلام مسجد في الحِجر في شِعبٍ يُصَلِّي فيه، فقالوا: زعَم صالح أنّه يفرُغ منّا إلى ثلاثٍ، فنحن نفرُغ منه ومِن أهله قبل الثلاث، فخرجوا إلى الشِّعب، وقالوا: إذا جاء يصلّي قتلناهُ، ثمّ رجعنا إلى أهله فقتلناهم، فبعث الله تعالى صخرةً مِن الهَضْب حِيالَهم، فبادَروا فطَبَّقَت الصخرةُ عليهم فمَ الشِّعب، فلم يَدرِ قومُهم أين هم، ولم يَدرُوا ما فُعِل بقَومهم، وعذّب الله تعالى كلًّا منهم في مكانه، ونجّى صالحًا ومَن معه. وقيل: جاءوا بالليل شاهري سُيوفهم، وقد أرسل الله تعالى الملائكةَ مِلْءَ[2] دارِ صالح، فدَمغوهم بالحجارة، يرون الحجارةَ ولا يرون راميًا.

﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٥٢﴾

﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ﴾ جملة مقرِّرة لِما قَبلها. وقوله تعالى: ﴿خَاوِيَةً﴾ أي: خاليةً، أو ساقطةً متهدّمةً ﴿بِمَا ظَلَمُوٓاْ﴾ أي: بسبب ظلمهم المذكور، حال مِن ﴿بُيُوتُهُمْ﴾، والعامل معنى الإشارة. وقُرئ: "خَاوِيَةٌ" بالرفع[3] على أنّه خبر لمبتدأ محذوف.

---

[1] قرأ بها عاصم وحمزة والكسائي وخلف ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٣٨/٢.

[2] م: مِلأَ.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن علي. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٦١.

[٢٥٦ظ] ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: فيما ذُكر / مِن التدمير العجيب بظلمهم ﴿لَآيَةً﴾ لعبرةً عظيمةً ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي: ما مِن شأنِه أن يُعلَم مِن الأشياء، أو لقوم يتّصفون بالعلم.

﴿وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾﴾

﴿وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ صالحًا، ومَن معه مِن المؤمنين. ﴿وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ أي: الكفرَ والمعاصي اتّقاءً مستمرًّا، فلذلك خُصّوا بالنجاة.

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾﴾

﴿وَلُوطًا﴾ منصوب بمُضمِر معطوف على ﴿أَرْسَلْنَا﴾[١] في صدر قصّة صالح، داخل معه في حيّز القسَم، أي: وأرسلنا لوطًا.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ ظرف للإرسال، على أنّ المراد به أمر ممتدّ وقع فيه الإرسال وما جرى بينه وبين قومه مِن الأقوال والأحوال. وقيل: انتصاب ﴿لُوطًا﴾ بإضمار "اذكُر"، و﴿إِذْ﴾ بدل منه. وقيل: بالعطف على ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾،[٢] أي: وأنجينا لوطًا،[٣] وهو بعيد.

﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ أي: الفِعلةَ المتناهية في القُبح والسَّماجة. وقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ جملة حاليّة مِن فاعل ﴿تَأْتُونَ﴾ مفيدة لتأكيد الإنكار وتشديدِ التوبيخ، فإنّ تَعاطِيَ القبيح مِن العالِم بقبحه أقبَح وأشنَع. و﴿تُبْصِرُونَ﴾ مِن "بَصَر القلب"، أي: أتفعلونها والحال أنكم تعلمون عِلمًا يقينيًّا بكونها كذلك. وقيل: يُبصِرها بعضكم مِن بعض لِما كانوا يُعلِنون بها.

﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾

﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً﴾ تثنيةٌ للإنكار، وتكريرٌ للتوبيخ، وبيانٌ لِما يأتونه مِن الفاحشة بطريق التصريح. وتحلية الجملة بحرفَي التأكيد للإيذان بأنّ مضمونها ممّا لا يُصَدِّق وقوعَه أحدٌ، لكمال بُعده مِن العقول. وإيراد المفعول

---

[١] النمل، ٢٧/٤٥.

[٢] في الآية السابقة.

[٣] انظر: البحر المحيط لأبي حيّان، ٨/٢٥٤؛ واللباب لابن عادل، ١٥/١٨٣.

بعنوان الرجوليّة لتربية التقبيح، وتحقيقِ المبايَنة بينها وبين الشهوة التي عُلِّل بها الإتيان.

﴿مِن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾ متجاوزين النساءَ اللاتي هنّ محالّ الشهوة؛ ﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٌ تَجۡهَلُونَ﴾ تفعلون فِعلَ الجاهلين بقُبحه، أو تجهلون العاقبةَ، أو "الجهلُ" بمعنى السفاهة والمُجون، أي: بل أنتم قوم سفهاء / ماجِنُون. و"التاء" فيه مع كونه صفة لـ﴿قَوۡمٌ﴾ لكونهم في حيّز الخطاب. [٢٥٧و]

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخۡرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٖ مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ ۝٥٦ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ قَدَّرۡنَٰهَا مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ۝٥٧﴾

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخۡرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٖ مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ﴾ يتنزّهون عن أفعالنا، أو عن الأقذار، ويعدّون فعلنا قذِرًا. وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنّه استهزاء.[1] وقد مرّ في سورة الأعراف[2] أنّ هذا الجواب هو الذي صدر عنهم في المرّة الأخيرة مِن مرّات مواعظ لوط عليه السلام بالأمر والنهي، لا أنّه لم يصدر عنهم كلام آخر غيره.

﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ قَدَّرۡنَٰهَا﴾ أي: قدّرنا أنّها ﴿مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ أي: الباقين في العذاب.

﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم مَّطَرٗاۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلۡمُنذَرِينَ ۝٥٨﴾

﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم مَّطَرٗا﴾ غيرَ معهود، ﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾ قد مرّ بيان كيفيّة ما جرى عليهم مِن العذاب غير مرّة.

﴿قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَىٰٓۗ ءَآللَّهُ خَيۡرٌ أَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝٥٩﴾

﴿قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَىٰٓ﴾ إثرَ ما قَصّ الله تعالى على رسوله صلّى الله عليه وسلّم قِصص الأنبياء المذكورين عليهم السلام، وأخبارَهم الناطقةَ

---

[1] الكشّاف للزمخشري، ٣/٣٧٤. وفي جامع البيان للطبري، ١٨/٩٧، عن مجاهد.

[2] الأعراف، ٨٢/٧.

بكمال قدرته تعالى وعِظَمِ شأنه، وبما خصّهم به مِن الآيات القاهرة والمعجزات الباهرة الدالّة على جلالة أقدارهم، وصحّةِ أخبارهم، وبيّن على ألسنتهم حقّيّةَ الإسلام والتوحيد، وبُطلانَ الكفر والإشراك، وأنّ مَن اقتدى بهم فقد اهتدى، ومَن أعرض عنهم فقد تردّى في مَهاوي الرّدَى، وشرَح صدره عليه السلام بما في تضاعيف تلك القِصص مِن فنون المعارف الربّانيّة، ونوّر قلبه بأنوار المَلَكات السُّبحانيّة الفائضة مِن عالَم القُدس، وقرّر بذلك فَحوى ما نطق به قوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [النمل، ٦/٢٧]؛ أمرَه[١] صلّى الله عليه وسلّم بأن يحمده تعالى على ما أفاض عليه مِن تلك النعم التي لا مَطمعَ وراءها لطامِع، ولا مَطمحَ مِن دونها لطامح، ويسلّمَ على كافّة الأنبياء الذين مِن جملتهم الذين قُصّت عليه أخبارهم التي هي مِن جملة المعارف التي أُوحِيت إليه عليه السلام أداءً لحقّ تقدّمهم واجتهادهم في الدين.

وقيل: هو أمرٌ للوطٍ عليه السلام بأن يحمده تعالى على إهلاك كفَرة قومه، ويسلّم على مَن اصطفاه بالعصمة عن الفواحش والنجاة عن الهلاك،[٢] ولا يخفى بُعدُه.

﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا[٣] يُشْرِكُونَ﴾ أي: آللهُ الذي ذُكرت شئونه العظيمة خير أم ما يشركونه به تعالى مِن الأصنام؟

ومرجعُ الترديد إلى التعريض بتبكيت الكفَرة مِن جهتِه تعالى، وتَسفِيهِ آرائهم الرَّكيكة، والتَّهكّمِ بهم؛ إذ مِن البَيّن أن ليس فيما أشركوه به تعالى شائبةُ خيرٍ ما حتّى يمكن أن يُوازَنَ بينه وبينَ مَن لا خيرَ إلّا خيرُه ولا إلهَ غيرُه.

وقُرئ: "تُشْرِكُونَ" بالتاء الفوقانيّة[٤] بطريق تلوين الخطاب وتوجيهه إلى الكفَرة، وهو الأليَق بما بعده مِن سياق النظم الكريم المبنيّ على خطابهم.

---

١ السياق: إثرَ ما قَصّ الله تعالى... أمرَه...

٢ الكشف والبيان للثعلبي، ٢١٨/٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٣٧٥/٣.

٣ م ط س: أم ما.

٤ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وابن عامر وحمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٣٣٨/٢.

وجعلُه مِن جملة القول المأمور به[1] يأباه قوله تعالى: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا﴾... إلخ،[2] فإنّه صريح في أنّ التبكيت مِن قِبَله عزّ وعلا بالذات. وحَملُه على أنّه حكاية منه عليه السلام لِما أُمِرَ به بعبارته، كما في قوله تعالى: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ [الزمر، ٥٣/٣٩]؛ تعسّفٌ ظاهر مِن غير داعٍ إليه.

﴿أَمَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ ۝٦٠﴾

و"أَمْ" في قوله تعالى: ﴿أَمَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ منقطعة، وما فيها مِن كلمة "بل" على القراءة الأولى[3] للإضراب والانتقالِ مِن التبكيت تعريضًا إلى التصريح به خطابًا على وجهٍ أظهرَ منه، لمزيد التأكيد والتشديد، وأمّا على القراءة الثانية[4] فلتثنيةِ التبكيت، وتكريرِ الإلزام، كنظائرها الآتية. / و"الهمزةِ" لتقريرهم، [٢٥٧ظ] أي: حملهم على الإقرار بالحقّ على وجه الاضطرار، فإنّه لا يتمالك أحد ممّن له أدنى تمييز، ولا يَقدِر على أن لا يعترف بخيريّة مَن خلق جميع المخلوقات، وأفاض على كلّ منها ما يليق به مِن منافعه مِن أخسّ تلك المخلوقات وأدناها؛ بل بأن لا خَيريّةَ فيه بوجه مِن الوجوه قطعًا.

و﴿مَنۡ﴾ مبتدأ خبره محذوف مع "أَم" المعادِلة للهمزة تعويلًا على ما سبَق في الاستفهام الأوّل، خَلَا أنّ "تُشْرِكُونَ" هَهنا[5] بتاء الخطاب على القراءتين معًا، وهكذا في المواضع الأربعة الآتية. والمعنى: بل أمَّن خَلَق قُطرَيِ العالَم الجسماني ومَبدأَي منافع ما بينهما.

﴿وَأَنزَلَ لَكُم﴾ التفات إلى خطاب الكفَرة على القراءة الأولى، لتشديدِ التبكيت والإلزام، أي: أنزل لأجلكم ومنفعتكم ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾ أي: نوعًا منه، هو المطر. ﴿فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ﴾ أي: بساتين محدَقةً ومُحاطةً بالحوائط ﴿ذَاتَ بَهۡجَةٖ﴾ أي: ذات حُسن ورَوْنق، يبتهج به النُّظّار.

---

[1] جعله كذلك أبو البقاء في التبيان، ١٠١١/٢.
[2] في الآية التالية.
[3] أي: "يُشْرِكُونَ" بالياء.
[4] أي: "تُشْرِكُونَ" بالتاء.
[5] عبارة الألوسي: «خَلَا أنّ "تُشْرِكُونَ" المقدّر ههنا»... روح المعاني للألوسي، ٢١٥/١٠.

﴿مَا كَانَ لَكُمْ﴾ أي: ما صحّ وما أمكن لكم ﴿أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَا﴾ فضلًا عن ثمرها وسائرِ صفاتها البديعة، خيرٌ أم ما تُشركون.

وقُرِئ: "أَمَن" بالتخفيف، على أنّه بدل مِن ﴿اللَّهُ﴾.[١]

وتقديم صِلَتَي الإنزالِ على مفعوله لِما مرّ مرارًا مِن التشويق إلى المؤخَّر. والالتفاتُ إلى التكلّم في قوله تعالى: ﴿فَأَنۢبَتْنَا﴾ لتأكيد اختصاص الفعل بذاته تعالى، والإيذانِ بأنّ إنباتَ تلك الحدائق المختلفة الأصنافِ والأوصافِ والألوان والطعوم والروائح والأشكال مع ما لها مِن الحُسن البارع والبهاءِ الرائع بماءٍ واحد ممّا لا يكاد يَقدِر عليه إلّا هو وحده، حسبما يُنبِئ عنه تقييدها بقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لَكُمْ﴾... إلخ، سواء كانت صفة لها أو حالًا.

وتوحيد وصفها الأوّلِ -أعني: ﴿ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾- لِما أنّ المعنى: جماعةَ حدائقَ ذاتَ بَهجة، على نهجِ قولهم: "النساءُ ذهبَتْ"، وكذا الحال في ضمير ﴿شَجَرَهَا﴾.

﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ أي: أَإلهٌ آخَرُ كائن مع الله الذي ذُكِر بعضُ أفعاله التي لا يكاد يقدر عليها غيره / [٢٥٨و] حتّى يُتوهَّمَ جعله شريكًا له تعالى في العبادة؟ وهذا تبكيت لهم بنَفي الألوهيّة عمّا يشركونه به تعالى في ضِمن النفي الكلّي على الطريقة البرهانيّة بعدَ تبكيتهم بنفي الخيريّة عنه بما ذُكر مِن الترديد، فإنّ[٢] أحدًا ممَّن له تمييز في الجملة كما لا يقدر على إنكار انتفاء الخيريّة عنه بالمرّة لا يكاد يقدر على إنكار انتفاء الألوهيّة عنه رأسًا، لا سيّما بعد ملاحظة انتفاء أحكامها عمّا سواه تعالى، وهكذا الحال في المواقع الأربعة الآتية.

وقيل: المراد نفي أن يكون معه تعالى إلهٌ آخَر فيما ذُكر مِن الخلق وما عُطِف عليه، لكن لا على أنّ التبكيت بنفس ذلك النفي فقط، كيف لا وهم لا يُنكِرونه، حسبما يَنطِق به قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان، ٢٥/٣١]؛ بل بإشراكهم به تعالى في العبادة ما يعترفون بعدم مشاركته

---

[١] م ط س - وقُرِئ: "أَمَن" بالتخفيف، على أنّه بدل مِن ﴿اللَّهُ﴾. ["صح" في هامش م]. | قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٦١.

[٢] م + فإنّ.

له تعالى فيما ذُكر من لوازم الألوهيّة، كأنّه قيل: أإلهٌ آخَرُ معه[1] تعالى[2] في خواصّ الألوهيّة حتّى يُجعل شريكًا له تعالى في العبادة؟

وقيل: المعنى: أَغيرُه يُقْرَن به ويُجعل له شريكًا في العبادة، مع تفرّده تعالى بالخلق والتكوين؟ فالإنكار للتوبيخ والتبكيت مع تحقّق المُنكَرِ دون النفي، كما في الوجهين السابقين.

والأوّل هو الأظهر الموافق لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ﴾ [المؤمنون، ٩١/٢٣]، والأَوْفَى بحقّ المقام؛ لإفادته نَفْيَ وجود إلهٍ آخَرَ معه تعالى رأسًا، لا نفيَ مَعِيّته في الخلق وفروعه فقط.

وقُرِئ: "آإِلَهٌ" بتوسيط مدّة بين الهمزتين،[3] وبإخراج الثانية بين بين.[4] وقُرِئ: "أَإِلَهًا"[5] بإضمارِ فعلٍ يناسب المقام، مثل: "أَتَدعون"، أو "أَتُشرِكون".

﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ إضرابٌ وانتقالٌ مِن تبكيتهم بطريق الخطاب إلى بيان سوء حالهم وحكايتِه لغيرهم، أي: بل هم قوم عادتهم العدول عن طريق الحقّ بالكلّيّة، والانحرافُ عن الاستقامة في كلّ أمر مِن الأمور، فلذلك يفعلون ما يفعلون مِن العدول عن الحقّ الواضح الذي هو التوحيد، والعكوفِ على الباطل البيّن الذي هو الإشراك.

وقيل: يَعدِلون به تعالى غيرَه،[6] وهو بعيد خالٍ عن الإفادة.

﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾

/ ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾ قيل: هو بدل مِن ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾... إلخ،[7] [٢٥٨ظ]

---

[1] س: مع الله.

[2] س – تعالى.

[3] قرأ بذلك أبو عمرو وأبو جعفر وقالون عن نافع وهشام عن ابن عامر بخُلف عنه. انظر: النشر لابن الجزري، ٣٧٠/١.

[4] قرأ بذلك نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ورُوَيس عن يعقوب. انظر: النشر لابن الجزري، ٣٧٠/١.

[5] قراءة شاذّة، غير منسوبة. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٣٧٦/٣؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٢٥٨/٨.

[6] الكشّاف للزمخشري، ٣٧٦/٣.

[7] في الآية السابقة.

وكذا ما بعده مِن الجُمل الثلاث، وحكمُ الكلّ واحد. والأظهر أنّ كلّ واحدة منها إضراب وانتقال مِن التبكيت بما قبلها إلى التبكيت بوجه آخرَ أدخلَ في الإلزام بجهةٍ مِن الجهات، أي: جعلها بحيث يستقرّ عليها الإنسان والدوابّ بإبداء بعضها مِن الماء، ودَحْوِها وتسويتِها حسبما يدور عليه منافعهم.

﴿وَجَعَلَ خِلَٰلَهَا﴾ أوساطَها ﴿أَنْهَٰرًا﴾ جارية ينتفعون بها، ﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ﴾ أي: جبالًا ثوابتَ تمنعها أن تَميد بأهلها، ويتكوّن فيها المعادن، وينبع في حضيضها الينابيع، ويتعلّق بها مِن المصالح ما لا يحصى، ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ أي: العذب والمالح، أو خليجَي فارس والروم ﴿حَاجِزًا﴾ برزخًا مانعًا مِن الممازجة، وقد مرّ في سورة الفرقان.[١] والجَعل في المواقع الثلاثة الأخيرة إبداعي، وتأخيرُ مفعوله عن الظرف لِما مرّ مرارًا مِن التشويق.

﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ في الوجود، أو في إبداع هذه البدائع على ما مرّ. ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: شيئًا مِن الأشياء، ولذلك لا يفهمون بطلان ما هم عليه مِن الشرك مع كمال ظهوره.

﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾

﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ وهو الذي أحوجَتْه شدّةٌ مِن الشدائد، وألْجأتْه إلى اللَّجَأ والضراعة إلى الله عزّ وجلّ، اسمُ مفعول مِن "الاضطرار" الذي هو "افتِعال" مِن "الضرورة". وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «هو المجهود».[٢] وعن السدّي رحمه الله: «مَن لا حولَ له ولا قوّةَ».[٣] وقيل: المذنب إذا استغفر. و"اللام" للجنس، لا للاستغراق حتّى يلزمَ إجابة كلّ مضطرّ.

﴿وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ وهو الذي يعتري الإنسان ممّا يسوءه، ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي: خلفاءَ فيها بأن وَرَّثكم سُكناها والتصرّفَ فيها مِمَّن قبلكم مِن الأمم،

---

١ الفرقان، ٥٣/٢٥.

٢ الكشف والبيان للثعلبي، ٢١٩/٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٣٧٧/٣.

٣ الكشف والبيان للثعلبي، ٢١٩/٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٣٧٧/٣.

وقيل: المراد بـ"الخلافة" الملكُ والتسلّط.

﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ الذي يُفيض على كافّة الأنام هذه النعم الجِسام، ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: تذكّرًا قليلًا، أو زمانًا قليلًا تتذكّرون، و﴿مَا﴾ مزيدة لتأكيد معنى القِلّة التي أُريدَ بها العدمُ، أو ما يجري مَجراه في الحقارة وعدمِ الجدوى.

وفي تذييل الكلام بنفي التذكّر عنهم إيذان بأنّ مضمونَهُ مَركوز في ذهن كلّ ذكيّ وغبيّ، وأنّه مِن الوضوح بحيث لا يتوقّف إلّا على التوجّه إليه وتذكّره. وقُرِئ: "تَتَذَكَّرُونَ"[1] على الأصل، و"تَذَّكَّرُونَ"،[2] و"يَذَّكَّرُونَ"[3] بـ"التاء" و"الياء" مع الإدغام.

﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِۦٓۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾﴾

﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ أي: في ظلمات الليالي فيهما، على أنّ الإضافة للملابسة، أو في مشتبِهاتِ الطرُق، يقال: "طريقة ظَلماء وعَمياء" للّتي لا مَنارَ بها.

﴿وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِۦ﴾ وهي المطر، ولئن صحّ أنّ السبب الأكثري في تكوّن الريح معاودةُ الأدخنة الصاعدة مِن الطبقة الباردة لانكسار حرّها وتمويجِها للهواء فلا ريبَ في أنّ الأسبابَ الفاعليّةَ والقابليّةَ / لذلك كُلِّه [٢٥٩و] مِن خلق الله عزّ وعلا، والفاعل للسبب فاعل للمسبَّب قطعًا. ﴿أإله مَّعَ الله﴾ نفيٌ لأن يكون معه إلهٌ آخَر.

وقوله تعالى: ﴿تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تقرير وتحقيق له. وإظهار الاسم الجليل في موقع الإضمار للإشعارِ بعلّة الحكم، أي: تعالى وتنزّه بذاته المتفرّدة بالألوهيّة، المستتبِعةِ لجميع صفات الكمال ونعوتِ الجمال والجلال،

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٦٢.

[2] قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وابن ذكوان عن ابن عامر وشعبة عن عاصم ورُويس عن يعقوب. انظر: النشر لابن الجزري، ٢/٢٦٦-٣٣٨.

[3] قرأ بها أبو عمرو وهشام عن ابن عامر ورَوح عن يعقوب. انظر: النشر لابن الجزري، ٢/٢٦٦-٣٣٨.

المقتضيةِ لكون كلّ المخلوقات مقهورًا تحت قدرته؛ عمّا يشركون، أي: عن وجود ما يشركونه به تعالى، لا مطلقًا، فإنّ وجوده ممّا لا مردَّ له؛ بل عن وجودِه بعنوان كونه إلهًا وشريكًا له تعالى، أو عن إشراكهم.

﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾

﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ أي: بل أمَن يبدأ الخلق ثمّ يعيده بعد الموت بالبعث ﴿وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: بأسباب سماويّة وأرضيّةٍ قَد رَتّبها على ترتيبٍ بديع يقتضيه الحكمة التي عليها بُنِي أمرُ التكوين؛ خيرٌ أم ما تشركونه في العبادة مِن جماد لا يُتوهّم قدرتُه على شيء ما أصلًا؟

﴿أَءِلَٰهٌ﴾ آخر موجود ﴿مَّعَ ٱللَّهِ﴾ حتّى يُجعل شريكًا له في العبادة؟

وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ أمرٌ له عليه السلام بتبكيتهم إثرَ تبكيتٍ، أي: هاتوا برهانًا عقليًا أو نقليًا يدلّ على أنّ معه تعالى إلهًا، لا على أنّ غيره تعالى يَقدِر على شيء ممّا ذُكر مِن أفعاله تعالى كما قيل،[1] فإنّهم لا يدّعونه صريحًا، ولا يلتزمون كونه مِن لوازم الألوهيّة، وإن كان منها في الحقيقة، فمطالبتهم بالبرهان عليه لا على صريح دعواهم ممّا لا وجه له. وفي إضافة البرهان إلى ضميرهم تهكّم بهم، لِما فيها مِن إيهام أنّ لهم برهانًا، وأنّى لهم ذلك.

﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي: في تلك الدعوى.

﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾﴾

﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ بعدَ ما حُقّق تفرّده تعالى بالألوهيّة ببيان اختصاصه بالقدرة الكاملة التامّة والرحمةِ الشاملة العامّة عُقِّبَ بذِكر ما هو مِن لوازمه -وهو اختصاصه بعلم الغيب- تكميلًا لِما قبله، وتمهيدًا لِما بعدَه مِن أمر البعث.

---

[1] قاله البيضاوي في أنوار التنزيل، ٤/١٦٥.

/ والاستثناء منقطع، ورفع المستثنى على اللغة التميميّة للدلالة على [٢٥٩ظ] استحالة علم الغيب مِن أهل السماوات والأرض بتعليقه بكونه سبحانه وتعالى منهم، كأنّه قيل: إن كان الله تعالى ممّن فيهما ففيهم مَن يعلم الغيب، أو متّصل على أنّ المراد مِن ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ مَن تعلّق علمه بهما، واطّلع عليهما اطّلاعَ الحاضر فيهما، فإنّ ذلك معنًى مجازي عامّ له تعالى ولأُولي العلم مِن خلقه، و﴿مَن﴾ موصولة، أو موصوفة.

﴿وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ﴾ أي: متى يُنشرون مِن القبور، مع كونه ممّا لا بدّ لهم منه، ومِن أهمّ الأمور عندهم. و﴿أَيَّانَ﴾ مركّبة مِن "أيّ" و"آن". وقُرئ بكسر الهمزة.[1] والضمير للكفَرة -وإن كان عدم الشعور بما ذُكر عامًّا- لئلّا يلزم التفكيك بينه وبين ما سيأتي مِن الضمائر الخاصّة بهم قطعًا. وقيل: الكلّ لِ﴿مَن﴾، وإسناد خواصّ الكفَرة إلى الجميع مِن قَبيل قولهم: "بَنو فلان فعلوا كذا"، والفاعلُ بعض منهم.

﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّنۡهَاۖ بَلۡ هُم مِّنۡهَا عَمُونَ ۝٦٦﴾

﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ لَمّا نُفِي عنهم علمُ الغيب وأُكِّد ذلك بنفي شعورهم بوقت ما هو مصيرهم لا محالةَ بُولِغ في تأكيده وتقريره بِأن أُضرِب عنه، وبُيِّن أنّهم في جهلٍ أفحشَ مِن جهلهم بوقت بعثهم، حيث لا يعلمون أحوال الآخرة مطلقًا مع تعاضد أسباب معرفتها، على أنّ معنى ﴿ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ تَدارَك وتتابَع علمهم في شأن الآخرة التي ما ذُكر مِن البعث حال مِن أحوالها حتّى انقطع ولم يبقَ لهم علم بشيء ممّا سيكون فيها قطعًا، لكن لا على معنى أنّه كان لهم علم بذلك على الحقيقة ثمّ انتفى شيئًا فشيئًا؛ بل على طريقة المجاز بتنزيل أسباب العلم ومباديه مِن الدلائل العقليّة والسمعيّة منزلةَ نفسه، وإجراءِ تساقُطِها عن درجة اعتبارهم كلّما لاحَظوها مُجرى تتابعها إلى الانقطاع.

ثمّ أُضرِبَ وانتُقلَ عن بيان عدم علمهم بها إلى بيان ما هو أَسوأُ منه، وهو حَيرتهم في ذلك، حيث قيل: ﴿بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّنۡهَا﴾ أي: في شكٍّ مريبٍ

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن السلمي. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٦٢.

مِن نفس الآخرة وتَحققِها، كمَن تَحيّر في أمر لا يجد عليه دليلًا فضلًا عن الأمور التي ستقع فيها، ثمّ أُضرِب عن ذلك إلى بيان أنّ ما هم فيه أشدّ وأفظع مِن الشكّ، حيث قيل: ﴿بَلۡ هُم مِّنۡهَا عَمُونَ﴾ بحيث لا يكادون يدركون دلائلَها لاختلال بصائرهم بالكلّيّة.

وقُرِئ: "بَلْ أَدْرَكَ عِلْمُهُمْ"[1] بمعنى: انتهى وفَنِي. وقد فسّره الحسن البصري رضي الله عنه[2] بـ«اضمَحلّ عِلمهم».[3]

وقيل: كِلتَا الصيغتين على معناها الظاهر، أي: تكامل واستحكَم، أو تمّ أسبابُ علمهم / بأنّ القيامة كائنة لا محالةَ مِن الآيات القاطعة والحجج [٢٦٠و] الساطعة، وتمكّنوا مِن المعرفة فضلَ تمكّن، وهم جاهلون في ذلك.

وقوله تعالى: ﴿بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّنۡهَا﴾ إضراب وانتقال مِن وصفهم بمطلق الجهل إلى وصفهم بالشكّ. وقوله تعالى: ﴿بَلۡ هُم مِّنۡهَا عَمُونَ﴾ إضراب مِن وصفهم بالشكّ إلى وصفهم بما هو أشدّ منه وأفظعُ مِن العمى. وأنت خبير بأنّ تنزيل أسباب العلم منزلةَ العلم سَنَنٌ مَسلوك، لكنّ دلالة النظم الكريم على جهلهم حينئذٍ ليست بواضحة.

وقيل: المراد بوصفهم باستحكام العلم وتكامله التهكّمُ بهم، فيكون وصفًا لهم بالجهل مبالغةً، والإضرابان على ما ذُكِر.

وأصل ﴿ٱدَّٰرَكَ﴾ "تَدَارَكَ"، وبه قرأ أُبيّ،[4] فأُبدلتِ "التاء" دالًا وسُكِّنت، فتعذّر الابتداء فاجتُلِبت "همزة الوصل"، فصار ﴿ٱدَّٰرَكَ﴾.

وقُرِئ: "بَلِ ادَّرَكَ"،[5] وأصله "افتَعَل"، و"بَلْ أَأَدَّرَكَ" بهمزتين،[6] و"بَلْ آاَدَّرَكَ"[7]

---

[1] قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٣٣٩.

[2] ط س - رضي الله عنه.

[3] تفسير ابن أبي حاتم، ٩/٢٩١٤؛ الكشّاف للزمخشري، ٣/٣٧٩.

[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبيّ رضي الله عنه. المحتسب لابن جنّي، ٢/١٤٢.

[5] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. المحتسب لابن جنّي، ٢/١٤٢.

[6] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٦٣.

[7] س: آادْرَك.

بألف بينهما،[١] و"بَلَ ادْرَكَ" بالتخفيفِ والنقل،[٢] و"بَلَ ادَّرَكَ" بفتح اللام وتشديد الدال،[٣] وأصله "بَلْ أَدْرَكَ" على الاستفهام، و"بَلَى أَدْرَكَ"، و"بَلَى آأَدْرَكَ"،[٤] و"أَمْ تَدَارَكَ"،[٥] و"أَمِ ادَّرَكَ".[٦]

فهذه ثنتا عشرة قراءةً، فما فيه استفهام صريح أو مُضمَّن مِن ذلك فهو إنكار ونفي، وما فيه "بَلَى" فإثبات لشعورهم، وتفسير له بالإدراك على وجه التهكّم الذي هو أبلغ وجوه النفي والإنكار، وما بعده إضراب عن التفسير مبالغةً في النفي، ودلالةً على أنّ شعورهم بها أنّهم شاكّون فيها؛ بل إنّهم منها عمون، أو ردٌّ وإنكارٌ لشعورهم.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ۝٦٧﴾

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ بيان لجهلهم بالآخرة، وعَمَهِهم منها بحكاية إنكارهم للبعث. ووضعُ الموصول موضعَ ضميرهم لذمِّهم بما في حيّز صلته، والإشعارِ بعِلّة حكمهم الباطل في قولهم: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾ أي: أَنُخرَج مِن القبور إذا كنّا ترابًا كما يُنبئ عنه ﴿مُخْرَجُونَ﴾، ولا مساغَ لأن يكون هو العامل في ﴿إِذَا﴾ لِاجتماع موانِعَ[٧] لو تفرّد واحد منها لكفَى في المنع.

---

[١] قراءة شاذّة، غير منسوبة. انظر: **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٢٦٢/٨.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن سليمان بن يسار وعطاء بن يسار. **المحتسب** لابن جنّي، ١٤٢/٢.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن سليمان بن يسار وعطاء بن يسار. **المحتسب** لابن جنّي، ١٤٢/٢.

[٤] قراءتان شاذّتان، مرويّتان عن ابن عبّاس رضي الله عنهما، واختلفت المصادر في ضبطهما، فهما كذلك في **الكشّاف** للزمخشري، ٣٨٠/٣. وفي **جامع البيان** للطبري، ١٠٧/١٨: «وكان ابن عبّاس رضي الله عنهما -فيما ذُكر عنه- يقرأ بإثبات ياء في "بل"، ثمّ يبتدئ: "أَدَّارَكَ" بفتح ألِفها على وجه الاستفهام وتشديد الدال». ومثله في **معاني القرآن** للفرّاء، ٢٩٩/٢؛ و**معالم التنزيل** للبغوي، ١٧٤/٦؛ و**تفسير القرطبي**، ٢٢٦/١٣. وفي **المحتسب** لابن جنّي، ١٤٢/٢: «"بَلَى" بياء "آدْرَكَ" ممدودًا». وفي **اللباب** لابن عادل، ١٩٤/١٥: « وقرأ ابن عبّاس رضي الله عنهما: "بَلَى أَدْرَكَ" بحرف الإيجاب أخت نعم، و"بَلَى آأَدْرَكَ" بألف بين همزتين».

[٥] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حيوة. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٦٣.

[٦] قراءة شاذّة، مرويّة عن مجاهد. انظر: **جامع البيان** للطبري، ١٠٧/١٨.

[٧] وفي هامش م: هي "الهمزة" و"أنّ" و"اللام". «منه».

وتقييد الإخراج بوقت كونهم ترابًا ليس لتخصيص الإنكار بالإخراج حينئذ فقط، فإنّهم منكرون للإحياء بعد الموت مطلقًا، وإن كان البدَن على حاله؛ بل لتقوية الإنكار بتوجيهه إلى الإخراج في حالة منافية له.

[٢٦٠ظ] / وقوله تعالى: ﴿وَءَابَآؤُنَا﴾ عطفٌ على اسم "كان"، وقام الفصل مع الخبر مقامَ الفصل بالتأكيد. وتكرير "الهمزة" في ﴿أَئِنَّا﴾ للمبالغة والتشديد في الإنكار. وتحلية الجملة بـ"إنّ" و"اللام" لتأكيد الإنكار، لا لإنكار التأكيد كما يوهمه ظاهر النظم، فإنّ تقديم "الهمزة" لاقتضائها الصدارة -كما في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة، ٤٤/٢] ونظائره- على رأي الجمهور، فإنّ المعنى عندهم تعقيبُ الإنكار، لا إنكارُ التعقيب كما هو المشهور. وقُرئ: "إِذَا كُنَّا" بهمزة واحدة مكسورة.[1] وقُرئ: "إِنَّا لَمُخْرَجُونَ"[2] على الخبر.

﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾﴾

﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا﴾ أي: الإخراجَ ﴿نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ﴾ أي: مِن قَبل وَعْدِه عليه السلام. وتقديم الموعود على ﴿نَحْنُ﴾ لأنّه المقصود بالذكر، وحيث أُخِر قُصِد به المبعوث. والجملة استئناف مَسوق لتقرير الإنكار، وتصديرُها بالقسَم لمَزيد التأكيد. وقوله تعالى: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ تقرير إثرَ تقرير.

﴿قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾

﴿قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ بسبب تكذيبهم للرسل عليهم السلام فيما دَعَوْهم إليه مِن الإيمان بالله عزّ وجلّ وحدَه وباليوم الآخر الذي تُنكرونه، فإنّ في مشاهدة عاقبتهم ما فيه كفاية لأُولي الأبصار، وفي التعبير عن المكذّبين بـ﴿ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ لطفٌ بالمؤمنين في ترك الجرائم.

---

[1] قرأ بها نافع وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٣٧٣/١.

[2] قرأ بها ابن عامر والكسائي. النشر لابن الجزري، ٣٧٣/١.

﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ لإصرارهم على الكفر والتكذيب ﴿وَلَا تَكُن[1] فِي ضَيْقٍ﴾ في حرجِ صَدرٍ ﴿مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ مِن مَكرهم، فإنّ الله يَعصمك مِن الناس. وقُرئ بكسر الضاد،[2] وهو أيضًا مصدر، ويجوز أن يكون المفتوح مخفّفًا مِن "ضَيِّقٍ"، وقد قُرئ كذلك،[3] أي: لا تكُ في أمرٍ ضيّق.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾﴾

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ أي: العذاب العاجل الموعود ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في إخباركم بإتيانه. والجمع باعتبار شِركة المؤمنين في الإخبار بذلك.

﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾﴾

/ ﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم﴾ أي: تَبِعكم ولَحِقَكم. و"اللام" مزيدة للتأكيد كـ"الباء" في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة، ١٩٥/٢]، أو الفعلُ مضمَّن معنى فعلٍ يعدَّى بـ"اللام". وقُرئ بفتح الدال،[4] وهي لغة فيه. [٢٦١و]

﴿بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ﴾ وهو عذاب يوم بدر. و"عسى" و"لعلّ" و"سوف" في مواعيد الملوك بمنزلة الجَزم بها، وإنّما يطلقونها إظهارًا للوقار، وإشعارًا بأنّ الرمز مِن أمثالهم كالتصريح ممّن عداهم، وعلى ذلك مَجرى وعد الله تعالى ووعيده. وإيثارُ ما عليه النظم الكريم على أن يقال: عسى أن يَردَفَكم... إلخ لكونه أدلَّ على تحقّق الوعد.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي: لَذُو إفضال وإنعام على كافّة الناس، ومِن جملة إنعاماته تأخيرُ عقوبة هؤلاء على ما يرتكبونه مِن المعاصي التي مِن جملتها

---

١ م ط س: ولا تكُ.

٢ قرأ بها ابن كثير. النشر لابن الجزري، ٣٠٥/٢.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مِقسم. الكامل للهذلي، ص ٥٨٦.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعرج. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٦٣.

استعجال العذاب. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ لا يَعرفون حقّ النعمة فيه، فلا يشكرونه؛ بل يستعجلون بجهلهم وقوعه كدأب هؤلاء.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾﴾

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾ أي: ما تخفيه. وقُرئ بفتح التاء،[1] مِن "كَنَنْتُ الشَّيءَ"، أي: سترتُ. ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ مِن الأفعال والأقوال التي مِن جملتها ما حُكي عنهم مِن استعجال العذاب. وفيه إيذان بأنّ لهم قبائح غيرَ ما يظهرونه، وأنّه تعالى يجازيهم على الكلّ. وتقديم السرّ على العَلَن قد مرّ سِرّه في سورة البقرة عند قوله تعالى: ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [البقرة، ٧٧/٢].

﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾﴾

[٢٦١ظ] / ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: مِن خافية فيهما. وهما مِن الصفات الغالبة، و"التاء" للمبالغة، كما في "الرَّاوِية"، أو اسمان لِما يغيب ويخفى، و"التاء" للنقل إلى الاسميّة. ﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ أي: بَيِّنٍ، أو مُبيِّنٍ لِما فيه لمَن يطالعه، وهو اللوح المحفوظ. وقيل: هو القضاء العدل بطريق الاستعارة.

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ مِن جملته ما اختلفوا في شأن المسيح، وتحزّبوا فيه أحزابًا، وركبوا متن العتوّ والغلوّ في الإفراط والتفريط، والتشبيهِ والتنزيه، ووقع بينهم التناكد في أشياء حتّى بلغت المُشاقّة إلى حيث لعن بعضهم بعضًا، وقد نزل القرآن الكريم ببيان كُنْه الأمر لو كانوا في حيّز الإنصاف.

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن محيصن واليماني. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٦٣.

﴿وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ على الإطلاق فيدخل فيهم مَن آمنَ مِن بني إسرائيل دُخولًا أوّليًا.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ۝٧٨ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ۝٧٩﴾

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم﴾ أي: بين بني إسرائيل ﴿بِحُكْمِهِۦ﴾ بما يحكم به، وهو الحقّ، أو بحِكمته، ويؤيّده أنّه قُرئ: "بِحِكَمِهِ".[١] ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ فلا يُردّ حكمُه وقضاؤه ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بجميع الأشياء التي مِن جملتها ما يُقضى به.

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ لترتيب الأمر على ما ذُكر مِن شئونه عزّ وجلّ، فإنّها موجِبة للتوكّل عليه، وداعية إلى الأمر به، أي: فتوكّل على الله الذي هذا شأنه، فإنّه موجِب على كلّ أحد أن يتوكّل عليه، ويُفوّض جميع أموره إليه.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ تعليل صريح للتوكّل عليه تعالى بكونه عليه السلام على الحقّ البَيِّن، أو الفاصلِ بينه وبين الباطل، أو بين المُحقّ والمبطل، فإنّ كونه / عليه السلام كذلك ممّا يوجب الوثوق بحِفظه تعالى ونصرته وتأييده لا محالةَ. [٢٦٢و]

﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ۝٨٠﴾

وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾... إلخ تعليل آخَر للتوكّل الذي هو عبارة عن التبتّل إلى الله تعالى، وتفويضِ الأمر إليه، والإعراضِ عن التسبّب بما سواه، وقد عُلِّل أوّلًا بما يوجبه مِن جهته تعالى، أعني: قضاءَه بالحقّ وعزّتَه وعلمَه تعالى، وثانيًا بما يوجبه مِن جهته عليه السلام على أحد الوجهين، أعني: كونَه عليه السلام على الحقّ، ومِن جهته تعالى على الوجه الآخر، أعني: إعانتَه تعالى وتأييدَه للمحقّ.

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن جناح بن حبيش. البحر المحيط لأبي حيّان، ٢٦٧/٨.

ثمّ عُلّل ثالثًا بما يوجبه، لكن لا بالذات؛ بل بواسطة إيجابه للإعراض عن التسبّب بما سواه تعالى، فإنّ كونهم كالموتى والصُّمّ والعُمي موجِب لقَطع الطمع عن مشايَعتهم ومعاضَدتهم رأسًا، وداعٍ إلى تخصيص الاعتضاد به تعالى، وهو المعنيّ بالتوكّل عليه تعالى.

وإنّما شُبّهوا بالموتى لعدم تأثّرهم بما يُتلى عليهم مِن القوارع. وإطلاقُ "الإسماعِ" عن المفعول لبيان عدمِ سماعهم لشيءٍ مِن المسموعات، ولعلّ المرادَ تشبيه قلوبهم بالموتى فيما ذُكر مِن عدم الشعور، فإنّ القلب مَشعر مِن المَشاعر أشيرَ إلى بطلانه بالمرّة، ثمّ بُيّن بطلانُ مَشعرَي الأذن والعين، كما في قوله تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ [الأعراف، ١٧٩/٧]، وإلّا فبَعد تشبيه أنفسهم بالموتى لا يظهر لتشبيههم بالصمّ والعُمي مزيدُ مزيّة.

﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾ أي: الدعوةَ إلى أمر مِن الأمور. وتقييدُ النفي بقوله تعالى ﴿إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ﴾ لتكميل التشبيه، وتأكيدِ النفي، فإنّهم مع صمَمهم عن الدعاء إلى الحقّ مُعرِضون عن / الداعي، مولّون على أدبارهم، ولا ريب [٢٦٢ظ] في أنّ الأصمّ لا يسمع الدعاء مع كون الداعي بمقابلة صِماخه قريبًا منه، فكيف إذا كان خلفه بعيدًا منه. وقُرئ: "وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ".[١]

﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾

﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ﴾ هدايةً موصلةً إلى المطلوب، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص، ٥٦/٢٨]، فإنّ الاهتداء مَنوط بالبصر، و﴿عَن﴾ متعلّقة بالهداية باعتبار تضمّنه معنى الصرف. وقيل: بـ﴿ٱلْعُمْىِ﴾، يقال: "عَمِيَ عن كذا"،[٢] وفيه بُعد. وإيراد الجملة الاسميّة للمبالغة في نفي الهداية. وقُرئ: "وَمَا أَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ".[٣]

---

[١] قرأ بها ابن كثير. النشر لابن الجزري، ٣٣٩/٢.
[٢] انظر: التبيان لأبي البقاء، ١٠١٤/٢.
[٣] قرأ بها حمزة. النشر لابن الجزري، ٣٣٩/٢.

﴿إِن تُسۡمِعُ﴾ أي: ما تُسمِع سماعًا يُجدي السامعَ نفعًا ﴿إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي: مَن مِن شأنهم الإيمانُ بها. وإيراد الإسماع في النفي والإثبات دون الهداية مع قُربها بأن يقال: إن تَهدي إلّا مَن يؤمِن... إلخ لِما أنّ طريق الهداية هو إسماع الآيات التنزيليّة.

﴿فَهُم مُّسۡلِمُونَ﴾ تعليل لإيمانهم بها، كأنّه قيل: فإنّهم مُنقادون للحقّ. وقيل: مُخلصون لله تعالى، مِن قوله تعالى: ﴿بَلَىٰۚ مَنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ﴾ [البقرة، ١١٢/٢].

﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلۡقَوۡلُ عَلَيۡهِمۡ أَخۡرَجۡنَا لَهُمۡ دَآبَّةً مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ تُكَلِّمُهُمۡ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾﴾

﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلۡقَوۡلُ عَلَيۡهِمۡ﴾ بيان لِما أشيرَ إليه بقوله تعالى: ﴿بَعۡضُ ٱلَّذِي تَسۡتَعۡجِلُونَ﴾[1] مِن بقيّة ما يستعجلونه مِن الساعة ومباديها. والمراد بـ﴿ٱلۡقَوۡلُ﴾ ما نَطق مِن الآيات الكريمة بمجيء الساعة، وما فيها مِن فنون الأهوال التي كانوا يستعجلونها، وبوقوعه قيامُها وحصولُها، عُبّر عن ذلك به للإيذان بشدّة وَقْعها وتأثيرها. وإسناده إلى ﴿ٱلۡقَوۡلُ﴾ لِما أنّ المراد بيانُ وقوعها مِن حيث إنّها مِصداق للقول[2] الناطق بمجيئها، وقد أريدَ بالوقوع دُنوُّه واقترابه، كما في قوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل، ١/١٦]، أي: إذا دنا وقوعُ مدلول القول المذكور الذي لا يكادون يسمعونه ومصداقِه / ﴿أَخۡرَجۡنَا لَهُمۡ دَآبَّةً مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ وهي "الجسّاسة".[3] [٢٦٣و] وفي التعبير عنها باسم الجنس وتأكيدِ إبهامه بالتنوين التفخيمي مِن الدلالة على غرابة شأنها وخروج أوصافها عن طور البيان ما لا يخفى.

وقد ورد في الحديث: «أنّ طولها ستّون ذراعًا، لا يدركها طالب، ولا يفوتها هارب».[4] ورُوي أنّ لها أربع قوائم، وله زَغَب وريش وجناحان.[5]

---

١ النمل، ٧٢/٢٧.

٢ س: القول.

٣ "الجسّاسة" هي الدابّة التي ظهرت للصحابي تميم الداري رضي الله عنه في جزيرة في البحر، ففي الحديث: «فدخلوا الجزيرةَ فلقيتهم دابّة أهلَبُ كثيرُ الشعر، لا يدرون ما قُبله مِن دُبره مِن كثرة الشعر، فقالوا: "ويلكِ ما أنت؟" فقالت: "أنا الجسّاسة"» الحديث. انظر: صحيح مسلم، ٢٢٦٢/٤ (٢٩٤٢).

٤ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٢٣/٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٣٨٤/٣. وهو في المستدرك للحاكم، ٥٣٠/٤ (٨٤٩٠)، دون قوله: «طولها ستّون ذراعًا».

٥ عن قتادة في جامع البيان للطبري، ١٢٦/١٨؛ والتفسير الوسيط للواحدي، ٣٨٥/٣.

وعن ابن جريج في وصفها: «رأسُ ثَور، وعين خنزير، وأذُن فيل، وقَرن إيَّلٍ،[١] وعنُق نعامة، وصدر أسد، ولون نمِر، وخاصرة هرّة، وذنَب كبش، وخُفّ بعير، وما بين المَفصِلَين اثنا عشر ذراعًا بذراع آدم عليه السلام».[٢]

وقال وَهْب: «وجهُها وجهُ الرجل، وباقي خَلقها خَلق الطير».[٣]

ورُوي عن عليّ رضي الله عنه أنّه قال: «ليس بدابّة لها ذنَب، ولكن لها لِحية»،[٤] كأنّه يشير إلى أنّه رجل، والمشهور أنّها دابّة.

ورُوي: لا تُخرج إلّا رأسَها، ورأسُها يبلغ أعنان السماء،[٥] أو[٦] يبلغ السحاب.[٧]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: «فيها كلّ لون، ما بين قرنَيها فرسخ للراكب».[٨] وعن الحسن رضي الله عنه: «لا يتمّ خروجها إلّا بعد ثلاثة أيّام».[٩] وعن عليّ رضي الله عنه: «أنّها تخرج ثلاثة أيّام، والناس ينظرون، فلا يخرج إلّا ثلثها».[١٠] وعن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنّه سُئل: مِن أين تخرج الدابّة؟ فقال: «مِن أعظم المساجد حرمةً على الله تعالى»،[١١] يعني: المسجدَ الحرامَ.

ورُوي أنّها تخرج ثلاث خرجات؛ تخرج بأقصى اليمن، ثمّ تتكمّن، ثمّ تخرج بالبادية، ثم تتكمّن دهرًا طويلًا، فبينا الناس في أعظم المساجد / حرمةً على الله تعالى [٢٦٣ظ] وأكرمِها فما يهولهم إلّا خروجُها مِن بين الركن حِذاءَ دار بني مخزومٍ عن يمين الخارج مِن المسجد، فقوم يَهربون، وقوم يقفون نظّارة.[١٢] وقيل: تخرج مِن الصفا.[١٣]

١ الإيَّل: الذَّكَر مِن الأوعال. الصحاح للجوهري، «أيل».

٢ الكشّاف للزمخشري، ٣/٣٨٤. وهو في تفسير ابن أبي حاتم، ٩/٢٩٢٤، عن ابن جريج عن أبي الزبير.

٣ الكشف والبيان للثعلبي، ٧/٢٢٥؛ اللباب لابن عادل، ١٥/٢٠٤.

٤ تفسير ابن أبي حاتم، ٩/٢٩٢٤؛ اللباب لابن عادل، ١٥/٢٠٣.

٥ أعنان السماء: صفائحها وما اعترض مِن أقطارها، كأنه جمع "عَنَن". والعامّة تقول: "عنان السماء". الصحاح للجوهري، «عنن».

٦ وفي هامش م: شكّ راوي. «منه».

٧ الكشّاف للزمخشري، ٣/٣٨٤.

٨ تفسير ابن أبي حاتم، ٩/٢٩٢٥؛ الكشّاف للزمخشري، ٣/٣٨٤.

٩ الكشّاف للزمخشري، ٣/٣٨٤؛ تفسير الرازي، ٢٤/٥٧٢.

١٠ الكشّاف للزمخشري، ٣/٣٨٤؛ تفسير الرازي، ٢٤/٥٧٢.

١١ جامع البيان للطبري، ١٨/١٢٤؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٧/٢٢٥.

١٢ الكشّاف للزمخشري، ٣/٣٨٤؛ تفسير الرازي، ٢٤/٥٧٢.

١٣ الكشّاف للزمخشري، ٣/٣٨٤؛ تفسير الرازي، ٢٤/٥٧٢.

ورُوي: بينا عيسى عليه السلام يطوف بالبيت ومعه المسلمون إذا تَضطرب الأرض تحتهم تُحرِّك القنديل، وتنشقّ الصفا ممّا يلي المَسعى، فتخرج الدابّة مِن الصفا، ومعها عصا موسى وخاتم سليمان عليهما السلام، فتضرب المؤمن في مسجده بالعصا، فتنكُت نُكتة بيضاء، فتفشو حتّى يضيء لها وجهه، وتكتب بين عينيه مؤمن، وتنكُتُ الكافر بالخاتم في أنفه، فتفشو النُّكتة حتّى يسوَدُّ لها وجهه، وتكتب بين عينيه كافر، ثمّ تقول لهم: أنت يا فلان مِن أهل الجنّة، وأنت يا فلان مِن أهل النار.[١]

ورُوي عن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنّه قرَع الصفا بعصاه وهو مُحرِم، وقال: «إنّ الدابّة لَتَسمع قرعَ عصاي هذه».[٢]

وروى أبو هريرة عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنّه قال: «بئس الشِّعب شِعب جياد» مرّتين أو ثلاثًا، قيل: «ولِمَ ذاك يا رسول الله؟» قال: «تخرج منه الدابّة، فتصرخ ثلاث صرخات، يَسْمعُها مَن بين الخافقين»،[٣] فتتكلّم بالعربيّة بلسان ذَلْق، وذلك قوله تعالى: ﴿تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ أي: تكلّمهم بأنّهم كانوا لا يوقنون بآيات الله تعالى الناطقةِ بمجيء الساعة ومباديها، أو بجميع آياته التي مِن جملتها تلك الآيات. وقيل: بآياته التي مِن جملتها خروجُها بين يدي الساعة. والأوّل هو الحقّ كما ستحيط به علمًا. وقُرئ: "بِأَنَّ النَّاسَ" الآيةَ.[٤]

وإضافة "الآيات" إلى نون العظمة لأنّها حكاية منه تعالى لمعنى قولها، لا لِعين عبارتها. وقيل: لأنّها / حكاية منها لقول الله عزّ وجلّ. وقيل: لاختصاصها به تعالى وأَثَرتِها عنده، كما يقول بعض خواصّ المَلِك: "خَيلُنا وبلادنا"، وإنّما الخَيل والبلاد لمولاه. وقيلَ: هناك مضاف محذوف، أي: بآيات ربّنا. [٢٦٤و]

---

[١] **الكشّاف** للزمخشري، ٣/٣٨٤. ونحوه في **جامع البيان** للطبري، ١٨/١٢٤؛ و**الكشف والبيان** للثعلبي، ٧/٢٢٥.

[٢] **التفسير الوسيط** للواحدي، ٣/٣٨٥؛ **اللباب** لابن عادل، ١٥/٢٠٣.

[٣] **التفسير الوسيط** للواحدي، ٣/٣٨٥؛ **اللباب** لابن عادل، ١٥/٢٠٣.

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٦٣.

ووصفهم بعدم الإيقان بها مع أنّهم كانوا جاحدين بها للإيذان بأنّه كان مِن حقّهم أن يوقنوا بها ويقطعوا بصحّتها وقد اتّصفوا بنقيضه.

وقُرئ: "إِنَّ النَّاسَ" بالكسر[١] على إضمار القول، أو إجراء الكلام مُجراه. والكلام في الإضافة كالذي سبق. وقيل: هو استئناف مَسوق من جهتِه تعالى لتعليل إخراجها أو تكليمها،[٢] ويردّه الجمع بين صيغتَي الماضي والمستقبل، فإنّه صريح في كونه حكايةِ لعدم إيقانهم السابق في الدنيا.

والمراد بـ﴿ٱلنَّاسَ﴾ إمّا الكفَرة على الإطلاق، أو مشركو مكّة. وقد رُوي عن وَهْب «أنّها تُخبر كلَّ مَن تراه أنّ أهل مكّة كانوا بمحمّد والقرآنِ لا يوقنون».[٣]

وقُرئ: "تَكْلِمُهُم"[٤] مِن "الكَلْم" الذي هو الجُرح. والمراد به ما نُقل مِن الوسم بالعصا والخاتم، وقد جُوّز كون القراءة المشهورة أيضًا منه لمعنى التكثير،[٥] ولا يخفى بُعده.

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ۝٨٣﴾

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا﴾ بيان إجمالي لحالِ المكذِّبين عند قيام الساعة بعد بيان بعض مباديها. و﴿يَوْمَ﴾ منصوب بمُضمَر خوطب به النبيّ صلّى الله عليه وسلّم. والمراد بهذا الحشر هو الحشر للعذاب بعد الحشر الكلّي الشامل لكافّة الخلق.

وتوجيه الأمر بالذكر إلى الوقت مع أنّ المقصود تذكير ما وقع فيه مِن الحوادث قد مرّ بيان سرّه مرارًا، أي: واذكر لهم وقتَ حشرنا -أي: جمعِنا- مِن كلّ أمّة مِن أمم الأنبياء عليهم السلام، أو مِن أهل كلّ قَرن مِن القرون جماعةً كثيرةً. فـ﴿مِن﴾ تبعيضيّة؛ لأنّ كلّ أمّة منقسمة إلى مصدِّق ومكذِّب.

---

١ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر. النشر لابن الجزري، ٣٣٨/٢.

٢ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٣٨٥/٣؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١٦٨/٤.

٣ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٢٥/٧؛ اللباب لابن عادل، ٢٠٤/١٥.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس رضي الله عنهما وسعيد بن جبير ومجاهد وابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٦٣.

٥ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٣٨٥/٣؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١٦٨/٤.

وقوله تعالى: ﴿مِمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ / بيان للفَوج، أي: فَوجًا مكذّبين بها، ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي: يُحبَس أوّلهم على آخرهم حتّى يتلاحقوا ويجتمعوا في موقف التوبيخ والمناقشة. وفيه مِن الدلالة على كثرة عددهم وتباعدِ أطرافهم ما لا يخفى. [٢٦٤ظ]

وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «أبو جهل، والوليد بن المغيرة، وشيبة بن ربيعة؛ يساقون بين يدي أهل مكّة»،[1] وهكذا يُحشر قادة سائر الأمم بين أيديهم إلى النار.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَـٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾﴾

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو﴾ إلى موقف السؤال والجواب والمناقشة والحساب ﴿قَالَ﴾ أي: الله عزّ وجلّ موبِّخًا لهم على التكذيب، والالتفاتُ لتربية المهابة: ﴿أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَـٰتِى﴾ الناطقة بلقاء يومكم هذا.

وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا﴾ جملة حاليّة مفيدة لزيادة شناعة التكذيب وغايةِ قُبحه، ومؤكّدةٌ للإنكار والتوبيخ، أي: أكذّبتم بها بادئ الرأي غيرَ ناظرين فيها نظَرًا يؤدّي إلى العلم بكُنهها، وأنّها حقيقةٌ بالتصديق حتمًا، وهذا نصّ في أنّ المراد بـ"الآيات" فيما سَلَف في الموضعين هي الآيات القرآنيّة؛ لأنّها هي المنطوية على دلائل الصحّة وشواهد الصدق التي لم يحيطوا بها علمًا مع وجوب أن يتأمّلوا ويتدبّروا فيها، لا نفسُ الساعة وما فيها.

وقيل: هو معطوف على ﴿كَذَّبْتُم﴾، أي: أجَمَعتم بين التكذيب وعدم التدبّر فيها؟ ﴿أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: أمْ أيَّ شيء كنتم تعملون بها؟ أو أم أيَّ شيء كنتم تعملون غير ذلك؟ بمعنى أنّه لم يكن لهم عمل غير ذلك، كأنّهم لم يُخلَقوا إلّا للكفر والمعاصي، مع أنّهم ما خُلِقوا إلّا للإيمان والطاعة،

---

[1] الكشّاف للزمخشري، ٣/٣٨٥. وهو في البحر المحيط لأبي حيّان، ٨/٢٧٠، عن ابن مسعود رضي الله عنه.

يخاطَبون بذلك تَبكيتًا ثم يُكبَون في النار، وذلك قوله تعالى: ﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم﴾ أي: حلَّ بهم العذاب الذي هو مدلول القول الناطق بحلوله ونزوله / ﴿بِمَا ظَلَمُواْ﴾ بسبب ظلمهم الذي هو تكذيبهم بآيات الله، ﴿فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾ [٢٦٥و] لانقطاعهم عن الجواب بالكلّيّة، وابتلائهم بشغلٍ شاغل مِن العذاب الأليم.

﴿أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًاۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾﴾

﴿أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُواْ فِيهِ﴾ الرؤية قلبيّة، لا بصريّةٌ، لأنّ نفس الليل والنهار وإن كانا مِن المُبصَرات لكن جعلُهما كما ذُكر مِن قَبيل المعقولات، أي: أَلَم يعلموا أنّا جعلنا الليل بما فيه مِن الإظلام ليستريحوا فيه بالنوم والقرار، ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ أي: ليُبصروا بما فيه مِن الإضاءة طرُقَ التقلّب في أمور المعاش.

فبُولغ فيه حيث جُعل الإبصار الذي هو حال الناس حالًا له ووصفًا مِن أوصافِه التي جُعل عليها بحيث لا ينفكّ عنها، ولم يُسلَك في الليل هذا المسلك، لِما أنّ تأثير ظلام الليل في السكون ليس بمَثابة تأثير ضوء النهار في الإبصار.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي: في جعلهما كَما وُصِفا. وما في اسم الإشارة مِن معنى البُعد للإشعار ببُعد درجته في الفضل. ﴿لَأَيَٰتٍ﴾ أي: عظيمةً كثيرةً ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ دالّةً على صحّة البعث وصدقِ الآيات الناطقة به دلالةً واضحةً، كيف لا، وإنّ مَن تأمّل في تعاقب الليل والنهار واختلافِهما على وجوهٍ بديعة مبنيّة على حِكَم رائقة يَحار في فهمها العقول، ولا يحيط بها إلّا الله عزّ وعلا، وشاهدَ في / الآفاق تبدّلَ ظلمة الليل المُحاكية للموت بضياء النهار المضاهي للحياة، [٢٦٥ظ] وعايَنَ في نفسه تبدّلَ النوم الذي هو أخو الموت بالانتباه الذي هو مثل الحياة؛ قضَى بأنّ الساعة آتية لا ريب فيها، وأنّ الله يبعث مَن في القبور قضاءً متقَنًا، وجزَم بأنّه تعالى قد جعل هذا أُنموذجًا له، ودليلًا يُستدلّ به على تحقّقه، وأنّ الآيات الناطقة به وبكون حال الليل والنهار برهانًا عليه وسائرَ الآيات كلّها حقٌّ نازل مِن عند الله تعالى.

﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ۝٨٧﴾

﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ﴾ إمّا معطوف على ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ﴾[١] منصوب بناصبه، أو بمُضمَر معطوف عليه. و﴿ٱلصُّورِ﴾ هو القَرْن الذي يَنفخ فيه إسرافيل عليه السلام.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: «لمّا فرَغ الله تعالى مِن خلق السماوات والأرض خلقَ الصُّور فأعطاه إسرافيل عليه السلام، فهو واضعه على فيه، شاخصٌ بصره إلى العرش متى يؤمر»، قال: «قلت: يا رسول الله، ما الصُّور؟» قال: «القَرْن»، قال: «قلت: كيف هو؟» قال: «عظيم، والذي نفسي بيده، إنّ عِظَمَ دارةٍ فيه كعَرض السماوات والأرض، فيُؤمَر بالنفخ فيه، فينفخ نفخةً لا يبقى عندها في الحياة أحد غيرَ مَن شاء الله تعالى، وذلك قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الزمر، ٦٨/٣٩]، ثمّ يُؤمر بأُخرى، فينفخُ نفخةً لا يبقى معها ميّتٌ إلّا بُعث وقام، وذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ/ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر، ٦٨/٣٩]».[٢] [٢٦٦و]

والذي يستدعيه سباق النظم الكريم وسياقه أنّ المراد بالنفخ ههنا هي النفخة الثانية، وبالفزَع في قوله تعالى: ﴿فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ ما يعتري الكلّ عند البعث والنشور بمشاهدة الأمور الهائلة الخارقة للعادات في الأنفس والآفاق مِن الرعب والتهيّب الضروريَّين الجِبِلّيَّين.

وإيراد صيغة الماضي مع كون المعطوف عليه -أعني: ﴿يُنفَخُ﴾- مضارعًا للدلالة على تحقّق وقوعه إثرَ النفخ. ولعلّ تأخيرَ بيان الأحوال الواقعة عند ابتداء النفخة عن بيان ما يقع بعدها مِن حشر المكذّبين مِن كلّ أمّة لتثنية التهويل بتكرير التذكير إيذانًا بأنّ كلّ واحد منهما طامّة كبرى وداهية دَهياء حقيقة بالتذكير على حيالها، ولو رُوعي الترتيب الوقوعي لربّما تُوهِّم أنّ الكلّ داهيةٌ واحدةٌ قد أُمِر بذكرها كما مرّ في قصّة البقرة.

---

١ النمل، ٨٣/٢٧.

٢ جامع البيان للطبري، ٤١٩/١٥؛ تفسير ابن أبي حاتم، ٣٢٥٦/١٠؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٢٧/٧.

﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي: أن لا يَفزَع. قيل: هم جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل عليهم السلام. وقيل: الحور والخزَنة وحمَلة العرش.

﴿وَكُلٌّ﴾ أي: كلُّ واحد مِن المَبعوثين عند النفخة ﴿أَتَوْهُ﴾ حضروا المَوقف بين يدَي ربّ العزّة جلّ جلاله للسؤال والجواب والمناقشة والحساب. وقُرئ: "أَتَاهُ"[1] باعتبار لفظ "الكلّ" كما أنّ القراءة الأولى باعتبار معناه. وقُرئ: "آتُوهُ"،[2] أي: حاضِروه ﴿دَاخِرِينَ﴾ أي: صاغِرين. وقُرئ: "دَخِرِينَ".[3]

﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ﴾ عطفٌ على ﴿يُنفَخُ﴾ داخلٌ في حكم التذكير. وقوله عزّ وعلا: ﴿تَحْسَبُهَا جَامِدَةً﴾ أي: ثابتة في أماكنها، إمّا بدل منه، أو حال مِن ضمير ﴿تَرَى﴾، أو مِن مفعوله.

[٢٦٦ظ] وقوله تعالى: / ﴿وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ حال مِن ضمير ﴿ٱلْجِبَالَ﴾ في ﴿تَحْسَبُهَا﴾، أو في ﴿جَامِدَةً﴾، أي: تراها رأيَ العين ساكنةً، والحالُ أنّها تمرّ مرّ السحاب الذي تُسَيِرها الرياح سيرًا حثيثًا. وذلك أنّ الأجرام العظام إذا تحرّكت نحو سَمْتٍ لا يكاد يتبيّن حركتها، وعليه قول مَن قال:

بِأَرْعَنَ مثلِ الطَّوْدِ تحسب أنّهم ... وُقوفٌ لحاجٍ والركابُ تُهَمْلِجُ[4]

وقد أُدمِجَ في هذا التشبيه تشبيهُ حال الجبال بحال السحاب في تخلخل الأجزاء وانتفاشِها، كما في قوله تعالى: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ [القارعة، ٥/١٠١].

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن قتادة. البحر المحيط لأبي حيّان، ٢٧٢/٨.

٢ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر والكسائي وشعبة عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٢/ ٣٣٩.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٦٤.

٤ للنابغة الجعدي في ديوانه، ٢٨٥/٨. يقال: "جيشٌ أرعَن"، وهو المضطرب لكثرته. و"الطُّور": الجبل العظيم. "الحاج": جمع الحاجة. و"الركاب" لا واحد له مِن لفظه، و"الهِملاج" مِن البراذين، واحد "الهَماليج"، ومَشيها "الهَملجة"، فارسي معرّب، وهي مشيٌ سهلٌ. يقول: حاربنا العدوّ بجيش مِثلَ الجبل العظيم، تحسب أنّهم وقوفٌ لِحاجٍ، والحال أنّ الركاب تُهملِج وتُسرع. فتوح الغيب للطيبي، ٥٩٢/١١.

وهذا أيضًا ممّا يقع بعد النفخة الثانية عند حشر الخلق يبدّل الله عزّ وجلّ الأرضَ غيرَ الأرض، ويُغيِّر هيأتها، ويسيّر الجبال عن مقارّها على ما ذُكر مِن الهيئة الهائلة ليشاهدَها أهلُ المحشر، وهي وإنِ انْدَكَّتْ وتصدّعت عند النفخة الأولى لكنّ تَسْيِيرَها وتسويةَ الأرض إنّما يكونان بعد النفخة الثانية، كما نطق به قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ۞ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۞ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ۞ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ﴾ [طه، ٢٠/١٠٥-١٠٨]، وقولُه تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم، ١٤/٤٨].

فإنّ اتّباع الداعي الذي هو إسرافيل عليه السلام، وبروزَ الخلق لله تعالى، لا يكون إلّا بعد النفخة الثانية، وقد قالوا في تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ﴾ [الكهف، ١٨/٤٧]: إنّ صيغة الماضي في المعطوف مع كون المعطوف عليه مستقبلًا للدلالة على تقدّم الحشر على التسيير والرؤية، كأنّه قيل: وحَشرناهم قبل ذلك.

هذا، وقد قيل: إنّ المراد هي النفخة الأولى، و"الفزَعُ" هو الذي يستتبع الموت لغاية شدّة الهول، كما في قوله تعالى: ﴿فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾... إلخ [الزمر، ٣٩/٦٨]، فيختصّ أثرها بمَن كان حيًّا عند / وقوعها دون مَن مات قبل ذلك مِن الأمم. [٢٦٧و]

وجُوّز أن يُراد بالإتيان داخرين رجوعُهم إلى أمره تعالى، وانقيادُهم له،[1] ولا ريبَ في أنّ ذلك ممّا ينبغي أن يُنَزَّه ساحة التنزيل عن أمثاله. وأبعدُ مِن هذا ما قيل:[2] إنّ المراد بهذه النفخة نفخةُ الفزع التي تكون قبل نفخة الصعق، وهي التي أريدت بقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾ [ص، ٣٨/١٥]، «فيُسيّر الله تعالى عندها الجبال فتمرّ مرّ السحاب، فتكون سرابًا، وتُرَجُّ الأرض بأهلها رجًّا، فتكون كالسفينة الموثقة في البحر، أو كالقنديل المعلّق

---

[1] انظر: **الكشّاف للزمخشري**، ٣/٣٨٧؛ **وأنوار التنزيل للبيضاوي**، ٤/١٦٨.

[2] انظر: **جامع البيان للطبري**، ١٨/١٣٢؛ **والكشف والبيان للثعلبي**، ٧/٢٢٧.

ترجّجه الأرواحُ»،[١] فإنّه ممّا لا ارتباط له بالمقام قطعًا، والحقُّ الذي لا مَحيد عنه ما قدّمناه، وممّا هو نصّ في الباب ما سيأتي مِن قوله تعالى: ﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾.[٢]

﴿صُنْعَ ٱللَّهِ﴾ مصدر مؤكِّد لِمضمون ما قبله، أي: صَنعَ الله ذلك صُنعًا على أنّه عبارة عمّا ذُكر مِن النفخ في الصور وما ترتّب عليه جميعًا، قُصِد به التنبيهِ على عِظَم شأن تلك الأفاعيل وتهويل أمرها، والإيذانُ بأنّها ليست بطريق إخلال نظام العالم وإفساد أحوال الكائنات بالكلّيّة مِن غير أن يَدعُوَ إليها داعية، أو يكون لها عاقبة؛ بل هي مِن قَبيل بدائع صُنع الله تعالى المبنيّة على أساس الحكمة المستتبِعة للغايات الجميلة، التي لأجلها رُتِّبت مقدّمات الخلق ومبادي الإبداع على الوجه المتين، والنهج الرَّصين، كما يُعرِب عنه قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أي: أحكم خلقَه وسوّاه على ما يقتضيه الحكمة.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ تعليل لكون ما ذُكر صنعًا محكَمًا له تعالى ببيان أنّ علمه تعالى بظواهر أفعال / المكلّفين وبواطنها ممّا يدعو إلى إظهارها [٢٦٧ظ] وبيانِ كيفيّاتها على ما هي عليه مِن الحُسن والسوء، وترتيبِ أجزيتها عليها بعد بَعثهم وحشرهم، وجعلِ السماوات والأرض والجبال على وفق ما نطق به التنزيل، ليتحقّقوا بمشاهدة ذلك أنّ وعد الله حقّ لا ريبَ فيه. وقُرِئ: "خَبِيرٌ بِمَا يَفْعَلُونَ".[٣]

وقوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ بيان لِما أشيرَ إليه بإحاطة علمه تعالى بأفعالهم مِن ترتيب أجزيتها عليها، أي: مَن جاء منكم أو مِن أولئك الذين أَتَوه تعالى بالحسنة فله مِن الجزاء ما هو خير منها، إمّا باعتبار أنّه أضعافها، وإمّا باعتبار دوامه وانقضائها. وقيل: فله خير حاصل مِن جهتها، وهو الجنّة. وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «"الحسنة" كلمة الشهادة».[٤]

---

[١] جزء مِن حديث طويل أخرجه الطبري في جامع البيان، ١٨/١٣٢؛ وابن أبي حاتم في التفسير، ٩/٢٩٢٩.

[٢] في الآية التالية.

[٣] قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر وشعبة عن عاصم بخُلف عنهما. النشر لابن الجزري، ٢/٣٣٩.

[٤] الكشّاف للزمخشري، ٣/٣٨٨؛ اللباب لابن عادل، ١٥/٢٠٩.

﴿وَهُم﴾ أي: الذين جاءوا بالحسنات ﴿مِن فَزَعٍ﴾ أي: عظيم هائل لا يُقادَر قدرُه، وهو الفزع الحاصل مِن مشاهدة العذاب بعد تمام المحاسبة وظهور الحسنات والسيّئات، وهو الذي في قوله تعالى: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾ [الأنبياء، ١٠٣/٢١]. وعن الحسن رضي الله عنه: «حين يؤمر بالعبد إلى النار».[١] وقال ابن جريج: «حين يُذبح الموت، وينادي المنادي: يا أهل الجنّة خلودٌ فلا موت، ويا أهل النار خلودٌ فلا موت».[٢]

﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم إذ يُنفخ في الصور ﴿ءَامِنُونَ﴾ لا يعتريهم ذلك الفزع الهائل، ولا يلحقهم ضرره أصلًا، وأمّا الفزع الذي يعتري كلَّ مَن في السماوات ومَن في الأرض غيرَ مَن استثناه الله تعالى فإنّما هو التهيّب والرعب الحاصل في ابتداء النفخة مِن معاينة فنون الدواهي والأهوال، ولا يكاد يخلو منه أحد بحُكم الجِبِلّة، وإن كان آمنًا مِن لحوق الضرر.

والأمن يستعمل بالجارّ وبدونه، / كما في قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ﴾ [٢٦٨و] [الأعراف، ٩٩/٧]. وقُرئ: "مِن فَزَعِ يَوْمَئِذٍ" بالإضافة مع كسر "الميم"،[٣] وفتحِها[٤] أيضًا، والمراد هو الفزع المذكور في القراءة الأولى، لا جميعُ الأفزاع الحاصلة يومئذ. ومدار الإضافة كونه أعظمَ الأفزاع وأكبرَها، كأنّ ما عداه ليس بفزَع بالنسبة إليه.

﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾﴾

﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ قيل: هو الشرك ﴿فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ﴾ أي: كُبّوا فيها على وجوههم منكوسين، أو كُبّت فيها أنفسهم، على طريقة: ﴿وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة، ١٩٥/٢].

---

١ **جامع البيان للطبري**، ٤٢٢/١٦ (الأنبياء، ١٠٣/٢١)؛ **الكشف والبيان للثعلبي**، ٣١١/٦ (الأنبياء، ١٠٣/٢١).

٢ **الكشف والبيان للثعلبي**، ٣١١/٦ (الأنبياء، ١٠٣/٢١)؛ **اللباب لابن عادل**، ٦١١/١٣ (الأنبياء، ١٠٣/٢١). وحديث ذبح الموت أخرجه البخاري في **صحيحه**، ١١٣/٨ (٦٥٤٥)؛ ومسلم في **صحيحه**، ٢١٨٨/٤ (٢٨٤٩).

٣ قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر. **النشر لابن الجزري**، ٣٤٠/٢.

٤ قرأ بها نافع وأبو جعفر. **النشر لابن الجزري**، ٣٤٠/٢.

﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ على الالتفات للتشديد، أو على إضمار القول، أي: مَقولًا لهم ذلك.

﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾﴾

﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾ أُمِر عليه السلام بأن يقول لهم ذلك بعد ما بيّن لهم أحوال المبدأ والمعاد وشرح أحوال القيامة تنبيهًا لهم على أنّه قد أتمّ أمر الدعوة بما لا مزيدَ عليه، ولم يبقَ له عليه السلام بعد ذلك شأن سوى الاشتغال بعبادة الله عزّ وجلّ، والاستغراقِ في مراقبته غيرَ مبالٍ بهم ضَلُّوا أم رَشَدُوا، صَلَحُوا أو فسَدوا؛ ليحملهم ذلك على أن يهتمّوا بأمور أنفسهم، ولا يتوهّموا مِن شدّة اعتنائه عليه السلام بأمر دعوتهم أنّه عليه السلام يُظهر لهم ما يُلجئُهم إلى الإيمان لا محالةَ، ويشتغلوا بتدارك أَحوالهم، ويتوجّهوا نحو التدبّر فيما شاهدوه مِن الآيات الباهرة.

و﴿ٱلْبَلْدَةِ﴾ هي مكّة المعظّمة، وتخصيصُها بالإضافة لتفخيم شأنها وإجلال مكانها، والتعرّضُ لتحريمه تعالى إيّاها تشريفٌ لها بعد تشريف، وتعظيمٌ إثرَ تعظيم، مع ما فيه مِن الإشعار بعلّة الأمر وموجِبِ الامتثال به، كما في قوله تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾ [قريش، ١٠٦/٣-٤]، ومِن الرمزِ إلى غاية شناعة ما فعلوا فيها، ألا يُرى أنّهم مع كونها محرّمةً مِن أن تُنْتَهكَ حرمتُها باختلاءِ خَلاها، وعَضْدِ شجَرِها، وتنفيرِ صيدها، وإرادةِ الإلحاد فيها بوجه مِن الوجوه، قد استمرّوا فيها على تعاطي أفجر أفراد الفجور، وأشنعِ آحاد الإلحاد، حيث تركوا عبادة ربّها، ونَصَبُوا فيها الأوثان، وعكَفُوا على عبادتها، قاتلهم الله أنّى يُؤفكُون.

وقُرئ: "حَرَمَهَا" بالتخفيف.[1]

[1] قراءة شاذّة، ولم أجِد مَن ذكرها غير أبي السعود.

وقوله تعالى: ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖ﴾ أي: خَلقًا ومُلكًا وتصرّفًا مِن غير أن يشاركه شيءٌ في شيءٍ مِن ذلك؛ تحقيقٌ للحقّ، وتنبيهٌ على أنّ إفراد مكّة بالإضافة لِما ذُكر مِن التفخيم / والتشريف مع عموم الربوبيّة لجميع الموجودات. [٢٦٨ظ]

﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ أي: أَثْبُتَ على ما كنتُ عليه مِن كَونِي مِن جملة الثابتين على ملّة الإسلام والتوحيد، أي: الذين أسلموا وجوههم لله خالصةً، مِن قوله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ﴾ [النساء، ٤/١٢٥].

﴿وَأَنۡ أَتۡلُوَاْ ٱلۡقُرۡءَانَۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ۝٩٢﴾

﴿وَأَنۡ أَتۡلُوَاْ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ أي: أُواظب على تلاوته؛ لينكشفَ لي حقائقه الرائعة المخزونة في تضاعيفه شيئًا فشيئًا، أو على تلاوته على الناس بطريق تكرير الدعوة وتثنية الإرشاد، فيكونَ ذلك تنبيهًا على كفايته في الهداية والإرشاد مِن غير حاجة إلى إظهار معجزة أخرى. فمعنى قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦ﴾ حينئذ: فمَن اهتدى بالإيمان به والعمل بما فيه مِن الشرائع والأحكام. وعلى الأوّل: فمَن اهتدى باتّباعه إيّايَ فيما ذُكر مِن العبادة والإسلام وتلاوةِ القرآن فإنّما منافع اهتدائه عائدةٌ إليه، لا إلَيّ.

﴿وَمَن ضَلَّ﴾ بالكفر به والإعراضِ عن العمل بما فيه، أو بمخالفتي فيما ذُكر ﴿فَقُلۡ﴾ في حقّه: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ﴾ وقد خرجتُ عن عهدة الإنذار، فليس عليّ مِن وَبالِ ضلاله شيء، وإنّما هو عليه فقط.

﴿وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعۡرِفُونَهَاۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ۝٩٣﴾

﴿وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ أي: على ما أفاض عليّ مِن نَعمائه التي أجلُّها نعمةُ النبوّة المستتبِعةُ لفنون النعم الدينيّة والدنيويّة، ووفّقَني لتحمّل أعبائها وتبليغ أحكامها إلى كافّة الورى بالآيات البيّنة والبراهينِ النيّرة.

وقوله تعالى: ﴿سَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾ مِن جملة الكلام المأمور به، أي: سيُريكم البتّةَ في الدنيا آياتِه الباهرة التي نطق بها القرآن، كخروج الدابّة، وسائر الأشراط،

وقَد عُدّ منها وقعةُ بدر،[١] ويأباه قوله تعالى: ﴿فَتَعْرِفُونَهَا﴾ أي: فتعرفون أنّها آيات الله تعالى حين لا ينفعكم المعرفة؛ لأنّهم لا يعترفون بكون وقعة بدر كذلك. وقيل: سيُريكم في الآخرة.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ كلام مَسوق مِن جهته تعالى بطريق التذييل، مقرِّر لِما قبله، متضمّن للوعد والوعيد، كما يُنبئ عنه إضافة الربّ إلى ضمير النبيّ صلّى الله عليه وسلّم. وتخصيص الخطاب أوّلًا به[٢] عليه السلام، وتعميمُه ثانيًا للكفَرة تغليبًا، أي: وما ربّك بغافل عمّا تعمل أنت مِن الحسنات، وما تعملون أنتم أيّها الكفَرة مِن السيّئات، فيجازي كلًّا منكم بعمله لا محالةَ.

وقُرئ: "عَمَّا يَعْمَلُونَ"[٣] على الغيبة، فهو وعيدٌ مَحض، والمعنى: وما ربّك بغافل عن أعمالهم، فسيعذّبهم البتّة، فلا يحسبوا أنّ تأخير عذابهم لغفلته تعالى عن أعمالهم الموجِبة له، والله تعالى[٤] أعلم.

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورةَ ﴿طسٓ﴾ كان له مِن الأجر عشرُ حسنات بعدد مَن صدّق بسليمان وهود وصالح وإبراهيم وشعيب عليهم السلام، ومَن كذّب بهم، ويَخرج مِن قبره وهو ينادي: "لا إلٰه إلّا الله"».[٥]

---

[١] انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ٢٣١/٧؛ واللباب لابن عادل، ٢١١/١٥.

[٢] م - به.

[٣] قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي وخَلف وشعبة عن عاصم. النشر ابن الجزري، ٢٦٣/٢.

[٤] س - تعالى.

[٥] الكشف والبيان للثعلبي، ١٨٨/٧؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٣٦٨/٣. وهو جزء مِن الحديث المروي عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

/ سورة القَصص [٢٦٩و]

مكيّة، وقيل: إلّا قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ إلى قوله: ﴿ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [القصص، ٢٨/٥٢-٥٥]،[١] وهي ثمان وثمانون آيةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٣﴾

﴿طسٓمٓ ۞ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ قد مرّ ما يتعلّق به مِن الكلام بالإجمال والتفصيل في أشباهه.

﴿نَتْلُواْ عَلَيْكَ﴾ أي: نقرأ بواسطة جبريل عليه السلام، ويجوز أن يكون "التلاوة" مجازًا مِن التنزيل. ﴿مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ﴾ مفعول ﴿نَتْلُواْ﴾، أي: بعضَ نبَئهما ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ متعلّق بمحذوفٍ هو حال مِن فاعل ﴿نَتْلُواْ﴾، أو مِن مفعوله، أو صفة لمصدره، أي: نتلو عليكَ بعضَ نبئِهما ملتبسين، أو ملتبسًا بالحقّ، أو تلاوةً ملتبسةً بالحقّ ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ متعلِّق بـ﴿نَتْلُواْ﴾، وتخصيصُهم بذلك مع عموم الدعوة والبيان للكلّ لأنّهم المنتفعون به.

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٤﴾

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ استئناف جارٍ مَجرى التفسير للمُجمل المَوعودِ. وتصديرُه بحرف التأكيد للاعتناء بتحقيق مضمون ما بعده، أي: أنّه تجبّر وطغا في أرض مصر، وجاوَز الحدودَ المعهودة في الظلم والعدوان.

---

١ ط س – وقيل: إلّا قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ إلى قوله: ﴿ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [القصص، ٢٨/٥٢-٥٥].

﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ أي: فِرَقًا يُشَيِّعونه في كلّ ما يريده مِن الشرّ والفساد، أو يشيّع بعضُهم بعضًا في طاعته، أو أصنافًا في استخدامه يستعمِل كلّ صنفٍ في عمل، ويتسخَّرُه فيه؛ مِن بناءٍ وحَرْثٍ وحَفرٍ وغير ذلك مِن الأعمال الشاقّة، ومَن لم يستعمله ضرَب عليه الجزية، أو فِرَقًا مختلفةً قد أغرى بينهم العداوةَ والبغضاء؛ لئلّا تتّفق كلمتُهم.

﴿يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ﴾ وهم بنو إسرائيل. والجملة إمّا حال مِن فاعل ﴿جَعَلَ﴾، أو صفة لـ﴿شِيَعًا﴾، أو استئناف، وقوله تعالى: ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ﴾ بدل منها.

وكان ذلك لِما أنّ كاهنًا قال له: يُولَد في بني إسرائيل مولود يذهبُ مُلكُك على يده، وما ذاك إلّا لِغاية حُمقه، إذ لو صدق فما فائدةُ القتل، وإن كذب فما وجهه.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أي: الراسخين في الإفساد، ولذلك اجتَرأَ على مثل تلك العظيمة مِن قتل المَعصومين مِن أولاد الأنبياء عليهم السلام.

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ ۝٦﴾

[٢٦٩ظ] / ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ﴾ أي: نتفضّلَ ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ على الوجه المذكور بإنجائهم مِن بأسه. وصيغة المضارع في ﴿نُرِيدُ﴾ حكايةُ حالٍ ماضية، وهو معطوف على ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا﴾... إلخ؛[١] لتناسُبِهما في الوقوع في حيّزِ التفسير للنبأ، أو حال مِن ﴿يَسْتَضْعِفُ﴾ بتقدير المبتدأ، أي: يَستضعفُهم فرعونُ ونحن نريد أن نمُنّ عليهم.

وليس مِن ضرورة مقارنة الإرادة للاستضعاف مقارنةُ المراد له، لِما أنّ تعلّق الإرادة للمَنّ تعلّق استقبالي، على أنّ منّة الله تعالى عليهم بالخلاص لمّا كانت في شرَف الوقوع جاز إجراؤها مُجرى الواقع المقارِن له. ووضعُ الموصول موضع الضمير لإبانة قدر النعمة في المنّة بذِكر حالتهم السابقة المباينة لها.

---

[١] في الآية السابقة.

﴿وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ﴾ يُقتَدَى بهم في أمور الدين بعد أن كانوا أتباعًا مُسخَّرين لآخرين، ﴿وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ﴾ لجميع ما كان منتظِمًا في سِلك مُلك فِرعونَ وقومه وِراثةً معهودةً فيما بينهم، كما يُنبئ عنه تعريف ﴿ٱلۡوَٰرِثِينَ﴾. وتأخير ذكر وِراثتهم له عن ذكر "جعلهم أئمّةً" مع تقدّمها عليه زمانًا لانحطاط رتبتها عن الإمامة، ولئلّا ينفصل عنه ما بعده مع كونه مِن رَوادفه، أعني: قولَه تعالى:[١] ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾... إلخ، أي: نسلِّطهم على مصر والشام يتصرّفون فيهما كيفما يشاءون. وأصل التمكين أن يجعل للشيء مكانًا يتمكّن فيه.

﴿وَنُرِيَ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنۡهُم﴾ أي: مِن أولئك المستضعَفين ﴿مَّا كَانُواْ يَحۡذَرُونَ﴾ ويجتهدون في دفعه مِن ذهابِ مُلكهم وهُلْكِهم على يد مولودٍ منهم. وقُرئ: "يَرَى" بالياء ورفعِ ما بعده على الفاعِليّة.[٢]

﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِۖ فَإِذَا خِفۡتِ عَلَيۡهِ فَأَلۡقِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحۡزَنِيٓۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٧﴾

﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾ بإلهام أو رؤيا ﴿أَنۡ أَرۡضِعِيهِ﴾ ما أمكنكِ إخفاؤُه ﴿فَإِذَا خِفۡتِ عَلَيۡهِ﴾ بأن يحسّ به الجيرانُ عند بكائه ويَنُمُّوا عليه ﴿فَأَلۡقِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ﴾ في البحر، وهو النيل، ﴿وَلَا تَخَافِي﴾ عليه ضيعةً بالغرَق ولا شدّة، ﴿وَلَا تَحۡزَنِيٓۖ / إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ﴾ عن قريب بحيث تأمَنين عليه، ﴿وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾. والجملة تعليل للنهي عن الخوف والحَزَن. وإيثار الجملة الاسميّة وتصديرُها بحرف التحقيق للاعتناء بتحقيق مضمونها، أي: إنّا فاعلون لردّه وجعلِه مِن المرسلين لا محالةَ. [٢٧٠و]

رُوي أنّ بعض القوابل الموكَّلات مِن قِبَل فرعونَ بحَبالى بني إسرائيل كانت مُصافيةً لأمّ موسى عليه السلام، فقالت لها: «لِيَنفعني حبُّكِ اليوم»، فعالَجتْها، فلمّا وقع إلى الأرض هالَها نورٌ بين عَينَيه، وارتعش كلّ مَفصِل منها، ودخل حُبّه في قلبها، ثمّ قالت: «ما جئتكِ إلّا لأقتلَ مولودكِ، وأُخبِرَ فرعونَ،

---

[١] م - تعالى.

[٢] قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٣٤١/٢.

ولكنّي وجدت لابنكِ في قلبي محبّةً ما وجدت مثلها لأحدٍ، فاحفَظِيه، فلمّا خرجَتْ جاء عيون فرعون، فلَفَّتْه في خِرقة فألقَتْه في تنّورٍ مَسجور، لم تعلم ما تصنع لِما طاشَ مِن عقلها، فطلبوا فلَمْ يُلْفُوا[1] شيئًا، فخرجوا وهي لا تدري مكانه، فسمِعَتْ بكاءه مِن التنّور، فانطلقت إليه وقد جعل الله تعالى النار عليه بردًا وسلامًا، فلمّا أَلَحَّ فرعون في طلب الوِلدان أَوحى الله تعالى إليها ما أوحى.[2] وقد رُوي أنّها أرضَعَتْه ثلاثة أشهر في تابوتٍ مِن بَرْدِيّ[3] مَطليّ بالقار مِن داخله.[4]

﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًاۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَـٰطِـِٔينَ ۝٨﴾

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ﴾ فصيحة مُفصِحة عن عطفه على جملةٍ مترتّبةٍ على ما قَبلها مِن الأمر بالإلقاء، قد حُذفَت تَعويلًا على دلالة الحال، وإيذانًا بكمال سرعة الامتثال، أي: فألْقَتْه في اليَمّ بعد ما جعلَته في التابوت حسبما أُمِرَت به، فالتقطه آل فرعونَ، أي: أخذوه أَخْذَ اعتناءٍ به وصيانةٍ له عن الضياع.

[٢٧٠ظ] / قال ابن عبّاس رضي الله عنهما وغيره: «كانَ لفرعونَ يومئذ بنت، لم يكن له ولد غيرها، وكانت مِن أكرم الناس إليه، وكان بها برَص شديد، عجزت الأطبّاء عن علاجه، فقالوا: "لا تَبرأ إلّا مِن قِبل البحر، يؤخذ منه شِبه الإنس يومَ كذا وساعةَ كذا مِن شهر كذا حين تشرق الشمس، فيؤخذ مِن ريقه، فَيُلطَّخُ به بَرصُها فَتَبرَأ"، فلمّا كان ذلك اليوم غدا فرعون في مجلس له على شفير النيل، ومعه امرأته آسية بنت مزاحم بن عبيد بن الريّان بن الوليد الذي كان فرعونَ مِصر في زمن يوسف الصدّيق عليه السلام -وقيل: كانت مِن بني إسرائيل مِن سبط موسى. وقيل: كانت عمّتَه، حكاه السهيلي-[5] وأقبلت بنت فرعونَ في جواريها حتّى جلستْ على شاطئ النيل، فإذا بتابوت في النيل تضربه الأمواج، فتعلّق بشجرة، فقال فرعون: "ائتوني به"، فابتدروا بالسُّفُن فأحضروه بين يديه،

---

[1] وفي هامش م: أي: لم يصادِفوا. «منه».
[2] الكشف والبيان للثعلبي، ٢٣٤/٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٣٩٣/٣.
[3] وفي هامش م: البَردي: نبات معروف. «منه».
[4] الكشّاف للزمخشري، ٣٩٣/٣.
[5] التعريف والإعلام للسهيلي، ص ٩٦.

فعالَجُوا فتحَه فلم يقدروا عليه، وقصدوا كسرَه فأعياهم، فنظرَت آسيةُ فرَأتْ نورًا في جوف التابوت لم يَرَه غيرها، فعالَجَته ففتَحَته، فإذا هو بصبيّ صغير في مَهدِه، وإذا نور بين عَينَيه وهو يمُصّ إبهامَه لبنًا، فألقى الله تعالى محبّته في قلوب القوم، وعمَدَت ابنةُ فرعون إلى رِيقه فلَطّخَت به برَصَها فبرَأت مِن ساعته. وقيل: لمّا نظرتْ إلى وجهه بَرَأت، فقالت الغُواة مِن قوم فرعون: "إنّا نظنّ أنّ هذا هو الذي نحذَر منه، رُمِي في البحر فَرَقًا منك، فاقتله"، فهَمّ فرعون بقتله، فاستوهبَته آسية، فتركه»[1] كما سيأتي.

و"اللام" في قوله تعالى: ﴿لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًا﴾ / لام العاقبة، أبرِزَ مَدخولها في مَعرض العلّة لالتقاطهم تشبيهًا له في الترتيب عليه بالغرَض الحامل عليه. وقُرِئ: "حُزْنًا"،[2] وهما لغتان، كـ"السُّقْم" و"السَّقَم". جُعِلَ عليه السلام نفسَ الحَزَن إيذانًا بقوّة سببيّته لحَزَنهم. [٢٧١و]

﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَٰطِـِٔينَ﴾ أي: في كلّ ما يأتون وما يذَرون، فلا غَرْوَ في أن قَتلوا لأجله أُلوفًا، ثمّ أخذوه يُربّونه ليكبر ويفعل بهم ما كانوا يحذرون. رُوي أنّه ذُبِحَ في طلبه عليه السلام تسعون ألف وليدٍ.[3] أو كانوا مذنبين فعاقبهم الله تعالى بأن رَبَّى عدوّهم على أيديهم، فالجملة اعتراضيّة لتأكيد خطئهم، أو لبيان الموجِب لِما ابتُلُوا به. وقُرِئ: "خَاطِينَ"[4] على أنّه تخفيف "خَاطِئِينَ"، أو على أنّه بمعنى: متعدّين الصوابَ إلى الخطأ.

﴿وَقَالَتِ ٱمۡرَأَتُ فِرۡعَوۡنَ قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ لَا تَقۡتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ۝٩﴾

﴿وَقَالَتِ ٱمۡرَأَتُ فِرۡعَوۡنَ﴾ أي: لفرعونَ حين أَخرجته مِن التابوت: ﴿قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَ﴾ أي: هو قرّة عين لنا، لِما أنّهما لمّا رَأياه أحبّاه، أو لِما ذُكِر مِن بَرء بنته

---

[1] الكشف والبيان للثعلبي، ٢٣١/٧؛ اللباب لابن عادل، ٢١١/١٥.

[2] قرأ بها حمزة والكسائي وخَلف. النشر لابن الجزري، ٣٤١/٢.

[3] الكشف والبيان للثعلبي، ٢٣٤/٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٣٩٣/٣.

[4] قرأ بها أبو جعفر، وهو أحد وجهين لحمزة عند الوقف. النشر لابن الجزري، ٣٩٧/١.

مِن البرَص بريقِه. وفي الحديث: «أنّه قال: "لكِ لا لي"، ولو قال: "لي كما هو لكِ" لهداه الله تعالى كما هداها».[١]

﴿لَا تَقْتُلُوهُ﴾ خاطبَتْه بلفظ الجمع تعظيمًا ليساعدها فيما تريده. ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ فإنّ فيه مخائل اليُمْن، ودلائلَ النجابة، وذلك لِما رأت فيه مِن العلامات المذكورة. ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ أي: نتبنّاه فإنّه خليق بذلك.

﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ حال مِن ﴿ءَالُ فِرْعَوْنَ﴾،[٢] والتقدير: فالتقطه آل فرعونَ ليكون لهم عَدُوًّا وحَزَنًا، وقالت امرأته له: كَيت وكَيت، وهم لا يشعرون بأنّهم على خطأ عظيم فيما صنعوا مِن الالتقاط ورجاءِ النفع منه والتبنّي له.

[٢٧١ظ] / وقوله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ﴾ الآيةَ،[٣] اعتراض وقع بين المعطوفين لتأكيد خطئهم، وقيل: حال مِن أحد ضميرَي ﴿نَتَّخِذَهُۥ﴾ على أنّ الضمير للناس، أي: وهم لا يعلمون أنّه لغيرنا وقد تَبنَّيناه.

﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٠﴾

﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا﴾ صُفرًا مِن العقل، لِما دَهِمها مِن الخوف والحَيرة حين سَمِعَت بوقوعه في يد فرعون، كقوله تعالى: ﴿وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾ [إبراهيم، ٤٣/١٤]، أي: خلاءٌ لا عقولَ فيها، ويعضُده أنّه قُرِئ: "فِزْغًا"،[٤] مِن قولهم: "دماؤهم بينهم فِزْغٌ"، أي: هَدْر. وقيل: فارغًا مِن الهمّ والحُزن لغاية وثوقها بوعد الله تعالى، أو لسماعها أنّ فرعون عطَف عليه وتبنّاه. وقُرِئ: "مُؤْسَى" بالهمز[٥] إجراءً للضمّة في جارة الواو مُجرى ضمّتها فهُمِزت كما في "وُجوه".[٦]

---

[١] الكشف والبيان للثعلبي، ٢٣٦/٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٣٩٤/٣. وهو جزء من حديث طويل أخرجه النسائي في السنن الكبرى، ١٧٢/١٠ (١١٢٦٣)، بلفظ: «لو أقرّ فرعون أن يكون له قرّة عين كما أقرّت امرأته لهداه الله كما هداها، ولكنّ الله حرّمه ذلك».

[٢] في الآية السابقة.

[٣] القصص، ٤/٢٨.

[٤] قراءة شاذّة، ذكر ابن جنّي أنّ قُطرب حكاها عن بعض أصحاب النبيّ صلّى الله عليه وسلّم. انظر: المحتسب لابن جنّي، ١٤٨/٢.

[٥] س - بالهمز. | قراءة شاذّة، مرويّة عن قُطرب وبعض القرّاء. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٦٦.

[٦] عبارة ابن جنّي: «إنّ ضمّة الميم في "الموقدان" >

﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ﴾ أي: إنّها كادت لَتَظهر بموسى، أي: بأمره وقصّته مِن فرط الحَيرة والدهشة، أو الفرحِ لتبنّيه، ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ بالصبر والثبات ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: المصدّقين بوعد الله تعالى، أو مِن الواثقين بحفظه، لا بتبنّي فرعون وتعطّفه، وهو علّة الربط. وجواب ﴿لَوْلَا﴾ محذوف لدلالة ما قبله عليه.

﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾﴾

﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ﴾ مريم، والتعبيرُ عنها بأخوّته عليه السلام دون أن يقال: "لِبنتها" للتصريح بمَدار المحبّة الموجبة للامتثال بالأمر: ﴿قُصِّيهِ﴾ أي: اتّبِعي أثرَه وتتبّعي خبره، ﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ﴾ أي: أبصرَته ﴿عَن جُنُبٍ﴾ عن بُعد. وقُرئ بسكون النون،[1] و"عَن جَانِبٍ"،[2] والكلّ بمعنًى.

﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أنّها تقصّه وتتعرّف حاله، أو أنّها أختُه.

﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾

﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ﴾ أي: منعناه أن يرتضع مِن المرضعات. و﴿ٱلْمَرَاضِعَ﴾ جمع "مُرْضِع"، وهي المرأة التي تُرضع، أو "مَرْضَع"، وهو الرضاع أو موضِعه، أعني: الثديَ. ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: مِن قبل قصِّها أثرَه.

﴿فَقَالَتْ﴾ عند رؤيتها لِعدم قبوله الثديَ، واعتناءِ فرعونَ / بأمره، وطلبِهم مَن يَقبل ثديَها: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ﴾ أي: لأجلكم ﴿وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾ لا يقصّرون في إرضاعه وتربيته. [٢٧٣و]

< و"موسى" لمّا جاورت الواوَ الساكنة صارت كأنّها فيها، والواو إذا انضمّت ضمًّا لازمًا هُمزت؛ نحو: "أُجوه" و"أُقِّتت"». **الخصائص** لابن جنّي، ٣/١٥٠.

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعرج. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٦٥.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن النعمان بن سالم. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٦٥.

رُوي أنّ هامان لمّا سمعه منها قال: «إنّها لَتعرفُه وأهلَه، فخذوها حتّى تخبِر بحاله»، فقالت: «إنّما أردتُ: وهُم لِلملِك ناصِحون»، فأمرها فرعون بأن تأتي بمَن يكفُله، فأتت بأمّه وموسى على يد فرعونَ يبكي، وهو يعلّله، فدفعه إليها فلمّا وجد ريحَها استأنس والتقَم ثديَها، فقال: «مَن أنتِ منه؟ فقد أبى كلّ ثدي إلّا ثديكِ»، فقالت: «إنّي امرأة طيّبة الريح طيّبة اللبن، لا أُوتَى بصبيّ إلّا قَبِلني»، فقرّره في يدها، وأجرى عليها، فرجعت به إلى بيتها مِن يومها.[1]

وذلك قوله تعالى: ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ بوصول ولدها إليها ﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾ بفراقه ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ أي: جميعَ ما وعده مِن ردّه وجعلِه مِن المرسلين ﴿حَقٌّ﴾ لا خُلفَ فيه بمشاهدة بعضِه، وقياس بعضه عليه، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنّ الأمر كذلك، فيرتابون فيه، أو أنّ الغرض الأصلي مِن الردّ علمُها بذلك، وما سواه تَبَع. وفيه تعريض بما فرَط منها حين سمعت بوقوعه في يد فرعون.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾﴾

﴿وَلَمَّا[2] بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾ أي: المبلغ الذي لا يزيد عليه نَشؤُه، وذلك مِن ثلاثين إلى أربعين سنةً، فإنّ العقل يكمل حينئذ. ورُوي أنّه لم يُبعث نبيّ إلّا على رأس الأربعين.[3] ﴿وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ أي: اعتدل قدّه أو عقله. ﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا﴾ أي: نبوّةً ﴿وَعِلْمًا﴾ بالدين، أو علمَ الحكماء والعلماء وسَمْتَهم قبل استنبائه، فلا يقول ولا يفعل فعلًا يُستَجهل فيه، وهو أوفَق لنظم القصّة؛ لأنّه تعالى استنبأه بعد الهجرة في المراجعة. ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ ومثلُ / ذلك الذي فعلنا بموسى وأمّه ﴿نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ على إحسانهم. [٢٧٣ظ]

﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾

---

[1] الكشّاف للزمخشري، ٣/٣٩٦؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤/١٧٣.

[2] س: فلمّا.

[3] الكشّاف للزمخشري، ٣/٣٩٧؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤/١٧٣.

﴿وَدَخَلَ ٱلۡمَدِينَةَ﴾ أي: مِصرَ مِن قصر فرعون. وقيل: مَنْفَ،[١] أو حايينَ،[٢] أو عينَ الشمس،[٣] مِن نواحيها. ﴿عَلَىٰ حِينِ غَفۡلَةٖ مِّنۡ أَهۡلِهَا﴾ في وقت لا يُعتاد دخولها، أو لا يتوقّعونه فيه. قيل: كان وقتَ القيلولة. وقيل: بين العشاءَين. ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيۡنِ يَقۡتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ﴾ أي: ممّن شايَعه على دينه، وهم بنو إسرائيل، ﴿وَهَٰذَا مِنۡ عَدُوِّهِۦ﴾ أي: مِن مخالفيه دينًا، وهم القِبط. والإشارة على الحكاية.

﴿فَٱسۡتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ﴾ أي: سأله أن يغيثه بالإعانة، كما يُنبئ عنه تعديته بـ﴿عَلَى﴾. وقُرئ: "استعانه".[٤] ﴿عَلَى ٱلَّذِي مِنۡ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ﴾ أي: ضرَب القِبطيَّ بجمعِ كفِّه. وقُرئ: "فلكزه"،[٥] أي: فضرَبَ به صَدرَه، ﴿فَقَضَىٰ عَلَيۡهِ﴾ فقتَلَه، وأصلُه أنهى حياته، مِن قوله تعالى: ﴿وَقَضَيۡنَآ إِلَيۡهِ ذَٰلِكَ ٱلۡأَمۡرَ﴾ [الحجر، ٦٦/١٥].

﴿قَالَ هَٰذَا مِنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ لأنّه لم يكن مأمورًا بقتل الكفّار، أو لأنّه كان مأمونًا فيما بينهم، فلم يكن له اغتيالهم. ولا يقدح ذلك في عصمته لكونه خَطأً، وإنّما عدّه مِن عمل الشيطان وسمّاه ظلمًا واستغفر عنه جَريًا على سَنن المقرّبين في استعظام ما فرَط منهم، ولو كان مِن محقَّرات الصغائر. ﴿إِنَّهُۥ عَدُوّٞ مُّضِلّٞ مُّبِينٞ﴾ ظاهر العداوة والإضلال.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي فَٱغۡفِرۡ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ١٦﴾

﴿قَالَ﴾ توسيطه بين كلامَيه عليه السلام لإبانة ما بينهما مِن المخالفة مِن حيث إنّه مناجاة ودعاء، بخلاف الأوّل. ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي﴾ أي: بقتله

---

١ مَنْف: مدينة فرعون بمصر، قال القضاعي: «أصلها بلغة القبط "مافه"، فعرّبت فقيل: مَنْف». وهي أوّل مدينة عمّرت بعد غرق فرعون. بينها وبين الفسطاط ثلاثة فراسخ، وبينها وبين عين شمس ستّة فراسخ. **معجم البلدان** للحموي، ٢١٤/٥.

٢ كذا في الأصول الخطّيّة. وفي مطبوع **معالم التنزيل** للبغوي، ١٩٦/٦؛ و**البحر المحيط** لأبي حيّان، ٢٩٢/٨: "حابين" بـ"الباء". وفي مطبوع **الكشف والبيان** للثعلبي، ٢٣٩/٧؛ و**التفسير البسيط** للواحدي، ٣٥٣/١٧: "خانين" بـ"الخاء" المعجمة والنون.

٣ عَين الشمس: مدينة فرعون بمصر ممّا يلي جبل المقطَّم، بينها وبين الفسطاط ثلاثة فراسخ، بينه وبين بَلبيس مِن ناحية الشام قرب المطريّة، وليست على شاطئ النيل. انظر: **معجم البلدان** للحموي، ١٧٨/٤؛ و**الروض المعطار** للحميري، ص ٤٢٢.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأخفش وسيبويه. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٦٦.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. **الكشّاف** للزمخشري، ٣٩٨/٣.

﴿فَٱغۡفِرۡ لِي﴾ ذنبي، ﴿فَغَفَرَ لَهُۥٓ﴾ ذلك، ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي: المبالِغ في مغفرة ذنوب عباده ورحمتِهم.

﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ فَلَنۡ أَكُونَ ظَهِيرٗا لِّلۡمُجۡرِمِينَ ١٧﴾

﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ﴾ إمّا قسَم محذوف الجواب، أي: أُقسِم بإنعامك عليّ بالمغفرة / لأتوبنّ، ﴿فَلَنۡ أَكُونَ﴾ بعد هذا أبدًا ﴿ظَهِيرٗا لِّلۡمُجۡرِمِينَ﴾ وإمّا استعطاف، أي: بحقّ إنعامك عليّ اعصمني، فلن أكون معينًا لِمَن يؤدّي معاونته إلى الجُرم. وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنّه عليه السلام لم يستَثْنِ فابتُلِي به مرّة أخرى، وهذا يؤيّد الأوّل. وقيل: معناه: بما أنعمتَ عليّ مِن القوّة أُعِين أولياءك، فلن استعمِلَها في مظاهرة أعدائك. [٢٧٤و]

﴿فَأَصۡبَحَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِي ٱسۡتَنصَرَهُۥ بِٱلۡأَمۡسِ يَسۡتَصۡرِخُهُۥۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِيّٞ مُّبِينٞ ١٨﴾

﴿فَأَصۡبَحَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُ﴾ يترصّد الاستقادة أو الأجنادَ ﴿فَإِذَا ٱلَّذِي ٱسۡتَنصَرَهُۥ بِٱلۡأَمۡسِ يَسۡتَصۡرِخُهُۥ﴾ أي: يستغيثه برفع الصوت، مِن "الصُّراخ"، ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِيّٞ مُّبِينٞ﴾ أي: بيّنُ الغواية، تسبّبتَ لقتل رجلٍ وتقاتل آخَر.

﴿فَلَمَّآ أَنۡ أَرَادَ أَن يَبۡطِشَ بِٱلَّذِي هُوَ عَدُوّٞ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقۡتُلَنِي كَمَا قَتَلۡتَ نَفۡسَۢا بِٱلۡأَمۡسِۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ ١٩﴾

﴿فَلَمَّآ أَنۡ أَرَادَ﴾ موسى ﴿أَن يَبۡطِشَ بِٱلَّذِي هُوَ عَدُوّٞ لَّهُمَا﴾ أي: لموسى وللإسرائيلي، إذ لم يكن على دينهما، ولِأنّ القِبط كانوا أعداءً لبني إسرائيل على الإطلاق. وقُرئ: "يَبْطُشَ" بضمّ "الطاء".[١]

﴿قَالَ﴾ أي: الإسرائيلي ظانًّا أنّه عليه السلام يَبطِش به حسبما يوهمه تسميته إيّاه غويًا: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقۡتُلَنِي كَمَا قَتَلۡتَ نَفۡسَۢا بِٱلۡأَمۡسِ﴾ قالوا: لمّا سمع القبطي قولَ الإسرائيلي علم أنّ موسى هو الذي قتل ذلك الفرعوني،

---

١ قرأ بها أبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٢٧٤.

فانطلق إلى فرعون فأخبره بذلك، وأمر فرعونُ بقتل موسى عليه السلام. وقيل: قاله القبطي.

﴿إِن تُرِيدُ﴾ أي: ما تريد ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وهو الذي يفعل كلّ ما يريده مِن الضرب والقتل، ولا ينظر في العواقب. وقيل: المتعظّم الذي لا يتواضع لأمر الله تعالى. ﴿وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ بين الناس بالقول والفعل.

﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾﴾

﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ﴾ أي: كائن مِن آخرها، أو جاءَ مِن آخرها ﴿يَسْعَىٰ﴾ أي: يسرع، صفة لـ﴿رَجُلٌ﴾، أو حال منه على أنّ الجارّ والمجرور صفة له، لا متعلِّق بـ﴿جَآءَ﴾، فإنّ تخصّصه يُلحِقه بالمعارف. / قيل: هو مؤمن آلِ فرعونَ، واسمه حزقيل، وقيل: شمعون، وقيل: شمعان. [٢٧٤ظ]

﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ أي: يتشاورون بسببك، فإنّ كلًّا مِن المتشاوِرين يأمر الآخرين ويأتَمِر، ﴿فَٱخْرُجْ﴾ أي: مِن المدينة ﴿إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ "اللام" للبيان، لِما أنّ معمول الصلة لا يتقدّمها.

﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾﴾

﴿فَخَرَجَ مِنْهَا﴾ أي: مِن المدينة ﴿خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ لحوق الطالبين ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ خلّصنِي منهم، واحفظني مِن لحوقهم.

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ﴾ أي: نحوَ مَديَن، وهو قرية شعيب عليه السلام، سمّيت باسم مَديَن بن إبراهيم، ولم تكن تحت سلطان فرعون، وكان بينها وبين مصر مسيرة ثمانية أيّام، ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ[١] أَن يَهْدِيَنِى[٢] سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ توكّلًا على الله تعالى،

---

[١] ط س - ربّي.

[٢] ط س + ربّي. | يظهر أثر كشطٍ في نسخة المؤلّف، فلعلّه صحّحها بعد نسخ ط س.

وثِقةً بحسن توفيقه، وكان لا يعرف الطرُق، فعَنَّ له ثلاثُ طرائق، فأخذ في الوسطى، وجاء الطلّاب فشرعوا في الأُخريَين. وقيل: خرج حافيًا لا يعيش إلّا بورَق الشجر، فما وصل حتّى سقط خُفّ[1] قدميه. وقيل: جاء مَلَك على فرس وبيده عَنَزة،[2] فانطلق به إلى مَديَن.

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ﴾ أي: وصل إليه، وهو بئر كانوا يسقون منها ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ﴾ أي: فوقَ شفيرها ﴿أُمَّةً﴾ جماعةً كثيفة ﴿مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ﴾ أي: مواشيَهم، ﴿وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ﴾ في موضعٍ أسفلَ منهم ﴿ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ أي: تَمنعان ما معهما مِن الأغنام عن التقدّم إلى البئر كيلا تختلط بأغنامهم مع عدم الفائدة في التقدّم.

﴿قَالَ﴾ عليه السلام لهما حين رآهما على ما هما عليه مِن التأخّر والذَّود: ﴿مَا خَطْبُكُمَا﴾ ما شأنُكما فيما أنتما عليه مِن التأخّر والذَّود؟ ولِمَ لا تباشرانِ السقي كدَأب هؤلاء؟ ﴿قَالَتَا / لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ﴾ أي: عادتنا أن لا نسقي حتّى يَصرف الرُّعاةُ مواشيَهم بعد رِيّها عن الماء عجزًا عن مُساجَلَتهم، وحذَرًا عن مخالطة الرجال، لا أنّا لا نسقي اليومَ إلى تلك الغاية. [٢٧٥و]

وحُذف مفعول السقي والذود والإصدار لِما أنّ الغرض هو بيان تلك الأفعالِ أنفسِها، إذ هي التي دَعَتْ موسى عليه السلام إلى ما صنع في حقّهما مِن المعروف، فإنّه عليه السلام إنّما رحمهما لكونهما على الذِّياد للعجز والعِفّة، وكونِهم على السقي غيرَ مبالين بهما، وما رحمهما لكون مَذودِهما غنمًا ومَسقيِّهم إبِلًا مثلًا.

وقُرئ: "لَا نُسْقِي"[3] مِن "الإسقاء"، و"يَصْدُرَ"[4] مِن "الصُّدور"، و"الرُّعَاءُ"

---

[1] س: حف.

[2] العَنَزَة -بالتحريك-: أطول مِن العصا، وأقصرُ مِن الرمح. **الصحاح** للجوهري، «عنز».

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة السمان. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٦٦.

[4] قرأ بها ابن عامر وأبو جعفر. **النشر** لابن الجزري، ٢/٣٤١.

بضمّ "الراء"،[١] وهو اسم جمع كـ"الرُّخال"، وأمّا ﴿ٱلرِّعَآءُ﴾ فجمعٌ قياسي كـ"صِيام" و"قِيام".

وقوله تعالى: ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ إبْلاءٌ منهما للعذر إليه عليه السلام في تَوَلّيهما للسقي بأنفسهما، كأنّهما قالتا: إنّا امرأتان ضعيفتان مستورتان، لا نقدر على مُساجَلة الرجال ومزاحمتهم، وما لنا رجل يقوم بذلك، وأبونا شيخ كبير السنّ، قد أضعفه الكِبَر، فلا بدّ لنا مِن تأخير السقي إلى أن يقضي الناس أوطارَهم مِن الماء.

﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾

﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾ رحمةً عليهما، والكلام في حذف مفعوله كما مرّ آنفًا. رُوي أنّ الرُّعاة كانوا يَضَعون على رأس البئر حجَرًا لا يُقِلّه إلّا سبعة رجال، وقيل: عشرة، وقيل: أربعون، وقيل: مائة، فأَقَلَّه وحدَه مع ما كان به مِن الوَصَب[٢] والجراحة والجوع،[٣] ولعلّه عليه السلام زاحَمَهم في السقي لهما، فوضعوا الحجَر على البئر لتعجيزه عليه السلام عن ذلك، فإنّ الظاهر أنّه عليه السلام غِبَّما شاهد حالهما سارع إلى السقي لهما، وقد رُوي أنّه دفعهم عن الماء إلى أن سقى لهما.[٤] وقيل: كانت هناك بئر أخرى عليها الصخرة المذكورة.[٥]

ورُوي أنّه عليه السلام سألهم دلوًا مِن ماء، فأعطَوْه دَلوَهم، وقالوا: استَقِ بها، وكان لا ينزعها إلّا أربعون، فاستقى بها وصبّها في الحوض ودعا بالبركة، ورَوّى غنمهما وأصدَرهما.[٦]

/ ﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ﴾ الذي كان هناك، ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ﴾ أي: أيّ شيء أنزلته إليّ ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾ جَلَّ أو قَلَّ. وحمَله الأكثرون على الطعام بمعونة المَقام. [٢٧٥ظ]

---

١ قراءة شاذّة، غير منسوبة. انظر: **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٦٦.

٢ الوَصَبُ: المرض. **الصحاح** للجوهري، «وصب».

٣ **الكشّاف** للزمخشري، ٤٠١/٣؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١٧٥/٤.

٤ **الكشّاف** للزمخشري، ٤٠١/٣؛ **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٢٩٧/٨.

٥ **الكشّاف** للزمخشري، ٤٠١/٣؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١٧٥/٤.

٦ **الكشّاف** للزمخشري، ٤٠١/٣.

﴿فَقِيرٌ﴾ أي: محتاج. ولتضمّنه معنى السؤال والطلب جيء بلام الدِّعامة؛ لتقوية العمل. وقيل: المعنى: لِما أنزلتَ إليّ مِن خير عظيمٍ هو خير الدارين صِرتُ فقيرًا في الدنيا؛ لأنّه كان في سَعة مِن العيش عند فرعون، قاله عليه السلام إظهارًا للتبجّح[1] والشكر على ذلك.

﴿فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ قَالَتۡ إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَاۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٥﴾

﴿فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا﴾ قيل: هي كُبراهما، واسمها صَفوراء، أو صَفراء، وقيل: صُغراهما، واسمها صُفيراء، أي: جاءته عَقيب ما رجعتا إلى أبيهما. رُوي أنّهما لمّا رجعتا إلى أبيهما قبل الناس، وأغنامُهما حُفَّلٌ بِطان، قال لهما: «ما أعجلَكما؟» قالتا: «وجدنا رجلًا صالحًا رَحِمَنا فسَقى لنا»، فقال لإحداهما: «اذهبي فادْعيهِ لي».[2]

وقوله تعالى: ﴿تَمۡشِي﴾ حال مِن فاعل ﴿جَآءَتۡ﴾. وقوله تعالى: ﴿عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ﴾ متعلّق بمحذوف هو حال مِن ضمير ﴿تَمۡشِي﴾، أي: جاءته تمشي كائنةً على استحياء، فمعناه: أنّها كانت على استحياء حالتَي المشي والمجيء معًا، لا عند المجيء فقط. وتنكير ﴿ٱسۡتِحۡيَآءٖ﴾ للتفخيم. قيل: جاءته مُتَخَفِرةً، أي: شديدةَ الحياء. وقيل: قد استَتَرَتْ بِكُمّ دِرعها.

﴿قَالَتۡ﴾ استئناف مبنيّ على سؤال نشأ مِن حكاية مجيئها إيّاه عليه السلام، كأنّه قيل: فماذا قالت له عليه السلام؟ فقيل: قالت: ﴿إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَا﴾ أي: جزاءَ سقيكَ لنا. أسندَت الدعوة إلى أبيها، وعلّلتها بالجزاء لئلّا يوهِم كلامها ريبةً. وفيه مِن الدلالة على كمال العقل والحياء والعفّة ما لا يخفى.

رُوي أنّه عليه السلام أجابها، فانطلقا وهي أمامَه، فألزقت الريحُ ثوبها بجسدها فوَصفَتْه، فقال لها: «امشي خَلفِي، وانْعَتِي لي الطريق»، ففعلَتْ حتّى أتيا دار شعيب عليهما السلام.[3]

---

[1] التبجّح: الفرح. انظر: لسان العرب لابن منظور، «بجح».

[2] الكشف والبيان للثعلبي، ٢٤٤/٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٠٢/٣.

[3] الكشف والبيان للثعلبي، ٢٤٥/٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٠٢/٣.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ﴾ أي: ما جرى عليه، مِن "الخبر المقصوص"، فإنّه مصدر سمّي به المفعول كـ"العَلَلِ".[1]

﴿قَالَ لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ / الذي يلوح مِن ظاهر النظم الكريم [٢٧٦و] أنّ موسى عليه السلام إنّما أجاب المستدعيةَ مِن غير تَلَعْثُم ليتبرّك برؤية شعيب عليه السلام، ويستظهرَ برأيه، لا ليأخذ بمعروفه أجرًا حسبما صرّحت به. ألا يُرى إلى ما رُوي أنّ شعيبًا لمّا قَدّم إليه طعامًا قال: «إنّا أهلُ بيت لا نبيع ديننا بطِلاع الأرض ذهَبًا، ولا نأخذ على المعروف ثمنًا»، ولم يتناول حتّى قال شعيب عليهما السلام: «هذه عادَتُنا مع كلّ مَن ينزل بنا»،[2] فتناول بعد ذلك على سبيل التقبّل لمعروف مبتَدأ، كيف لا، وقد قَصّ عليه قَصَصه، وعرّفه أنّه مِن بيت النبوّة مِن أولاد يعقوب عليهم السلام، ومثله حقيق بأن يُضَيِّف ويُكرِّم، لا سيّما في دار نبيّ مِن أنبياء الله تعالى عليهم الصلاة والسلام.[3]

وقيل: ليس بمُستنكَر منه عليه السلام أن يقبل الأجرَ لاضطرار الفقر والفاقة. وقد رُوي عن عطاء بن السائب[4] أنّه عليه السلام رفع صوته بدعائه لِيُسمِعَها،[5] ولذلك قيل له: ﴿لِيَجۡزِيَكَ﴾... إلخ، ولعلّه عليه السلام إنّما فعله ليكون ذريعةً إلى استدعائه، لا إلى استيفاء الأجر.

﴿قَالَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ ۝٢٦﴾

﴿قَالَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا﴾ وهي التي استدعَتْه إلى أبيها، وهي التي زوّجها مِن موسى عليهما السلام: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُ﴾ أي: لرَعي الغنم، والقيام بأمرها،

---

١ وفي هامش م: وهو الشرب الثاني، سمّى به ما يُعَلّ به. «منه».

٢ الكشّاف للزمخشري، ٤٠٢/٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٧٥/٤.

٣ ط س: عليهم السلام.

٤ هو عطاء بن السائب الثقفي مولاهم، الكوفي، أبو السائب، وقيل: أبو زيد (ت. ١٣٦هـ/٦٥٦م)، الإمام، الحافظ، محدّث الكوفة. رَوى عن أبيه السائب بن زيد، وعن أنس بن مالك، وعن عبد الله بن أبي أوفى، وخلق كثير. قال أحمد بن حنبل: «عطاء ثقة ثقة، رجل صالح». وقال: «مَن سمع منه قديمًا كان صحيحًا، ومَن سمع منه حديثًا لم يكن بشيء». انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، ١١١/٦.

٥ الكشّاف للزمخشري، ٤٠٢/٣. ونحوه في جامع البيان للطبري، ٢١٧/١٨.

﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ تعليل جارٍ مَجرى الدليل على أنّه حقيق بالاستئجار، وللمبالغة في ذلك جُعِل ﴿خَيْرَ﴾ اسمًا لـ﴿إِنَّ﴾، وذُكِر الفعل على صيغة الماضي للدلالة على أنّه أمين مجرَّب.

رُوي أنّ شعيبًا عليه السلام قال لها: «وما أَعلَمَكِ بقوّته وأمانته؟»، فذكرَتْ ما شاهدَتْ منه عليه السلام مِن إقلال الحجَر، ونزعِ الدلْو، وأنّه صوَّبَ رأسه حتّى بلَّغَتْه رسالته، وأَمَرَها بالمشي خلفَه.[1]

﴿قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَـٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَـٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾

[٢٧٦ظ] ﴿قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَـٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى﴾ / أي: تكونَ أَجِيرًا لي، أو تُثِيبَني، مِن "أَجَرتُه كذا" إذا أثبتَه إيّاه. فقوله تعالى: ﴿ثَمَـٰنِىَ حِجَجٍ﴾ على الأوّل ظرف، وعلى الثاني مفعول به على تقدير مضاف، أي: رِعْيَةَ ثماني حِجج.

ونُقل عن المبرّد: أنّه يقال: "أَجَرْتُ داري ومَملوكي" غيرَ ممدود، و"آجَرْتُ" ممدودًا،[2] والأوّل أكثر. فعلى هذا يكون المفعول الثاني محذوفًا، والمعنى: على أن تأجرني نفسَك. وقوله تعالى: ﴿ثَمَـٰنِىَ حِجَجٍ﴾ ظرف كالوجه الأوّل.

﴿فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا﴾[3] في الخدمة والعمل ﴿فَمِنْ عِندِكَ﴾ أي: فهو مِن عندك بطريق التفضّل، لا مِن عندي بطريق الإلزام عليك. وهذا مِن شعيب[4] عرضٌ لرأيه على موسى عليهما السلام، واستدعاء منه للعقد، لا إنشاءٌ وتحقيق له بالفعل.

﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ﴾ بإلزام إتمام العشر، أو المناقشة في مراعاة الأوقات واستيفاء الأعمال. واشتقاق "المَشقّة" مِن "الشَّقّ"، فإنّ ما يصعب عليك يشُقّ عليك اعتقادك في إطاقته، ويوزّع رأيك في مُزاولته.

---

١ الكشّاف للزمخشري، ٤٠٣/٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٧٥/٤.

٢ تحرير ألفاظ التنبيه للنووي، ص ٢١٩.

٣ س: عشر.

٤ س + عليه السلام.

﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ في حُسن المعاملة، ولينِ الجانب، والوفاءِ بالعهد. ومراده عليه السلام بالاستثناء التبرّكُ به، وتفويضُ أمره إلى توفيقه تعالى، لا تعليقُ صلاحه بمشيئته تعالى.

﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَۖ أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ٢٨﴾

﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ﴾ مبتدأ وخبر، أي: ذلك الذي قلتَه وعاهدتني فيه وشارطتَني عليه قائمٌ وثابتٌ بيننا جميعًا، لا يخرج عنه واحد منّا، لا أنا عمّا شَرطتَ عليّ، ولا أنت عمّا شَرطتَ على نفسك.

وقوله تعالى: ﴿أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ﴾ أي: أكثرَهما، أو أقصرَهما ﴿قَضَيۡتُ﴾ أي: وَفَّيْتُكَهُ بأداء الخدمة فيه ﴿فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّ﴾ تصريح بالمراد، وتقريرٌ لِأمرِ الخِيَرة، أي: لا عدوانَ عليّ بطلب الزيادة على ما قضيتُه مِن الأجلَين.

وتعميم انتفاء العدوان لكِلا الأجلَين بصَدَد المشارطة مع عدم تحقّق العدوان في أكثرهما رأسًا للقصد إلى التسوية بينهما في الانتفاء، أي: كما لا أُطالَب بالزيادة على العشر، لا أُطالَب بالزيادة على الثماني، أو أيّما الأجلَينِ قضيتُ فلا إثمَ عليّ،[1] يعني كما لا إثمَ عليّ في قضاء الأكثر، لا إثمَ عليّ في قضاء الأقصَر فقط.

[٢٧٧و] / وقُرئ: "أَيَّ الْأَجَلَيْنِ مَا قَضَيْتُ"،[2] فـ"مَا" مزيدة لتأكيد القضاء، كما أنّها في القراءة الأُولى مزيدة لتأكيد إبهامِ "أيِّ" وشياعِها.

وقُرئ: "أَيْمَا" بسكون الياء،[3] كقول مَن قال:

تنظَّرتُ نصرًا والسِّماكَين أيْهُمَا علَيّ مِن الغيثِ اسْتَهلَّت مَواطِرُهْ[4]

---

[1] س – عليّ.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. **الكشّاف** للزمخشري، ٣/٤٠٦؛ **البحر المحيط** لأبي حيان، ٨/٣٠٠.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٦٧.

[4] للفرزدق في **ديوانه**، ١/٤٦٢. "تَنظَّرت": انتظرت في مُهلة. و"نَصر": اسم رجل. و"السِّماكين": كوكبان، يقال لأحدهما: الأعزَل، وهو مِن منازل القمر، ويقال للآخر: السِّماك الرامح، وليس مِن المنازل. و"أَيْهُما": مخفَّف "أيّهُما"، وهو محلّ الاستشهاد. و"استَهلَّت": صبَّت. | و"المَواطر": جمع ماطِرة، صفةٌ للسحائب، أي: صبَّت سحائبه المَواطر. **شرح شواهد المغني** للسيوطي، ١/٢٣٦.

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ﴾ مِن الشروط الجارية بيننا ﴿وَكِيلٌ﴾ شاهد وحفيظ، فلا سبيلَ لأحدٍ منّا إلى الخروج عنه أصلًا. وليس ما حُكي عنهما عليهما السلام تمامَ ما جرى بينهما مِن الكلام في إنشاء عقد النكاح وعقد الإجارة وإيقاعِهما؛[١] بل هو بيان لِما عزَما عليه واتّفقا على إيقاعه حسبما يتوقّف عليه مَساق القصّة إجمالًا مِن غير تعرّض لبيان مواجب العقدين في تلك الشريعة تفصيلًا.

رُوي أنّهما لمّا أتمّا العقد قال شعيب لموسى عليهما السلام: «ادخُل ذلك البيت، فخذ عصًا مِن تلك العِصِيّ»، وكانت عنده عِصيّ الأنبياء عليهم السلام، فأخذَ عصًا هبط بها آدم عليه السلام مِن الجنّة، ولم يزَل الأنبياء يتوارثونها حتّى وقعت إلى شعيب عليه السلام، فمسّها وكان مكفوفًا، فضَنَّ[٢] بها، فقال: «غيرَها»،[٣] فما وقع في يده إلّا هي سبعَ مرّات، فعَلِم أنّ له شأنًا.[٤]

وقيل: أخذها جبريل عليه السلام بعد موت آدم عليه السلام، فكانت معه حتّى لقي بها موسى ليلًا.[٥]

وقيل: أودعها شعيبًا مَلَكٌ في صورة رجل، فأمر بنته أن تأتيه بعصًا، فأتَتْه بها، فردّها سبع مرّات، فلم يقع في يدها غيرُها، فدفعها إليه، ثمّ ندِم؛ لأنّها وديعة، فتَبِعه فاختصما فيها، ورضيا أن يَحكم بينهما أوّلُ طالع، فأتاهما المَلَك فقال: / «ألقِياها، فمَن رفعها فهي له»، فعالجها الشيخ فلم يُطِقها، ورفعها موسى عليهما السلام.[٦] [٢٧٧ظ]

وعن الحسَن رحمه الله:[٧] «ما كانت إلّا عصًا مِن الشجر اعترَضها اعتراضًا».[٨] وعن الكلبي رحمه الله: «الشجرة التي منها نودي شجرة العوسَج، ومنها كانت عصاه».[٩]

---

١ ط س م - وإيقاعِهما. ["صح" في هامش م].

٢ وفي هامش م: أي: بَخِل بها. «منه».

٣ وفي هامش م: أي: خُذ غيرها. «منه».

٤ **الكشّاف** للزمخشري، ٤٠٦/٣. ونحوه في **جامع البيان** للطبري، ٢٣٣/١٨.

٥ **الكشف والبيان** للثعلبي، ٢٤٥/٧؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٤٠٦/٣.

٦ ط س: عليه السلام. | **الكشف والبيان** للثعلبي، ٢٤٥/٧؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٤٠٦/٣.

٧ ط س: رضي الله عنه.

٨ **الكشّاف** للزمخشري، ٤٠٦/٣؛ **تفسير الرازي**، ٥٩٥/٢٤. قال الرازي: «أي: أخذَها مِن عرض الشجر، يقال: "اعتَرَض" إذا لم يتخيّر».

٩ **التفسير البسيط** للواحدي، ٣٨٤/١٧؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٤٠٦/٣.

ولمّا أصبح قال له شعيب صلوات الله عليهما: «إذا بلغتَ مَفرِق الطريق فلا تأخذ على يمينك، فإنّ الكلأ وإن كان بها أكثر إلّا أنّ فيها تِنّينًا أخشاه عليك وعلى الغنم»، فأخذت الغنم ذات اليمين، ولم يقدر على كفّها، ومشى على أثرها، فإذا عُشب وريف لم يُرَ مثله، فنام فإذا بالتنّين قد أقبل، فحارَبَتْه العصا حتّى قتَلَتْه، وعادت إلى جنب موسى عليه السلام داميةً، فلمّا أبصرها داميةً والتنّينَ مقتولًا ارتاح لذلك، ولمّا رجع إلى شعيب عليه السلام مسّ الغنمَ فوجدها مَلأى البطون، غزيرةَ اللبن، فأخبره موسى عليهما السلام بالشأن، ففرِح وعلِم أنّ لموسى والعصا شأنًا، وقال له: «إنّي وهبت لك مِن نِتاج غنمي هذا العامَ كلَّ أَدْرَع ودَرْعاء»،[١] فأُوحي إليه في المنام: أنِ اضرب بعصاك مستقى الغنم، ففعل، ثمّ سقى، فما أخطأَتْ واحدة إلّا وضَعَتْ أَدْرَعَ ودَرْعاء، فوفّى له بشرطه.[٢]

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًاۖ قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۝٢٩﴾

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ﴾ فصيحة، أي: فعقَدَ العقدين، وباشرَ موسى ما التزمه، فلمّا أتمّ الأجل ﴿وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ﴾ نحو مِصر بإذنٍ مِن شعيب عليهما السلام.[٣] رُوي أنّه عليه السلام قضى أبعدَ الأجلَين، ومكَثَ عنده بعد ذلك عشر سنين، ثمّ عزم على العود إلى مِصر، فاستأذنه في ذلك فأذِن له، فخرج بأهله.

/ ﴿ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ﴾ أي: أبصرَ مِن الجهة التي تلي الطور ﴿نَارًاۖ قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ أي: بخَبرِ الطريق، وقد كانوا ضلّوه، ﴿أَوْ جَذْوَةٍ﴾ أي: عُود غليظ، سواء كانت في رأسه نارٌ أو لا، قال قائلهم: [٢٧٨و]

باتَت حَواطب ليلى يلتمِسْن لها جزل الجِذَى غيرَ خَوّارٍ ولا دَعِرِ[٤]

---

[١] الأَدْرَعُ مِن الخيل والشاء: ما اسودَّ رأسه وابيضَّ سائره، والأنثى درعاء. **الصحاح** للجوهري، «درع».

[٢] **الكشف والبيان** للثعلبي، ٢٤٦/٧؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٤٠٧/٣.

[٣] س: عليه السلام.

[٤] لابن مُقبِل في ديوانه، ص ٨٠. "الحَواطِب": الجواري اللّاتي يطلُبنَ الحطَب. و"الجَزل": الحطَب اليابس العظيم، و"الخَوّار": الضعيف، يقال: "رُمحٌ خَوّار"، و"رَجلٌ خَوّار". و"الدعَر": مصدرُ دَعَرَ دَعَرًا؛ فهو عودٌ دَعِر: رديءٌ كثيرُ الدخان. **فتوح الغيب** للطيبي، ٤٧/١٢.

وقال:

وألقى على قَبسٍ مِن النار جَذوة شديدًا عليها حرّها والتهابها[١]

ولذلك بيّن بقوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلنَّارِ﴾. وقُرئ بكسر الجيم[٢] وبضمّها،[٣] وكلُّها لغات. ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ أي: تستدفِئون.

﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِىِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٣٠﴾

﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا﴾ أي: النارَ التي آنَسها ﴿نُودِىَ مِن شَٰطِىِٕ ٱلْوَادِ[٤] ٱلْأَيْمَنِ﴾ أي: أتاه النداء مِن الشاطئ الأيمن بالنسبة إلى موسى عليه السلام، ﴿فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ﴾ متّصل بـ"الشاطئ"، أو صلة لـ﴿نُودِىَ﴾. ﴿مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ بدل اشتمال مِن ﴿شَٰطِىِٕ﴾؛ لأنّها كانت نابتة على الشاطئ. ﴿أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وهذا وإن خالَف لفظًا لِما في طه[٥] والنمل[٦] لكنه موافق له في المعنى المراد.

﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ۝٣١﴾

﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ عطفٌ على ﴿أَن يَٰمُوسَىٰ﴾،[٧] وكلاهما مفسِّر لـ﴿نُودِىَ﴾.[٨] و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ﴾ فصيحة مفصِحة عن جُمَل قد حُذفت تعويلًا على دلالة الحال عليها، وإشعارًا بغاية سرعة تحقّق مدلولاتها، أي: فألقاها فصارت ثعبانًا فاهتزّت، فلمّا رَآها تهتزّ ﴿كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ أي: في سرعة الحركة مع غاية عِظَم جُثّتها ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا﴾ أي: منهزِمًا مِن الخوف ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾

---

١ بغير نسبة في الكشّاف للزمخشري، ٤٠٨/٣؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١٧٦/٤. و"الجَذْوة": القَبْسة مِن النار، والمراد بها النميمة؛ أي: ألقى على قبسٍ جَذوة مِن النميمة اشتدّ عليه حرُّها والتهابُها؛ لأنّها هَيّجَت نار العداوة والفتنة بين القوم. فتوح الغيب للطيبي، ٤٧/١٢.

٢ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر والكسائي. النشر لابن الجزري، ٣٤١/٢.

٣ قرأ بها حمزة وخلف. النشر لابن الجزري، ٣٤١/٢.

٤ م ط س: الوادي.

٥ طه، ١١/٢٠-١٢.

٦ النمل، ٩/٢٧.

٧ في الآية السابقة.

٨ في الآية السابقة.

أي: لم يرجع. ﴿يَـٰمُوسَىٰٓ﴾ أي: قيل: يا موسى ﴿أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْـَٔامِنِينَ﴾ عن المخاوف، فإنّه لا يخاف لديّ المرسلون.

﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ فَذَٰنِكَ بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾

﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ﴾ أي: أَدخِلها فيه ﴿تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ أي: عيب، / ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ﴾ أي: يديكَ المبسوطتين لتتّقي بهما الحيّة كالخائف الفَزِع، بإدخال اليمنى تحت العَضُد الأيسر، واليسرى تحت الأيمن، أو بإدخالهما في الجَيب، فيكون تكريرًا لِغرضٍ آخر، هو أن يكون ذلك في وجه العدوّ إظهارَ جرأة، ومبدأً لِظهور معجزة. [٢٧٨ظ]

ويجوز أن يُراد بالضمّ التجلّد والثبات عند انقلاب العصا ثعبانًا، استعارةً مِن حال الطائر، فإنّه إذا خاف نشَرَ جناحَيه، وإذا أَمِن واطمأنّ ضمّهما إليه.

﴿مِنَ ٱلرَّهْبِ﴾ أي: مِن أجل الرهب، أي: إذا عراك الخوف فافعل ذلك تجلّدًا وضبطًا لنفسك. وقُرئ بضمّ "الراء" وسكون "الهاء"،[١] وبضمّهما،[٢] والكلُّ لغات.

﴿فَذَٰنِكَ﴾ إشارة إلى العصا واليد. وقُرئ بتشديد "النون"،[٣] فالمخفَّف مثنّى "ذاك"، والمشدّد مثنّى "ذلك". ﴿بُرْهَـٰنَانِ﴾ حُجّتان نيّرتان. و"بُرهان" "فُعلان"، لقولهم: "أَبْرَهَ الرجلُ" إذا جاء بالبرهان، مِن قولهم: "بَرِهَ الرجلُ" إذا ابيضَّ، ويقال للمرأة البيضاء: "بَرْهاء"، و"بَرَهْرَهة"، ونظيرُه تسمية الحُجّة "سلطانًا" مِن "السَّلِيط"، وهو الزيت، لإنارتها. وقيل: هو "فُعلال"، لِقولهم: "بَرْهَنَ".

و﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ متعلّقة بمحذوف هو صفة لـ﴿بُرْهَـٰنَانِ﴾، أي: كائنان منه تعالى ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ﴾ واصِلان ومنتهيان إليهم.

---

١ قرأ بها ابن عامر وحمزة والكسائي وخلف وشعبة عن عاصم. وقرأ نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب: "الرَهَب" بفتح الراء والهاء. النشر لابن الجزري، ٣٤١/٢.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن والمفضّل والجحدري وابن عبيد وقتادة وعيسى البصرة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٦٧.

٣ قرأ بها ابن كثير. النشر لابن الجزري، ٢٤٨/٢.

﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ خارجين عن حدود الظلم والعدوان، فكانوا أحِقّاءَ بأن نُرسلك إليهم بهاتين المعجزتَين الباهِرتين.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ۝٣٣ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ۝٣٤﴾

[٢٧٩و] ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا / فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ بمقابَلتها.

﴿وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا﴾ أي: مُعِينًا، وهو في الأصل اسم ما يُعان به، كـ"الدِّفْء". وقُرِئَ: "رِدًا" بالتخفيف.[١] ﴿يُصَدِّقُنِي﴾ بتلخيص الحقّ، وتقرير الحُجّة، بتوضيحها وتزييف الشبهة. ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ ولساني لا يطاوِعني عند المُحاجّة. وقيل: المراد تصديق القوم لتقريره وتوضيحه، لكنّه أُسنِد إليه إسنادَ الفعل إلى السبب. وقُرِئَ: "يُصَدِّقْنِي" بالجزم[٢] على أنّه جواب الأمر.

﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ۝٣٥﴾

﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ أي: سنُقوّيك به، فإنّ قوّة الشخص بشِدّة اليد على مزاولة الأمور، ولذلك يعبّر عنه باليد، وشدّتِها بشِدّة العَضُد.

﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا﴾ أي: تسلّطًا وغلبةً. وقيل: حُجّة،[٣] وليس بذاك. ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ باستيلاءٍ، أو مُحاجّةٍ ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ متعلّق بمحذوف قد صُرّح به في مواضع أُخَر، أي: اذهبا بآياتنا، أو بـ﴿نَجْعَلُ﴾، أي: نسلّطكما بآياتنا، أو بمعنى ﴿لَا يَصِلُونَ﴾، أي: تمتنعون منهم بها. وقيل: هو قسَم، وجوابه ﴿لَا يَصِلُونَ﴾. وقيل: هو بيان لـ﴿ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ بمعنى أنّه صلة لِما يُبيّنه، أو صلة له على أنّ "اللام" للتعريف، لا بمعنى "الذي".

---

[١] قرأ بها نافع وأبو جعفر، إلّا أنّ أبا جعفر أبدل مِن التنوين ألفًا في الحالين، ووافقه نافع في الوقف. النشر لابن الجزري، ٤١٤/١.

[٢] قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٣٤١/٢.

[٣] انظر: الكشّاف للزمخشري، ٤١٠/٣؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١٧٧/٤.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّفۡتَرٗى وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ ٣٦﴾

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ أي: واضحاتِ الدلالة على صحّة رسالة موسى عليه السلام منه تعالى. والمراد بها العصا واليد؛ إذ هما اللّتان أظهرهما موسى عليه السلام إذ ذاك. / والتعبير عنهما بصيغة الجمع قد مرّ سرّه في سورة طه.[1] [٢٧٩ظ]

﴿قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّفۡتَرٗى﴾ أي: سِحرٌ مُختَلَق لم يُفعل قبلَ هذا مثله، أو سِحرٌ تعمله ثمّ تفتريه على الله تعالى، أو سِحرٌ موصوف بالافتراء كسائر أصناف السحر. ﴿وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا﴾ أي: السحر، أو ادّعاء النبوّة ﴿فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ أي: واقعًا في أيّامهم.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٣٧﴾

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ﴾ يريد به نفسه. وقُرئ: "قَالَ" بغير "واو"؛[2] لأنّه جواب عن مَقالهم. ووجه العطف أنّ المراد حكاية القولين ليوازن السامع بينهما فيميّز صحيحَهما مِن الفاسد.

﴿وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ أي: العاقبة المحمودة في الدار، وهي الدنيا، وعاقبتها الأصليّة هي الجنّة؛ لأنّها خلقت مَجازًا إلى الآخرة، ومزرعةً لها، والمقصودُ بالذات منها الثواب، وأمّا العقاب فمِن نتائج أعمال العصاة وسيّئات الغُواة. وقُرئ: "يَكُونُ" بالياء التحتانيّة.[3]

﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي: لا يفوزون بمطلوب، ولا ينجُون عن محذور.

﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٣٨﴾

---

١ طه، ٤٢/٢٠.

٢ قرأ بها ابن كثير، وكذلك هي في مصحف أهل مكّة. النشر لابن الجزري، ٣٤١/٢.

٣ قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢٦٣/٢.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ قاله اللعين بعدما جَمع السحرة وتصدّى للمعارضة، فكان مِن أمرهم ما كان. ﴿فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾ أي: اصنع آجُرًا ﴿فَٱجْعَل لِّى﴾ منه ﴿صَرْحًا﴾ أي: قصرًا رفيعًا ﴿لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ كأنّه توهّم أنّه لو كان لكان جسمًا في السماء يمكن الرُقِيّ إليه. ثمّ قال: ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾، / أو أراد أن يبني له رَصَدًا يترصّد منه أوضاع [٢٨٠و] الكواكب، فيرى هل فيها ما يدلّ على بعثة رسولٍ وتبدّل دولةٍ.

وقيل: المراد بنفي العلم نفيُ المعلوم، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى[1] ٱلْأَرْضِ﴾[2] [يونس، ١٠/١٨]، فإنّ معناه: بما ليس فيهنّ، وهذا مِن خواصّ العلوم الفعليّة، فإنّها لازمة لتحقّق معلوماتها، فيلزم مِن انتفائها انتفاءُ معلوماتها، ولا كذلك العلوم الانفعاليّة.

قيل: أوّل مَن اتّخذ الآجُرّ فرعونُ، ولذلك أمرَ باتّخاذه على وجه يتضمّن تعليم الصنعة، مع ما فيه مِن تَعَظّم، ولذلك نادى هامانَ باسمه بـ"يا" في وسط الكلام.

﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾﴾

﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أرضِ مصرَ ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ بغيرِ استحقاقٍ، ﴿وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ بالبعث للجزاء. وقُرئ بفتح "الياء" وكسر "الجيم"،[3] مِن "رَجَع رُجوعًا"، والأوّل مِن "رَجَعَ رَجْعًا"، وهو الأنسب بالمقام.

﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾

﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ﴾ عَقيبَ ما بلغوا مِن الكفر والعتوّ أقصى الغايات، ﴿فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾ قد مرّ تفصيله. وفيه مِن تفخيم شأن الأخذ وتهويلِه واستحقارِ المأخوذين المَنبوذين ما لا يخفى، كأنّه تعالى أخذهم مع كثرتهم في كفٍّ

---

[1] م ط س – ولا في.
[2] م ط س: والأرض.
[3] قرأ بها نافع وحمزة والكسائي وخلف ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٢٠٩.

وطرَحهم في البحر. ونظيرُه قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر، ٦٧/٣٩].

﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وبَيِّنْها للناس ليعتبروا بها.

﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾﴾

﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ﴾ أي: صيّرناهم في عهدهم ﴿أَئِمَّةً يَدْعُونَ﴾ الناسَ ﴿إِلَى ٱلنَّارِ﴾ إلى ما يؤدّي إليها مِن الكفر والمعاصي، أي: قدوةً يقتدي بهم أهل الضلال، لِما صَرفوا اختيارَهم إلى تحصيل تلك الحالة. وقيل: سمَّيناهم أئمّةً دعاةً إلى النار، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا﴾ [الزخرف، ١٩/٤٣]، فالأنسب حينئذ أن يكون الجَعلُ بَعدَهم فيما بين الأمم، ويكون الدعوة إلى نفس النار. وقيل: معنى الجَعل منعُ الألطاف الصارفة عن ذلك. ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ بدفع العذاب عنهم بوجه مِن الوجوه.

﴿وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾﴾

﴿وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ طَردًا وإبعادًا مِن الرحمة، ولعنًا مِن اللاعنين، حيث لا يزال يلعنُهم الملائكة عليهم السلام والمؤمنون خلَفًا عن سلَفٍ.

/ ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾ مِن المطرودين المُبعَدين. وقيل: مِن الموسومين بعلامةٍ مُنكَرة، كزُرقة العيون، وسوادِ الوجه، قالَه ابن عبّاس.[1] يقال: "قبَحه الله وقبّحه" إذا جعله قبيحًا. وقال أبو عبيدة:[2] «﴿مِنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾ مِن المُهلَكين».[3] و﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ إمّا متعلّق بـ﴿ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾ على أنّ "اللام" للتعريف، لا بمعنى "الذي"، أو بمحذوف يفسّره ذلك، كأنّه قيل: وقبّحوا يوم القيامة، نحو: ﴿لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ﴾ [الشعراء، ١٦٨/٢٦]. [٢٨٠ظ]

---

١ ط س + رضي الله عنهما. | الكشف والبيان للثعلبي، ٢٥١/٧؛ اللباب لابن عادل، ٢٦٢/١٥.

٢ م: وقيل ["صح" في هامش م].

٣ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٥١/٧؛ اللباب لابن عادل، ٢٦٢/١٥.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾﴾

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: التوراة ﴿مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾ هم أقوام نوح وهود وصالح ولوط عليهم السلام. والتعرّض لبيان كون إيتائها بعد إهلاكهم للإشعار بمساس الحاجة الداعية إليه تمهيدًا لِما يعقُبه مِن بيان الحاجة الداعية إلى إنزال القرآن الكريم على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فإنّ إهلاك القرون الأولى مِن موجِبات اندراس مَعالم الشرائع وانطماس آثارها وأحكامها المؤدّيَين إلى اختلال نظام العالَم وفساد أحوال الأمم المستدعيَين للتشريع الجديد، بتقرير الأصول الباقية على مرّ الدهور، وترتيبِ الفروع المتبدّلة بتبدّل العصور، وتذكيرِ أحوال الأمم الخالية الموجِبة للاعتبار، كأنّه قيل: ولقد آتينا موسى التوراة على حين حاجةٍ إلى إيتائها.

﴿بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ﴾ أي: أنوارًا لِقلوبهم تُبصِر بها الحقائق، وتُمَيِّز بين الحقّ والباطل، حيث كانت عُميًا عن الفهم والإدارك بالكلّيّة، فإنّ البصيرة نور القلب الذي به يَستبصر، كما أنّ البصر نور العين الذي به تُبصِر.

﴿وَهُدًى﴾ أي: هدايةً إلى الشرائع والأحكام التي هي سبُل الله تعالى ﴿وَرَحْمَةً﴾ حيث ينال مَن عمِل به رحمةَ الله تعالى. وانتصاب الكلّ على الحاليّة مِن الكتاب على أنّه نفس البصائر والهدى والرحمة، أو على حذف المضاف، أي: ذا بصائر... إلخ. وقيل: على العلّة، أي: آتيناه الكتاب للبصائر والهدى والرحمة. ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ليكونوا على حالٍ يُرجى منهم التذكّر، وقد مرّ تحقيق القول في ذلك عند قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ مِن سورة البقرةِ [البقرة، ٢/٢١].

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ﴾ شروع في بيان أنّ إنزال القرآن الكريم أيضًا واقع في زمان شدّة مَساس الحاجة إليه، واقتضاءِ الحكمة له البتّة، وقد صُدِّر بتحقيق كونِه وحيًا صادقًا مِن عند الله عزّ وجلّ ببيان أنّ الوقوف على ما فصّل مِن الأحوال لا يتسنّى إلّا بالمشاهدة، أو التعلّمِ ممّن شاهدها،

وحيث انتفى كلاهما تبيّن أنّه بوحيٍ مِن علّام الغيوب لا محالةَ، على طريقة قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَـٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ الآية [آل عمران، ٤٤/٣]، أي: وما كنت بجانب الجبل الغربي أو المكان الغربي الذي وقع فيه[١] الميقات، / على حذف الموصوف وإقامة الصفة مُقامه، أو الجانب الغربي على إضافة الموصوف إلى الصفة، كـ"مَسْجِدِ الجامِعِ". [٢٨١و]

﴿إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾ أي: عَهِدنا إليه، وأحكَمْنا أمرَ نبوّته بالوحي وإيتاء التوراة، ﴿وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ﴾ أي: مِن جملة الشاهدين للوحي، وهم السبعون المختارون للميقات، حتّى تشاهد ما جرى مِن أمر موسى في ميقاته وكَتبة التوراة له في الألواح، فتخبره للناسِ.

﴿وَلَـٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا وَلَـٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾﴾

﴿وَلَـٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا﴾ أي: ولكنّا خَلقنا بين زمانك وزمان موسى قرونًا كثيرة، ﴿فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ﴾ وتَمادَى الأمَدُ فتغيّرت الشرائع والأحكام، وعَمِيت عليهم الأنباء لا سيّما على آخرهم، فاقتضى الحالُ التشريع الجديد، فأوحينا إليك. فحُذف المستدرَك اكتفاءً بذكر ما يوجبه ويدلّ عليه.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ نفيٌ لاحتمال كون معرفته عليه السلام للقصّة بالسماع ممّن شاهَدها، أي: وما كنتَ مُقيمًا في أهل مدين مِن شعيب والمؤمنين به.

وقوله تعالى: ﴿تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ﴾ أي: تقرأ على أهل مدين بطريق التعلّم منهم ﴿ءَايَـٰتِنَا﴾ الناطقةَ بالقصّة؛ إمّا حال مِن المستكِنّ في ﴿ثَاوِيًا﴾، أو خبر ثان لـ﴿كُنتَ﴾.

﴿وَلَـٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ إيّاك، ومُوحين إليك تلك الآيات ونظائرَها.

---

[١] س - فيه.

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾﴾

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ أي: وقتَ ندائنا موسى: ﴿إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾،[1] واستنبائِنا إيّاه، وإرسالِنا له إلى فرعون، ﴿وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ أي: ولكن أرسلناك بالقرآن الناطق بما ذكر بغيره لرحمةٍ عظيمةٍ كائنة منّا لك وللناس. وقيل: علّمناك. وقيل: عرّفناك ذلك،[2] وليس بذاك كما ستعرفه.

والالتفات إلى اسم الربّ للإشعار بعلّة الرحمة، وتشريفِه عليه السلام بالإضافة، وقد اكتُفِي عن ذكر المستدرَك ههنا بذِكر ما يوجبه مِن جهته تعالى، كما اكتُفِي عنه[3] في الأوّل بذِكر ما يوجبه مِن جهة الناس، وصُرِّح به فيما بينهما تنصيصًا على ما هو المقصود، وإشعارًا بأنّه المراد فيهما أيضًا، ولله درُّ شأن التنزيل.

[٢٨١ظ] وقوله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا﴾ متعلّق بالفعل / المعلَّل بالرحمة، فهو ما ذكرنا مِن إرساله عليه السلام بالقرآن حتمًا، لِما أنّه المعلَّل بالإنذار، لا تعليمُ ما ذُكر. وقُرئ: "رَحْمَةٌ" بالرفع[4] على أنّه خبر مبتدأ محذوف.

وقوله تعالى: ﴿مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ صفة لـ﴿قَوْمًا﴾، أي: لم يأتِهم نذير لوقوعهم في فترة بينكَ وبين عيسى، وهي خمسمائة وخمسون سنةً، أو بينكَ وبين إسماعيل، بناءً على أنّ دعوة موسى وعيسى كانت مختصّة ببني إسرائيل.

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: يتّعظون بإنذارك.

وتغيير الترتيب الوقوعي بين قضاء الأمر والثَّواءِ في أهل مدين والنداءِ للتنبيه على أنّ كلًّا مِن ذلك برهان مستقِلّ على أنّ حكايته عليه السلام للقصّة بطريق الوحي الإلهي، ولو ذُكر أوّلًا نفي ثَوائه عليه السلام في أهل مدين،

---

[1] القصص، ٢٨/٣٠.

[2] انظر: الكشّاف للزمخشري، ٣/٤١٨؛ تفسير الرازي، ٢٤/٦٠٤.

[3] ط س – عنه.

[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى الكوفة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٦٨.

ثمّ نفيُ حضوره عليه السلام عند النداء، ثمّ نفيُ حضوره عند قضاء الأمر، كما هو الموافق للترتيب الوقوعي، لَربّما توهّم أنّ الكلّ دليل واحدٌ على ما ذُكر، كما مرّ في قصّة البقرة.[1]

﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٤٧﴾

﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ﴾ أي: عقوبة ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: بما اقترفوا مِن الكفر والمعاصي ﴿فَيَقُولُواْ﴾ عطفٌ على ﴿تُصِيبَهُم﴾، داخل في حيّز ﴿لَوْلَآ﴾ الامتناعيّة على أنّ مدار انتفاء ما يجاب به هو امتناعه، لا امتناعُ المعطوف عليه، وإنّما ذِكرُه في حيّزها للإيذان بأنّه السبب المُلجئ لهم إلى قولهم: ﴿رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ أي: هلّا أرسلتَ إلينا رسولًا مؤيَّدًا مِن عندك بالآيات، ﴿فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ﴾ الظاهرة على يده، وهو جواب ﴿لَوْلَآ﴾ الثانية.

﴿وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بها. وجواب ﴿لَوْلَآ﴾ الأولى محذوف ثِقةً بدلالة الحال عليه، والمعنى: لولا قولهم هذا عند إصابة عقوبة جناياتهم التي قدّموها ما أرسلناك، لكن لمّا كان قولهم ذلك محقَّقًا لا مَحيدَ عنه أرسلناك قطعًا لمَعاذيرهم بالكلّيّة.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ لَوْلَآ أُوتِيَ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُۖ قَالُواْ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ۝٤٨ قُلْ فَأْتُواْ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٤٩﴾

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ﴾ أي: أهلَ مكّة ﴿ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا﴾ وهو القرآن المنزّل عليه عليه الصلاة والسلام[2] ﴿قَالُواْ﴾ تعنّتًا واقتراحًا: ﴿لَوْلَآ أُوتِيَ﴾ يَعنونه عليه السلام ﴿مِثْلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ﴾ مِن الكتاب المنزّل جملةً. وأمّا اليد والعصا فلا تعلُّق لهما بالمقام كسائر معجزاته عليه السلام.

---

[1] البقرة، ٧٣/٢.

[2] س: عليه السلام.

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ ردٌّ عليهم، وإظهار لكونِ ما قالوه تعنّتًا مَحضًا، لا طلَبًا لِما يرشدهم إلى الحقّ، أي: ألَم يكفروا مِن قبلِ هذا القول بما أوتي موسى مِن الكتاب كما كفروا بهذا الحقّ؟

[٢٨٢و] وقوله تعالى: ﴿قَالُواْ﴾ استئناف مَسوق لتقرير كفرهم المستفادِ / مِن الإنكار السابق وبيانِ كيفيّته. وقوله تعالى: ﴿سِحْرَانِ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، أي: هما -يَعنون: ما أوتي محمّد وما أوتي موسى عليهما السلام- سِحران ﴿تَظَٰهَرَا﴾ أي: تعاونا بتصديق كلّ واحد منهما الآخرَ، وذلك أنّهم بَعثوا رهطًا منهم إلى رؤساء اليهود في عيدٍ لهم، فسألوهم عن شأنه عليه السلام، فقالوا: إنّا نجده في التوراة بنَعته وصفته، فلمّا رجع الرهط وأخبروهم بما قالت اليهود قالوا ذلك.[١]

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلٍّ﴾ أي: بكلّ واحد مِن الكتابَين ﴿كَٰفِرُونَ﴾ تصريح بكفرهم بهما، وتأكيد لكفرهم المفهوم مِن تسميتهما سِحرًا، وذلك لغاية عتوّهم وتماديهم في الكفر والطغيان.

وقُرئ: "سَاحِرَانِ تَظَاهَرَا"،[٢] يعنون موسى ومحمّدًا صلّى الله تعالى[٣] عليهما وسلّم. هذا هو الذي يستدعيه جزالة النظم الجليل، فتأمّل، ودَعْ عنك ما قيل وقيل.

ألا تَرى إلى قوله تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُواْ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ﴾ ممّا أوتياه مِن التوراة والقرآن وسمّيتموهما "سِحرين"؛ فإنّه نصّ فيما ذكر. وقوله تعالى: ﴿أَتَّبِعْهُ﴾ جواب للأمر، أي: إن تأتوا به أتّبِعه. ومثلُ هذا الشرط ممّا يأتي به مَن يُدِلّ بوضوح حجّته، وسُنُوح[٤] مَحجّته؛ لأنّ الإتيان بما هو أهدى مِن الكتابين أمرٌ بيّن الاستحالة، فيوسّع دائِرةَ الكلام للتبكيت والإفحام.

---

١ قاله الكلبي. انظر: تفسير ابن أبي حاتم، ٨١٠/١٣؛ واللباب لابن عادل، ٢٦٨/١٥.

٢ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر. النشر لابن الجزري، ٣٤١/٢.

٣ س - تعالى.

٤ السُّنُوح مصدر "سَنَح" بمعنى "عَرَض"، يقال: "سنَحَ لي رأي في كذا"، أي عَرَض. انظر: الصحاح للجوهري، «سنح».

﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي: في أنّهما سِحران مختلَفان. وفي إيراد كلمة ﴿إن﴾ مع امتناع صدقهم نوع تهكّم بهم.

﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾

﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ﴾ أي: فإن لم يفعلوا ما كلَّفْتَهم مِن الإتيان بكتابٍ أهدى منهما، كقوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ﴾ [البقرة، ٢٤/٢]، وإنّما عُبّر عنه بالاستجابة إيذانًا بأنّه عليه السلام على كمال أَمْنٍ مِن أمره، كأنّ أمره عليه السلام لهم بالإتيان بما ذُكِر دعاءٌ لهم إلى / أمرٍ يريدُ وقوعَهُ. و"الاستجابة" تتعدّى إلى الدعاء بنفسه، وإلى الداعي [٢٨٢ظ] بـ"اللام"، فيُحذف الدعاء عند ذلك غالبًا، ولا يكاد يقال: استجاب الله له دعاءه.

﴿فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ﴾ الزائغةَ مِن غير أن يكون لهم متمسَّك ما أصلًا، إذ لو كان لهم ذلك لأتوا به.

﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ استفهام إنكاري للنفي، أي: لا أضلّ ممّن اتّبع هواه ﴿بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: هو أضلّ مِن كلّ ضالّ، وإن كان ظاهرَ السَّبك لنفي الأضَلّ، لا لنفي المساوي كما مرّ في نظائره مرارًا. وتقييد اتّباع الهَوَى بعدم الهدى مِن الله تعالى لزيادة التقرير، والإشباعِ في التشنيع والتضليل، وإلّا فمقارنته لهدايته تعالى بيّنة الاستحالة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الذين ظلموا أنفسهم بالانهماك في اتّباع الهوى، والإعراضِ عن الآيات الهادية إلى الحقّ المبين.

﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾﴾

﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ﴾ وقُرئ بالتخفيف،[١] أي: أنزلنا القرآن عليهم متواصلًا بعضه إثرَ بعض حسبَما يقتضيه الحكمة والمصلحة، أو متتابعًا وعدًا ووعيدًا، قصصًا وعِبَرًا ومواعظ ونصائح ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ فيؤمنون بما فيه.

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٦٨.

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۝٥٢﴾

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ﴾ أي: مِن قبل إيتاء القرآن ﴿هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ وهم مؤمنو أهل الكتاب. وقيل: أربعون مِن أهل الإنجيل، اثنان وثلاثون جاءوا مع جعفر مِن الحبشة، وثمانية مِن الشام.[١]

﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ۝٥٣﴾

﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ﴾ أي: القرآن ﴿عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ﴾ أي: الحقّ الذي كنّا نعرف حقّيّته. وهو استئناف لبيان ما أوجب إيمانهم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ﴾ أي: مِن قبل نزوله ﴿مُسْلِمِينَ﴾ بيان لكون إيمانهم به أمرًا متقادِم العهد، لِما شاهدوا ذكره في الكتب المتقدّمة، / وأنّهم على دين الإسلام قبل نزول القرآن. [٢٨٣و]

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٥٤﴾

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بما ذُكر مِن النعوت ﴿يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ مرّةً على إيمانهم بكتابهم، ومرّةً على إيمانهم بالقرآن ﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾ بصبرهم وثباتهم على الإيمانَين، أو على الإيمان بالقرآن قبل النزول وبعده، أو على أذى مَن هاجرهم مِن أهل دينهم ومِن المشركين.

﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ أي: يدفعون بالطاعة المعصيةَ، لقوله عليه السلام: «أَتْبِعِ الحسنةَ السيّئةَ تَمحُها».[٢]

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ في سبيل الخير.

﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي ٱلْجَٰهِلِينَ ۝٥٥﴾

---

١ الكشّاف للزمخشري، ٣/٤٢١؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤/١٨١.

٢ سنن الترمذي، ٤/٣٥٥ (١٩٨٧)؛ المستدرك للحاكم، ١/١٢١ (١٧٨).

﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ﴾ مِن اللاغين ﴿أَعْرَضُواْ عَنْهُ﴾ عن اللغو تكرّمًا، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا﴾ [الفرقان، ٧٢/٢٥]. ﴿وَقَالُواْ﴾ لهم: ﴿لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ بطريق المتاركة والتوديع، ﴿لَا نَبْتَغِي ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ لا نطلب صحبتَهم، ولا نريد مخالطتَهم.

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى﴾ هدايةً موصِلةً إلى البُغية لا محالةَ ﴿مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ مِن الناس، ولا تقدر على أن تُدخله في الإسلام، وإن بذلتَ فيه غاية المجهود، وجاوزتَ في السعي كلَّ حدّ معهود، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ أن يهديه، فيدخله في الإسلام.

﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ بالمستعدّين لذلك. والجمهور على أنّها نزلت في أبي طالب، فإنّه لمّا احتضر جاءه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وقال: «يا عمّ؛ قل: "لا إله إلّا الله" كلمةً أحاجّ بها لك عند الله». قال: «يا ابن أخي؛ قد علمتُ إنّك لصادق؛ ولكنّي أكره أن يقال: خَرِعَ[1] عند الموت، ولولا أن يكون عليك وعلى بني أبيك غضاضة بعدي لَقلتُها، ولَأقررتُ بها عينك عند الفراق، لِما أرى / مِن شدّة وَجدِك ونصيحتك، ولكنّي سوف أموت على مِلّة الأشياخ: عبد المطّلب، وهاشم، وعبد مناف».[2] [٢٨٣ظ]

﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾﴾

﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ[3] نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ﴾ نزلت في الحارث بن عثمان بن نَوفل بن عبد مناف، حيث أتى النبيَّ صلّى الله عليه وسلّم، فقال:

---

١ وفي هامش م: الخَرَع: الجُبن. «منه».

٢ تفسير مقاتل بن سليمان، ٣٥٠/٣؛ التفسير البسيط للواحدي، ٤٢١/١٧. ونحوه في صحيح مسلم، ٥٥/١ (٢٥).

٣ س – معك.

«نحن نعلم أنّك على الحقّ، ولكنّا نخاف إن اتّبعناك وخالَفْنا العربَ وإنّما نحن أكَلَةُ رأس أن يتخطّفونا مِن أرضنا»،[١] فرُدَّ عليهم بقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا﴾ أي: ألم نعصمهم ولم نجعل مكانهم حرمًا ذا أمْنٍ لحُرمة البيت الحرام الذي تتناحر العرب حوله وهم آمنون.

﴿يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ﴾ وقُرئ: "تُجْبَى"،[٢] أي: يُجمع ويُحمل إليه ﴿ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ مِن كلّ أَوب. والجملة صفة أخرى لـ﴿حَرَمًا﴾، دافِعةٌ لِما عَسَى يُتوهّم مِن تَضرّرهم بانقطاع المِيرة،[٣] ﴿رِزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ فإذا كان حالهم ما ذُكِر -وهم عبدةُ أصنام- فكيف يخافون التخطّفَ إذا ضمّوا إلى حرمة البيت حرمةَ التوحيد؟

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: جهَلة لا يتفطّنون له، ولا يتفكّرون ليعلموا ذلك. وقيل: هو متعلّق بقوله تعالى: ﴿مِن لَّدُنَّا﴾، أي: قليل منهم يتدبّرون فيعلمون أنّ ذلك رزق مِن عند الله تعالى؛ إذ لو علموا لَما خافوا غيره.

وانتصاب ﴿رِزْقًا﴾ على أنّه مصدر مؤكّد لمعنى ﴿يُجْبَىٰٓ﴾، أو حال مِن "الثمرات" على أنّه بمعنى مرزوق، لتخصّصها بالإضافة. ثمّ بُيّن أنّ الأمر بالعكس، وأنّهم أحقّاء بأن يخافوا بأسَ الله تعالى بقوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ أي: وكثير مِن أهل قرية كانت حالهم كحال هؤلاء في الأمن وخفض العَيْش والدَّعةِ حتّى أشِروا، فدمّرنا عليهم، وخرّبنا ديارَهم، ﴿فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ﴾ خاويةً بما ظلموا، ﴿لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ﴾ مِن بعدِ تدميرهم ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: إلّا زمانًا قليلًا؛ إذ لا يَسكنها إلّا المارّة يومًا أو بعضَ يوم، أو لم يبقَ مَن يسكنها إلّا قليلًا مِن شُؤم معاصيهم.

[٢٨٤و] ﴿وَكُنَّا نَحْنُ / ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ منهم؛ إذ لم يخلُفْهم أحد يتصرّف تصرُّفهم في ديارهم وسائر ذاتِ أيديهم. وانتصاب ﴿مَعِيشَتَهَا﴾ بنزع الخافض، أو بجعلها ظرفًا بنفسها، كقولك: "زيدٌ ظنّي مقيمٌ"، أو بإضمار زمان مضاف إليه، أو بجعله مفعولًا لـ﴿بَطِرَتْ﴾ بتضمين معنى "كفرَت".

---

[١] **الكشّاف** للزمخشري، ٤٢٢/٣؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١٨١/٤.

[٢] قرأ بها نافع وأبو جعفر ورُويس عن يعقوب. **النشر** لابن الجزري، ٣٤٢/٢.

[٣] المِيرَةُ، بالكسر: جَلَبُ الطعام. **القاموس المحيط** للفيروزابادي، «مير».

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَاۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ۝٥٩﴾

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ﴾ بيان للعناية الربّانيّة إثرَ بيان إهلاك القرى المذكورة، أي: وما صحّ وما استقام -بل استحال- في سنّته المبنيّة على الحِكم البالغة، أو ما كان في حكمه الماضي وقضائه السابق أن يُهلِك القرى قبل الإنذار؛ بل كانت عادته أن لا يهلكها ﴿حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِيٓ أُمِّهَا﴾ أي: في أصلها وقصَبتها التي هي أعمالها وتوابعها، لكون أهلها أفطَنَ وأنبَل ﴿رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ الناطقةَ بالحقّ، ويدعوهم إليه بالترغيب والترهيب، وذلك لإلزام الحجّة وقطع المعذرة بأن يقولوا: ﴿لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ﴾.[1] والالتفات إلى نون العظمة لتربية المَهابة وإدخال الروعة.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي ٱلْقُرَىٰ﴾ عطفٌ على ﴿مَا كَانَ رَبُّكَ﴾. وقوله تعالى: ﴿إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ استثناء مفرّغ مِن أعمّ الأحوال، أي: وما كنّا مهلكين لأهل القرى بعدما بعثنا في أمّها رسولًا يدعوهم إلى الحقّ ويرشدهم إليه في حالٍ مِن الأحوال إلّا حالَ كونهم ظالمين بتكذيب رسولنا والكفرِ بآياتنا، فالبعثُ غاية لعدم صحّة الإهلاك بموجَب السنّة الإلهيّة، لا لِعدم وقوعه حتّى يلزم تحقّق الإهلاك عقيبَ البعث، وقد مرّ تحقيقه في سورة بني إسرائيل.[2]

﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَاۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝٦٠﴾

﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ﴾ مِن أمور الدنيا ﴿فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا﴾ أي: فهو شيء شأنه أن يُتمتَّعَ ويُتزيَّنَ به أيّامًا قلائل. ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ وهو الثواب ﴿خَيْرٌ﴾ في نفسه مِن ذلك؛ لأنّه لذّة خالصة عن شوائب الألم، وبهجةٌ كاملة عارية عن سِمة الهمّ، ﴿وَأَبْقَىٰ﴾ لأنه أبدي.

---

[1] القصص، ٤٧/٢٨.

[2] الإسراء، ٥٨/١٧.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ألا تتفكّرونَ فلا تعقلون هذا الأمرَ الواضح، فتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير. / وقُرِئ بـ"الياء"[1] على الالتفات المبنيّ على اقتضاء سوء صنيعهم الإعراضَ عن مخاطبتهم. [٢٨٤ظ]

﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾﴾

﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا﴾ أي: وعدًا بالجنّة، فإنّ حُسن الوعد بحُسن الموعود، ﴿فَهُوَ لَٰقِيهِ﴾ أي: مدرِكُه لا محالةَ لاستحالة الخُلف في وعده تعالى، ولذلك جيء بالجملة الاسميّة المفيدة لتحقّقه البتّة، وعُطفت بـ"الفاء" المنبئة عن معنى السببيّة.

﴿كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ الذي هو مَشُوب بالآلام منغَّص بالأكدار، مستتبع للتحسّر على الانقطاع. ومعنى "الفاء" الأولى ترتيبُ إنكار التشابُه بين أهل الدنيا وأهل الآخرة على ما قبلها مِن ظهور التفاوت بين متاع الحياة الدنيا وبين ما عند الله تعالى، أي: أبَعد هذا التفاوت الظاهر يُسوَّى بين الفريقين؟

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ عطفٌ على ﴿مَتَّعْنَٰهُ﴾ داخل معه في حيّز الصلة، مؤكِّد لإنكار التشابه، ومقرّر له، كأنّه قيل: كمَن متّعناه متاع الحياة الدنيا ثمّ نُحضره أو أحضرناه يوم القيامة النارَ أو العذابَ. وإيثار الجملة الاسميّة للدلالة على التحقّق حتمًا. وفي جعله مِن جملة المحضَرين مِن التهويل ما لا يخفى. و﴿ثُمَّ﴾ للتراخي في الزمان أو في الرتبة. وقُرِئ: "ثُمَّ هْوَ" بسكون "الهاء"[2] تشبيهًا للمنفصل بالمتّصل.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾﴾

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ منصوب بالعطف على ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، لاختلافهما عنوانًا وإن اتّحدا ذاتًا، أو بإضمار "اذكر". ﴿فَيَقُولُ﴾ تفسير للنداء ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ

[1] قرأ بها أبو عمرو بخُلف عن السوسي. النشر لابن الجزري، ٣٤٢/٢.

[2] قرأ بها الكسائي. النشر لابن الجزري، ٢٠٩/٢.

﴿كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أي: الذين كنتم تزعمونهم شركائي، فحُذف المفعولان معًا ثقةً بدلالة الكلام عليهما.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾﴾

﴿قَالَ﴾ استئناف مبنيّ على حكاية السؤال، كأنّه قيل: فماذا صدر عنهم حينئذ؟ فقيل: قال: ﴿ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ وهم شركاؤهم مِن الشياطين، أو رؤساؤهم الذين اتّخذوهم أربابًا مِن دون الله تعالى بأن أطاعوهم في كلّ ما أمروهم به ونهَوا عنه.

ومعنى ﴿حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ أنّه ثبت مقتضاه وتحقّق مؤدّاه، وهو قوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة، ١٣/٣٢] وغيرُه مِن آيات الوعيد. وتخصيصُهم بهذا الحكم مع شموله للأتباع أيضًا لأصالتهم في الكفر واستحقاقِ العذابِ حسبما يُشعر به قوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾ [ص، ٨٥/٣٨]. ومسارعتهم إلى الجواب مع كون السؤال للعَبَدة إمّا لتفطّنهم أنّ السؤال عنهم لاستحضارهم وتوبيخهم بالإضلال، وجَزمِهم بأنّ العبَدة سيقولون: / هؤلاءِ أضلّونا، وإمّا لأنّ العَبَدة قد قالوه اعتذارًا، وهؤلاء إنّما قالوا ما قالوا ردًّا لقولهم، إلّا أنّه لم يُحْكَ قول العَبَدة إيجازًا لظهوره. [٢٨٥و]

﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ﴾ أي: هم الذين أغويناهم. فحُذف الراجع إلى الموصول. ومرادهم بالإشارة بيانُ أنّهم يقولون ما يقولون بمَحضر منهم، وأنّهم غيرُ قادرين على إنكاره وردِّه.

وقوله تعالى: ﴿أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾ هو الجواب حقيقة، وما قبله تمهيد له، أي: ما أكرهناهم على الغيّ، وإنّما أغويناهم بطريق الوَسوسة والتسويل، لا بالقَسر والإلجاء، فغَوَوا باختيارهم غَيًّا مثل غَيّنا باختيارنا. ويجوز أن يكون ﴿ٱلَّذِينَ﴾ صفة لاسم الإشارة، و﴿أَغْوَيْنَٰهُمْ﴾ الخبر.

﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ﴾ منهم وممّا اختاروه مِن الكفر والمعاصي هوًى منهم، وهو تقرير لِما قبله، ولذلك لم يعطف عليه، وكذا قوله تعالى: ﴿مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾

أي: ما كانوا يعبدوننا، وإنّما كانوا يعبدون أهواءهم. وقيل: ﴿مَا﴾ مصدريّة متّصلة بقوله تعالى: ﴿تَبَرَّأْنَا﴾، أي: تبرّأنا مِن عبادتهم إيّانا.

﴿وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾﴾

﴿وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ﴾ إمّا تهكّمًا بهم أو تبكيتًا لهم ﴿فَدَعَوْهُمْ﴾ لفَرط الحَيرة ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ﴾ ضرورةَ عدم قدرتهم على الاستجابة والنصرة، ﴿وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ﴾ قد غشيهم، ﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ﴾ لوجهٍ مِن وجوه الحِيَل يدفعون به العذاب، أو إلى الحقّ لِما لَقُوا ما لَقُوا. وقيل: ﴿لَوْ﴾ للتمنّي، أي: تمنَّوا لو أنّهم كانوا مهتدين.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ عطفٌ على ما قبله، سُئلوا أوّلًا عن إشراكهم، وثانيًا عن جوابهم للرسل الذين نهَوهم عن ذلك.

﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: صارَت كالعُمْي عنهم لا تهتدي إليهم. [٢٨٥ظ] وأصله "فعَموا عن الأنباء"، / وقد عُكِس للمبالغة والتنبيه على أنّ ما يحضر الذهن يَفيض عليه ويصل إليه مِن خارج، فإذا أخطأ لم يكن له حيلة إلى استحضاره. وتعدية الفعل بـ"على" لتضمّنه معنى الخفاء والاشتباه. والمراد بـ﴿ٱلْأَنۢبَآءُ﴾ إمّا ما طُلِب منهم ممّا أجابوا به الرسل، أو جميعُ الأنباء، وهي داخلة فيه دخولًا أوّليًا. وإذا كانت الرسل عليهم السلام يفوّضون العلم في ذاك المقام الهائل إلى علّام الغيوب مع نزاهتهم عن غائلة المسئول، فما ظنّك بأولئك الضُّلّال مِن الأمم؟

﴿فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ لا يسأل بعضهم بعضًا عن الجواب لفَرط الدهشة، أو العلمِ بأنّ الكلّ سواء في الجهل.

﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ٦٧﴾

﴿فَأَمَّا مَن تَابَ﴾ مِن الشرك ﴿وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ أي: جمع بين الإيمان والعمل الصالح ﴿فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ﴾ أي: الفائزين بالمطلوب عنده تعالى الناجين عن المَهروب. و﴿عَسَىٰ﴾ للتحقيق على عادة الكرام، أو للترجّي مِن قِبَل التائب، بمعنى: فليتوقع الإفلاح.

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ٦٨﴾

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ أن يخلقه ﴿وَيَخْتَارُ﴾ ما يشاء اختياره مِن غير إيجاب عليه ولا منعٍ له أصلًا. ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ أي: التخيّر، كـ"الطِّيَرة" بمعنى "التطيّر". والمراد نفي الاختيار المؤثّر عنهم، وذلك ممّا لا ريب فيه. وقيل: المراد أنّه ليس لأحد مِن خلقه أن يختار عليه، ولذلك خلا عن العاطف، ويؤيّده ما رُوي أنّه نزَل في قول الوليد بن المغيرة: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف، ٣١/٤٣].[١] والمعنى: لا يبعث الله تعالى الرسل باختيار المرسَل إليهم. وقيل: معناه: ويختار الذي كان لهم فيه الخير والصلاح.[٢]

﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ أي: تنزّهَ بذاته تنزّهًا خاصًّا به مِن أن ينازعه أحدٌ، أو يزاحم اختيارُه اختيارَه، ﴿وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا / يُشْرِكُونَ﴾ عن إشراكهم، أو عن مشاركة ما يشركونه به. [٢٨٦و]

﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ٦٩﴾

﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾ كعَداوة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وحقده ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ كالطعن فيه.

﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ٧٠﴾

﴿وَهُوَ ٱللَّهُ﴾ أي: المستحقّ للعبادة ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا أحدَ يستحقّها إلّا هو ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ لأنّه المُولي للنِّعم كلّها عاجلها وآجلها على الخلق كافّةً،

---

١ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٥٧/٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٢٧/٣.

٢ الكشّاف للزمخشري، ٤٢٧/٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٨٣/٤.

يحمده المؤمنون في الآخرة كما حمِدُوه في الدنيا بقولهم: "الحمد لله الذي أذهَبَ عنّا الحَزَن"،[١] "الحمد لله الذي صدَقنا وعدَه"،[٢] ابتهاجًا بفضله، والتذاذًا بحمده.

﴿وَلَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ أي: القضاء النافذ في كلّ شيء مِن غير مشاركة فيه لغيره، ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ بالبعث لا إلى غيره.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾﴾

﴿قُلْ﴾ تقريرًا لِما ذُكر: ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ أي: أخبروني؛ ﴿إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا﴾ دائمًا، مِن "السَّرد"، وهو المتابعة والاطّراد، و"الميم" مزيدة، كما في "دُلَامِص" مِن "الدِّلاص"، يقال: "دِرعٌ دِلاص"، أي: مَلساء ليّنة. ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ بإسكان الشمس تحت الأرض، أو تحريكها حول الأفُق الغائر.

﴿مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ صفة لـ﴿إِلَـٰهٌ﴾ ﴿يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ﴾ صفة أخرى له عليها يدور أمر التبكيت والإلزام، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [يونس، ٣١/١٠]، وقولِه: ﴿فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾ [الملك، ٣٠/٦٧] ونظائرِهما، خلا أنّه قُصِد بيان انتفاء الموصوف بانتفاء الصفة، ولم يُقَل: هل إله... إلخ لإيراد التبكيت والإلزام على زعمهم. وقُرئ: "بِضِئَاءٍ" بهمزتين.[٣]

﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ هذا الكلامَ الحقَّ سماعَ تدبّرٍ واستبصارٍ حتّى تُذعِنوا له، وتعملوا بموجَبه.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾﴾

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ بإسكانها في وسط السماء، أو بتحريكها على مدارٍ فوق الأفق.

---

١ قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر، ٣٤/٣٥].

٢ قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾ [الزمر، ٧٤/٣٩].

٣ قرأ بها قنبل عن ابن كثير. النشر لابن الجزري، ٤٠٦/١.

/ ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾ استراحةً مِن متاعب الأشغال. [٢٨٦ظ]
ولعلّ تجريدَ "الضياء" عن ذكر منافعه لكونه مقصودًا بذاته، ظاهِرَ الاستتباع لِما نِيط به مِن المنافع.

﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ هذه المنفعة الظاهرة التي لا تخفى على مَن له بصر.

﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾

﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾ أي: في الليل، ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ في النهار بأنواع المكاسب، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ولكي تشكروا نعمته تعالى فعَلَ ما فعَلَ، أو لتعرفوا نعمته تعالى وتشكروه عليها.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾﴾

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ منصوب بـ"اذكر". ﴿فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ تقريع إثرَ تقريعٍ، للإشعار بأنّه لا شيءَ أجلب لغضب الله عزّ وجلّ مِن الإشراك، كما لا شيءَ أدخَلُ في مرضاته مِن توحيده سبحانه.

﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا﴾ عطفٌ على ﴿يُنَادِيهِمْ﴾.[١] وصيغة الماضي للدلالة على التحقّق، أو حال مِن فاعله بإضمار "قد". والالتفات إلى نون العظمة لإبراز كمال الاعتناء بشأن النزع وتهويله، أي: أخرجْنا ﴿مِن كُلِّ أُمَّةٍ﴾ مِن الأمم ﴿شَهِيدًا﴾ نبيًّا يشهد عليهم بما كانوا عليه، كقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾[٢] [النساء، ٤١/٤].

---

[١] في الآية السابقة.

[٢] م س - ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [صُحّح في هامش م].

﴿فَقُلْنَا﴾ لكلٍّ مِن تلك الأمم: ﴿هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ على صحّة ما كنتم تدينون به، ﴿فَعَلِمُوٓاْ﴾ يومئذ ﴿أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ﴾ في الإلهيّة لا يشاركه فيها أحد، ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ أي: غابَ غيبة الضائع ﴿مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ في الدنيا مِن الباطل.

﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُوْلِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾﴾

﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ﴾ كان ابنَ عمّه يَصْهَرَ بنِ قَاهَثَ بنِ لاوَى بنِ يعقوب، وموسى عليه السلام ابنُ عمرانَ بنِ قَاهَثَ. وقيل: كان موسى عليه السلام ابنَ أخيه، وكان يسمّى المنوَّر لحسن صورته. وقيل: كان أقرأَ بني إسرائيل للتوراة، ولكنّه نافق كما نافق السامري وقال: «إذا كانت النبوّة لموسى، والمَذبح والقربان لهارون، فَمَا لي؟».[1]

ورُوي أنّه لمّا جاوز بهم موسى البحر، وصارت الرسالة والحُبورة[2] والقربان لهارون، وَجَدَ[3] قارون في نفسه وحَسَدَهما، فقال لموسى: «الأمر لكما، ولستُ على شيء، إلى متى أصبر؟» قال موسى عليه السلام: «هذا صنع الله تعالى»، قال: «لا أصدّقك حتّى تأتي بآية»، فأمر رؤساء بني إسرائيل أن يجيء كلّ واحد بعصاه، / فحزَمها وألقاها في القبّة التي كان الوحي ينزل إليه فيها، فكانوا [٢٨٧و] يحرسون عصِيَّهم بالليل، فأصبحوا فإذا بعَصا هارون تهتزّ ولها ورق أخضر، فقال قارون: «ما هو بأعجب ممّا تصنع مِن السحر»، وذلك قوله تعالى: ﴿فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾، فطلب الفضلَ عليهم، وأن يكونوا تحت أمره، أو ظلمَهم.[4] قيل: وذلك حين ملّكه فرعون على بني إسرائيل.[5] وقيل: حسَدَهم، وذلك ما ذُكر منه في حقّ موسى وهارون عليهما السلام.[6]

---

[1] الكشّاف للزمخشري، ٤٣٠/٣. وانظر: جامع البيان للطبري، ٣١٠/١٨؛ والكشف والبيان للثعلبي، ٢٦٠/٧.

[2] الحُبورة: مصدر "حَبُر" -كـ"قَضُو"- إذا صار حَبْرًا. حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، ١٤٤/٦.

[3] وفي هامش م: غضِب وحزِن. «منه».

[4] الكشف والبيان للثعلبي، ٢٦٤/٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٣٠/٣.

[5] الكشّاف للزمخشري، ٤٣٠/٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٨٥/٤.

[6] وهو قوله: «إذا كانت النبوّة لموسى، والمَذبح والقربان لهارون، فَمَا لي؟».

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ﴾ أي: الأموالِ المدّخرة ﴿مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ﴾ أي: مفاتح صناديقه، وهو جمع "مِفتَح" بالكسر، وهو ما يُفتَح به. وقيل: خزائنه، وقياس واحدها "المَفْتَح" بالفتح.

﴿لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾، والجملة صلة ﴿مَا﴾، وهو ثاني مفعولَي "آتى". و"ناءَ به الحِمل" إذا أثقله حتّى أماله، و"العُصْبة" و"العِصابة": الجماعة الكثيرة. وقُرئ: "لَيَنُوءُ" بـ"الياء"[١] على إعطاء المضاف حكمَ المضاف إليه، كما مرّ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف، ٥٦/٧].

﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ﴾ منصوب بـ﴿تَنُوٓأُ﴾. وقيل:[٢] بـ﴿بَغَىٰ﴾، ورُدّ بأنّ البغي ليس مقيّدًا بذلك الوقت. وقيل:[٣] بـ﴿ءَاتَيْنَٰهُ﴾، ورُدّ بأنّ الإيتاء أيضًا غيرُ مُقيّد به. وقيل: بمُضمرٍ، فقيل:[٤] هو "اذكر"، وقيل:[٥] هو "أظْهَرَ الفرحَ". ويجوز أن يكون منصوبًا بما بعده مِن قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ﴾،[٦] ويكونَ الجملة مقرِّرة لبَغيه.

﴿لَا تَفْرَحْ﴾ أي: لا تبطَر، والفرح في الدنيا مذموم مطلقًا؛ لأنّه نتيجة حبّها والرضا بها، والذهولِ عن ذهابها، فإنّ العلم بأنّ ما فيها مِن اللذّة مفارَقة لا محالةَ يوجب الترَح حتمًا، ولذلك قال تعالى: ﴿وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [الحديد، ٢٣/٥٧]، وعُلّل النهي ههنا بكونه مانعًا مِن محبّته عزّ وعلا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ أي: بزخارف الدنيا.

﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾

﴿وَٱبْتَغِ﴾ وقُرئ: "واتَّبِعْ"[٧] ﴿فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ مِن الغِنى ﴿ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ أي:

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن بديل بن ميسرة والضحّاك وابن يعمر. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٦٩.

[٢] وفي هامش م: ابن عطيّة. «منه». | **المحرّر الوجيز** لابن عطيّة، ٢٩٩/٤.

[٣] وفي هامش م: أبو البقاء. «منه». | **التبيان** لأبي البقاء، ١٠٢٥/٢.

[٤] وفي هامش م: الطبري. «منه». | لم أجده عند الطبري، وعزاه أبو حيّان إلى الحوفي. انظر: **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٣٢٥/٨.

[٥] وفي هامش م: أبو حيّان. «منه». | **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٣٢٥/٨.

[٦] القصص، ٧٨/٢٨.

[٧] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي المتوكل وابن السميفع. **زاد المسير** لابن الجوزي، ٣٩٣/٣.

ثوابَ الله تعالى فيها، بصرفه إلى ما يكون وسيلة إليه، ﴿وَلَا تَنسَ﴾ أي: لا تترك تركَ المنسيِّ ﴿نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ / وهو أن تحصِّل بها آخرتك، وتأخذ منها ما يكفيك. [٢٨٧ظ]

﴿وَأَحْسِن﴾ أي: إلى عباد الله تعالى ﴿كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ فيما أنعم به عليك. وقيل: أحسِن بالشكر والطاعة كما أحسَن الله إليك بالإنعام. ﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ نهيٌ عمّا كان عليه مِن الظلم والبغي ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ لسوء أفعالهم.

﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾﴾

﴿قَالَ﴾ مجيبًا لناصِحيه: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ كأنّه يريد به الردّ على قولهم: ﴿كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾؛[1] لإنبائه عن أنّه تعالى أنعم عليه بتلك الأموال والذخائر مِن غير سبب واستحقاق مِن قِبَله، أي: فُضِّلتُ به على الناس، واستوجبتُ به التفوّق عليهم بالمال والجاه.

و﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ في موقع الحال، وهو عِلم **التوراة**، وكان أعلمَهم بها. وقيل: علم الكيمياء. وقيل: علم التجارة والدِّهقنة[2] وسائر المكاسب. وقيل: عِلم فتح الكنوز والدفائن. و﴿عِندِىٓ﴾ صفة له، أو متعلّق بـ﴿أُوتِيتُهُۥ﴾، كقولك: جاز هذا عندي أو في ظنّي ورأيي.

﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ توبيخ له مِن جهة الله عزّ وجلّ على اغتراره بقوّته وكثرة ماله مع علمه بذلك قراءةً في **التوراة**، وتلقّيًا مِن موسى عليه السلام، وسماعًا مِن حفّاظ التواريخ، وتعجيبٌ منه، فالمعنى: ألم يقرأ **التوراة**، ولم يعلم ما فعل الله تعالى بأضرابه مِن أهل القرون السابقة حتّى لا يُغتَرّ بما اغترّ به؟ أو رَدٌّ لادّعائه العلمَ

---

١ في الآية السابقة.

٢ الدِّهْقان -بالكسر والضمّ-: التاجِرُ، والاسم "الدِّهْقَنة". انظر: **القاموس المحيط** للفيروزابادي، ١١٩٨.

وتعظّمِه به بنفي هذا العلم منه، فالمعنى: أَعَلِم ما ادّعاه ولم يعلم هذا حتّى يَقِيَ به نفسَه مصارعَ الهالكين؟

﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ سؤالَ استعلام؛ بل يعذَّبون بها بغتةً، كأنّ قارون لمّا هُدِّدَ بذكر إهلاك مَن قبله ممَّن كان أقوى منه وأغنى أُكِّد ذلك بأن بُيِّنَ أنّ ذلك لم يكن ممّا يخصّ أولئك المهلَكين؛ بل الله تعالى مطّلع على ذنوب كافّة المجرمين يعاقبهم عليها لا محالةَ.

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾﴾

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ عطفٌ على ﴿قَالَ﴾،[1] وما بينهما اعتراض. وقوله تعالى: ﴿فِى زِينَتِهِۦ﴾ إمّا متعلّق بـ﴿خَرَجَ﴾، أو بمحذوفٍ هو حال مِن فاعله، / أي: فخرج عليهم كائنًا في زينته. قيل: خرَج على بغلة شهباءَ عليه الأُرجوان، وعليها سَرج مِن ذهب، ومعه أربعة آلاف على زِيّه. وقيل: عليهم وعلى خيولهم الديباج الأحمر، وعن يمينه ثلاثمائة غلام، وعن يساره ثلاثمائة جارية بِيض، عليهنّ الحُليّ والديباج. وقيل: في تسعين ألفًا عليهم المُعصفَرات، وهو أوّل يوم رُئِيَ فيه المُعصفَر. [٢٨٨و]

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ مِن المؤمنين جَريًا على سَنن الجِبِلّة البشريّة مِن الرغبة في السَّعة واليَسار: ﴿يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ﴾ وعن قتادة: «أنّهم تمنَّوه ليتقرّبوا به إلى الله تعالى، وينفقوه في سُبل الخير».[2] وقيل: كان المتمنّون قومًا كفّارًا. ﴿إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ تعليل لتمنّيهم، وتأكيد له.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا ۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ أي: بأحوال الدنيا والآخرة كما ينبغي، وإنّما لم يوصَفوا بإرادة ثواب الآخرة تنبيهًا على أنّ العلم بأحوال النشأتين يقتضي الإعراضَ

---

[1] في الآية السابقة.

[2] الكشّاف للزمخشري، ٤٣٢/٣؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٣٢٨/٨.

عن الأولى والإقبالَ على الثانية حتمًا، وأنّ تمنّي المتمنّين ليس إلّا لعدم علمهم بهما كما ينبغي: ﴿وَيْلَكُمْ﴾ دعاء بالهلاك، شاع استعماله في الزجر عمّا لا يُرتَضى.

﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ﴾ في الآخرة ﴿خَيْرٌ﴾ ممّا تتمنَّونه ﴿لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ فلا يليق بكم أن تَتَمنَّوه غيرَ مكتفين بثوابه تعالى ﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ أي: هذه الكلمةَ التي تكلّم بها العلماء، أو الثوابَ، فإنّه بمعنى المَثوبة، أو الجنّةَ، أو الإيمانَ والعملَ الصالح، فإنّهما في معنى السيرة والطريقة. ﴿إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ أي: على الطاعات وعن الشهوات.

﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾﴾

﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ رُوي أنّه كان يؤذي موسى عليه السلام كلَّ وقت وهو يُداريه لقَرابته حتّى نزلت الزكاة، فصالحه عن كلّ ألف على واحد، فحسَبَه فاستكثره، فعَمَد إلى أن يفضح موسى عليه السلام بين بني إسرائيل، فجعل لبَغِيّ مِن بغايا بني إسرائيل ألفَ دينار، وقيل: طَستًا مِن ذهب مملوءة ذهبًا، / فلمّا كان يوم عيد قام موسى عليه السلام خطيبًا، فقال: «مَن سرق قطعناه، ومَن زنى غير محصَن جلدناه، ومَن زنى محصَنًا رجمناه»، فقال قارون: «ولو كنتَ؟» قال: «ولو كنتُ»، قال: «إنّ بني إسرائيل يزعمون أنّك فجَرتَ بفلانة»، فأُحضِرت، فناشدها عليه السلام أن تصدُقَ، فقالت: «جعل لي قارون جُعلًا على أن أرمِيَك بنفسي»، فخرَّ موسى ساجدًا لربّه يبكي ويقول: «يا ربّ إن كنتُ رسولَك فاغضَبْ لي»، فأوحي إليه أن مُرِ الأرضَ بما شئتَ، فقال: «يا بني إسرائيل إنّ الله تعالى بعثني إلى قارون كما بعثني إلى فرعون، فمَن كان معه فليلزم مكانه، ومَن كان معي فليعتزله»، فاعتزلوا جميعًا غيرَ رجلَين، ثمّ قال: «يا أرض خُذِيهم»، فأخذَتْهم إلى الرُّكَب، ثمّ قال: «خُذيهم»، فأخذتهم إلى الأوساط، ثمّ قال: «خُذيهم»، فأخذَتْهم إلى الأعناق، وهم يناشدونه عليه السلام بالله تعالى وبالرحِم، وهو لا يلتَفت إليهم لشدّة غَيظه، ثمّ قال: «خُذيهم»،

[٢٨٨ظ]

فانطبقَتْ عليهم، فأصبحت بنو إسرائيل يتناجَون بينهم: «إنّما دعا عليه موسى عليه السلام ليَستبدّ بداره وكنوزه»، فدعا الله تعالى حتّى خُسِف بداره وأمواله.[١]

﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ﴾ جماعة مُشفِقة ﴿يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ بدفع العذابِ عنه، ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾ أي: الممتنعين منه بوجه مِن الوجوه، يقال: نصرَه مِن عدوّه فانتصر، أي: منعه فامتنع.

﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْاْ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ٨٢﴾

﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْاْ مَكَانَهُۥ﴾ منزلتَه ﴿بِٱلْأَمْسِ﴾ منذ زمان قريب ﴿يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ﴾ أي: يفعل كلَّ واحد مِن البَسط والقَدْر بمَحض مشيئته، لا لكرامةٍ توجب البَسط، ولا لهَوان يقتضي القَبض.

و﴿وَيْكَأَنَّ﴾ عند البصريّين مركّب مِن "وَيْ" للتعجّب، و"كأنّ" للتشبيه، والمعنى: ما أشبه الأمرَ أنّ الله يبسط... إلخ. وعند الكوفيّين مِن "وَيْكَ" بمعنى "وَيلَك"، و"أنّ"، وتقديره: "وَيْكَ أعلمُ أنّ الله"، وإنّما يستعمل عند التنبّه على الخطأ والتندّم، والمعنى: أنّهم قد تنبّهوا على خطئهم في تمنّيهم، وتندّموا على ذلك.

﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ بعدم إعطائه إيّانا ما تمنّيناه، وأعطانا مثلَ ما أعطاه إيّاه. وقُرئ: "لَوْلَا مَنُّ اللهِ عَلَيْنَا".[٢] ﴿لَخَسَفَ بِنَا﴾ كما خسَف به. وقُرئ: "لَخُسِفَ بِنَا"[٣] / على البناء للمفعول، و"بِنَا" هو القائم مقام الفاعل. وقُرئ: "لَانْخُسِفَ بِنَا"،[٤] كقولك: "انْقُطِعَ بِهِ". وقُرئ: "لَتُخُسِّفَ بِنَا".[٥] ﴿وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ لنعمةِ الله تعالى، أو المكذّبون برسله، وبما وُعِدوا مِن ثواب الآخرة. [٢٨٩و]

---

١ جامع البيان للطبري، ٣٣١/٢٨؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٦٥/٧.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٧٠.

٣ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وحمزة والكسائي وخَلف وشعبة عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٣٤٢/٢.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه وطلحة والأعمش. المحتسب لابن جنّي، ١٥٧/٢.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. البحر المحيط لأبي حيّان، ٣٣٠/٨.

﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾

﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ﴾ إشارة تعظيم وتفخيم، كأنّه قيل: تلك التي سمعتَ خبرَها وبلغكَ وصفُها ﴿نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: غلبةً وتسلّطًا ﴿وَلَا فَسَادًا﴾ أي: ظلمًا وعدوانًا على العباد، كدأب فرعون وقارون. وفي تعليق الموعد بترك إرادتهما لا بترك أنفسهما مزيدُ تحذير منهما.

وعن عليّ رضي الله تعالى[1] عنه: «إنّ الرجل لَيُعجبه أن يكون شِراك نعله أجودَ مِن شِراك نعل صاحبه، فيدخل تحتها».[2]

﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ﴾ الحميدة ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي: الذين يتّقون ما لا يرضاه الله تعالى مِن الأفعال والأقوال.

﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾﴾

﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ﴾ بمقابلتها ﴿خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ ذاتًا ووصفًا وقدرًا ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ وُضِع فيه الموصول والظاهر موضع الضمير لتهجين حالهم بتكرير إسناد السيّئة إليهم، ﴿إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي: إلّا مِثل ما كانوا يعملون، فحُذف "المِثل"، وأقيمَ مُقامه ما كانوا يعملون مبالغةً في المماثلة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾

---

[1] س - تعالى.

[2] جامع البيان للطبري، ٣٤٤/١٨؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٤١٠/٣. قال الألوسي: ولعلّ هذا إذا أحبّ ذلك ليفتخرَ على صاحبه ويستهينَه، وإلّا فقد روى أبو داود [١٩٠/٦ (٤٠٩٢)] عن أبي هريرة رضي الله عنه: أنّ رجلًا أتى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم -وكان جميلًا- فقال: يا رسول الله، إنّي رجل حُبِّب إليّ الجَمال، وأعطيت منه ما ترى، حتى ما أحِبّ أن يفوقني أحد -إمّا قال: بشِراك نَعل، وإمّا قال: بشِسْع نَعل- أفمِن الكِبْر ذلك؟ قال: «لا، ولكنّ الكِبْر مَن بطَرَ الحقَّ، وغمط الناس». روح المعاني للألوسي، ٣٣١/١٠.

﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ أوجبَ عليك تلاوتَه وتبليغَه والعملَ به ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٖ﴾ أيِّ مَعادٍ، مَعادٍ يمتدّ إليه أعناق الهِمم، ويَرْنُو إليه أحداق الأمم، وهو المقام المحمود الذي وعدك أن يبعثك فيه. وقيل: هو مكّة المعظّمة، على أنّه تعالى قد وعده وهو بمكّة في أذيّة وشدّة مِن أهلها أنّه يُهاجِر به منها، ثمّ يُعيده إليها بعزٍّ ظاهر، وسلطانٍ قاهر.

وقيل: نزلت عليه حين بلغ الجُحفة في مهاجَره، وقد اشتاق إلى مولده ومولد آبائه وحرَم إبراهيم عليه السلام، فنزل جبريل عليه السلام، فقال له: «أتشتاق إلى مكّة؟» قال: «نعم»، فأوحاها إليه.[1]

﴿قُل رَّبِّىٓ أَعۡلَمُ مَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ﴾ وما يستحقّه مِن الثواب والنصر. و﴿مَن﴾ منتصب بفعل يدلّ عليه ﴿أَعۡلَمُ﴾، أي: يعلم، وقيل: بـ﴿أَعۡلَمُ﴾ على أنّه بمعنى "عالم".

﴿وَمَنۡ هُوَ فِى ضَلَـٰلٖ مُّبِينٖ﴾ وما استحقّه مِن العذاب والإذلال، يعني بذلك نفسَه والمشركين. وهو تقرير للوعيد السابق، وكذا قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَرۡجُوٓاْ أَن يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَـٰبُ﴾ أي: سيردّك إلى مَعادك كما ألقى إليك الكتاب، وما كنت ترجوه / ﴿إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَ﴾ ولكن ألقاه إليك رحمةً منه. ويجوز أن يكون استثناء محمولًا على المعنى، كأنّه قيل: وما ألقي إليك الكتاب إلّا رحمةً، أي: لأجل الترحّم، ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرٗا لِّلۡكَـٰفِرِينَ﴾ بمُداراتهم والتحمّل عنهم والإجابة إلى طَلبتهم. [٢٨٩ظ]

﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنۡ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بَعۡدَ إِذۡ أُنزِلَتۡ إِلَيۡكَۖ وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٨٧﴾

﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ﴾ أي: الكافرون ﴿عَنۡ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: عن قراءتها والعمل بها ﴿بَعۡدَ إِذۡ أُنزِلَتۡ إِلَيۡكَ﴾ وفُرضت عليك. وقُرئ: "يُصِدُّنَّكَ"،[2] مِن "أَصَدَّ" المنقول مِن "صَدَّ" اللازم.

---

١ الكشف والبيان للثعلبي، ٧/٢٦٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٣/٤٣٦.

٢ قراءة شاذّة، حكاها أبو زيد، عن رجل مِن كلب، قال: وهي لغة قومه. البحر المحيط لأبي حيّان، ٨/٣٣١.

﴿وَٱدۡعُ﴾ الناس ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ إلى عبادته وتوحيده، ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ بمساعدتهم في الأمور.

﴿وَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٨٨﴾

﴿وَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۘ﴾ هذا وما قبله للتهييج والإلهابِ وقطعِ أطماع المشركين عن مساعدته عليه السلام لهم، وإظهارِ أنّ المنهيّ عنه في القُبح والشرِّيّة بحيث يُنهَى عنه مَن لا يمكن صدوره عنه أصلًا.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ وحدَه، ﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥ﴾ إلّا ذاته، فإنّ ما عداه كائنًا ما كان ممكن في حدّ ذاته، عرضةٌ للهلاك والعدم، ﴿لَهُ ٱلۡحُكۡمُ﴾ أي: القضاء النافذ في الخلق، ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ عند البعث للجزاء بالحقّ والعدل.

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ ﴿طسٓمٓ﴾ القصص كان له مِن الأجر بعدد مَن صَدّق بموسى وكذّب، ولم يبقَ ملَك في السماوات والأرض إلّا شهد له يوم القيامة أنّه كان صادقًا».[١]

---

[١] **الكشف والبيان** للثعلبي، ٢٣٣/٧؛ **التفسير الوسيط** للواحدي، ٣٨٩/٣. وهو جزء مِن الحديث المروي عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: **الموضوعات** لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

/ سورة العنكبوت [٢٩٠و]

مكيّة سوى عشر آيات مِن أوّلها،[١] وهي تسع وستّون آيةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢﴾

﴿الٓمٓ﴾ الكلام فيه كالذي مرّ مرارًا في نظائره مِن الفواتح الكريمة، خلا أنّ ما بعده لا يحتمل أن يتعلّق به تعلّقًا إعرابيًّا.

﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ﴾ الحِسبان ونظائره لا يتعلّق بمعاني المفردات؛ بل بمضامين الجمل المفيدةِ لثبوت شيء لشيء أو انتفاءِ شيء عن شيء، بحيث يتحصّل منها مفعولاه، إمّا بالفعل كما في عامّة المواقع، وإمّا بنوع تصرّف فيها كما في الجمل المصدَّرة بـ"أنّ"، والواقعةِ صلة للموصول الاسمي أو الحرفي، فإنّ كلًّا منها صالحة لأن يُسْبَكَ منها مفعولاه؛ لأنّ قوله تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ في قوّة أن يقال: أَحَسِبوا أنفسَهم متروكين بلا فتنةٍ بمجرّد أن يقولوا: "آمنّا"؟ أو أن يقال: أَحَسِبوا تركَهم غير مَفتونين بقولهم: "آمنّا" حاصلًا متحقِّقًا؟

والمعنى إنكار الحسبان المذكور واستبعادُه، وتحقيقُ أنّه تعالى يمتحنهم بمَشاقّ التكاليف، كالمهاجَرة، والمجاهَدة، ورفضِ ما تشتهيه النفس، ووظائفِ الطاعات، وفنونِ المصائب في الأنفس والأموال؛ ليتميّز المخلص مِن المنافق، والراسخُ في الدين مِن المتزلزِل فيه، ويُجازيَهم بحسب مراتب أعمالهم، فإنّ مجرّد الإيمان وإن كان عن خلوص لا يقتضي غير الخلاص مِن الخلود في النار.

---

[١] ط س - سوى عشر آيات مِن أوّلها.

رُوي أنّها نزلت في ناس مِن الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين،[١] جَزِعوا مِن أذيّة المشركين.[٢] وقيل: في عمّار قد عُذِّب في الله.[٣] وقيل: في مِهجَع[٤] مولى عمر بن الخطّاب رضي الله تعالى[٥] عنه، رماه عامر بن الحضرمي[٦] بسهمٍ يوم بدر، فقتله، فجَزِع عليه أبواه وامرأته، وهو أوّل مَن استشهد يومئذ مِن المسلمين، فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «سيّد الشهداء مِهْجَع، وهو أوّلُ مَن يُدعى إلى باب الجنّة مِن هذه الأمّة».[٧]

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝﴾

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ متّصل بقوله تعالى: ﴿أَحَسِبَ﴾،[٨] أو بقوله تعالى: ﴿لَا يُفْتَنُونَ﴾.[٩] والمعنى أنّ ذلك سنّة قديمة مبنيّة على الحِكم البالغة، جاريةٌ فيما بين الأمم كلّها، فلا ينبغي أن يُتوقّع خلافُها. / والمعنى: أنّ الأمم [٢٩٠ظ] الماضية قد أصابهم مِن ضروب الفتن والمِحَن ما هو أشدّ ممّا أصاب هؤلاء فصبروا، كما يُعرِب عنه قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْ﴾... الآيات [آل عمران، ١٤٦/٣]. وعن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «قد كان مَن قبلكم يُؤخَذُ فيوضع المِنشار على رأسه فيُفْرق فِرقَتين، ما يصرفه ذلك عن دينه، ويُمْشَط بأمشاط الحديد ما دون عظمه مِن لحم وعصَب، ما يصرفه ذلك عن دينه».[١٠]

---

[١] س - رضوان الله تعالى عليهم أجمعين؛ س + رضي الله عنهم.

[٢] **الكشّاف** للزمخشري، ٤٣٩/٣؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١٨٨/٤.

[٣] **جامع البيان** للطبري، ٥٣/١٨؛ **الكشف والبيان** للثعلبي، ٢٧٠/٧.

[٤] هو مِهجَع العَكّي مولى عمر بن الخطّاب رضي الله عنه. قال ابن هشام: «أصله مِن عَكّ، فأصابه سباء فمَنّ عليه عمر فأعتقه»، وكان مِن السابقين إلى الإسلام، وشهد بدرًا، واستشهد بها. وقال موسى بن عقبة: «كان أوّلَ مَن قُتل ذلك اليوم». **الإصابة** لابن حجر، ١٨٢/٦.

[٥] س - تعالى.

[٦] س: الخضرمي.

[٧] **الكشف والبيان** للثعلبي، ٢٧٠/٧؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٤٣٩/٣.

[٨] في الآية السابقة.

[٩] في الآية السابقة.

[١٠] **صحيح البخاري**، ٢٠/٩ (٦٩٤٣)؛ **وسنن أبي داود**، ٢٨٦/٤ (٢٦٤٩). وتمامه: «واللهِ لَيَتِمَنّ هذا الأمر، حتى يسير الراكب مِن صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلّا الله، والذئبَ على غنمه، ولكنّكم تستعجلون».

﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟﴾ أي: في قولهم: ﴿ءَامَنَّا﴾،[1] ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ في ذلك. و"الفاء" لترتيب ما بعدها على ما يُفصح عنه ما قبلها مِن وقوع الامتحان، و"اللام" جواب القسم. والالتفات إلى الاسم الجليل لإدخال الروعة وتربية المَهابة. وتكرير الجواب لزيادة التأكيد والتقرير، أي: فواللهِ ليتعلّقنّ علمه بالامتحان تعلّقًا حاليًا يتميّز به الذين صدقوا في الإيمان الذي أظهروه والذين هم كاذبون فيه مستمرّون على الكذب، ويترتّب عليه أجزيتهم مِن الثواب والعقاب، ولذلك قيل: المعنى: لَيُميّزَنّ، أو لَيُجازِيَنّ.

وقُرئ: "وَلَيُعْلِمَنَّ"[2] مِن "الإعلام"، أي: ولَيُعرِّفَنّهم الناسَ، أو لَيَسِمَنّهم بسِمةٍ يُعرَفون بها يومَ القيامة، كبياض الوجوه وسوادها.

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝٤﴾

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا﴾ أي: يفوتونا فلا نقدر على مجازاتهم بمَساوئ أعمالهم. وهو سادّ مَسَدَّ مفعولَي ﴿حَسِبَ﴾، لاشتماله على مسنَد ومسنَد إليه. و﴿أَمْ﴾ منقطعة، وما فيها مِن معنى "بل" للإضراب والانتقال عن التوبيخ بإنكار حِسبانهم متروكين غيرَ مَفتونين إلى التوبيخ بإنكار ما هو أبطل مِن الحِسبان الأوّل، وهو حِسبانهم أن لا يُجازَوا بسيّئاتهم، وهم وإن / لم [٢٩١و] يحسَبوا أنّهم يفوتونه تعالى ولم يحدّثوا نفوسهم بذلك لكنّهم حيث أصرّوا على المعاصي ولم يتفكّروا في العاقبة نُزّلوا منزلةَ مَن يطمع في ذلك، كما في قوله تعالى: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ﴾ [الهمزة، ٣/١٠٤].

﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي: بئس الذي يحكمونه حكمُهم ذلك، أو بئس حكمًا يحكمونه حكمُهم ذلك.

﴿مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَـَٔاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٥﴾

﴿مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ﴾ أي: يتوقّع ملاقاةَ جزائه ثوابًا أو عقابًا، أو ملاقاةَ حكمه

---

[1] في الآية السابقة.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ وجعفر بن محمّد والزهري. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٧١.

يوم القيامة. وقيل: يرجو لقاء الله عزّ وجلّ في الجنّة. وقيل: يرجو ثوابه. وقيل: يخاف عقابه. وقيل: لقاؤه تعالى عبارة عن الوصول إلى العاقبة مِن تلقّي ملك الموت والبعثِ والحسابِ والجزاءِ على تمثيل تلك الحال بحال عبدٍ قَدِم على سيّده بعد عهد طويل، وقد علم مولاه بجميع ما كان يأتي ويذَر، فإمّا أن يلقاه ببِشرٍ وكرامة لِما رضي مِن أفعاله، أو بضِدّه لِما سَخِطه.

﴿فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ﴾ الأجل عبارة عن غاية زمانٍ ممتدٍّ عُيّنَت لأمرٍ مِن الأمور، وقد يطلق على كلّ ذلك الزمان، والأوّل هو الأشهَر في الاستعمال، أي: فإنّ الوقت الذي عيّنه تعالى لذلك ﴿لَأَتٍ﴾ لا محالةَ مِن غير صارف يَلويه، ولا عاطفٍ يُثنيه؛ لأنّ أجزاء الزمان على التقضّي والتصرّم دائمًا، فلا بدّ مِن إتيان ذلك الجُزء أيضًا البتّة، وإتيانُ وقته موجِب لإتيان اللقاء حتمًا.

والجواب محذوف، أي: فليَختر مِن الأعمال ما يؤدّي إلى حسن الثواب، ولْيَحذَر ما يسوقه إلى سوء العذاب، كما في قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الكهف، ١١٠/١٨]. وفيه مِن الوعد والوعيد ما لا يخفى. وقيل: فليبادِر ما يحقّق أملَه ويصدّق رجاءَه، أو ما يوجب القُربة والزلفى.

[٢٩١ظ] ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقوال العباد ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بأحوالهم مِن / الأعمال الظاهرة والعقائد.

﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝٧﴾

﴿وَمَن جَٰهَدَ﴾ في طاعة الله عزّ وجلّ ﴿فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ﴾ لِعَود منفعتها إليها. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فلا حاجةَ له إلى طاعتهم، وإنّما أمرَهم بها تعريضًا لهم للثواب بموجَب رحمته.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ الكفرَ بالإيمان والمعاصِيَ بما يتبعُها مِن الطاعات، ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ أي: أحسنَ جزاءِ أعمالهم، لا جزاءَ أحسنِ أعمالهم فقط.

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٨﴾

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾ أي: بإيتاء والدَيه وإيلائِهما فِعلًا ذَا حُسن، أو ما هو في حدِّ ذاته حُسنٌ لِفَرط حُسنه، كقوله تعالى: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة، ٢/٨٣].

و"وَصَّى" يجري مَجرى "أَمَرَ" معنًى وتصرّفًا، غيرَ أنّه يُستعمل فيما كان في المأمور به نَفعٌ عائد إلى المأمور أو غيره. وقيل: هو بمعنى "قال"، فالمعنى: وقلنا: أحسِن بوالدَيك حُسنًا. وقيل: انتصاب ﴿حُسْنًا﴾ بمُضمَر على تقدير قولٍ مفسِّر للتوصية، أي: وقلنا أَوْلِهما أو افعل بهما حُسنًا، وهو أَوفَق لِما بعده، وعليه يَحسُن الوقف على ﴿بِوَٰلِدَيْهِ﴾. وقُرئ: "حَسَنًا"،[1] و"إِحْسَانًا".[2]

﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ أي: بإلاهِيّته، عبّر عن نفيها بنفي العلم بها للإيذان بأنّ ما لا يُعلَم صحّته لا يجوز اتّباعه وإن لم يُعلم بطلانه، فكيف بما عُلم بطلانه؟

﴿فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ في ذلك، فإنّه "لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق"،[3] ولا بدّ مِن إضمار القول إن لم يُضمَر فيما قبلُ. وفي تعليق النهي عن طاعتهما بمجاهدتهما في التكليف إشعارٌ بأنّ موجَب النهي فيما دونها مِن التكليف ثابت بطريق الأولويّة.

﴿إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ أي: مرجعُ مَن آمن منكم ومَن أشرك، / ومَن برّ بوالديه ومَن عَقّ، ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بأن أجازيَ كلًّا منكم بعمله؛ إن خيرًا فخَير، وإن شرًّا فشَرّ. [٢٩٢و]

والآية نزلت في سعد بن أبي وقّاص عند إسلامه، حيث حلفَت أمّه حَمنة بنت أبي سفيان بن أُميّة أن لا تنتقل مِن الضِّحّ[4] إلى الظلّ، ولا تَطعم

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى البصرة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٧١.

[2] قراءة شاذّة، رُوي عن الجحدري أنّها في الإمام كذلك بالألف. انظر: شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٧١.

[3] حديث في مسند أحمد، ٣٣٣/٢ (١٠٩٤)؛ والمعجم الأوسط للطبراني، ١٨١/٤ (٣٩١٧).

[4] الضِّحّ: الشمس. الصحاح للجوهري، «ضحح».

ولا تشرب حتّى يرتدّ، فلَبِثَت ثلاثة أيّام كذلك.[١] وكذا التي في سورة لقمان[٢] وسورة الأحقاف.[٣]

وقيل: نزلت في عيّاش بن أبي ربيعة المخزومي، وذلك أنّه هاجر مع عمر بن الخطّاب رضي الله عنه حتّى نزلا المدينة، فخرج أبو جهل والحارث أخواه لأمّه أسماءَ، فنزلا بعيّاش، وقالا له: «إنّ مِن دين محمّد صلّى الله عليه وسلّم صلةَ الأرحام وبِرَّ الوالدين، وقد تركتَ أمّك لا تَطعَم ولا تشرب ولا تأوي بيتًا حتّى تراك، فاخرج معنا»، وفَتَلا منه في الذِّروة والغارِب،[٤] واستشار عمر رضي الله تعالى[٥] عنه، فقال: «هما يَخدعانِك، ولك عليَّ أن أقسِم مالي بيني وبينك»، فما زالا به حتّى أطاعهما وعصى عمر رضي الله عنه، فقال عمر رضي الله عنه: «أمّا إذا عصَيتني فخذ ناقتي، فليس في الدنيا بعير يلحقها، فإن رابَك منهما رَيب فارجع»، فلمّا انتهَوا إلى البيداء قال: «إنّ ناقتي قد كلَّت، فاحملني معك»، فنزل ليوطئ لنفسه وله، فأخذاه، فشدّاه وَثاقًا، وجلده كلّ واحدٍ مائة جلدة، وذهبا به إلى أمّه، فقالت: «لا تزال في عذابٍ حتّى ترجع عن دين محمّد».[٦]

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدۡخِلَنَّهُمۡ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٩ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِۖ وَلَئِن جَآءَ نَصۡرٞ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمۡۚ أَوَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٠ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ ۝١١﴾

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدۡخِلَنَّهُمۡ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي: في زمرة الراسخين في الصلاح. والكمال في الصلاح منتهى درجات المؤمنين، وغايةُ مأمول أنبياءِ الله المرسلين. قال[٧] تعالى حكاية عن سليمان عليه السلام:

---

[١] الكشف والبيان للثعلبي، ٢٧١/٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٤٣/٣.

[٢] لقمان، ١٤/٣١.

[٣] الأحقاف، ١٥/٤٦.

[٤] قولهم: «فَتَلَ في الذِّروة والغارِب»؛ يقال ذلك للرجل لا يزال يَخدع صاحبه حتى يظفر به. وذِروة البعير: أعلاه، وكذلك ذِروة كلّ شيء، والغارب: مقدَّم السنام. جمهرة الأمثال للعسكري، ٩٨/٢.

[٥] س – تعالى.

[٦] الكشّاف للزمخشري، ٤٤٢/٣. وأخرج القصّة البزّار في مسنده، ٢٥٨/١ (١٥٥).

[٧] ط س + الله.

﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النمل، ١٩/٢٧]، وقال في حقّ إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [العنكبوت، ٢٧/٢٩]، أو في مدخل الصالحين، وهي الجنّة.

/ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ﴾ أي: في شأنه تعالى بأن عذّبهم الكفرة على الإيمان ﴿جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: ما يصيبه مِن أذيّتهم ﴿كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ في الشدّة والهول، فيرتدّ عن الدين مع أنّه لا قدرَ لها عند نفحة مِن عذابه تعالى أصلًا. [٢٩٢ظ]

﴿وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ﴾ أي: فتحٌ وغنيمةٌ ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ بضمّ "اللام" نظرًا إلى معنى ﴿مَن﴾، كما أنّ الإفراد فيما سبَق بالنظر إلى لفظها. وقُرئ بالفتح.[1] ﴿إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ أي: مشايِعين لكم في الدين، فأشرِكُونا في المَغنم، وهم ناس مِن ضَعَفة المسلمين، كانوا إذا مسّهم أذًى مِن الكفّار وافقوهم، وكانوا يكتمونه مِن المسلمين، فَرُدّ عليهم ذلك بقوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ[2] ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: بأعلمَ منهم بما في صدورهم مِن الإخلاص والنفاق حتّى يفعلوا ما يفعلون مِن الارتداد والإخفاء عن المسلمين، وادّعاءِ كونهم منهم لنَيل الغنيمة. وهذا هو الأوفَق لِما سبَق وما لحِق مِن قوله تعالى: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: بالإخلاص، ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ سواء كان كفرهم بإذيّة الكفرة أو لا، أي: لَيَجزِيَنَّهم بما لهم مِن الإيمان والنفاق.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾﴾

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بيان لحملهم للمؤمنين على الكفر بالاستمالة بعد بيان حملهم لهم عليه بالأذيّة والوعيد. ووصفُهم بالكفر ههنا دون ما سبَق لِما أنّ مَساق الكلام لبيان جنايتهم، وفيما سبَق لبيان جناية مَن أضلّوه.

---

[1] قراءة شاذّة، غير منسوبة، قال أبو حيّان: «ذكره أبو معاذ النحوي والزمخشري». البحر المحيط لأبي حيّان، ٣٤٤/٨.

[2] م ط س: أليس.

و"اللامُ" للتبليغ، أي: قالوا مخاطبين لهم: ﴿ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا﴾ أي: اسلكوا طريقتنا التي نسلكها في الدين، عُبِّر عن ذلك بالاتّباع الذي هو المَشي خلفَ ماشٍ آخر تنزيلًا للمَسلك منزلةَ السالك فيه، أو اتّبعونا في طريقتنا.

[٢٩٣و] / ﴿وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ﴾ أي: إن كان ذلك خطيئة يُؤاخَذُ عليها بالبعث كما تقولون، وإنّما أَمروا أنفسهم بالحَمل عاطفين له على أمرهم بالاتّباع للمبالغة في تعليق الحَمل بالاتّباع، والوعدِ بتخفيف الأوزار عنهم، إن كان ثمّة وِزرٌ.

فرُدَّ عليهم بقوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيۡءٍ﴾ وقُرئ: "مِنْ خِطِيئَاتِهِمْ"،[1] أي: وما هم بحاملين شيئًا مِن خطاياهم التي التزموا أن يحملوا كلَّها، على أنّ ﴿مِنْ﴾ الأولى للتبيين، والثانيةَ مزيدة للاستغراق، والجملة اعتراض أو حال.

﴿إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ حيث أَخبَروا في ضمن وَعدِهم بالحمل بأنّهم قادرون على إنجاز ما وَعدوا، فإنّ الكذب كما يتطرّق إلى الكلام باعتبار مَنطوقه يتطرّق إليه باعتبار ما يلزم مدلوله، كما مرّ في قوله تعالى: ﴿أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة، ٣١/٢].

﴿وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ وَلَيُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ١٣﴾

﴿وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ﴾ بيان لِما يستتبعه قولهم ذلك في الآخرة مِن المَضرّة لأنفسهم بعد بيان عدم منفعته لمخاطَبيهم أصلًا. والتعبير عن الخطايا بـ"الأثقال" للإيذان بغاية ثِقَلها وكونِها فَادِحةً. و"اللام" جواب قَسَم مُضمَر، أي: وبالله ليَحملُنّ أثقال أنفسهم كاملة، ﴿وَأَثۡقَالٗا﴾ أُخرَ ﴿مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡ﴾ لمّا تسبّبوا بالإضلال والحملِ على الكفر والمعاصي مِن غير أن ينتقص مِن أثقال مَن أضلّوه شيء ما أصلًا.

﴿وَلَيُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ سؤالَ تقريع وتبكيت ﴿عَمَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ أي: يختلقونه في الدنيا مِن الأكاذيب والأباطيل التي مِن جملتها كذِبُهم هذا.

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن داود بن أبي هند، حكاها عنه أبو عمرو. المحرّر الوجيز لابن عطيّة، ٣٠٩/٤.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ شروع في بيان افتتان الأنبياء عليهم السلام / بأذيّة أممهم إثرَ بيان افتتان المؤمنين [٢٩٣ظ] بأذيّة الكفّار، تأكيدًا للإنكار على الذين يحسَبون أن يُتركوا بمجرّد الإيمان بلا ابتلاء، وحثًّا لهم على الصبر، فإنّ الأنبياء عليهم السلام حيث ابتلُوا بما أصابهم مِن جِهة أممهم مِن فنون المَكاره وصبروا عليها فلَأَن يصبر هؤلاء أَولى وأَحرى.

قالوا: كان عمُر نوح عليه السلام ألفًا وخمسين عامًا، بُعث على رأس أربعين، ودعا قومه تسعمائة وخمسين عامًا،[1] وعاش بعد الطوفان ستّين سنة.[2] وعن وهب: أنّه عاش ألفًا وأربعمائة سنةٍ. ولعلّ ما عليه النظم الكريم للدلالة على كمال العدد، فإنّ تسعمائة وخمسين قد يطلق على ما يقرُب منه، ولِما في ذكر الألْف مِن تخييل طول المدّة، فإنّ المقصود مِن القصّة تسليةُ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم[3] وتثبيتُه على ما كان عليه مِن مكابدة ما يناله مِن الكفرة، وإظهارُ رَكاكة رأي الذين يحسبون أنّهم يُتركون بلا ابتلاء. واختلافُ المميّز لِما في التكرير مِن نوع بشاعة.

﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ﴾ أي: عقيب تمام المدّة المذكورة. و"الطوفان" يطلق على كلّ ما يطوف بالشيء على كثرةٍ وشدّةٍ مِن السيل والريح والظلام، وقد غلَب على طوفان الماء.

﴿وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ أي: والحال أنّهم مستمِرّون على الظلم، لم يتأثّروا بما سمعوا مِن نوح عليه السلام مِن الآيات، ولم يَرْعَوُوا عمّا هم عليه مِن الكفر والمعاصي هذه المدّةَ المتمادية.

---

[1] م ط س - بُعث على رأس أربعين، ودعا قومه تسعمائة وخمسين عامًا ["صح" في هامش م].

[2] الكشف والبيان للثعلبي، ٢٧٤/٧؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٤١٥/٣.

[3] ط س: عليه السلام.

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾﴾

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ﴾ أي: نوحًا عليه السلام ﴿وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾ أي: ومَن ركِب فيها معه مِن أولاده وأتباعه، وكانوا ثمانين. وقيل: ثمانيةً وسبعين. وقيل: عشرةً. وقيل: ثمانيةً، نصفهم ذكور، ونصفهم إناث، ﴿وَجَعَلْنَٰهَآ﴾ أي: السفينةَ، أو الحادثةَ والقصةَ ﴿ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ / يتّعظون بها. [٢٩٤و]

﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾﴾

﴿وَإِبْرَٰهِيمَ﴾ نصب بالعطف على ﴿نُوحًا﴾.[١] وقيل: بإضمار "اذكر". وقُرئ بالرفع[٢] على تقدير: ومِن المرسلين إبراهيمُ. ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ على الأوّل ظرف للإرسال، أي: أرسلناه حين تكامل عقله وقدَر على النظر والاستدلال، وترقّى مِن رتبة الكمال إلى درجة التكميل، حيث تصدّى لإرشاد الخلق إلى طريق الحقّ. وعلى الثاني بدل اشتمال مِن ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾.

﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي: وحده ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾ أن تشركوا به شيئًا، ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ أي: ما ذُكر مِن العبادة والتقوى ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي: ممّا أنتم عليه. ومعنى التفضيل مع أنّه لا خيريّةَ فيه قطعًا باعتبار زعمهم الباطل.

﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: الخيرَ والشرَّ، وتميّزون أحدهما مِن الآخر، أو إن كنتم تعلمون شيئًا مِن الأشياء بوجه مِن الوجوه، فإنّ ذلك كافٍ في الحكم بخيريّة ما ذكر مِن العبادة والتقوى.

﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾

﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا﴾ بيان لبطلان دينهم وشَرّيّته في نفسه بعد بيان شَرّيّته بالنسبة إلى الدين الحقّ، أي: إنّما تعبدون مِن دونه تعالى أوثانًا هي في نفسها تماثيلُ مصنوعة لكم ليس فيها وصف غير ذلك.

---

[١] العنكبوت، ٢٩/١٤.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي جعفر. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٧١.

﴿وَتَخۡلُقُونَ إِفۡكًا﴾ أي: وتكذبون كذِبًا حيث تسمّونها آلهةً وتدّعون أنّها شفعاؤكم عند الله تعالى، أو تعملونها وتنحتونها للإفك. وقُرئ: "تُخَلِّقُونَ" بالتشديد،[١] للتكثير في "الخَلق" بمعنى الكذب والافتراء، و"تَخَلَّقُونَ" بحذف إحدى التاءين،[٢] مِن "تَخَلَّقَ" بمعنى "تكذَّب وتَخرّص". وقُرئ: "أَفِكًا"[٣] على أنّه مصدر كـ"الكذِب" و"اللعِب"، أو نَعت بمعنى: خَلقًا ذا إفك.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ بيان لشَرّيّة ما يعبدونه مِن حيث إنّه لا يكاد يُجديهم نفعًا، ﴿لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقًا﴾ أي: لا يقدرون على أن يرزقوكم شيئًا مِن الرزق، ﴿فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ﴾ كُلَّه، فإنّه هو الرزّاق ذو القوّة المتين، ﴿وَٱعۡبُدُوهُ﴾ وحده ﴿وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓ﴾ / على نَعمائه متوسّلين إلى مطالبكم بعبادته، [٢٩٤ظ] مقيّدين بالشكر للعتيد،[٤] ومستجلبين للمزيد.

﴿إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ أي: بالموت ثمّ البعث، لا إلى غيره، فافعلوا ما أمرتكم به. وقُرئ: "تَرۡجِعُونَ"[٥] مِن "رَجَع رجوعًا".

﴿وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدۡ كَذَّبَ أُمَمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ١٨﴾

﴿وَإِن تُكَذِّبُواْ﴾ أي: تكذّبوني فيما أخبرتكم به مِن أنكم إليه تُرجعون بالبعث ﴿فَقَدۡ كَذَّبَ أُمَمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡ﴾ تعليل للجواب، أي: فلا تضرّونني بتكذيبكم، فإنّ مَن قبلكم مِن الأمم قد كَذّبوا مَن قبلي مِن الرسل، وهم شيث وإدريس ونوح عليهم السلام، فلم يضرَّهم تكذيبُهم شيئًا، وإنّما ضَرّ أنفسهم حيث تَسبَّب لِما حلّ بهم مِن العذاب، فكذا تكذيبكم.

﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ أي: التبليغُ الذي لا يبقى معه شكّ، وما عليه أن يصدّقه قومُه البتّة، وقد خرجت عن عهدة التبليغ بما لا مزيد عليه، فلا يضرّني تكذيبكم بعد ذلك أصلًا.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن خارجة عن نافع. **شواذّ القراءات للكرماني**، ص ٣٧١.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حنيفة والنخعي والسلمي وزيد بن عليّ. **شواذّ القراءات للكرماني**، ص ٣٧١.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن الزبير. **شواذّ القراءات للكرماني**، ص ٣٧٢.

٤ العتيد: الشيء الحاضر المهيّأ. **الصحاح للجوهري**، «عتد».

٥ قرأ بها يعقوب. **النشر لابن الجزري**، ٢/٢٠٩.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ۝١٩﴾

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ﴾ كلام مستأنف مَسوق مِن جهته تعالى للإنكار على تكذيبهم بالبعث مع وضوح دليله وسُنوح سَبيله. و"الهمزة" لإنكار عدم رؤيتهم الموجِب لتقريرها، و"الواو" للعطف على مقدَّر، أي: ألم ينظروا ولم يعلموا عِلمًا جاريًا مَجرى الرؤية في الجلاء والظهور كيفيّةَ خلق الله تعالى الخلق ابتداءً مِن مادّةٍ ومِن غير مادّةٍ، أي: قد علموا ذلك. وقُرئ بصيغة الخطاب[1] لتشديد الإنكار وتأكيده. وقُرئ: "يَبْدَأُ".[2]

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ عطفٌ على ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾، لا على ﴿يُبْدِئُ﴾؛ لعدم وقوع الرؤية عليه، فهو إخبار بأنّه تعالى يعيد الخلق قياسًا على الإبداء. وقد جُوِّز العطف على ﴿يُبْدِئُ﴾ بتأويل الإعادة بإنشائه تعالى كلّ سنة مثلَ ما أنشأه في السنة السابقة مِن النبات والثمار وغيرِهما، فإنّ ذلك ممّا يُستدلّ به على صحّة البعث ووُقوعه مِن غير ريب.

﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾ أي: ما ذُكر مِن الإعادة ﴿عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ إذ لا يفتقر فعله إلى شيء أصلًا.

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٢٠﴾

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أمرٌ لإبراهيم عليه السلام أن يقول لهم ذلك، أي: سيروا فيها ﴿فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ أي: كيف خلقَهم ابتداءً على أطوارٍ مختلفة وطبائعَ متغايرة وأخلاقٍ شتّى، فإنّ ترتيب النظر على السير في الأرض مُؤذِن بتتبّع أحوال أصناف الخلق القاطنين في أقطارها.

[٢٩٥و] ﴿ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ﴾ / بعد النشأة الأولى التي شاهدتموها. والتعبير عن الإعادة التي هي محلّ النزاع بالنشأة الآخرة المُشعِرة بكون البدءِ نشأةً أُولى

---

[1] قرأ بها حمزة والكسائي وخَلف وشعبة عن عاصم بخُلف عنه. النشر لابن الجزري، ٣٤٣/٢.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن الزبير وعيسى وأبي عمرو. البحر المحيط لأبي حيّان، ٣٤٨/٨.

للتنبيه على أنّهما شأن واحد مِن شئون الله تعالى حقيقةً واسمًا مِن حيث إنّ كلًّا منهما اختراع وإخراج مِن العدم إلى الوجود، لا فرقَ بينهما إلّا بالأوّلِيّة والآخِرِيّة.

وقُرِئ: "النَّشَاءَةَ" بالمدّ،[1] وهما لغتان، كـ"الرَّأْفة" و"الرَّآفة". ومحلّها النصب على أنّها مصدر مؤكِّد لـ﴿يُنشِئُ﴾ بحذف الزوائد، والأصل "الإنْشاءة"، أو بحذف العامل، أي: يُنْشِئ فيَنْشَأون النشأةَ الآخرة، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ [آل عمران، ٣/٣٧].

والجملة معطوفة على جملة ﴿سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ داخلة معها في حيّز القول. وإظهارُ الاسم الجليل وإيقاعُه مبتدأً مع إضماره في ﴿بَدَأَ﴾ لإبراز مزيد الاعتناءِ ببيان تحقّق الإعادة بالإشارة إلى علّة الحكم وتكريرِ الإسناد.

وقوله عزّ وجلّ:[2] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ تعليل لِما قبله بطريق التحقيق، فإنّ مَن علم قدرتَه تعالى على جميع الأشياء التي مِن جملتها الإعادة، لا يُتصوّر أن يتَردّد في قدرته عليها، ولا في وقوعها بعد ما أخبر به.

﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾﴾

﴿يُعَذِّبُ﴾ أي: بعد النشأة الآخرة ﴿مَن يَشَآءُ﴾ أن يعذّبه، وهم المنكِرون لها حتمًا، ﴿وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ﴾ أن يرحمه، وهم المصدِّقون بها. والجملة تكملة لِما قبلها. وتقديم التعذيب لِما أنّ الترهيب أنسب بالمقام مِن الترغيب. ﴿وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ عند ذلك، لا إلى غيره، فيفعل بكم ما يشاء مِن التعذيب والرحمة.

﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾

﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ له تعالى عن إجراء حكمه وقضائه عليكم ﴿فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: بالتواري في الأرض، أو الهبوط في مهاويها، ولا بالتحصّن في السماء

---

[1] قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٢/٣٤٣.

[2] س: تعالى.

التي هي أفسح منها لو استطعتم الرقيّ فيها، كما في قوله تعالى: ﴿إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟﴾ [الرحمن، ٣٣/٥٥]، أو القلاعِ الذاهبة فيها. وقيل: ﴿فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ / صفة لمحذوف معطوف على ﴿أَنتُم﴾، أي: ولا مَن في السماء. [٢٩٥ظ]

﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ يحرسكم ممّا يصيبكم مِن بلاء يظهر مِن الأرض، أو ينزل مِن السماء، ويدفعه عنكم.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: بدلائله التكوينيّة والتنزيليّة الدالّةِ على ذاته وصفاته وأفعاله، فيدخل فيها النشأة الأولى الدالّة على تحقّق البعث والآياتُ الناطقة به دخولًا أوّليًا. وتخصيصها بدلائل وحدانيّته تعالى[1] لا يناسب المقام. ﴿وَلِقَآئِهِۦٓ﴾ الذي ينطق به تلك الآيات. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بما ذُكر مِن الكفر بآياته تعالى ولقائه ﴿يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى﴾ أي: يَيْأسون منها يوم القيامة. وصيغة الماضي للدلالة على تحقّقه، أو يَئِسُوا منها في الدنيا لإنكارهم البعث والجزاء.

﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وفي تكرير اسم الإشارة وتكريرِ الإسناد وتنكيرِ العذاب ووصفِه بالأليم مِن الدلالة على كمال فَظاعة حالهم ما لا يخفى، أي: أولئك الموصوفون بالكفر بآيات الله تعالى ولقائه، وباليأس مِن رحمته الممتازون بذلك عن سائر الكفرة، لهم بسبب تلك الأوصاف القبيحة عذاب لا يقادَر قدرُه في الشدّة والإيلام.

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ﴾ بالنصب على أنّه خبر ﴿كَانَ﴾، واسمُها قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾ وقُرئ بالرفع[2] على العكس، وقد مرّ ما فيه في نظائره.

---

[1] أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٩٢/٤.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وابن أبي إسحاق. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٧٢.

وليس المراد أنّه لم يصدر عنهم بصدد الجواب عن حُجج إبراهيم عليه السلام / إلّا هذه المقالة الشنيعة كما هو المتبادر مِن ظاهر النظم الكريم؛ بل إنّ ذلك [٢٩٦و] هو الذي استقرّ عليه جوابهم بعد اللُّتيّا والتي[١] في المرّة الأخيرة، وإلّا فقد صدر عنهم مِن الخرافات والأباطيل ما لا يحصى.

﴿فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ "الفاء" فصيحة، أي: فألقَوه في النار، فأنجاه الله تعالى منها بأن جعلها عليه عليه السلام بردًا وسلامًا حسبما بيّن في مواضع أُخر. وقد مرّ في سورة الأنبياء[٢] بيان كيفيّة إلقائه عليه السلام فيها وإنجائه تعالى إيّاه تفصيلًا. قيل: لم يُنتفَع يومئذ بالنار في موضعٍ أصلًا.[٣]

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: في إنجائه منها ﴿لَأٓيَٰتٖ﴾ بيّنةً عجيبةً، هي حفظه تعالى إيّاه مِن حرّها، وإخمادُها في زمان يسير، وإنشاء رَوض في مكانها ﴿لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ وأمّا مَن عداهم فهم عن اجتلائها غافلون، ومِن الفوز بمغانم آثارها محرومون.

﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ۝٢٥﴾

﴿وَقَالَ﴾ أي: إبراهيم عليه السلام مخاطِبًا لهم: ﴿إِنَّمَا ٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ أي: لتَتَوادُّوا بينكم وتتواصلوا، لاجتماعكم على عبادتها وائتلافكم. وثاني مفعولَي ﴿ٱتَّخَذۡتُم﴾ محذوف، أي: أوثانًا آلهة. ويجوز أن يكون ﴿مَّوَدَّةَ﴾ هو المفعولَ بتقدير المضاف، أو بتأويلها بالمَودودة، أو بجعلها نفسَ المودّة مبالغةً، أي: اتّخذتم أوثانًا سببَ المودّة بينكم، أو مَودودة، أو نفس المودّة.

وقُرئ: "مَوَدَّةً" منوّنةً منصوبةً ناصبةً للظرف.[٤] وقُرئت بالرفع والإضافةِ[٥] على أنّها خبر مبتدأ محذوف، أي: هي مَودودة، أو نفسُ المودّة، أو سببُ مودّة بينكم.

---

[١] اللُّتيا والّتِي: يكنى بهما عن الشدّة، واللُّتيا: تصغير التي، وهي عبارة عن الداهية المتناهية. **مجمع الأمثال** للميداني، ١/١٦٤.

[٢] الأنبياء، ٢١/٦٨-٦٩.

[٣] **معاني القرآن** للزجّاج، ٤/١٦٦؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٣/٤٥٠.

[٤] قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن عامر وشعبة عن عاصم ورَوح عن يعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٣٤٣.

[٥] قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ورُويس عن يعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٣٤٣.

والجملة صفة ﴿أَوْثَٰنًا﴾، أو خبر ﴿إِنَّ﴾ على أنّ ﴿مَا﴾ مصدريّة، أو موصولة قد حُذف عائدها، وهو المفعول الأوّل.

وقُرئت مرفوعة منوّنة[1] ومضافة[2] بفتح ﴿بَيْنِكُمْ﴾، كما قُرئ: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام، ٦/٩٤] / على أحد الوجهين.[3] وقُرئ: "إِنَّمَا مَوَدَّةُ بَيْنِكُمْ"،[4] [٢٩٦ظ] والمعنى: إنّ اتّخاذكم إيّاها مودّةُ بينِكم ليس إلّا في الحياة، وقد أجريتم أحكامه، حيث فعلتم بي ما فعلتم لأجل مودّتكم لها انتصارًا منّي، كما يُنبئ عنه قوله تعالى: ﴿وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ﴾ [الأنبياء، ٢١/٦٨].

﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ ينقلب الأمور، ويتبدّل التوادّ تباغضًا، والتلاطفُ تلاعنًا، حيث ﴿يَكْفُرُ بَعْضُكُم﴾ وهم العبَدة ﴿بِبَعْضٍ﴾ وهم الأوثان ﴿وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ أي: يلعن كلّ فريقٍ منكم ومِن الأوثان -حيث يُنطقها الله تعالى- الفريقَ الآخر.

﴿وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾ أي: هي منزلكم الذي تأوون إليه، ولا ترجعون منه أبدًا، ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ يخلّصونكم منها كما خلّصني ربّي مِن النار التي ألقيتموني فيها. وجمعُ "الناصر" لوقوعه في مقابلة الجمع، أي: ما لأحد منكم مِن ناصر أصلًا.

﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾﴾

﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾ أي: صدَّقه في جميع مقالاته، لا في نبوّته وما دعا إليه مِن التوحيد فقط، فإنّه كان منزّهًا عن الكفر. وما قيل: إنّه آمَن له حين رأى النار لم تُحرقه،[5] ينبغي أن يحمل على ما ذكرنا، أو على أن يراد بالإيمان الرتبة العالية منها، وهي التي لا يرتقي إليها إلّا هِمَم الأفراد الكُمّل. ولوط هو ابن أخته عليهما السلام.

---

١ أي: "مَوَدَّةٌ بَيْنَكُمْ". قراءة شاذّة، مرويّة عن الزعفراني وأبي حيوة وابن أبي عبلة والحسن وابن مِقسم والبرجمي والأصمعي عن أبي عمرو. **الكامل للهذلي**، ص ٦١٥.

٢ أي: "مَوَدَّةُ بَيْنَكُمْ". قراءة شاذّة، مرويّة عن عاصم. **البحر المحيط لأبي حيّان**، ٨/٣٥١.

٣ قرأ بنصب النون نافع وأبو جعفر والكسائي وحفص عن عاصم، وقرأ برفعها باقي العشرة. **النشر لابن الجزري**، ٢/٢٦٠.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. **معاني القرآن للفرّاء**، ٢/٣١٦.

٥ **الكشّاف للزمخشري**، ٣/٤٥١.

﴿وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ﴾ أي: مِن قومي ﴿إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾ إلى حيث أمرني به، ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب على أمره، فيمنعني مِن أعدائي، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي لا يفعل فعلًا إلّا وفيه حكمة ومصلحة، فلا يأمرني إلّا بما فيه صلاحي. ورُوي أنّه هاجر مِن كوثى مِن سواد الكوفة مع لوط وسارة ابنة عمّه إلى حرّان، ثمّ منها إلى الشام، فنزل فلسطين، ونزل لوط سَذُومَ.[١]

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ ولدًا ونافلةً حين أيِس مِن عجوز عاقر، ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ﴾ / فكثر منهم الأنبياء، ﴿وَٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: جنسَ الكتاب المتناوِلَ للكتب الأربعة، ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ﴾ بمقابلة هجرته إلينا ﴿فِى ٱلدُّنْيَا﴾ بإعطاء الولد والذرّيّة الطيّبة، واستمرارِ النبوّة فيهم، وانتماءِ أهل المِلل إليه، والثناءِ والصلاةِ عليه آخر الدهر، ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي: الكاملين في الصلاح. [٢٩٧و]

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾﴾

﴿وَلُوطًا﴾ منصوب إمّا بالعطف على ﴿نُوحًا﴾،[٢] أو على ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾.[٣] والكلام في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ كالذي مرّ في قصّة إبراهيم عليه السلام. ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ أي: الفِعلة المتناهية في القُبح. وقُرئ: "أَئِنَّكُمْ".[٤]

﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ استئناف مقرِّر لكمال قُبحها، فإنّ إجماع جميع أفراد العالمين على التحاشي عنها ليس إلّا لكونها ممّا تَشمئِزّ منه الطباع، وتنفِر منه النفوس.

---

١ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٩٣/٤؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٣٥٣/٨.

٢ العنكبوت، ١٤/٢٩.

٣ العنكبوت، ١٦/٢٩.

٤ قرأ بها أبو عمرو وحمزة والكسائي وخلف وشعبة عن عاصم، وكلٌّ على أصله في تحقيق الهمزة الثانية وتسهيلها. انظر: النشر لابن الجزري، ٣٧٣/١.

﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٩﴾﴾

﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ﴾ وتتعرّضون للسابِلة، أي: بالفاحشة، حيث رُوي أنّهم كانوا كثيرًا ما يفعلونها بالغرباء. وقيل: تقطعون سبيل النساء بالإعراض عن الحَرث، وإتيانِ ما ليس بحَرث. وقيل: تقطعون السبيل بالقتل وأخذ المال.

﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ﴾ أي: تفعلون في مجلسكم الجامع لأصحابكم ﴿الْمُنكَرَ﴾ كالجِماع والضُّراط وحَلِّ الإزار وغيرِها ممّا لا خير فيه مِن الأفاعيل المنكَرة. وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «هو الخَذْفُ بالحصى، والرميُ بالبنادق، والفَرقَعةُ، ومضغُ العِلك، والسِّواكُ بين الناس، وحلُّ الأزرار،[1] والسِّبابُ، والفُحشُ في المزاح».[2] وقيل: السخريّة بمَن مرّ بهم. وقيل: المجاهَرة في ناديهم بذلك العمل.

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أي: فما كان جوابًا مِن جهتهم / شيء مِن الأشياء إلّا هذه الكلمة الشنيعة، أي: لم يصدر عنهم في هذه المرّة مِن مرّات مَواعظ لوط عليه السلام، وقد كان أوعدهم فيها بالعذاب، وأمّا ما في سورة الأعراف مِن قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾ الآيةَ [الأعراف، ٨٢/٧]، وما في سورة النمل مِن قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾ الآيةَ [النمل، ٥٦/٢٧] فهو الذي صدر عنهم بعد هذه المرّة، وهي المرّة الأخيرة مِن مرّات المقاوَلات الجارية بينهم وبينه عليه السلام، وقد مرّ تحقيقه في سورة الأعراف.[3]

[٢٩٧ظ]

﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾﴾

﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي﴾ أي: بإنزال العذاب الموعود ﴿عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾ بابتداع الفاحشة، وسَنِّها فيمَن بعدهم، والإصرارِ عليها، واستعجالِ العذاب بطريق الاستهزاء. وإنّما وصفَهم بذلك مبالغة في استنزال العذاب عليهم.

---

١ س: الإزار.

٢ الكشّاف للزمخشري، ٤٥٢/٣؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٣٥٤/٨.

٣ الأعراف، ٨٢/٧.

﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِۖ إِنَّ أَهۡلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ٣١﴾

﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ﴾ أي: بالبشارة بالولد والنافلة ﴿قَالُوٓاْ﴾ أي: لإبراهيم عليه السلام[١] في تضاعيف الكلام حسبما فصّل في سورة هود[٢] وسورة الحجر.[٣] ﴿إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ﴾ أي: قرية سَذوم، فالإضافة[٤] لفظيّة؛ لأنّ المعنى على الاستقبال. ﴿إِنَّ أَهۡلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾ تعليل للإهلاك بإصرارهم على الظلم، وتماديهم في فنون الفساد وأنواعِ المعاصي.

﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطٗاۚ قَالُواْ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَن فِيهَاۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ٣٢﴾

﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطٗا﴾ فكيف تهلكونها؟ ﴿قَالُواْ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَن فِيهَاۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥٓ﴾ أرادوا أنّهم غير غافلين عن مكان لوط عليه السلام فيها؛ بل عمّن لم يتعرّض له إبراهيم عليه السلام مِن أتباعه المؤمنين، وأنّهم معتنون بشأنهم أتمَّ اعتناء حسبما يُفصِح عنه تصدير الوعد بالتنجية بالقسَم، أي: واللهِ لَنُنجينّه وأهلَه، ﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ أي: الباقين في العذاب، أو القرية.

﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗاۖ وَقَالُواْ لَا تَخَفۡ وَلَا تَحۡزَنۡ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهۡلَكَ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ٣٣﴾

﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتۡ رُسُلُنَا﴾ المذكورون بعد مفارقتهم لإبراهيم عليه السلام[٥] ﴿لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ﴾ اعتراه المساءة بسببهم مخافةَ أن يتعرّض لهم قومه / بسوء. وكلمة ﴿أَن﴾ صلة لتأكيد ما بين الفعلين مِن الاتّصال. ﴿وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا﴾ أي: ضاقَ بشأنهم وتدبير أمرهم ذرعُه، أي: طاقته، كقولهم: "ضاقَت يدُه"، وبإزائه: "رَحُبَ ذَرعُه بكذا" إذا كان مُطيقًا به قادرًا عليه، وذلك أنّ طويل الذراع ينال ما لا يناله قصيرُ الذراع. [٢٩٨و]

---

١ م – عليه السلام.
٢ هود، ٦٩/١١.
٣ الحجر، ٦٧/١٥.
٤ ط س: والإضافة.
٥ م – عليه السلام.

﴿وَقَالُواْ﴾ ريثما شاهدوا فيه مَخائل التضجّر مِن جهتهم، وعاينوا أنّه قد عجز عن مدافعة قومه بعد اللّتيا والتي[١] حتّى آلَت به الحال إلى أن قال: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود، ٨٠/١١]: ﴿لَا تَخَفْ﴾ أي: مِن قومك علينا ﴿وَلَا تَحْزَنْ﴾ أي: على شيء، وقيل: بإهلاكنا إيّاهم، ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ﴾ ممّا يصيبهم مِن العذاب ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ وقُرئ: "لَنُنْجِينَّهُ"،[٢] و"مُنْجُوكَ"[٣] مِن "الإنجاء"، وأيًّا ما كان فمحلّ "الكاف" الجرّ على المُختار، ونَصبُ ﴿أَهْلَكَ﴾ بإضمار فعل، أو بالعطف على محلّها باعتبار الأصل.

﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ٣٤﴾

﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ استئناف مَسوق لبيان ما أشيرَ إليه بوعدِ التنجية مِن نزول العذاب عليهم. و"الرِّجز": العذاب الذي يُقْلِق المعذَّب، أي: يُزعجه، مِن قولهم: "ارْتَجَزَ" إذا ارتجسَ واضطرب. وقُرئ: "مُنَزِّلُونَ" بالتشديد.[٤] ﴿بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾ بسبب فِسقهم المستمرّ.

﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ٣٥﴾

﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا﴾ أي: مِن القرية ﴿ءَايَةًۢ بَيِّنَةً﴾ هي قصّتها العجيبة، وآثار ديارها الخَربة. وقيل: الحجارة المَمطورة، فإنّها كانت باقية بعدها. وقيل: الماء الأسود على وجه الأرض. ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ يستعملون عقولهم في الاستبصار والاعتبار، وهو متعلّق إمّا بـ﴿تَّرَكْنَا﴾ أو بـ﴿بَيِّنَةً﴾.

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرْجُواْ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ٣٦﴾

---

[١] اللّتيا والّتي: يكنى بهما عن الشدّة، واللّتيا: تصغير التي، وهي عبارة عن الداهية المتناهية. مجمع الأمثال للميداني، ١٦٤/١.

[٢] قرأ بها حمزة والكسائي وخلف ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢٥٩/٢.

[٣] قرأ بها ابن كثير وحمزة والكسائي وخلف ويعقوب وشعبة عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٢٥٩/٢.

[٤] قرأ بها ابن عامر. النشر لابن الجزري، ٣٤٣/٢.

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ متعلّق بمُضمَر معطوف على ﴿أَرْسَلْنَا﴾[1] في قصّة نوح، أي: وأرسلنا إلى مدين شعيبًا، ﴿فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ وحدَه، ﴿وَٱرْجُواْ ٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ﴾ أي: توقَّعوه / وما سيقع فيه مِن فنون الأهوال، وافعلوا اليومَ مِن الأعمال ما تأمنون غائلته. وقيل: وارجوا ثوابه، بطريق إقامة المسبَّب مُقام السبب. وقيل: الرجاء بمعنى الخوف. ﴿وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾. [٢٩٨ظ]

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ۝٣٧﴾

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ أي: الزلزلة الشديدة. وفي سورة هود: ﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ﴾ [هود، ٩٤/١١]، أي: صيحة جبريل عليه السلام، فإنّها الموجِبة للرجفة، بسبب تمويجها للهواء وما يجاورها مِن الأرض، ﴿فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ﴾ أي: بلدهم أو منازلهم، والإفرادُ لأمْن اللَّبس، ﴿جَٰثِمِينَ﴾ بارِكين على الرُّكَب ميّتين.

﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ۝٣٨﴾

﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ﴾ منصوبان بإضمار فعلٍ يُنبئ عنه ما قبله، أي: أهلكْنا. وقُرئ: "ثَمُودًا"[2] بتأويل الحيّ، ﴿وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ﴾ أي: وقد ظهر لكم إهلاكُنا إيّاهم مِن جهة مساكنهم بالنظر إليها عند اجتِيازكم بها ذهابًا إلى الشام وإيابًا منه.

﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ مِن فنون الكفر والمعاصي، ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ السويّ الموصل إلى الحقّ، ﴿وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ﴾ متمكّنين مِن النظر والاستدلال، ولكنّهم لم يفعلوا ذلك، أو متبيّنين أنّ العذاب لاحِق بهم بإخبار الرسل عليهم السلام لهم، ولكنّهم لجُّوا حتّى لَقوا ما لَقوا.

---

[1] العنكبوت، ١٤/٢٩.

[2] قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر والكسائي وخَلف وشعبة عن عاصم. انظر: النشر لابن الجزري، ٢٨٩/٢.

﴿وَقَٰرُونَ وَفِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ ٣٩﴾

﴿وَقَٰرُونَ وَفِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ﴾ معطوف على ﴿عَادًا﴾.[1] قيل: تقديم ﴿قَٰرُونَ﴾ لشَرف نسبه.

﴿وَلَقَدۡ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ﴾ مُفلِتين فائتين، مِن قولهم: "سبَقَ طالِبَه" إذا فاته ولم يدرِكه، ولقد أدركهم أمر الله عزّ وجلّ أيَّ إدراك، فتداركوا نحو الدمار والهلاك.

﴿فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبٗا وَمِنۡهُم مَّنۡ أَخَذَتۡهُ ٱلصَّيۡحَةُ وَمِنۡهُم مَّنۡ خَسَفۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ وَمِنۡهُم مَّنۡ أَغۡرَقۡنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٤٠﴾

﴿فَكُلًّا﴾ تفسير لِما يُنبئ عنه عدم سبقهم بطريق الإبهام، أي: فكلَّ واحد مِن المذكورين ﴿أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾ أي: عاقبناه بجنايته -لا بعضَه دونَ بعضٍ- كما يُشعر به تقديم المفعول.

[٢٩٩و] / ﴿فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبٗا﴾ تفصيل للأخذ، أي: ريحًا عاصفًا فيها حَصباء -وقيل: مَلِكًا-[2] رماهم بها، وهم قوم لوط، ﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ أَخَذَتۡهُ ٱلصَّيۡحَةُ﴾ كمَدْيَن وثمود، ﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ خَسَفۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ﴾ كقارون، ﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ أَغۡرَقۡنَا﴾ كقوم نوح وفرعونَ وقومِه.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ﴾ بما فعل بهم، فإنّ ذلك مُحال مِن جهته تعالى، ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ بالاستمرار على مباشرة ما يوجب ذلك مِن أنواع الكفر والمعاصي.

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتٗاۖ وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٤١﴾

---

[1] في الآية السابقة.

[2] انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤/١٩٥.

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ﴾ فيما اتّخذوه معتمِدًا ومتّكِلًا ﴿كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتٗاۖ﴾ فيما نسجَته في الوهَن والخوَر؛ بل ذلك أوْهَن مِن هذا؛ لأنّ له حقيقةً وانتفاعًا في الجملة، أو مَثَلُهم بالإضافة إلى الموحِّد كمَثَله بالإضافة إلى رجل يبني بيتًا مِن حَجَر وجِصّ.

و﴿ٱلۡعَنكَبُوتِ﴾ يقع على الواحد والجمع، والمذكّر والمؤنّث، والغالبُ في الاستعمال التأنيث، و"تاؤُه" كتاء "طاغوت"، ويُجمع على "عَناكِب" و"عَنكبوتاتٍ"، وأمّا "العِكاب" و"العُكْبُ" و"الأَعْكُبُ" فأسماءُ الجموع.

﴿وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِۖ﴾ حيث لا يُرَى شيء يُدانيه في الوهَن والوَهْي.[١] ﴿لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ أي: شيئًا مِن الأشياء لَجَزَمُوا أنّ هذا مَثَلهم، أو أنّ دينهم أوْهَى مِن ذلك. ويجوز أن يُجعل ﴿بَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِ﴾ عبارة عن دينهم تحقيقًا للتمثيل، فالمعنى: وإنّ أوْهَن ما يُعتمد به في الدين دينُهم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٤٢﴾

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يَدۡعُونَ[٢] مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ﴾ على إضمار القول، أي: قل للكفرة: إنّ الله... إلخ. و﴿مَا﴾ استفهاميّة منصوبة بـ﴿يَدۡعُونَ﴾[٣] معلِّقةٌ لـ﴿يَعۡلَمُ﴾، و﴿مِن﴾ للتبيين، أو نافيةٌ، و﴿مِن﴾ مزيدة، و﴿شَيۡءٖ﴾ مفعولُ ﴿يَدۡعُونَ﴾، أو مصدريّة و﴿شَيۡءٖ﴾ عبارة عن المصدر، / أو موصولة مفعول لـ﴿يَعۡلَمُ﴾، ومفعول ﴿يَدۡعُونَ﴾ عائدُه المحذوف. وقُرِئ: "تَدْعُونَ" بـ"التاء"،[٤] والكلام على الأوَّلَين تجهيل لهم وتأكيد للمَثَل، وعلى الأخيرَين وعيد لهم. [٢٩٩ظ]

﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ تعليل على المعنيَين، فإنّ إشراك ما لا يُعدّ شيئًا بمَن هذا شأنه مِن فَرْط الغَباوة، وإنّ الجماد بالنسبة إلى القادر القاهر على كلّ شيء

---

١ الوَهْيُ: الضعف. انظر: لسان العرب لابن منظور، «وهي».

٢ م: تَدْعُون. | وسيأتي ذكر القراءة بالتاء مِن كلام المؤلّف.

٣ م: بـ"تَدْعُونَ". | وسيأتي ذكر القراءة بالتاء مِن كلام المؤلّف.

٤ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وابن عامر وحمزة والكسائي وخلف. انظر: النشر لابن الجزري، ٣٤٣/٢.

البالغِ في العلم وإتقانِ الفعل الغايةَ القاصيةَ كالمعدوم البَحت، وإنّ مَن هذه صفاته قادر على مُجازاتهم.

﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾

﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ﴾ أي: هذا المَثَل وأمثالُه ﴿نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾ تقريبًا لِما بَعُدَ مِن أفهامهم، ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا﴾ على ما هي عليه مِن الحُسن واستتباع الفوائد ﴿إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ﴾ الراسخون في العلم، المتدبّرون في الأشياء على ما ينبغي. وعنه صلّى الله عليه وسلّم أنّه تلا هذه فقال: «العالِم مَن عقَل عن الله تعالى،[1] وعمل بطاعته، واجتنب سخَطه».[2]

﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾﴾

﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: مُحِقًّا مراعيًا للحِكَم والمصالح، على أنّه حال مِن فاعِل ﴿خَلَقَ﴾، أو ملتبسةً بالحقّ الذي لا مَحيد عنه مستتبِعةً للمنافع الدينيّة والدنيويّة، على أنّه حال مِن مفعولِه، فإنّها مع اشتمالها على جميع ما يتعلّق به معاشهم شواهدُ دالّة على شئونه تعالى المتعلِّقة بذاته وصفاته، كما يُفصح عنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ دالّةً لهم ما ذُكر مِن شئونه سبحانه. وتخصيص المؤمنين بالذِّكر مع عموم الهداية والإرشاد في خلقهما للكلّ لأنّهم المنتفعون بذلك.

﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾

﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ تقرّبًا إلى الله تعالى بقراءته، وتذكّرًا لِما في تضاعيفه مِن المعاني، وتذكيرًا للناس، وحملًا لهم على العمل بما فيه مِن الأحكام ومحاسن الآداب ومكارم الأخلاق.

---

[1] م - تعالى.

[2] **الكشف والبيان** للثعلبي، ٧/٢٨٠؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٣/٤٥٥. وانظر: **تخريج أحاديث الكشّاف** للزيلعي، ٣/٤٣.

﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: داوِمْ على إقامتها. وحيث كانت الصلاة منتظِمةً للصلوات المكتوبة المؤدّاة بالجماعة، وكان أمره عليه السلام بإقامتها متضمِّنًا لأمر الأمّة بها؛ عُلِّل بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ﴾ كأنّه قيل: وصَلِّ بهم، / إنّ الصلاة تنهاهم عن الفحشاء والمنكر. [٣٠٠و]

ومعنى نهيِها عنهما أنّها سبب للانتهاء عنهما؛ لأنّها مناجاة لله تعالى، فلا بدّ أن تكون مع إقبالٍ تامّ على طاعته، وإعراضٍ كلّي عن معاصيه، قال ابن مسعود وابن عبّاس رضي الله تعالى[١] عنهم: «في الصلاة مُنتَهًى ومُزدَجر عن معاصي الله تعالى، فمَن لم يأمره صلاته بالمعروف ولم تَنْهَهُ عن المنكَر لم يَزدَد بصلاته مِن الله تعالى إلّا بُعدًا».[٢]

وقال الحسَن وقتادة: «مَن لم تَنْهَهُ صلاته عن الفحشاء والمنكر فصلاته وَبال عليه».[٣]

وروى أنس رضي الله عنه: إنّ فتًى مِن الأنصار كان يصلّي مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، ثمّ لا يدع شيئًا مِن الفواحش إلّا ركبه، فوُصِف له عليه السلام حالُه، فقال: «إنّ صلاته ستنهاه»، فلم يلبث أن تاب وحسُن حالُه.[٤]

﴿وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُ﴾ أي: ولَلصلاةُ أكبر مِن سائر الطاعات، وإنّما عُبِّر عنها به كما في قوله تعالى: ﴿فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة، ٩/٦٢] للإيذان بأنّ ما فيها مِن ذِكر الله تعالى هو العمدة في كونها مفضَّلة على الحسنات ناهيةً عن السيّئات. وقيل: ولَذكرُ الله تعالى عند الفحشاء والمنكر، وذكرُ نهيه عنهما ووعيدِه عليهما أكبرُ في الزجر عنهما. وقيل: ولَذكر الله إيّاكم برحمته أكبر مِن ذِكركم إيّاه بطاعته.

---

١ س – تعالى.

٢ جامع البيان للطبري، ٤٠٨/١٨؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٨٠/٧.

٣ التفسير الوسيط للواحدي، ٤٢١/٣؛ اللباب لابن عادل، ٣٥٩/١٥.

٤ الكشّاف للزمخشري، ٤٥٦/٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٩٦/٤. قال الحافظ ابن حجر: «لم أجده». قال الولي العراقي: «لم أقف عليه». وفي مسند أحمد، ٤٨٣/١٥ (٩٧٧٦)، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: جاء رجل إلى النبي صلّى الله عليه وسلّم، فقال: «إنّ فلانًا يصلّي بالليل، فإذا أصبح سرَق»، قال: «إنّه سينهاه ما تقول». انظر: الفتح السماوي للمناوي، ٨٩٧/٢.

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ منه ومِن سائر الطاعات، فيجازيكم بها أحسنَ المُجازاة.

﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾﴾

﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ مِن اليهود والنصارى ﴿إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ أي: بالخصلة التي هي أحسن، كمقابلة الخُشونة باللين، والغضبِ بالكَظم، والمشاغبةِ بالنُّصح، والسَّورة بالأَناة؛ على وجهٍ لا يدلّ على الضعف، ولا يؤدّي إلى إعطاء الدنيّة. / [٣٠٠ظ] وقيل: منسوخ بآية السيف.[1]

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ﴾ بالإفراط في الاعتداء والعناد، أو بإثبات الولد، وقولِهم: "يدُ الله مغلولة"،[2] ونحو ذلك، فإنّه يجب حينئذ المدافعة بما يليق بحالهم.

﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ مِن القرآن ﴿وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ أي: وبالذي أُنزل إليكم مِن التوراة والإنجيل، وقد مرّ تحقيق كيفيّة الإيمان بهما في خاتمة سورة البقرة.[3] وعن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «لا تصدّقوا أهل الكتاب ولا تكذّبوهم، وقولوا: "آمنّا بالله وبكتبه ورسله"، فإن قالوا باطلًا لم تصدّقوهم، وإن قالوا حقًّا لم تكذّبوهم».[4]

﴿وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ﴾ لا شريكَ له في الألوهيّة ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ مطيعون خاصّةً. وفيه تعريض بحال الفريقين حيث اتّخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا مِن دون الله.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾﴾

---

١ آية السيف قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ الآية [التوبة، ٩/٥].

٢ قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ﴾ الآية [المائدة، ٥/٦٤].

٣ البقرة، ٢/٢٨٥.

٤ مسند أحمد، ٢٨/٤٦٠ (١٧٢٢٥)؛ سنن أبي داود، ٥/٤٨٧ (٣٦٤٤). وأخرجه البخاري في صحيحه، ٦/٢٠ (٤٤٨٥) بلفظ: «لا تصدِّقوا أهل الكتاب ولا تكذِّبوهم، وقولوا: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ الآية [البقرة، ٢/١٣٦]».

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ تجريد للخطاب إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وذلك إشارة إلى مصدر الفعل الذي بعده، وما فيه مِن معنى البُعد للإيذان ببُعد منزلة المشار إليه في الفضل، أي: مِثل ذلك الإنزال البديع الموافق لإنزال سائر الكتب ﴿أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ أي: القرآن الذي مِن جملته هذه الآية الناطقة بما ذُكر مِن المجادلة بالحسنى.

﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ مِن الطائفتين ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ أريدَ بهم عبد الله بن سلام وأضرابُه مِن أهل الكتابَين خاصّة، كأنّ مَن عداهم لم يُؤتَوا الكتابَ حيث لم يعملوا بما فيه، أو مَن تقدّم عهد الرسول صلّى الله عليه وسلّم منهم حيث كانوا مصدّقين بنزوله حسبما شاهدوا في كتابَيهما. وتخصيصهم بإيتاء الكتاب للإيذان بأنّ مَن بعدهم مِن معاصري رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قد نُزِع عنهم الكتاب بالنسخ فلم يُؤتَوه. و"الفاء" / لترتيب ما بعدها على ما قبلها، فإنّ [٣٠١و] إيمانهم به مترتّب على إنزاله على الوجه المذكور.

﴿وَمِنْ هَـٰٓؤُلَآءِ﴾ أي: ومِن العرب، أو أهلِ مكّة على الأوّل، أو ممَّن في عصره عليه السلام على الثاني، ﴿مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ أي: بالقرآن. ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾ عُبّر عن الكتاب بـ"الآيات" للتنبيه على ظهور دلالتها على معانيها، وعلى كونها مِن عند الله تعالى. وأضيفت إلى "نون" العظمة لمزيد تفخيمها، وغاية تشنيع مَن يجحد بها، ﴿إِلَّا ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ المتوغِّلون في الكفر المصمِّمون عليه، فإنّ ذلك يصدّهم عن التأمّل فيما يؤدّيهم إلى معرفة حقّيّتها. وقيل: هم كعب بن الأشرف وأصحابه.

﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَـٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾

﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ﴾ أي: ما كنتَ قبل إنزالنا إليك الكتاب تَقدِر على أن تتلوَ شيئًا ﴿مِن كِتَـٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ﴾ ولا تقدر على أن تخطّه ﴿بِيَمِينِكَ﴾ حسبما هو المعتاد، أو ما كانت عادتك أن تتلوَه، ولا أن تخطّه.

﴿إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ أي: لو كنت ممّن يقدر على التلاوةِ والخطّ، أو ممّن يعتادهما لارتابوا وقالوا: لعلّه التقطه مِن كتب الأوائل، وحيث لم تكن كذلك

لم يبقَ في شأنك منشأ ريبٍ أصلًا. وتسميتهم مبطلين في ارتيابهم على التقدير المفروض لكونهم مبطلين في اتِّباعهم للاحتمال المذكور مع ظهور نزاهته عليه السلام عن ذلك.

﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾

﴿بَلْ هُوَ﴾ أي: القرآن ﴿ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ﴾ واضحاتٌ ثابتة راسخة ﴿فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ مِن غير أن يُلتقَط مِن كتاب يحفظونه بحيث لا يقدر أحد على تحريفه، ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ مع كونها كما ذكر ﴿إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ المتجاوِزون للحدود في الشرّ والمُكابرة والفساد.

﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾﴾

[٣٠١ظ] ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ / ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ مثلُ ناقة صالح، وعصا موسى، ومائدة عيسى عليهم السلام. وقُرئ: "آيَةٌ".[١]

﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ ينزّلها حسبما يشاء مِن غير دخل لأحد في ذلك قطعًا، ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ ليس مِن شأني إلّا الإنذار بما أُوتِيتُ مِن الآيات.

﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾

﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ﴾ كلام مستأنَف وارد مِن جهته تعالى ردًّا على اقتراحهم وبيانًا لبطلانه. و"الهمزة" للإنكار والنفي، و"الواو" للعطف على مقدَّر يقتضيه المقام، أي: أَقَصُرَ ولم يكفهم آيةً مغنيةً عن سائر الآيات ﴿أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ الناطقَ بالحقّ المصدِّقَ لِما بين يديه مِن الكتب السماويّة، وأنت بمَعزِل مِن مدارستها وممارستها؟

﴿يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ في كلّ زمان ومكان، فلا يزال معهم آية ثابتة لا تزول ولا تضمحلّ كما تزول كلّ آية بعد كونها، ويكون في مكان دون مكان، أو يتلى على اليهود بتحقيق ما في أيديهم مِن نَعتك ونَعت دينك.

---

[١] قرأ بها ابن كثير وحمزة والكسائي وخَلف وشعبة عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٣٤٣/٢.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الكتابِ العظيمِ الشأنِ الباقي على مرّ الدهور ﴿لَرَحْمَةً﴾ أي: نعمةً عظيمةً ﴿وَذِكْرَىٰ﴾ أي: تذكرةً ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: لقوم همُّهم الإيمانُ، لا التعنّتُ كأولئك المقترِحين.

وقيل: إنّ ناسًا مِن المؤمنين أتَوا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بكتفٍ فيها بعض ما يقوله اليهود، فقال: «كفى بها ضلالةَ قومٍ أن يرغبوا عمّا جاء به نبيّهم إلى ما جاء به غير نبيّهم» فنزلت.[1]

﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾﴾

﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا﴾ بما صدر عنّي وعنكم، ﴿يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: مِن الأمور التي مِن جملتها شأني وشأنكم، فهو تقرير لِما قبله مِن كفايته تعالى شهيدًا.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ / بِٱلْبَٰطِلِ﴾ وهو ما يُعبَدُ مِن دون الله تعالى ﴿وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ [٣٠٢و] مع تعاضد موجِبات الإيمان به ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ المغبونون في صَفقتهم، حيث اشترَوا الكفر بالإيمان بأن ضيّعوا الفطرة الأصليّة والأدلّة السمعيّة الموجبة للإيمان. والآية مِن قَبيل المجادلة بالتي هي أحسن، حيث لم يُصرَّح بنسبة الإيمان بالباطل والكفرِ بالله والخسرانِ إليهم؛ بل ذُكر على منهاج الإبهام كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ، ٢٤/٣٤].

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾﴾

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ على طريقة الاستهزاء بقولهم: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ [يونس، ٤٨/١٠]، وقولِهم: ﴿فَأَمْطِرْ[2] عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ﴾ [الأنفال، ٣٢/٨]، ونحوِ ذلك.

---

[1] المحرّر الوجيز لابن عطيّة، ٣٢٢/٤؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٩٧/٤.

[2] م ط س: أمطر.

﴿وَلَوۡلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ قد ضربه الله تعالى لعذابهم وبيّنه في اللوح ﴿لَّجَآءَهُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾ المعيَّن لهم حسبما استعجلوا به. قيل: المراد بـ"الأجل" يوم القيامة، لِما رُوي أنّه تعالى وعَد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أن لا يعذِّب قومَه بعذاب الاستئصال، وأن يؤخِّر عذابهم إلى يوم القيامة.[1] وقيل: يوم بدر. وقيل: وقتَ فَنائهم بآجالهم،[2] وفيه بُعدٌ ظاهر، لِما أنّهم ما كانوا يوعَدون بفنائهم الطبيعي، ولا كانوا يستعجلون به.

﴿وَلَيَأۡتِيَنَّهُم﴾ جملة مستأنَفة مبيِّنة لِما أشيرَ إليه في الجملة السابقة مِن مجيء العذاب عند محلّ الأجل، أي: وبالله ليأتينّهم العذاب الذي عُيِّن لهم عند حلول الأجل ﴿بَغۡتَةً﴾ أي: فُجاءةً[3] ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ أي: بإتيانه، ولعلّ المرادَ بإتيانه كذلك أنّه لا يأتيهم بطريق التعجيل عند استعجالهم والإجابةِ إلى مسئولهم، فإنّ ذلك إتيانٌ برأيهم وشعورهم، لا أنّه يأتيهم وهم غارّون آمنون لا يُخطِرونه بالبال كدأب بعض العقوبات النازلة على بعض / الأمم بياتًا وهم [٣٠٢ظ] نائمون، أو ضحًى وهم يلعبون، لِما أنّ إتيان عذاب الآخرة وعذابِ يوم بدرٍ ليس مِن هذا القَبيل.

﴿يَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٥٤﴾

﴿يَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ استئناف مَسوق لغاية تجهيلهم ورَكاكة رأيهم. وفيه دلالة على أنّ ما استعجلوه عذابُ الآخرة، أي: يستعجلونك بالعذاب، والحال أنّ محلّ العذاب الذي لا عذابَ فوقَه محيط بهم، كأنّه قيل: يستعجلونك بالعذاب، وإنّ العذاب لمحيط بهم، أي: سيحيط بهم. وإنّما جِيء بالجملة الاسميّة دَلالةً على تحقّق الإحاطة واستمرارها،

[1] الكشّاف للزمخشري، ٤٦٠/٣. قال الزيلعي: غريب، ويخالفه ما رواه الحاكم في كتابه المستدرك في الفتن [٢٨٣/٤ (٧٦٤٩)] مِن حديث سعيد بن أبي بردة عن أبيه عن موسى قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «إنّ أمّتي أمّة مرحومة، ليس عليها في الآخرة عذاب، إنّما عذابها في الدنيا الزلازل والقتل والبلاء» انتهى. وقال: صحيح الإسناد، ولم يخرّجاه. تخريج أحاديث الكشّاف للزيلعي، ٤٩/٣.

[2] الكشّاف للزمخشري، ٤٦٠/٣.

[3] ط س: فَجأة.

أو تنزيلًا لحال السبب منزلة حال المسبَّب، فإنّ الكفر والمعاصي الموجِبة لدخول جهنّم محيطة بهم.

وقيل: إنّ الكفر والمعاصي هي النار في الحقيقة، لكنّها ظهرت في هذه النشأة بهذه الصورة، وقد مرّ تفصيله في سورة الأعراف عند قوله تعالى: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ﴾ [الأعراف، ٨/٧]. و"لام" ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ إمّا للعهد، ووضعُ الظاهر موضعَ المُضمَر للإشعار بعلّة الحكم، أو للجنس، وهم داخلون فيه دخولًا أوّليًا.

﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾

﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ ظرف لمُضمَر قد طُوِي ذِكره إيذانًا بغاية كثرته وفظاعته،[1] كأنّه قيل: يومَ يغشاهم العذاب الذي أُشِير إليه بإحاطة جهنّم بهم يكون مِن الأحوال والأهوال ما لا يَفي به المقال. وقيل: ظرف للإحاطة. ﴿مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ أي: مِن جميع جهاتهم، ﴿وَيَقُولُ﴾ أي: الله عزّ وجلّ، ويعضُده القراءة بـ"نون" العظَمة،[2] أو بعضُ ملائكته بأمره: ﴿ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: جزاء ما كنتم تعملونه في الدنيا على الاستمرار مِن السيّئات التي مِن جملتها الاستعجال بالعذاب.

﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾

﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ خطاب تشريف لبعض المؤمنين الذين لا يتمكّنون مِن إقامة أمور الدين كما ينبغي لممانعةٍ مِن جهة الكفرة، وإرشادٌ لهم إلى الطريق الأسلم، ﴿إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ / فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ﴾ أي: إذا لم يتسهّل لكم العبادة في بلد، ولم يتيسّر لكم إظهارُ دينكم، فهاجروا إلى حيث يتسنّى لكم ذلك. [٣٠٣و]

وعنه عليه السلام: «من فرّ بدينِه مِن أرض إلى أرض -ولو كان شِبرًا- استوجب الجنّةَ، وكان رفيقَ إبراهيم ومحمّد عليهما السلام».[3]

---

[1] س: وفضاعته.

[2] قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٣٤٣/٢.

[3] الكشف والبيان للثعلبي، ٢٨٨/٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٦١/٣.

و"الفاء" جواب شرط محذوف، إذ المعنى: إنّ أرضي واسعة، إن لم تُخلصوا العبادة لي في أرض، فأخلصوها في غيرها، ثمّ حُذف الشرط، وعُوّض عنه تقديم المفعول، مع إفادة تقديمه معنى الاختصاص والإخلاص.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ۝٥٧ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ۝٥٨﴾

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ جملة مستأنَفة جيء بها حثًّا على المسارعة في الامتثال بالأمر، أي: كلّ نفس مِن النفوس واجِدةٌ مرارةَ الموت وكُرَبه، فراجعةٌ إلى حكمنا وجزائنا بحسب أعمالها، فمَن كانت هذه عاقبته فليس له بدٌّ مِن التزوّد والاستعداد لها. وقُرئ: "يُرْجَعُونَ".[١]

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم﴾ لنُنْزِلنّهم ﴿مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا﴾ أي: علاليَ، وهو مفعول ثانٍ للتَبوئة. وقُرئ: "لَنُثْوِيَنَّهُمْ"[٢] مِن "الثَّواء" بمعنى "الإقامة"، فانتصاب ﴿غُرَفًا﴾ حينئذ إمّا بإجرائه مُجرى "لَنُنْزِلَنّهم"، أو بنَزعِ الخافض، أو بتشبيه الظرف المُوقّت بالمُبهم كما في قوله تعالى: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف، ١٦/٧].

﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ صفة لـ﴿غُرَفًا﴾، ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي: في الغُرَف، أو في الجنّة. ﴿نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ أي: الأعمالُ الصالحة. والمخصوص بالمدح محذوف ثقةً بدلالة ما قبله عليه. وقُرئ: "فَنِعْمَ".[٣]

﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٥٩﴾

﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ إمّا صفة لـ﴿ٱلْعَٰمِلِينَ﴾، أو نصب على المدح، أي: صبروا على أذيّة المشركين، وشدائدِ المهاجَرة، / وغيرِ ذلك مِن المِحَن والمَشاقّ، ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي:[٤] ولم يتوكّلوا فيما يأتون ويذرون إلّا على الله تعالى. [٣٠٣ظ]

---

[١] قرأ بها شعبة عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٣٤٣/٢.

[٢] قرأ بها حمزة والكسائي وخَلف. النشر لابن الجزري، ٣٤٣/٢.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن يحيى بن وثّاب. الكشّاف للزمخشري، ٤٦٢/٣.

[٤] س - أي.

﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ۝٦٠﴾

﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا﴾ رُوي أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم لمّا أمر المؤمنين الذين كانوا بمكّة بالمهاجَرة إلى المدينة قالوا: «كيف نَقدَمُ بلدةً ليس لنا فيها معيشة؟» فنزلت.[١] أي: وكم مِن دابّة لا تطيق حمل رزقها لضعفها، أو لا تدّخره، وإنّما تُصبح ولا معيشةَ عندها.

﴿ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡ﴾ ثمّ إنّها مع ضعفها وتوكّلها وإيّاكم مع قوّتكم واجتهادكم سواءٌ في أنّه لا يرزقها وإيّاكم إلّا الله تعالى؛ لأنّ رِزق الكلّ بأسباب هو المسبِّب لها وحدَه، فلا تخافوا الفقر بالمهاجَرة.

﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ المبالغ في السمع، فيسمع قولكم هذا، ﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾ المبالغ في العلم، فيعلم ضمائركم.

﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ۝٦١﴾

﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم﴾ أي: أهلَ مكّةَ: ﴿مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ إذ لا سبيل لهم إلى إنكاره، ولا إلى التردّد فيه، ﴿فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾ إنكار واستبعاد مِن جهته تعالى لتركهم العملَ بموجَبه، أي: فكيف يُصرفون عن الإقرار بتفرّده تعالى في الإلهيّة مع إقرارهم بتفرّده تعالى فيما ذُكر مِن الخلق والتسخير.

﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ۝٦٢﴾

﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ﴾ أن يبسطه له ﴿مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥٓ﴾ أي: يَقدِر لِمَن يشاء أن يَقدِر له منهم كائنًا مَن كان، على أنّ الضمير مبهَم حسب إبهام مَرجعه، أو يَقدِر لِمَن يبسطه له على التعاقب.

---

١ **الكشّاف** للزمخشري، ٣/٤٦٢؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤/١٩٨. ونحوه في **الكشف والبيان** للثعلبي، ٧/٢٨٨.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فيعلم مَن يليق ببسط الرزق فيبسطه له، ومَن يليق بقَدْره له فيَقدِره له، أو فيعلم أنّ كلًّا مِن البسط والقَدْر في أيّ وقت يوافق الحكمة والمصلحة، فيفعل كلًّا منهما في وقته.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ[1] بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ معترفين بأنّه الموجِد للممكنات بأسرها، أصولِها وفروعِها، ثمّ إنّهم يشركون به بعضَ مخلوقاته / الذي لا يكاد يُتوهّم منه القدرة على شيء ما أصلًا. [٣٠٤و]

﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على أن جعَل الحقّ بحيث لا يجترئ المبطلون على جحوده، وأنّه أظهرَ حجّتكَ عليهم. وقيل: على أن عصَمك مِن أمثال هذه الضلالات،[2] ولا يخفى بُعده.

﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي: شيئًا مِن الأشياء، فلذلك لا يعملون بمقتضى قولهم هذا، فيشركون به سبحانه أخسَّ مخلوقاته. وقيل: لا يعقلون ما تريد بتحميدك عند مقالهم ذلك.

﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِيَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾

﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ إشارةُ تحقير وازدراء للدنيا، وكيف لا، وقد قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «لو كانت الدنيا تَزِنُ عند الله جناحَ بعوضة ما سقى الكافر منها شِربةَ ماء».[3] ﴿إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾ أي: إلّا كما يُلهّى ويُلعب به الصبيان، يجتمعون عليه ويبتهجون به ساعة ثمّ يتفرّقون عنه.

﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِيَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ أي: لَهي دار الحياة الحقيقيّة، لامتناع طَريان الموت والفناء عليها، أو هي في ذاتها حياة للمبالغة. و﴿ٱلْحَيَوَانُ﴾ مصدر "حَيِيَ"، سمّي به ذو الحياة، وأصله "حَيَيان"، فقُلبت "الياء" الثانية "واوًا"، لِما في بناء "فَعَلان"

---

١ م ط س - مِن.

٢ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٩٩/٤.

٣ سنن الترمذي، ٥٦٠/٤ (٢٣٢٠)؛ المستدرك للحاكم، ٣٤١/٤ (٧٨٤٧).

مِن معنى الحركة والاضطراب اللازم للحَيَوان، ولذلك اختير على "الحياة" في هذا المقام المقتضي للمبالغة.

﴿لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ أي: لِما آثروا عليها الدنيا التي أصلها عدم الحياة، ثمّ ما يحدث فيها مِن الحياة عارضة سريعة الزوال، وَشِيكة الاضمحلال.

﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلۡفُلۡكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ إِذَا هُمۡ يُشۡرِكُونَ ۝٦٥﴾

﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلۡفُلۡكِ﴾ متّصل بما دلّ عليه شرحُ حالِهم. و"الركوب" هو الاستعلاء على الشيء المتحرّك، وهو متعدٍّ بنفسه، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا﴾ [النحل، ٨/١٦]. واستعماله ههنا وفي أمثاله بكلمة ﴿فِي﴾ للإيذان بأنّ المركوب في نفسه مِن قَبيل الأمكنة، وحرَكتَه قسريّة غير إراديّة كما مرّ في سورة هود.[1]

والمعنى: / أنّهم على ما وُصِفوا مِن الإشراك، فإذا ركبوا في البحر ولَقوا شدّةً ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي: كائنينَ على صورة المخلِصين لدينهم مِن المؤمنين، حيث لا يدعون غير الله تعالى لعلمهم بأنّه لا يكشف الشدائد عنهم إلّا هو، ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ إِذَا هُمۡ يُشۡرِكُونَ﴾ أي: فاجَئوا المعاوَدة إلى الشرك. [٣٠٤ظ]

﴿لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ وَلِيَتَمَتَّعُواْۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ۝٦٦﴾

﴿لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ وَلِيَتَمَتَّعُواْ﴾ أي: يفاجِئون الإشراك ليكونوا كافرين بما آتيناهم مِن نعمة الإنجاءِ التي حقّها أن يَشكروها، ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾ أي: عاقبةَ ذلك وغائلته حين يرون العذاب.

﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنۡ حَوۡلِهِمۡۚ أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ وَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَكۡفُرُونَ ۝٦٧﴾

﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾ أي: ألم ينظروا ولم يشاهدُوا ﴿أَنَّا جَعَلۡنَا﴾ أي: بلدَهم ﴿حَرَمًا ءَامِنًا﴾ مَصونًا عن النَّهب والتعدّي، سالِمًا أهلُه مِن كلّ سوء، ﴿وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنۡ حَوۡلِهِمۡ﴾

---

[1] هود، ٤١/١١.

أي: والحال أنّهم يُختَلَسُون مِن حولهم قتلًا وسَبيًا؛ إذ كانت العرب حوله في تغاوُرٍ وتناهُب.

﴿أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ﴾ أي: أَبَعْدَ ظهور الحقّ الذي لا ريب فيه بالباطل خاصّةً يؤمنون دون الحقّ؟ ﴿وَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَكۡفُرُونَ﴾ وهي المستوجِبة للشكر، حيث يشركون به غيرَه؟ وتقديم الصلة في الموضعين لإظهار كمال شناعة ما فعلوا.

﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓۚ أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوًى لِّلۡكَٰفِرِينَ ۝٦٨﴾

﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ بأن زعَم أنّ له شريكًا، أي: هو أظلم مِن كلّ ظالم، وإن كان سَبْك النظم دالًّا على نفي الأظلم مِن غير تعرّض لنفي المساوي، وقد مرّ مرارًا.

﴿أَوۡ كَذَّبَ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ﴾ أي: بالرسولِ أو بالقرآن، وفي ﴿لَمَّا﴾ تسفيه لهم بأن لم يتوقّفوا ولم يتأمّلوا حين جاءهم، بل سارعوا إلى التكذيب آثِرَ ذِي أثيرٍ.

﴿أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوًى لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾ تقرير لثَوائهم فيها، كقول مَن قال:

ألستم خيرَ مَن ركِب المَطايا[1]

[٣٠٥و] / أي: أَلا يستوجبون الثَّواء فيها، وقد فعلوا ما فعلوا مِن الافتراء على الله تعالى، والتكذيبِ بالحقّ الصريح؟ أو إنكارٌ واستبعاد لاجترائهم على ما ذُكر مِن الافتراء والتكذيب مع علمهم بحال الكفرة، أي: أَلم يعلموا أنّ في جهنّم مثوًى للكافرين حتّى اجترَءوا هذه الجرأة؟

﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٦٩﴾

﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا﴾ أي: في شأننا ولوجهنا خالصًا. أطلق المجاهدة ليعمّ جهاد الأعادي الظاهرة والباطنة. ﴿لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا﴾ سُبُلَ السير إلينا، والوصولِ

---

[1] تمامه:
وأندَى العالمين بُطونَ راحِ
لجرير في ديوانه، ١/٨٩.

إلى جنابنا، أو لَنَزيدنّهم هداية إلى سُبل الخير، وتوفيقًا لسلوكها، كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد، ١٧/٤٧]. وفي الحديث: «مَن عمل بما عَلِم ورّثه الله علمَ ما لم يعلم».[١]

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ معيّةَ النصرة والمعونة.

وعنه عليه السلام: «مَن قرأ سورة العنكبوت كان له مِن الأجر عشر حسنات بعدد كلّ المؤمنين والمنافقين».[٢]

---

١ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٢٠٠/٤. وأخرجه أبو نعيم في **حلية الأولياء**، ١٥/١٠، وضعّفه.

٢ **الكشف والبيان** للثعلبي، ٢٦٩/٧؛ **التفسير الوسيط** للواحدي، ٤١٢/٣. وهو جزء مِن الحديث المروي عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: **الموضوعات** لابن الجوزي، ٢٤٠/١.



سورة الروم[1]

مكيّة، إلّا قوله: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ﴾... إلخ [الروم، ٣٠/١٧]،
وهي ستّون آيةً، وقيل: تسع وخمسون.[2]

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣﴾

﴿الٓمٓ﴾ الكلام فيه كالذي مرّ في أمثاله مِن الفواتح الكريمة.

﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: أدنى أرض العرب منهم، إذ هي الأرض المعهودة عندهم، وهي أطراف الشام، أو في أدنى أرضهم مِن العرب، على أنّ "اللام" عوض عن المضاف[3] إليه. قال مجاهد: «هي أرض الجزيرة، وهي أدنى أرض الروم إلى فارس». / وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «الأردُنّ وفلسطين». وقُرئ: "فِي أَدَانِي الْأَرْضِ".[4] [٣٠٥ظ]

﴿وَهُم﴾ أي: الروم ﴿مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ﴾ أي: مِن بعد مغلوبيّتهم. وقُرئ بسكون "اللام"،[5] وهي لغة، كـ"الجَلَبِ" و"الجَلْبِ" ﴿سَيَغۡلِبُونَ﴾ أي: سيَغلبون فارس.

﴿فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥﴾

﴿فِي بِضۡعِ سِنِينَ﴾ رُوي أنّ فارس غزَوا الروم، فوافَوهم بأَذْرِعات وبُصرى -وقيل: بالجزيرة كما مرّ- فغَلَبوا عليهم، وبلغ الخبرُ مكّة، ففرح المشركون

---

[1] س + ستّون آية.
[2] م س - وهي ستّون آية، وقيل: تسع وخمسون.
[3] س: المصاف.
[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن الكلبي. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٧٤.
[5] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عمر والأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٧٤.

وشمِتوا بالمسلمين، وقالوا: «أنتم والنصارى أهل كتاب، ونحن وفارس أمّيّون، وقد ظهر إخواننا على إخوانكم، فلنظهرنّ عليكم»، فقال أبو بكر رضي الله عنه: «لا يُقِرّنّ الله أعينكم، فوالله ليَظهرَنّ الروم على فارس بعد بضع سنين»، فقال أُبيّ بن خَلف اللعين: «كذَبت، اجعل بيننا أجلًا أُناحِبْكَ[1] عليه»، فناحَبَه على عشر قلائِص[2] مِن كلّ منهما، وجَعلا الأجل ثلاث سنين، فأخبر به أبو بكر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقال: «البِضع ما بين الثلاث إلى التسعِ، فَزائِدْهُ في الخطر، ومادَّهُ في الأجل»، فجعلاها مائةَ قَلوص إلى تسع سنين، ومات أبيّ مِن جَرح رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وظهرت الروم على فارس عند رأس سبع سنين، وذلك يوم الحُديبية.[3]

وقيل: كان النصر يوم بدر للفريقين، فأخذ أبو بكر الخطَر مِن ذريّة أبيّ، فجاء به رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم، فقال: «تصدَّقْ به».[4] وكان ذلك قبل تحريم القِمار.

وهذه الآيات مِن البيّنات الباهرة الشاهدة بصحّة النبوّة، وكونِ القرآن مِن عند الله عزّ وجلّ حيث أخبرتْ عن الغيب الذي لا يعلمه إلّا العليم الخبير.

وقُرئ: "غَلَبَتْ"[5] على البناء للفاعل، و"سَيُغْلَبُونَ"[6] على البناء للمفعول، / والمعنى: أنّ الروم غَلَبَتْ على ريف الشام، وسيَغلبهم المسلمون، وقد غزاهم المسلمون في السنة التاسعة مِن نزولها، ففتحوا بعض بلادهم، فإضافة "الغَلَب" حينئذ إلى الفاعل. [٣٠٦و]

﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ أي: في أوّل الوقتين وفي آخرهما حين غُلِبوا وحين يَغلِبون، كأنّه قيل: مِن قبلِ كونهم غالبين، وهو وقتُ كونهم مَغلوبين،

---

[1] ناحبه: راهنه. **القاموس المحيط** للفيروزابادي، «نحب».

[2] القَلُوص مِن النُّوق: الشابّة، وهي بمنزلة الجارية مِن النساء. وجمع القَلوصِ: قُلُص وقَلائص. **الصحاح** للجوهري، «قلص».

[3] **جامع البيان** للطبري، ٤٥١/١٨؛ **الكشف والبيان** للثعلبي، ٢٩٢/٧.

[4] **الكشف والبيان** للثعلبي، ٢٩٣/٧؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٤٦٧/٣.

[5] قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ وابن عمر وابن عبّاس رضي الله عنهم ومعاوية بن قرّة وكرداب. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٧٤.

[6] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عمرو ومعاوية بن قرّة. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٧٤.

ومِن بعد كونهم مَغلوبين، وهو وقتُ كونهم غالبين، والمعنى: أنّ كلًّا مِن كونهم مَغلوبين أوّلًا وغالبين آخرًا ليس إلّا بأمر الله تعالى وقضائه، ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران، ٣/١٤٠]. وقُرئ: "مِن قَبْلِ وَمِن بَعْدِ"[١] بالجرّ من غير تقدير مضاف إليه واقتطاعه، كأنّه قيل: قَبلًا وبَعدًا، بمعنى: أوّلًا وآخِرًا.

﴿وَيَوْمَئِذٍ﴾ أي: يومَ إذ يَغلِب الرومُ على فارس، ويحُلّ ما وعده الله تعالى مِن غَلَبتهم ﴿يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ بِنَصْرِ ٱللَّهِ﴾ وتغليبِه مَن له كتاب على مَن لا كتابَ له، وغَيظِ مَن شَمِت بهم مِن كفّار مكّة، وكونِ ذلك مِن دلائلِ غلبة المؤمنين على الكفّار. وقيل: "نصر الله" إظهارُ صدق المؤمنين فيما أخبروا به المشركين مِن غلبة الروم على فارس، وقيل: نصره تعالى أنّه ولّى بعض الظالمين بعضًا، وفرّق بين كلمهم حتّى تناقصوا وتَفانَوا، وفَلَّ كلٌّ منهما شوكةَ الآخَر، وفي ذلك قوّة.

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أنّه وافق ذلك يوم بدرٍ.[٢] وفيه مِن نصر الله العزيز للمؤمنين وفرحهم بذلك ما لا يخفى، والأوّل هو الأنسب لقوله تعالى: ﴿يَنصُرُ مَن يَشَآءُ﴾ أي: مَن يشاء أن ينصره مِن عباده على عدوّه ويُغلّبه عليه، فإنّه استئناف مقرّر لمضمون قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾.[٣]

/ ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ المبالغ في العزّة والغلبة، فلا يُعجزه مَن يشاء أن ينصر عليه، كائنًا مَن كان، ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ المبالغ في الرحمة، فينصر مَن يشاء أن ينصره، أيَّ فريق كان. والمراد بالرحمة هي الدنيويّة، أمّا على القراءة المشهورة فظاهر، لِما أنّ كِلا الفريقين لا يستحقّ الرحمة الأخرويّة. وأمّا على القراءة الأخيرة فلأنّ المسلمين وإن كانوا مستحقّين لها، لكنّ المراد ههنا نصرهم الذي هو مِن آثار الرحمة الدنيويّة. وتقديم وصف العزّة لتقدّمه في الاعتبار. [٣٠٦ظ]

﴿وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦﴾

﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ مصدر مؤكِّد لنفسه؛ لأنّ ما قبله في معنى الوعد، كأنّه قيل:

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن اليماني. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٧٤.

[٢] جامع البيان للطبري، ١٨/٤٥٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٣/٤٦٧.

[٣] في الآية السابقة.

وَعَدَ الله وعدًا، ﴿لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ أيّ وعدٍ كان ممّا يتعلّق بالدنيا والآخرة، لاستحالة الكذب عليه سبحانه. وإظهار الاسم في موقع الإضمار لتعليل الحكم وتفخيمه. والجملة استئناف مقرِّر لمعنى المصدر، وقد جُوّز أن تكون حالًا منه، فيكون كالمصدر الموصوف، كأنّه قيل: وَعَدَ الله وعدًا غيرَ مُخلَف، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: ما سبَق مِن شئونه تعالى.

﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ۝٧﴾

﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ وهو ما يشاهدونه مِن زخارفها وملاذّها وسائرِ أحوالها الموافقة لشهواتهم، الملائمةِ لأهوائهم، المستدعيةِ لانهماكهم فيها، وعكوفِهم عليها، لا تمتّعُهم بزخارفها وتنعُّمهم بملاذّها كما قيل،[١] فإنّهما ليسا ممّا علموه منها؛ بل مِن أفعالهم المترتّبة على علومهم. وتنكير ﴿ظَٰهِرًا﴾ للتحقير والتخسيس دون الوَحدة كما تُوُهِّم، أي: يعلمون ظاهرًا حقيرًا خسيسًا مِن الدنيا.

﴿وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ التي هي الغاية القصوى والمطلب الأسنى ﴿هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ لا يُخطِرونها بالبال، ولا يدركون مِن الدنيا ما يؤدّي إلى معرفتها مِن أحوالها، ولا يتفكّرون فيها كما سيأتي. والجملة معطوفة على ﴿يَعْلَمُونَ﴾، وإيرادُها اسميّة للدلالة على استمرار غفلتهم ودوامها. و﴿هُمْ﴾ الثانيةُ تكرير للأولى، أو مبتدأ و﴿غَٰفِلُونَ﴾ خبره، والجملة خبر للأولى. وهو على الوجهين منادٍ على تمكّن غفلتهم عن الآخرة المحقِّقةِ لمقتضى الجملة المتقدّمة تقريرًا / لجهالتهم، [٣٠٧و] وتشبيهًا لهم بالبهائم المقصورِ إدراكاتُها مِن الدنيا على ظواهرها الخسيسة دون أحوالها التي هي مِن مبادي العلم بأمور الآخرة، وإشعارًا بأنّ العلم المذكور وعدمَ العلمِ رأسًا سِيّانِ.

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ۝٨﴾

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟﴾ إنكار واستقباح لقَصر نظرهم على ما ذُكر مِن ظاهر الحياة

---

[١] قاله الزمخشري في الكشّاف، ٤٦٨/٣.

الدنيا مع الغفلة عن الآخرة. و"الواو" للعطف على مقدّر يقتضيه المقام. وقوله تعالى: ﴿فِىٓ أَنفُسِهِم﴾ ظرف للتفكّر، وذكرُه مع ظهور استحالة كونه في غيرها لتحقيق أمره، وتصويرِ حال المتفكّرين.

وقوله تعالى: ﴿مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾... إلخ متعلّق إمّا بالعلم الذي يؤدّي إليه التفكّر ويدلّ عليه، أو بالقول الذي يترتّب عليه، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾ [آل عمران، ١٩١/٣]، أي: أعَلِموا ظاهرَ الحياة الدنيا فقط؟ أو أقَصَروا النظر عليه، ولم يُحدثوا التفكّر في قلوبهم فيعلموا أنّه تعالى ما خلقهما وما بينهما مِن المخلوقات التي هم مِن جملتها ملتبسةً بشيء مِن الأشياء ﴿إِلَّا﴾ ملتبسةً ﴿بِٱلْحَقِّ﴾؟ أو فيقولوا هذا القولَ معترفين بمضمونه إثرَ ما علموه؟

والمراد بـ﴿ٱلْحَقِّ﴾ هو الثابت الذي يحِقّ أن يثبت لا محالةَ، لابتنائه على الحكمة البالغة، والغرضِ الصحيح، الذي هو استشهاد المكلّفين بذواتها وصفاتها وأحوالها المتغيّرة على وجود صانعها عزّ وجلّ، ووَحدتِه، وعلمِه، وقدرتِه، وحكمتِه، واختصاصِه بالمعبوديّة، وصحّةِ أخباره التي مِن جملتها إحياؤهم بعد الفناء بالحياة الأبديّة، ومُجازاتُهم بحسب أعمالهم غِبَّما تبيّن المُحسن مِن المُسيء، وامتازت درجات أفراد كلّ مِن الفريقين حسب امتياز طبقات علومهم واعتقاداتهم المترتّبة على أنظارهم فيما نُصِب في المصنوعات / مِن الآيات والدلائل والأمارات [٣٠٧ظ] والمَخائل، كما نطق به قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود، ٧/١١]، فإنّ العمل غير مختصّ بعمل الجوارح، ولذلك فسّره عليه السلام بقوله: «أيّكم أحسن عقلًا، وأورَع عن محارم الله، وأسرع في طاعة الله»،[1] وقد مرّ تحقيقه في أوائل سورة هود عليه السلام.[2]

وقوله تعالى: ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ عطفٌ على ﴿ٱلْحَقِّ﴾، أي: وبأجل معيّن قدّره الله تعالى لبقائها، لا بدّ لها مِن أن تنتهي إليه لا محالةَ، وهو وقت قيام الساعة.

---

[1] جامع البيان للطبري، ٣٣٥/١٢ (هود، ٧/١١)؛ الكشف والبيان للثعلبي، ١٥٩/٥ (هود، ٧/١١).

[2] هود، ٧/١١.

هذا، وقد جُوّز[١] أن يكون قوله تعالى: ﴿فِىٓ أَنفُسِهِم﴾ صلة للتفكّر، على معنى: أَوَلم يتفكّروا في أنفسهم التي هي أقرب المخلوقات إليهم، وهم أعلم بشئونها، وأخبرُ بأحوالها منهم بأحوال ما عداها، فيتدبّروا ما أودعها الله تعالى ظاهرًا وباطنًا مِن غرائب الحِكم الدالّة على التدبير دون الإهمال، وأنّه لا بدّ لها مِن انتهاء إلى وقت يجازيها الحكيم الذي دبّر أمرها، على الإحسان إحسانًا، وعلى الإساءة مثلَها، حتّى يعلموا عند ذلك أنّ سائر الخلائق كذلك أمرها جارٍ على الحكمة والتدبير، وأنّه لا بدّ لها مِن الانتهاء إلى ذلك الوقت.

وأنت خبير بأنّ أمر مَعاد الإنسان ومُجازاتِه بما عمِل مِن الإساءة والإحسان هو المقصود بالذات والمحتاج إلى الإثبات، فجعلُه ذريعةً إلى إثبات معاد ما عداه مع كونه بمَعزِل مِن الجزاء تعكيس للأمر، فتدبّر.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ﴾ تذييل مقرِّر لِما قبله ببيان أنّ أكثرهم غير مقتصرين على ما ذُكر مِن الغفلة عن أحوال الآخرة، والإعراضِ عن التفكّر فيما يرشدهم إلى معرفتها مِن خلق السماوات والأرض وما بينهما مِن المصنوعات؛ بل هم منكِرون جاحدون بلقاء حسابه تعالى وجزائه بالبعث.

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟﴾ توبيخ لهم بعدَم اتّعاظهم بمشاهدة أحوال أمثالهم الدالّة على عاقبتهم ومَآلهم. و"الهمزة" لتقرير المنفي، و"الواو" للعطف على مقدَّر يقتضيه المقام، أي: أَقَعَدُوا في أماكنهم ولم يسيروا ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾؟

وقوله تعالى: ﴿فَيَنظُرُوا۟﴾ عطفٌ على ﴿يَسِيرُوا۟﴾، داخل في حكم التقرير والتوبيخ، والمعنى: أنّهم قد ساروا في أقطار الأرض، وشاهدوا ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ مِن الأمم المُهلَكة كعاد وثمود.

---

[١] انظر: الكشّاف للزمخشري، ٣/٤٦٩.

وقوله تعالى: ﴿كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ﴾... إلخ بيان لمبدأ أحوالهم ومآلِها، يعني: أنّهم كانوا أقدرَ منهم على التمتّع بالحياة الدنيا حيث كانوا أشدّ منهم قوّةً، ﴿وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ﴾ أي: قلبوها للزراعة والحرث. وقيل: لاستنباط المياه / واستخراج المعادن وغير ذلك، ﴿وَعَمَرُوهَآ﴾ أي: عَمَرها أولئك بفنون العمارات مِن الزراعة والغرس والبناء وغيرِها ممّا يُعدّ عِمارةً لها. [٢٠٨و]

﴿أَكۡثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ أي: عِمارةً أكثرَ كمًّا وكيفًا وزمانًا مِن عِمارة هؤلاء إيّاها، كيف لا وهم أهل وادٍ غير ذي زرع لا تبسّط لهم في غيره؟ وفيه تهكّم بهم؛ حيث كانوا مغترّين بالدنيا مفتخرين بمتاعها مع ضعف حالهم وضِيق عَطَنِهم، إذ مدار أمرها على التبسّط في البلاد، والتسلّط على العباد، والتقلّب في أكناف الأرضِ بأصناف التصرّفات، وهم ضَعَفَةٌ مُلْجَأون إلى وادٍ لا نفع فيه، يخافون أن يتخطّفهم الناس.

﴿وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ بالمعجزات، أو الآيات الواضحات، ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ﴾ أي: فكذّبوهم، فأهلكهم، فما كان الله تعالى ليهلكهم مِن غير جُرم يستدعيه مِن قِبَلِهم. والتعبير عن ذلك بالظلم مع أنّ إهلاكه تعالى إيّاهم بلا جُرم ليس مِن الظلم في شيء على ما تقرّر مِن قاعدة أهل السنّة لإظهار كمال نزاهته تعالى عن ذلك بإبرازه في مَعرِض ما يستحيل صُدوره عنه سبحانه،[١] وقد مرّ في سورة الأنفال[٢] وسورة آل عمران.[٣]

﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ بأن اجترأوا على اقتراف ما يوجبه مِن المعاصي العظيمة.

﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسۡتَهۡزِءُونَ ١٠﴾

﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ﴾ أي: عملوا السيّئات. وُضِع الموصول موضع ضميرهم للتسجيل عليهم بالإساءة، والإشعارِ بعِلّة الحكم، ﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ أي:

---

١ س: تعالى.

٢ الأنفال، ٥١/٨.

٣ آل عمران، ١٨٢/٣.

العقوبة التي هي أسوأ العقوباتِ وأفظعُها، التي هي العقوبة بالنار، فإنّها تأنيث "الأَسْوأ"، كـ"الحُسنى" تأنيث "الأحسن"، أو مصدر كـ"البُشرى"، وُصِف به العقوبة مبالغةً، كأنّها نفس السوآ. وهي مرفوعة على أنّها اسم ﴿كَانَ﴾، وخبرها ﴿عَـٰقِبَةَ﴾. وقُرئ على العكس،[1] فهو / أدخلُ في الجَزالة. [٣٠٨ظ]

وقوله تعالى: ﴿أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ علّة لِما أشيرَ إليه مِن تعذيبهم الدنيوي والأخروي، أي: لِأن كذّبوا، أو بأن كذّبوا بآيات الله المنزّلة على رسله عليهم السلام ومعجزاتِه الظاهرة على أيديهم.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانُواْ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾ عطفٌ على ﴿كَذَّبُواْ﴾، داخل معه في حكم العِلّيّة. وإيراد الاستهزاء بصيغة المضارع للدلالة على استمراره وتجدّده، هذا هو اللائق بجَزالة النظم الجليل، وقد قيل وقيل.

﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝١١﴾

﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ﴾ أي: يُنشئهم ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ بعد الموت بالبعث ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ إلى موقف الحساب والجزاء. والالتفات للمبالغة في الترهيب. وقُرئ بـ"الياء".[2]

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝١٢﴾

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ التي هي وقت إعادة الخلق ورَجْعِهم إليه ﴿يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ أي: يسكتون متحيّرين لا يَنبِسون، يقال: "ناظَرْته فأبْلَسَ" إذا سكَتَ وأَيِس مِن أن يَحتجّ. وقُرئ بفتح "اللام"[3] مِن "أَبْلَسَهُ" إذا أفْحَمَه وأسكَتَه.

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَـٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ كَـٰفِرِينَ ۝١٣﴾

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَـٰٓؤُاْ﴾ يجيرونهم مِن عذاب الله تعالى كما

---

١ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٣٤٤.

٢ قرأ بها أبو عمرو وشعبة عن عاصم ورَوح عن يعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٣٤٤.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن السلمي. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٧٥.

كانوا يزعمونه. وصيغة الجمع لوقوعها في مقابلة الجمع، أي: لم يكن لواحد منهم شفيع أصلًا، ﴿وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ كَٰفِرِينَ﴾ أي: بإلهيّتهم وشِركتهم لله سبحانه، حيث وقَفوا على كُنْه أمرهم. وصيغة الماضي للدلالة على تحقّقه. وقيل: كانوا في الدنيا كافرين بسببهم،[1] وليس بذاك؛ إذ ليس في الإخبار به فائدة يعتدّ بها.

﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوۡمَئِذٖ يَتَفَرَّقُونَ ١٤﴾

﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ أعيدَ لتهويله وتفظيع ما يقع فيه. وقوله تعالى: ﴿يَوۡمَئِذٖ يَتَفَرَّقُونَ﴾ تهويل له إثرَ تهويل، وفيه رمزٌ إلى أنّ التفرّق يقع في بعضٍ منه. وضمير ﴿يَتَفَرَّقُونَ﴾ / لجميع الخلق المدلولِ عليهم بما تقدّم مِن بَدْئهم وإعادتِهم ورَجْعِهم، لا المجرمون خاصّةً. وليس المراد بتفرّقهم افتراق كلّ فرد منهم عن الآخر؛ بل تفرّقهم إلى فريقَي المؤمنين والكافرين، كما في قوله تعالى: ﴿فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشورى، ٧/٤٢]، وذلك بعد تمام الحساب. [٣٠٩و]

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمۡ فِي رَوۡضَةٖ يُحۡبَرُونَ ١٥﴾

وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمۡ فِي رَوۡضَةٖ يُحۡبَرُونَ﴾ تفصيل وبيان لأحوال ذَينِك الفريقين. و"الروضة" كلّ أرض ذات نبات وماء ورَونق ونَضارة، وتنكيرُها للتفخيم، والمراد بها الجنّة. و"الحُبور" السرور، يقال: حَبَره إذا سَرّه سرورًا تهلّل له وجهُه، وقيل: "الحَبْرة" كلّ نعمة حَسَنة، و"التحبير" التحسين.

واختلفت فيه الأقاويل، لاحتماله وجوهَ جميع المسارّ. فعَن ابن عبّاس ومجاهد: «يُكرَمون».[2] وعن قتادة: «يُنعَّمون».[3] وعن ابن كَيسان: «يُحلَّون».[4]

---

[1] قاله البيضاوي في أنوار التنزيل، ٢٠٣/٤.

[2] جامع البيان للطبري، ٤٧١/١٨؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٩٦/٧.

[3] جامع البيان للطبري، ٤٧٢/١٨؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٩٦/٧.

[4] الكشّاف للزمخشري، ٤٧١/٣؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٣٦٠/٨.

وعن أبي بكر بن عيّاش:[١] «التّيجان على رءوسهم».[٢] وعن وكيع:[٣] «السماع في الجنّة».[٤]

وعن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، أنّه ذَكر الجنّة وما فيها مِن النعيم، وفي آخِر القوم أعرابي، فقال: «يا رسول الله، هل في الجنّة مِن سماع؟» قال عليه السلام: «يا أعرابي، إنّ في الجنّة لنهرًا حافّتاه الأبكار مِن كلّ بيضاءَ خَوصانيّة،[٥] يتغنَّينَ بأصواتٍ لم يسمع الخلائق بمثلها قطّ، فذلك أفضل نعيم الجنّة». قال الراوي: «فسألتُ أبا الدرداء[٦] رضي الله عنه: بم يَتغنَّينَ؟» قال: «بالتسبيح».[٧]

ورُوي: «إنّ في الجنّة لأشجارًا عليها أجراس مِن فضّة، فإذا أراد أهل الجنّة السماع بعثَ الله تعالى ريحًا مِن تحت العرش فتقع في تلك الأشجار، فتُحَرِّك تلك الأجراس بأصواتٍ لو سمعها أهل الدنيا لَماتُوا طَرَبًا».[٨]

---

١ هو أبو بكر بن عيّاش بن سالم الأسدي، الكوفي، الحنّاط (ت. ١٩٣هـ/٨٠٩م)، المقرئ، الفقيه، المحدث، شيخ الإسلام، وبقيّة الأعلام، مولى واصل الأحدب. وفي اسمه أقوال: أشهرها شعبة، قرأ أبو بكر القرآن وجوّده ثلاث مرّات على عاصم بن أبي النَّجود. وعرضه أيضًا عن عطاء بن السائب، وأسلم المنقري. وحدّث عن عاصم، وأبي إسحاق السبيعي. انظر: **سير أعلام النبلاء** للذهبي، ٥٠٧/٨؛ و**غاية النهاية** لابن الجزري، ٣٢٥/١.

٢ **الكشّاف** للزمخشري، ٤٧١/٣.

٣ هو وكيع بن الجرّاح بن مليح الرؤاسي، أبو سفيان (ت. ١٩٧هـ/٨١٢م)، الإمام، الحافظ، محدّث العراق، أحد الأعلام. وُلد بالكوفة، وأبوه ناظرٌ على بيت المال فيها. وتفقّه وحفظ الحديث، واشتهر. وكان مِن بحور العلم، وأئمّة الحفظ. أراد الرشيد أن يولّيه قضاء الكوفة، فامتنع وَرعًا. وكان يصوم الدهر، ويختم القرآن كلَّ ليلة. قال أحمد بن حنبل: «ما رأيت أحدًا أوعى للعلم ولا أحفظَ مِن وكيع». له كتب، منها: تفسير القرآن، والسنن، والمعرفة والتاريخ، والزهد. انظر: **سير أعلام النبلاء** للذهبي، ١٤٤/٩؛ و**الأعلام** للزركلي، ١١٧/٨.

٤ **الكشّاف** للزمخشري، ٤٧١/٣. وهو عن يحيى بن أبي كثير في **جامع البيان** للطبري، ٤٧٢/١٨؛ و**الكشف والبيان** للثعلبي، ٢٩٦/٧.

٥ وفي هامش م: دقيقة الخَصْر.

٦ هو عويمر بن زيد بن قيس الأنصاري، أبو الدرداء (ت. ٣٢هـ/٦٥٢م)، الإمام، القدوة، قاضي دمشق، صاحب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، حكيم هذه الأمّة. وهو معدود فيمَن جمَع القرآن في حياة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وتصدّر للإقراء بدمشق في خلافة عثمان رضي الله عنه. انظر: **سير أعلام النبلاء** للذهبي، ٣٣٧/٢؛ و**الأعلام** للزركلي، ٩٨/٥.

٧ **الكشف والبيان** للثعلبي، ٢٩٧/٧؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٤٧١/٣.

٨ **الكشف والبيان** للثعلبي، ٢٩٧/٧؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٤٧١/٣.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلْأَخِرَةِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ فِي ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ۝١٦ فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ۝١٧ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ۝١٨﴾

/ ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ التي مِن جملتها هذه الآيات الناطقة [٣٠٩ظ] بما فُصّل ﴿وَلِقَآيِٕ ٱلْأَخِرَةِ﴾ صُرّح بذلك مع اندراجه في تكذيب الآيات للاعتناء بأمره. وقوله تعالى: ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى الموصول باعتبار اتّصافه بما في حيّز الصلة مِن الكفر والتكذيب بآياته تعالى وبلقاء الآخرة، للإيذان بكمال تميّزهم بذلك عن غيرهم، وانتظامِهم في سلك المشاهَدات، وما فيه مِن معنى البُعد مع قرب العهد بالمشار إليه للإشعار ببُعد مَنزلتهم في الشرّ، أي: أولئك الموصوفون بما فُصّل مِن القبائح ﴿فِي ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ على الدوام لا يغيبون عنه أبدًا.

﴿فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ۞ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ إثرَ ما بُيّن حالُ فريقَي المؤمنين العاملين للصالحات، والكافرين المكذِّبين بالآيات، ومآلُهما مِن الثواب والعذاب؛ أُمِروا بما ينجّي مِن الثاني ويُفضي إلى الأوّل مِن تنزيه الله عزّ وجلّ عن كلّ ما لا يليق بشأنه سبحانه، ومِن حمده تعالى على نِعَمه العِظام. وتقديم الأوّل على الثاني لِما أنّ التخلية متقدِّمة على التحلية.

و"الفاء" لترتيب ما بعدها على ما قبلها، أي: إذا علمتم ذلك فسبِّحوا الله تعالى، أي: نزِّهوه عمّا ذُكر سبحانه، أي: تسبيحَه اللائقَ به في هذه الأوقات، واحمَدوه، فإنّ الإخبار بثبوت الحمد له تعالى ووجوبِه على المميّزين مِن أهل السماوات والأرض في معنى الأمر به على أبلغ وجهٍ وآكَدِه.

وتوسيطه بين أوقات التسبيح للاعتناء بشأنه، / والإشعارِ بأنّ حقّهما أن [٣١٠و] يُجمَع بينهما، كما ينبئ عنه قولُه تعالى: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾ [البقرة، ٢/٣٠]، وقولُه تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ [الحجر، ١٥/٩٨]، وقولُه صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قال حين يُصبح وحين يُمسي: "سبحان الله وبحمده" مائةَ مرّة حُطّت خطاياه

وإن كانت مِثل زبَد البحر».[1] وقولُه عليه السلام: «مَن قال حين يُصبح وحين يُمسي: "سبحان الله وبحمده" مائة مرّة لم يأتِ أحد يوم القيامة بأفضلَ ممّا جاء به، إلّا أحد قال مِثل ما قال أو زاد عليه».[2] وقولُه عليه السلام: «كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان: "سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم"»،[3] وغيرُ ذلكَ ممّا لا يحصى مِن الآيات والأحاديث.

وتخصيصهما بتلك الأوقات للدلالة على أنّ ما يحدث فيها مِن آيات قدرته تعالى وأحكام رحمته ونعمته شواهدُ ناطقة بتنزّهه تعالى، واستحقاقِه الحمدَ، وموجِبةٌ لتسبيحه وتحميده حتمًا.

وقوله تعالى: ﴿وَعَشِيًّا﴾ عطفٌ على ﴿حِينَ تُمْسُونَ﴾، وتقديمُه على ﴿حِينَ تُظْهِرُونَ﴾ لمراعاة الفواصل. وتغيير الأسلوب لِما أنّه لا يجيء منه الفعل بمعنى الدخول في العشِيّ، كالمساء والصباح والظهيرة، ولعلّ السرَّ في ذلك أنّه ليس مِن الأوقات التي يختلف فيها أحوال الناس وتتغيَّر تغيّرًا ظاهرًا مصحِّحًا لوصفهم بالخروج عمّا قبلها والدخولِ فيها كالأوقات المذكورة، فإنّ كلًّا مِنها وقت يتغيّر فيه الأحوال تغيّرًا ظاهرًا، أمّا في المساء والصباح فظاهر، وأمّا في الظهيرة فلأنّها وقت يُعتاد فيه التجرّد عن الثياب للقيلولة كما مرّ في سورة النور.[4]

وقيل: المراد بـ"التسبيح" و"الحمدِ": الصلاة، لاشتمالها عليهما. وقد رُوي عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «أنّ الآية جامعة للصلوات الخمس؛ ﴿تُمْسُونَ﴾ صلاتا المغرب والعشاء، و﴿تُصْبِحُونَ﴾ صلاة الفجر، و﴿عَشِيًّا﴾ صلاة العصر، و﴿تُظْهِرُونَ﴾ صلاة الظهر».[5] ولذلك ذهب الحسَن إلى أنّها مدنيّة؛ إذ كان يقول: «إنّ الواجب بمكّة ركعتان، في أيّ وقت اتّفقتا، وإنّما فرضت الخمسُ بالمدينة».[6]

---

[1] صحيح البخاري، ٨٦/٨ (٦٤٠٥)؛ صحيح مسلم، ٢٠٧١/٤ (٢٦٩١).

[2] صحيح مسلم، ٢٠٧١/٤ (٢٦٩٢)؛ سنن الترمذي، ٥١٣/٥ (٣٤٦٩).

[3] صحيح البخاري، ١٣٩/٨ (٦٦٨٢)؛ صحيح مسلم، ٢٠٧٢/٤ (٢٦٩٤).

[4] النور، ٣٦/٢٤.

[5] جامع البيان للطبري، ٤٧٤/١٨؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٤٣٠/٣.

[6] الكشّاف للزمخشري، ٣٧٢/٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٠٤/٤.

والجمهور / على أنّها فُرضت بمكّة، وهو الحقّ، لحديث المِعراج، وفي آخره: [٣١٠ظ]
«هنّ خمس صلوات كلّ يوم وليلة».[١]

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن سرّه أن يُكالَ له بالقفيز الأوفى فليقل: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ الآيةَ».[٢]

وعنه عليه السلام: «مَن قال حين يُصبح: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾[٣] أدرك ما فاته في يومه، ومَن قالها حين يُمسي أدرك ما فاته في ليلته».[٤]

وقُرئ: "حِينًا تُمْسُونَ وَحِينًا تُصْبِحُونَ"،[٥] أي: تُمسون فيه، وتُصبحون فيه.

﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾﴾

﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ كالإنسان مِن النطفة، والطيرِ مِن البيضة، ﴿وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ النطفةَ والبيضةَ مِن الحيَوان، ﴿وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ﴾ بالنبات ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ يَبسِها. ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ ومِثلَ ذلك الإخراج ﴿تُخْرَجُونَ﴾ مِن قبوركم. وقُرئ: "تَخْرُجُونَ" بفتح "التاء" وضمّ "الراء".[٦] وهذا نوعُ تفصيلٍ لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾.[٧]

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ الباهرةِ الدالّةِ على أنكم تُبعَثون دلالةً أوضح ممّا سبَق،

---

١ مسند أحمد، ١٩/٤٨٧ (١٢٥٠٥). وهو في صحيح البخاري، ١/٧٨ (٣٤٩)؛ وصحيح مسلم، ١/١٤٨ (١٦٣)، بلفظ: «هي خمس، وهي خمسون، لا يُبدّل القول لديّ».

٢ الكشف والبيان للثعلبي، ٧/٢٩٨؛ الكشّاف للزمخشري، ٣/٤٧٢.

٣ في الآية التالية.

٤ سنن أبي داود، ٧/٤١٠ (٥٠٧٦)؛ المعجم الأوسط للطبراني، ٨/٢٨٠ (٨٦٣٨).

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن عكرمة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٧٥.

٦ قرأ بها حمزة والكسائي وخلف وابن ذكوان عن ابن عامر بخُلف عنه. النشر لابن الجزري، ٢/٢٦٧.

٧ الروم، ٣٠/١١.

فإنّ دلالة بَدءِ خلقهم على إعادتهم أظهر مِن دلالة إخراج الحيّ مِن الميّت، وإخراجِ الميّت مِن الحيّ، ومِن دلالة إحياء الأرض بعد موتها عليها.

﴿أَنْ خَلَقَكُم﴾ أي: في ضمن خلقِ آدم عليه السلام، لِما مرّ مرارًا مِن أنّ خَلقه عليه السلام مُنطوٍ على خَلق ذرّيّاته انطواءً إجماليًا. ﴿مِن تُرَابٍ﴾ لم يشَمّ رائحة الحياة قطّ، ولا مناسبةَ بينه وبين ما أنتم عليه في ذاتكم وصفاتكم.

﴿ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ أي: فاجأتم بعد ذلك وقتَ[1] كونِكم بشرًا تنتشرون في الأرض. وهذا مُجمَل ما فُصِّل في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ الآيةَ [الحج، ٥/٢٢].

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾

[٣١١و] ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ﴾ الدالّةِ على ما ذُكر مِن البعث وما بعده مِن الجزاء / ﴿أَنْ خَلَقَ لَكُم﴾ أي: لأجلِكم ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ فإنّ خلقَ أصلِ أزواجكم حَوّاءَ مِن ضِلَع آدم عليه السلام متضمّن لخلقهنّ مِن أنفسكم على ما عرفتَه مِن التحقيق، أو مِن جنسكم، لا مِن جنسٍ آخَر، وهو الأوفَق لقوله تعالى: ﴿لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا﴾ أي: لتألَفوها وتميلوا إليها وتطمئنّوا بها، فإنّ المجانَسة مِن دواعي التَّضامّ والتعارف، كما أنّ المخالفة مِن أسباب التفرّق والتنافر.

﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم﴾ أي: بين الأزواج، إمّا على تغليب الرجال على النساء في الخطاب، أو على حذف ظرفٍ معطوف على الظرف المذكور، أي: جعل بينكم وبينهنّ، كما مرّ في قوله تعالى: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة، ٢٨٥/٢]. وقيل: أو بين أفراد الجنس، أي: بين الرجال والنساء،[2] ويأباه قوله تعالى: ﴿مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾، فإنّ المراد بهما ما كان منهما بعصمة الزواج قطعًا، أي: جعل بينكم بالزواج الذي شَرَعَه لكم تَوادًّا وتراحمًا مِن غير أن يكون بينكم سابقةُ معرفةٍ، ولا رابطةٌ مصحِّحةٌ للتعاطف مِن قرابة أو رحِمٍ.

---

[1] س – وقتَ.

[2] انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٠٤/٤.

قيل: "المودّة والرحمة" مِن قِبَل الله تعالى، والفِرْك[1] مِن الشيطان. وعن الحسن رحمه الله: «"المودّة" كناية عن الجماع، و"الرحمة" عن الولد»،[2] كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَةً مِّنَّا﴾ [مريم، ٢١/١٩].

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: فيما ذُكر مِن خلقهم مِن تراب، وخلقِ أزواجهم مِن أنفسهم، وإلقاءِ المودّة والرحمة بينهم. وما فيه مِن معنى البُعد مع قُرب المشار إليه للإشعار ببُعد منزلته.

﴿لَآيَاتٍ﴾ عظيمةً لا يُكتَنه كُنهُها، كثيرةً لا يُقادَرُ قدرُها ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في تضاعيف تلك الأفاعيل المَتِينة المبنيّة على الحِكم البالغة. والجملة تذييل مقرِّر لمضمون ما قبله مع التنبيه على أنّ ما ذُكر ليس بآية فذّة، كما يُنبئ عنه قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ﴾؛ بل هي مشتملة على آيات شتّى.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ الدالّة على ما ذكر مِن أمر البعث، وما يتلوه مِن الجزاء ﴿خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ إمّا مِن حيث إنّ القادر على خلقهما بما فيهما مِن المخلوقات / بلا مادّة مستعدّة لها أظهرُ قدرةً على إعادة ما كان حيًّا قبل ذلك، [٣١١ظ] وإمّا مِن حيث إنّ خلقَهما وما فيهما ليس إلّا لِمَعاش البشر ومَعادِه، كما يفصح عنه قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة، ٢٩/٢]، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود، ٧/١١].

﴿وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ﴾ أي: لغاتِكم، بأن علّمَ كلّ صنف لغتَه، أو ألهمَه وضْعَها وأقدره عليها، أو أجناسَ نُطقِكم وأشكالَه، فإنّك لا تكاد تسمع مَنطقين متساوِيَين في الكيفيّة مِن كلّ وجه.

---

[1] الفِرْك: بغضُ الرجل لامرأته، أو بغضُ امرأته له. انظر: لسان العرب لابن منظور، «فرك».

[2] الكشّاف للزمخشري، ٤٧٣/٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٠٤/٤.

﴿وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾ ببياض الجلد وسواده وتوسّطه فيما بينهما، أو تخطيطات الأعضاء وهيئاتها وألوانها وحِلاها،[١] بحيث وقع بها التمايز بين الأشخاص، حتّى إنّ التوأمَين مع توافق موادّهما وأسبابهما والأمورِ المتلاقية لهما في التخليق يختلفان في شيء مِن ذلك لا محالةَ، وإن كانا في غاية التشابه، وإنّما نُظِم هذا في سِلك الآيات الآفاقيّة مِن خلق السماوات والأرض مع كونه مِن الآيات الأنفسيّة الحقيقةِ بالانتظام في سِلك ما سبَق مِن خلق أنفسهم وأزواجهم للإيذانِ باستقلاله، والاحترازِ عن توهّم كونه مِن تتمّات خَلْقهم.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: فيما ذُكر مِن خلق السماوات والأرض واختلاف الألسنة والألوان ﴿لَأَيَٰتٍ﴾ عظيمةً في أنفسها، كثيرةً في عددها ﴿لِّلْعَٰلِمِينَ﴾ أي: المتّصفِين بالعِلم، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت، ٤٣/٢٩]. وقُرئ بفتح اللام،[٢] وفيه دلالة على كمال وضوح الآيات وعدمِ خفائها على أحد مِن الخلق كافّةً.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾﴾

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ لاستراحةِ القوى النفسانيّة، وتقوِّي القوى الطبيعيّة.

﴿وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ فيهما، فإنّ كلًّا مِن المَنام وابتغاء الفضل يقع في المَلَوَين،[٣] / [٣١٢و] وإن كان الأغلبُ وقوعَ الأوّل في الأوّل، والثاني في الثاني، أو منامُكم بالليل وابتغاؤكم بالنهار، كما هو المعتاد والموافق لسائر الآيات الواردة في ذلك، خلا أنّه فُصِل بين القرينَين الأوّلَين بالقرينَين الأخيرَين لأنّهما زَمانان، والزمان مع ما وقع فيه كشَيء واحد، معَ إعانة اللفّ على الاتّحاد.

---

[١] وفي هامش م: جمع "حِلية". «منه».

[٢] أي: "لِلْعَالَمِينَ". قرأ بها جميع القرّاء العشر غير رواية حفص عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٣٤٤/٢.

[٣] المَلَوان: الليل والنهار. **الصحاح** للجوهري، «ملو».

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يَسۡمَعُونَ﴾ أي: شأنُهم أن يسمعوا الكلامَ سماع تفهّم واستبصارٍ، حيث يتأمّلون في تضاعيف هذا البيان، ويستدلّون بذلك على شئونه تعالى.

﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَيُحۡيِۦ بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يَعۡقِلُونَ ۝٢٤﴾

﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ﴾ الفِعلُ إمّا مقدّر بـ"أن"، كما في قول مَن قال:

ألا أيــهـذا الــزاجــري أحــضُــرُ الــوَغــا[1]

أي: أن أحضُرَ.

أو منزَّل منزلةَ المصدر، وبه فُسِّر المَثَل المشهور: «تَسمعُ بالمُعيدي خير مِن أن تراه»،[2] أو هو على حاله صفة لمحذوف، أي: آية يريكم بها البرق، كقول مَن قال:

ومــا الــدهــر إلّا تــارتــان فمنهما أموت وأخرى أبتغي العيشَ أكدَحُ[3]

أي: فمنهما تارةً أموت فيها، وأخرى أبتغي فيها... إلخ.[4]

أو ومِن آياته شيء أو سحاب يُريكم البرق ﴿خَوۡفٗا﴾ مِن الصاعقة، أو للمسافر ﴿وَطَمَعٗا﴾ في الغيث، أو للمقيم، ونصبُهما على العلّة لفعلٍ يستلزمه المذكورُ، فإنّ إراءتهم البرقَ مستلزمة لرؤيتهم إيّاه، أو للمذكورِ نفسِه على تقدير مضاف، نحو: إراءَةَ[5] خوفٍ وطمَع، أو على تأويل "الخوف والطمع" بـ"الإخافة والإطماع"، كقولك: "فعلتُه رَغمًا للشيطان"، أو على الحال، نحو: "كلّمتُه شِفاهًا".

---

[1] وفي هامش م: تمامه:
وأن أشهدَ اللذّات هل أنت مُخلدي
لطرفة بن العبد في ديوانه بشرح الأعلم الشمنتري، ص ٤٥. وفيه: «أراد: أن أحضرَ، فلما أسقط "أن" ارتفع الفعل، وقد يجوز نصبه على إعمال "أن" مضمرة: يقول: يا مَن يلومني أن أحضر الحرب، وأن أنفق في الخمر وغيرها مِن أبواب الفتوّة واللذّات؛ هل في وسعك أن تخلدني فأكفّ عن ذلك وأتركه».

[2] يُضرب لمَن خَبَره خيرٌ مِن مَرآه. انظر: مجمع الأمثال للميداني، ١/١٢٩.

[3] لابن مقبل في ديوانه، ص ٣٨.

[4] ط س – إلخ.

[5] ط س: إرادة.

﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ وقُرئ بالتخفيف[١] ﴿فَيُحْيِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ بالنباتِ ﴿بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ يُبْسِها.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ فإنّها مِن الظهور بحيث يكفي في إدراكها مجرّدُ العقل / عند استعماله في استنباط أسبابها وكيفيّة تكوّنها. [٣١٢ظ]

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾﴾

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾ أي: بإرادته تعالى لقيامهما، والتعبيرُ عنها بالأمر للدلالة على كمال القدرة والغِنَى عن المبادئ والأسباب. وليس المرادُ بإقامتهما إنشاءَهما؛ لأنّه قد بُيِّنَ حالُه بقوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾،[٢] ولا إقامَتَهما بغير مقيم محسوس كما قيل،[٣] فإنّ ذلك مِن تتمّاتِ إنشائهما، وإن لم يصرَّح به تعويلًا على ما ذُكر في غير موضع مِن قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ الآيةَ [لقمان، ٣١/١٠]؛ بل قيامُهما واستمرارُهما على ما هما عليه إلى أجَلهما الذي نطَق به قوله تعالى فيما قبلُ: ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ[٤] إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.[٥]

وحيث كانت هذه الآية متأخّرة عن سائر الآيات المعدودة متّصلةً بالبعث في الوجود أُخِّرَتْ عنهنّ، وجُعلت متّصلة به في الذِّكر أيضًا، فقيل: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ فإنّه كلام مَسوق للإخبار بوقوع البعث ووجودِه بعد انقضاء أجَل قيامهما، مترتّبٌ على تعداد آياته الدالّة عليه، غيرُ منتظِم في سِلكها كما قيل، كأنّه قيل: ومِن آياته قيام السماوات والأرض على هيئاتهما بأمره تعالى إلى أجلٍ مسمًّى قدّره الله تعالى لقيامهما، ثمّ إذا دعاكم، أي: بَعْدَ انقضاء الأجَل مِن الأرض وأنتم في قبوركم دعوةً واحدةً -بأن قال: أيّها الموتى، اخرجوا- فاجأتُم الخروجَ منها، وذلك قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ﴾ [طه، ٢٠/١٠٨].

---

[١] قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٢١٨.

[٢] الروم، ٣٠/٢٢.

[٣] قاله البيضاوي في أنوار التنزيل، ٤/٢٠٥.

[٤] م ط س - وما بينهما.

[٥] الروم، ٣٠/٨.

و﴿مِنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ متعلّق بـ﴿دَعَاكُمۡ﴾، إذ يكفي في ذلك كونُ المدعوّ فيها، يقال: "دَعوتُه مِن أسفل الوادي، فطلَع إليّ"، لا بـ﴿تَخۡرُجُونَ﴾؛ لأنّ ما بعد "إذا" لا يعمل فيما قَبلها.

﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ٢٦﴾

﴿وَلَهُۥ﴾ خاصّةً ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ مِن الملائكة والثقَلين، خَلْقًا ومُلْكًا وتصرّفًا، ليس لغيره شركة في ذلك بوجه مِن الوجوه، ﴿كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ أي: منقادون لفعله، / لا يمتنعون عليه في شأن مِن شئونه تعالى. [٣١٣و]

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٢٧﴾

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ بعد موتهم، وتكريرُه لزيادة التقرير والتمهيدِ لِما بعده مِن قوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِ﴾ أي: بالإضافة إلى قُدَرِكم والقياسِ على أصولكم، وإلّا فهما عليه سواء. وقيل: ﴿أَهۡوَنُ﴾ بمعنى "هَيِّن"، وتذكير الضمير مع رجوعه إلى "الإعادة"، لِما أنّها مئوّلة بـ"أنْ يُعِيد". وقيل: هو راجع إلى ﴿ٱلۡخَلۡقَ﴾،[1] وليس بذاك.

وأمّا ما قيل[2] مِن أنّ "الإنشاء" بطريق التفضّل الذي يتخيّر فيه الفاعل بين الفعل والترك، و"الإعادةَ" مِن قَبيل الواجب الذي لا بدّ مِن فعله حتمًا، فكان أقربَ إلى الحصول مِن الإنشاء المتردّد بين الحصول وعدمه؛ فبمَعزِل مِن التحصيل، إذ ليس المراد بأَهْوَنِيّة الفعل أَقْرَبيّتَه إلى الوجود باعتبار كثرة الأمور الداعية للفاعل إلى إيجاده وقُوّةِ اقتضائها لتعلّق قدرته به؛ بل أسهليّةُ تَأَتِّيه وصدورِه عنه بعد تعلّق قدرته بوجوده، وكونِه واجبًا بالغير، ولا تفاوتَ في ذلك بين أن يكون ذلك التعلّق بطريق الإيجاب أو بطريق الاختيار.

---

[1] لعلّه يريد الضمير في ﴿عَلَيۡهِ﴾، وعبارة البيضاوي: "قيل: الهاء لـ﴿ٱلۡخَلۡقَ﴾". انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٠٦/٤؛ ومعاني القرآن للزجّاج، ١٨٣/٤.

[2] قاله الزمخشري في الكشّاف، ٤٧٧/٣.

﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أي: الوصفُ الأعلى العجيبُ الشأنِ مِن القدرة العامّة والحكمة التامّة، وسائرِ صفات الكمال التي ليس لغيره ما يُدانيها فَضلًا عمّا يُساويها، ومَن فسّره بقول: "لا إله إلّا الله" أراد به الوصفَ بالوحدانيّة.

﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ متعلِّق بمضمون الجملة المتقدّمة على معنى أنّه تعالى قد وُصِف به، وعُرِف فيهما على ألْسِنة الخلائق وألْسِنة الدلائل. وقيل: متعلّق بـ﴿ٱلْأَعْلَىٰ﴾. وقيل: بمحذوف هو حال منه، أو مِن ﴿ٱلْمَثَلُ﴾، أو مِن ضميره في ﴿ٱلْأَعْلَىٰ﴾.

[٣١٣ظ] ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ القادر الذي لا يَعجز عن بَدءِ ممكنٍ وإعادتِه، / ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي يُجري الأفعال على سَنن الحكمة والمصلحة.

﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾

﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا﴾ يتبيّن به بطلان الشرك ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أي: منتزَعًا مِن أحوالها التي هي أقرب الأمور إليكم وأعرفُها عندكم، وأظهرُها دلالةً على ما ذُكِر مِن بطلان الشرك، لكونها بطريق الأولويّة.

وقوله تعالى: ﴿هَل لَّكُم﴾... إلخ تصوير للمَثَل، أي: هل لكم ﴿مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم﴾ مِن العبيد والإماء ﴿مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ مِن الأموال وما يجري مَجراها ممّا تتصرّفون فيها. فـ﴿مِّن﴾ الأولى ابتدائيّة، والثانية تبعيضيّة، والثالثة مزيدة لتأكيد النفي المستفاد مِن الاستفهام.

وقوله تعالى:[١] ﴿فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾ تحقيق لمعنى الشركة، وبيانٌ لكونهم وشركائهم متساوين في التصرّف فيما ذُكِر مِن غير مزيّةٍ لهم عليها، على أنّ هناك محذوفًا معطوفًا على ﴿أَنتُمْ﴾، لا أنّه عامّ للفريقين بطريق التغليب، أي: هل تَرضون لأنفسكم -والحالُ أنّ عبيدكم أمثالُكم في البشريّة وأحكامِها-

---

[١] م - تعالى.

أن يُشارِكوكم فيما رزقناكم، وهو مستعار لكم، فأنتم وهم فيه سواءٌ شَرَعٌ[1] يتصرّفون فيه كتصرّفكم مِن غير فرق بينكم وبينهم.

﴿تَخَافُونَهُمْ﴾ خبرٌ آخر لـ﴿أَنتُمْ﴾، أو حال مِن ضمير الفاعل في ﴿سَوَآءٌ﴾، أي: تهابون أن تستبِدّوا بالتصرّف فيه بدون رأيهم ﴿كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: خيفةً كائنةً مثلَ خيفتكم مِن الأحرار المساهمين لكم فيما ذُكر. والمعنى نفي مضمون ما فُصِّل مِن الجملة الاستفهاميّة، أي: لا ترضون بأن يشارككم -فيما هو مُعَارٌ لكم- مماليككم، وهم أمثالكم في البشريّة غيرُ مخلوقين لكم؛ بل لله تعالى، فكيف تشركون به سبحانه في المعبوديّة التي هي مِن خصائصها الذاتيّة مخلوقَه؛ بل مصنوعَ مخلوقِه، حيث تصنعونه بأيديكم ثمّ تعبدونه؟

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثلُ ذلك التفصيل الواضح ﴿نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ﴾ أي: نبيّنها ونوضحها، لا تفصيلًا أدنى منه، فإنّ التمثيل تصويرٌ للمعاني المعقولة بصورة المحسوس، وإبرازٌ لأوابد المدرَكات على هيئة المأنوس، فيكون في غاية الإيضاح والبيان. ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي: يستعملون عقولهم في تدبّر الأمور. وتخصيصُهم بالذكر مع عموم تفصيل الآيات للكلّ لأنّهم المنتفعون بها.

﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾

﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟﴾ إعراض عن مخاطبتهم ومحاولةِ إرشادهم / إلى [٣١٤و] الحقّ بضرب المَثَل وتفصيلِ الآيات واستعمالِ المقدّمات الحَقّة المعقولةِ، وبيانٌ لاستحالة تبعيّتهم للحقّ، كأنّه قيل: لم يعقلوا شيئًا مِن الآيات المفصّلة؛ بل اتّبعوا ﴿أَهْوَآءَهُم﴾ الزائغةَ. ووضعُ الموصولِ موضعَ ضميرهم للتسجيل عليهم

[1] "شَرَعٌ" بفتح الشين المعجمة وفتح الراء المهملة وبعدَه عين مهملة، بمعنى سواء كما في الفصيح لثعلب، ص ٢٨٨. قال ابن درستويه في شرح الفصيح، ص ٢٥٢: «كأنّه جمع "شارع"، كخادم وخَدَم، أي: كلُّكم يَشرَع فيه شروعًا واحدًا». ويستوي فيه المذكّر والمؤنّث، والمفردُ وغيره. حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، ١١٩/٧.

بأنّهم في ذلك الاتّباع ظالمون، واضعون للشيء في غير موضعه، أو ظالمون لأنفسِهم بتعريضها للعذاب الخالد.

﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: جاهلين ببطلان ما أَتَوا، مُكبّين عليه، لا يَلويهم عنه صارف حسبما يصرّف العالِمَ إذا اتّبع الباطلَ علمُه ببطلانه.

﴿فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾ أي: خَلَقَ فيه الضلال لصرف اختياره إلى كسبه، أي: لا يقدر على هدايته أحدٌ. ﴿وَمَا لَهُم﴾ أي: لِمَن أضلّه الله تعالى، والجمعُ باعتبار المعنى. ﴿مِن نَّٰصِرِينَ﴾ يخلِّصونهم مِن الضلال، ويحفظونهم مِن تَبِعاته وآفاتِه، على معنى ليس لواحد منهم ناصر واحد، على ما هو قاعدة مقابلةِ الجمع بالجمع.

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾ تمثيل لإقباله على الدين، واستقامتِه وثباتِه عليه، واهتمامِه بترتيب أسبابه، فإنّ مَن اهتمّ بشيء محسوس بالبصر عقَد عليه طَرْفَه، وسدّد إليه نظرَه، وقوّم له وجهَه مقبلًا به عليه، أي: فقوّم وجهَك له، وعَدِّلْهُ غيرَ ملتفت يمينًا وشمالًا. وقوله تعالى: ﴿حَنِيفًا﴾ حال مِن المأمور، أو مِن ﴿الدِّينِ﴾.

﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾ "الفِطرة": الخِلقة. وانتصابُها على الإغراء، أي: الزموا -أو عليكم- فطرةَ الله، فإنّ الخطاب للكلّ كما يُفصح عنه قوله تعالى: ﴿مُنِيبِينَ﴾.[١] والإفراد في ﴿أَقِمْ﴾ لِما أنّ الرسول صلّى الله عليه وسلّم إمام الأمّة، فأمرُه عليه السلام مستتبع لأمرهم. والمراد بلزومها الجريانُ على موجَبها، وعدمُ الإخلال به باتّباع الهوى وتسويلِ الشياطين. وقيل: على المصدر، أي: فطرَ الله فطرةً.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ صفة لـ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾، مؤكِّدة لوجوب [٣١٤ظ] / الامتثال بالأمر، فإنّ خَلْقَ اللهِ الناسَ على فطرته -التي هي عبارة عن قَبولهم للحقّ وتمكّنِهم مِن إدراكه، أو عن ملّة الإسلام- مِن موجِبات لزومها والتمسّكِ بها قطعًا، فإنّهم لو خُلُّوا وما خُلِقوا عليه أدّى بهم إليها، وما اختاروا عليها دينًا آخر،

---

١ في الآية التالية.

ومَن غَوى منهم فبإغواء شياطين الإنس والجنّ، ومنه قوله عليه السلام حكايةً عن ربّ العزّة: «كلّ عبادي خلقتُ حنفاءَ فاجْتالَتْهم[١] الشياطين عن دينهم، وأمروهم أن يشركوا بي غيري»،[٢] وقولُه عليه السلام: «كلّ مولود يولد على الفطرة حتّى يكون أبواه هما اللذان يُهوّدانه ويُنصّرانه».[٣]

وقوله تعالى: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ تعليل للأمر بلزوم فطرته تعالى، أو لوجوب الامتثال به، أي: لا صحّةَ ولا استقامةَ لتبديله بالإخلال بموجَبه وعدمِ ترتيب مقتضاه عليه باتّباع الهوى وقَبولِ وسوسة الشيطان. وقيل: لا يقدر أحد على أن يغيّره، فلا بدّ حينئذ مِن حَمل "التبديل" على تبديل نفسِ الفطرة بإزالتها رأسًا، ووضعِ فطرة أُخرى مكانها غيرِ مصحِّحة لقَبول الحقّ والتمكّنِ مِن إدراكه، ضرورةَ أنّ "التبديل" بالمعنى الأوّل مقدور، بل واقع قطعًا، فالتعليل حينئذ مِن جهة أنّ سلامة الفطرة متحقّقة في كلّ أحد، فلا بدّ مِن لُزومها بترتيب مقتضاها عليها، وعدمِ الإخلال به بما ذُكر مِن اتّباع الهوى وخطواتِ الشيطان.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى "الدين" المأمورِ بإقامة الوجه له، أو إلى "لزوم فِطرة الله" المستفادِ مِن الإغراء، أو إلى "الفِطرة" إن فُسّرت بالملّة. والتذكير بتأويل المذكور، أو باعتبار الخبر. ﴿ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ المستوِي الذي لا عِوجَ فيه، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك، فيصدّون عنه صدودًا.

﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝٣١﴾

﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ حال مِن الضمير في الناصب المقدَّر لـ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾، أو في ﴿أَقِمْ﴾؛ لعمومه للأمّة حسبما أُشيرَ إليه، وما بينهما اعتراض، أي: راجعين إليه، مِن "أنابَ" إذا رجع مرّةً بعد أخرى.

---

١ وفي هامش م: اجتالَهم: حوّلَهم عن قصدهم. قاموس. | القاموس المحيط للفيروزابادي، «جول».

٢ مسند أحمد، ٣٣/٢٩ (١٧٤٨٤)؛ صحيح مسلم، ٢١٩٧/٤ (٢٨٦٥).

٣ صحيح البخاري، ١٠٠/٢ (١٣٨٥)؛ صحيح مسلم، ٢٠٤٧/٤ (٢٦٥٨).

[٣١٥و] / وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾ أي: مِن مخالفة أمره. عطفٌ على المقدّر المذكور. وكذا قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ المبدِّلين لفِطرة الله تعالى تبديلًا.

﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ٣٢﴾

﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ﴾ بدلٌ مِن ﴿ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[1] بإعادة الجارّ. وتفريقُهم لدينهم اختلافُهم فيما يعبدونه على اختلاف أهوائهم. وفائدة الإبدال التحذيرُ عن الانتماء إلى حزبٍ مِن أحزاب المشركين ببيان أنّ الكلّ على الضلال المبين. وقُرئ: "فَارَقُوا"،[2] أي: ترَكوا دينهم الذي أُمِروا به، ﴿وَكَانُواْ شِيَعًا﴾ أي: فِرَقًا تشايع كلّ منها إمامَها الذي أضلّها.

﴿كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ مِن الدين المعوَجّ المؤسَّس على الرأي الزائغ والزعمِ الباطلِ ﴿فَرِحُونَ﴾ مسرورون ظنًّا منهم أنّه حقّ، وأنّى له ذلك؟ فالجملة اعتراض مقرِّر لمَضمون ما قبلَه مِن تفريق دينهم وكونِهم شِيَعًا. وقد جُوّز أن يكون ﴿فَرِحُونَ﴾ صفةً لـ﴿كُلُّ﴾ على أنّ الخبر هو الظرف المقدَّم، أعني: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ﴾،[3] ولا يخفى بُعده.

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ٣٣﴾

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ﴾ أي: شدّةٌ ﴿دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ راجعين مِن دعاء غيره، ﴿ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً﴾ خَلاصًا مِن تلك الشدّة ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ﴾ الذي كانوا دعَوه منيبين إليه ﴿يُشْرِكُونَ﴾ أي: فاجأَ فريق منهم الإشراكَ. وتخصيص هذا الفعل ببعضهم لِما أنّ بعضهم ليسوا كذلك، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ [لقمان، ٣٢/٣١]، أي: مقيم على الطريق القصد، أو متوسّط في الكفر لانزجاره في الجملة.

---

١ في الآية السابقة.

٢ قرأ بها حمزة والكسائي. النشر لابن الجزري، ٢٦٦/٢.

٣ انظر: الكشّاف للزمخشري، ١٤٧٩/٣؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٠٧/٤.

﴿لِيَكْفُرُوا بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣٤ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِۦ يُشْرِكُونَ ۝٣٥﴾

﴿لِيَكْفُرُوا بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ "اللام" فيه للعاقبة، وقيل: للأمر التهديدي، كقوله تعالى: ﴿فَتَمَتَّعُوا﴾ غيرَ أنّه التُفِت فيه للمبالغة. وقُرئ: "وَلْيَتَمَتَّعُوا".[1]

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ عاقبةَ تمتّعِكم. وقُرئ بـ"الياء"،[2] على أنّ ﴿تَمَتَّعُوا﴾ ماضٍ.

والالتفات إلى الغيبة في قوله تعالى: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ﴾ للإيذان بالإعراضِ عنهم، وتعديدِ جناياتهم لغيرهم بطريق المُباثّة. ﴿سُلْطَٰنًا﴾ أي: حجّةً واضحةً. / وقيل: ذا سلطان، أي: مَلِكًا معه برهان، ﴿فَهُوَ يَتَكَلَّمُ﴾ تكلُّمَ دلالةٍ، كما في قوله تعالى: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ [الجاثية، ٢٩/٤٥]، أو تكلُّمَ نطقٍ، ﴿بِمَا كَانُوا بِهِۦ يُشْرِكُونَ﴾ بإشراكهم به تعالى، أو بالأمر الذي بسببه يشركون. [٣١٥ظ]

﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ۝٣٦﴾

﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً﴾ أي: نعمةً مِن صِحّة وسَعةٍ ﴿فَرِحُوا بِهَا﴾ بطَرًا وأشَرًا، لا حمدًا وشكرًا، ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ شدّة ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ بشُؤم معاصيهم ﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ فاجَئُوا القنوطَ مِن رحمته تعالى. وقُرئ بكسر "النون".[3]

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٣٧﴾

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ أي: ألم ينظروا ولم يشاهدوا ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ فما لهم لم يشكروا، ولم يحتسِبوا في السرّاء والضرّاء كالمؤمنين. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ فيستدلّون بها على كمال القدرة والحكمة.

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. الكشّاف للزمخشري، ٤٨٠/٣.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي العالية. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٧٥.

[3] قرأ بها أبو عمرو ويعقوب والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٣٠٢/٢.

﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾﴾

﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ مِن الصلة والصدقة وسائرِ المَبرّات ﴿وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ ما يستحقّانه. والخطاب للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم، أو لمَن بُسِط له، كما يُؤذِن به "الفاء".

﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ﴾ ذاتَه، أو جهتَه، ويَقصدون[1] بمعروفهم إيّاه تعالى خالصًا، أو جهةَ التقرّب إليه، لا جهةً أُخرى. ﴿وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ حيث حصّلوا بما بُسِط لهم النعيمَ المقيم.

﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾﴾

﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا﴾ زيادةً خاليةً عن العوض عند المعاملة. وقُرئ: "أَتَيْتُمْ" بالقَصر،[2] أي: غَشِيتموه، أو رَهِقتموه مِن إعطاء رِبًا ﴿لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ﴾ ليزيدَ ويزكُوَ في أموالهم، ﴿فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: لا يبارَك فيه. وقُرئ: "لِتُرْبُوا"،[3] أي: لِتَزيدوا، أو لِتَصِيروا ذَوِي رِبًا.

﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ﴾ أي: تبتغون به وجهه تعالى خالصًا، ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ أي: ذَوو[4] الأضعاف مِن الثواب. ونظير "المُضعِف": "المُقْوِي" و"المُوسرُ"، لِذي القوّة واليَسار، أو الذين ضَعّفوا/ ثوابَهم وأموالهم بالبركة. [٣١٦و] وقُرئ بفتح "العين"،[5] وفي تغيير النظم الكريم والالتفاتِ مِن الجزالة ما لا يخفى.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾﴾

---

١ ط س: أو يقصدون. | يظهر أثر كشطٍ في نسخة المؤلّف، فلعلّه صحّحها بعد نسخ ط س.
٢ قرأ بها ابن كثير. النشر لابن الجزري، ٢/٢٢٨.
٣ قرأ بها نافع وأبو جعفر ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٣٤٤.
٤ م ط س: ذووا.
٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبيّ رضي الله عنه. البحر المحيط لأبي حيّان، ٨/٣٩٤.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ﴾ أثبتَ له تعالى لوازم الألوهيّة وخواصَّها، ونفاها رأسًا عمّا اتّخذوه شركاء له تعالى مِن الأصنام وغيرها، مؤكِّدًا بالإنكار على ما دلّ عليه البرهان والعَيان ووقع عليه الوفاق، ثمّ استنتج منه تَنزّهَه عن الشركاء بقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾. وقد جُوّز أن يكون الموصول صفةً، والخبرُ ﴿هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم﴾، والرابطُ قولُه تعالى: ﴿مِن ذَٰلِكُم﴾؛ لأنّه بمعنى "مِن أفعاله".

و﴿مِن﴾ الأولى والثانية تُفيدان شُيوع الحُكم في جنس الشركاء والأفعال، والثالثةُ مزيدة لتعميم المنفيّ، وكلّ منها مستقلّة بالتأكيد. وقُرئ: "تُشْرِكُونَ" بصيغة الخطاب.[١]

﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾

﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ كالجَدْب، والمُوتانِ،[٢] وكثرةِ الحَرْق والغرَق، وإخْفاقِ الغاصةِ،[٣] ومَحقِ البركات، وكثرةِ المَضارّ، أو الضلالةِ والظلم. وقيل: المراد بـ﴿ٱلْبَحْرِ﴾ قُرى السواحل. وقُرئ: "وَالْبُحُورِ".[٤] ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ بشُؤم معاصيهم، أو بكسبهم إيّاها.

وقيل: ظهَرَ الفساد في البَرّ بقتل قابيلَ أخاه هابيل، وفي البحر بأنّ جُلَنْدَى[٥] كان يأخذ كلَّ سفينةٍ غصبًا.

---

[١] قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٢٨٢.

[٢] المُوتان -بالضمّ-: موتٌ يقع في الماشية. والمَوَتان -بالتحريك-: خلاف الحَيَوان. وقال الفَرّاء: المَوَتان مِن الأرض: التي لم تُحْيَ بعد. **الصحاح** للجوهري، «موت».

[٣] الإخفاق: الخَيْبة، والغاصة -بتخفيف الصاد المهملة، كـ"سادة"- جمع أو اسم جمع لـ"غائص"، وهو مَن ينزل لِقَعر البحر لإخراج اللؤلؤ ونحوه، فإنّه إذا لم يقع المطر لم يتكوّن اللؤلؤ في الصدَف. **حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي**، ٧/١٢٤.

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس رضي الله عنهما وعكرمة. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٧٦.

[٥] جُلَنْدَى بضمّ الجيم وفتح اللام، بعدها نون ساكنة، ودال مهملة، وهو مقصور، ويُمدّ، وهو المَلِك الذي ذُكر في قِصّة الخَضِر عليه السلام. **حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي**، ٧/١٢٤.

﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ أي: بعض جزائه، فإنّ تمامه في الآخرة. و"اللام" للعِلّة، أو للعاقبة. وقُرئ: "لِنُذِيقَهُم" بـ"النون".[1] ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ عمّا كانوا عليه.

﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾﴾

﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ﴾ ليشاهدوا آثارهم. ﴿كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾ استئناف للدلالة على أنّ ما أصابهم لفُشوّ الشرك فيما بينهم، أو كان الشرك في أكثرهم / وما دونه مِن المعاصي في قليل منهم. [٣١٦ظ]

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾﴾

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ﴾ أي: البليغ الاستقامة ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ﴾ لا يقدِر أحَد على ردّه ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ متعلّق بـ﴿يَأْتِىَ﴾، أو بـ﴿مَرَدَّ﴾؛ لأنّه مصدر، والمعنى: لا يردّه الله تعالى لتعلّق إرادته القديمة بمَجيئه.

﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ أصله "يَتصدَّعون"، أي: يتفرّقون؛ فريق في الجنّة، وفريق في السعير.

﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾

﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾ أي: وَبالُ كفره، وهو النار المؤبَّدة. ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ أي: يُسَوُّون منزلًا في الجنّة. وتقديم الظرف في الموضعين للدلالة على الاختصاص.

﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾

﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِن فَضْلِهِۦ﴾ متعلّق بـ﴿يَصَّدَّعُونَ﴾.[2] وقيل: بـ﴿يَمْهَدُونَ﴾،[3] أي: يتفرّقون بتفريق الله تعالى فريقين؛ ليجزيَ كلًّا منهما

---

[1] قرأ بها رَوح عن يعقوب وقُنبل عن ابن كثير بخُلف عنه. النشر لابن الجزري، ٣٤٣/٢.

[2] الروم، ٤٣/٣٠.

[3] في الآية السابقة.

بحسب أعمالهم. وحيث كان جزاء المؤمنين هو المقصودَ بالذات أُبرِز ذلك في معرض الغاية، وعُبّر عنه بالفضل، لِما أنّ الإثابة بطريق التفضّل، لا الوجوبِ، وأشيرَ إلى جزاء الفريق الآخَر بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فإنّ عدم محبّته تعالى كناية عن بُغضه الموجِب لغضبه المستتبع للعقوبة لا محالةَ.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾﴾

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ﴾ أي: الشمال والصَّبا والجَنوب، فإنّها رياح الرحمة، وأمّا الدَّبور فريح العذاب، ومنه قوله صلّى الله عليه وسلّم: «اللّٰهمّ اجعلها رياحًا، ولا تجعلها ريحًا».[1] وقُرئ: "الرِّيحَ" على إرادة الجنس.

﴿مُبَشِّرَٰتٍ﴾ بالمطر، ﴿وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ وهي المنافع التابعة لها. وقيل: الخِصْب التابع لنزول المطر المسبَّبِ عنها، أو الرَّوح الذي هو مع هبوبها. و"اللام" متعلّقة بـ﴿يُرْسِلَ﴾، والجملة معطوفة على ﴿مُبَشِّرَٰتٍ﴾ على المعنى، كأنّه قيل: لِيبشّرَكم بها / ولِيذيقَكم، أو بمحذوف يُفهم مِن ذكر الإرسال، تقديرُه: ولِيذيقَكم وليكون كذا وكذا يُرسِلُها، لا لِأمرٍ آخر لا تعلّقَ له بمنافعكم. [٣١٧و]

﴿وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ﴾ بسَوقها ﴿بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ بتجارة البحر، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ولتشكروا نعمة الله فيما ذُكر مِن الغايات الجليلة.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ كما أرسلناك إلى قومك، ﴿فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: جاء كلّ رسول قومَه بما يخصّه مِن البيّنات كما جئتَ قومَك ببيّناتك. و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟﴾ فصيحة، أي: فكذّبوهم فانتقمنا منهم. وإنّما وُضِع موضعَ ضميرهم الموصولُ للتنبيه على مكان المحذوف، والإشعارِ بكونه علّةً للانتقام.

---

[1] مسند أبي يعلى الموصلي، ٣٤١/٤ (٢٤٥٦)؛ المعجم الكبير للطبراني، ٢١٣/١١ (١١٥٣٣).

وفي قوله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ مزيدُ تشريف، وتكرمةٌ للمؤمنين، حيث جُعِلوا مستحقّين على الله تعالى أن ينصرهم، وإشعارٌ بأنّ الانتقام مِن الكفرة لأجلهم. وقد يوقف على ﴿حَقًّا﴾ على أنّه متعلّق بالانتقام.

ولعلّ توسيطَ الآية الكريمة بطريق الاعتراض بين ما سبق وما لحِق مِن أحوال الرياح وأحكامها لإنذار الكفرة وتحذيرهم عن الإخلال بمواجب الشكر المطلوبِ بقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[1] بمقابلة النعَم المعدودة المَنوطة بإرسالها، كيلا يحلّ بهم مثلُ ما حلّ بأولئك الأمم مِن الانتقام.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ﴾ استئناف مَسوق لبيان ما أُجمِل فيما سبَق مِن أحوال الرياح، ﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ﴾ متّصلًا تارة ﴿فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ في جوّها ﴿كَيْفَ يَشَآءُ﴾ سائرًا وواقفًا، مُطبقًا وغيرَ مُطبق، مِن جانب دون جانب، إلى غير ذلك.

[٣١٧ظ] ﴿وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا﴾ تارةً أُخرى / أي: قِطَعًا. وقُرئ بسكون "السين"[2] على أنّه مخفَّف، جمع "كِسفة"، أو مصدرٌ وُصِف به، ﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ﴾ المطر ﴿يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ في التارتَين.

﴿فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ أي: بلادِهم وأراضيهم ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ فاجَئوا الاستبشار بمجيء الخِصْب.

﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾﴾

﴿وَإِن كَانُوا۟﴾ ﴿إِن﴾ مخفّفة مِن "إنّ"، وضميرُ الشأن الذي هو اسمها محذوف، أي: وإنّ الشأن كانوا ﴿مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم﴾ أي: المطر ﴿مِّن قَبْلِهِۦ﴾ تكرير للتأكيد،

---

[1] في الآية السابقة.

[2] قرأ بها أبو جعفر وابن عامر بخُلف عن هشام. النشر لابن الجزري، ٢/٣٠٩.

والإيذانِ بطول عهدهم بالمطر، واستحكامِ يأسهم منه. وقيل: الضمير للمطر، أو السحابِ، أو الإرسالِ. وقيل: للكِسْف على القراءة بالسكون، وليس بواضح، وأقرب مِن ذلك أن يكون الضمير للاستبشار، و﴿مِن﴾ متعلّقةٌ بـ﴿يُنَزَّلَ﴾ لِيفيد سرعة تقلّب قلوبهم مِن اليأس إلى الاستبشار بالإشارة إلى غاية تقارب زمانَيهما ببيان اتّصال اليأس بالتنزيل المتّصل بالاستبشار بشهادة "إذا" الفجائيّة ﴿لَمُبْلِسِينَ﴾ خبر ﴿كَانُوا۟﴾، و"اللام" فارقة، أي: آيسين.

﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝﴾

﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ﴾ المترتّبة على تنزيل المطر مِن النبات والأشجار وأنواع الثمار. و"الفاء" للدلالة على سرعة ترتّبها عليه. وقُرِئ: "أَثَرِ"[1] بالتوحيد. وقوله تعالى: ﴿كَيْفَ يُحْىِ﴾ أي: اللهُ تعالى ﴿ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ في حيّز النصب بنَزع الخافض. و﴿كَيْفَ﴾ معلِّق لـ﴿ٱنظُرْ﴾، أي: فانظر إلى إحيائه البديع للأرض بعد موتها. وقيل: على الحاليّة بالتأويل، وأيًّا ما كان فالمراد بالأمر بالنظر التنبيه على عِظَم قدرته تعالى، وسَعة رحمته، مع ما فيه مِن التمهيد لِما يعقُبه مِن أمر البعث. وقُرِئ: "تُحْيِي"[2] بالتأنيث على الإسناد إلى ضمير الرحمة.

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ العظيمَ الشأنِ الذي ذُكر بعضُ شئونه ﴿لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ لَقادر على إحيائهم، فإنّه إحداث لِمثْل ما كان في موادّ أبدانهم مِن القوى الحيوانيّة، كما أنّ إحياء الأرض / إحداث لِمثل[3] ما كان فيها مِن القوى النباتيّة، أو لَمُحييهم البتّة. [٣١٨و]

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ تذييل مقرِّر لمضمون ما قبله، أي: مبالغ في القدرة على جميع الأشياء التي مِن جملتها إحياؤهم لِما أنّ نسبة قدرته إلى الكلّ سواء.

---

١ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وشعبة عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٣٤٥/٢.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حيوة وأبي البرهسم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٧٦.

٣ س - لمثل.

﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾﴾

﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ﴾ أي: الأثرَ المدلول عليه بالآثار، أو النباتَ المعبَّر عنه بالآثار، فإنّه اسم جنس يعمّ القليلَ والكثير، ﴿مُصْفَرًّا﴾ بعد خُضرته. وقد جُوّز أن يكون الضمير للسحاب؛ لأنّه إذا كان مُصفرًّا لم يُمطر،[١] ولا يخفى بُعده.

و"اللام" في ﴿وَلَئِنْ﴾ موطِّئة للقسَم دخلت على حرف الشرط، و"الفاء" في ﴿فَرَأَوْهُ﴾ فصيحة، و"اللام" في قوله تعالى: ﴿لَّظَلُّوا﴾ لام جواب القسَم السادِّ مسدَّ الجوابَين، أي: وباللهِ لئن أرسلنا ريحًا حارّةً أو باردةً فضربَتْ زرعهم بالصُّفار فرأَوه مُصفرًّا لَيظَلُّنَّ ﴿مِنْ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ﴾ مِن غير تلعثُم.

وفيه مِن ذمّهم بعدم تثبّتهم وسرعةِ تزلزلهم بين طرفَي الإفراط والتفريط ما لا يخفى، حيث كان الواجب عليهم أن يتوكّلوا على الله تعالى في كلّ حال، ويلجَئُوا إليه بالاستغفار إذا احتبس عنهم القَطر، ولا يَيأسوا مِن رَوح الله تعالى، ويبادروا إلى الشكر بالطاعة إذا أصابهم برحمته، ولا يفرّطوا في الاستبشار، وأن يصبروا على بلائه إذا اعترى زَرعَهم آفةٌ، ولا يكفروا بنَعمائه، فعكسوا الأمرَ، وأبَوا ما يُجديهم، وأتَوا بما يُرديهم.

﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾﴾

﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ﴾ لِما أنّهم مثلهم، لانسداد مشاعرهم عن الحقّ، ﴿وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ تقييد الحكم بما ذُكر لبيان كمال سوء حال الكفرة، والتنبيهِ على أنّهم جامعون لخَصلتَي السوء؛ نُبُوّ أسماعهم عن الحقّ، وإعراضِهم عن الإصغاء إليه، ولو كان فيهم إحداهما لكفاهم ذلك، فكيف وقد جمعوهما؟ فإنّ الأصمّ المُقبِل إلى المتكلِّم / ربّما يَفطَنُ مِن أوضاعه وحركاته [٣١٨ظ] بشيء مِن كلامه، وإن لم يسمعه أصلًا، وأمّا إذا كان مُعرضًا عنه فلا يكاد يَفهم منه شيئًا. وقُرئ بـ"الياء" المفتوحة ورفعِ ﴿الصُّمَّ﴾.[٢]

---

[١] انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢١٠/٤.

[٢] أي: "وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ". قرأ بها ابن كثير. النشر لابن الجزري، ٣٣٩/٢.

﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ۝٥٣﴾

﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ﴾ سُمُّوا عُميًا إمّا لفَقدهم المقصودَ الحقيقي مِن الإبصار، أو لِعَمَى قلوبهم. وقُرِئ: "تَهْدِي الْعُمْيَ".[1]

﴿إِن تُسْمِعُ﴾ أي: ما تُسمِع ﴿إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ فإنّ إيمانهم يدعوهم إلى التدبّر فيها وتلقّيها بالقبول، أو إلّا مَن يشارف الإيمانَ بها، ويُقبِل عليها إقبالًا لائقًا، ﴿فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ مُنقادون لِما تأمرهم به[2] مِن الحقّ.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ۝٥٤﴾

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾ مبتدأ وخبر، أي: ابتدأكم ضعفاء، وجعلَ الضعف أساسَ أمركم، كقوله تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء، ٢٨/٤]، أي: خَلَقكم مِن أصل ضعيف، هو النطفة.

﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ وذلك عند بلوغكم الحُلم، أو تَعلُّقَ بأبدانكم الروحُ، ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ إذا أخذ منكم السِّنُّ. وقُرِئ بضمّ "الضاد" في الكلّ،[3] وهو أَقوى، لقول ابن عمر رضي الله عنهما: «قرأتُها على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فأقرأني: "مِن ضُعْفٍ"».[4] وهما لغتان، كـ"الفَقر" و"الفُقر". والتنكير مع التكرير لأنّ المتقدِّم غير المتأخّر.

﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ مِن الأشياء التي مِن جملتها ما ذكر مِن الضعف والقوّة والشيبة، ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾ المبالغ في العِلم والقدرة، فإنّ الترديد فيما ذُكر مِن الأطوار المختلفة مِن أوضح دلائل العِلم والقدرة.

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ۝٥٥﴾

---

[1] قرأ بها حمزة الزيّات. النشر لابن الجزري، ٣٣٩/٢.

[2] س – به.

[3] قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٣٤٥/٢.

[4] سنن أبي داود، ١٠٥/٦ (٣٩٧٨)؛ سنن الترمذي، ١٨٩/٥ (٢٩٣٦).

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ أي: القيامةُ، سمّيت بها لأنّها تقوم في آخر ساعة مِن ساعات الدنيا، أو لأنّها تقع بغتةً، وصارت عَلَمًا لها، كـ"النجم" للثريّا، و"الكوكب" للزُّهرة.

﴿يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟﴾ أي: في القبور، أو في الدنيا، والأوّل هو الأظهر؛ لأنّ لُبثهم مُغيًا بيوم البعث كما سيأتي، وليس لُبثهم في الدنيا كذلك. وقيل: فيما بين فناء الدنيا والبعث وانقطاع عذابهم. وفي الحديث: «ما بين فَناء الدنيا والبعث أربعون»،[1] وهو محتمِل للساعات والأيّام والأعوام. وقيل: لا يُعلم أهِي أربعون سنةً، أو أربعون ألفَ سنةٍ.

﴿غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ استقلّوا مدّةَ لبثهم نسيانًا أو كذِبًا أو تخمينًا، ﴿كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ﴾ مِثل ذلك الصَّرف كانوا يُصرفون في الدنيا عن الحقّ والصدق.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ﴾ في الدنيا مِن الملائكة والإنس: ﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ / فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ في علمه، أو قضائه، أو ما كتبه وعيّنه، أو في اللوح، أو القرآن، [٣١٩و] وهو قوله تعالى: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ﴾ [المؤمنون، ١٠٠/٢٣]. ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ﴾ ردّوا بذلك ما قالوه، وأيّدوه باليمين، كأنّهم مِن فَرْطِ حَيرتهم لم يدروا أنّ ذلك هو البعث الموعود الذي كانوا ينكرونه، وكانوا يسمعون أنّه يكون بعد فناء الخلق كافّةً، ويقدّرون لذلك زمانًا مديدًا، وإن لم يعتقدوا تحقُّقه.

فرَدّ العالِمون مقالتَهم ونبّهوهم على أنّهم لبثوا إلى غاية بعيدة كانوا يسمعونها وينكرونها، وبَكّتُوهم بالإخبار بوقوعها حيث قالوا: ﴿فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ﴾

---

[1] أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢١٠/٤. وقال الوليّ العراقي: لم أقف عليه هكذا. وقال الحافظ ابن حجر: لم أجده. وفي الصحيحين [صحيح البخاري، ١٢٦/٦ (٤٨١٤)؛ صحيح مسلم، ٢٢٧٠/٤ (٢٩٥٥)] عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا: «ما بين النفختين أربعون»، قالوا: «يا أبا هريرة، أربعون سنة؟» قال: «أبَيت»، قالوا: «أربعون شهرًا؟» قال: «أبَيت»، قالوا: «أربعون يومًا؟» قال: «أبَيت». الفتح السماوي للمناوي، ٩٠٩/٢.

الذي كنتم توعدون في الدنيا، ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أنّه حقّ، فتستعجلون بها استهزاءً، و"الفاء" جواب شرطٍ محذوف، كما في قول مَن قال:

قالوا خُراسانُ أقصى ما يُراد بنا ثمّ القُفول، فقد جِئنا خُراسانا[1]

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ۝٥٧﴾

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ أي: عُذرُهم. وقُرِئ: "تَنفَعُ" بـ"التاء"[2] محافظةً على ظاهر اللفظ وإن توسّط بينهما فاصل. ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ لا يُدعَون إلى ما يقتضي إعتابَهم -أي: إزالةَ عَتْبهم- مِن التوبة والطاعة كما دُعُوا إليه في الدنيا، مِن قولهم: "استعتَبني فلان، فأَعْتَبتُه"، أي: استرضاني فأرضَيته.

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ۝٥٨﴾

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي: وبالله لقد بيّنّا لهم كلّ حال، ووصفنا لهم كلّ صفة، كأنّها في غرابتها مَثَل، وقَصصنا عليهم كلّ قِصّة عجيبة الشأن، كصفة المبعوثين يوم القيامة وقِصّتهم، وما يقولون وما يقال لهم ويُفعَلُ بهم مِن ردِّ اعتذارِهم.

﴿وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ﴾ مِن آيات القرآن الناطقة بأمثال ذلك ﴿لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ لِفَرْط عُتوّهم وعِنادهم وقَساوة قلوبهم مُخاطِبين للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم والمؤمنين:[3] ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ أي: مزوِّرون.

﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝٥٩﴾

﴿كَذَٰلِكَ﴾ مِثلُ ذلك الطبعِ الفظيع ﴿يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لا يَطلبون العِلم، ولا يتحرَّون الحقَّ؛ بل يُصِرّون على خرافاتٍ اعتقدوها، وتُرَّهات ابتدعوها، فإنّ الجهل المركّب يَمنع إدراك الحقّ، ويوجِب تكذيب المُحِقّ.

---

[1] للعبّاس بن الأحنف في ديوانه، ص ٢٧٩. قاله لمّا خرج مع الرشيد إلى خراسان.

[2] قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر. النشر لابن الجزري، ٣٤٦/٢.

[3] ط س: وللمؤمنين.

﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ۝٦٠﴾

﴿فَاصْبِرْ﴾ على ما تشاهد منهم مِن الأقوال الباطلة والأفعال السيّئة ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ / وقد وعَدك بالنصرة وإظهارِ الدين، وإعلاءِ كلمة الحقّ، ولا بدّ مِن إنجازه والوفاءِ به لا محالةَ. [٣١٩ظ]

﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ﴾ لا يَحملنّك على الخِفّة والقَلَق ﴿الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ بما تتلو عليهم مِن الآيات البيّنة بتكذيبهم إيّاها، وإيذائهم لك بأباطِيلهم التي مِن جملتها قولهم: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾،[١] فإنّهم شاكّون ضالّون، ولا يُستبدَع منهم أمثال ذلك. وقُرئ بـ"النون" المخفّفة.[٢] وقُرئ: "وَلَا يَسْتَحِقَّنَّكَ"[٣] مِن "الاستِحقاق"، أي: لا يَفتِنُنّك فيملِكوك ويكونوا أحقَّ بك مِن المؤمنين.

وأيًّا ما كان فظاهر النظم الكريم وإن كان نهيًا للكفرة عن استخفافه[٤] عليه السلام واستحقاقه لكنّه في الحقيقة نهي له عليه السلام عن التأثّر مِن استخفافهم، والافتتان بفتنتهم على طريق الكناية، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟﴾ [المائدة، ٨/٥].

عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة الروم كان له مِن الأجر عشر حسنات بعدد كلّ ملَك سبّح الله تعالى بين السماء والأرض، وأدرك ما ضيّع في يومه وليلته».[٥]

---

[١] الروم، ٥٨/٣٠.

[٢] أي: "وَلَا يَسْتَخِفَنْكَ". قرأ بها رُويس عن يعقوب. النشر لابن الجزري، ٢٤٦/٢.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي إسحاق ويعقوب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٧٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٨٨/٣.

[٤] س: استحفافه.

[٥] الكشف والبيان للثعلبي، ٢٩١/٧؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٤٢٧/٣. وهو جزء مِن الحديث المروي عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

/ سورة لقمان [٣٢٠و]

مكيّة، قيل: إلّا آيةً، هي قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ[1] يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [لقمان، ٤/٣١]، فإنّ وجوبهما بالمدينة، وهو ضعيف؛ لأنّه ينافي شرعيّتهما في مكّة.[2] وقيل:[3] إلّا ثلاثًا، مِن قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ﴾... إلخ [لقمان، ٢٧/٣١].[4]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ① تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ②﴾

﴿الٓمٓ ۞ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ سلفَ بيانه في نظائره. ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ أي: ذي الحكمة لاشتماله عليها، أو هو وصف له بنَعتِه تعالى، أو أصله "الحكيمِ مُنزِلُه أو قائلُه"، فحُذف المضاف، وأقيمَ المضاف إليه مُقامه، فانقلب مرفوعًا، فاستكَنّ في الصفة المشبَّهة. وقيل: ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ "فَعِيل" بمعنى "مُفْعَل"، كما قالوا: "أَعقَدتُ اللبَنَ، فهو عَقيد"، أي: مُعقَد، وهو قليل. وقيل: بمعنى "فاعِل".

﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ③ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ④﴾

﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾ بالنصب على الحاليّة مِن "الآيات"، والعاملُ فيهما معنى الإشارة. وقُرئا بالرفع[5] على أنّهما خبران آخران لاسم الإشارة، أو لمبتدأٍ محذوف.

---

[1] م – الذين.

[2] نقل القول وضعّفه البيضاوي في أنوار التنزيل، ٢١٢/٤.

[3] نقَله البيضاوي في أنوار التنزيل، ٢١٢/٤.

[4] ط س – قيل: إلّا آيةً، هي قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [لقمان، ٤/٣١]، فإنّ وجوبهما بالمدينة، وهو ضعيف؛ لأنّه ينافي شرعيّتهما في مكّة. وقيل: إلّا ثلاثًا، مِن قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ﴾... إلخ [لقمان، ٢٧/٣١]؛ ط س + وهي أربع وثلاثون آيةً. وقيل: ثلاث وثلاثون.

[5] أي: "هُدًى وَرَحْمَةٌ". قرأ بها حمزة الزيّات. النشر لابن الجزري، ٣٤٦/٢.

﴿لِلْمُحْسِنِينَ﴾ أي: العاملين للحسنات، فإن أريدَ بها مشاهيرها المعهودة في الدين فقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ بيان لِما عملوها مِن الحسنات، على طريقة قوله:

الألمعيّ الذي يظنّ بك الظـ ـنّ كأن قد رأى وقد سَمِعا[١]

وإن أريدَ بها جميعُ الحسنات فهو تخصيص لهذه الثلاث بالذكر مِن بين سائر شُعَبِها لإظهار فضلها وإنافتها على غيرها. وتخصيص الوجه الأوّل بصورة كون الموصول صفةً لـ﴿الْمُحْسِنِينَ﴾، والوجه الأخير بصورة كونه مبتدأ ممّا لا وجهَ له.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥﴾

﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون بكلّ مطلوب، والناجون مِن كلّ مَهروب لحِيازتهم قُطرَي العلم والعمل، وقد مرّ ما فيه مِن المقال في مطلع سورة البقرة بما لا مَزيد عليه.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٦﴾

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ محلّه الرفع على الابتداء باعتبار مضمونه، أو بتقدير الموصوف. و﴿مَن﴾ في قوله تعالى: ﴿مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾ موصولة أو موصوفة محلّها الرفع على الخبريّة، والمعنى: وبعضُ الناس، أو وبعضٌ مِن الناس الذي يشتري، أو فريقٌ يشتري، على أنّ مناط الإفادة والمقصودَ بالأصالة هو اتّصافُهم بما في حيّز الصلة أو الصفة، لا كونُهم ذوات أولئك المذكورين، / كما مرّ في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ الآيةَ [البقرة، ٨/٢]. [٣٢٠ظ]

و﴿لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾ ما يُلهي عمّا يَعني مِن المهمّات، كالأحاديث التي لا أصلَ لها، والأساطيرِ التي لا اعتدادَ بها، والمَضاحكِ، وسائرِ ما لا خيرَ فيه مِن فضول الكلام.

---

[١] لأوس بن حجر في ديوانه، ص ٣٥. "الألمعيّ": الحديد اللسان والقلب، وقد أبانه بقوله:

الـذي يـظـنّ بـك الـظـ ـنّ كـأن قـد رأى وقـد سمعا

الكامل للمبرّد، ٣٣/٤.

والإضافة بمعنى "مِن" التبيينيّة إن أريدَ بـ﴿ٱلْحَدِيثِ﴾ المُنكَرُ، وبمعنى التبعيضيّة إن أريدَ به الأعـمّ مِن ذلك.

وقيل: نزلت الآية في النضر بن الحارث؛ اشترى كتب الأعاجم، وكان يحدّث بها قريشًا، ويقول: إن كان محمّد عليه السلام يحدّثكم بحديث عاد وثمود، فأنا أحدّثكم بحديث رستم واسفنديار والأكاسرة.[١] وقيل: كان يشتري القِيانَ ويحملهنّ على معاشرة مَن أراد الإسلام ومنعِه عنه.[٢]

﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: دينِه الحقّ المُوصلِ إليه تعالى، أو عن قراءة كتابه الهادي إليه تعالى. وقُرئ: "لِيَضِلَّ" بفتح "الياء"،[٣] أي: ليَثبُت ويستمرّ على ضلاله، أو ليزداد فيه. ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: بحال ما يشتريه، أو بالتجارة، حيث استبدل الشرّ البحتَ بالخير المَحض. ﴿وَيَتَّخِذَهَا﴾ بالنصب عطفًا على ﴿يُضِلَّ﴾، والضميرُ للسبيل، فإنّه ممّا يُذكّر ويؤنّث، وهو دين الإسلام، أو القرآن، أي: ويتّخذَها ﴿هُزُوًا﴾ مهزوءً به. وقُرئ: "وَيَتَّخِذُهَا" بالرفع[٤] عطفًا على ﴿يَشْتَرِى﴾.

وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى ﴿مَن﴾، والجمعُ باعتبار معناها كما أنّ الإفراد في الفعلَين باعتبار لفظها، وما فيه مِن معنى البُعد مع قُرب العهد بذِكر المشار إليه للإيذان ببُعد مَنزلتهم في الشرارة، أي: أولئك الموصوفون بما ذُكر مِن الاشتراء للإضلال ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ لِما اتّصفوا به مِن إهانتهم الحقّ بإيثار الباطل عليه، وترغيبِ الناس فيه.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٧﴾

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ﴾ أي: على المشتري، أُفردَ الضمير فيه وفيما بعده كالضمائر الثلاثة الأُوَل باعتبار لفظة ﴿مَن﴾[٥] / بعد ما جُمع فيما بينهما باعتبار معناها. [٣٢١و]

---

١ الكشف والبيان للثعلبي، ٣١٠/٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٩٠/٣.

٢ الكشّاف للزمخشري، ٤٩٠/٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢١٢/٤.

٣ قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو ورُويس بخُلف عنه. النشر لابن الجزري، ٢٩٩/٢.

٤ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وشعبة عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٣٤٦/٢.

٥ في الآية السابقة.

﴿ءَايَٰتُنَا﴾ التي هي ﴿ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾،[١] و﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ﴾.[٢] ﴿وَلَّىٰ﴾ أعرضَ عنها غيرَ معتدٍّ بها ﴿مُسْتَكْبِرًا﴾ مبالغًا في التكبّر ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ حال مِن ضمير ﴿وَلَّىٰ﴾، أو مِن ضمير ﴿مُسْتَكْبِرًا﴾، والأصل "كأنّه"، فحُذف ضمير الشأن، وخُفِفَت المثقّلة، أي: مُشبِهًا حالُه حالَ مَن لم يسمعها وهو سامع، وفيه رمز إلى أنّ مَن سمِعها لا يُتَصوَّر منه التولية والاستكبار، لِما فيها مِن الأمور الموجِبة للإقبال عليها والخضوع لها، على طريقة قَول مَن قال:

كأنّك لم تجزعْ على ابن طريف[٣]

﴿كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾ حال مِن ضمير ﴿لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾، أي: مُشْبِهًا حالُه حالَ مَن في أذنَيه ثِقَلٌ مانع مِن السماع، ويجوز أن يكونا استئنافَين. وقُرئ: "فِي أُذْنَيْهِ" بسكون "الذال".[٤] ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي: فأَعلِمْه بأنّ العذاب المُفرِط في الإيلام لاحِقٌ به لا محالةَ. وذِكر البشارة للتهكّم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بيان لحال المؤمنين بآياته تعالى إثرَ بيان[٥] الكافرين بها، أي: الذين آمنوا بآياته تعالى[٦] وعمِلوا بموجَبها ﴿لَهُمْ﴾ بمقابلة ما ذُكر مِن إيمانهم وأعمالهم ﴿جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾ أي: نعيمُ جنّاتٍ، فعُكس للمبالغة. والجملة خبر ﴿إِنَّ﴾، والأحسن أن يُجعل ﴿لَهُمْ﴾ هو الخبر لـ﴿إِنَّ﴾، و﴿جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾ مرتفِعًا به على الفاعليّة.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ حال مِن الضمير في ﴿لَهُمْ﴾،[٧] أو مِن ﴿جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾،

---

١ لقمان، ٢/٣١.
٢ لقمان، ٣/٣١.
٣ وفي هامش م: صدره:
أيا شجر الخابور ما لك مُورِقًا
مِن قصيدة لِلَيلى بنت طريف التغلبيّة، ترثي أخاها الوليد. انظر: شرح شواهد المغني للسيوطي، ١٤٨/١.
٤ قرأ بها نافع المدني. النشر لابن الجزري، ٢١٦/٢.
٥ س + حال.
٦ ط س – تعالى.
٧ في الآية السابقة.

لاشتماله على ضميرَيهما، والعامل ما تعلّق به "اللام". ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗا﴾ مصدران مؤكِّدان، والأوّل لنفسه، والثاني لغيره؛ لأنّ قوله تعالى: ﴿لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾[1] في معنى: وعدَهم الله جنّاتِ النعيم، فأكّد معنى الوعد بالوعد. وأمّا ﴿حَقّٗا﴾ فدالّ على معنى الثبات، أُكِّد به معنى الوعد، ومؤكِّدُهما جميعًا ﴿لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾.[2] ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ الذي لا يغلبه شيء ليمنعه / مِن إنجاز وعدِه، أو تحقيقِ وعيده، [٣٢١ظ] ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ الذي لا يفعل إلّا ما يقتضيه الحكمة والمصلحة.

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ١٠﴾

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ﴾... إلخ استئناف مَسوق للاستشهاد بما فُصِّل فيه على عزّته تعالى التي هي كمال القدرة، وحكمتِه التي هي كمال العلم، وتمهيدِ قاعدة التوحيد وتقريرِه، وإبطالِ أمرِ الإشراك وتبكيتِ أهله. و"العَمَد" جمعُ "عِماد" كـ"أَهَبٍ" جمعِ "إهاب"، وهو ما يُعْمَدُ به، أي: يُسنَد. يقال: "عمَدتُ الحائطَ" إذا أدعمتَه، أي: بغير دعائم، على أنّ الجمع لِتعدّد السماوات.

وقوله تعالى: ﴿تَرَوۡنَهَا﴾ استئناف جيء به للاستشهاد على ما ذُكر مِن خلقه تعالى لها غيرَ مَعمودة بمشاهدتهم لها كذلك، أو صفةٌ لِـ﴿عَمَدٖ﴾، أي: خلَقها بغير عَمَدٍ مرئيّة، على أنّ التقييد للرمز إلى أنّه تعالى عَمَدها بعَمَدٍ لا تُرى، هي عَمَد القدرة.

﴿وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ﴾ بيان لصنعه البديع في قرار الأرض إثرَ بيان صنعه الحكيم في قرار السماوات، أي: ألقى فيها جبالًا ثوابت. وقد مرّ ما فيه مِن الكلام في سورة الرعد.[3] ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمۡ﴾ كراهةَ أن تَميل بكم، فإنّ بساطة أجزائها تقتضي تبدّلَ أحيازها وأوضاعها، لامتناع اختصاص كلّ منها لذاته أو لشيءٍ مِن لوازمه بحيّز معيّن ووضعٍ مخصوص.

---

[1] في الآية السابقة.
[2] في الآية السابقة.
[3] الرعد، ٣/١٣.

﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ مِن كلّ نوع مِن أنواعها، ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ هو المطر، ﴿فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا﴾ بسبب ذلك الماء ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ مِن كلّ صنف كثير المنافع. والالتفات إلى "نون العظمة" في الفعلين لإبراز مزيد الاعتناء بأمرهما.

﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾﴾

﴿هَٰذَا﴾ أي: ما ذُكر مِن السماوات والأرض وما تعلّق بهما مِن الأمور المعدودة ﴿خَلْقُ ٱللَّهِ﴾ أي: مخلوقه، ﴿فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ ممّا اتّخذتموهم شركاءَ له سبحانه في العبادة حتّى استحقّوا به المعبوديّة. و﴿مَاذَا﴾ نصب بـ﴿خَلَقَ﴾، أو ﴿مَا﴾ مرتفع بالابتداء، وخبره ﴿ذَا﴾ بصلته، / و﴿أَرُونِى﴾ متعلّق به. [٣٢٢و]

وقوله تعالى: ﴿بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ إضراب عن تبكيتهم بما ذُكر إلى التسجيل عليهم بالضلال البيّنِ المستدعي للإعراض عن مخاطبتهم بالمقدّمات المعقولة الحقّة، لاستحالة أن يفهموا منها شيئًا فيهتدوا به إلى العلم ببطلان ما هم عليه، أو يتأثّروا مِن الإلزام والتبكيت فينزجروا عنه. ووضعُ الظاهر موضعَ ضميرهم للدلالة على أنّهم بإشراكهم واضعون للشيء في غير موضعه، ومتعدّون عن الحدّ، وظالمون لأنفسهم بتعريضها للعذاب الخالد.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾﴾

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ كلام مستأنَف مَسوق لبيان بطلان الشرك. وهو لقمان بن باعوراء مِن أولاد آزَر ابن أخت أيّوب عليه السلام أو خالتِه، وعاش حتّى أدرك داود عليه السلام، وأخذ منه العلم، وكان يُفتي قبل مَبعثه. وقيل: كان قاضيًا في بني إسرائيل. والجمهور على أنّه كان حكيمًا، ولم يكن نبيًّا. و"الحكمة" في عرف العلماء: "استكمال النفس الإنسانيّة باقتباس العلوم النظريّة، واكتسابُ المَلَكة التامّة على الأفعال الفاضلة على قدر طاقتها".[١]

---

١ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢١٣/٤.

ومِن حكمته أنّه صحب داود عليه السلام شهورًا، وكان يسرد الدرع، فلم يسأله عنها، فلمّا أتمّها لبِسها، فقال: «نِعمَ لَبوسُ الحرب أنت»، فقال: «الصمت حكمة، وقليل فاعله»، فقال له داود عليه السلام: «بحقٍّ ما سُمّيتَ حكيمًا».[1]

وأنّ داود عليه السلام قال له يومًا: «كيف أصبحتَ؟» فقال: «أصبحتُ في يدي غيري»، فتفكّر داود عليه السلام فيه فصعِق صعقة.[2]

وأنّه أمَره مولاه بأن يذبح شاةً[3] ويأتيَ بأطيب مضغتين منها، فأتى باللسان والقلب، ثمّ بعد أيّام أمره بأن يأتي بأخبث مضغتين منها، فأتى بهما أيضًا، فسأله عن ذلك، فقال: «هما أطيبُ شيء إذا طابا، وأخبثُ شيء إذا خَبُثا».[4]

ومعنى ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ / أي: اشكر له تعالى، على أنّ ﴿أَن﴾ مفسِّرة، فإنّ "إيتاء الحكمة" في معنى القول. وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَشْكُرْ﴾... إلخ استئناف مقرِّر لمضمون ما قبله، موجِب للامتثال بالأمر، أي: ومَن يشكر له تعالى ﴿فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ لأنّ منفعته -التي هي ارتباط العتيد واستجلابُ المزيد- مقصورة عليها. [٣٢٢ظ]

﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ﴾ عن كلّ شيء، فلا يحتاج إلى الشكر ليتضرّر بكفر مَن كفر، ﴿حَمِيدٌ﴾ حقيق بالحمد، وإن لم يحمده أحد، أو محمود بالفعل، يَنطق بحمده جميع المخلوقات بلسان الحال. وعدم التعرّض لكونه تعالى مشكورًا[5] لِمَا أنّ الحمد متضمّن للشكر؛ بل هو رأسه، كما قال عليه السلام: «الحمد رأس الشكر، لم يشكر اللهَ عبدٌ لم يحمده»،[6] فإثباته له تعالى إثبات للشكر له قطعًا.

﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾

﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ﴾ أَنْعَم، وقيل: أَشكَم، وقيل: ماثان، ﴿وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ﴾

---

١ الكشّاف للزمخشري، ٤٩٣/٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢١٣/٤.

٢ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢١٣/٤؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٤١٢/٨.

٣ س: شاتًا.

٤ الكشف والبيان للثعلبي، ٣١٦/٧؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢١٣/٤.

٥ ط س: شكورًا.

٦ المصنّف لعبد الرزّاق، ٤٢٠/٨ (٢٠٤٨١)؛ الكشف والبيان للثعلبي، ١٠٩/١ (الفاتحة، ٢/١).

تصغير إشفاق. وقُرِئ: "يَا بُنَيْ" بإسكان "الياء"،[١] وبكسرها.[٢] ﴿لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾ قيل: كان ابنه كافرًا فلم يزل به حتّى أسلم. ومَن وقف على ﴿لَا تُشْرِكْ﴾ جعل ﴿بِٱللَّهِ﴾ قسمًا. ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ تعليل للنهي، أو الانتهاء عن الشرك.

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾﴾

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ﴾... إلخ كلام مستأنَف اعتُرض به على نهج الاستطراد في أثناء وصيّة لقمان تأكيدًا لِما فيها مِن النهي عن الشرك. وقوله تعالى: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ﴾ إلى قوله: ﴿فِى عَامَيْنِ﴾ اعتراض بين المفسَّرِ والمفسِّرِ. وقوله تعالى: ﴿وَهْنًا﴾ حال مِن ﴿أُمُّهُۥ﴾، أي: ذاتَ وَهْن، أو مصدر مؤكِّد لفعل هو الحال، أي: تَهِنُ وَهنًا. وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ صفة للمصدر، أي: كائنًا على وَهْن، أي: تَضعُف ضعفًا فوقَ ضعف، فإنّها لا يزال يتضاعف ضَعفها.

وقُرِئ: "وَهَنًا عَلَى وَهَنٍ" بالتحريك،[٣] يقال: وَهَنَ يَهِن وَهْنًا، وَوَهِنَ يَوْهَنُ وَهَنًا.

﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾ أي: فِطامه في تمام عامين، وهي مدّة الرضاع عند الشافعي،[٤] وعند أبي حنيفة رحمهما الله هي ثلاثون شهرًا.[٥] وقد بُيِّن وجهه في موضعه. وقُرِئ: "وَفَصْلُهُ".[٦]

﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ تفسير لـ﴿وَصَّيْنَا﴾، وما بينهما اعتراض مؤكِّد للوصيّة في حقّها خاصّةً، ولذلك قال عليه السلام لِمَن قال له عليه السلام: «مَنْ أَبَرُّ؟»:[٧] «أمَّكَ[٨] ثمّ أمَّكَ»، ثمّ قال بعد ذلك: / «ثمّ أباك».[٩] [٣٢٣و]

---

[١] مِن غير تشديد. قرأ بها ابن كثير. النشر لابن الجزري، ٢/٢٨٩.

[٢] مع تشديدها. قرأ بها نافع وأبو جعفر وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر وحمزة والكسائي وخَلف وشعبة عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٢/٢٨٩.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن الثقفي وأحمد بن موسى عن أبي عمرو. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٧٨.

[٤] انظر: الحاوي الكبير للماوردي، ١١/٣٦٧.

[٥] انظر: الهداية للمرغيناني، ١/٢١٧.

[٦] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وأبي رجاء وقتادة والجَحدري ويعقوب. البحر المحيط لأبي حيّان، ٨/٤١٤.

[٧] وفي هامش م: أي: أفعلُ البرّ. «منه».

[٨] وفي هامش م: أي: برّ أمّك. «منه».

[٩] سنن أبي داود، ٧/٤٥٣ (٥١٣٩)؛ سنن الترمذي، ٤/٣٠٩ (١٨٩٧).

﴿إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ تعليل لوجوب الامتثال بالأمر، أي: إليّ الرجوع، لا إلى غيري، فأجازيك على ما صدَر عنك مِن الشكر والكفر.

﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾

﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ﴾ أي: بشركته له تعالى في استحقاق العبادة ﴿عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ في ذلك. ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ أي: صِحابًا معروفًا يرتضيه الشرع، ويقتضيه المروءة. ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ﴾ بالتوحيد والإخلاص في الطاعة، ﴿ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ أي: مرجعُك ومرجعُهما ومرجعُ مَن أناب إليّ، ﴿فَأُنَبِّئُكُم﴾ عند رجوعكم ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بأن أجازي كلًّا منكم بما صدَر عنه مِن الخير والشرّ.

﴿يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿يَٰبُنَىَّ﴾... إلخ شروع في حكاية بقيّة وصايا لقمان إثرَ تقرير ما في مطلعها مِن النهي عن الشرك وتأكيده بالاعتراض. ﴿إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ أي: إنّ الخَصلة مِن الإساءة أو الإحسان إن تَكُ مثلًا في الصغر كحَبّة الخَرْدل. وقُرئ برفع ﴿مِثْقَالَ﴾،[1] على أنّ الضمير للقصّة، و"كان" تامّة. والتأنيث لإضافة المثقال إلى الحبّة، كما في قول مَن قال:

كما شرِقَتْ صدرُ القناة مِن الدمِ[2]

أو لأنّ المراد به الحسنة أو السيّئة.

---

١ قرأ بها نافع وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٣٢٤.

٢ صدره:

وتَشرَقَ بالقول الذي قد أذعتَه

للأعشى الكبير في ديوانه، ص ١٢٣. و"تَشرَق" مِن "شَرِق بريقه" إذا غصّ، وهو مِن باب "عَلِم يعلَم". و"أذعتَه" -بالذال المعجمة والعين المهملة- مِن "الإذاعة"، وهي الإفشاء. و"القناة": الرمح. وأنّثَ "شَرِقت" وإن كان مسندًا الى "صدر" وهو مذكّر؛ لأنّه اكتسب التأنيث مِن المضاف إليه. شرح شواهد المغني للسيوطي، ٢/٨٨٢.

﴿فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ[1] أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: فَتكُن مع كونها في أقصى غايات الصغر والقَماءة في أخفى مكان وأحرَزِه، كجوف الصخرة، أو حيث كانت في العالم العلوي أو السفلي ﴿يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾ أي: يُحضِرْها ويُحاسِبْ عليها. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ﴾ يصلُ علمه إلى كلّ خفيّ، ﴿خَبِيرٌ﴾ بكُنهه.

وبعد ما أمره بالتوحيد الذي هو أوّل ما يجب على الإنسان في ضمن النهي عن الشرك، ونبّهَه على كمال علم الله تعالى وقدرته، أمرَه بالصلاة التي هي أكمل العبادات تكميلًا له مِن حيث العمل بعد تكميله مِن حيث الاعتقاد، فقال مستميلًا له: ﴿يَٰبُنَيَّ / أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ تكميلًا لنفسك، ﴿وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ تكميلًا لغيرك، ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾ مِن الشدائد والمِحَن، لا سيّما فيما أُمِرتَ به. [٣٢٣ظ]

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى كلّ ما ذُكر، وما فيه مِن معنى البعد مع قرب العهد بالمشار إليه لِما مرّ مرارًا مِن الإشعار ببُعد منزلته في الفضل. ﴿مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ أي: ممّا عزمه الله تعالى وقطعه على عباده مِن الأمور لمزيد مزيّتها. مصدر أطلق على المفعول. وقد جُوّز أن يكون بمعنى الفاعل مِن قوله تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ﴾ [محمد، ٢١/٤٧]، أي: جَدَّ. والجملة تعليل لوجوب الامتثال بما سبق مِن الأمر والنهي، وإيذان بأنّ ما بعدها ليس بمثابته.

﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾﴾

﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ أي: لا تُمِلْه ولا تولِّهم صفحةَ وجهك كما هو دَيدن المتكبّرين، مِن "الصَعَرِ"، وهو الصَّيَد؛ وهو داء يصيب البَعير، فيُلوى منه عنقُه. وقُرئ: "وَلَا تُصَاعِرْ".[2] وقُرئ: "وَلَا تُصْعِرْ"[3] مِن "الإفعال"، والكلّ بمعنًى، مِثل: "علاه" و"عالاه" و"أعلاه".

﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ أي: فرحًا، مصدر وقع موقع الحال، أو مصدر مؤكّد لِفعلٍ هو الحال، أي: تمرح مرَحًا، أو لأجل المرَح والبطَر.

---

[1] م ط س: السماء.

[2] قرأ بها نافع وأبو عمرو وحمزة والكسائي وخَلف. النشر لابن الجزري، ٣٤٦/٢.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن والجحدري. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٧٨.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ تعليل للنهي، أو موجَبِه،[١] وتأخير "الفَخور" مع كونه بمقابلة "المصعِّر خدَّه" عن "المختال" وهو بمقابلة "الماشي مَرحًا" لرعاية الفواصل.

﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾

﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ﴾ بعد الاجتناب عن المرَح فيه، أي: توسَّطْ بين الدبيب والإسراع، وعنه عليه السلام: «سرعة المشي يُذهب بهاء المؤمن».[٢] وقول عائشة في عمر رضي الله تعالى[٣] عنهما: «كان إذا مشى أسرع»،[٤] فالمراد به ما فوق دبيب المتماوِت. وقُرئ بقطع "الهمزة"[٥] مِن "أقصَدَ الرامي" إذا سدّد سهمَه نحو الرميّة.

﴿وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾ وانقص منه واقصر، ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ﴾ أي: أوحَشها ﴿لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ تعليل للأمر على أبلغ وجه وآكَده، مبنيٌّ على تشبيه الرافعين أصواتَهم بالحمير، وتمثيلِ أصواتهم بالنُّهاق، وإفراطٌ في التحذير عن رفع الصوت والتنفير عنه. وإفراد الصوت مع إضافتهِ إلى الجمع لِما أنّ المراد ليس بيانَ حالِ صوت كلّ واحد مِن آحاد هذا الجنس حتّى يُجمع؛ بل بيانُ حال صوتِ هذا الجنس مِن بين / أصوات سائر الأجناس. [٣٢٤و]

﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ رجوع إلى سَنَن ما سلف قبل قصّة لقمان مِن خطاب المشركين، وتوبيخٌ لهم على إصرارهم على ما هم عليه مع مشاهدتهم لدلائل التوحيد. والمراد بالتسخيرِ إمّا جعلُ المسخَّرِ بحيث ينفع المسخَّرَ له أعمَّ مِن أن يكون منقادًا له يتصرّف فيه

---

١ م ط س – أو موجَبه ["صح" في هامش م].
٢ الكشف والبيان للثعلبي، ٣١٥/٧؛ حلية الاولياء لأبي نعيم، ٢٩٠/١٠.
٣ ط س – تعالى.
٤ الكشّاف للزمخشري، ٤٩٨/٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢١٥/٤. وذكره ابن الأثير في النهاية، «موت». وهو في الطبقات لابن سعد، ٢٢٠/٣، مِن قول الشفاء ابنة عبد الله.
٥ قراءة شاذّة، غير منسوبة. انظر: البحر المحيط لأبي حيّان، ٤١٦/٨.

كيف يشاء، ويستعمله حسبما يريد كعامّة ما في الأرض مِن الأشياء المسخَّرة للإنسان المستعمَلة له مِن الجماد والحيوان، أو لا يكون كذلك؛ بل يكون سببًا لحصول مراده مِن غير أن يكون له دخل في استعماله، كجميع ما في السماوات مِن الأشياء التي نِيطت بها مصالح العباد معاشًا أو معادًا، وإمّا جَعْلُه منقادًا للأمر مذلَّلًا، على أنّ معنى ﴿لَكُم﴾ لأجلكم، فإنّ جميع ما في السماوات والأرض مِن الكائنات مسخَّرة لله تعالى مستتبِعة لمنافع الخلق، وما يستعمله الإنسان حسبما يشاء وإن كان مسخَّرًا له[١] بحسب الظاهر فهو في الحقيقة مسخَّر لله تعالى.

﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ محسوسةً ومعقولةً، معروفةً لكم وغيرَ معروفة، وقد مرّ شرح "النعمة" وتفصيلها في الفاتحة. وقُرئ: "أَصْبَغَ" بـ"الصاد"،[٢] وهو جارٍ في كلّ "سين" قارنَه "الغين" أو "الخاء" أو "القاف" كما تقول في "سلَخ": "صلَخ"، وفي "سَقْر": "صَقْر"، وفي "سالغ":[٣] "صالغ". وقُرئ: "نِعْمَةً".[٤]

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ﴾ في توحيده وصفاته ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ مستفادٍ مِن دليل، ﴿وَلَا هُدًى﴾ مِن جهة الرسول عليه السلام ﴿وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ أنزله الله سبحانه؛ بل بمجرّد التقليد.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾﴾

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾ أي: لمَن يجادل، والجمع باعتبار المعنى: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا﴾ يريدون به عبادة الأصنام. ﴿أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ﴾ أي: آباءَهم، / لا أنفسَهم كما قيل،[٥] فإنّ مدار إنكار الاتّباع واستبعادِه [٣٢٤ظ]

---

[١] م ط س - وإن كان مسخّرًا له ["صح" في هامش م].

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن زكريّا بن يحيى بن عمارة عن أبيه. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٧٨.

[٣] وفي هامش م: سلَغَت الشاة: خرجَت ناباها. «منه». | انظر: القاموس المحيط للفيروزابادي، «سلغ».

[٤] قرأ بها ابن كثير وابن عامر وحمزة والكسائي وخلف ويعقوب وشعبة عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٣٤٧/٢.

[٥] انظر: الكشّاف للزمخشري، ٤٩٩/٣؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٢١٦/٤.

كونُ المتبوعين تابعين للشيطان، لا كونُ أنفسهم كذلك، أي: أيتّبعونهم ولو كان الشيطان يدعوهم فيما هم عليه مِن الشرك ﴿إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ فهم متوجِّهون إليه حسب دعوته. والجملة في حيّز النصب على الحاليّة، وقد مرّ تحقيقه في قوله تعالى: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ مِن سورة البقرة [البقرة، ١٧٠/٢] بما لا مزيدَ عليه.

﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾﴾

﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ بأن فوّض إليه مجامع أموره، وأقبل عليه بكلّيّته، وحيث عُدّي بـ"اللام" قُصِد معنى الاختصاص. وقُرئ بالتشديد.[1] ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أي: في أعماله، آتٍ بها جامعةً بين الحسن الذاتي والوصفي، وقد مرّ في آخر سورة النحل. ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ أي: تعلّق بأوثَقِ ما يُتعلَّق به مِن الأسباب، وهو تمثيل لحال المتوكِّل المشتغِل بالطاعة بحال مَن أراد أن يترقّى إلى شاهِق جبل، فتمسّك بأوثَقِ عُرى الحبل المتدلّي منه، ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ﴾ لا إلى أحد غيره ﴿عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ فيجازيه أحسنَ الجزاء.

﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾﴾

﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ﴾ فإنّه لا يضرّك في الدنيا ولا في الآخرة. وقُرئ: "فَلَا يُحْزِنْكَ"،[2] مِن "أَحْزَنَ" المنقولِ مِن "حَزِنَ" بكسر "الزاء"، وليس بمستفيض. ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ لا إلى غيرنا، ﴿فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟﴾ في الدنيا مِن الكفر والمعاصي بالعذاب والعقاب. والجمع في الضمائر الثلاثة باعتبار معنى ﴿مَن﴾، كما أنّ الإفراد في الأوّل باعتبار لفظها. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ تعليل للتنبئة المعبَّر بها عن التعذيب.

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن السلمي وعبد الله بن مسلم بن يسار. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٧٨.

[2] قرأ بها نافع المدني. النشر لابن الجزري، ٢٤٤/٢.

﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾

﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا﴾ تمتيعًا، أو زمانًا قليلًا، فإنّ ما يزول وإن كان بعد أمَدٍ طويل بالنسبة إلى ما يدوم قليل. ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ يثقل عليهم ثِقَلَ الأجرام الغلاظ، أو يُضمّ إلى الإحراق الضغطُ والتضييق.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾

[٣٢٥و] ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ / لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ لغاية وضوح الأمر بحيث اضطُرّوا إلى الاعتراف به. ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على أن جعل دلائل التوحيد بحيث لا يكاد ينكرها المكابرون أيضًا. ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ شيئًا مِن الأشياء، فلذلك لا يعملون بمقتضى اعترافهم. وقيل: لا يعلمون أنّ ذلك يلزمهم.

﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾﴾

﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[١] فلا يستحقّ العبادةَ فيهما غيرُه. ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ عن العالَمين، ﴿الْحَمِيدُ﴾ المستحِقّ للحمد وإن لم يحمَده أحد، أو المحمودُ بالفعل يحمَده كلّ مخلوق بلسان الحال.

﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾

﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ﴾ أي: لو أنّ الأشجار أقلام. وتوحيد "الشجرة" لِما أنّ المراد تفصيل الآحاد. ﴿وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ﴾ أي: مِن بعد نَفاده ﴿سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ أي: والحال أنّ البحر المحيط بسَعته يمدّه الأبحر السبعة مدًّا لا ينقطع أبدًا، وكُتبت بتلك الأقلام وبذلك المِداد كلماتُ الله ﴿مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾ ونفِدت تلك الأقلام والمِداد، كما في قوله تعالى: ﴿لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي﴾ [الكهف، ١٨/١٠٩].

---

[١] م ط س: وما في الأرض.

وقُرئ: "يُمِدُّهُ"[١] مِن "الإمداد" بـ"الياء" و"التاء". وإسناد المدّ إلى الأبحر السبعة دون البحر المحيط مع كونه أعظمَ منها وأطمّ؛ لأنّها هي المجاوِرة للجبال ومنابعِ المياه الجارية، وإليها يَنصبّ الأنهار العظام أوّلًا، ومنها يَنصبّ[٢] إلى البحر المحيط ثانيًا. وإيثارُ جمع القِلّة في الكلمات للإيذان بأنّ ما ذُكر لا يَفي بالقليل منها، فكيف بالكثير؟

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ لا يعجزه شيء، ﴿حَكِيمٌ﴾ لا يَخرج عن علمه وحكمته أمرٌ، فلا تنفَد كلماته المؤسَّسة عليهما.

﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝٢٨﴾

/ ﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ أي: إلّا كخَلقها وبَعثها في سهولة التأتّي، إذ لا يشغله شأن عن شأن؛ لأنّ مناط وجود الكلّ تعلّق إرادته الواجبة مع قدرته الذاتيّة، حسبما يُفصح عنه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل، ١٦/٤٠]. [٣٢٥ظ]

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ يسمع كلّ مسموع، ﴿بَصِيرٌ﴾ يبصرُ كلَّ مبصَر، لا يشغله عِلم بعضِها عن عِلم بعض، فكذلك الخلق والبعث.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝٢٩﴾

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ قيل: الخطاب لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم. وقيل: عامّ لكلّ أحد ممّن يصلح للخطاب، وهو الأوفَق لِما سبق وما لحِق، أي: ألَمْ تعلم علمًا قويًا جاريًا مَجرى الرؤية ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ أي: يُدخِل كلَّ واحد منهما في الآخر، ويضيفه إليه، فيتفاوت بذلك حالُه زيادةً ونقصانًا، ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ عطفٌ على ﴿يُولِجُ﴾، والاختلاف بينهما صيغةً،

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٧٩.

٢ س: تنصبّ.

٣ م ط س: أمرنا.

لِما أنّ إيلاج أحد المَلَوين[١] في الآخر متجدِّد في كلّ حين، وأمّا تسخير النيّرَين فأمر لا تعدّدَ فيه ولا تجدّدَ، وإنّما التعدّد والتجدّد في آثاره، وقد أشيرَ إلى ذلك حيث قيل:

﴿كُلٌّ يَجْرِي﴾ أي: بحسب حركته الخاصّة وحركته القسريّة على المدارات اليوميّة المتخالفة المتعدّدة حسب تعدّد الأيّام جريًا مستمرًّا ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ قدّره الله تعالى لجريهما، وهو يوم القيامة، كما رُوي عن الحسن رحمه الله،[٢] فإنّه لا ينقطع جريهما إلّا حينئذ.

والجملة على تقدير عموم الخطاب اعتراض بين المعطوفَين لبيان الواقع بطُرق الاستطراد، وعلى تقدير اختصاصه به عليه السلام يجوز أن تكون حالًا مِن ﴿ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾، فإنّ جريانهما إلى يوم القيامة مِن جملة ما في حيّز رؤيته عليه السلام.

هذا، وقد جُعل جريانهما عبارةً عن حركتهما الخاصّة بهما في فلكهما، والأجلُ المسمّى عن منتهى دورتهما، وجُعل مدّةُ الجريان للشمس سنةً، وللقمر شهرًا، فالجملة حينئذ بيان لحكم تسخيرهما، / وتنبيهٌ على كيفيّة إيلاج أحد المَلَوين [٣٢٦و] في الآخر، وكونِ ذلك بحسب اختلاف جرَيان الشمس على مداراتها اليوميّة، فكلّما كان جريانُها متوجّهًا إلى سَمت الرأس تزداد القوس التي هي فوق الأرض كِبَرًا، فيزداد النهار طولًا بانضمام بعض أجزاء الليل إليه إلى أن يبلغ المدار الذي هو أقرب المدارات إلى سَمْت الرأس، وذلك عند بلوغها إلى رأس السرطان، ثمّ ترجع متوجّهةً إلى التباعد عن سَمْت الرأس، فلا تزال القِسيّ التي فوق الأرض تزداد صِغرًا، فيزداد النهارُ قِصَرًا بانضمام بعض أجزائه إلى الليل إلى أن يبلغ المدار الذي هو أبعد المَدارات اليوميّة عن سَمْت الرأس، وذلك عند بلوغها برجَ الجَدْي.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ عطفٌ على ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ﴾... إلخ، داخل معه في حيّز الرؤية على تقديرَي خصوص الخطاب وعمومه،

---

[١] المَلَوان: الليل والنهار. **الصحاح** للجوهري، «ملا».

[٢] **الكشّاف** للزمخشري، ٣/٥٠٢؛ **تفسير القرطبي**، ١٤/٧٨.

فإنّ مَن شاهد مثل ذلك الصنع الرائق والتدبيرِ اللائق لا يكاد يَغفُل عن كون صانعه عزّ وجلّ محيطًا بجلائل أعماله ودقائقها.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ۝٣٠﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما تُلِيَ مِن الآيات الكريمة. وما فيه مِن معنى البُعد للإيذان ببُعد منزلتها في الفضل، وهو مبتدأ، خبره قوله تعالى: ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ أي: بسبب بيان أنّه تعالى هو الحقّ إلهيّتُه فقط ولأجلِه، لكونها ناطقة بحقّيّة التوحيد، ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾ أي: ولأجل بيان بطلان إلهيّة ما يدعونه مِن دونه تعالى، لكونها شاهدةً بذلك شهادةً بيّنةً لا ريبَ فيها. وقُرِئ بـ"التاء"،[1] والتصريحُ بذلك مع أنّ الدلالة على اختصاص حقّيّة الإلهيّة به تعالى مستتبِعة للدلالة على بطلان إلهيّة ما عداه لإبراز كمال الاعتناءِ / بأمر التوحيد، وللإيذان بأنّ الدلالة على بطلان ما ذُكر ليست بطريق الاستتباع فقط؛ بل بطريق الاستقلال أيضًا. [٣٢٦ظ]

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ أي: وبيانِ أنّه تعالى هو المترفّع عن كلّ شيء، المتسلّطُ عليه، فإنّ ما في تضاعيف الآيات الكريمة مبيِّن لاختصاص العلوّ والكبرياء به تعالى أيَّ بيان.

هذا، وقيل:[2] ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ما ذُكر مِن سَعة العلم وشمولِ القدرة وعجائبِ الصنع واختصاصِ الباري تعالى به بسبب أنّه الثابت في ذاته الواجبُ مِن جميع جهاته، أو الثابتُ إلهيّته. وأنت خبير بأنّ حقّيّته تعالى وعلوّه وكبرياءَه وإن كانت صالحةً لمناطيّة ما ذُكر مِن الأحكام المعدودة لكنّ بطلان إلهيّة الأصنام لا دخلَ له في المناطيّة قطعًا، فلا مساغَ[3] لنظمه في سلك الأسباب؛ بل هو تعكيس للأمر، ضرورةَ أنّ الأحكام المذكورة هي المقتضية لبطلانها، لا أنّ بطلانها يقتضيها.

---

١ أي: "تَدْعُونَ". قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وابن عامر وشعبة عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٣٢٧/٢.

٢ قاله البيضاوي في أنوار التنزيل، ٢١٧/٤.

٣ وفي هامش م: اللّهمّ إلّا أن يُجعل قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ﴾... إلخ خبرًا لمبتدأ محذوف، أي: والأمر أنّ ما يدعون مِن دونه الباطل، على أنّ الجملة معترضة، وُسّطت بين المعطوفين مسارعةً إلى تحقيق حقّيّته تعالى وتقريرها. «منه».

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾﴾

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ﴾ بإحسانه في تهيئة أسبابه. وهو استشهاد آخر على باهر قدرته، وغايةِ حكمته، وشمولِ إنعامه. و"الباء" إمّا متعلّقة بـ﴿تَجْرِى﴾، أو بمقدّر هو حال مِن فاعله، أي: ملتبسةً بنعمته تعالى. وقُرئ: "الْفُلُكَ" بضمّ "اللام"،[1] و"بِنِعْمَاتِ اللهِ"،[2] وعين "فِعلَاتِ" يجوز فيه الكسر والفتح والسكون.

﴿لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ أي: بعضَ دلائل وَحدته وعلمه وقدرته.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ تعليل لِما قبله، أي: إنّ فيما ذُكر لآياتٍ عظيمةً في ذاتها، كثيرةً في عددها، لكلّ مَن يبالغ في الصبر على المشاقّ، فيُتعب نفسه في التفكّر في الأنفس والآفاق، ويبالغ في الشكر على نَعمائه. وهما صفتا المؤمن، فكأنّه قيل: لكلّ مؤمن.

﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾﴾

﴿وَإِذَا غَشِيَهُم﴾ أي: عَلاهم وأحاط بهم ﴿مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ﴾ / [٣٢٧و] كما يُظِلّ مِن جبل أو سحاب أو غيرهما. وقُرئ: "كَالظِّلَالِ"،[3] جمع "ظُلّة"، كـ"قُلّة" و"قِلال". ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ لزوال ما ينازع الفطرة مِن الهوى والتقليد بما دهاهم مِن الدواهي والشدائد.

﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ أي: مقيم على القصد السويّ الذي هو التوحيد، أو متوسّطٌ في الكفر لانزجاره في الجملة. ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ﴾ غدّارٍ، فإنّه نقضٌ للعهد الفطري، أو رفضٌ لِما كان في البحر. و"الخَتْر": أشدّ الغَدر وأقبحُه. ﴿كَفُورٍ﴾ مبالغٍ في كفران نِعم الله تعالى.

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن الزبير. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٧٩.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعرج والأعمش وابن يعمر. وعن ابن أبي عبلة: "بِنَعِمَاتِ" بفتح النون وكسر العين. انظر: **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٤٢٣/٨.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن محمد بن الحنفيّة. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٧٩.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾﴾

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ﴾ أي: لا يَقضي عنه. وقُرئ: "لَا يُجْزِئُ"،[1] مِن "أَجزأَ" إذا أغنى. والعائد إلى الموصول محذوف، أي: لا يَجزي فيه. ﴿وَلَا مَوْلُودٌ﴾ عطف على ﴿وَالِدٌ﴾، أو هو مبتدأ، خبرُه: ﴿هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾ وتغيير النظم للدلالة على أنّ المولود أَولى بأن يَجزي، وقطعِ طمَع مَن توقّع مِن المؤمنين أن ينفع أباه الكافرَ في الآخرة.

﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ بالثواب والعقاب ﴿حَقٌّ﴾ لا يمكن إخلافه أصلًا، ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ أي: الشيطان المبالغ في الغرور، بأن يحملكم على المعاصي بتزيينها لكم، ويُرجئكم التوبة والمغفرة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾﴾

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ علمُ وقتِ قيامها، لِما رُوي أنّ الحارث بن عمرو[2] أتى رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم فقال: «متى الساعة؟ وإنّي قد ألقيتُ حبّاتي في الأرض، فمتى السماء تُمطر؟ وحملُ امرأتي ذكر أم أنثى؟ وما أعمل غدًا؟ وأين أموت؟» فنزلت.[3] وعنه عليه السلام: «مفاتح / الغيب خمس»، وتلا هذه الآية.[4] [٣٢٧ظ]

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبان بن تغلب وأبي السماك وعامر بن عبد الله وأبي السوار. انظر: شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٧٩؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٨/٤٢٤.

٢ اختُلف في اسم السائل؛ ففي أسباب النزول للواحدي، ص ٣٤٧: "الحارث بن عمرو بن حارثة بن محارب بن حفصة، مِن أهل البادية". وفي الكشف والبيان للثعلبي، ٧/٣٢٣: "الوارث بن عمرو بن حارثة بن محارب بن حفصة، مِن أهل البادية". وفي الدرّ المنثور للسيوطي، ٦/٥٣٠: "الوارث، مِن بني مازن بن حفص بن قيس بن عيلان". وفي البحر المحيط لأبي حيّان، ٨/٤٢٥: "الحارث بن عمارة المحاربي".

٣ التفسير الوسيط للواحدي، ٣/٤٤٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٣/٥٠٥.

٤ مسند أحمد، ٨/٣٨٦ (٤٧٦٦)؛ صحيح البخاري، ٦/١١٥ (٤٧٧٨).

﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ في إبّانه الذي قدّره، وإلى محلّه الذي عيّنه في علمه. وقُرئ: "يُنْزِلُ"[1] مِن "الإنزال". ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾ مِن ذكر أو أنثى، أو تامّ أو ناقص.

﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ﴾ مِن النفوس ﴿مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ مِن خير أو شرّ، وربّما يعزم على شيء منهما فيفعل خلافه، ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ كما لا تدري في أيّ وقت تموت.

رُوي أنّ ملَك الموت مرّ على سليمان عليهما السلام، فجعل ينظر إلى رجل مِن جلسائه، فقال الرجل: «مَن هذا؟» قال: «ملَك الموت»، فقال: «كأنّه يريدني، فَمُرِ الريح أن تحملني وتلقيَني ببلاد الهند»، ففعل، ثمّ قال الملَك لسليمان عليهما السلام: «كان دوام نظري إليه تعجّبًا منه حيث كنتُ أُمِرت بأن أقبِض روحه بالهند وهو عندك».[2]

ونسبةُ العلم إلى الله تعالى والدرايةِ إلى العبد للإيذان بأنّه إن أعمَلَ حِيَلَهُ وبذَلَ في التعرّف وُسعَه لم يعرف ما هو لاحقٌ به مِن كسبه وعاقبته، فكيف بغيره ممّا لم يُنصب[3] له دليل عليه؟ وقُرئ: "بِأَيَّةِ أَرْضٍ".[4] وشَبّه سيبويه تأنيثَها بتأنيث "كلّ" في "كلّتهنّ".

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ﴾ مبالغ في العلم، فلا يَعزُب عن علمه شيء مِن الأشياء التي مِن جملتها ما ذُكر. ﴿خَبِيرٌ﴾ يعلم بواطنها كما يعلم ظواهرها.

عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة لقمان كان لقمان رفيقًا له يوم القيامة، وأعطي مِن الحسنات عشرًا بعدد مَن عمل بالمعروف ونهى عن المنكر».[5]

---

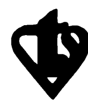
[1] قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وحمزة والكسائي وخَلف. النشر لابن الجزري، ٢/٢١٨.

[2] الكشف والبيان للثعلبي، ٧/٣٢٩؛ الكشّاف للزمخشري، ٣/٥٠٥.

[3] س: ينضب.

[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبيّ رضي الله عنه وابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٨٠.

[5] ط س + تم. | الكشف والبيان للثعلبي، ٧/٣٠٩؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٣/٤٤٠. وهو جزء مِن الحديث المروي عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ١/٢٤٠.



Türkiye Diyanet Vakfı Yayınları

Yayın No. 1000-1
İSAM Yayınları 236
Klasik Eserler Dizisi 46

İRŞÂDÜ'L-AKLİ's-SELÎM ilâ MEZÂYA'l-KİTÂBİ'l-KERÎM

Şeyhülislâm Ebussuûd b. Muhammed el-İmâdî

Cilt 6

Tahkik
Mehmet Taha Boyalık - Ahmet Aytep [Mukaddime - Bakara 98; Nisâ - Tevbe]
Ziyaüddin el-Kaliş [Bakara 99 - Âl-i İmrân 32; Yûnus - Hûd; Hicr - Tâhâ; Zâriyât - Nâs]
Muhammed İmâd el-Nabulsî [Âl-i İmrân 33-200; Yûsuf - İbrâhim; Enbiyâ - Kâf]



İrşâdü'l-akli's-selîm ilâ mezâya'l-Kitâbi'l-Kerîm
TDV İslam Araştırmaları Merkezi (İSAM)
Tahkik Yayın Kurulu ilmî kontrolünde hazırlanmıştır.

İcadiye-Bağlarbaşı Cad. 38 Üsküdar/İstanbul
Tel. 0216. 474 08 50
www.isam.org.tr yayin@isam.org.tr

Yayın yönetmeni M. Suat Mertoğlu
Yayın koordinasyon Erdal Cesar
Tahkik editörü Okan Kadir Yılmaz
İnceleme kısmı son okuma (Türkçe) Mustafa Demiray
İnceleme kısmı üslup okuma (Türkçe) Metin Karabaşoğlu
Tercüme (Arapçaya) Merve Dağıstanlı Barsik
Tashih (Arapça) Said Kayacı, Münzir Şeyhhasan, Mohamed Shahin
(Türkçe) İsa Kayaalp, Abdülkadir Şenel, İnayet Bebek
Tasarım Ali Haydar Ulusoy, İbrahim Dervişmüezzin (Uygulama),
Hasan Hüseyin Can (Kapak), Ramzi Haj Mustafa (Kapak Hattı)
Yayın takip Münzir Şeyhhasan, Sema Doğan



Bu eser
TDV İslam Araştırmaları Merkezi'nin (İSAM)
İkinci Klasik Dönem Projesi
kapsamında yayınlanmıştır.

Proje koordinatörü Tuncay Başoğlu

Bu kitap
İSAM Yönetim Kurulu'nun
01/06/2020 tarihli ve 2020/05 sayılı kararıyla basılmıştır.

Birinci Basım: Ankara, Temmuz 2021 m. / 1442 h.
ISBN 978-625-7581-31-8 (Tk.)
978-625-7581-37-0 (6. Cilt)



Basım Yayın ve Dağıtım
TDV Yayın Matbaacılık ve Tic. İşl.
Ostim OSB Mahallesi, 1256 Cadde, No. 11
Yenimahalle/Ankara
Tel. 0312. 354 91 31 Faks. 0312. 354 91 32
bilgi@tdv.com.tr
Sertifika No. 48058

Şeyhülislâm Ebussuûd b. Muhammed el-İmâdî
İrşâdü'l-akli's-selîm ilâ mezâya'l-Kitâbi'l-Kerîm [إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم] / Şeyhülislâm Ebussuûd b. Muhammed el-İmâdî ; tahkik Mehmet Taha Boyalık , Ahmet Aytep , Ziyaüddin el-Kaliş , Muhammed İmâd el-Nabulsî. – Ankara : Türkiye Diyanet Vakfı, 2021.
6. c. , 640 s. ; 24 cm. – (Türkiye Diyanet Vakfı Yayınları ; 1000-1. İSAM Yayınları ; 236. Klasik Eserler Dizisi ; 46)

Dizin ve kaynakça var.
ISBN 978-625-7581-31-8 (Tk.) 978-625-7581-37-0 (6. Cilt)



İrşâdü'l-akli's-selîm ilâ mezâya'l-Kitâbi'l-Kerîm

Ebussuûd Tefsiri

Şeyhülislâm Ebussuûd b. Muhammed el-İmâdî
(ö. 982 h. / 1574 m.)

Kendisine ait notlarla (minhüvât) birlikte müellif nüshasından ilk neşir

Tahkik

Mehmet Taha Boyalık, Ahmet Aytep
Ziyaüddin el-Kaliş, Muhammed İmâd el-Nabulsî

Proje Yürütme ve İlmî Kontrol
Mehmet Taha Boyalık

Altıncı Cilt



TÜRKİYE DİYANET VAKFI YAYINLARI

İKİNCİ KLASİK DÖNEM PROJESİ

"İslam medeniyetinin İkinci Klasik Dönemi" olarak adlandırılabilecek olan h. 7-13. (m. 13-19.) yüzyıllar arası entelektüel birikimin gereği gibi araştırma mevzuu edilmesi ve yaklaşık yedi asırlık bu dönemin ilmî ve fikrî boyutlarıyla ortaya çıkarılması hedefiyle Türkiye Diyanet Vakfı İslam Araştırmaları Merkezi (İSAM) tarafından, bünyesinde pek çok alt projeyi ihtiva edecek bir çerçeve proje olan İkinci Klasik Dönem Projesi gündeme alınmıştır. Günümüz tarih yazıcılığında İslam medeniyeti tarihi Moğol istilası sonrası genelde İslam medeniyetinde özelde İslam düşüncesi ve ilimlerinde gelişmenin inkıtaa uğradığı varsayımıyla yazılmaya çalışılmıştır. Batı'da 19. yüzyılda oluşturulan, sömürgeleşme süreciyle birlikte müslümanlar arasında da yaygınlık kazanan bu bakış açısı İslam tarihiyle ilgili yargılarımızı eksik bırakmıştır. Neticede İslam tarihi, düşüncesi, sanatı, kurumları, önde gelen şahsiyetleri, literatürü ve olaylarıyla insicamlı bir bütünlük içinde ele alınamamıştır.

Bu alandaki çalışmalarla sadece İslam medeniyet tarihinin bir dönemi değil aynı zamanda insanlık tarihinin çok önemli bir devresi aydınlanmış olacaktır. Bu proje vasıtasıyla İkinci Klasik Dönem'de tartışılan ilmî meseleler yeniden kazanılarak günümüz ilim ve fikir dünyasının gündemi haline getirilecek ve böylece yeni dönemin inşasında, hâlihazırdaki sorunların tespit, tahlil, tenkit ve hallinde geçmiş birikimden azami ölçüde istifade edilmesi sağlanacaktır.

Bu dönemle ilgili çalışmalar kapsamında İslam ilimleri, İslam düşüncesi, İslam bilim tarihi, İslam medeniyetinde beşerî ilimler ve sanat alanlarına dair çalışmaların yanı sıra İslam ile diğer medeniyetler arası mukayeseli çalışmalar yer alacaktır. Gerçekleştirilecek projeler Osmanlı coğrafyası, Sahrâaltı Afrikası, Delhi Sultanlığı döneminden itibaren Hint alt kıtası ve Moğol istilası sonrası Orta Asya ve İran'a yoğunlaşacaktır. Proje kapsamında kataloglama, telif, tahkik, tercüme türünden yayınlar yapılması öngörülmektedir.

M. Sait Özervarlı, *İbn Teymiyye'nin Düşünce Metodu ve Kelâmcılara Eleştirisi*, 2008; 2017
Yavuz Köktaş, *Fethu'l-bârî ve Umdetü'l-kârî'nin Metin Tahlili Açısından İncelenmesi*, 2009; 2020
Fatih Yahya Ayaz, *Memlükler Döneminde Vezirlik*, 2009; 2017
Halil İnalcık, *Osmanlı İdare ve Ekonomi Tarihi*, 2011; 2018
Tuncay Başoğlu, *Fıkıh Usûlünde Fahreddin er-Râzî Mektebi*, 2011; 2014
Adalet Çakır, *Abdülkādir-i Geylânî ve Kādirîlik*, 2012; 2021
İslâm Düşüncesinin Dönüşüm Çağında Fahreddin er-Râzî (ed. Osman Demir-Ömer Türker), 2013
Nûreddin es-Sâbûnî, *el-Kifâye fi'l-hidâye* (thk. Muhammet Aruçi), 2013; (DİB/İSAM ortak yayını) 2019
Nûreddin es-Sâbûnî, *el-Müntekā min ismeti'l-enbiyâ* (thk. Mehmet Bulut), 2013; (DİB/İSAM ortak yayını) 2019
Türkiye'de Tarikatlar: Tarih ve Kültür (ed. Semih Ceyhan), 2015
Semih Ceyhan, *Üç Pîrin Mürşidi Halvetiyye, Ramazâniyye Kolu ve Köstendilli Ali Alâeddin Efendi*, 2015
Şükrü Maden, *Tefsirde Hâşiye Geleneği ve Şeyhzâde'nin Envârü't-Tenzîl Hâşiyesi*, 2015
İstanbul Şer'iyye Sicilleri Vakfiyeler Katalogu (haz. B. Aydın, İ. Yurdakul, A. Işık, İ. Kurt, E. Yıldız), 2015
Muhammed el-İsfahânî, *Kitâbü'l-Kavâidi'l-külliyye* (thk. Mansur Koçinkağ, Bilal Taşkın), 2017
İslâm İlim ve Düşünce Geleneğinde Kādî Beyzâvî (ed. Müstakim Arıcı), 2017
İslâm İlim ve Düşünce Geleneğinde Adudüddin el-Îcî (ed. Eşref Altaş), 2017
Osman Güman, *Nahiv ve Fıkıh Usulü İlişkisi*, 2017
Mirzazâde Mehmed Sâlim Efendi, *Selâmetü'l-insân fî muhâfazati'l-lisân* (thk. Murat Sula), 2018
Tilimsânî, *Meâni'l-esmâi'l-ilâhiyye* (thk. Orkhan Musakhanov), 2018
Tilimsânî, *Şerhu'l-Fâtiha ve ba'zı sûreti'l-Bakara* (thk. Orkhan Musakhanov), 2018
İSAM Tahkikli Neşir Kılavuzu (haz. Okan Kadir Yılmaz), 2018
Mustafa Bülent Dadaş, *Şeyh Bedreddin: Bir Osmanlı Fakihi*, 2018
Mehmed Fıkhî el-Aynî, *Risâle fî edebi'l-müftî* (thk. Osman Şahin), 2018
Kāsım b. Kutluboğa, *Kitâbü Takrîbi'l-garîb* (thk. Osman Keskiner), 2018
Safedî, *Keşfü'l-esrâr ve hetkü'l-estâr*, (thk. Bahattin Dartma), I-V, 2019
M. Taha Boyalık, *el-Keşşâf Literatürü: Zemahşerî'nin Tefsir Klasiğinin Etki Tarihi*, 2019
Şeyh Bedreddin, *et-Teshîl Şerhu Letâifi'l-işârât* (thk. M. Bülent Dadaş), I-III, 2019
Rükneddin es-Semerkandî, *Câmiu'l-usûl* (thk. İsmet Garibullah Şimşek), I-II, 2020
Mahmûd el-İsfahânî, *Tesdîdü'l-kavâid fî şerhi Tecrîdi'l-akāid*; Cürcânî, *Hâşiyetü't-Tecrîd; Cürcânî'nin minhüvâtı ve başka haşiye notlarıyla birlikte* (thk. E. Altaş, M.A. Koca, S. Günaydın, M. Yetim), I-III, 2020; I-II, 2021
İbn Nüceym, *Lübbü'l-usûl* (thk. Muhammed Fâl Seyyid eş-Şinkîtî), 2020
Sığnâkī, *et-Tesdîd fî şerhi't-Temhîd* (thk. Ali Tarık Ziyat Yılmaz), I-II, 2020
M. Âkif Aydın, *Osmanlı Hukuku: Devlet-i Aliyye'nin Temeli*, 2020
Mehmet Sami Baga, *İslam Felsefesinde Cisim Teorisi: Hikmetü'l-ayn Geleneği*, 2020
Güllü Yıldız, *Siyerde Şerh-Haşiye Geleneği: Moğultay b. Kılıç Örneği*, 2020
Mehmet Çiçek, *Müfessir Olarak Ali Kuşçu*, 2021
Alî Kuşçu, *Hâşiyetü Alî el-Kuşcî alâ Şerhi'l-Keşşâf li't-Teftâzânî* (thk. Mehmet Çiçek), 2021
İbn Âbidîn, *Şerhu Ukūdi resmi'l-müftî* (thk. Şenol Saylan), 2021
Şeyhülislâm Ebussuûd b. Muhammed el-İmâdî, *İrşâdü'l-akli's-selîm ilâ mezâya'l-Kitâbi'l-Kerîm* (thk. Mehmet Taha Boyalık, Ahmet Aytep, Ziyaüddin el-Kaliş, Muhammed İmâd el-Nabulsî), I-IX, 2021



İrşâdü'l-akli's-selîm

ilâ mezâya'l-Kitâbi'l-Kerîm